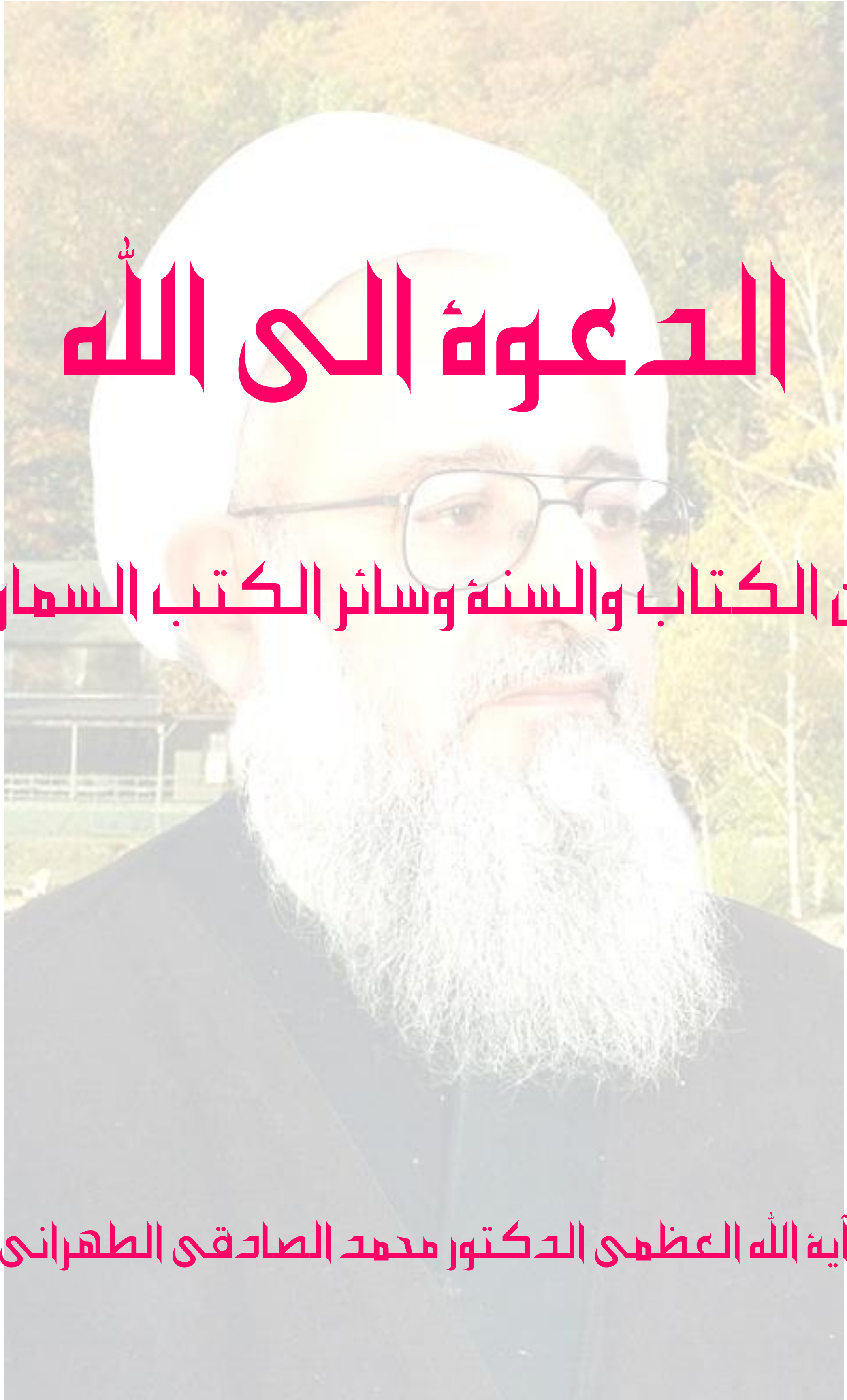

الدعوة الى الله

بين الكتاب والسنة وسائر الكتب السماوية

آية الله العظمى الدكتور محمد الصادقى الطهرانى

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٧

الأمربالمعروف و النهى عن المنكر (بين الكتاب والسنة وسائر الكتب السماوية) (ج ١٥)

المقدمة

بسم اللّٰه الرحمن الرحيم

الحمد للّٰهرب العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه واشرف بريته محمّد وعلى آله الطاهرين والسلام على عباد اللّٰه الصالحين لا سيّما الحافظين لحدود اللّٰه.

هذا الكتاب القيّم الذي بين يديك يحدّثك عن الحافظين لحدود اللّٰه في حدود ثلاث حفاظاً نفسياً ثم حفاظاً غيرياً في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ومن ثم الجهاد في سبيل اللّٰه وكلّ هذه الثلاث جهاد في سبيل اللّٰه؛ نجمع لها بين آيات بينات تدلّنا على هذه الجهادات الثلاث رفضاً لما يخالفها من الادلة فانّها أعلّة وعلى اللّٰه قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم اجمعين.

الدعوة الى اللّٰهالامر بالمعروف والنهي عن المنكر

«ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ» «١»

هنا القرآن يُرسي قواعد الدعوة الى سبيل ربك، بالحكمة والموعظة الحسنة، وحين تفشل الدعوة بصلابة المدعوين وصِلاتهم بأمثالهم فلكي لا يتغلبوا على الحق فيضلوا أصحابه فبقاعدة واحدة «وجادلهم بالتي هي أحسن» وهذه الثلاث هي أركان الحوار مع الناس:- المهتدين وسواهم- لا سواها.

فإنما الجدال مع المنازع المكابر حتي يحيد عن كيده ولا يميد في غيه وإضلاله، وأما الذين هم على الفطرة السليمة، المتحرين عن الحقيقة بدرجاته، أم غير المناوئين للحق مهما لم يتحرَّوا عنه، فهم تكفيهم الحكمة عقلية أوعلمية، أوالموعظة الحسنة، أم

---

(١)). سورة النحل ١٦: ١٢٥

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٨

تكفيهم هذه المجموعة الأربع، فلا يجادلون في الحق.

كل ذلك ل «إن ربك هواعلم بمن ضل عن سبيله» فلا يفيقه ويصده عن طيشه إلا جداله بالتي هي أحسن «وهو أعلم بالمهتدين» فلا تهديهم إلى سبيل ربك إلا الحكمة والموعظة الحسنة.

ثم الحسنة ليست صفة- فقط- للموعظة، حيث الحكمة أحوج إلى الحسنة من الموعظة التي هي بطبيعة الحال حسنة، ومن حيث الضابطة الأدبية اللام الداخلة على الحسنة موصولة وتتحمل صلتها الإفراد والتثنية والجمع حسب القرائن الموجودة، متصلة ومنفصلة، ثم الحسنة مع غض النظر عن الموصول صفة علي البدل أم جنس تشمل أكثر من واحدة، ولو خصت الموعظة بالحسنة لتقدمت بوصفها علي الحكمة، فكما الموعظة في الدعوة مشروطة بالحسنة، كذلك- وبأحرى- الحكمة، فإنها إن خلت عن الحسنة ما أثرت كما يرام، فلتكن الحكمة علي أية حال في زواياها الثلاث حسنة لينة، كما الموعظة.

وإنما يكتفي فيها بالحسنة ولا يكتفي في الجدال إلا التي هي أحسن، لأنهما ليستا إلا وجاه الذين يهتدون فتكفيهم الحسنة، وإن كان الحسنى فبأحرى، ولكن الجدال فهي وجاه المنازع المكابر، فلابد من كسره بالتي هي أحسن حيث لا تبقي له رمقاً وحيوية في الدعاية الباطلة.

فسبيل ربك هي السبيل القمة التي رباك ربك لها، فأنت تدعو العالمين إلى هذه السبيل التي تجتازها قبلهم إلى الحق المرام.

فليست هذه الدعوة إليك، فما أنت إلا رسولًا، ولا إلى ربك إذ لا يصل إليه أحد، ولا إلى سبيل رب العالمين فإن السبل إلى اللّه بعدد أنفاس الخلائق، وانما «الى سبيل ربك» السبيل التي رباك فيها ربك وهداك إليها وهي القمة التربوية الرسالية، فأنت السبيل إلى ربك «١» فلتكن الدعوة بالقرآن وبالسنة الرسالية لرسول القرآن «٢» لأنها

---

(١) المصدر في الكافي عن ابي عبد اللّه عليه السلام حديث طويل يقول فيه: فاخبر انه تبارك وتعالى من اوّل من دعا الى نفسه ودعى الى طاعته واتباع امره فبدء بنفسه وقال: واللّه يدعو الى دار السلام ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم» ثم ثنى برسوله فقال: ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن يعني بالقرآن «اقول: بالقرآن متعلق بالحكمة والموعظة الحسنة كما بالتي هي احسن

(٢) نور الثقلين ٣: ٩٥ عن تفسير القمي عن ابي عبد اللّه عليه السلام قال واللّه نحن السبيل الذي امركم اللّه باتباعه قوله «وجادلهم بالتي هي احسن» قال: بالقرآن

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٩

دعوة بالتي هي احسن. والحكمة هي هيئة خاصة من الحكم وهو الوصل بين منفصل، الذي فِصاله خلاف الحق والتربية الإلهية، والحكمة الحسنة هي التي تُحكِّم عرى فطرية أو عقلية أو علمية منفصمة، فترجعها إلى حالة حكمية خارجة عن أي‌تفسُّح وانضمام، وعند ذلك تتجلى الحقيقة كما هيه.

ومن حسنة الحكمة رعاية أحوال المدعوين وظروفهم حتى لا تثقل عليهم الحكمة فتبوء بالخسار والفصال أكثر مما في الحال، فعلى حسب القابليات تؤثر حكمة الفاعليات فتسود الدعوات، وإذا زادت أو نقصت نقضت، وإذا سادت إنتفضت، وليكن الداعية طبيباً دواراً بطبِّه يضع الدواء حيث الحاجة اليه، بعد معرفة الداء والدواء.

فمن الناس من تنقصه الحكمة العقلية فلا تفيده غيرها، أم تنقصه الحكمة العلمية فلا تفيده العقلية، وكما منهم من تحكَّمت حكمته كاملة عقلية وعلمية أما هيه، ولكن تنقصه الموعظة الحسنة، أم تحكَّمت عنده الموعظة ولكن تنقصه الحكمة.

فليكن الدّاعية بصيراً بمواضع الحاجة فيضع الدواء حيث الداء حتى تاتيه الشفاء.

فالحكمة الحسنة تأخذ بأزمة القلوب المهتدية فهي لها شعار، وقد تكفيها هدىً إذا دخلت شغافها، وقد لا تكفيها فهي- إذاً- بحاجة إلى دِثار الموعظة الحسنة التي تدخل القلوب برفق، وتتعمق المشاعر بلطف، دون أي‌زجر وتأنيب، ولا بفضح الأخطاء التي تحصل عن جهالة، فإن الموعظة الحسنة كثيراً ما تهدي القلوب الشاردة، وتؤلف النافرة المارِدة، فهي بأحرى أن تليِّن القلوب المهتدية التي لا تطمن

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٠

- فقط- بالحكمة الحسنة، لضعف العقلية أو العلمية أم صلابة الطوية.

فمن القلوب ما تحتاج إلى كلتا الحسنتين، لأنها خاوية عن الحكمة، خالية عن الموعظة، فقد تتقدم لها الحكمة الحسنة ثم الموعظة، أم تتقدم الموعظة الحسنة ثم الحكمة تربطها، حسب اختلاف القلوب المهتدية في حاجياتها الدعائية.

فاذا كانت الحكمة او الموعظة سيئة إنقلب إلى أضل مما كانت، وإذا كانت حسنى الموعظة والحكمة، فهي قمة الدعوة ولكنها ليست ضرورية، فبحَسَب الدعوة للمهتدين تكون الحكمة والموعظة الحسنة.

ثم إذا كان الحوار مع من ضل عن سبيل ربك، متعنتاً، ضد الحق، متفلتاً عنه، ملفتاً إلى الضلال والإضلال، فلا الحكمة الحسنة تنجيه، ولا الموعظة الحسنة تكفيه، هنا يأتي دور الجدال بالتي هي أحسن، لا السيء ولا الحسن، والجدال هي المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله من جدلت الحبْل اي أحكمت فتْله، فكأن المتجادلين يفتل كل واحد مجادله عن رأيه.

أم هي الصراع وإسقاط الإنسان صاحبه على الجَدالة وهي الأرض الصلبة.

ولا يسمح في الجدال على أية حال إلا إذا لزم الأمر، ولم تؤثر الحكمة والموعظة الحسنة الأثر المرام، ثم لا يسمح فيه إلَّا بالتي هي أحسن، وطبعاً إذا أثرت الحسنى، وإلا فحرباً حرباً: «ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن الا الذين ظلموا منهم».

فليطامن الداعية أمام من ضل من حماسه واندفاعة، فلا يتحامل عليه ولا يُسيَ إليه، بل ويُحسن كأحسن ما يُرام حتى يطمئَن إليه، ويشعر أن ليس هدفه القضاء عليه، فما هو ميدان مصارعةٍ يصرع كلٌّ خصيمه بمختلف الحيل، وإنما الهدف في الحوار كشف القناع عن الحق، سواءً أكان مع الداعية أو المدعو ف «إنااو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين».

فالنفس البشرية- ولا سيما الضالة المعتدية غير المهتدية- لها كبرياءها وعنادها،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١١

فهي لا تتنازل عما ترتئيه إلا برفق، كيلا تشعر في صراعه بهزيمة، فإنها- بطبيعة الحال- تعتبر التنازل عن الرأي تنازلًا عن هيبتها وحرمتها وكيانها، والجدال بالتي هي احسن تُطامن من هذه الكبرياء والحساسية المرهفة، وتُشعر المجادل أن حرمته مصونة، وقيمته كريمة محترمة وأن الداعي لا يقصد إلا كشف الحقيقة التي هي أحق منهما.

ولأقل تقدير فالجدال بالتي هي احسن تُطامن من طيش المدعو فتخمد نار دعوته الضالة، ودَلالَه أمام المهتدين، فيصد عن شره وضره، وإن لم ينصد هو عن ضلاله في نفسه.

فقد يحاور الداعية ضالًا صامداً معانداً، فيزيد في عناده وعدائه بما يستعمل من طرق سيئه في حواره، تجهيلًا له، وسباً لما يقدسه، وتهويناً لرأيه، وفي ذلك إماتة للحق وإحياء للباطل، وتحريض لأهله أن يكرسوا طاقاتهم وإمكانياتهم ضد الحق وأهله، وهذه جدال بالتي هي أسوء.

وقد يحاوره دون حُسن ولا سوء فهي جدال بالسوء، حيث لا تنفع وقد تضر، وهي لأقل تقدير تبقي الضال على ما كان، وذلك لغو وباطل من القول.

وقد يحاوره بحسن ليس ليصده عن الدعاية الباطلة، وانما تخفِّف عن طيشه ولا تجفف، فهي حسنة لا تكفي صداً عن ضره وشره.

فلتكن الجدال بالتي هي أحسن، فان تحقيق الحق وإزهاق الباطل واجبٌ حسب المسطاع، إذاً ف «جادلهم بالتي هي احسن».

وفي رجعة أخرى إلى الآية- لنرى مدى الحسنة في الحكمة والموعظة، والأحسن في الجدال- أحكام حكيمة في شرعة الدعوة والجدال، مسرودة في آيات الدعوة والأمر والنهي والجدال.

ومن حسن الحكمة أن يتصف بها الداعية، ولأقل تقدير قدر الدعوة، فليس لغير الحكيم أن يدعوا بالحكمة، كما ومن حسن الموعظة اتعاظ الداعية قبل الدعوة ولأقل

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٢

تقدير قدرها:»

«اتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون». «١» «يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله ان تقولوا ما لا تفعلون». «٢»

ومن الحسنى في الجدال أن يتذرع بالحق الجلي لإبطال الباطل أو تحقيق الحق، سواءٌ اكان حقاً واقعاً، أم إذا يرفضه محاوره ويفرض ما يعتقده، أن يتبنى اعتقاده بصيغة التردد، إن كان ما تقوله حقاً فليكن ما أقوله حقاً.

فتبنِّي الباطل لإبطال باطل آخر أو تحقيق حق، هو من الإغراء بالجهل، سلوكاً لسبيل وعرة شاغرة، وهو من الجدال السيء، وأسوء منه استعمال الخناء والسب في الجدال إلى جانب تبني الباطل لإبطال باطل آخر او إحقاق حق.

وتبنِّي حق يوجد أحق منه وأوضح حجة مع لين كلام، هو من الجدال الحسن، ولا يكتفى به في اجتثاث جذور الهجمات الباطلة وهمجاتها.

ثم تبنِّي أحق الحق بأوضحه حجة، وألينه محجَّة والطفه بياناً وتبياناً، مع اتصاف المجادل بما يحتج به عقَائديا وعلمياً وعملياً هو أبلج المناهج في الجدال، وهي المقصود بالتي هي أحسن، وحين لا يستطيع المجادل أن يجادل بالتي هي أحسن فليتعلم، أو ياتِ بمن يَعْلَم، حيث «التي هي احسن» مطلق مطبَق دون اختصاص بما يستطيعه المجادل، اللهم إلا في عسر او حرج فلا عسر- إذاً- ولا حرج، أن يكتفي بما يستطيعه، إلا إذا لم تؤثر جداله الأحسن الأثر المرام، أو انقلب ضدَّه، فهنالك السكوت، حيث القصد من الاحسن سدّ الثغرات وخفق النعرات والزمجرات ضد الحق. فحين لا تفيد الحكمة والموعظة الحسنة فهنا دور الجدال بالتي هي أحسن صداً لثغرة الباطل وسعاره، بمضلِّل شعاره، لأن الداعية حين لا يستطيع بحكمته وموعظته أن يهدي من ضل عن سبيل الله، فليحاول بجداله سداً عن تضليله، ليعرف

---

(١)). ٢: ٤٤

(٢)). ٤٠: ٣٥

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٣

كليله وعليله، ولا يحسب له قوة قاهرة على الحق واهله.

ثم إذا لم تفد جداله بالحسنى، وبدل الإهتداء أو السكوت يعتدي على أهل الحق، فهو داخل في الذين ظُلموا: «ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن الا الذين ظلموا».

ظلماً شخصياً على المجادل بالحسنى، أم ظلماً جماعياً على المسلمين، فهنالك دور الضربة القاسية القاضية، نفياً لمادة الفساد قدر الضرورة ولحد القتال إذا انحصر بها العلاج وانحسر المضلل عن الإضلال واللجاج.

«وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ا ١٢٦ اصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ» «١»

فمعاقبة المجادل الظالم، التي لم تنفعه بالحسنى، فضلًا عن الحكمة والموعظة الحسنة، إنها- كضابطة مطردة- معاقَبته بالمثل، فهي مسموحة ككل، إلا اذا كان في تركها خسار وبوار متواصل لا يصده إلا معاقبة فواجب، أم غير مسموحة لو أن معاقبته تزيد في طيشه بضره وشره، والصبر أمامه له منعة- ولااقل- من تطاوله، أم راجحة وهي في غير الواجب والمحرم «ولئن صبرتم لهو خير للصابرين» والصبر على أية حال أم في الأكثرية المطلقة هو مفتاح الفرج فراجح «لهو خير للصابرين».

فهذه طرق اربع يتطرقها الداعية في سبيل الدعوة وصد الضلالة، قد تجتمع في بعض المدعوين، وقد لاتجتمع، فمن الناس من تكفيه الحكمة، او الموعظة الحسنة، أو الجدال بالتي هي احسن، أو المعاقبة، أو الأربع كلها، أو اثنتان منها، ام ثلاث، وذلك حسب مقتضيات الظروف والمتطلبات في سياسة الدعوة لكل داعية، فالأقسام تصبح اربعة عشر قسماً، فإنها أربع وحدات وجمع الاربع، واربع ثلاثيات وخمسة اثنينات.

---

(١) سورة النحل ١٦: ١٢٧۶

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١۴

«اصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ» «١»

«إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ» «٢»

«واصبر» على كل حال، أيها الداعية في دعوتك بالحكمة والموعظة الحسنة وجدالك بالتي هي احسن، وفي معاقبتك لما عوقبت، تفكراً في كل من هذه الأربع، وتنقّلًا عن كل مرتبة في كل منها الى أخرى، كما من كلٍّ الى الآخر، صبراً في كل سلب وايجاب، في كل قالٍ وحال وفعال «وما صبرك» في هذه العقبات، والدوائر المتربصة بك «إلا بالله» بحول الله وقوته وبغاية الحفاظ على شرعة الله والدفاع عنها، وبامر الله «فاصبر كما صبر اولوا العزم عن الرسل».

«ولا تك في ضيق مما يمكرون» خائفاً عن مكرهم «إن اللَّه مع الذين اتقوا» المحاظيرَ، واتقوه في سبيل الدعوة إليه «والذين هم محسنون» يصبرون فيما يحق لهم المعاقبة بمثل ما عوقبوا.

فالصبر على الظلم، ألا يتخاذل المظلوم أمام الظالم، ولا يغيّر من اهدافه القدسية، ولا يدفعه الدفاع عن نفسه الى اعتداء اكثر مما اعتدي عليه، والى اصل الدفاع ايضاً علَّ الظالم يندم عما فعل فيُصلح ما افسده، ام لا يزيد ظلماً، ام يقف عن ظلمه، فكل ذلك صبر وتقوى للمظلوم وجاه طغوى الظالم، إلا إذا أنتج الصبر تطاول الظالم عليه وعلى الآخرين.

---

(١)). سورة النحل ١۶: ١٢٧

(٢)). سورة النحل ١۶: ١٢٨

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٥

تمكين وامكانية

للدعوة الى الله والامر بالمعروف والنهى عن المنكر

الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ «١»

وترى ما هو المعني «مكّناهم في الأرض» حيث هو شرط الوجوب أو السماح لهذه الفروع الهامة من الشرائع كلها: «إقام الصلاة- إيتاء الزكاة- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»؟

إن تطبيق هذه الفرائض الثلاث- كسائر الفرائض والواجبات- مشروط بالإمكانية والتمكن.

وكما أنها مرحليات كذلك الإمكانيات طَبَقاً عن طَبَق، فلا تعني «مكناهم فيالأرض» فقط تمكين السلطة الزمينة والروحية المحَلِّقة على البلد الذي يعيشه المتمكنون فيه، فلا يجب- إذاً- إقام الصلاة وايتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على من ليست لهم تلك السلطة! فنظراً إلى الواقع المستمر في التاريخ، أن السلطات ليست إلا بأيدى النمردات والفرعنات تسقط هذه الواجبات الأصلية عن المؤمنين العائشين تحت وطأة هذه السلطات!

وإنما تعني أن هذه الفرائض تقدَّر في تطبيقاتها المرحلية بقدر الإمكانيات، فإذا كان إمكانية لمرحلة عليا لم تجب على من لا يتمكنها، فإنما على كلٍّ كما يستطع «وما جعل عليكم في الدين من حرج».

فهنالك مُكنة عامة تعم كافة المكلفين منذ بداية الرسالات إلى يوم الدين: «ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلًا ما تشكرون» «٢»

---

(١)). سورة الحج ٢٢: ٤١

(٢)). سورة الأعراف ٧: ١٠

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١۶

ف «إن» بالنسبة لذلك التمكين وصلية لا شرطية حيث الشرط لكل من يعيش على هذه الأرض حاضر ماثل أمامهم، مهما اختلفت امكانياتهم في تطبيق واجباتهم:

«ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه» «١»

ثم مُكنة خاصة كما كان لذي القرنين «قال ما مكنّي فيه ربي خير فأعينوني بقوة ..» «٢»

حيث مُكِّن في مطلع الشمس ومغربها، ففرضه- إذاً- في مرحلة عليا قدر الإمكانية والمكنة «إنا مكناه في الأرض وآتيناه من كل شيءٍ سبباً» «٣»

وكما حصل ليوسف: «وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوء منهاحيث يشاء» «۴» ومثلهما التمكين الموعود في الأرض للمستضعفين المؤمنين شرطَ ان يجنِّدوا طاقاتهم وإمكانياتهم للحفاظ على الايمان: «ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين. ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون» «۵»

وذلك الوعد مستمر التحقيق للذين يطبقون شروطه في انفسهم، والى يوم القائم المهدي عليه السلام حيث يمكّن اللّه له وللمؤمنين معه في الأرض كلها «۶» «وعد اللّه الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين مِن قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا

---

(١)). سورة الأحقاف ۴۶: ٢۶

(٢)). سورة الكهف ١٨: ٩۵

(٣)). سورة الكهف ١٨: ٨٤

(٤) سورة يوسف ١٢: ٥٦

(٥) سورة القصص ٢٨: ٦

(٦) نور الثقلين ٣: ٥٠٦ في تفسير القمي عن ابي جعفر عليه السلام في آية التمكين، فهذه لآل محمد الىآخر الآية والمهدي واصحابه يملِّكهم اللَّه مشارق الأرض ومغاربها ويظهر الدين ويميت اللَّه به وباصحابه البدع والباطل كما امات الشقاة الحق حتى لا يرى اين الظلم ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٧

يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون» «١»

«ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون» «٢»

ثم وإقام الصلاة حقها له مراتب ودرجات حسب الإمكانيات، فإقامها كما تنهى عن الفحشاء والمنكر لفاعلها ومجتمعه الذي يعيشه هي القمة المعنية منها، وايتاء الزكاة كما تكفي لمصلحة الدولة الإسلامية، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحيث يحلّقان على كل معروف متروك وكل منكر مفعول، هذه المرحلة من تلك الفرائض القمة تقتضي الإمكانية القمة بتمكين مكين في الأرض كلها، ثم وما دونها، وكما أن هذه الثلاث مفروضة، وكما اللَّه ينصر من ينصره في الدفاع عن حوزته، كذلك ينصره- وباحرى- في خلق جوٍّ فيه يتمكنون من ذلك الدفاع والتطبيق لشرعته «وللَّه عاقبة الأمور»- «والعاقبة للمتقين» دون المتخاذلين البطالين والتنابلة المهمِلين.

اجل- إنه النصر القائم على أسبابه ومقتضياته، المشروط بتكاليفه وأعباءه، والأمر بعد ذلك للَّه «وللَّه عاقبة الامور».

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ «٣»

وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ «٤»

وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ «٥»

«وان يكذبوك» بسردٍ من نظائرهم من المكذبين السبعة كالسبعة من ابواب الجحيم المفتَّحة طول التاريخ الرسالي على المرسلين، ذلك تسلية لخاطر الرسول الأقدس صلى الله عليه و آله، فهؤلآء هم أشد المكذبين للمرسلين، إلا أن طبيعة الرسالة الإلهية في

---

(١)). سورة النّور ٢٤: ٥٥

(٢)). سورة الأنبيآء ٢١: ١٠٥

(٣)). سورة الحج ٢٢: ٤٢

(٤)). سورة الحج ٢٢: ٤٣

(٥)). سورة الحج ٢٢: ٤٤

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٨

هذه الأدني أن تجتاز هذه المعاريض، وهي سليمة لا تزداد إلا تشعشعاً وتلاءلوءً، فلست أنت بدعاً من الرسل في سنة التكذيب فانها مطرودة عَبْرَ الرسالات كلها.

ثم «ثم اخذتهم» تنديد شديد بهؤلآء الاغباش الانكاد، وقد كانوا من سبقوهم أشد منهم وأقوى، أخذٌ شديد بعد إملاءٍ وإمهالٍ مديد، وأمَدُّهم قوم نوح ثم فرعون ثم إخوانهم «إن اخذ ربك لشديد».

ولماذا يفرد موسى في جملة خاصة بتكذيب مجهول دون «قوم موسى»؟ لأنه كذبه القبط الفرعوني كأصل، مهما كذبه قومه أحياناً عن جهالة وغباوة دون فرعنة وعناد، كذبه هؤلآء واولآء رغم آياته البينات التي هي اكثر من آيات الرسل الذين قبله! وضخامة الأحداث التي صاحبتها، فعليك بالتصبُّر يا حامل الرسالة الأخيرة لتجتاز كل العقبات، وتتحمل كل العقوبات، فإنك موعود بالنصر كمن سبقوك من حملة الرسالات، والمكذبون موعود بالأخذ النكير «ثم أخذتهم فكيف كان نكير»؟

نكراني عليهم عملياً في هذه الأدنى وهي ليست دار جزاءٍ، فويلاهم إذاً من الأخرى، وإنه هنا نكير الطوفان والغرق والتدمير، والخسف والهلاك والزلازل والعواصف والترويع ما يعجز عنه التعبير.

فتلك مصارع الغابرين المذكورين في صحائف التاريخ أمام الحاضرين والآتين، إنذاراً للمكذبين، وتبشيراً للمؤمنين، ولهم نظائر دونهم او امثالهم.

عليكم انفسكم ثم انفس الآخرين

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَايَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» «١» ترى هكذا يؤمر الداعية الرسالية والرساليون المؤمنون به؟ وهي «عذراً أو نذراً»؟ لا يُسمح للداعية ترك الدعوة مهما كان المدعوون صَلتين هكذا وصلبين! وقد سجن ذا النون إذ ذهب مغاضباً تاركاً

---

(١)). سورةالمائدة ٥: ١٠٥

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٩

للدعوة الرسالية وهم مصرون على الضلال!.

فعلى الداعية مواصلة الدعوة «عذراً أو نذراً» ولا سيما رسل اللّه، فمهما كان «سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون» ولكن ليس سواء عليك، فإن في استمرار الدعوة الرسالية قطع لأعذار هؤلآء الذين قد يعتذرون بانقطاع الدعوة، وفسحٌ لمجال الهدى للذين قد يؤثر في هداهم تواتر الدعوة!.

هنا يخاطَب «الذين آمنوا» لا الرسول، فإن رسالته غير رسالتهم إذ هي أعلى وأنبل، ثم «عليكم أنفسكم» فرض أصلي لا حِوَل عنه على أية حال، ثم إذا أثرات دعوتكم فيمن سواكم فواقعٌ لفرض آخر، وإذا لم تؤثر فواقع لمسؤولية أخرى ف «لا يضركم من ضل» بعدئذً «إذا اهتديتم» إلى هدي أنفسكم كواقع وإلى هدي من سواكم كبلا غ حين لا يهتدون.

فلا تعني الآية- إذاً- سلب المسؤولية الدعائية المثبتة على عواتق المؤمنين، الثابتة بتواتر الآيات والروايات التي تحمل فرض الدعوة والدعاية والتوجيه والأمر والنهي، وإنما تعني- فيما تعني- أن واقع الضرر اللّازب هو ألّا تقوا أنفسكم، وأما وقاية الآخرين كواقع فليست هي من مسؤوليات الداعية حتى الرسول ف «إنك لا تهدي من أجببت ولكن اللّه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم» وإنما المسؤولية الثانية هي دعوة الآخرين وهي من ضمن «عليكم أنفسكم» حيث الدعوة هي من الواجبات على المؤمنين بشروطها.

إذاً فالمحور الأصيل الذي ليس عنه بديل «عليكم أنفسكم» ثم إذا حققتم حق الهدى في أنفسكم ومن ثم دعوتم الآخرين فلم تؤثر فيهم، إذاً «لا يضركم من ضل إذا اهتديتم».

ذلك، وحتى إذا اهتديتم في أنفسكم وتركتم الهداية للآخرين فأيضاً «لا يضركم من ضل إذا اهتديتم» حيث الأصل هو «عليكم أنفسكم» ومن ثم الوصل أن تهدوا الضالين كما تستطيعون، فهذا الإحتمال يحتمل سلب الضرر نسبياً.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٠

ومن الخطِر الخطِر جداً التمسك بمثل هذه الآية لترك المسؤولية الدعائية وهي نازلة في الظروف التي لا تنفع الدعوة- أمّاهيه- وهكذا يجيب الرسول صلى الله عليه و آله من سأله عنها بقوله: «بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شُحاً مطاعاً وهدى متبعاً ودنياً مؤثَرة وإعجاب كل ذي رأي برأية فعليك بخاصة نفسك ودع عنك أمر العوام إن من وراءكم أيام الصبر، الصابر فيهن مثل القابض على الجمر، للعامل فيهن أجر خمسين رجلًا يعملون مثل عملكم» «١» والإنعزال هنا ليس إلّا للحفاظ على الأهم، تركاً للمهم الذي لا يؤثر أم ويضر بالأهم.

ذلك، ثم خطاب «الذين آمنوا» يحوّل «من ضل» إلى غيرهم، فلا صلة لهذه الآية- إذاً- بترك مسؤولية الأمر والنهي فيما بين المؤمنين أنفسهم، الثابتة بضرورة الشرعة الربانية ككل، وعلى حد قول الرسول صلى الله عليه و آله «أين ذهبتم إنما هي لا يضركم من ضل من الكفار إذا اهتديتم» «٢»: ضراً منهم إليكم في إضلال بكل حقوله، ما حققتم مسؤوليةَ «عليكم أنفسكم».

فالمفروض على الذين آمنوا ككل فرضاً على أعيانهم «عليكم أنفسكم» ثم لا

---

(١)). الدر المنثور ١: ٣٣٩، اخرج الترمذي وصححه وابن ماجه وابن جرير والبغوي في معجمهوابن المنذر وابن ابي حاتم والطبراني وأبوا الشيخ وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب عن ابي امية الشعباني قال اتيت ابا ثعلبة الخشني فقلت له: كيف تصنع في هذه الآية؟ قال وقوله: «يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ...»

قال: واللّه سألت عنها خبيراً سألت عنها رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: بل ائتمروا ..

(٢)). المصدر اخرج احمد وابن ابي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابي عامر الأشعري انه كانفيهم شيءٌ فاحتبس على رسول اللّه صلى الله عليه و آله ثم أتاه فقاله: ما حبسك؟ قال: يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله قرأت هذه الآية قال فقال له النبى صلى الله عليه و آله: اين ذهبتم، وفيه اخرج ابن مردويه عن محمد بن عبد اللّه التيمي عن ابي بكر الصديق سمعت رسول اللّه صلى الله عليه و آله يقول: ما ترك قوم الجهاد في سبيل اللّه إلّا ضربهم اللّه بذل ولا أقر قوم المنكر بين اظهرهم إلّا عمهم اللّه بعقاب ما بينكم وبين ان يعمكم اللّه بعقاب من عنده إلّا ان تألوا هذه الآية على غير امر بمعروف ولا نهي عن منكر «يا أيها الذين آمنوا عليكم انفسكم ..» وفيه اخرج ابن مردويه عن ابي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال: خطب ابو بكر الناس فكان في خطبته قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: يا أيها الناس لا تتكلموا على هذه الآية «... عليكم انفسكم ..» إن الذاعر ليكون في الحي فلا يمنعوه فيعمهم اللّه بعقاب

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢١

تفرض الدعوة والأمر والنهي إلّا فرض كفاية على أمة فيهم الكفاية عَدَداً وعُدَداً وهم العاملون بالمعروف الذي به يأمرون والتاركون المنكر الذي عنه ينهون، على شروط مسرودة في الكتاب والسنة.

فلا تحمل هذه الآية- إلّا فرض الأعيان لقبيل الإيمان بينهم أنفسهم، ثم «لا يضركم من ضل إذا اهتديتم» أي لا يضركم إلّا ضلالكم، وأما ضلال غيركم فليس ليضركم، اللهم إلّا إذا تركتم واجب الدعوة إلى الهدى بشروطها، فهناك أيضاً لا يضركم ضلالهم أنفسهم، بل

المضر هو ترك واجب الدعوة التي هي ايضاً داخلة في نطاق «عليكم أنفسكم» حيث تقرض واجبات الايمان ككل، شخصياً وجماعياً، ومن الثاني واجب الدعوة الكفائية.

ذلك، ف «عليكم أنفسكم» كتأويل أوّل تعني بالنسبة للضالين المؤمنين إذا لا تؤثر فيهم الدعوة، وهي كتأويل ثان بين المؤمنين أنفسهم تعني ظروفاً خاصة لا يجب أو لا يسمح فيها الأمر والنهي بين المؤمنين أنفسهم حيث لا يجدى نفعاً أو يستجر ضراً هو أضر من ضلالهم «١».

ف «عليكم أنفسكم» في خطاب الإيمان تجمع مجامع شروط الإيمان ومنها الدعوة والأمر والنهي قدر المستطاع ثم «لا يضركم من ضل إذا اهتديتم» إلى شروطات الايمان.

ذلك وفي نظرة أخرى إلى الآية نرى «عليكم أنفسكم» تقرض على المؤمنين الحفاظ على أنفسهم فرضاً على الأعيان، فالمقصر الأوّل في كافة الفلتات عن قضية الإيمان هو المكلف نفسه، ومن ثم هؤلآء الذين يضللونهم عن صراط الإيمان، كما وهم مقصرون إذا تهاونوا عن الدعوة المفروضة عليهم بكل مراحلها.

ثم «لا يضركم» لها أبعاد ثلاثة أبعدها أنه «لا يضركم» ضرراً أصيلًا «من ضل»

---

(١)). الدر المنثور ٢: ٣٤- اخرج ابن مردويه عن ابي سعيد الخدري قال: ذكرت هذه الآية عند رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقال نبي اللّه: لم يجيء تأويلها لا يجيء تأويلها حتى يهبط عيسى بن مريم عليهما السلام

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٢

وأنتم تاركون واجب دعوتهم وأمرهم ونهيهم، ثم البُعدان المذكوران من ذي قبل هما المشتركان في عذر المؤمن في ترك الدعوة «إلى اللّه مرجعكم جميعاً» مؤمنين وضالين «فينبئكم بما كنتم تعلمون» من خيِّر وشرير، وإنباءً عن غفلة وغفوة مقصرة، وإنباءً عن طاعة قد لا يرجي الفلاح بها، ثم إنباءً بحصائل الأعمال حيث تجزون ما كنتم تعلمون.

وهنا بعدٌ رابع ل «لا يضركم» هو إضرار الإضلال، فما دام المؤمن حفيفاً على إيمانه بما عنده من طاقات وإمكانيات فلا يخاف «من ضل» أن يضله عن سواء السبيل، وهذا من أظهر الأبعاد بين كل المحتملات الثلاث سابقة ولا حقه حيث «لا يضركم» إخباراً وإنشاءً تنفي ضرّهم أنفسهم بما يختارون ميّسرين في الضرر لا مسيَّرين، فحين لا تطبقون مسؤولية «عليكم أنفسكم» كما يجب كفاحاً ضد عراقيلهم، فهم بإمكانهم أن يضروكم إضلالًا وسواه.

فحين يخاطَب الذين آمنوا ب «عليكم أنفسكم» ليس ليُعنى منهم أن يُؤمنوا كأصل، بل هو إستحكام عرى الإيمان لحد لا ينضرُّ المؤمن بما يضره الكافرون، وهذه- إذاً- نظيرة: «إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى. فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع سواه فتردى» «١» حيث يعني النهي عن الصدِّ الأمرَ باستحكام العقيدة والعملية لصالح يوم الحساب لحد لا يستطيع الكافرون به أن يصدوك عن الساعة عقيدياً أو عملياً.

وهكذا يؤمر المؤمنون بإحكام عرى الإيمان في: «عليكم أنفسكم» أن يصبحوا سداً حصيناً مكيناً أميناً لا تضره- على أشده- أية محاولة كافرة، فإنهم «أشداه على الكفار رحماء بينهم» حيث تعني «رحماء بينهم» تعاملهم في كافة الرحمات، لكي يصبحوا أشداء على الكفار في كافة العرقلات.

إذاً «لا يضركم» تعني كأول محتمل وأقواه ضرُّهم أنفسهُم بما يختارون ضد

(١)). سورة طه ٢٠: ١٦

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٣

المؤمنين، لا الضر الموجه إليهم عقاباً من الله فإنه هو ضره عدلًا وليس ضرهم عداءً!.

ذلك، فأقوى المحتملات هو تحقيق «عليكم أنفسكم» لحدٍ «لا يضركم من ضل إذا اهتديتم»: ذلك الإهتداء الصارم الذي يصد عنكم كل إعتداء عارم ممن ضل، حيث الضالون الصامدون في ضلالهم يحاولون على طول الخط أن يضروكم كما يستطيعون. «١»

ف «عليكم أنفسكم» علمياً وعقيدياً وخُلُقياً وعملياً وسياسياً واقتصادياً وحربياً، وفي كل ما تتطلبه شروطات صامد الإيمان فردياً وجماعياً، إعداداً كاملًا شاملًا يضعف أمامه العدو أياً كان، وحينئذٍ «لن يضروكم إلَّا أذى وإن يقاتلوكم الأدبار يولوكم الأدبار وانتم الأعلون إن كنتم مؤمنين» «٢» «ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين» «٣» وفي جملة واحدة: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو اللَّه وعدوكم» «٤»

هذا، ثم سائر الضرر ممن ضل، المسيَّر منهم غير الميسَّر لهم، كوزر ضلالهم، إنه المحتمل على هامش ذلك الضر الميسَّر لهم، و «لا يضركم» يجمع الإنشاء إلى الإخبار، إنشاءً بواجب الإستعداد لحد زوال الضرر، واخباراً بزواله قدر الإستعداد، «وأن ليس للإنسان إلَّا ما سعى».

إذاً فالضرر المنفي في «لا يضركم» مهما كان ضرراً دنيوياً أو أخروياً فهو ضرر من الضالين أنفسهم كأصيل، دون ضرر العذاب من اللَّه تقصيراً في دعوتهم إلى اللَّه من أهل اللَّه، فانه ليس ضرراً منهم، مهما كان ضرراً من اللَّه بهم لمكان التقصير في حقهم فتزر وازرة مثل وزرهم ...

فالمحور الأصيل بين محتملات الآية السبع ضررهم بما يختارونه وجاه

(١)). وهكذا يعني ما يرى «حب علي حسنة لا يضر معها سيئة» أي أن حبه يدفع عن السيئة

(٢)). سورة آل عمران ٣: ١١١

(٣)). سورة آل عمران ٣: ١٣٩

(٤)). سورة الأنفال ٨: ٦٠

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٤

المؤمنين، وليست سلبية ذلك الضرر إلَّا بإيجابية «عليكم انفسكم» بعد الإيمان، وبقدر تلك الإيجابية.

فمن المفروض على الذين آمنوا أن يصنعوا أنفسهم بشروطات الايمان بقدر سلبية الضرر ممن ضل، فكلما تحقق بُعدٌ من «عليكم أنفسكم» تحقق بُعدٌ من «لا يضركم من ضل» في نفس البعد وبقدره، وهنا يبهر قول الرسول صلى الله عليه و آله أمام المنجرفين في تفسير هذه الآية: «أين ذهبتم إنما هي لا يضركم من ضل من الكفار إذا اهتديتم».

وقد تعني «عليكم أنفسكم» للذين آمنوا- كأصل- ثنائية المسؤولية الوقائية: أن يقي كلٌّ نفسه لحدٍ «لا يضركم من ضل إذا اهتديتم» ثم يقي المجاهيل منهم الذين لا يستطيعون أن يقوا هكذا أنفسهم، وهذه المسؤولية الثانية هي متقدمة على مسؤولية الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر، إذا هي متأخرة عن مسؤولية التعليم وكما تتقدم في آيتها عليها: «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر». «١»

صحيح أن دعوة الكافرين مفروضة على المؤمنين، ولكنها متأخرة عن مسؤوليتهم تجاة أنفسهم، إذاً فالمسؤوليات الإيمانية تترتب كالتالية: أن تصنع نفسك بحيث لا يضرك من ضل إذا اهتديت، ثم أن تصنع سائر المؤمنين، ومن ثَمَّ أن تأمرهم بالمعروف المتروك وتنهاهم عن المنكر المفعول، ومن ثَمَّ تأخذ في دعوة الكافرين مهما كانت بضمن إصلاح المؤمنين، ولكنها كهامش على التواصي بالحق والتواصي بالصبر بين المؤمنين أنفسهم.

وبصيغة أخرى واجب غير المؤمن هو الإيمان أوّلًا ثم العمل بقضايا الإيمان ومن ثم دعوة الآخرين إلى الايمان وقضاياه، وفي حقل الإيمان الأصل هو نفسه تقبلًا ودعوة، ثم العلم بواجبات الإيمان نفسياً وتعلماً ومن ثم العمل بها نفسياً ودعوة.

وبعدٌ خامس أنكم إذا طبقتم شرائط الإيمان فلستم تعاقَبون بضلال الآخرين

---

(١)). سورة آل عمران ٣: ١٠٤

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٥

حيث لا تزر وازرة وزر أخرى: «تلك أمة قد خلت لها ما كسب ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون» «١»

فعلى المؤمن الإشتغال بصناعة نفسه وخاصته وحفاظتها كما فرضت عليه، ثم لا يهزهزه الهزاهز، ولا يزيله القواصف أو بحركة العواصف، فلا يزول الحق عن مقره مهما قل أهله بما يحول الباطل في مَقراته وإن كثر أهله ف «لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا اللّه يا أولي الألباب لعلكم تفلحون» «٢»

وهنا «لا يضركم» كما هي إخبار كذلك هي إنشاءٌ بصيغة الإخبار، فلا يغرك تقلب الذين كفروا في البلاد ولا يضرك فتتقلب على عقبيك خوفة عن العزلة والخطفة كما: «قالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا» «٣»

وبعدٌ سادس هو في سياق الإنشاء أن لا تشتغلوا بمن ضل تغافلًا عن أنفسكم، فعساكم تنحازون إليهم يسيراً ثم كثيراً بغية تحويلهم عن الضلال وهم يحاولون المعاكسة، فقد يتغلبون عليكم في صراع الحق والباطل، فإهلاك النفس في سبيل إنقاذ الغير هو في نفسه ضلال وموت، وكما نرى عديد الموت والضلال أنهما سيان في القرآن، فكما الضالون يذكرون مرات كذلك الموتى، لمكان المساواة بين الضلال والموت!.

فكما لا يجوز التعرض للموت لإنجاء الآخرين، كذلك التعرض للضلال لهدي الآخرين، فالدعوة إلى اللّه بين محبورة ومحظورة، فالمحبورة هي المؤثرة غير المتأثرة،- أم- لأقل تقدير- لا مؤثرة ولا متأثرة، والمحظورة هي المتأثرة أو المؤثرة المتأثرة، فتترك الدعوة في المحظورة حيث المسؤولية الكبرى فيها «عليكم أنفسكم» ثم «لا يضركم من ضل إذا اهتديتم» حين تنضرُّون بدعوتهم.

---

(١)). سورة البقرة ٢: ١٣٤

(٢)). سورة المائدة ٥: ١٠٠

(٣)). سورة القصص ٢٨: ٥٧

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٦

ذلك، وعلى أية حال فلا مساس لهذه الآية بالآيات الآمرة بالدعوة والأمر والنهي فانها لا تعني ما تعنيه هذه الآيات، على أن الدعوة بمختلف شؤونها الصالحة ليست مما تقبل النسخ اللهم إلَّا أن تُنسخٍ شرعة اللّٰه ككل، حيث الدعوة هي لزام الشرعة نشراً وتطبيقاً وتحليفاً على كافة المكلفين في كافة الشؤون الحيوية: «قل هذه سبيلي أدعوا إلى اللّٰه على بصيرة أنا ومن اتبعني» «١» و «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر» «٢» وكيف تنسخ السبيل الرسولية والرسالية وسند خيرية الأمة الآمرة الناهية.

ثم وهنا سابع حيث تعني «أنفسكم» كلًّا نفسه، ثم ذويه الذين هم كنفسه، ثم سائر المؤمنين فانهم إخوة أنفسهم كنفس واحدة، فواجب الوقاية والحفاظ هنا يعم ذلك المثلث مهما كانت الأضلاع متدرجة، من نفسك إلى ذويك وإلى سائر المؤمنين.

ليس الا من الضرر من شروط الأمر والنهيالا في الا هم منهما

يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنْ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ «٣»

أوامر أربعة تتبنّى شخصية المؤمن كشخص أولًا وكداعية ثانياً، وصموداً في كلا البعدين، ف «اقم الصلاة» هي في الحق لكافة الصلات المعرفية الإيمانية والعملية باللّٰه، ثم «وأمر بالمعروف» تشمل الدعوة إلى كافة الخيرات الفردية والجماعية، كما «وانه عن المنكر» تعم المنكرات.

ولأن إقام الصلاة بحقها، ثم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تحول دونها

---

(١)). سورة يوسف ١٢: ١٠٨

(٢)). سورة آل عمران ٣: ١١٠

(٣)). سورة لقمان ٣١: ١٧

عراقيل وصدمات، لذلك «واصبر على ما أصابك» في صالح الإيمان وعمله، دون تزعزع عن قواعده، ولا تَلَكُّعٍ وانكسار في سواعده «إن ذلك» التكليف الصارم والصبر على تحقيقه «من عزم الأمور».

وإذا كان الصبر على المصاب في فرائض الايمان من عزم الأمور، فليس الأمن عن الضرر من شروطات الجواز أو الوجوب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلّا إذا كان الضرر فيه أهم من الضرر في تركه فمرفوض، أم يتكافآن فغير مفروض.

فالضابطة العامة في هذين الفرضين فرض الصبر على ما أصابك إلّا فيما يستثنى بأهمية أم مكافئة، وكما الدفاع والقتال في سبيل اللّٰه لا يشترط في وجوبهما الأمن عن الضرر كضابطة، كذلك وبأحرى، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما اقل تعرضاً للضرر. «١»

وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللّٰهَ لَايُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ «٢»

من مظاهر الإختيال والفخر تصعير الخد للناس، والمشي في الأرض مرحاً، وتصعير الخد للناس هو إمالة العنق عن النظر إليهم استكباراً، كأنهم لا شيء وهو فقط كل شيء، فإن الصعر داءٌ يصيب الابل فيلوي أعناقها، والمرح هو كثرة الفرح بمال او منال: «ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن الجبال طولًا» «٣»

---

(١)). نور الثقلين ۴: ٢٠٥ عن الخصال فيما علم امير المؤمنين عليه السلام اصحابه من الأربعمأة باب مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر واصبروا على ما اصابكم، وفيه عن اصول الكافي عن ابي جعفر عليه السلام قال: الجنة محفوفة بالمكاره والصبر فمن صبرعلى

المكاره في الدنيا دخل الجنة وجهنم محفوفة باللذات والشهوات فمن اعطى نفسه لذتها وشهوتها دخل النار» وفيه عن المجمع عن علي عليه السلام «واصبر على ما اصابك من المشقة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»

(٢)). سورة لقمان ٣١: ١٨

(٣)). سورة الأسرى ١٧: ٣٧.

المصدر في المجمع عن ابي عبد اللّه عليه السلام في الآية لا تمل وجهك من الناس بكل ولا تعرض عمن يكلمك استخفافاً به

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٨

وهذا المشي الرديُ هو المشي في تخايل ونفخة وقلة مبالات بالناس، وقد يعني تصعير الخد للناس لَيَّ العنق لهم تذللًا واستكانة، أم هما معنيّان حيث يحملمها تصعير الخد، فإن لَيَّ العنق وإمالته قد يعني الإختيال، وأخرى الإذلال وكلاهما منهيان.

و «لا يحب» من اللّه يعني البغض، إذا لا تخفى عليه خافية حبيبة أو بغيضة، فإذا لا يحب فهو- إذا- يبغض، وقد يروى عن الرسول صلى الله عليه و آله قوله: من مشى على الأرض اختيالًا لعنته الأرض ومن تحتها ومن فوقها. «١»

الناسي نفسه لا يدعوا غيره الا بعد اصلاح نفسه فيما يدعوا

«أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ» «٢»

إستفهام إنكاري بتقريع حار، يوجه إلى بني اسرائيل عُجالة في هذه المواجهة المندِّدة، وإلى كل من يفعل كما يفعلون: «أتأمرون الناس بالبر» وهو كل خير من قالٍ او فعالٍ او حال «وتنسون أنفسكم» نسيان تجاهل أم جهلًا عن الناسِ «تنسون أنفسكم» في تطبيق البر الذي به تامرون، ولا سيما وانتم في تركه تجاهرون حال «وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون» عقلًا لموازين البر والأمر به عن الكتاب، وعقلًا في الدعوة إلى داعية الكتاب.

فقد ينهى الإنسان عما هو فاعله، أم يامر بما هو تاركه غافلًا قاصراً وفي جهل مركب قاهر فهو معذور، أم علماً بفرضه فعلًا أو تركاً ولكنه معذور يبين عذرَه، وأما أن ينسى نفسه فيما ينهى أو يامر عارفاً عاقلًا عن الكتاب وفي أمره، متعمداً في تناسي الهزء والّامبالات، فذلك قطعاً غير معذور، فإنه خلافٌ عامد للكتاب وعقل الكتاب وعقل الأمر، كيف «وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون»؟

---

(١)). المصدر في كتاب ثواب الأعمال باسناده الى ابن فضال عمن حدثه عن ابي عبد اللّه عليه السلام قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: وفيه عنه قال ابو جعفر عليه السلام قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله ويل لمن يختال في الأرض معارض جبار السماوات والأرض

(٢)). سورةالبقرة ٢: ٤٤

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٩

فهنا الآية لا تندد- فقط- بترك البر، بل ويثُقل النهى عن الأمر به وأنت تاركه «١» فهو الذي ياتي بويلات عقائدية وأخلاقية وعملية فيمن يؤمرون.

إن مقترِف العصيان في الميدان يخيَّل إليه نفي العصيان، وإلا فكيف ينهى عالمُ الكتاب ويأمر وهو نفسه في نسيان! أم هو العالم يلعب بأمر الكتاب- إذاً- فلا أصل للكتاب الذي يلعب به حملته! فهنالك شروط عدة لمن يامر او ينهى «٢» وليس بذلك الفوضى!

فمن الشروط المتأَصلة في جواز الأمر والنهي– الواجبين بشروطهما– أن لا ينسى الآمر الناهي نفسه فيما يامر او ينهى، وهنالك لأقل تقدير آيات ثلاث تدلنا بوضوح على هذا الشرط الأصيل، هذه اولاها، ثم ما ينقل عن العبد الصالح شعيب عليه السلام: «يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي منه رزقاً حسناً وما أريد أن اخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلّا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلّا باللّه عليه توكلت وإليه

---

(١)). المصدر عن ابي جعفر الباقر عليه السلام قال: انما يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر من كانت فيهثلاث خصال: عامل بما يأمر به تارك لما ينهى عنه عادل فيما يأمر عادل فيما ينهى رفيق فيما يأمر رفيق فيما ينهى (١١: ٤٠٣ ج ١٠ الوسائل)

(٢)). في اصول الكافي عن ابي عمرو الزبيري عن ابي عبد اللّه عليه السلام قال: قلت له الدعاء الى اللّهوالجهاد في سبيل اللّه اهو لقوم لا يحل الا لهم ولا يقوم به إلّا من كان منهم، او هو مباح لكل من وحَد اللّه عز وجل وآمن برسول اللّه صلى الله عليه و آله ومن كان كذا فله ان يدعوا الى اللّه عز وجل والى طاعته وله ان يجاهد في سبيله؟ فقال: ذلك لقوم لا يحل الا لهم، ولا يقوم بذلك الّا من كان منهم، قلت مَن اولئك؟ قال: من قام بشرائط اللّه تعالى في القتال والجهاد على المجاهدين فهو مأذون له الدعاء الى اللّه تعالى ومن لم يكن قائماً بشرائط اللّه تعالى في القتال والجهاد على المجاهدين فليس بمأذون له في الجهاد ولا الدعاء الى اللّه حتى يحكم في نفسه بما أخذ اللّه عليه من شرائط الجهاد– الى ان قال– ومن كان على خلاف ذلك فهو ظالم وليس من مظلومين وليس بمأذون له في القتال ولا بالنهي عن المنكر والامر بالمعروف لانه ليس اهلًا من ذلك ولا مأذوناً في الدعاء الى اللّه– الى ان قال– ولا يأمر بالمعروف من قد امر أن يؤمر به ولا يَنهى عن المنكر من قد امر ان يُنهى عنه، ثم قال عليه السلام ثم ذكر من اذن له في الدعاء اليه بعده وبعده رسوله في كتابه فقال: ولتكن منكم امة– الآية– ثم اخبر عن هذه الآمة ومن هي وآنها من ذرية ابراهيم واسماعيل من سكان الحرم ممن لم يعبدوا غير اللّه قط، الذين وجبت لهم الدعوة دعوة ابراهيم واسماعيل من اهل المسجد الذين اخبر عنهم في كتابه انه اذ هب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً– الحديث

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٠

انيب» «١» حيث تعد مخالفته إلى ما ينهى عنه في عداد الإفساد وكما الأولى تعده خلاف العقل.

والتعدية هنا ب «إلى» مضمَّنة نفي الميل الى ما ينهى، لا– فقط– نفياً لاقترافه، بل واقترابه والميل إليه!

فلا يحق أو يجوز لناهٍ ينهى عن خطيئة إلا بعد ما هو ناهٍ نفسه قبله حتى عن الميل إليه، فضلًا عن إقترافه أو إقترابه، فان ثالوث الميل قلبيا والإقتراب أو الإقتراف عملياً هو من الإفساد، وكيف لي بذلك النهي وانا رسول؟ ف «إن اريد إلا الإصلاح ما استطعت» ما بقيَت لي نفس أو نَفَس!

ثم وثالثه تُثقل على آمره وناهيه المقت الكبير: «يا ايها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون. كبر مقتاً عند اللّه أن تقولوا ما لا تفعلون» «٢»

فصحيح أن فاعل المعروف غير الآمر به، وتارك المنكر غير الناهي عنه مع توفر شروط الأمر والنهي، أنه ممقوت عند اللّه، وكذلك الذي– فقط– يترك المعروف ويفعل المنكر، ولكنما المقت الكبير والإفساد الكبير وخلاف العقل إنما هو على من يجمع بين الأمر قولياً وتركه عملياً، فإنه بذلك يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف بذلك الجمع المفسد المزري الضاري.

فهنا الآيات، وعلى ضوءها الروايات تأتي بحملة قارصة كبيرة على هؤلآء المفسدين اللاعبين بالدين، الذين يامرون الناس بالبر وينسون انفسهم، او يخالفون الناس الى ما ينهونهم عنه، ويقولون ما لا يفعلون، ف «لا يامر بالمعروف من قد أمر أن يؤمر به ولا ينهى عن المنكر من قد أمر أن ينهى عنه» «٣» حيث القصد من الأمر والنهي

---

(١)). سورة هود ١١: ٨٨

(٢)). سورة الصّف ٦١: ٣.

راجع الفرقان (٢٨: ٢٩٨- ٣٠١) تجد تفصيلًا لتفسير آية المقت

(٣)). هذا من الحديث المفصل الماضي عن ابي عبد اللّه عليه السلام قلت له عن الدعاء إلى الجهاد

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣١

هو الإصلاح العقلاني للمجتمع، خلقاً لجوِّ الصلاح والطمانينة ليعيشوا على رغد أمن وراحة، إضافة إلى ما فيه من نبعة فياضة للخير من الآمرين والناهين، فكل إناءٍ إنما يرشح بما فيه، والمسلم الملىء من الخير يرشح به بعلمه ولسانه، والنزيه عن الشر يرشح كذلك نهياً عنه، واجبان: ذاتي يتبنيّ إصلاح الفرد، وجماعي يتبنيّ إصلاح المجتمع، إبتداءً من الذاتى وإنتهاءً إلى الجماعي.

نرى خطباء من أمة الاسلام يأمرون الناس بالبر وينسون انفسهم وهم على حدّ ما يروى عن الرسول صلى الله عليه و آله «تقرض شفاههم بمقاريض من النار» «١» «يجاء بأحدهم يوم القيامة فيلقى في النار فتذلق به أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار برحاه فيطيف به أهل النار» «٢»

ف «مثل العالم الذي يعلِّم الناس الخير ولا يعمل به كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه» «٣» ولما يقال لاحدهم: «يا ويله بم لقيت هذا إنما اهتدينا بك؟ قال: كنت اخالفكم الى ما انهاكم عنه». «٤»

فليكفّ الذي لا يعمل عن أن يأمر، أو ليعمل ثم يامر وكما يروى عن الرسول صلى الله عليه و آله:

«من دعا الناس الى قول او عمل ولم يعمل هو به لم يزل في سخط اللّه حتى يكف او

---

(١)). الدر المنثور ١: ٦٤- اخرجه جماعة عن انس قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله رايت ليلة اسري بي‌رجالًا تقرض شفاههم بمقاريض من نار كلما قرضت رجعت فقلت لجبريل من هؤلاء؟ قال: خطباء من امتك كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون انفسهم وهم يتلون الكتاب افلا يعقلون»

(٢)). الدر المنثور ١: ٦٤- اخرجه احمد والبخاري ومسلم عن أسامة بن زيد قال سمعت رسول اللّه صلى الله عليه و آله يقول: يجاء يرجل يوم القيامة فيلقى في النار ... فيقولون: يا فلان! ما لك ما اصابك؟ الم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه»

(٣)). الدر المنثور ١: ٦٥- اخرجه الطبراني والخطيب في الاقتضاء والاصبهاني في الترغيب بسندجيد عن جندب بن عبد اللّه قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: ..

(٤)). المصدر عن جابر عن النبي صلى الله عليه و آله قال: اطلع قوم من اهل الجنة على قوم من اهل النار فقالوا: بم دخلتم النار وانما دخلنا الجنة بتعليمكم؟ قالوا: انا كنا نأمركم ولا نفعل

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٢

يعمل ما قال ودعا إليه» «١» فكفه عن الأمر بما ترك يكف عنه سخط اللَّه- مهما كان هو تاركاً كسائر التاركين- كما أن عمله بما قال يكف عنه سخط اللَّه، حيث المعني من السخط في هذا المجال هو المقت الكبير، فلو ترك الأمر بشيء وهو تاركه، كف عنه المقت الكبير، مهما بقي عليه مقت صغير.

ف «من لم ينسلخ من هواجسه، ولم يتخلص من آفات نفسه وشهواتها، ولم يهزم الشيطان، ولم يدخل في كنف اللَّه تعالى وتوحيده وأمان عصمته، لا يصلح له الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنه إذا لم يكن بهذه الصفة فكلما أظهر أمراً يكون حجة عليه، ولا ينتفع الناس به ... ويقال له خائن! أتطالب خلقي بما خنت به نفسك وأرخيت عنه عنانك؟!» «٢»

أجل وانه «كالذابح نفسه» «٣» كما يذبح غيره، مهما كان يهديه إن لم يعرف نفاقه! فهو من «أعظم الناس حسرة يوم القيامة» «٤» «وأشدهم عذاباً». «٥»

ومن أجهل وأمقت وأفسد وأضلّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما تترك المعروف جهاراً، او تفعل المنكر جهاراً، ثم تأمر بما تترك وتنهى عما تفعل، ولماذا؟!

ألأنك تحب اللَّه فتطالب حق اللَّه من خلقه، فلماذا تخونه أنت مجاهراً مستهتراً حرمات اللَّه أمام خلقه، خلافاً للعقل الذي يرشدك إلى خلافه، فإنما عملًا بما تأمر، او تركاً للأمر، فلماذا تأمر بما تجاهر في تركه، أو تنهى عما تجاهر في فعله؟.

---

(١)

). الدر المنثور ١: ٦٥- اخرجه الطبراني عن ابي عمر قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: ..

(٢)). نور الثقلين ١: ٧٥ عن مصباح الشريعة عن الامام الصادق عليه السلام

(٣)). تفسير البرهان ١: ٩٣- العياشي عن يعقوب بن شعيب عن ابي عبد اللَّه عليه السلام قال: قلت له قوله: أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم، قال: فوضع يده على حلقه، قال: كالذابح نفسه

(٤)). نور الثقلين ١: ٧٥- عن اصول الكافي باسناده الى خيثمة قال قال لي ابو جعفر عليه السلام ابلغ شيعتنا ان اعظم الناس حسرة يوم القيامة من وصف عدلًا ثم خالفه الى غيره

(٥)). نور الثقلين ١: ٧٥ عن اصول الكافي باسناده الى قتيبة الاعشى عن ابي عبد اللَّه عليه السلام انه قال: إن اشد الناس عذاباً يوم القيامة من وصف عدلًا وعمل بغيره»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٣

او إصلاحاً للناس؟ وليس إلّا إفساداً لهم وتشجيعاً للناس في الجهار فما لم تامر أنت التارك، او لم تنه أنت الفاعل، فالناس أمثالك يظلون كما هم، أما إذا تخالفهم الى ما تنهاهم عنه أو تامرهم به، فأنت أنت تفسدهم أكثر مما كانوا، وتفسد نفسك أكثر مما كنت!

أما نفسك فإنها حجة ظاهرة عليك: لم تقول ما لا تعمل وأنت تعلم؟

وأما هم، فقد يزدادهم جرأة في هتكهم حرمات اللَّه، ووهنهم في عقيدة الايمان، إن كانت، او فسقاً على فسق، إذ يرون أنك مستهزء بشريعة اللَّه، وإلّا فماذا يدفعك للأمر بما أنت تاركه، أو النهي عما أنت فاعله؟ فهو- إذاً- يستجر اللعنة والنكبة إلى الآمر الناهي ومن

يامرهم وينهاهم- ف «لعن الله الآمرين بالمعروف التاركين له والناهين عن المنكر العاملين به» «١» «فانهوا عن المنكر وتناهوا عنه فإنما أمرتم بالنهي بعد التناهي». «٢»

هذه المظاهر المنافقة- ولا سيما ممن يتظاهر بخلافها- إنها الآفة التي تصيب النفوس بالشك والريبة، لا في الدعاة وحدهم، بل وفي الدعوات ذواتها أيضاً، لا سيما إذا كانت الدعاة من رجال الدين، حيث العرف الأكثري الساذج من الناس تعتبرهم تجسيداً للدين، فنفاقهم في أقوالهم وأفعالهم يُحسب نفاقاً في الدين نفسه، فهي التي تبلبل قلوب الناس وأفكارهم، حيث يسمعون قولًا جميلًا ويرون معه فعلًا أو تركاً قبيحاً، فتمتلكهم الحيرة بين هذا وذاك، فلا يعودون يثقون بالدين بعد ما فقدوا ثقتهم برجال الدين.

فالكلمة الرنانة الطنانة البراقة، الخاوية عن واقع معناها، إنها تأخذ موقعها في مسامع السامعين، ولكنها تصل هامدة إلى قلوبهم، مجتثة بقية الإيمان لو كانت او تزيد في رينها وفسقها إن لم تكن.

---

(١)

). وسائل الشيعة جلد ١١ صفحه ٤٢٠ ح ٩ محمد بن الحسين الرضي في نهج البلاغه عنعلى عليه السلام

(٢)). المصدر ح ٨ عنه عليه السلام

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‌٧، ص: ٣٤

في حين أن الكلمة التي تخرج من القلب، المفسَّرة بالعمل قبل الإفصاح بها، إنها ترجمة حية عن جمال الواقع، فتصل الى شغاف القلوب وضاءة فعّالة، مهما لم يكن لها طنين او بريق: «وقل لهم في انفسهم قولًا بليغاً» فالكلام إذا خرج من القلب دخل في القلب واذا خرج من اللسان لم يتجاوز الآذان.

وما أجمله جمعاً بلاغة الكلام وفصاحته، مع التفسير الحّي له من صاحب الكلام في فعل او حال، وأجمَل منه الابتداء بالفعل ثم القول وكما يروى: «مروا الناس بالمعروف وإنهوهم عن المنكر بغير ألسنتكم».

هنا القرآن يوجّه بواجههم ويوجّه الناس اجمعين الى ضرورة الموافقة بين القول والعمل وضراوة المنافقة بينهما، بخطاب تنديد وتهديد: «أتامرون الناس بالبر وتنسون انفسكم ..» كما هناك يواجه المؤمنين بنفس النمط «يا ايها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون» وهنالك ينقل عن العبد الصالح شعيب «وما اريد أن اخالفكم الى ما انهاكم عنه» ومعها عشرات من الروايات، التي تبرز شرط العمل كأبرز شرط للسماح بالأمر والنهي صلاحاً ذاتياً وإصلاحاً للمجتمع. «١»

«أتامرون بالبر وتنسون انفسكم»: حيث كانوا قبل ظهور الإسلام يامرون المشركين بالإيمان بمحمد الرسول الآتي وكانوا يستفتحون عليهم: «فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به» وثم إذ ظهر الإسلام كان البعض من أحبارهم يامرون أقاربهم من المسلمين بالثبات على ايمانهم وهم به كافرون، او كانوا يأمرون فقراءهم ويكتمون الحق عن أغنيائهم مخافة انقطاع رواتبهم أو عطياتهم، وكانوا يامرون الناس باتباع

---

(١)). الدر المنثور ١: ٦٥- اخرج ابن مردويه والبيهقي في شعب الايمان وابن عساكر عن ابن عباس انه جاءه رجل فقال: يا بن عباس! اني اريد ان آمر بالمعروف وانهى عن المنكر، قال: او بلغت ذلك؟ قال: ارجو، قال: فان لم تخش ان تفتضح بثلاثة احرف في كتاب الله فافعل، قال: وما هن؟ قال: قوله عز وجل: أتأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم، أحكمت هذه الآية؟ قال: لا، فالحرف

الثاني؟ قال: قوله تعالى: لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله ان تقولوا ما لا تفعلون- احكمت هذه الآية؟ قال: لا- قال: فالحرف الثالث؟ قال: قول العبد الصالح شعيب «ما اريد ان اخالفكم الى ما انهاكم عنه- أحكمت هذه الآية؟ قال: لا- قال: فابدأ بنفسك

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٥

التوراة وهم يخالفونه في تكذيب محمد صلى الله عليه و آله، ويامرون الناس بطاعة اللّه وهم يعصونه في محمد صلى الله عليه و آله!

وهذه الشيمة الشنيعة مخالفة للكتاب «وأنتم تتلون الكتاب» ومخالفة للعقل «أفلا تعقلون».

تخالف كتاب اللّه الآمر بتصديق الرسول الآتي محمد صلى الله عليه و آله والناهي بصورة عامة عن الأمر بشيءٍ مع نسيان نفسك فيه، وتخالف العقل حيث يستقبح النفاق، ولا سيما هذا النفاق الذي يظهر في الأمر والنهي بمظهر الإصلاح الوفاق، وإن هو إلّا إفساداً: ثالوث المخالفة للحق، يحمله أنكم «تامرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب»!

فلو أنهم كذبوا محمداً في صيغة واحدة قبل أن ياتي، لم يكن بذلك الخطير المضلِّل لضعفاء النفوس، حيث تكذيبهم- وهم أهل كتاب- بعد تصديقهم، يوكّد لمن سواهم أن محمداً لم يأت ذكره في الكتاب.

ف «افلا تعقلون»: تقريع بعقولهم المعقولة المشدودة بأهوائهم في ثالوث اللّا عقل من أمرهم، فالمقصود من الأمر والنهي إرشاد الغير إلى ما يُصلحه واجتناب ما يُفسده، وإرشادالنفس والإحسان إليها أولى من الغير، وتقديم الغير خلاف العقل، وإن من يعظ الناس ولا يتعظ يرغِّب الناس إلى العصيان أكثر مما كان، سناداً إلى أنه لو كان صادقاً وصالحاً لما تركه إلى غيره، وهذا يناقض غرض الأمر والنهي وهو الإصلاح، وأن على الآمر الناهي- إذ يهدف الإصلاح- أن يحاول في تأثيرٍ أكثر فيما يزاول، فإذ يُقرنه بما يشجِّع إلى العصيان، كان قد جمع بين المتضادين «أفلا تعقلون»؟

وهل يشترط في جواز الأمر والنهي كون الآمر الناهي فاعلًا لكل برٍّ مستطاع له وتاركاً لكل شرٍّ كذلك سراً وعلانية، أن يكون عدلًا في واقع أفعاله وتروكه لا في ظاهر حاله فحسب؟

قد يُظن إطلاق التنديد له في آيتنا «أتامرون» ولكنها لا تعني إلّا ما «تامرون ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٦

وتنسونه» وأما المعروف الذي لم تأمروا به وأنتم تاركوه فلا تشمله «تأمرون».

وكذلك التنديد في آية النهي: «وما أريد أن اخالفكم إلى ما أنهاكم عنه» يخص المنع عن النهي بخصوص ما لم يتناه عنه، وآية المقت لا تشمل نصاً غير القول المنافق للفعل، أمراً أو نهياً.

ثم لو اختص السماح بالأمر والنهي بهذا المضيق في العدالة المطلقة لم تكن في هولآء العدول الكفاية في هذه المكافحة، لأنهم قلة والفاسقين كثرة، وواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو المكافحة الكافية، فقد يكون «حسبك أن تامرهم بما تأمر به نفسك وتنهاهم عما تنهى نفسك». «١»

كما النهي في «لا يامر بالمعروف من قد أ مر أن يؤمر به ولا ينهى عن المنكر من قد

أمر أن يُنهى عنه» «٢» يخص التارك لخصوص ما أمر به والناهي عن حضوص ما اقترفه، وكما يخصه «من دعى الناس إلى قول أو عمل ولم يعمل هو به لم يزل في سخط اللّه حتى يكف أو يعمل ما قال ودعى إليه» ومعها أحاديث عدة.

كما وأن مورد آية البر لا يتجاوزه، ولا إطلاق لها تخصها بالعدالة المطلقة- ف «أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم» في ذلك البر ... لا وفي بر لم تأمروا به! وأقل ما هنا أن البر المأمور به هو القدر المتيقن دون سواه.

وهل التارك لمعروف خفيفة يأمر به، أو الفاعل لمنكر خفية ينهى عنه؟

قد يقال: نعم، إذ يُصلح المجتمع ولا يُفسد حيث لا يعلمون كيف هو في سرّه؟ مهما كان كالذابح نفسه، فان المتجاهر يذبح نفسه وغيره فعليه اللّعن والمقت الكبير حيث يضر ولا ينفع، وغير المتجاهر إنما يذبح نفسه وينجي غيره، فأمره ونهيه واجبان من الناحية الجماعية ومحرمان من الناحية الشخصية، فان ترك الواجب وترك الأمر به

---

(١)). عن ابي عبد الله عليه السلام قال: لما نزلت هذه الآية «يا ايها الذين آمنوا انفسكم واهليكم ناراً .. جلس رجل من المسلمين يبكي وقال: نفسي كلفت اهلي، فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله حسبك ... (وسائل الشيعة المجلد ١١ صفحه ٤١٧ عن الكافي)

(٢)). الدر المنثور ١: ٦٥- اخرجه الطبراني عن ابن عمر قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله:.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‌٧، ص: ٣٧

فإثمان، وإن أمر به فإثم واحد لتركه، ومقت مّا لأمره مع تركه رغم أنه واجب، واجب أن يامر بعد ما يأتمر سراً فليأمر.

أو يقال: إن أمر التارك ونهي المقترف لا يجبان ولا يحرمان، كما قد يستوحى من بعض ما مرّ من أحاديث، ولكنما المستفاد من إطلاقاتها كتصاريح ولا سيما الآيات، أن امره ونهيه محرمان ما دام لم يأتمر أو لم ينه وإن كانا هنا أخف مقتاً ممن يجاهر بترك المعروف وفعل المنكر، وهما واجبان يوجب الإئتمار والإنتهاء.

فالإتيان بالمعروف وترك المنكر، واجبان شخصياً، وواجبان جماعياً، مهما كان الاوّل على الأعيان والثاني كفائياً، فمن يترك واجباً ويفعل منكراً فيما لم يقم بالأمر والنهي مَن فيه الكفاية فتركه للوجب تَركان، وفعله المنكر محظوران، مهما كان في ظرف الكفاية تركاً أو محظوراً واحداً، فالتارك الآمر بما ترك هو كتارك الأمر بما ترك وأضل سبيلًا، كما الفاعل لما ينهى، فانه رغم ما أمر ونهى، لم يأمر ولم ينهَ كما أُمر، وهكذا يصبح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سياجاً سلباً وإيجاباً على الجماعة المؤمنة، أن يحاولوا دوماً في إصلاح أنفسهم وإصلاح مجتمعهم، لكي ينمو ويزدهر في كافة الأجواء والأرجاء.

ولا عجب أن يجتمع الأمر والنهي في الأمر والنهي، حيث النهي عنهما فعلي، والأمر بهما شأني يفرض على المكلفين الإئتمار والإنتهاء ثم الأمر والنهي.

وإن تعجب فعجب قول جمعٍ من الفقهاء كيف لم يشترطوا في وجوبها الفعلي ائتمار الآمر وانتهاء الناهي، وعساكر الآيات وفي ظلالها الروايات تمنع عن فعلية الأمر إلّا للمؤتمر، وعن فعلية النهي إلا للمنتهي؟! حيث تحثُّ على الأمر بعد الإيتمار، وعلى النهي بعد الإنتهاء.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‌٧، ص: ٣٨

واجب التناهي عن المنكرلفاعلي المنكر إنهاءً وانتهاءً

«لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلَى لِسانِ داوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ» «١»

هنا تبرز بين لعنات المرسلين الإسرائيليين على هؤلآء الذين كفروا باللّه ورسالاته، لعنة داوُد وعيسى ابن مريم عليهما السلام وكما نجدها في زبور داود والإنجيل، وذلك اللعن المعلن «بما عصوا» اللّه ورسله «وكانوا يعتدون» على رسالات اللّه وأنبياءه وعباد اللّه.

«كَانُوا لَايَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» «٢»

التناهي عن المنكر فرض وهو التفاعل في حقل المنكر نهياً وانتهاءً من الجانبين، وتخصيص التناهي بالذكر لتقدم السلب على الإيجاب، إضافة إلى أن ترك الواجب أيضاً منكر كفعل الحرام.

فواجب المؤمنين خلق جو التآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر بصورة جماعية حاسمة، فالتفاعل الإيجابي في المعروف والتفاعل السلبي في المنكر، هما فرضان جماعيان على الجموع المؤمنة على أية حال ما فسح المجال.

إذاً فتركهما- ولا سيما التناهي- يستجر لعنة اللّه ورسله، حيث يُترك بتركهما القرآن.

ذلك «وإن رحى الإسلام ستدور فحيث ما دار القرآن فدوروا به، يوشك السلطان والقرآن يقتتلان ويتفرقا» «٣» وذلك في سلطان العصيان لشرعة اللّه في سلطات زمينة

---

(١)). سورة المائدة ٥: ٧٨

(٢)). سورة المائدة ٥: ٧٩

(٣)). الدر المنثور ٣: ٢٩٩- اخرج عبد بن حميد عن معاذ بن حيل قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: خذواالعطاء ما كان عطاءً فإذا كان رشوة عن دينكم فلا تأخذوا ولن تتركوه يمنعكم من ذلك الفقر والمخافة، إن بني يأجوج قد جاءوا وان رحى الاسلام ... فإنه سيكون عليكم ملوك يحكمون لكم بحكم ولهم بغيره فان اطعتموهم اضلوكم وان عصيتموهم قتلوكم، قالوايا رسول اللّه صلى الله عليه و آله فكيف بنا إن أدركنا ذلك؟ قال: تكونوا كأصحاب عيسى نشروا بالمناشير ورفعوا على الخشب، موت في طاعة خير من حياة في معصية، ان أوّل ما كان نقص في بني اسرائيل انهم كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر شبه التعريز فكان احدهم إذا لقى صاحبه الذي كان يعيب عليه آكله وشاربه كأنه لم يعب عليه شيئاً فلعنهم اللّه على لسان داود وذلك بما عصوا وكانوا يعتدون والذي نفسي بيده لتأمرون بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليسلطن اللّه عليكم شراركم ثم ليدعون خياركم فلا يستجاب لكم، والذي نفسي بيده لتأمرون بالمعروف ولتنهن عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم فلتأطرنُّه عليه أطراً أو ليضربن اللّه قلوب بعضكم ببعض

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٩

أو روحية لا تدور حيث ما دار القرآن.

والأمر والنهي هما على كاهل الربانيين الصالحين العارفين، فمن حديث الرسول صلى الله عليه و آله: «ما بال أقوام لا يعلِّمون جيرانهم ولا يفقهونهم ولا يفطِّنونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم، وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتفطنون ..» «١» و «إذا عظَّمت أمتي الدنيا نزعت منها هيبة الإسلام، وإذا تركت الأمر

---

(١)). المصدر (٣٠١) أخرج ابن راهويه والبخاري في الوحدانيات وابن السكن وابن مندهوالبارودي في معرفة الصحابة والطبراني وأبو نعيم وابن مردوديه عن ابن ابزى عن أبيه قال: خطب رسول اللّه صلى الله عليه و آله فحمد اللّه واثنى عليه ثم ذكر طوائف من المسلمين فأثنى عليهم خيراً ثم قال: ما بال اقوام ... والذي نفسي بيده ليعلمن جيرانه أو ليتفقهن أو ليفتنن أو لأعاجلنهم بالعقوبة في

دار الدنيا ثم نزل فدخل بيته فقال اصحاب رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله من يعنى بهذا الكلام إلّا الأشعريين فقهاء علماء ولهم جيران من أهل المياه جفاة جهلة، فاجتمع جماعة من الأشعريين فدخلوا على النبي صلى الله عليه و آله فقال: ذكرت طوائف من المسلمين بخير وذكرتنا بشر فما بالنا؟ فقال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله لتعلمن جيرانكم ولتفقهنهم ولتأمرنهم ولتنهونهم أو لأعاجلنكم بالعقوبة في دار الدنيا، فقالوا: يا رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله فأما إذن فأمهلنا سنة ففي سنة ما تعلمه ويتعلمون فامهلهم سنة ثم قرأ رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله: لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوايفعلون» وفيه عن حذيفة بن اليمان عن رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله قال: والذي نفسي بيده لتأمرون بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليوشكن ان يبعث اللّٰه عليكم عقاباً من عنده ثم لتدعنَّه فلا يستجيب لكم، وفيه أخرج مسلم وأبوا داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابي سعيد الخدري قال: قال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله: من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان، وفيه أخرج احمد عن عدي بن عميرة سمعت رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله يقول: ان اللّٰه لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروا فلا ينكرونه فإذا فعلوا ذلك عذب اللّٰه العامة والخالصة، وفيه اخرج الخطيب في رواة مالك من طريق ابي سلمة عن ابيه عن النبي صلى الله عليه و آله قال: والذي نفس محمد بيده ليخرجن من امتي اناس من قبورهم في صورة القردة والخنازير داهنوا اهل المعاصي سكتوا عن نهيهم وهم يستطيعون

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٠

بالمعروف والنهي عن المنكر حُرِمت بركة الوحي وإذا تسابَّت أمتي سقطت من عين اللّٰه». «١»

ذلك، فكما النهي عن المنكر فرض كذلك الإنتهاء عنه وهما التناهي، وترى الناهي عن المنكر يُنهى عن نفس المنكر أو منكر آخر حين ينهاه الآتي بمنكر؟.

الناهي عن المنكر عليه ألا يكون فاعلًا لنفس المنكر ولا سيما جهاراً، وكذلك الآمر بالمعروف، فأقل الواجب من شرط واجب الأمر والنهي أو السماح فيهما ألَّا يكون الآمر والناهي متجاهرين في ترك المعروف أو فعل المنكر: «أتأمرون بالبر وتنسونأنفسكم» «٢» «يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون. كبر مقتاً عند اللّٰه أن تقولوا ما لا تفعلون» «٣»

فليس على تارك معروف أن يأمر به ولا له ذلك، كما ليس على فاعل منكر أن ينهى عنه ولا له ذلك مهما كانا مسؤولين عن واجب الأمر والنهي تقصيراً عن تحقيق شرطهما، فهما بالفعل مأموران بالأمر والنهي تحقيقاً حقيقاً لشرط الوجوب، ومنهيان عنهما دون شرطه، فقد إجتمع عليهما الوجوب والحرمة بسوء الإختيار.

فالتآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر هما مفروضان شرطَ شروطهما، ولكن الإئتمار والإنتهاء لا يقيَّدان بتحقيق شروط الآمر والناهي، وكذلك الأمر والنهي لا يقيَّدان بفعل الآمر غير ما يأمر به من معروف أو تركه غير ما ينهى عنه من منكر، فإنما الشرط أن يأمر بما هو مؤتمر به أو ينهى عما هو منته عنه.

فحين يأمر بمعروف هو فاعله عليه أن يأتمر بما هو تاركه، وكذلك في حقل النهي

---

(١)). المصدر ٢: ٣٠٢- اخرج الترمذي عن ابي هريرة قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: وفيه اخرج الطبراني عن ابن عباس قال: قيل يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله أتهلك القرية فيهم الصالحون؟ قال: نعم، فقيل يا رسول اللّه ولم؟ قال: بتهاونهم وسكونهم عن معاصى اللّه عزَّ وجلَ

(٢)). سورة البقرة ٢: ٤٤

(٣)). سورة الصّف ٦١: ٣

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤١

والإنتهاء، بل والإئتمار والإنتهاء هما أوسع نطاقاً من الأمر والنهي حيث لا يشترط في واجب الإئتمار والإنتهاء ما يشترط في نفس الأمر والنهي.

فالتناهي كما التآمر هما فرضان جماعيان يفرضان الرقابة التامة بين المؤمنين، أن يراقبوا إخوانهم كما يراقبون أنفسهم ويقونها: «قوا أنفسكم وأهليكم ناراً» «١»

«وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر» «٢»

ولأن التآمر والتناهي هما بعد معرفة المعروف والمنكر، فالمفروض قبلهما التعريف بهما للعارف والتعرف إليهما لغير العارف، حتى تعم المعرفة.

فقد لا يكفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بشرط العدالة المطلقة في الآمرين والناهين، إذ لا كفاية فيهما لتحقيق المعروف وإزالة المنكر عن المجتمع الاسلامي.

إذاً فالمفروض- اضافة إلى ذلك- التآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر، أن يأمر بما هو فاعله ويأتمر فيما هو تاركه، وينهى عما هو تاركه وينتهي عما هو مقترفه وذلك هو التآمر والتناهي.

فواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،. وواجب الائتمار والإنتهاء، يعبر عنهما بالتآمر والتناهي، حيث فيهما الكفاية لخلق جو الخير في الكتلة المؤمنة.

ذلك، والمنكرات دركات يجب التناهي عن أنكرها التي هي رأس الزاوية فيها، سواء أكانت بين المؤمنين أو الكفار، فالمجتمعات التي لا تتحاكم إلى شرعة اللّه، فالمنكر الأكبر فيها هو الذي منه تنبع سائر المنكرات، وهو رفض الألوهية بتوحيدها، فلا جدوى من ضياع الجهد في مقاومة سائر المنكرات ما لم يقاوَم رؤوس الزوايا فيها.

ثم يتقدم في ذلك الدور المنكر الذي ينكره الكل دونما إختلاف حيث لا يعذر مقترفه حتى بين سائر المقترفين، فليراعَ في حقل الأمر والنهي الأقدم الأساس

---

(١)). سورة التّحريم ٦٦: ٦

(٢)). سورة العصر ١٠٣: ٣

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٢

فيهما، ولكي تتفرع عليه فروعه فعلًا للمعروف وتركاً للمنكر، توفيراً للجهود المبعثره هنا وهناك، وحشداً لها في جبهات موحَّدة قوية صارمة، في الأوَّل فالأوَّل من المنكرات الأساسية لإقامة الأسس التي عليها وحدة البنيان لصرح الإيمان.

ذلك، واضعف الإيمان انكار المنكر بالقلب وكما في حديث الرسول صلى الله عليه و آله «من رأى منكراً فليغيِّره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه» وليس هذا موقفاً سلبياً تجاه المنكر، فإنكار المنكر بالقلب- حين لا يستطع الناهي إنكاراً بيده أو لسانه- يعني إحتفاظ القلب بإيجابيته تجاه المنكر، كالماء المختزن في خزانته ليروي العطاش عند الإمكانية والإستطاعة، فلابد للمؤمن أن يملأ خزانة قلبه من إنكار المنكر حتى إذا وجد سبيلًا لإنكاره بيده أو لسانه انكره بهما من فوره، أم ولأقل تقدير لا يتأثر بالمنكرات المفعولة.

فقد تقيد آيةالتناهي- هذه- الآيات المشترطة بصورة طليقة واجب الأمر والنهي بتحقيق المعروف وترك المنكر ككل في الآمر والناهي، تقيّدها بالمعروف المتروك للآمر والمنكر المفعول للناهي، فليس الشرط العدالة الطليقة للآمر فلا يكفي العدول لتحقيق هذين الواجبين، ثم فأين التناهي- إذاً- فيما إذا ينهى عما لا يقترفه من منكر، ثم يُنهى عما يقترفه من منكر آخر، فجو التآمر والتناهي هو الجو الصالح الإيماني برقابة صالحة بين المؤمنين حيث المؤمن مرآت المؤمن و «المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر».

وكما التارك للمعروف والفاعل للمنكر ملعون على ألسنة رسل الله، كذلك- وبأحرى- التاركون للتآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر، كما لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم بثالوث «١»: «١- بما عصوا ٢- وكانوا

---

(١)). نور الثقلين ١: ٦٦٠ عن تفسير القمي بسند متصل عن مسعدة بن صدقة قال سأل رجل أباعبد اللّه عليه السلام من قوم من الشيعة يدخلون في اعمال السلطان ويعملون لهم ويحبّون لهم ويوالونهم؟ قال: ليس هم من الشيعة ولكنهم من أولئك ثم قرأ: «لعن الذين- الى قوله- ولكن كثيراً منهم فاسقون» قال: الخنازير على لسان داود والقردة على لسان عيسى عليهما السلام.

وفيه عنه ابى عبد اللّه عليه السلام قال: لما بلغ امير المؤمنين عليه السلام امر معاوية وانه في مائة الف قال: من أي القوم؟ قالوا: من أهل الشام، قال عليه السلام: لا تقولوا من اهل الشام ولكن قولوا من اهل الشؤم، هم من ابناء مصر لعنوا على لسان داوود فجعل اللّه منهم القردة والخنازير ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‌٧، ص: ٤٣

يعتدون- و- ٣- كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه» وأقل التناهي متاركة فاعلي المنكر حتى يتركوه «١» محاولة لترك المنكر حسب المستطاع.

فهم في ذلك الثالوث المنحوس «لبئس ما كانوا يفعلون» فعلًا للمنكر أم تركاً للنهي عن المنكر وتركاً للتناهي.

«تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ» «٢»

«ترى كثيراً منهم»: أهل الكتاب ولا سيما اليهود «يتولّون» نصرة ومحبة أماهيه من شؤون الولاية «الذين كفروا» وهم هنا المشركون، ومن ذلك أنهم يفضّلونهم على المسلمين حيث «يقولون للذين كفروا هؤلآء أهدى من الذين آمنوا سبيلًا» «٣» ف «لبئس ما قدمت لهم أنفسهم» من شتاب كفرهم وبالنتيجة «أن سخط اللّه عليهم وفي العذاب هم خالدون» عذاب في الأولى في ضنك المعيشة وآخر في الأخرى في ضنكٍ العذاب: «ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى» «٤»

ولقد نرى أهل الكتاب ولا سيما اليهود يتولون المشركين والملحدين نقمة على

---

(١)). المصدر عن ثواب الأعمال باسناده قال: قال على عليه السلام: لما وقع التقصير في بني اسرائيل جعل الرجل منهم يرى أخاه على الذنب فينهاه فلا ينتهي فلا يمنعه من ذلك ان يكون اكيله وجليسه وشريبه حتى ضرب اللّٰه عزَّ وجلَّ قلوب بعضهم ببعض ونزل فيهم القرآن حيث يقول عزَّ وجلَّ: «لعن الذين كفروا ...» وفيه عن تفسير العياشي عن محمد بن الهيثم التميمي عن ابي عبد اللّٰه عليه السلام في قوله «كانوا لا يتناهون ..» قال أما انهم لم يكونوا يدخلون مداخلهم ولا يجلسون مجالسهم ولكن كانوا إذا لقوهم ضحكوا في وجوههم وأنسوا بهم

(٢)). سورة المائدة ۵: ٨٠

(٣)). سورة النسآء ۴: ۵١

(۴)). سورة طه ٢٠: ١٢۴

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ۴۴

المسلمين منذ عهد الرسول صلى الله عليه و آله وحتى الآن حيث يؤلبونهم على المسلمين بكافة المحاولات، ولم تقم دويلة العصابات الإسرائيلية منذ زمن قريب إلَّا بالولاء الجماهيري بين كُتَل الكفر شرقياً وغربياً، وقد كان للإلحاد الشيوعي السوكيتي وأضرابه نصيب وفير من الإحتلال الصهيوني للقدس وسائر فلسطين.

مسارعة في الاثم بديل التناهي عن المنكر

«وَتَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» «١»

«ترى» أنت الرسول صلى الله عليه و آله و «ترى» أنت المخاطب بالقرآن أياً كنت من المسلمين وأيان «ترى كثيراً منهم» أولآء الناقمين منكم «يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت» ثالوث من العصيان الجاهر المائر «لبئس ما كانوا يعملون».

فالإثم هو كل ما يبطىءُ عن الخير والثواب، فالمسارعة فيه والسباق إليه سباق ومسارعة في سد أبواب الثواب وفتح أبواب التبات.

والعدوان هو العداء في ثالوثه المنحوس ضد المسلمين للّٰهوللقرآن وما أنزل من قبل، مسارعة في حروبهم الباردة والحارة طول تاريخهم المنحوس المركوس.

وأكلهم السحت والباطل من مختلف مجاريه ومؤتلَف مهاويه ومساويه «لبئس ما كانوا يعلمون».

وإنها صورة ترسم للتبشيع والتشنيع حيث النفوس ألبئيسة التعيسة يستشري فيها الفساد وتسقط القِيَم، من سائقين متسابقين في الأثم والعدوان وأكلهم السحت، وآخرين منساقين في تيّاره، وهكذا تكون كل المجتمعات الهابطة الى دركات البهيمة النهماء، حيث يشمل الفساد عاليهم وسافلهم، وفي ذلك الموقف المرزي البئيس:

«لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا

---

(١)). سورة المائدة ۵: ۶٢

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ۴۵

يَصْنَعُونَ» «١»

«لولا» و «هلا» هما بمعنى التوبيخ والتحضيض والتخفيض لموقف الموجه إليهم.

وذلك صوت قرآني صارخ على مدار الزمن في رسالته العالمية أن على العلماء الربانيين تكفُّل الأمر والنهي في أوساط الأمة، فلابد من حافظين لحدود اللّه في كل أمة هم ربانيوّها كرعيل أعلى من علماءها، ثم أحبارها حيث المكانة التالية للربانيين.

فليس الأمر والنهي فوضى جزاف يتكفلهما أيٌ كان، فشرط الربانية علمياً وعملياً شرط أصيل بمراتبها في حقل الأمر والنهي، مع سائر الشروط الفرعية المسرودة في الكتاب والسنة.

إذاً فسمة السكوت لمدراء الشرعة الربانية عما يقع في الأمة من اثم وعدوان واكل السحت- وهي رؤوس المحرمات في أية شرعة- هي وصمة المجتمعات التي كسدت وفسدت آذنة بالإنهيار.

فالمجتمع الذي يسوده الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من قِبَل الصالحين هو المجتمع الراقي الحبيب، والذي لا يسودإنه هو مجتمع الباغي الكئيب.

وهنا سوط اللائمة على الربانيين والأحبار لتركهم المتخلفين عن قولهم الاثم وأكلهم السحت، إنه سوط على كافة العلماء والمؤمنين الذين لهم ذلك المنصب، صوت النذير بذلك السوط لكلٍّ ودونهما اختصاص بالربانيين والأحبار، وهو أشد وآلم لرباني الأمة الإسلامية حيث الشرعة كلما نضجت وارتقت وأخلدت وتوسعت أكثر فالمسؤوليات أمامها لحملتها وسائر متشرعيها أكثر، والخروج عن عبء هذه المسؤوليات أعسر.

ف «يا ايها الناس إنما هلك من هلك قبلكم بركوبهم المعاصي ولم ينههم الربانيون والأحبار فلما تمادوا في المعاصي ولم ينههم الربانيون والأحبار أخذتهم العقوبات

---

(١)). سورة المائدة ٥: ٦٣

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٦

فمُروا بالمعروف وانهوا عن المنكر فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقطع رزقاً ولا يقرب أجلًا». «١»

«وإن عندكم الأمثال من بأس اللّه وقوارعه، وأيامه ووقائعه، فلا تستبطؤوا وعيده جهلًا بأخذه، وتهاوناً ببطشه، ويأساً من بأسه، فان اللّه سبحانه لم يلعن القرن الماضي بين أيديكم إلّا لتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلعن اللّه السفهاء لركوب المعاصي والحلماء لترك التناهي». «٢»

فيا «أيها الناس إنما يجمع الناس الرضا والسُّخط وإنما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمهم اللّه بالعذاب لما عموه بالرضا فقال سبحانه: «فعقروها فأصبحوا نادمين» فما كان إلّا أن خارت أرضهم بالخسفة خُوارَ السكة المُحماة في الأرض الخوَّارة». «٣»

و «لا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيولى عليكم شراركم ثم تدعون فلا يستجاب لكم». «٤»

«والجهاد على أربع شعب: على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصدق في المواطن وشنآن الفاسقين، فمن أمر بالمعروف شد ظهور المؤمنين، ومن نهى عن المنكر أرغم أنوف الكافرين، ومن صدق في المواطن قضى ما عليه، ومن شنىء الفاسقين وغضب للّهغضب اللّه له وأرضاه يوم القيامة» «٥»

ذلك والناس على أقسام «فمنهم المنكِر للمنكَر بيده ولسانه وقلبه فذلك المستكمِل لخصال الخير، ومنهم المنكِر بلسانه وقلبه والتارك بيده فذلك متمسك بخصلتين من خصال الخير ومضيّع خصلة، ومنهم المنكِر بقلبه والتارك بيده ولسانه

---

(١)). الدر المنثور ٢: ٢٩٦- اخرج ابن ابي حاتم عن على رضى الله عنه عنه انه قال في خطبته، وفي نور الثقلين ١: ٦٤٨ رواها عن الكافي بسند متصل عن يحيى بن عقيل عن حسن قال خطب امير المؤمنين عليه السلام.

(٢)). الخطبة ١٩٠/ ٤/ ٣٧٢

(٣)). الخطبة (١٩٩/ ٣٩٥)

(٤)). الخطبة (٢٨٦/ ٥١٢)

(٥) (٣٠ ح/ ٥٧٠)

فذلك الذي ضيع أشرف الخصلتين من الثلاث وتمسك بواحدة، ومنهم تارك لإنكار المنكر بلسانه وقلبه ويده فذلك ميّت الأحياء وما أعمال البر كلها والجهاد في سبيل اللّه عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلَّا كنفثةٍ في بحر لجّي، وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقرِّبان من أجل ولا ينقصان من رزق، وأفضل من ذلك كله كلمة عدل عند إمام جائر». «١»

ذلك واجب ربَّانِيّ الأمة، وعليهم أن يصغوا إليهم ويعوا ما يصدرونه عن كتاب اللّه ف «اين تذهب بكم المذاهب ويستر بكم الغياهب وتخدعكم الكواذب ومن اين تؤتَون وأنى تؤفكون ولكل أجل كتاب ولكل غيبة إياب فاستمعوا من ربانيكم وأحضروه قلوبكم واستيقظوا أن يهتف بكم». «٢»

فالربانيون التاركون للنهي عن المنكر، «لبئس ما كانوا يصنعون» والأثمون العادون الآكلون للسحت «لبئس ما كانوا يعملون» والصنع أركز وقيعة من العمل، حيث الصنع هو الذي يصنع العمل، فالمنكر الواقع في مجتمع له عامل هو عامله، وله صانع هو تارك النهي عنه.

وقد عبر عن كلا «الإثم والعدوان» هنا ب «قول الإثم» لأنه غول في توغل الإثم من القائل وممن يسمعه متقبلًا من المستضعفين، فقد يعمل بالإثم دون أن يحمل إشاعة له وتحريضاً للآخرين، ولكن القول الإثم- وهو بطبيعة الحال مع فعل الإثم- إنه إشاعة وتشجيع للإثم.

ف «ما من قوم يكون بين أظهرهم من يعمل من المعاصي هم أعز منه وأمنع أن يغيروا إلَّا أصابهم اللّه منه بعذاب». «٣»

ذلك، ومن قولهم الإثم الذي يتهدم به الايمان من أصله:

---

(١)). (٣٧٤ ح/ ٦٤٢)

(٢)). نور الثقلين ١: ٦٤٩ في نهج البلاغه قال عليه السلام في خطبة له وهي من خطب الملاحم: ..

(٣)). الدر المنثور ٣: ٢٩٦- اخرج ابو داود وابن ماجه عن جرير سمعت رسول اللّه صلى الله عليه و آله يقول: ..

«وَقَالَتْ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً وَاللَّهُ لَايُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ» «١»

«يد اللّه مغلولة»؟! .. «يد اللّه» هي قدرته ورحمته وعلمه، أم بصيغة واحدة كل قدراته رحمانية ورحمية على علمه الطليق، كما أن قدرته طليقة، فهذه اليد المغلولة تعني تحديدها عن طلاقتها، مغلولة بما غلَّها هو نفسه بخلًا، أم بما غلَّها غيره سلطة عليه، أم بما كانت مغلولة منذ الأول قصوراً ذاتياً! والجمع هو ثالوث الغل، في تكوين وتقدير وتشريع، فقد كانوا يحيلون النسخ على اللّه وهذا غل ليده في التشريع.

وذلك الثالوث تشمله «يد اللّه مغلولة» مهما تشعبت الآراء المعلولة المغلولة فيما بينها.

وهنا «ينفق كيف يشاء» تختص غلها بحقل الإنفاق كما في «لا تجعل يدك مغلولة الى عنقك» وعلَّ المعني من «يداه مبسوطتان» يد الرحمة والغضب، أنه ليس مسيَّراً فيها فله الخيار حسب الحكمة الربانية في البسط والإقتار، فلا بسطه في الإنفاق دليل أنَّه مُجبَر، ولا إقتاره دليل الغل المسيَّر.

لقد قيل في اللّه كثير من القيلات الغيلات ولم يسد أبوابها تسييراً عن نفسه تعالى وتقدس فكيف يسده عن خلقه اللّهم إلَّا فضحاً لأصحابها بقيلاتهم أنفسهم الويلات فإنه لا يفلح الظالمين «إن يحيى بن زكريا سأل ربه فقال يا رب إجعلني ممن لا يقع الناس فيه فأوحى اللّه يا يحيى هذا شيءٌ لم أستخلصه لنفسي كيف أفعله بك إقرأ في المحكم تجده: «وقالت اليهود عزير ابن اللّه وقالت النصارى المسيح ابن اللّه وقالوا يد اللّه مغلولة وقالوا وقالوا». «٢»

---

(١)). سورة المائدة ٥: ٦٤

(٢)). الدر المنثور ٣: ٢٩٦- اخرج الديلمي في مسند الفردوس عن انس مرفوعاً ان يحيى ...

وفيه أخرج أبو نعيم في الحلية عن جعفر بن محمد عليهما السلام قال: إذا بلغك عن اخيك شيءٌ يسوءك فلا تغنم فانه إن كان كما يقول كانت عقوبة أجلت وإن كانت على

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٩

لا يامر ولا ينهى الا العامل او المتعامل

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَاتَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُون» «١»

«ألم ترا إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية اللّه أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلممون فتيلًا. أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة» «٢»

«ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيَّت طائفة منهم غير الذي تقول» «٣»

هذا وكما توحي به التالية لآية المقت أيضاً: آية البنيان المرصوص، ولكنما النصوص القرآنية أبعد مدى من الحوادث المفردة الماضية التي تنزل الآيات لمواجهتها، فعلينا أن نسير في مسيرات مدلولاتها العامة والمرسلة، دون أن نختصها بمناسبات نزولها فنموّت القرآن بموتها وهو كتاب الحياة الخالدة يجري كجري الشمس.

فآية المقت تعلمنا ضابطة عامة أن القول المنافق مقت كبير، كما أن القول الموافق له واجب كل مؤمن، فليكن المعني من القول هنا هو المطلوب فعله، سابقاً أو لاحقاً و على أية حال، فمن الأقوال ما يطلب تركها كالمنكرات، ومنها ما لا فعل لها، فليسا هما داخلين في نطاق الآية التي تندد بالذين يقولون ما لا يفعلون.

ثم القول هنا يشمل الوعد الحسن فيجب الوفاء به، والأمر بالمعروف والنهي عن

---

(١)). سورة الصّف ٦١: ٢

(٢)). سورة النّساء ٤: ٧٨

(٣)). سورة النّساء ٤: ٨١

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٠

المنكر، فيجب على الآمر الإئتمار بما يأمر به، وعلى الناهي الإنتهاء عما ينهى عنه، وكذلك سائر الأقوال الحسنة الواصفة للحسنات، أو المخبر بها، فلتُصدَّق في فعلها من قائلها، فإذا كان القول الحسن هناوهناك لا يجاوبه الواقع، فليترك هذا القول فإنه تقوُّل انقلب سيئاً ومقتاً كبيراً عند اللّه إذ ينافق فعلَه، مهما كان حسناً عند اللّه لو يوافق فعله، إذ لا قيمة لقول لا يسنده ويسانده فعله، فإما السكوت عن هكذا قول، أم ضم الفعل إليه كما يستطاع.

فخلف الوعد مقت ولو مع الكفار غير الناقضين عهودهم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مقت لمن لا يأتمر فيما يأمر أو لا ينتهي عما ينهى: «أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون» «١» فهذا النفاق في الأمر والنهي إفساد، وإن كان القصد منهما الإصلاح، وكما يشير إليه شعيب عليه السلام: «وما أُريد أن أُخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أُريد إلا الإصلاح ما استطعت ..» «٢» فتارك المعروف المأمور من قبل تاركه، وفاعل المنكر المنهي من قبل فاعله، انهما يزدادان جرأة وهتكاً في حرمات اللّه، ووهناً في عقيدة الإيمان إن كانت لهما، وان ذلك يكشف عن أن الآمر الناهي كأنه وكما اللّه يحب هكذا مقاتلين، فإنه كذلك يبغض غيرهم، ممن لا يقاتل هكذا في ظروفها الموجبة، بين من يترك القتال الواجب، أو يقاتل في غير سبيل اللّه، أو في سبيل غير اللّه، أو يقاتل في سبيله منعزلًا عن صف كبنيان مرصوص، كالهجمات والمدافعات الفوضى، دون نظام وقيادة، اللهم في الدفاع الفردي، دون الجماهيري، فمنذ اليوم الأول قام مجتمع إسلامى ذو قيادة مفترضة الطاعة هي قيادة الرسول محمد صلى الله عليه و آله وقبل أن تقوم دولة الإسلام في المدينة المنورة، فتلك القيادة الجزئية الصغيرة الحجم ظاهراً، كانت حجر الأساس للدولة الإسلامية في المدينة وعلى طول الخط.

---

(١)). سورة البقرة ٢: ٤٤

(٢)). سورة هود ١١: ٨٨

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥١

والقرآن- دائماً يبني أولًا أفراداً، كما لمسناه من الآيتين الأوليين، أن يكونوا مؤمنين صادقين غير منافقين، وأن تكون حياتهم تسبيحات للّه، ثم يتبنى هؤلآء- كلبنات لبناء هيكل الإسلام- يتبناهم جماعة موحدة مسلمة رزينة رصينة متراصة، فطالما الشر عارم، والباطل متبجح، والشيطان يقود، من ثم يتعين على حَملة الإيمان وحرّاسه أن يكونوا نبهاء أقوياء ليغلبوا عملاء الشيطان، ولكي يقاتلوا في سبيل

الله وحده، فيما لا سبيل للحراس على كيانهم إلا القتال وحده، فالله سبحانه وتعالى لا يُشهّي المؤمنين- فيه، وإنما يفرضه فيما يحتمه الواقع، ولدافع مدقع، حفاظاً على الكرامة، وحسماً لمواد الفساد التي لا يحسمها إلا القتال، ممن «يقاتلون في سبيل الله صفاً كأنهم بنيان مرصوص»: بنيان تتعاون لبناته، وتتضامُّ متماسكة، تؤدي كل لبنة دورها وتسد ثغرتها، ولكي يسدوا ثغور الإسلام عن هجمات الكافرين.

وجوبهما كفائيا على الصالحين

إن آية الإعتصام هي القمة في محاور الأمر المؤكد في هذه الآيات التي تتبنى قوة المؤمنين، فتقوى الله حق تقاته غير ميسورة إلَّا بذلك الإعتصام، وحين تتقلت أفراد من المؤمنين أو جماعات عن ذلك الإعتصام فهنا أمر وقائي للحفاظ على ذلك الإعتصام الذي يحتضن حق تقاة الله، وقد تكفلته هنا آيتان فرضاً لمثلث الدعوة الى الخير والامر بالمعروف والنهي عن المنكر بفصل آيات خمس فيها تنديدات شديدة بالمسودَّة وجوههم المتخلفين عن حبل الله.

«وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» «١»

«منكم أمة» في تكوين هذه الأمة دليل الكفائية في ذلك الفرض الجماهيري وقايةً للأمة ككلٍّ عن كل تشرد وتخلف، وحمايةً لتحقيق الواجبات الفردية والجماعية،

---

(١)). سورة آل عمران ٣: ١٠٤

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٢

حيث التخلف هو طبيعة الحال في أية أمة من الأمم، فواجب الوقاية لهم يفرض عليهم تكوين أمة داعية إلى الخير آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر «وأولئك» الأركام داعين ومدعوين «هم المفلحون».

وخطاب «ولتكن» هو موجه إلى كافة المؤمنين، دون خصوص الداعين لمكان «منكم» فعلى المؤمنين ككل تكوين هذه الأمة من أنفسهم، انتخاباً لنخبة صالحة إن كانت كائنة، أم تكويناً لها قدر الكفاية لواجب الدعوة والامر والنهي.

وقد تعني «من» هنا التبيين إلى جانب التبعيض، تبعيضاً بالنسبة للمسلمين انفسهم، وتبييناً بالنسبة لكافة المكلفين، أن يكون المؤمنين انفسهم ككلٍّ دعاةَ الناس إلى الخير ثم أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر.

فواجب الدعوة والأمر والنهي في الوسط الإسلامى كفائي، وفي الوسط العالمي عينيٌّ إذ لا كفاية في دعوة البعض، ولا أقل من أن يكونوا دعاة الناس بغير ألسنتهم، وأمثولات الحق بأقوالهم وأفعالهم وأحوالهم.

وواجب التكوين ذو بعدين اثنين أن يصنع كلٌّ نفسه لصالح الدعوة ويصنع آخرين لها يدعوهم لذلك الصالح الجماهيري، تواصياً بينهم بذلك الحق الحقيق بالتواصي كرأس الزاوية في التواصي الإيماني السامي.

و «الخير» المدعو إليه هنا هو الخير الايماني والتقوى والإسلام المتبنية خير الإعتصام بحبل الله جميعاً دون تفرق، والجامع لها على حد قول الرسول صلى الله عليه و آله «إتباع القرآن وسنتي» «١» الذي يتوحد في الإعتصام بحبل الله جميعاً دون تفرق، فكما حبل الله واحد في اصله، كذلك الخير، فأصل الخير هو حبل الله كما أن حبل الله هو الخير.

ثم الخير هنا مبتدءٌ بالسلب وهو ترك ما يناحر الإعتصام بحبل الله، ومختتم بالإيجاب وهو نفس الإعتصام، وهكذا يكون كل خير كما ومبدء كل خير هو المركب

(١)). الدر المنثور ٢: ٦٢- اخرج ابن مردويه عن ابي جعفر الباقر عليه السلام قال: قرأ رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله «ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ..» ثم قال: الخير اتباع القرآن وسنتي

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٣

من السلب والايجاب: «لا إله إلا اللّٰه».

إذاً ف «الخير» تعم خيراً ثقافياً- عقيدياً- خُلُقياً- وعملياً، ايجاباً للواجبات وسلبا للمحرمات، وهذا هو رأس الزاوية في «الحافظين لحدود اللّٰه» ثم يأتي دور الأمر والنهي بشروطهما المسرودة في الكتاب والسنة، فلا أمر ولا نهي قبل الدعوة الصالحة إلى الخير، ف «أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين» «١»

وأيم اللّٰه إن «هذه لآل محمد صلى الله عليه و آله ومن تابعهم يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف أوينهون عن المنكر» «٢» دون هؤلآء الذين يجب أن يُدعَوا الى الخير ويأمروا ويُنهوا.

ولقد أمضينا القول الفصل حول هذين العمادين الإسلامين على ضوء قوله تعالى «أتأمرون الناس بالبر» و «لم تقولون ما لا تفعلون» واضرابهما فلا نعيد. «٣»

والجدير بالذكر هنا ضرورة الطاقة القوية الصامدة في هذه الأمة الداعية الآمرة الناهية، ولا سيما الأخريان، حيث إن القضية الطبيعية للأمر والنهي هي السلطة الصالحة لتنفيذهما قدر المقدور.

لا أقول إنها هي السلطة الزمينة، فقليل هؤلآء المرسلون والذين معهم لهم تلك السلطة، وواجب الدعوة والأمر والنهي كان عليهم لزاماً أولياً.

إنما أقول، هي الطاقة النفسية والثقافية أماهيه من طاقات تسمح لتلك الدعوة الصارمة والامر والنهي من وراءها.

فهذه الزوايا الثلاث المحمَّلة على تلك الأمة ليست باليسيرة الهينة، حيث تصطدم بطبيعة الحال بشهوات الناس ونزواتهم ومصلحياتهم، بغرورهم وكبريائهم ونخوتهم، وفيهم جبارون غاشمون، والهابطون الكارهون لكل صعود روحي او عملي، وفيهم

---

(١)). سورة النّحل ١٦: ٢٥

(٢)). نور الثقلين في تفسير علي بن ابراهيم في رواية ابي الجارود عن ابي جعفر عليه السلام في الآية: فهذه.

(٣)). الفرقان ١: ٣٧٣- ٣٨٥ و ٢٨: ٢٩٨- ٣٠١

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٤

المسترخي المهمِل الكاره لكل جدٍّ واشتداد، فلتتزود تلك الأمة بكل قوة وسداد، وهزم واجتهاد واستعداد لمواجهة المكاره المضْنية والمعارك الدموية «أولئك هم المفلحون».

وتعقيبة الآية هذه الواصفة لهذه الامة الداعية بالإفلاح، هي من عساكر الدلائل على اشتراط المعرفة بالخير وفعل المعروف وترك المنكر للداعي الآمر الناهي، فان فاقدها أم فاقد أحدها ليس من المفلحين، بل هو من الفالجين المفلجين!.

«وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» «١»

«لا تكونوا كالذين تفرقوا» عن حبل الله، وعن الاجتماع في الاعتصام به «واختلفوا» فيما بينهم عن جميعة الإعتصام، اعتصاماً بحبل وتركاً لآخر، ام تبعيضاً في كل حبل كتاباً وسنة، وذلك السقوط الجارف الخارف «من بعد ما جاءهم البيّنات» الداعية إلى الوحدة الإيمانية الجماهيرية، وأية بيّنة أبين من بينة الوحي الصارم وهو حبل الله المعتصَم به لمن أراد الإعتصام.

«واولئك» الحماقى البعاد «لهم عذاب عظيم» في الأولى والأخرى، إذ يعيشون شفا حفرة من النار ... أجل وإن الإختلاف في المذاهب هو نتيجة طبيعية للتفرق عن حبل الله، أن يتخذ كلٌّ لنفسه وذويه مذهباً يعتبره كأنه الإسلام كله وما سواه كفر، وكما ابتليت الأمة الإسلامية كالذين مِن قبلهم بذلك فاختلفوا بعد ما تفرقوا أيادي سبا، وفصلت بينهم شتى المذاهب واستعبدتهم السلطات الإستعمارية، فأصبحت الإمة الإسلامية على سعتها وسيادتها شذر مذر أيادي سبا! وقد تواتر عن الرسول صلى الله عليه و آله إنباءه عن افتراق الأمة الإسلامية إلى ثلاث وسبعين فرقة واحدة منها ناجية وهي الجماعة «٢» تعني المعتصمين بحبل الله جميعاً، دون أية جماعة فان كل فرقة جماعة لا

---

(١)). سورة آل عمران ٣: ١٠٥

(٢)). الدر المنثور ٢: ٦٢- أخرج أحمد وأبو داود والحاكم عن معاوية قال قال رسول الله صلى الله عليه و آله إناهل الكتاب تفرقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة وتفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين ملة كلها في النار الا واحدة وهي الجماعة ويخرج في امتي اقوام تتجارى تلك الأهواء بهم كما يتجارى الطلب بصاحبه فلا يبقى منه عرق ولا مفصل إلّا دخله، وفيه عن انس عنه صلى الله عليه و آله في لفظ آخر قال: الجماعة الجماعة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٥

محالة، فالفرقة المعتصمة بحبل الله في ثقليه هي الفرقة الناجية، وغيرها من الفرق غير ناجية! مهما كانت سنة او شيعة، ف «ليس بأمانيكم ولا أماني الكتاب من يَعمل سوءً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً» «١»

وفي أخرى أن الواحدة ما أنا عليه اليوم وأصحابى «٢» وهم الذين معه في حمل هذه الرسالة السامية بحذافيرها.

وترى التفرق والإختلاف في الفروع الأحكامية لاختلافٍ في تفهم البينات، ولان المجتهدين ليسوا بمعصوين، هل هو داخل في تهديد العذاب الأليم؟.

---

(١)). سورة النّساء ٤: ١٢٣

(٢)). المصدر اخرج الحاكم عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه و آله يأتي على امتي ما أتىعلى بنى اسرائيل افترقوا على إحدى وسبعين ملة وتفترق امتي على ثلاث وسبعين ملة كلها في النار إلا ملة واحدة فقيل له ما الواحدة؟ قال: ما انا عليه اليوم واصحابي.

في ملحقات احقاق الحق (٧: ١٨٤) الشيخ حسين الصيمري في الالزام قال روى الحافظ أحمد بن موسى الشيرازي- الى ان قال-: رووا عن انس بن مالك قالوا كنا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه و آله ... فقال: يا ابا الحسن إن امة موسى افترقت على إحدى وسبعين فرقة فرقة ناجية والباقون في النار وان امة عيسى افترقت على اثنتين وسبعين فرقة فرقة ناجية والباقون في النار وستفترق

أمتي على ثلاث وسبعين فرقة فرقة ناجية والباقون في النار فقلت يا رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله فما الناجية؟ قال: المستمسك بما انت وشيعتك واصحابك ...

وممن اخرجه علي بن عبدالعال الكركي في نفحات اللاهوت (٨٦) والتونسي الشهير بالكافي في السيف اليماني المسلول (١٦٩).

وفيه (١٤: ٥٩٦) الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل (١: ٦٨) اخبرنا محمد بن علي بن محمد المقرى ان ابي قال: ... عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال قال لي سلمان الفارسي ما طلعت على رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله يا ابا الحسن وانا معه إلا ضرب بين كتفي وقال: يا سلمان هذا وحربه هم المفلحون وفي لفظ آخر عن سلمان الخبر فقال يا ابا الحسن قلما اقبلت انت وانا عند رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله إلا قال: يا سلمان هذا وحزبه هم المفلحون يوم القيامة.

ورواه عن الحسن حسين بن الحكم الجري وأبو القاسم سهل بن محمد بن عبد اللّٰه مثله

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٦

كلَّا، وإنما هو التفرق عن حبل اللّٰه والإختلاف فيه أو عنه بعد البينة علماً وعتواً وتقصيراً، وأما القصور بعد صالح الجهد والاجتهاد- جمعاً بين جمعية الإعتصام التي تضمن شورى بينهم- فلا، بل هو مشكور محبور مهما كان للمخطىء غير المقصر أجر واحد وللمصيب أجران.

«يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ» «١»

هنا اسوداد خاص للوجوه الخصوص، هؤلآء الذين كفروا بعد ايمانهم اهلَ كتاب او مسلمين حيث تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البيّنات، وهي ضمن سائر الوجوه الكافرة، ومن العُجاب أن كل مذهب يذهب الى أن غيره من المسودة وجوههم باختلاق روايات وتكلف تأويلات «٢» تفرقاً في ذلك اختلافاً بعد ما جاءتهم البينات، وإن المسودة وجوههم هم المتخلفون عن الإعتصام بحبل اللّٰه جميعاً، ومن المجمع عليه ضرورياً بين كافة المسلمين أن علياً عليه السلام من المبيضة وجوههم، فالذين معه هم من هؤلآء الوجوه النيرة، فسواهم سواهم، وعلى الجملة فهذه الوجوه المسودة هي من ضمن سائر الوجوه الكالحة: «ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على اللّٰه وجوههم

---

(١)). سورة آل عمران ٣: ١٠٦

(٢)). الدر المنثور ٢: ٦٢- اخرج الخطيب في رواة مالك والديلمي عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه و آله فيالآية قال: تبيض وجوه اهل السنة وتسود وجوه اهل البدع، وفيه اخرج ابو نصر السنجري في الامانة عن أبي سعيد الخدري أن رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله قرأ هذه الآية قال: تبيض وجوه اهل الجماعات

والسنة وتسود وجود اهل البدع والأهواء.

اقول: ان كان هذا قول الرسول صلى الله عليه و آله فهو لا يقول الا عن اللّٰه، فالجماعة والجماعات هم المعتصمون بحبل اللّٰه جمياً، واهل السنة هم المعتصمون بسنة الرسول على هامش كتاب اللّٰه، ونرى قسماً ممن يسمون باهل السنة تاركين للكتاب والسنة وكما نرى قسماً ممن يسمون بالشيعة امثالهم، فالمعتصمون جميعاً بالكتاب والسنة جميعاً هم من الذين ابيضت وجوههم.

اترى القائل هذا كتاب اللّٰه حسبنا رفضاً لوصية رسول اللّٰه وهي اسنى السنة وأسنّها، هو من الذين ابيضت وجوههم، والمعتصمين بتلك الوصية وسائر السنة التي حملها العترة الطاهرة هم من الذين اسودت وجوههم؟!

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٧

مسودة» «١» «وجوه يومئذ عليها غبرة. ترهقها قترة» «٢» «وجوه يومئذٍ باسرة. تظن ان يفعل بها فاقرة» «٣»

ثم هنا «فذوقوا العذاب» يعم خالده وسواه، فان الضالين من المسلمين ليسوا على سواءٍ، فمنهم من يذوق العذاب ثم ينجو، وفي ذوق العذاب دون دخوله تلميح مليح أنهم لا يستحقون دخول النار ولا خلوده، إلا من يستحقه بارتداد وسواه من شاكلة الكفر بعد الإيمان.

«وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» «٤»

فالخلود في رحمة الله هو الأبدية اللانهائية فإنها عطاءٌ غير مجذوذ قضيةَ الفضل في رايعة الرحمة، وذوق عذاب الله مقدَّر الإستحقاق فإنه جزاءٌ وفاق قضيةَ العدل فإنه مضيق، واللّانهائية في العذاب ظلم فانها جزاءٌ غير وفاق.

هكذا ينبض المشهد بحوار مع المعتصمين بحبل الله والكفار في دار القرار، معروضة عليهم في دار الفرار، نبهة لهم عن غفوتهم، وادركاً بعد سهوتهم و:

«تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعالَمِينَ» «٥»

«تلك» البعيدة المدى، القريبة الهدى «آيات الله» رسولية ورسالية «نتلوها عليك بالحق»- «آيات بالحق- نتلوها بالحق- عليك حالكونك بالحق- بسبب الحق ومصدره- مصاحبة للحق- لغاية الحق- بياناً للحق، «وما الله يريد ظلماً للعباد» بل هم انفسهم يظلمون، وكما في حديث قدسي «خلقتهم ليربحوا علي لا لأربح عليهم» «٦»

ف «تلك» المساير والمصاير، تلك الحقائق البينة الصادرة من رب العزة غير

---

(١)). سورة الزمر ٣٩: ٦٠

(٢)). سورة عبس ٨٠: ٤٠

(٣)). سورة القيامة ٧٥: ٢٤

(٤)). سورة آل عمران ٣: ١٠٧

(٥)). سورة آل عمران ٣: ١٠٨

(٦)). تفسير الفخر الرازي ٨: ١٧٢ قال عليه الصلاة والسلام حاكياً عن رب العزة سبحانه: ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٨

السادرة، «تلك» هي «آيات الله» دون ما سواها، دالة بأنفسها انها ربانية المصدر والصدور، «نتلوها عليك» يا حامل الرسالة الأخيرة «بالحق» الثابت الحقيق بالبقاء دون نسخ ولا تحديف او تحريف «وما الله يريد ظلماً للعالمين» وهو القوي العزيز، فإنما يحتاج إلى الظلم الضعيف!.

«وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ» «١»

وترى ماذا يعني رجوع الامور إلى الله، وهي في علمه وسلطانه، غير خارجة عنهما ما وُجدت؟ إنه تعالى ملّكنا في دار التكليف والإمتحان أموراً نحن فيها مستخلَفون ليبلونا أينا أحسن عملاً، ثم عند تقضّي هذه الدار وانتقال هذه الحال ترجع أمورنا المخيرة لنا الى الله مسيَّرة علينا، وكما كنا أجنة في بطون أمهاتنا دون حول ولا قوة إلّا بالله.

إن الامور المسيَّرة هي راجعة الى الله على أية حال حيث لا فاعل لها إلا الله، فانما الامور المخيرة هي الراجعة الى الله في يوم الله، حيث الله يحاسبها ويجازى عليها، وقد كان قبلُ يعلم مصادرها ومسايرها ومصائرها، والى ما ترجح أوائلها وأواخرها، فقد رجعت الآن إلى ما كان يعلم الله، فاتقوه أن توافوه بمعاصيكم ومآسيكم.

كما وأن ناساً في هذه الأدنى ربما يخيل إليهم زوراً وغروراً أنهم يملكون لأنفسهم أم ولسواهم نفعاً أو ضراً دون تخويل من الله أو تمويل، إضافة للمخصوص بالله إلى أنفسهم، خلعاً لبعض صفاته عنه الى خلقه، فإذا انحسر قناع الشك، وانكشف غطاء الرأس، واضطر الناس الى معارف وانقطع التكليف وتقوضت الدنيا بحذافيرها، علم الجميع ألّا مؤثر في الكون ألّا الله «وإلى الله ترجع الامور» على أية حال في الأولى والأخرى مهما اختلفتا تخييراً وتسييراً.

فهنا الرجوع ليس إلّا بالنسبة لمعرفة الغافلين، وليس حقيقةَ الرجوع لأنها كائنة على أية حال.

---

(١)). سورة آل عمران ٣: ١٠٩

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٩

ذلك! وأصل الرجوع هو الإنعطاف والإنقلاب بشيءٍ، لا أنه كان عندك ففارقك تماماً او بعضاً، وإنما الإنعطاف بعد الإنحراف، والإنقلاب بعد الانغلاب، فالسابقون هم راجعون بأمورهم إلى الله إذا ما يشاءون إلا أن يشاء الله وكما يروى عن علي عليه السلام: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً.

«كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمْ الْفَاسِقُونَ» «١»

أترى مَن هم المعنيون هنا ب «كنتم»؟ أهم أمة الاسلام كلهم ومنهم- وهم اكثرهم- فسقة يُدعَون إلى الخير ويُؤمَرون ويُنهَون وقد لا يأتمرون أو ينتهون! ثم ولا تختص الفريضتان بهذه الأمة، بل تحلِّفان على كل الأمم الرسالية حفاظاً عليها: «ومن قوم موسى امة يهدون بالحق وبه يعدلون» ام هم الأمة الآمرة الناهية، وهم عدول الأمة الإسلامية وربانيُّوها، المتوفرة فيهم شروطات الأمر والنهي، حيث الخطاب يخص السابق ذكرهم في «ولتكن منكم امة»؟ فكذلك الأمر في الأمرين وهو أممية ذلك الفرض الرسالي دون اختصاص بالدعاة المسلمين!.

فهم الأمة الوسط بين الرسول والأمة، التي وجبت لها دعوة ابراهيم عليه السلام «٢»: «ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسلمة لك» «٣»

ذلك! مهما شملت هذه الأمة في ذيلها ربَّانِيَّ الامة الاسلامية، فهما- بين كل الامم الداعية في التاريخ الرسالي- خير امة اخرجت للناس، وهم كل المرسل إليهم، أم هم المسلمون الأوّلون إذا كانوا خير أمة آمرة ناهية مؤمنة؟ ومتى كانوا هم كلهم كذلك ثم تحوَّلوا عن ذلك! أفي العهد المكي؟ لم يكن هناك أي مجال لأمر او نهي أللّهم إلّا أمر

---

(١)). سورة آل عمران ٣: ١١٠

(٢)). نور الثقلين ١: ٣٨٢ في تفسير العياشي عن ابي عمرو الزبيري عن ابي عبد اللّه عليه السلام في قول‌اللّه: «كنتم خير امة» قال: يعني الأمة التي وجبت لها دعوة ابراهيم عليه السلام فهم الأمة التي بعث اللّه فيها ومنها واليها وهم الأمة الوسطى، وفي تفسير البرهان (١: ٢٠٧) القمي

(٣)). سورة البقرة ٢: ١٢٨

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٦٠

الحفاظ على أنفسهم وعقائدهم! أم في العهد المدني؟ والآية نازلة فيه! أم في بدايته؟

والنهاية كانت أحسن من البداية وقد تمركزت دولة الإسلام!.

ثم وهم بدايةً ونهايةً في ذلك العهد لم يكن الآمرون منهم والناهون إلّا الأقلين، وكما الحالة نفس الحالة في كل الأدوار الإسلامية!.

هنا «أمة» هم الأمة الآمرة الناهية، فالآمرون الناهون من المسلمين هم خير الدعات في تاريخ الدعوات «١» على مدار الزمن الرسالي، لا سيما بمن فيهم من السدة العليا لرسولية والرسالية محمد وعترته المعصومون عليهما السلام «٢»

صحيح أن الأمة الإسلامية هي خير الأمم رسولياً ورسالياً لإسلامها السليم، ولكنهم ليسوا- ككلٍّ- خير الأمم، وانما هم الدعاة المعصومون عليهما السلام.

فالخطاب هنا يشمل مثلث الدعاة إلى اللّه في هذه الأمة، والمعصومون منهم هم رأس الزاوية، ثم الربانيون، ومن ثم سائر الآمرين- من الامة- والناهين.

إذاً فهو خطاب يحلِّق على كل الأدوار الرسالية الإسلامية منذ الرسول صلى الله عليه و آله إلى يوم الدين، فهم أولآء الثلاثة هم «خير أمة» آمرة ناهية على مدار الزمن الرسالي بكل خيوطه وخطوطه.

«أخرجت» اصطفاءً بين الكل «للنّاس» كل الناس، فهم كل من سواهم من سائر المكلفين مسلمين وكتابيين وسواهم.

وقد تلمح «كنتم» الماضية، دون «انتم» «٣» الطليقة عن اي زمان خاص، أن الميزة

---

(١)). الدر المنثور اخرج جماعة عن معاوية بن حيدة انه سمع النبي صلى الله عليه و آله في هذه الآية قال: انكم‌تتمون سبعين امة انتم خيرها واكرمها على اللّه

(٢)). نور الثقلين رواية ابي الجارود عن ابي جعفر عليهما السلام في الآية: فهذه الآية لمحمد صلى الله عليه و آله وآله ومن تابعهم يدعون ...

وفي الدر المنثور اخرج ابن ابي حاتم عن ابي جعفر عليهما السلام: كنتم خير امة ... قال: اهل بيت النبي صلى الله عليه و آله

(٣)). نور الثقلين ١: ٣٨٢ في كتاب المناقب لأبن شهر آشوب وقرأ الباقر «انتم خير امة» بالألف نزل‌بها وهم الأوصياء من ولده اقول: «انتم» مرفوضة لمخالفتها نص الكتاب «كنتم»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٦١

البارزة في دعاة هذه الأمة ماضية في بشارات من كتابات الوحي، وكما نراها فيها «١» كما هي ماضية في علم اللّه، فلا تخالفوه، وحقّقوه بأعمالكم ليكون آكد لحجتكم على اعداءكم تحقيقاً حقيقاً لتلكم البشارات، وإلا فقد يجد الطاعن منهم فيكم مطعناً والغامز مغمزاً.

إذاً فلا تعني «كنتم» هنا إلا العَليَّة من هذه الأمة دون الدنية او الوسيطة البسيطة، أنهم كانوا قبلئذٍ «خير أمة» ثم غيروا منذ الخطاب!.

إذاً فهي ماضية في الرسول صلى الله عليه و آله وعترته الطاهرة عليهم السلام والذين معهم طول الزمن دعاةً إلى اللّه حتى القيامة الكبرى.

ومما يبرهن بقاء الكينونة المشرفة الماضية واقع الداعية الإسلامية من رباني الأمة مهما قلوا، كما و «تأمرون وتنهون» في مضارعتها دليل استمرارية هذه الخيرية، ف «كنتم .. تامرون ..» ماض بعيد مستمر مع الزمن الرسالي الاسلامي دونما انقطاع مهما لم تكن فيهم الكفائَة بتقصير من قصّر.

وصحيح ان الدعات المعصومين عليه السلام هم خير ائمة «٢» ولكن لفظ الآية «خير أمة»

---

(١)). ففي سفر التثنية ١٧: ٢٠ يقول ما ترجمته الحرفية كالتالية: ولإسماعيل سمعته (إبراهيم) هاانا اباركه كثيراً وانميه واثمره كثيراً وارفع مقامه كثيراً بمحمد واثني عشر اماماً يلدهم (إسماعيل) واجعله امة كبيرة.

ويعبر داود عليه السلام عن دعاة هذه الأمة بالاصفياء، كما في مزمور (١٤٩: ١ و ٦- ٩) من الزبور هللويا. رنّموا للرب ترنيماً جديداً، اقيموا تسبيحه في مجمع الإصفياء، يبتهج الأصفياء في المجد يرنمون على أسرتهم. تعظيم اللّه في افواههم وبأيديهم سيف ذو حدين. لا جراء الانتقام على الامم والتأديب على الشعوب. لا يثاق الملوك بالقيود وشرفائهم بكبول من حديد ليمضوا عليهم القضاء المكتوب. هذا فخر يكون لجميع الأصفياء هَلَلويا».

وفيه ٤٥: ١٨ يكون بنوك عوضاً من آباءك تقيمهم رؤساء على جميع اهل الأرض، سأذكر اسمك فى كل جيل فجيل. لذلك يعترف لك الشعوب.

وفي «نبوئت هَيِّلِدْ»: وحي الطفل: ستأتي امة تزعزع العالم وتحدث خرابات واطفاآت بيد ابن الأمة (راجع رسول الاسلام في الكتب السماوية)

(٢)). من مثلهم في التوراة ما اخرجناه من البشارات، ومن مثلهم في الانجيل: «في أبناء الملكوت‌حبات الحنطة التي تعطي مأة ضعف وفيهم اولاد إبليس» (متى ١٣: ٢٤- ٣٠ و ٣: ٤٧- ٥ و ٢٢: ١٠) «ابناء الملكوت هم ملح الأرض وبقدر ما يحتاج الطعام الى الملح فكذلك كل العالم وجميع اقوام كرة الأرض يفتقرون الى ابناء ملكوت اللّه» (متى ٥: ١٤- ١٦) «راجع صفحه ١٢٦- ١٢٧ من رسول الاسلام)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‌٧، ص: ٦٢

تعني خير الامم الداعية الآمرة الناهية، فهم في التنزيل «خير أمة» وفي التأويل «خير أئمة» كقادة لهؤلاء الأكارم.

ولقد تكفي آية الفتح بيانا لهم وتعريفاً بهم: «... والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلًا من اللّه ورضواناً سيماهم في وجوههم من اثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل كزرع اخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد اللّه الذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات مغفرة واجراً عظيماً» «١»

ف اختلاق «أنتم خير امة» دلالةً على ثبوت هذه المواصفة لهم دون تقضٍ قضيةَ المضي في «كنتم» ليس إلّا لسوء الفهم وقلة الحزم.

وما اجهله في تفهم معاني القرآن من يبتدر باختلاق امثال هذه المختلقات الزور، تزييفاً لموقف القرآن «وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً»!.

ف «أخرجت للناس» هو الإخراج التصفوي من كل الناس المرسل اليهم على مدار الزمن الرسالي، أخرجهم الله إلى الوجود في آخر الزمن بين مَن هم من الدعاة على ضوء هذه الرسالة السامية الأخيرة، فعليهم– اذاً– دعوة الناس جميعاً إلى الخير، سواء ناس الإسلام ومَن سواهم من الناس، حَملًا لحِمل الرسالة الإسلامية بكل

---

(١)). المصدر في تفسير القمي بسند متصل عن ابن سنان عن ابي عبد الله عليه السلام قال قرأت على ابي عبد الله عليه السلام «كنتم خير امة» فقال ابو عبد الله عليه السلام خير امة تقتلون امير المؤمنين والحسن والحسين ابني علي عليهما السلام؟ فقال القارىء جعلت فداك كيف نزلت؟ فقال: كنتم خير أئمة أخرجت للناس، الاترى مدح الله لهم «تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بللّه»؟.

وفيه عن تفسير العياشي ابو بصير عنه عليه السلام قال: انما انزلت هذه الآية على محمد صلى الله عليه و آله فيه الأوصياء خاصة فقال: كنتم خير ائمة اخرجت للناس ... هكذا والله نزل بها جبرئيل وما عنى بها إلا محمداً وأوصيائه صلوات الله عليهم

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٦٣

أعباءها الثقيلة إلى مشارق الأرض ومغاربها كافضل ما يرام، حيث الدعوة في مادتها ومدتها، في عِدَّتها وعُدَّتها شاملة كاملة.

وخير أدوارها المحلِّقة على كافة المكلفين هو دور القائم المهدي من آل محمد صلوات الله عليهم أجمعين الذي به يملأ الله الارض قسطاً وعدلًا بعد ما ملئت ظلماً وجوراً، وعلى الامة الإسلامية على مدار الزمن وقبل آخر الزمن تحقيق هذه الفضيلة الكبرى قدر المستطاع والإمكانية، تخليصاً لأنفسهم عن حكم الطواغيت وتعبيداً لطريق المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف.

والمواصفات الثلاث لهم: «تأمرون بالمعروف– وتنهون عن المنكر– وتؤمنون بللّه» في كونهم خير أمة، تقضي أنهم في القمة المرموقة من هذه الثلاث، فان أصولها مشتركة بين الأمم كلها، وكما أن «كنتم تامرون» تضرب الى اعماق الماضي الرسالي بشارة، كذلك استمرارية استقبالته واقعاً مهما تخلف عن واجبهم متخلفون، فانهم لا يُعنون من «كنتم» ولا «تأمرون».

وكما ان الدعاة المعصومين من هذه الأمة هم خير أمة أخرجت للناس، فليكن كذلك من يخلفهم من الربانيين المسلمين، ثم المسلمون ككل.

و «اخرجت» مجهولة لتشمل الإخراج الرباني أمراً منه في «ولتكن» وانتصاباً للقمة العليا وهم المعصومون في الرسل والرسالات، وانتخاباً من الأمة هذه الأمة الصالحة للدعوة والامر والنهي.

فما لابد منه كافة الأمم الرسالية إخراج أمة لهذه المسئولية الكبرى التي هي استمرارية للرسالات حيث تعنيهم– فيما تعني– «الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً».

فكما الرسل والائمة المعصومون هم الأمة العليا في حمل مسئوليات الرسالات كأصول فيها، والله هو المكِّون لهم والمنتصب إياهم، كذلك سائر الدعات الى الله، الآمرين الناهين، يجب تكوينهم في كل أمة، وذلك على عواتق الأمم كلهم، أن يكونوا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٦٤

هؤلآء الدعاة الذين هم خلفاء الرسل وربانيوا الأمم.

ف «كنتم خير امة» تعني دعاة الاسلام الآمرين الناهين، انهم «خير امة اخرجت للناس» توحيداً للأمة الداعية الآمرة الناهية على مدار الرسالات، كما الرسل واحدة وامهم امة واحدة في الدعوة مصدراً ومسيراً ومصيراً مهما اختلف شكليات من فروع لهم شرعية.

فكما «تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض» على وحدتهم، كذلك «أمة» الدعوة بعد الرسل، وكما أن خاتم الرسل هو خير الرسل، كذلك الدعاة- معه وبعده- الى الله هم «خير امة اخرجت للناس» في «تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر» حيث الدعوة درجات بمادتها وشكليتها وحملتها.

فقد اراد الله تعالى قمة القيادة لهذه الأمة البارعة، لتقود الناس ككل الى كل مصالح الدين والدنيا على ضوء الاعتصام بحبل الله جميعاً وتقوى الله حق تقاته.

فلا مجاملة هنا ولا محاباة او مصادفة، إنما هو أمر قاصد هادف أن تكون الإمامة العليا لهذه الأمة، فكما أن رسولها هو رسول الرسل ووليهم، كذلك ائمتها وسائر الأمة.

ليس توزيع الإختصاصات والكرامات هنا كما كان ولا يزال يزعمه اهل الكتاب «نحن ابناء الله واحباءه» فانما هو العمل الإيجابي الجاد لحفظ الحياة الايمانية الجماهيرية على رعاية الله، بكل ما يتطلَّبه هذه التكاليف من متاعب، قضيةَ الأمر والنهي الصارم اللذين يتبناهما الإيمان الصارم مهما كلف الأمر الإمر في هذه السبيل الشائكة الملتوية المليئة بالأشواك والعقبات، فإن زادهم في هذه السبيل هو الإيمان بالله، اعتصاماً بحبل الله جميعاً دون تفرق، بتقوى الله حق تقاته، لكي يمضوا في طريقهم الشاقة الطويلة قُدُماً، احتمالًا لكل تكاليفها وهم يواجهون الطغات البغات بكل عرامتها وشقوتها وشدتها.

ذلك! «ولو آمن اهل الكتاب» ككل «لكان خيراً لهم» إذ يصبحون- إذاً- من خير امة اخرجت للناس، ولكن «منهم المؤمنون واكثرهم الفاسقون» فالايمان خير لهم

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج۷، ص: ۶۵

فهنا يستعصمون به من الفرقة والهلهلة المحلِّقة على كل حياتهم وحيوياتهم، ويكسبون السودد- الذي- يخافون على زواله- وزيادة، وهناك في الأخرى رحمة الله ورضوانه.

وهنا «المؤمنون والفاسقون» معرَّفين تاشيراً الى المعلوم من أحوالهم لدى المتفرسين من المؤمنين، وليس يختص «المؤمنون» هنا بمن آمن منهم بالفعل إذ لا يشملهم «اهل الكتاب» بل هم من لا يفسق عن الايمان مقصراً، وأما القصور عن الايمان بالرسالة الأخيرة مع الحفاظ على أصل الايمان، فهو يُدخل القاصرين في المؤمنين.

وترى بإمكان الفاسقين منهم أن يضروا خير أمة اخرجت للناس، المتوفرة فيها المواصفات السابغة السابقة؟ كلا!:

«لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمْ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَايُنْصَرُونَ» «۱»

الأذى هي دون الضرر او الضرر الأدون وإلَّا لتناقض المستثنى منه إلا بانقطاعة منه، وعلَّ القصد منها ما يقولونه بألسنتهم تعريضاً بكم وتعبيراً لكم، دون واقع الإصطدام بايقاع الغليظ المكروه الشديد.

أم وأذى الجراح والقراح والقتل بدنياً إن يقاتلوكم، دون ضرر الغلبة بحجة أم سلطة عسكرية أماهيه، فحسن استثناء «أذىً» من «لن يضروكم» حيث إن تلك الأذى هي بالنسبة لذالك الاضرار كأنها لا تضر إذا لا تؤثر عميقاً ولا تُجحف، فحاصل المعنى «لن يضروكم إلا ضرراً قليلًا».

ولم تذكر الأذى في سائر القرآن إلّا في قليل الضرر اللّهم إلا إذا أفردت بذكر، فعامته «إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنوا في الدنيا والآخرة».

ذلك! ومتى بلغ الأمر الى المدافعة والمقاتلة وانتهى الوعيد إلى المواقعة كان المؤمنون أقوى ظهوراً وأشداً استظهاراً، والكفار أنقض ظهوراً وأضعف عماداً وأكثراً

---

(١)). سورة آل عمران ٣: ١١١

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٦٦

استدباراً، وذلك من ملاحم الغيب ودلائل صحة هذه النبوة السامية وكما رأينا في ماضي تاريخنا المجيد أن اليهود لم يقاتلوا المسلمين إلا منحوهم أكتافهم وأجزروهم لحومهم كبني قريظة وبني قينقاع، ويهود خيبر وبني النضير وكم لهم من نظير ف «لن» لها دور الإحالة لمدخولها وهو هنا «يضروكم» وهم فسقة اهل الكتاب وافسقهم اليهود و «لن يضروكم» هؤلآء بحذافيرهم أي ضرٍّ بأنفسكم وعقائدكم وكل كيانكم الإسلامي السامي «إلا أذى» وهو دون ضرٍّ «وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون» عليكم.

أترى بعدُ أن تلك الإحالة تعم كافة المسلمين وهو خلاف الواقع الملموس طول القرون الإسلامية حتى الآن؟.

كلَّا، فإنها خاصة بمن خوطبوا من ذي قبل بتحقيق شروط السيادة: إعتصاماً بالله- حيث تتلى عليهم آيات الله وفيهم رسوله- وبتقوى الله حق تقاته، وأن يعيشوا على طول الخط مسلمين لله، وأن يعتصموا بحبل الله جميعاً ولا يتفرقوا، وتكن منهم أمة داعية آمرة ناهية، وأخيراً يصبحوا من خير أمة أخرجت للناس، إذاً ف «لن يضروكم» أنتم المخاطَبون بهذه الأوامر، المحققون لها كما أمرتم «لن يضروكم إلّا أذىً وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون»!.

فلأن الأذى هي دون الضرر فالإستثناء- إذاً- منقطع، أو هو الضرر القليل الضئيل فمتصل، وعلى أية حال فالنص يبشر باستحالة الضرر من فسقة اهل الكتاب على هؤلآء المؤمنين القائمين بشرائط الإيمان، المسرودة من ذي قبل.

فالإنهزامات العقيدية والثقافية والعسكريه أماهيه لمن يسمَّون مسلمين ليست إلا من خلفيات الإنهزامات الإيمانية «وان ليس للإنسان إلّا ما سعى».

إنه ليست صيغة الإسلام والإيمان هي العاصمة لحامليها عن الشر والضر، الكافلة للخير، ولا أن صيغة التهود والتنصر هي القاضية على حامليها، إنما الكافل هو الإيمان الصامد ايا كان ف: «ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوء يجز

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٦٧

به ولا يجد له دون الله ولياً ولا نصيراً».

الدعاة الى الله العاملون الصالحاتهم أحسن قولًا ممن سواهم اخذاً بالعفو واعراضاً عن الجاهلين

«وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ» «١»

علّ الواو قبل «عمل وقال» للحال فتعني حال أنه عمل صالحا وقال إنني من المسلمين، فمن أحسن قولًا منه؟ ف «الذين قالوا ربنا الله» هم القائلون «إنني من المسلمين» ولما «استقاموا» فهم ممن «عمل صالحاً» فلما استكملوا في تبنِّي حق الإسلام لأنفسهم، من ثَمَّ لهم وعليهم أن يكونوا «ممن دعا إلى الله» فهو الأحسن قولًا ممن سواه، ولا أحسن منه قولًا فيمن سواه.

ووجه آخر أن الواوين للعطف، ف «عمل صالحاً» في سبيل الدعوة إلى الله وكما أصلح به نفسه «وقال إنني من المسلمين» الحقيقيين جهاراً دون تقية ولا ستار، فإسلامه جاهر قولًا وعملًا فدعوةً إلى الله، وهذه هي الدعوة الحقة التي ما لها من فواق.

والمعنيان علّهما معنَّيان ويقتضيهما أدب اللفظ و حرب المعنى، فهناك عمل صالح وإنني من المسلمين قبل الدعوة وهما زاد الدعوة في سبيلها الشاق الطويل، وقد زُوِّد الرسول محمد صلى الله عليه و آله أفضل من غيره من الدعاة إلى اللّه وأحسن، بقول وعمل صالح قبل الدعوة ومنذ ترعرع ومع الدعوة حتى لاقى ربه، فمن أحسن قولًا منه.

إن كلمة الحق حينئذٍ أحسن كلمة تقال، لكنها مع العمل الصالح الذي يصدقها ويصعدها، ومع الإستسلام الذي تتوارى معه الذات والذاتيات والإنيات وحب

((١)). سورة فصّلت ٤١: ٣٣

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٦٨

الظهور وكل شيء، فتصبح الدعوة خالصة للّه، ليس فيها للداعية شأن إلّا الدعوة.

والنهوض بتلك الدعوة البارعة في مواجهات إلتواءات النفوس البشرية واستكباراتها، إنه أمر عظيم، وأعظم منه الداعية الذي لا يهدف في دعوته إلّا اللّه، تناسياً لنفسه ورغباته وكل شيء آلّا اللّه.

إنه يعارض السيآت ليزيلها، ولا تستوي الحسنات ولا السيآت، فقد يقتضي صالح أن يدفع بالتي هي أحسن السيئة دون مجابهة بمثل كما يفعلها غير الصالحين.

«وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ» «١» «ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ» «٢»

ترى ما هو موقع «ولا» بين الحسنة والسيئة؟ فهل إنها مزيدة لتأكيد النفي حيث الأستواء لا يكتفي بمفرد، ولها نظائر «ولا الظلمات ولا النور» «٣» «وما يستوي الاحياء ولا الاموات إن اللّه يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور» «٤»

أم إنها للنفي، نفياً لاستواء جنس الحسنة بأفرادها وجنس السيئة بأفرادها؟ فهو بأحرى نفياً للإستواء بين قبيل الحسنة والسيئة! ولو أن تأكيد النفي يبرر الزيادة في «لا» فلماذا لم تزد فيما هو أولى: «لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة» «٥» «قل لا يستوي الخبيث والطيب» «٦» ولا سيما أن كمثال واقعةٌ بين الممثل أو مثال أولى «وما يستوي الأعمى والبصير» وهو أحرى بتأكيد النفي، وعلّ الإستواء المنفي في «ما يستوي الأحياء ولا الأموات» هو بين الأحياء انفسهم وبين والاموات، وبين الحسنة والسيئة هو نفي الإستواء بينهما بطريق أولى.

((١)). سورة الشورى ٤٢: ٣٤

((٢)). سورة المؤمنون ٢٣: ٩٦

((٣)). سورة الفاطر ٣٥: ١٩

((٤)). سورة الفاطر ٣٥: ٢٢

((٥)). سورة الحشر ٥٩: ٣٠

((٦)). سورة المآئدة ٥: ١٠٠

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٦٩

أم إنها لتأكيد النفي بين الحسنة والسيئة وللنفي بين مصاديق الحسنة ومصاديق السيئة؟

فولة الزيادة زيادة من القول، والنفي ثابت إذ تقتضيه «لا» والجمع أولى فإنه أجمع وأحلى! فإذ لا تستوي الحسنة في أفرادها، ولا السيئة في أفرادها، فلا ينحصر دفع السيئة بسيئة أخرى، فقد تكون سيئة لا تُدفع إلّا بسيئة فلا مجال إذاً لدفعها بحسنة، فالمعاند المكذب بآيات اللَّه، الذي لا يرجى هداه، ولا تصُد هواه، لا تُدفع سيئة بحسنة، بل «جزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فاجره على اللَّه إنه لا يحب الظالمين. ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل» «١»

فالعفو في موضع الإصلاح دفع للسيئة بالحسنة ودرءٌ لها «يدرءون بالحسنة السيئة» «٢» والعفو فيما لا يُصلح بل ويفسد هو سيئة بدل كونها حسنة، ف «لا تستوي الحسنة» في مواردها، وكذلك السيئة التي تُدفع بحسنة، والتي تدرء بأية حسنة «لا تستوي السيئة» كذلك في مواردها، ف «جزاء سيئة سيئة مثلها» لا تعم مواردها، لاختلاف الحسنات، والسيئة التي تُدفع بحسنة خير من حسنة لا تَدفع سيئة بل وتزيدها، فلأنه «لا تستوي الحسنة ولا السيئة» ف «ادفع بالتي هي أحسن» ما أمكن الدفع، وإلّا ف «جزاء سيئة سيئة مثلها»!

ثم الدفع بالتي هي أحسن ليس إلّا عن موضع القدرة، فلئن أحس العدو موضع الضعف إخترم ولم يحترم، ونفس الدفع يلمح إلى شريطة القدرة، حيث العاجز لا يدفع، لا بالتي هي أسوء ولا الاحسن، فإنه ضعيف على أية حال، «ادفع .... فاذا الذي بينك عداوة كأنه ولي حميم».

هنالك دفع للسيئَة وهو واقع بالتي هي أحسن وإن بقي العدو على عداوة كامناً، وليس «انه ولي حميم» إنما «كأنه ولي حميم» يندفع عن ظاهر عداءه وايذاءه كولي

---

(١)). سورة الشورى ٤٢: ٤١

(٢)). سورة الرّعد ١٣: ٢٢. سورة القصص ٢٨: ٥٤

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٧٠

حميم، وقد يدفعه إلى مرحلة «ولي حميم» فالإصلاح درجات كما الإفساد دركات، إذا دفعت بالأحسن بالفعل، ينقلب الهياج والغضب إلى وداعة وسكينة، والتّبجح إلى حياءٍ ولينة، وأنت ما دفعت إلّا بكلمة طيبة، ونبرة هادئة، وبسمة حانية أمّاهيه من التي هي أحسن حسب ما يقتضيه علاج الواقعة، طريقة مُثلى وحكمة عُليا تُدفَع واقعة السوء بها، وقليل هؤلآء الأعداء الذين يظلون على عدائهم وجاه تلكم الواجهة الوجيهة والخُلق العظيم، اللّهم إلا عداءً عريقاً عميقاً ممن لا يرجى ولايته وحمَّته على أية حال، والهدف الرئيسي من التي هي أحسن دفع السيئة، وإن بقيت العداء في باطنها، ثم إزالة العداء، ثم اجتلاب الحِمَّة، وأما إذا دفعت سيئة بسيئة أم زاد يزداد عدوك هياجاً، فيخلع حياءَه نهائياً إذا يتفلت زمامه فأخذته العزة بالإثم.

إن تلك السماحة مع القدرة على انحصارها في حالات الإصلاح وهي في الأغلبية الساحقة شخصية، إنها بحاجة إلى تصبُّر ومعرفة وعطوفة ودراية زائدة وتلقية إلهية:- وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ «١»

صبرٌ من اللَّه وحظٌ عظيم من اللَّه هما جناحان لذلك الدفع العظيم: «وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب اللَّه خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يُلَقَّاها إلّا الصابرون» «٢»

ومن أعظمهم الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله: «وإنك لتُلَقّى القرآن من لدن حكيم عليم» «٣»

ولقد لقَّاه اللّه والمحمديين من آله الطاهرين الصبر العظيم والحظ العظيم، فكانوا يواجهون الأعداء بكل حنان ما أمكن ومن ثم غضب الحليم.

هنا «حظ عظيم» في تنكير التعظيم بعد «الذين صبروا» توحي بعظمةٍ ذات أبعاد:

صبرٍ وحظ ذي بعدين من العظمة، وما أعظمه العظيم في ميزان اللّه، وما أكرمه من يُلَقَّاه من عند اللّه، وفي الحق هم القلة القليلة من سابقين وأصحاب اليمين: «من النبيين

---

(١)). سورة فصّلت ٤١: ٣٥

(٢)). سورةالقصص ٢٨: ٨٠

(٣)). سورة النّمل ٢٧: ۶

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٧١

والصديقين والشهداء الصالحين وحسن أولئك رفيقاً».

ومن أعظم الحظ العظيم الخلق العظيم «وإنك لعلى خلق عظيم» وقد يتبناه علم عظيم ومعرفة واسعة وسماحة فاسحة وتصبرٌ عظيم.

«وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنْ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» «١»

«وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً» «٢» والنزغ هو الدخول في أمر لإفساده، فإذا قلت التي هي أحسن دفعاً للسيئة بالحسنى لم يكن هناك مدخلٌ للشيطان ليجعل السوء سوآئى أم يبقي على سوء، «وإما ينزغنك من الشيطان نزغ» حين يفلت منك فالت، وهكذا يكون دور الشيطان أن يدخل في الأمور لإفسادها، فهنالك «فاستعذ باللّه» من نزغه «إنه هو السميع» إستعاذتك وندائك «العليم» حاجتك واستدعائك.

الغضب قد ينزغ فلا يتصبَّر صاحبه على إساءَة، أماذا من نَزغات في مختلف الحالات مهما كنت صبوراً حليماً إلّا من عصمه اللّه، فإذا نزغك نزغ «فاستعذ باللّه إنه هو السميع العليم» وصيغة الإستعاذة هنا «أستعيذ باللّه السميع العليم من الشيطان الرجيم».

«وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَاتَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ» «٣»

«لا تسجدوا ..» نهي مؤكد انحصاراً للمسجود له في اللّه وإنحساراً عما سواه، سواء أكان المسجود له هو الشمس والقمر كما هنا، والخطاب موجه الى الساجدين لهما، ام سواهما من أصنام وطواغيت أم أولياء وملائكة كرام، ولأن السجود لغير اللّه تسوية له باللّه وهو ضلال مبين، و «الذي خلقهن» إشارة إلى سبب المنع وسعة الممنوع بدليل

---

(١)). سورة فصّلت ٤١: ٣۶

(٢)). سورة الاسرى ١٧: ٥٣

(٣)). سورة فصّلت ٤١: ٣٧

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٧٢

الجمع «خلقهن» الشمس والقمر وسواهما من خليقته.

ثم و «إن كنتم إياه تعبدون» تعليق على عبادتهن، فالعابد للّٰهليس ليعبد خلق اللّٰه، ولا سيما «إن كنتم اياه ..» ترمي إلى التوحيد، والسجود لغير اللّٰه ينافي التوحيد.

«خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ» «١»

«خذ» هنا لا تختص برسول الهدى ولا سيما «وإما ينزغنك من الشيطان نزغ» وهو معصوم عن نزغ الشيطان فإنه من أفضلِ المخَلصين وقد «قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين. إلّا عبادك منهم المخَلصين» «٢» ونزغُ الشيطان إغواءٌ تسمو عنه ساحة الرسالة القدسية.

إذاً ف «خذ» هي لأقل تقدير تعم كافة المكلفين، ثم يستثنى الرسول صلى الله عليه و آله وعترته الطاهرون عن نزغ الشيطان.

وترى ما هو «العفو» الذي يؤمر هنا بأخذه؟ أهو- فقط- العفو عمن ظلمك؟

وصيغته الخاصة: أعف عمن ظلمك، ولأن العفو تُستعمل بمختلف المتعَلّقات أم دون متعلّق، وهي هنا طليقة عن أي تعلق، فالقصد منها هنا كل معانيها المناسبة للأخذ: ف «عفاه» تعني قصده متناولًا ما عنده، وعفت الريحُ الدارَ قصدتها متناولة آثارها، وعفوت عنه قصدت إزالة ذنبه، والعفو هو الزيادة كما في «يسألونك ماذا ينفقون قل العفو» «٣» أي الزائد عن الحاجة، ومن العفو الوسط، إذاً ف «خذ العفو» قد تعم أخذ العفو من الأموال، ف «خذ من أموالهم صدقة» «٤» قد تقيدها بالزكوة المفروضة المقررة بأنصبتها كضريبة مستقيمة، ولكن «خذ العفو» تعني أخذ الزائد عن الحاجة من الأموال وهو ضريبة غير مستقيمة، كما وتعني أخذ هذه الطريقة لنفسه أن ينفق الزائد من ماله للمحاويج.

---

(١)). سورة الأعراف ٧: ٢٠٠

(٢)). سورة ص ٣٨: ٨٣

(٣)). سورة البقرة ٢: ٢١٩

(٤)). سورة التّوبة ٩: ١٠٣

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏٧، ص: ٧٣

ثم «خذ العفو» عن الناس، أن تعفو عمن ظلمك «١» والعفو في الأمور هو الوسط فيها دون إفراط ولا تفريط. وكما يروى عن النبي صلى الله عليه و آله أنه قال لما نزلت هذه الآية: أمرت أن آخذ العفو من أخلاق الناس» «٢» إذ قد تعني بين الإفراط والتفريط.

ثم «وأمر بالعرف» قد تعني نفس الأمر عرفاً كما الأمر بالعرف، فليكن الأمر عرفاً دون نكر، عرفاً في مادة الأمر وكيفيته، وعرفاً من الآمر أن يكون هو نفسه مؤتمراً به ثم ليكن أمراً بالعرف، فالباء في الأولى للمصاحبة وفي الثانية للتعدية وهما معاً معنيَّان.

«وأعرض عن الجاهلين» إعراضاً عن ملاحقتهم لجهلهم القاحل، وإعراضاً عن إتباعهم مسايرةَ جهلهم، فالجهل في مثلث التعامل تتركز عليه نقطة الإعراض، إبرازاً للفاصلة بين غير الجاهلين والجاهلين، ونهياً جاهراً عن منكر الجهل الجهالة.

وهنا الأخذ بالعفوِ الإغماض، هو كأصل ما لم يعارض ملابسات تفرض عدم العفو، كأن يعفى عن الظالم الذي يزداده العفو عتواً على المظلوم ونفوراً عن العدل، سواءٌ أكان المظلوم هو العافي فهو ظالم مرتين، أم المطّلع على ظلم أخيه فهو ظالم مرة.

كما وأن الإعراض عن الجاهلين لا تعني- فيما تعنيه- الإعراض عن تعليم وتأديب الجهال الذين هم في تحرّي العلم والمعرفة، أم هم غافلون عن جهلهم أو واجب تعلمهم، فعلى العالم أن يُظهر علمه اللّهم إلّا فيما يهدَر أو يهدِّر فإنه- إذاً- ظلم

(١)). الدر المنثور ٣: ١٥٥، أخرج البيهقي في شعب الإيمان من طريق وهب بن جرير عن أبيه قال: كنت جالساً عند الحسن إذ جاء رجل فقال: يا أبا سعيد ما تقول في العبد يذنب الذنب ثم يتوب؟ قال: لم يزدد بتوبته من اللّه دنواً، قال: ثم عاد في ذنبه ثم تاب؟ قال: لم يزدد بتوبته إلا شرفاً عند اللّه، قال ثم قال لي: ألم تسمع ما قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله؟ قلت: وما قال: قال: ..

(٢)). المصدر- أخرج ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق عن إبراهيم بن أدهم قال: لما أنزل اللّه ... وفي نور الثقلين ٢: ١١١ في تفسير العياشي عن أبي عبد اللّه عليه السلام ان اللّه أدب رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقال: «يا محمد خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين» قال: خذ منهم ما ظهر وما تيسر والعفو الوسط

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٧٤

بالعلم ورعيله.

ومن الترتيب التربوي بين هذه الثلاثة أن الأصل الأوّل هو الأخذ بالعفو مالًا وحالًا وأعمالًا في نفسك وذويك وسائر الناس، ومن العفو في الدعوة هو الوسط بين الإفراط والتفريط، فإذا تخلف متخلف بعد بلوغ الحجة ف «أمر بالعرف» ثم جهل جاهل إصراراً على جهله «وأعرض عن الجاهلين».

وهكذا يصدق المروي عن الإمام الصادق عليه السلام انه «ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية. «١»

فهنا في ختام السورة يؤمر صاحب الدعوة بمن معه- وهم بعدُ مكة- أن يواجهوا تلك الجاهلية العريقة الحميقة بكل سماحة ويسر، أخذاً بالعفو الميسَّر، ورفضاً لكل معسَّر إلّا الأمر كما في حقل النهي والأمر، تغاضياً عما يقبل في عشرة الناس، دونما تنازل عما قرره اللّه من شِرعته حيث لا تقبل التنازل كما ليس فيها تعاضل.

فالإغضاء عن الضعف البشري، والعطفُ عليه، والسماحُ معه، كل ذلك واجب الداعية، فالتعامل مع مختلف النفوس البشرية بُغية هداها يقتضي رحابة صدر وسماحة طبع، في غير تهاون ولا تفريط في شرعة اللّه.

ثم الأمر بالعرف هو عرف ذلك الأمر في شرعة اللّه، والعرف المأمور به هو المعروف لدى الفطرة والعقلية الإنسانية والشرعة الربانية، معروفاً لا ينكر ولا يُتنكر، وهذه هي الخطوة الأولى في حقل الأمر، ومن ثم خطوات أخرى إلى أعراف أخرى تلحقها.

(١)). الدر المنثور ٣: ١٥٤- أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن علي عليه السلام قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: ألا أدلك على خير أخلاق الأولين والآخرين؟ قلت يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله نعم قال: تعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك، أقول وقد تظافرت الروايات عنه صلى الله عليه و آله انه قال مقالته تلك بعد نزول هذه الآية وبمناسبتها.

وفي نور الثقلين ٢: ١١١ في عيون الأخبار باسناده إلى الحارث بن الولهاث مولى الرضا عليه السلام قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون فيه ثلاث خصال سنة من ربه وسنة من نبيه وسنة من وليه- إلى قوله: وأما السنة من نبيه فمداراة الناس فإن اللّه أمر نبيه بمداراة الناس فقال: خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٧٥

ثم الإعراض عن الجاهلين في حقلي الأخذ بالعفو والأمر بالعرف، ومن الإعراض عنهم هو الإعراض عن عفوهم إلى مجازاتهم، والإعراض عن أمرهم إلى إلزامهم.

ذلك، وتعريفاً بالجاهلية عن لسان النبي صلى الله عليه و آله: «الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فَقِهوا» «١» و «كل دم ومال كان في الجاهلية تحت قدمي هاتين» «٢» و «كل رباً في الجاهلية موضوع» «٣» و «كل دَين في الجاهلية موضوع» «٤» و «دعوى الجاهلية حرام». «٥»

وقد يروى عن النبي صلى الله عليه و آله قوله: «مثل المؤمن مثل السنبلة تميل أحياناً وتستقيم أحياناً وفي ذلك تكبر فإذا صدها صاحبها حمد أمره كما حمد صاحب السنبلة بره ثم قرء هذه الآية. «٦»

ف «احذروا أيها الناس من الذنوب والمعاصي ما قد نهاكم اللّٰه عنها وحذركموها في كتابه الصادق بالبيان الناطق فلا تأمنوا مكر اللّٰه وتحذيره عند ما يدعوكم الشيطان اللعين إليه من عاجل الشهوات واللذات في هذه الدنيا فإن اللّٰه عزَّ وجلّ يقول: «إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون» فأشعروا قلوبكم خوف اللّٰه وتذكروا ما قد وعدكم اللّٰه في مرجعكم إليه من حسن ثوابه كما قد خوفكم

---

(١)). مفتاح كنوز السنة عن بخ- ك ٦١ ب ١، مس- ك ٤٣ ح ١٦٨، ك ٤٤ ح ١٤٩ مى المقدسةب ٢٣، حم- ثان ص ٢٥٧ و ٢٦٠ و ٣٩١ و ٤٣١ و ٤٣٨ و ٤٨٥ و ٤٩٨ و ٥٢٤ و ٥٣٩، ثالث ص ٣٦٧ و ٣٨٣، رابع ص ١٠١ ط- ح ٢٤٧٦ قا، قد- ص ٤٢٤

(٢)). المصدر عن بد- ك ٣٨ ب ١٧ و ٢٤، تر- ك ٤٤ سورة ٩ ح ٢، مج- ك ٢١ ب ٥ حم- ثان ص ١١ و ١٠٣ و ١٨٧ و ١٨٧ و ٢٠٧، رابع ص ٣٢، خامس ص ٧٢ و ٤١١، ط- خ ٢٢٧ هش- ص ٦٩٨، قد- ص ٣٣٨

(٣)). المصدر عن بد- ك ٢٢ ب ٥، مى ك ١٨ ب ٣

(٤)). المصدر عن حم- ثان ص ١٠٣

(٥)). المصدر عن بخ- ك ٢٣ ب ٣٦ و ٣٩ و ٤٠، ك ٦١ ب ٨، ك ٦٥ سورة ٦٣ ب ٥، حم- ثالث ص ٣٣٨ و ٣٨٥ و ٣٩٢، رابع ص ١٣٠ و ٢٠٢، خامس ص ٣٤٤، ط- ح ١١٦٢

(٦)). الدر المنثور ٣: ١٥٤- أخرج ابن جرير عن ابن زيد قال: لما نزلت «خذ العفو ..» قال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله: .. وفيه عن ابن مسعود عنه صلى الله عليه و آله انه كان يقول: اللهم إني أعوذ بك من الشيطان من همزة ونفثه ونفخه

من شديد العقاب» «١»

ذلك! ومن الجاهلين الماحلين الذين يحسبونهم عارفين فالحين من يصفهم الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام في عظة له:

«لا تكن ممن يرجواالآخرة بغير عمل، ويُرجِىء التوبة بطول الأمل، يقول في الدنيا بقول الزاهدين، ويعمل فيها بعمل الراغبين، إن أعطي منها لم يشبع، وإن مُنع منها لم يقنع، يَعجر عن شكر ما أوتي، ويبتغي الزيادة فيما بقي، يُنهى ولا ينتهي، ويأمر بما لا يأتى، يحب الصالحين ولا يعمل عملهم، ويُبغض المذنبين وهو أحدهم، يكره الموت لكثرة ذنوبه، ويقيم ما يكره الموتَ له، إن سَقِم ظل نادماً، وإن صح امِن لاهياً، يُعجب بنفسه إذا عوفي، ويقنط إذا أبتلي، إن أصابه بلاءٌ دَعى مضطراً، وإن ناله رجاء أعرض مغترّاً، تغلبه نفسه على ما يظن، ولا يغلبها على ما يستيقن، يخاف على غيره بأدنى من ذنبه، ويرجو لنفسه بأكثر من عمله، إن استغنى بَطِر وفُتِن، وإن إفتقر قنط ووهن، يُقصِّر إذا عمل، ويبالغ إذا سَأل، إن عرضت له شهوة أسلف المعصية، وسوَّف التوبة، وإن عرته محنة انفرج عن

شرائط الملة، يصف العِبرة ولا يعتبر، ويبالغ في الموعظة ولا يتعظ، فهو بالقول مُدِلٌّ، ومن العمل مُقلٌّ، ينافِس فيما يفنى، ويسامح فيما يبقى، يرى الغُنم مغرماً والغُرم مغنماً، يخشى الموت ولا يبادر الفوت، يستعظم من معصية غيره ما يستقل أكثر منه من نفسه، ويستكثر من طاعته ما يحقره من طاعة غيره، فهو على الناس طاعن، ولنفسه مداهن، اللغو مع الأغنياء أحب إليه من الذكر مع الفقهاء، يحكم على غيره لنفسه، ولا يحكم عليها لغيره، ويُرشد غيره ويُغوي نفسه،

---

(١)). نور الثقلين ٢: ١١٢ في روضة الكافي كلام لعلي بن الحسين عليهما السلام في الوعظ والزهد في الدنيا يقول فيه: ... وفيه عن الخصال عن أبي بصير عن أبي جعفر عليهما السلام قال: ثلاثة من أشد ما عمل: إنصاف المؤمن نفسه ومواساة المؤاخاة وذكر اللّه على كل حال وهو أن يذكر اللّه عند المعصية وهو قول اللّه عزَّ وجلّ: «إن الذين اتقوا ...»: وفيه عن الكافي عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال سألته عن قول اللّه عزَّ وجلّ: «إذا مسهم ..» قال: هو العبد يهم بالذنب ثم يتذكر فيمسك فذلك قوله: «تذكروا فإذا هم مبصرون»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٧٧

فهو يُطاع ويَعصي، ويستوفي ولا يوفي، ويخشى الخلق في غير ربه، ولا يخشى ربه في خلقه». «١»

وهنا يقول رسول الهدى صلى الله عليه و آله: «كيف يا رب والغضب»؟ غضبي عليهم لعنادهم وغضبهم علي حيث أدعوهم وآمرهم وأنهاهم خلاف أهواءِهم، فيجاب:

«وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنْ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» «٢»

النزغ هو دخول في أمر لإفساده، وهكذا يتدخل الشيطان في صالح أمورنا لإفسادها، ومنه تدخُّله في هذه المكارم الأخلاقية والعلاج بعد كَلِّ القدرات المقاومة «فاستعذ باللّه» ليعيذك من نزغ الشيطان، ولابد فيها من قالٍ مع حالٍ وأعمالٍ لمكان «إنه سميع عليم» فهو «سميع» لقالات المستعيذين، «عليم» حالاتهم وفعالاتهم المستعيذة، كما هو «سميع عليم» قالات وفعالات المتخلفين عن شرعة اللّه.

«إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنْ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ» «٣»

مسُّ طائف من الشيطان يعمي على الممسوس طريقه، فإذا تذكروا فإذا هم مبصرون، والمس هنا مس للمصدر فالقلب وما قبلهما من الفطرة والعقيلة وما بعدهما من اللب والفؤاد، حيث الشياطين يطوفون على كل مواضع اليقظة تعميةً لها، إلّا «إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون» «٤» إستعاذة وسواها. «٥»

---

(١)). (الحكمة ١٤٣)

(٢)). سورة الاعراف ٧: ٢٠٠

(٣)). سورة الاعراف ٧: ٢٠١

(٤)). سورة النّحل ١٦: ٩٩

(٥)). تفسير الفخر الرازي ١٦: ٩٦ وقال حعفر الصادق رضى الله عنه: ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٧٨

قولة منافقة نهى عن المعروف وامر بالمنكر و قولة مؤمنة امر بالمعروف ونهى عن المنكر

«يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ» «١»

«سورة» هنا تعني إلى سورة المنافقين الخاصة بفضحهم، هذه السورةَ التي ثلثا أياتها أم تزيد نازلة بشأنهم الشائن، فقد جربوا- خلال أعمالهم المنافقة- أن اللّه ليس ليذرهم يفتنون المؤمنين عن دينهم، وهكذا سائر السور التي تتحدث عنهم في آيات، وقد تشمل «سورة» جموع آيات، سواءً أكانت سورة مصطلحة أم أية سورة هي من السور المحيطة بما تحيط، فإن آيات المنافقين بارزة الدلالة، ظاهرة المدلول، مهما تفرقت بين سائر الآيات، فضلًا عما اجتمعت كما هنا في ثمان وأربعين آية «٢»

تتوارد على فضحهم بما يقولون، أو ينوون وما يفعلون وما يضمرون من عداءٍ عارم ضد المؤمنين، ولقد سميت التوبة البراءَة- فيما سميت- ب «الفاضحة» حيث تحمل فضْحهم أكثر من كل سورة في القرآن، فلذلك لا حرج هنا ولا حذر على المؤمنين، فليكيدوا هم كيدهم ويميدوا ميدهم، ف «قل استهزءوا إن اللّه مخرج ما تحذرون». «٣»

---

(١)). سورة التّوبة ٩: ٦٤

(٢)). وهي الآيات التالية التي تخصهم ٣٨- ٤٤- الى- ٥٠- ٥٢- إلى- ٥٤- ٥٦- ٥٨- ٦١- إلى- ٦٩- ٧٣- ٧٤- ٧٦- ٧٧- ٧٩- ٨٠- إلى- ٨٧- ٩٠- ٩٣- إلى- ٩٦- ١٠١- ١٠٧- إلى- ١١٠- ١٢٥- ١٢٦- ١٢٧

(٣)). نور الثقلين ٢: ٢٣٦ تفسير القمي في الآية قال: كان قوم من المنافقين لما خرج رسول اللّه صلى الله عليه و آله إلى تبوك يتحدثون فيما بينهم ويقولون: أيرى محمد أن حرب الروم مثل حرب غيرهم لا يرجع منهم أحد أبداً، فقال بعضهم: ما أخلفه أن يخبر اللّه محمداً بما كنا فيه وبما في قلوبنا وينزل عليه قرآناً يقرأه الناس وقالوا هذا على حد الإستهزاء فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله لعمار بن ياسر: ألحق القوم فإنهم قد احترقوا فلحقهم عمار فقال: ما قلتم؟ قالوا: ما قلنا شيئاً إنما كنا نقول شيئاً على حد اللعب والمزاح فأنزل اللّه «ولئن سألتهم ليقولن إنتا كنا نخوض ونلعب قل أباللّه وآياته ورسله كنتم تستهزءون

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٧٩

ثم «سورة تنبئهم» لا تعني التي تختص بهم، وإنما ما تحمل فضْحهم بكثير أو قليل، إذاً فكل السور التي تتحدث عنهم هي معنية ب «سورة تنبئهم».

وهنا «عليهم» لا تعني نزول سورة وحياً إليهم، وإنما تعني «على» فضحاً واضراراً بهم، ولقد جربوا أن اللّه ليس ليخفي على رسوله مكائدهم الظاهرة بينهم ضد المؤمنين، والمبطنة عندهم، فالرسول صلى الله عليه و آله هو نفسه يعرفهم في لحن القول: «ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول واللّه يعلم أعمالكم» «١».

ذلك، فلا يرد على الآية ما خيِّل إلى الناس بسطاء أم شياطين أن كيف «يحذر المنافقون» وهم لا يؤمنون بالوحي فضلًا «أن تنزل عليهم سورة» وهي لا تنزل إلّا على رسول الوحي؟.

هذا لأنهم «جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً» فهم على إستيقانهم بحق الوحي يجحدونه ظالمين، واللّه يخبر عن طويتهم أنهم يحذرون بما هم يعرفون الوحي وماهم مجربون، حيث تكرر إنباءات اللّه ورسوله والمؤمنين عن نياتهم وطوياتهم، وعن قالاتهم سابقة ولا حقة.

وهنا «والله مخرج ما تحذرون» يعني إخراجه عن مخبئِه، فإحراجاً لُمخبئه، والأمر الظاهر الذي يمكن الحصول عليه بتحبسس وتحسس ليس ليُخرج، إنما يُخرج المكتوم غير المعلوم، ولقد بلغ حذرهم أن تنزل عليهم سورة تنبئهم أنهم «يحسبون كل صيحة عليهم». «٢» ذلك، ثم الحذر لا يلازم العلم بالمحذور المحظور، فقد يكفيه مجرد إحتمال، فهب إن هؤلآء المنافقين لم يكونوا على يقين بصدق الوحي، ولكن إحتماله على أية حال وارد، إذ لا يملكون برهاناً على كذبه، وساطعة البراهين على صدقه ظاهرة باهرة.

وقد يحتمل- إضافةً إلى ما قدمناه- أن ضمير الجمع الغائب في «عليهم- تنبئهم»

---

(١)). سورة الرّوم ٣٠: ٤٧

(٢)). سورة المنافقون ٦٣: ٤

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏٧، ص: ٨٠

راجع إلى المؤمنين وفي «قلوبهم» إليهم أنفسهم، والأول أرجح والجمع أنجح.

ومن ناحية أخرى في «عليهم» قد يوجه بأنهم عائشون خلال المؤمنين، فالآيات التي تعنيهم كأنها منزلة عليهم، وقد يقربه «واذكروا نعمة اللَّه عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به». «١»

حيث تعني «على» نزولًا بشأنهم دون أن يوحى إليهم تنزيلًا لوحي الكتاب- دون وسيط الرسول- عليهم». «٢»

ووجه آخر في ذلك الحذر أنه كان على سبيل الإستهزاء كما يؤيده «قل استهزءوا ..»

ذلك حذرهم في أنفسهم فحظرهم فيما ينزل عليهم ثم هم يتساءلون:

«وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآياتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ» «٣»

«لئن سألتهم» عن هزءهم بالرسول صلى الله عليه و آله والذين معه، وما في قلوبهم من طويات خبيثة «ليقولن ..» وهذا أخبار بغيب مستقبل، وكان ألا يقولوه لما سمعوا الوحي هكذا يفضحهم، ولكنهم قالوه كما قال اللَّه عنهم «إنما كنا نخوض ونلعب» وهل الخوض في

---

(١)). سورة البقرة ٢: ٢٣١

(٢)). في تفسير الرازي ١٦: ١٢٠ قال الحسن اجتمع اثنا عشر رجلًا من المنافقين على أمر من النفاق فأخبر جبريل الرسول صلى الله عليه و آله بأسمائهم فقال صلى الله عليه و آله: إن أناساً اجتمعوا على كيت وكيت فليقولوا وليعترفوا وليستغفروا ربهم حتى اشفع فلم يقوموا فقال صلى الله عليه و آله بعد ذلك: قم يا فلان ويا فلان حتى أتى عليهم ثم قالوا: نعترف ونستغفر فقال: الآن؟ أنا كنت في أول الأمر أطيب نفساً بالشفاعة واللَّه كان أسرع في الإجابة أخرجوا عني اخرجوا عني فلم يزل يقول حتى خرجوا بالكلية، وفيه قال الأصم: إن عند رجوع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله من تبوك وقف له على العقبة إثنا عشر رجلًا ليفتكوا به فأخبره جبرئيل وكانوا متلثمين في ليلة مظلمة وأمره أن يرسل لهم من يضرب وجوه رواحلهم فأمر حذيفة بذلك فضربها حتى نحاهم ثم قال: مَن عرفت مِن القوم؟ فقال: لم أعرف منهم أحداً فذكر النبي صلى الله عليه و آله أسماءهم وعدهم له وقال: إن جبرئيل أخبرني بذلك فقال حذيفة: ألا تبعث إليهن ليُقتلوا؟ فقال: أكره أن تقول العرب قاتل محمد بأصحابه حتى إذا ظفر صار يقتلهم بل يكفينا اللَّه ذلك

(٣)). سورة التّوبة ٩: ٦٥

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏٧، ص: ٨١

آيات الله واللعب بالله ورسوله يبرره أي مبرر، وذلك استهزاء صريخ صريح: «قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون»؟ وقد قال صلى الله عليه و آله لهم كا قال. «١»

وهنا «تستهزءون» تعمم حكم الإستهزاء- وهو الكفر والارتداد- إلى كل من يستهزء بالدين مهما كان مسلماً مؤمناً، فضلًا عن المنافقين، إذ لا يعني الإستهزاء- فقط- النكران، بل هو شديد النكران، فمن منكر ساكت لا يستهزء، وأما المستهزء فهو منكر ماقت.

ويا له عذراً غادراً: «نخوض ونلعب» وكيف يخاض في الدين ويُلعب به إلّا بنكران هازىءٍ، حيث الحق لا يتحمل الخوض واللعب إلّا بذلك النكران البعيد والكفر الشديد!.

«لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ» «٢»

«لا تعتذروا» حيث لا عاذرة عن الكفر المعتمَّد و «قد كفرتم بعد إيمانكم» وهنا تقابل الإيمان بالكفر دليل على أنهم بين منافقين وبسطاء مضلَّلين، فكفُر طائفة منهم بعد إيمانهم هو جاهر الكفر بعد ظاهر الإيمان فلا يعفى عنهم، وكفر طائفة أخرى هو

---

(١)). الدر المنثور ٣: ٢٥٤- أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردوديه عن عبد الله بن عمر قال قال رجل في غزوة تبوك في مجلس يوماً: ما رأينا مثل قرآننا هؤلاء لا أرغب بطوناً ولا أكذب ألسنة ولا أجبن عند اللقاء فقال رجل في المجلس كذبت ولكنك منافق لأخبرن رسول الله صلى الله عليه و آله فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه و آله ونزل القرآن قال عبد الله: فأنا رأيته متعلقاً بحقب ناقة رسول الله صلى الله عليه و آله والحجارة تنكيه وهو يقول يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب والنبي صلى الله عليه و آله يقول: أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون، وفيه عن قتادة في الآية قال بينما رسول الله صلى الله عليه و آله في غزوته إلى تبوك وبين يديه أناس من منافقين فقالوا: أيرجو هذا الرجل أن يفتح له قصور الشام وحصونها هيهات هيهات فأطلع الله نبيه صلى الله عليه و آله على ذلك فقال نبي الله صلى الله عليه و آله إحبسوا على هؤلاء الركب فأتاهم فقال: قلتم كذا قلتم كذا؟ قالوا يا نبي الله إنما كنا نخوض ونلعب فأنزل الله فيهم ما تسمعون، وفيه عن سعيد بن جبير قال: بينما النبي صلى الله عليه و آله في مسيره وأناس من المنافقين يسيرون أمامه فقالوا: إن كان ما يقول محمد حقاً فلنحن شر من الحمير فأنزل الله تعالى ما قالوا فأرسل إليهم ما كنتم تقولون فقالوا: إنما كنا نخوض ونلعب

(٢)). سورة التوبة ٩: ٦٦

واقع الكفر بعد واقع الإيمان، فلذلك يصح هنا التقسيم «إن نعف عن طائفة منكم» وهم المضلون حين يتوبون. «نعذب طائفة» أخرى «بأنهم كانوا مجرمين» حيث تعرَّق الإجرام وتعمَّق في قلوبهم، فهم رؤوساء الضلالة وحملة مشاغل المتاهة والغواية حيث عاشوا ردحاً بعيداً من الزمنِ ذلك الإجرام فكيف يعفى عنهمٍ فهم- إذاً- لا يتوبون «فإن يتوبوا يك خيراً لهم وان يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة ..» «١»، خلاف الأولين الذين كان كفرهم بسيطاً دون تعنُّد وتعمق. «٢»

واحتمال ثان أن يختص العفو بحاضر العذاب دون مسقبله لاختلاف دركات نفاقهم شدةً وضعفاً، ولكن الظاهر هو الأول ف «نعف» إذ يتوبون، و «نعذب» إذ لا يتوبون، أم وتوبتهم توبة نفاق غير وفاق.

هنا يذكر «بعد إيمانكم» لتشمل الذين آمنوا ثم كفروا ونافقوا عن جهل وبساطة، إلى هؤلآء الذين أسلموا منافقين، ثم ازدادوا كفراً ونفاقاً، ولذلك لما يفرد الآخرون يبدل الإيمان فيهم بالإسلام: «ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم».

ووجه ثالث أن الإيمان يعم الإيمان باللسان إلى الإيمان بالجنان والأركان، وكما يخاطَب الذين آمنوا بوظائف عامة فتشمل كل من أقر بالإيمان.

---

(١)). سورة التّوبة ٩: ٧٦

(٢)). نور الثقلين ٢: ٢٣٨ عن تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: «لا تعتذروا ..» قال: هؤلاء قوم كانوا مؤمنين صادقين ارتابوا وشكوا ونافقوا بعد إيمانهم وكانوا أربعة نفر، وقوله: «أن نعف عن طائفة منكم» كان أحد الأربعة مخشى بن الحمير فاعترف وتاب وقال يا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أهلكني إسمي فسماه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عبد اللَّه بن عبد الرحمن فقال: يا رب اجعلني شهيد احيث لا يعلم أحد أين أنا فقتل يوم اليمامة ولم يعلم أين قتل فهو الذي عفى اللَّه عنه. أقول: لم يسم هذا الواحد طائفة فانه شأن لنزول الآية وهي تعني كل من يصلح للعفو كأمثاله على مدار الزمن، وكما الطائفة الأخرى لا تعني الآخرين بأعيانهم.

وفي الدر المنثور ٣: ٢٥٥- أخرج عبد الرزاق وابن المنذر وأبو الشيخ عن الكلبي أن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لما أقبل من غزوة تبوك وبين يديه ثلاثة رهط استهزءوا باللَّه وبرسوله وبالقرآن، قال كان رجل منهم لم يمالئهم في الحديث يسير مجانباً لهم يقال له يزيد بن وديعة فنزلت «إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة، قال: الطائفة رجل واحد.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٨٣

ووجه رابع أنه صحيح الإيمان وخفيفه الذي يزول يعارضٍ مَّا، وكما ل «الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتْبعه الشيطان فكان من الغاوين» «١» وهكذا «الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً» «٢»

والقول ألا ملازمة لعذاب طائفة بالعفو عن طائفة، خاوٍ دون تأمل، حيث العذاب هنا شامل قضيةَ الحال، فمعنى الشرطية- إذاً- «إن نعف عن طائفة منكم» لمصلحة ملزمة أو راجحة، فلا يستلزم أن نعف عن طائفة أخرى دون أية مصلحة.

وترى إذ كان طائفة منهم يعفى عنهم فهم إذاً معذورون، فكيف يخاطَبون مع غير المعفو عنهم ب «لا تعتذروا»؟

إنهم ككل غير معذورين عن كفرهم بعد إيمانهم وكذبهم أنهم لم يقولوا كلمة الكفر، وإنما العفو لمن تاب توبة صالحة ولم يكن كفره عن ضلال وإجرام عريق.

ف «إن نعف عن طائفة منكم» كشرط في الحقل «نعذب طائفة» كجزاء لذلك الشرط، إشعاراً بأن العفو عن طائفة لا يخلِّف العفو عن أخرى لاختلافهما في المغزي:

«بأنهم كانوا مجرمين» مضلِّلين لم يعيشوا الإجرام.

فمجال العفو واسع فاسح ما لم يتعمق الكفر في النفوس فكانت التوبة إذاً نَصوحاً دون أي غدر ونفاق مَسوح.

«الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنَ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» «٣»

مباعضة لعينة منافقة في مباضعة الإيمان الموافقة، تشكل مناضرة في حقل النفاق، ومن قضاياها الرزايا: «يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف» بكل طاقاتهم وإمكاناتهم «ويقبضون أيديهم» عن كل خير مادي أو معنوي لقبيل الإيمان، وذلك

---

(١)). سورة الاعراف ٧: ١٧٦

(٢)). سورة النّساء ٤: ١٣٧

(٣)). سورة التّوبة ٩: ٦٧

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٨٤

لأنهم «نسوا اللّٰه» نسيان تجاهل وتغافل معمَّد معنَّد «فنسيهم» في كل حقول الرحمة والعناية، حيث عاملهم معاملة الناسي التارك لما هو كافله، «فنسيهم» في كافة الرحمات الرحيمية الخاصة بالمؤمنين والمتحرين عن الإيمان، نسياناً جزاءَ نسيان، وفاقاً لذلك العصيان «ولا يُظلمون فتيلًا».

«نسيهم» حيث «نسوا اللّٰه» و «إن المنافقين هم الفاسقون» كأن لا فاسق سواهم، حيث تعمق فيهم الفسوق وتحقّق لأسفل دركاته، فلأنهم في الدرك الأسفل من فسوق الكفر، لذلك فهم «في الدرك الأسفل من النار».

أجل و «إن اللّٰه لا يسهو ولا ينسى، وإنما ينسى ويسهو المخلوق والمحدَث، ألا تسمعه عزَّ وجلّ يقول: «وما كان ربك نسياً» وإنما يجازي من نسيه ونسي لقاءَ يومه بأن يُنسيهم أنفسهم «أولئك هم الفاسقون» وقال عزَّ وجلّ: «فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا» أي: نتركهم كما تركوا الإستعداد للقاء يومهم هذا. «١»

فقد «نسوا اللّٰه» إذ تركوا طاعة اللّٰه «فنسيهم»: فتركهم «٢» تركاً جزاءَ ترك في الأولى والآخرة.

وهنا نتلمح أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى معاكسة الأمر بينهما، وإلى قبض اليد عن الرحمة، كل ذلك من نسيان اللّٰه وعصيانه.

وفي ضم «المنافقات» هنا إلى «المنافقين» تحليق لنفاقهم على قبيلي الذكور والأناث، فإن لهن دوراً دائراً مائراً في عمليات النفاق، إضافة إلى كيدهن العظيم في حقل النفاق، كما والمعروف المنهي عنه والمنكر المأمور به يعمان كل حقول المعروف والمنكر، عقيدياً وعلمياً وعملياً وثقافياً وسياسياً واقتصادياً وحربياً، دركات سبع من جحيم المباعضة المنافقة في المباضغة عن الموافقة.

---

(١)). نور الثقلين ٢: ٢٣٩ في عيون الأخبار والتوحيد للصدوق باسناده إلى عبد العزيز بن مسلم قال: سألت الرضا عليه السلام عن قول اللّٰه تعالى: نسوا اللّٰه فنسيهم فقال:.

(٢)). المصدر في تفسير العياشي عن جابر أبي جعفر عليه السلام «نسوا اللّٰه»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٨٥

إنهم ككل «بعضهم من بعض» طبيعة واحدة وطينة واحدة، سوء الطوية ولؤم السريرة، وكل همز ولمز ودسَّ وغمز، وضعف عن صريح المواجهة وصريخ العقيدة، وكل ذلك ينعكس في كل سلوكهم ومسالكهم، معاكسين كل خير إلى شر، وكل شر إلى خير، ركسة ونكسة محلِّقة على كل كيانهم.

وهنا أسس البلاء المنعكس على العقيدة والخلق والعملية أماهيه، هو «نسوا اللّه» في ألوهيته وربوبيته وعلمه وقدرته وواجب معرفته وعبوديته وطاعته، ونشأة حسابه وجزاءِه «فأوردهم النار. بئس الورد المورود» ولذلك:

«وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ» «١»

هنا «والكفار» تعميم بعد تخصيص، تأخيراً لهم عن المنافقين تدليلًا على أنهم «في الدرك الأسفل من النار»، ثم «خالدين فيها» هو الخلود ما دامت النار و «هي حسبهم» في قسطاس العدل، خلوداً في النار قدر خلودهم في بواعث النار، فكما كانوا مقيمين على نفاقهم وكفرهم حتى الموت، كذلك «لهم عذاب مقيم» في النار ما داموا هم ودامت النار، بل ليست النار إلَّا حصيلة نفاقهم وكفرهم المحدود في أصله وفصله «وجزاء سيئة سيئة مثلها» وما أشبه برهان قاطع لا مرد له سائر بين البراهين أن للنار والخالدين فيها نهاية بنهاية العذاب المستَحق لمن لا يستحقون ثواباً، قضيةَ عدل اللّه وقسطه.

فلا يعني مقيم العذاب إقامته معهم إلى غير نهاية، فإنها ظلم إلى غير نهاية، وإنما «مقيم» كمقيم الإستحقاق وقدره، حيث الزيادة على قدر الإستحقاق ظلم مهما كانت محدودة، فضلًا عن كونها غير محدودة كما يهرفه هارفون ويخرفه خارفون أم قاصرون عن إدراك الحق بحق اللّه العدل الرحيم.

هنا لأهل النار الخالدين «عذاب مقيم» قضيةَ عدل اللّه ونقمته- «وما هم بخارجين

---

(١)). سورة التّوبة ٩: ٦٨

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٨٦

من النار ولهم عذاب مقيم» «١» مقيم ما قامت النار دون خروج عنها، وليس فناء من في النار مع النار خروجاً عنها، والإقامة اللَّانهائية لأهل النار في النار خروج عن العدل والنصفة وعوذاً باللّه.

وهناك لأهل الجنة «نعيم مقيم» قضيةَ فضل اللّه ورحمته، فأين مقيم من مقيم، مقيم يقيمه عدل اللّه فله نهاية، ومقيم يقيمة فضل اللّه فليست له نهاية، بل هو «عطاء غير مجذوذ» «٢» حيث: «يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم». «٣»

وترى ما هو الفارق بين ثالوث: «نار جهنم- خالدين فيها- ولهم عذاب مقيم»؟

هنا قوس تصاعدي أن لهم أولًا: «نار جهنم» ولكن ليس لزامه خلودهم فيها، فبعض الداخلين فيها هم غير خالدين، كبعض العصات من الموحدين، حيث يخرجون عن النار دون خلود فيها هو البقاء مدة طويلة.

فثانياً: «خالدين فيها» مدة طويلة هي منقسمة بين عذاب مؤقت وعذاب مقيم، ثم ثالثاً «لهم عذاب مقيم» أبدي ما داموا هم ودامت النار، فلا يخرجون عن النار، ولا

---

(١)). سورة المائدة ٥: ٣٧

(٢)). في تفسير العياشي عن ثوير عن علي بن الحسين عليهما السلام قال: إذا صار أهل الجنة في الجنةودخل ولي اللّه إلى جنانه ومساكنه واتكىء كل مؤمن على أريكته حفتة خذامه وتهدلت عليه الثمار وتفجرت حوله العيون وجرت من تحتها الأنهار وبسطت له الزرابي ووضعت له النمارق وأتته الخذام بما شاءت هواه من قبل أن يسألهم ذلك، قال: وتخرج عليه الحور العين من الجنان فيمكثون بذلك ما شاء اللّه، ثم إن الجبار يشرف عليهم فيقول لهم: أوليائي وأهل طاعتي وسكان جنتي في جواري ألا هل أنبؤكم بخير ما أنتم فيه؟

فيقولون: ربنا وأي شيء خير مما نحن فيه فيما اشتهت أنفسنا ولذت أعيننا من النعم في جوار الكريم؟- قال: فيعود عليهم القول فيقولون ربنا نعم فأتنا بخير مما نحن فيه فيقول تبارك وتعالى لهم: رضاي عنكم ومحبتي لكم خير واعظم مما أنتم فيه، قال: فيقولون نعم يا ربنا رضاك عنا ومحبتك لنا خير أطيب لأنفسنا ثم قرء علي بن الحسين عليهما السلام هذه الآية «وعد الله المؤمنين ..» وفي الدر المنثور أخرج ابن مردوديه عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه و آله: إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله: هل تشتهون شيئاً فأزيدكم؟ قالوا: يا ربنا وهل بقي شيء إلا وقد أنلتناه؟ فيقول: نعم رضاي فلا أسخط عليكم أبداً

(٣)). سورة المآئدة ٥: ٣٧

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٨٧

تخمد النار وهم أحياء، بل هما متقارنان، يقيمون مع مقيم العذاب، كما أن مقيم العذاب معهم ما داموا أحياء، فهم:

«كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» «١»

هؤلاء الأنكاد البعاد هم «كالذين من قبلكم» منافقين وكافرين تشابهت قلوبكم وهم «كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالًا وأولاداً».

وقضية هذه المشابهة اللعينة أنهم على كثرة قوتهم وأموالهم وأولادهم «فاستمعوا بخلاقهم» وهو النصيب المكتَسب صالحاً أو طالحاً حسب مختلف الخُلُق، وهو ما خلق للإنسان في الحياة الدنيا ذريعة للأخرى، فالخلاق الصالح هو نصيب صالح في الأخرى، وكما الخلاق الطالح هو نصيب طالح فيها، ولا يعني سلب الخلاق يوم الأخرى إلّا سلب صالحه المترقب حيث أتلف خلاقه في الأولى «فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق» «٢» «ولقد علموا لمن إشتراه ما له في الآخرة من خلاق». «٣»

ذلك، والخلاق: النصيب المكتسب، هو المخلوق في أصله لكل مكلف، وهو يكلَّف بالتذرع به إلى مرضات الله، وهو الفطرة والعقلية الصالحة وكافة الطاقات الأنفسية ظاهرية وباطنية، التي هباها الله إيانا لنكون له من الشاكرين.

ذلك الخلاق قد يستمع بها متعة الحياة الدنيا ل «من كان يريد الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا تبجسون. أولئك ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون». «٤»

---

(١)). سورة التّوبة ٩: ٦٩

(٢)). سورة البقرة ٢: ٢٠٠

(٣)). سورة البقرة ٢: ١٠٢

(٤)). سورة هود ١١: ١٦

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٨٨

فقد نسوا نصيبهم من الدنيا ذريعة للآخرة، ذلك لأنهم «استمتعوا بخلاقهم» متعة الحياة الدنيا، «فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم» إستمتاعاً متشابهاً بين سَلَف وخَلَف في الخلاق، خلاق الحياة الدنيا بحذافيرها، التي خلقها الله لصالحنا، ولكنها اختلف عن صالح مغزاها بسيء الخُلق إبصاراً إليها فأعمتهم، دون إبصار بها حتى تبصِّرهم.

كما «وخضتم» في آيات الله ناكرين مستهزئين «كالذي خاضوا»: كما خاضوا، ف «أولئك حبطت أعمالهم» سلفاً وخلفاً «وأولئك هم الخاسرون» كأن لا خاسر سواهم.

و «أعمالهم» هنا هي الحسنة في نفس الذات، حيث السيئات هي حابطات دون إحباط، فأعمالهم الحسنة التي قد تفلتت من ذات أيديهم حابطة غير ثابتة إذ «إنما يتقبل اللّه من المتقين» فهي حابطة في الآخرة ليس لهم بها فيها من أجر، ثم أعمالهم التي يعملونها في الدنيا لإزهاق الحق وفتِّ ساعده وكسر عضده، هي حابطة فيها إذ لا يقدرون أن يضروا اللّه بها شيئاً، فإنما النافع لهم منها في هذه الأدنى مُتعة الحياة الدنيا ليس إلّا.

وهنا ضمير الجمع في «خاضوا» غير راجع إلى «الذي» حتى يصبح مَسكاً على أدب القرآن لهؤلآء الذين ليس لهم أدب إلّا الخوض في آيات اللّه البينات، ضدعا بل هو راجع إلى «الذين من قبلكم» و «الذي» هو عبارة أخرى عن أصل الخوض، تعني «كما خاضوا». «١» ولأن زيادة المباني تدل على زيادة المعاني، فقد تعني «الذي» هنا بديلًا عن «ما» عمق الخوض وحمقه من «الذين من قبلكم» فأنتم الأوغاد الأنكاد تتابعونهم في: كم خاضوا وكيف خاضوا، المعنيين ب «الذي خاضوا» كماً وكيفاً.

---

(١)

). فضمير الصلة للموصول هو غائب مفرد «خاضوه» راجعاً إلى «الذين» وليس الراجع هوضمير الجمع في «خاضوا» حتى يخالف الأدب خلافاً لخلاف الأدب من هؤلاء الخائضين في القرآن، فقد حاولوا طول القرون القرآنية أن يمسوا من كرامة وحيه فلم ينالوا ما يبغون، رغم الكثير من أتعابهم في البغية الظالمة، مما يدل على صالح الوحي القرآني دون آية نقطة سوداء في أدب اللفظ وحدب المعنى

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٨٩

والخوض في آيات اللّه يشمل كل حدث في الإسلام وكما يروى عن النبي صلى الله عليه و آله:

«أحذركم أن تحدثوا حدثاً في الإسلام وعلم أنه سيفعل ذلك أقوام من هذه الأمة فقال اللّه: «فاستمتعوا بخلاقهم». «١»

فكما يحدث من أحكام وأعمال وسنن لا توافق الكتاب والسنة، إنها ككلٍّ أحداث في الإسلام بإحداث ما ليس منه فيه.

ذلك فقد «كانوا أشد منكم قوةً وأكثر أموالًا وأولاداً» «إعلموا عباد اللّه أنكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل من مضى قبلكم، ممن كان أطول منكم أعماراً، وأعمر دياراً، وأبعد آثاراً، أصبحت أصواتهم هامدة، ورياحهم راكدة، وأجسادهم بالية، وديارهم خالية، وآثارهم عافية، فاستبدلوا بالقصور المشيَّدة، والنمارق الممهَّدة، الصخورَ والجبالَ المسنَّدة، والقبور اللاطئة الملحَدة، التي قد بُني بالخراب فناؤها، وشُيد بالتراب بناؤها، فمحلُها مقترِب، وساكنها مغترِب، بين أهل محلة مُوحِشين، وأهل فراغ متشاغلين، لا يستأنسون بالأوطان، ولا يتواصلون تواصل الجيران .. وكأن قد صرتم إلى ما صاروا إليه، وأرتهنكم ذلك المضجع. وضمّكم ذلك المستودَع، فكيف بكم لو تناهت بكم الأمور، وبعثرت القبور. «٢»

«أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» «٣»

«ألم يأتهم» وقد أتاهم بألسنة الوحي منافقين وكتابيين، بل ومشركين وملحدين، حيث الأنباء متناقلة متداولة بين كل الأمم مهما قلّت أو كثرت، ومن أهم هذه الأنباء نبأ قوم نوح غرقاً، وعاد وهم قوم هود حيث أهلكوا بريح صرصر عاتية، وثمود وهم

---

(١)). الدر المنثور ٣: ٢٥٥- أخرج أبو الشيخ عن الربيع أن رسول اللّه صلى الله عليه و آله حذركم ..

(٢)). (الخطبة ٢١٧)

(٣)). سورة التّوبة ٩: ٧٠

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٩٠

قوم صالح حيث أخذتهم الرجفة، وقوم إبراهيم بما فعلوا به حرقاً زعمَهم فغُلبوا هنالك وانقلبوا ضاغرين، ثم أهلك ملكهم نمرود وسلب عنهم النعمة، وأصحاب مدين أهلكوا بعذاب يوم الظلة بكل مهانة وذِلَة، وبصورة عامة «والمؤتفكات» وهي المنقلبات بقراها حيث جعلت أعاليها أسافلها كقوم لوط، فقد عم عذاب الإستئصال بمختلف صوره أمثال هؤلآء الطغات الغاوين البغات فأصبحوا مثلًا للآخرين. «١»

ولأن النبأ هو خير ذو فائدة عظيمة، فهو هنا منقسم إلى «أتتهم رسلهم بالبينات» وما أتاهم من عذابات تكذيباً لهذه البينات «فما كان اللّه ليظلمهم» هنا وهناك «ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» تكذيباً للبينات وإبتلاءً بالمثُلات والمؤتفكات.

إنهم ظلموا إنتقاصا أنفسهم النجسة النحيسة، حيث الإنتقاص بظلمهم ليس ليرد على اللّه وعلى الحق، ومهما ورد على أهل الحق في حيوية مادية- وليست روحية- فخلْفيتها الأصلية هي واردة عليهم أنفسهم، إذ لا تذرهم ما هم أحياء في مثلث النشآت.

فمن نبأِ هؤلاء الأنكاد: «فجعلناهم سلفاً ومثلًا للآخرين» «٢» ثم أولئك الآخرون يستمتعون غير شاعرين، سائرين سبيل الهلكى متغافلين، فقوم نوح يغمرهم الطوفان ويطويهم إليهم في تيّار الفناء المرهوب، وأمثالهم من هؤلاء المذكورين وسواهم.

وهكذا تكون النفس المنحرفة المنجرفة إلى هُوّات، حيث تُبطرها النِعمة فتحوَّل نَعمة ونِقمة، ولا تنتفع بعظات الغابرين ولا تعتبر، ولا تنفتح بصائرهم لإدراك سنة اللّه التي لا تتحول، فلا تُبصر مهاوي ومصارع الأقوياء الأغوياء قبلها.

هذه هي الضفَّة المنافقة والكافرة، ومن ثم الضفَّة الإيمانية:

---

(١)). نور الثقلين ٢: في من لا يحضره الفقيه روى جويرية بن مسهر قال أقبلنا مع أمير المؤمنين عليه السلام من قتل الخوارج حتى إذا قطعنا في أرض بابل حضرت صلاة العصر فنزل أمير المؤمنين عليه السلام ونزل الناس فقال علي عليه السلام: أيها الناس إن هذه الأرض ملعونة قد عذبت في الدهر ثلاث مرات- أو مرتين- وهي تتوقع الثالثة وهي إحدى المؤتفكات

(٢)). سورة الزخرف ٤٣: ٥٦

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٩١

«وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ «١»»

هذه الولاية هي ولاية المحبة والرقابة والنصرة التامة الطامة على بعضهم البعض، أن يلي كلٌّ أمر الآخر في خطوات الدعوة إلى سبيل اللّه بالحكمة والموعظة الحسنة، دون الولاية الشرعية الخاصة بمدراءِ الشريعة، وفي نهاية المطاف وعند كمال الدعوة ومعرفة كاملة بالمعروف والمنكر، وشروط أخرى مفروضة التحصيل قدر المستطاع، «يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر» فكل فاعلٍ منهم لمعروف وتارك لمنكر يأمر تارك هذا المعروف وينهى مقترف هذا المنكر، وكما يأتمر فيما هو تاركه بفاعِله وينتهي فيما هو فاعله بتاركه، تآمراً بالمعروف وتناهياً عن المنكر، فيكون كلٌّ مرآتاً للآخر يرى صالحه فيريه إياه أمراً به، ويرى طالحه فيُريه إياه نهياً عنه، دون تدخُّل لعوامل الفرقة بين صفوفهم، فحيثما وجدت فرقة في هذه الجماعة المؤمنة فثمة تدخُّل عنصر غريب عن طبيعتها وعقيدتها، وثمة غرض أو مرض يمنع السمة الأولى التي قررها العليم الخبير.

وهذه الصفات الخمس في المؤمنين: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقام الصلاة وإيتاء الزكوة وطاعة اللّه ورسوله، هذه تُقابل صفاتٍ للمنافقين: الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ونسيان اللّه وقبض الأيدي، وعصيان اللّه.

وتلك الولاية هي قمة الولايات الإيمانية المحكمة المتحكمة بين المؤمنين، كخطوة أولى في الدعوة وكما قال اللّه: «عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم» «٢» في وجه من وجوهه العِدَّة، ولأن «المؤمنون والمؤمنات» هنا «كما المنافقون والمنافقات» هناك جمعان يحلّقان على كل كَم يحمل إيماناً أو نفاقاً، فقد

---

(١)). سورة التّوبة ٩: ٧١

(٢)). سورة المآئدة ٥: ١٠٥

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‌٧، ص: ٩٢

يعني الجمع فيهما جمع كل خَلَف إلى سلفه، سلسلة موصولة مع بعضها البعض، يتابع كلُّ خَلَفٍ سَلَفه، كما يتابع بعضهم بعضاً في كل سلف وكل خَلَف، دون انفصام في عِدَّتهم عن عُدَّتهم إيماناً أو نفاقاً، مباعضة شاملة تخطِّياً عن فواصل الزمان والمكان والأواصر حيث يجمع كلّاً عقيدته الخاصة به في حقل الإيمان.

فالولاية الإيمانية هي إمتداد بين أهلها طولَ الزمان وعرضَ المكان، وهكذا الولاية الكافرة نفاقاً وسواه، طالما الولاية الإيمانية عريقة لا تنفصم، والولاية الكافرة هي في انفصام دائم، فلذلك هم «بعضهم من بعض» وأولئك الأركام «بعضهم أولياء بعض».

فالولاية الصادقة بحاجة إلى نَجدة وشجاعة جادَّة، وإلى تعاون صارم وتكاليف قائمة وليست هكذا ولاية النفاق.

ولأن «يأمرون وينهون» هنا محذوف المتعلّق فقد يشملان إلى التآمر والتناهي فيما بينهم التعاون الصالح في أمر الآخرين ونهيهم بعد كامل الدعوة العاذرة البينة.

ذلك «ويقيمون الصلاة» صلةً باللّه «ويؤتون الزكوة» صلةً بعباد اللّه بأمر اللّه «ويطيعون اللّه» أصلًا في الطاعة، متمثلة في كتاب اللّه «ورسوله» فرعاً فيها رسالة عن اللّه، متمثلة في سنة رسول اللّه صلى الله عليه و آله ولأن هذه الثلاثة هي من ميزات الإيمان معدودة في عديد الولاية الإيمانية فلتكن في رقابة جماهيرية أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكوة ويطيعوا اللّه ورسوله في حقل الولاية وبصورة جمعية متضامنه، فكما أن تطبيق المعروف وترك المنكر شخصياً لا يكفي، بل ويليها واجب الأمر والنهي، كذلك إقام الصلاة وإيتاء الزكوة وطاعة اللّه ورسوله، فعند ذلك «يرحمهم اللّه» رحمةً عالية تشملهم، حيث تجعلهم أقوياء أمام الأغوياء، ف «لن يضروكم إلا أذى» على ضوء هذه الحياة الإيمانية التضامنيه، وكما هي مذكورة في آل عمران من قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللّه حق تقاته ..» إلى «لن يضروكم». ف «أولئك سيرحمهم اللّه» في الدنيا والآخرة ف «إنا لننصر رسلنا الذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‌٧، ص: ٩٣

الأشهاد» «إن اللّه عزيز حكيم».

إذاً فالخارجون عن هذه الخماسيه المجيدة خارجون عن رحمة اللّه إلى عذابه.

ذلك، وهل إن من قضايا تلك الولاية الإيمانية أن يحمل مؤمن مؤمنة أو تحمل مؤمنة مؤمناً بأمان إيمان وظل ظليل رباني؟ أجل «فإن المؤمن محرم المؤمنة ..» «١»

ولكن في غير ما هو مخصوص بالمحارم الرسميين أقرباء وأنسباء، حيث إن الولاية الطليقة الصالحة تقتضي ذلك الحمل رعاية لصالح بعضهم البعض.

ذلك ف «المؤمنون والمؤمنات» لإخاءهم في الله يتحابون بجلال الله والولاية للّهو «رأس العقل بعد الإيمان بالله مداراة الناس ولن يهلك رجل بعد مشورة وأهل المعروف في الدنيا أهل المعروف في الآخرة وأهل المنكر في الدنيا أهل المنكر في الآخرة». «٢»

ولأن هذه الولاية الجماهيرية هي من لزامات الإيمان، فعلى كافة المؤمنين والمؤمنات أن يحصلوا على جدارة هذه الولاية، تقديماً لكل طاقاتهم وإمكانياتهم في هذه السبيل بمقدماتها، كالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، فليكن كلٌ واعظاً آمراً ناهياً غيره كما يعظ ويأمر وينهى نفسه، بادئاً بنفسه حتى يصلح واعظاً لغيره.

---

(١)

). نور الثقلين ٢: ٢٤٠ في تفسير العياشي عن صفوان الجمال قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام بأبيوأمي تأتيني المرأة المسلمة قد عرفتني بعلمي وعرفتها باسلامها وحبها إياكم وولايتها لكم وليس لها محرم؟ قال: فإذا جائتك المرأة المسلمة فاحملها فإن المؤمن محرم المؤمنة وتلا هذه الآية «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض»

(٢)). الدر المنثور ٣: ٢٥٦- أخرج ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا عن سعيد بن المسيب قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: .. أقول وذيل الحديث مروي عنه صلى الله عليه و آله بطرق كثيرة وألفاظ عدة ومنها ما عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: إن أحب عباد اللَّه إلى اللَّه عزَّ وجلّ من حبب إليه المعروف وحبب إليه فعاله، وفيه عنه قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: إن اللَّه جعل للمعروف وجوهاً من خلقه وحبب إليهم فعاله ووجه طلاب المعروف إليهم ويسر عليهم إعطاءَه كما يسر الغيث إلى الأرض الجدبة ليحييها ويحيي به أهلها وإن اللَّه جعل للمعروف أعداءً من خلقه بغض إليهم المعروف وبغض إليهم فعاله وحظر عليهم إعطاءه كما يحظر الغيث عن الأرض الجدية ليهلكها ويهلك بها أهلها وما يعفو اللَّه أكثر

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٩٤

وحين يصبح الجو في المجتمع الإيماني جو الدعوة والعظة والأمر والنهي بشروطها، فقد يسلم ذلك الجو الطاهر، القاهر على التخلفات عن كافة النكبات، ولكي يربي العائشين فيه من غير المؤمنين فضلًا عن المؤمنين أنفسهم.

ذلك، فكل فاعل لمنكر أو تارك لمعروف عليه مسؤولية مضاعفة ما دام في ذلك الجو معروف متروك أو منكر مفعول، أولاهما هي التخلف الشخصي عن شرعة اللَّه، وثانيتها التخلف عن جدارة الولاية بالنسبة لأمثاله من المتخلفين.

ذلك وهنا «بعضهم أولياء بعض» حيث اقتسموا إلى بعضين اثنين، قد يُعنى من البعض الأول الجامعون لشروط الولاية ككل، كالعدول في كل شيءٍ، ومعهم الجامعون لشروط الولاية في بعض الأمور، ثم المولَّى عليهم هم المقصرون، فهناك ولاية من طرف واحد، ثم موالاة بين بعض وبعض حسب مختلف التخلفات فيهما.

إذاً فهم بين آمرين وناهين من جانب ومأمورين ومنهيين من جانب آخر، وآخر متآمرين ومتناهين فيما إذا اشتركوا في ترك واجب وإقتراف محرم.

وقد تعني الأمة الآمرة الناهية وهم خير أمة أخرجت للناس الأوّلين، ثم يليهم الآخرون المتآمرون المتناهون، فولاية الأولين في حقل الأمر والنهي طليقة، وهي للآخرين محدودة بما هم فيه غير مقصرين.

ثم لا ولاية لتاركي المعروف و فاعل المنكر إلا- علّها- فيما هم فاعلوه من معروف أو تاركوه من منكر.

فالمقصر المطلق لا ولاية له على أحد في هذا الحقل، والعادل المطلق له الولاية المطلقة فيه، والعوان بينهما له ولاية نسبية فيما لا يقصر فيه.

ذلك، ولأن العدالة المطلقة قلما توجد بين المسلمين، ولا كفاية في هذه القلة القليلة قياماً لواجب الأمر والنهي، ونصوص آيات وعلى ضوءها روايات لا تمنع إلّا عن الأمر بمعروف آمره تاركه، وعن النهي عن منكر ناهيه فاعله، ثم وآيات واجب الأمر والنهي بوجه الكفاية طليقة أو عامة يكتفى بتخصيصها فواجب الأمر والنهي

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٩٥

غير ساقط عن الباقين مهما كانوا باغين في غير ما يأمرون به وينهون عنه.

وترى المجاهر بالفسق له أو عليه أن ينهى عن فسق آخر؟ وفي أمره ونهيه مزرءة بشرعة الله، ومنقصة أو معاكسة في التأثير!.

«أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم» قد تمنع عن الآمر بالبر الناسي نفسه فيه، ولكنها محدودة بنفس البر الذي به يأمرون، وإلا رجعت مشكلة عدم كفاءة العدول في كل شيءٍ، ثم «لم تقولون ما لا تفعلون. كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون» تحدد المحرم الماقت في القول أمراً وسواه بما لا يفعله نفسه.

صحيح أن في الأمر والنهي من غير العادل منقصة في التأثير ولكنه ليس- مع الوصف- عدم التأثير، إذ لا حجة للمأمور والمنهي في عدم ائتماره وانتهاءه بأن الآمر تارك لما يأمر، أو الناهي فاعل لما ينهى.

ثم آية التناهي نص في واجب النهي والإنتهاء، ولو كنت العدالة الطليقة شرطاً لوجوب- فضلًا عن جواز- الأمر والنهي فلا دور إذاً للتناهي، كما وأن التناهي تعاون على البر والتقوى وهو فرض جماعي بين الجماعة المؤمنة.

فكما يجب على المكلفين فعل الواجبات وترك المحرمات فرضاً شخصياً على أشخاصهم، كذلك يجب التآمر والتناهي وليس إلّا في غير العدل المطلق.

إذاً فالواجب الأول على كل المكلفين وقاية أنفسهم بصورة عادلة طليقة، ثم وقاية الآخرين، وحين يفسق المكلف أحياناً ويعدل أخرى، فهو حالةَ عدله مفروض عليه أن يكلف التاركين له أن يحققوه، أمراً بمعروف هو فاعله، ونهياً عن منكر هو تاركه، دونما تعدٍ طورَه أن يأمر بمتروكه وينهى عن مفعوله، مهما كان خفية فضلًا عن كونه جهراً.

فالمصلي التارك للصوم والصائم التارك للصلاة، يجب عليهما التآمر بأن يأمر الأول الثاني بالصلاة، ويآمر الثاني الأول بالصوم، وهكذا التناهي.

ولولا جو التآمر والتناهي لأظلم الجوّ بصورة واسعة شاسعة إذ لا كفاءة في العدول

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٩٦

الطليقين في شيءٍ.

فهنا- في حقل واجب الأمر والنهي- هذه الآية هي أعم الآيات فيهما، ثم تخصص ب «ولتكن منكم أمة» ثم تخصص آية الأمة هذه ب «أتأمرون الناس بالبر ..»

و «لم تقولون ما لا تفعلون» و «ما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه» وهذه الثلاث تنضبط دلالياً ب «كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه».

والمهم في هذا البين ضرورة استمرارية لسان الأمر والنهي بين المؤمنين، متجنبين عن سوء التأثير إن لم يكن لهما حسن التأثير.

ففاعل المنكر وتارك المعروف جهاراً، محرم عليه الأمر والنهي فيما لا يفعله من معروف أو لا يتركه من منكر، قطعاً، ثم يتلوه غير الجاهر فيما يأمر وينهى، لمكان الإطلاق في هذه الآيات الثلاث.

ومن ثم الجاهر بغير ما يأمر أو ينهى، فالأشبه وجوبهما عليه إلا إذا أثر سوءً في المأمور والمنهى.

ثم غير الجاهر بغير ما يأمر وينهى، فإنه مع العدل المطلق من القدر المتيقن للوجوب.

ذلك، ولا يعني جواز التأثير في حقل الأمر والنهي أن يؤثرا بالفعل، بل وإن أثرا في المستقبل أم بتكرار الأمر والنهي، أم ولأقل تقدير كانا حجة على المتخلفين أم مزيد حجة عليهم، حيث الدعوة الربانية تمحور «عذراً أو نذراً» «١» كيف لا؟ وقد عذب الذين تركوا النهي عن السوء- فيما لم يؤثر- إلى جانب فاعلي السوء في مزرءة السبت: «إذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً اللّه مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون. فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون. فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا

____

(١)). سورة المرسلات ٧٧: ٦

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏٧، ص: ٩٧

لهم كونوا قردة خاسئين». «١»

فقد دخل التاركون النهي عن المنكر هنا في الظالمين «بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون» ولم يكن ليؤثر النهي كما لم يؤثر!.

فلا يشترط في وجوب الأمر والنهي التأثير ولا جوازه بالفعل ولا مستقبلًا، بل يكفى كونها حجة على المتخلفين.

وهكذا شرط الأمن من الضرر إلا إذا فاق ضررَ ترك المعروف وفعلِ المنكر، ف «وأمر بالمعروف وانْهَ عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور» «٢» وليست الإصابة هنا إلا من مخلفات الأمر والنهي.

«وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ «٣»»

«ورضوان من اللّه اكبر» من «جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن» ف «لَنعيم أهل الجنة برضوان اللّه عنهم أفضل من نعيمهم بما في الجنان». «٤»

فأين حَظوة روحية ب «رضوان من اللّه» معرفيةً وعبوديةًوزلفى، من حظوة جسدية في جناتها؟ مع كل مواصفاتها على لسان الرسول صلى الله عليه و آله. «٥»

____

(١)). سورة الأعراف ٧: ١٦٦

(٢)). سورة لقمان ٣١: ١٧

(٣)). سورة التّوبة ٩: ٧٢

(٤)). الدر المنثور ٣: ٢٥٧- أخرج ابن أبي حاتم عن أبي عبد الملك الجهني قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: .. وفيه عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: إن اللّه يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون لبيك يا ربنا وسعديك والخير

في يديك فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون ربنا ومالنا لا نرضى وقد اعطيتنا ما لم تعطه أحداً من خلقك فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ قالوا: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ قال: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً

(٥)). تفسير الفخر الرازي ١٦: ١٣٢ عن أبي هريرة قلت يا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله حدثني عن الجنة ما بناؤها؟ فقال: لبنة من ذهب ولبنة من فضة وملاطها المسك الأذفر وترابها الزعفران وحصباؤها الدر والياقوت فيها النعيم بلا بؤس والخلود بلا موت لا تبلي ثيابه ولا يغنى شبابه

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٩٨

وهنا «رضوانٌ» تنكير قاصد لأقل رضوان إلى كثيره وأكثره، فقليل الرضوان أكبر من كثير الجنان و «ذلك هو الفوز العظيم» جمعاً بين رضوان وهذه الجنان «فبأى آلاء ربكما تكذبان».

وكما أن السالكين إلى اللَّه يوم الدنيا يفضِّلون مرضات اللَّه على مرضات أنفسهم، كذلك يوم الأخرى، ففي هذه الجنات رضوانٌ لأنفسهم، وأين هي من «رضوان من اللَّه»؟ وقد «رضي اللَّه عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم» «١» «رضي اللَّه عنهم ورضوا عنه أولئك حزب اللَّه» «٢» «رضي اللَّه عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه» «٣»

فحزب اللَّه يخشون ربهم فهم المرضيون عند اللَّه في الدنيا والآخرة و «ذلك هو الفوز العظيم».

أجل «ورضوان من اللَّه» هو أقصى الغايات وأنهى النهايات.

للسالكين إلى اللَّه، الهائمين إياه، ولو أن أهل اللَّه خُيِّروا بين رضوان من اللَّه في عذاب أليم جسيم، وبين غير رضوان ونعيم مقيم، لكانوا يقدمون رضوانه على سائر نعيمه، وإنما يفضلون الجنات لأنها محالُّ أهل كرامة اللَّه والزلفى من اللَّه.

ثم «المؤمنون والمؤمنات» هنا هم الموصوفون بخمس من صفات الإيمان في الآية السالفة، دون من يحمل مجرد الإيمان عقيدياً وإن لأدناها.

إذاً ف «جنات تجري من تحتها الأنهار» دون حساب، هي من مواعيدهم عند اللَّه، ثم سائر المؤمنين والمؤمنات هم محاسَبون بتركهم صفات الإيمان الخمس، وقد يدخلون النار دون قرار ثم يخرجون إلى «جنات تجري تحتها الأنهار».

أمترى «رضوان من اللَّه أكبر» إضافة إلى جنات تجري من تحتها الأنهار» ذلك لمن يرحمهم اللَّه من التاركين لشروط الإيمان الأصلية؟!.

---

(١)

). سورة المآئدة ٥: ١١٩

(٢)). سورة المجادلة ٥٨: ٢٢

(٣)). سورة البيّنة ٩٨: ٨

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٩٩

مرحلة اخيرة في الامر والنهي الدفاع/ الجهاد/ القتال في سبيل اللَّه عند المكنة

«إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ «١»»

إعلام صارخ في هذه الاذاعة القرآنية يُطَمئِن الذين آمنوا في حياة المعارضة الدائبة بين كتلتي الكفر والايمان «ان الله يدافع عن الذين آمنوا» فليدافعوا هم عن ايمانهم صامدين، دون تزعزع ولا تلكُّع في تلكم العقبات والعقوبات ودوائر السوء المتربصة بهم، حيث الله هو الدافع عنهم ما لا يستطيعون، وهو القائم بامرهم ما لا يقدرون، شرطَ أن يوفوا بشرائط الايمان، ويقدِّموا أشراطه جاهرين متجاسرين أمام الكفر الطاغي أياً كان «ان الله لا يحب كل خوان كفور» وهو لا يدافع إلّا عمن يحب، ثم يذر من لا يحب في طغيانهم يعمهون، ويكلهم إلى انفسهم «ولا تحسبن الله غافلًا عما يعمل الظالمون».

وليست هذه المدافعة الربانية- فقط- كما يزعمه البطّالون أن شرعة الله هي للهفهو الذي يدافع عنها، والمؤمنون بالله هم أهل الله، فهو الذي يدافع عنهم، دون أن تكون منهم دفاع!

إنها دفاع رباني بعد دفاعهم كما يستطيعون كما هنا بفاصل آية «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ...» وفي البقرة «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين» «٢»

ثم ونفسُ «كل خوان كفور» تاييد ثالث بالتزام شريطة الإيمان الدفاع، فالمؤمن الذي حُمِّل أمانة الايمان، عليه أن يؤديها سليمة فلا يخون، وأن يحوطه شاكراً لنعمته بنفسه فلا يكفر به كفراناً، إذاً ف «يدافع» قدر حفظ امانته والشكر له، و «لا يحب» قدر

---

(١)). سورة الحج ٢٢: ٣٨

(٢)). سورة البقرة ٢: ٢٥١

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٠٠

الخيانة والكفران، من ايٍّ كان مهما يدعي الايمان و «ذلك بان الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم» «١»

إذاً فعليك الحركة وعلى الله البركة، دون بطالة للايمان وعُطالة لأهل الايمان، متكلين كلياً على الله دون ان يأتوا بشرائط الايمان، وبالصمود والحركة اللائقة في مجالات الامتحان: «... وما أصابكم يوم التقى الجمعان فباذن الله وليعلم المؤمنون وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله او ادفعوا قالوا لو نعلم قتالًا لاتبعناكم هم للكفر يومئذٍ اقرب منهم للايمان يقولون بافواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون. الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرأواعن انفسكم الموت إن كنتم صادقين». «٢»

اجل وهذه قضية أمان الله لأهل الايمان في هذه المعركة الصاخبة المستمرة بين قوى الخير والايمان، وقوى الشر والطغيان، فالشر جامح مسلح، وهو يبطش غير متحرّج، ويضرب غير متورّع، ويسانده كل الطاقات الشريرة داخلية وخارجية، فلابد- إذَنْ- للايمان من قوة تدفعه من بطشه، وتمنعه عن طيشه، وقايةً للايمان من فتنة الدوائر، وحراسة له من الأشواك في كل المحاور.

وليست قوة الايمان في نفوس- فقط- لتكفي مكافأة ومكافاة، فللصبر حدٌ وللإحتمال أمد، والله اعلم بما في النفوس من أصالة الضعف والطموس، فلذلك يعدهم- إن قاموا بشرائط الايمان- أن يدافع عنهم قدر ما يدافعون، وأن ينصرهم كما ينصرون: «إن تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم».

ولقد صبر المؤمنون طيلة العهد المكي وقايةً لكيانهم الجديد كيلا يهدر بَدَداً، لحد غلى مرجل اصطبارهم «٣» فكان يُطَمئِنُهم الله أنه هو ناصرهم وسوف ينصرهم، والآن

---

(۱)). سورة محمّد صلى الله عليه و آله ۴۷: ۱۱

(۲)). سورة آل عمران ۳: ۱۶۸

(۳)). في المجمع كان المشركون يؤذون المسلمين لا يزال يجيء مشجوج ومضروب الى رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله ويشكون ذلك اليه فيقول لهم: اصبروا فاني لم اؤمر بالقتال حتى هاجر فانزل اللّه هذه الآية بالمدينة وهي اولى آية نزلت في القتال.

وفي الدر المنثور ۴: ۳۶۳- اخرج جماعة عن ابن عباس قال: لما خرج النبي صلى الله عليه و آله عن مكة قال ابو بكر اخرجوا نبيهم انا للّه‌وانا اليه راجعون ليهلكن القوم فنزلت هذه الآية

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج۷، ص: ۱۰۱

وقد حان حين الدفاع الجاهر في العهد المدني يجدد لهم وعد المدافعة، ثم يأذن لهم في الدفاع لأوّل مرة، وهم في استعداد لائق للقيام بشروطات الدفاع، اذاً ف «أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ «۱»»

«لم يؤمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله بقتال ولا اذِن فيه حتى نزل جبرئيل بهذه الآية .. وقلده سيفاً «۲»» فهي أول آية نزلت في الدفاع والقتال، وكل حروب الاسلام مصبوغة بصبغة الدفاع مهما اختلف صورها وظروفها وبواعثها، حيث يجمعها «بأنهم ظُلموا» طيلة العهد المكي، ومن ثم في العهد المدني، «وان اللّه على نصرهم لقدير» حين هم قلة قليلة، ولكنهم وهم خارجون عن مكة، قائمون على سوقهم في المدينة، «اذن لهم» حينئذٍ بالدفاع- فعلًا- دون الهجوم البدائي وإن لم يُظلموا بل حين ظُلموا وقوتلوا.

ذلك هو الذي يبرّر خوضهم للمعركة حيث هم منتدبون لمهمة انسانية كبرى، يعود خيرها اليها كلها، ولا سيما الكتلة المؤمنة المظلومة بين الكُتَل، ضماناً لحرية الأنفس والأعراض والعقائد والعبادات الإسلامية حيث ظُلمت واهينت في بداية عهدها، مستمرة حتى الدفاع الصارم.

فليس الدفاع الإسلامي صراعاً على عَرَض من أعراض هذه الأرض المتشجرة فيها الأطماع، دفاعاً وحرباً توسُّعياً لمكسب اكثر مُتعةً في هذه الأدنى، وإنما هي عِرض الإنسانية المؤمنة المظلوم في جو الظلامات.

هكذا «اذن للذين يقاتلون» دفاعاً إذا ظُلموا وقوتلوا دون إفراط المتوسعين المهاجمين، ولا تفريط التنابلة الكُسالى القاعدين أولي الضرر باسترخاءٍ، نَظِرَة أن ينزل عليهم النصر والرخاء سهلًا هيناً بلا عناءٍ، لمجرد أنهم يقيمون الصلاة ويؤتون

---

(۱)). سورة الحج ۲۲: ۳۹

(۲)). مجمع البيان وروي عن الباقر عليه السلام انه قال لم يؤمر

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج۷، ص: ۱۰۲

الزكاة ويرتلون القرآن ترتيلًا، فإنها على فرضها ورجاحتها لا تؤهلهم وحدها لحمل دعوة اللّه وحمايتها وحياطتها.

ذلك، وقد ينمو الايمان في ثنايا المعركة وهي في سبيل اللّه، كما ينمو اللاايمان في ثناياها وهي في سبيل اللهو وزخرفة هذه الأذنى «وأن اللّه على نصرهم لقدير» إذا هم مضحُّون في سبيله، فعليهم الحركة وعلى اللّه البركة وهم منتصرون قاتلين ومقتولين.

اذاً فالمدافعة الربانية عن الذين آمنوا انما تتم عن طريقهم هم أنفسهم، دون لُقية تهبط عليهم من السماء بلا عناءٍ إلّا الدعاء.

إنها حين تذوب الغايات والحميات وإبداء الشجاعات، ثم لكيانهم الدفاعي إلا «من قاتل لتكون كلمة اللّه هي العليا فهو في سبيل اللّه» «۱»

فالمقاتلون المظلومون هم:

«الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً.

وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ «٢»»

ف «اخرجوا من ديارهم» ذلك تصوير لغاية الظلم، وهم قبل الإخراج كانوا في العهد المكي في كل إحراج وارتجاج في كل متطلبات الحياة، فقد أحرجوهم حتى أخرجوهم مرة الى الحبشة وأخرى إلى المدينة المنورة.

فالآن وقد ظُلموا من قبل حتى اخرجوا ثم ظُلموا من بعد أن قوتلوا، اذن لهم بدفاع صارم، حيث الصبر على الظلم مع امكانية الدفاع، هو ضيمٌ وظلم على ظلم، ظلم بالعقيدة وظلم بالمعتقدين وظلم بالآخرين حيث يعبِّد عليهم طريق الظلم ف «لا يكون مأذوناً له في القتال حتى يكون مظلوماً ولا يكون مظلوماً حتى يكون مؤمناً

---

(١)). رواه الشيخان البخاري ومسلم في الصحيحين انه سئل رسول اللّه صلى الله عليه و آله الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل ليرى فأيها في سبيل اللّه فقال: ..

(٢)). سورة الحج ٢٢: ٤٠

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٠٣

ولا يكون مؤمناً حتى يكون قائماً بشرائط الايمان التي اشترط اللّه تعالى على المؤمنين والمجاهدين فاذا تكاملت فيه شرائط اللّه تعالى كان مؤمناً واذا كان مؤمناً كان مظلوماً واذا كان مظلوماً كان مأذوناً له في الجهاد». «١»

---

(١)). نور الثقلين ٣: ٥٠٢ عن الكافي في الصحيح عن ابي عمر الزبيدي عن ابي عبد اللّه عليه السلام قال قلت له اخبرني عن الدعاء الى اللّه والجهاد في سبيله اهو لقوم لا يحل الا لهم ولا يقوم به الا من كان منهم، ام هو مباح لكل من وحد اللّه عز وجل وآمن برسوله صلى الله عليه و آله ومن كان كذلك فله ان يدعو الى اللّه عز وجل والى طاعته وان يجاهد في سبيل اللّه؟ فقال عليه السلام: ذلك لقوم لا يحل الا لهم ولا يقوم بذلك الا من كان منهم، قلت: من اولئك؟ قال: من قام بشرائط اللّه تعالى في القتال والجهاد على المجاهدين فهو المأذون له في الدعاء الى اللّه عز وجل في القتال والجهاد على المجاهدين فهو المأذون له في الدعاء الى اللّه عز وجل ومن لم يكن قائماً بشرائط اللّه في الجهاد على المجاهدين فليس بماذون له في الجهاد والدعاء الى اللّه حتى يحكم في نفسه بما اخذ اللّه عليه من شرائط الجهاد بيِّن لي يرحكم اللّه. فقال: ان اللّه عز وجل اخبر في كتابه الدعاء اليه ووصف الدعاة اليه فجعل ذلك لهم درجات يعرف بعضها ببعض ويستدل بعضها على بعض- الى ان قال- عليه السلام ثم اخبر تبارك وتعالى انه لم يؤمر بالقتال الا اصحاب هذه الشروط، فقال سبحانه وتعالى: اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان اللّه على نصرهم لقدير. الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا اللّه» وذلك ان يجمع ما بين السماء والأرض للّهعز وجل ولرسوله ولاتباعهم من المؤمنين من اهل هذه الصفة فما كان من الدنيا في ايدي المشركين والكفار والظلمة والفجار من اهل الخلاف لرسول اللّه صلى الله عليه و آله والمولِّي عن طاعتهما مما كان في ايديهم ظلموا فيه المؤمنين من اهل هذه الصفات وغلبوهم عليه مما افاء اللّه على رسوله فهو حقهم افاء اللّه عليهم ورده اليهم وانما معنى الفيء كلما صار الى المشركين ثم رجع مما كان غلب عليه او فيه فما رجع الى مكانه من قول او فعل فقد فاء مثل قول اللّه عز وجل:

فان فاؤا فان اللّٰه غفور رحيم» اي رجعوا، ثم قال: وان عزموا الطلاق فان اللّٰه سميع عليم» وقال «وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى امر اللّٰه» اي ترجع «فان فاءت» اي رجعت «فاصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا ان اللّٰه يحب المقسطين» يعني بقوله: تفيء- ترجع فذلك الدليل على ان الفيء كل راجع الى مكان قد كان عليه او فيه، ويقال للشمس اذا زالت قد فاءت الشمس حين يفيء الفيء عند رجوع الشمس الى زوالها، وكذلك ما افاء اللّٰه على المؤمنين من الكفار فانما هي حقوق المؤمنين رجعت اليهم بعد ظلم الكفار اياهم فذلك قوله: اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا» ما كان المؤمنون احق منهم.

وانما اذن للمؤمنين الذين قاموا بشرائط الايمان التي وصفناها وذلك انه يكون مأذوناً في القتال .... لقوله عز وجل: اذن للذين .... وان لم يكن مستكملًا شرائط الايمان فهو ظالم ممن ينبغي ويجب جهاده حتى يتوب وليس مأذوناً له في الجهاد والدعاء الى اللّٰه عز وجل لأنه ليس من المؤمنين المظلومين الذين اذن لهم في القرآن في القتال فلما نزلت هذه الآية في المهاجرين الذين اخرجهم اهل مكة من ديارهم واموالهم احل لهم جهادهم بظلمهم اياهم لهم في القتال.

فقلت: فهذه نزلت في المهاجرين بظلم مشركي اهل مكة لهم فما بالهم في قتال كسرى وقيصر ومن دونهم من مشركي قبائل العرب؟

فقال: لو كان انما اذن لهم في قتال من ظلمهم اهل مكة فقط لم يكن لهم الى قتال جموع كسرى وقيصر وغير أهل مكة من قبائل العرب سبيل لأن الذين ظلموهم غيرهم وانما اذن لهم في قتال من ظلمهم من اهل مكة لاخراجهم اياهم من ديارهم واموالهم بغير حق ولو كانت الآية انما عنت المهاجرين الذين ظلمهم اهل مكة كانت الآية مرتفعة من الأرض عمن بعدهم اذ لم يبق من الظالمين والمظلومين احد وكان فرضها مرفوعاً عن الناس بعدهم اذ لم يبق من الظالمين والمظلومين احد وليس كما ظننت وكما ذكرت ولكن المهاجرين ظلموا من جهتين ظلمهم اهل مكة باخراجهم من ديارهم واموالهم فقاتلوهم باذن اللّٰه لهم في ذلك وظلمهم كسرى وقيصر ومن كان دونهم من قبائل العرب والعجم بما كان في ايديهم مما كان المؤمنون احق به منهم فقد قاتلوهم باذن اللّٰه تعالى لهم في ذلك.

بحجة هذه الآية يقاتل مؤمنوا كل زمان وانا اذن اللّٰه للمؤمنين الذين قاموا بما وصف اللّٰه تعالى من الشرائط التي شرطها اللّٰه على المؤمنين في الايمان والجهاد ومن كان قائماً بتلك الشرائط فهو مؤمن وهو مظلوم وما ذون له في الجهاد بذلك المعنى ومن كان على خلاف ذلك فهو ظالم وليس من المظلومين وليس بمأذون له في القتال ولا بالنهي عن المنكر والأمر بالمعروف لأنه ليس من أهل ذلك ولا مأذون له في الدعاء إلى اللّٰه تعالى لأنه ليس يجاهد مثله وأمر بدعائه الى اللّٰه ولا يكون مجاهداً من قد أمر المؤمنين بجهاده وحضر الجهاد عليه ومنعه منه ولا يكون داعياً الى اللّٰه تعالى من امر بدعاء مثله الى التوبة والحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يأمر بالمعروف من قد امر ان يؤمر به ولا ينهى عن المنكر من قد امر ان ينهى عنه فمن كانت قد تمت فيه شرائط اللّٰه تعالى التي وصف بها اهلها من اصحاب النبي صلى الله عليه و آله وهو مظلوم فهو مأذون له في الجهاد وكما اذن لهم في الجهاد لأن حكم اللّٰه تعالى في الأولين والآخرين وفرائضة عليهم سواء الا من علة او احاديث يكون والأولون والآخرون ايضاً في منع الحوادث شركاء والفرائض عليهم واحدة يسأل الآخرون عن أداء الفرائض عما يسأل عنه الأولون، ويحاسبون عما به يحاسبون-

ومن لم يكن على صفة من اذن اللّٰه له في الجهاد من المؤمنين فليس من أهل الجهاد وليس بمأذون له حتى يفيء بما شرط اللّٰه تعالى عليه فاذا تكاملت فيه شرائط اللّٰه تعالى على المؤمنين والمجاهدين فهو من المأذون لهم في الجهاد فليتق اللّٰه تعالى عبدٌ ولا يغترُّ بالاماني التي نهى اللّٰه تعالى عنها من هذه الاحاديث الكاذبة على اللّٰه التي يكذبها القران ويتبرء منها ومن حملتها ورواتها ولا يقدم على اللّٰه بشبهة لا يعذر بها فانه ليس وراء المعترض للقتل في سبيل اللّٰه منزلة يؤتى اللّٰه من قبلها وهي غاية الاعمال في عظم قدرها، فليحكم امرء لنفسه

وليُرِها كتاب اللّه تعالى ويعرضها عليه فانه لا احد اعرف بالمرء من نفسه فان وجدها قائمة بما شرط اللّه عليه في الجهاد فليقدم على الجهاد وان علم تقصيراً فليصلحها وليقمها على ما فرض اللّه عليها من الجهاد ثم ليقدم بها وهي طاهرة مطهرة من كل دنس يحول بينها وبين جهادها ولسنا نقول لمن اراد الجهاد وهو على خلاف ما وصفنا من شرائط اللّه عز وجل على المؤمنين والمجاهدين لا تجاهدوا ولكن نقول قد علّمناكم ما شرط اللّه تعالى على اهل الجهاد الذين بايعهم واشترى منهم انفسهم واموالهم بالجنان فليصلح امرءٌ ما علم من نفسه من تقصير عن ذلك ويعرضها على شرائط اللّه فان رأى انه قد وفى بها وتكاملت فيه فانه ممن اذن اللّه تعالى له في الجهاد وان ابى ان يكون مجاهداً على ما فيه من الاصرار على المعاصي والمحارم والاقدام على الجهاد بالتخبيط والعمى والقدوم على اللّه عز وجل بالجهل والروايات الكاذبة فلقد لعمري جاء الاثر فيمن فعل هذا الفعل ان اللّه تعالى ينصر هذا الدين باقوام لا خلاق لهم فليتق اللّه امرءٌ وليحذر ان يكون منهم فقد بين لكم ولا عذر لكم بعد البيان في الجهل ولا قوة الا باللّه وحسبنا اللّه عليه توكلنا واليه المصير» اقول: الارقام الاخرى راجعة الى مقتطفات من الحديث فلتراجع

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٠٥

«أخرجوا من ديارهم بغير حق إلّا أن يقولوا ربنا اللّه» استثناء منقطع، فان القول «ربنا اللّه» لا يُحق ذلك الإخراج الإحراج، فهو- اذاً- يستغرق سلب كل حق في ذلك الإخراج.

اترى «ان يقولوا» هو- فقط- قول بالأفواه والاعمال لاهيةٌ والقلب، لِاه ذلك القول الهازىء هو قولة المنافقين، وهي تتطلب الإفراج دون الإخراج، بل هو قول ينبيءُ عن عقيدة صارمة ظاهرة في الافعال والاحوال على أية حال، حيث يُحرج غيرُ الموحدين لحد اخراجهم من ديارهم: «وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا باللّه العزيز الحميد». «١»

فإذن اللّه لهم بالدفاع دفاع، وأمرهم إياهم بالدفاع دفاع، ونصرته اياهم زاوية ثالثة من الدفاع قد يعنها كلها «إن اللّه يدافع ..» وهكذا الأمر «ولولا دفع اللّه الناس بعضهم ببعض ..».

فذلك الدفع يجمع مثلَّثه تكويناً وتشريعاً، تطبيقاً منهم ونصرة من اللّه، لولاه لكان مسرح الحياة كله للشر والطغيان، دون أية مجالة للخير والايمان «ولكن اللّه ذو فضل على العالمين».

---

(١)). سورة الأعلى ٨٧: ٨

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٠٦

هنا «دفع اللّه الناس بعضهم ببعض» تعم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدفاع والجهاد، فالناس الآخرون هم المؤمنون القائمون بشرائط الايمان في الأمر والنهي والدفاع والجهاد، وليس كل الناس، ف «لا يأمر بالمعروف من قد أمر أن يؤمر به ولا ينهى عن المنكر من قد أمر أن ينهى عنه». «١»

ثم لا تختص هذه الآية بزمن الرسول صلى الله عليه و آله ككل الآيات حيث تحلِّق على العالمين الى يوم الدين، و «لو كانت الآية انما عنت المهاجرين الذين ظلمهم اهل مكة كانت الآية مرتفعة من الأرض».

وبحجة هذه الآية يقاتل مؤمنوا كل زمان ولها متدرجة منذ حروب الرسول صلى الله عليه و آله الى الإمام على عليه السلام والحسين عليه السلام والى حروب صالحة أخرى، حتى حرب القائم المهدي «٢» عليه السلام حيث تتحقق هذه الآية حقها وكمالها الشاسع دون إبقاء لكل خوّان كفور.

«ولولا دفع الله .. لهدمت ..» وذلك تهديم عميم لكل آثار الحق واهله وذكر الحق واهله:

«لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً»

تهديماً لأمكنة الذكر والصلاة لأهل الملل الثلاث وهم هامة أهل الكتاب بل وعامتهم، اليهود والنصارى والمسلمون.

ف «صوامع» هي الامكنة الخاصة المنعزلة عن الناس لعبادة النصارى حيث تُتخذ

---

(١)). نور الثقلين ٣: ٥٠١ في روضة الكافي عن ابي جعفر عليه السلام في قول الله تبارك وتعالى: الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله قال: نزلت في رسول الله صلى الله عليه و آله وعلي وحمزة وجعفر وجرت في الحسين عليه السلام اجمعين وفي كتاب المناقب عنه عليه السلام في الآية قال: نحن- نزلت فينا

(٢)). المصدر في تفسير القمي حدثني ابي عن ابن ابي عمير عن ابن مكان عن ابي عبد الله عليه السلام فيقوله عز وجل: اذن للذين يقاتلون .. قال: ان العاملة يقولون نزلت في رسول الله صلى الله عليه و آله لما اخرجته قريش من مكة وانما هو القائم عليه السلام إذ خرج يطلب بدم الحسين عليه السلام وهو يقول: نحن اولياء الدم وطلاب العترة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٠٧

من البراري والجبال، و «بِيَع» معابد اليهود والنصارى، «ومساجد» هي معروفة للمسلمين فما هي «صلوات»؟

اهي العبادة المعروفة الخاصة بالمسلمين مقرونة بذكر أمكنتها «مساجد»؟ أم إنها صلوات كل الفرق الثلاث فان لكلٍّ صلاةً، فحين تُذكر معابدهم «صوامع وبيع ومساجد» فلتذكر المعني منها كلها وهي «صلوات» فيعني تهديمها كما يناسبها من المنع عن إقامتها في محالها، ام في كل المحال مختصةً وسواها، أم إنها من صلوات العبرانية، اماكن عبادة اليهود، او الصابئين.

إنها قد تعني كل صلة بالله، ظاهرة وباطنة، ولأن الامكنة الثلاث أو الاربع هي المحال والمحاور المعدة لعمودها الصلاة، لذلك افردت بالذكر، وكلها تجمعها الصلاة كعبادة خاصة لكل شرعة، ثم «صلوات» تجمعها وكل صلة بالله، فردية وجماعية اماهيه، فان دوائر السوء المستديرة على اهل الحق من طغات التاريخ لا تبقي ولا تذر أية صلة بالله «لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض» بمختلف المدافع في مختلف الميادين والجبهات، عقائدية وثقافية وسياسية واقتصادية واخلاقية وعسكرية أماهيه، ف «اعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم»!.

هذه، ولا سيما الصلاة الإسلامية السامية، وقد قرنت «صلوات» ب «مساجد» عناية لهذه المعنية بين كل الصلوات والمساجد عبر الشرائع طول التاريخ الرسالي.

«ولينصرن الله من ينصره ان الله قوي عزيز» من ينصره في نفسه تخلقاً باخلاق الله، وفي الحفاظ على دينه دفاعاً عن حرماته.

اعدادات حربية وسواهامن قوة نفسية، سياسية، عقيدية، علمية، نفاقية

«وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٠٨

وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَاتَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَاتُظْلَمُونَ «١»»

«وأعدوا» خطاب هام عام موجَّه إلى المؤمنين في الطول التاريخي والعرض الجغرافي على مدار الزمن الرسالي الإسلامي، كما و «لهم» تعني «شر الدواب عند اللّه» وهم الكفرة الناقضون لعهودهم- إن كانت لهم عهود- الذين تخافن منهم خيانة على الهيكل الإسلامي السامي.

وقد تعني «لهم»- دون عليهم- أصل المواجهة، أن اعدوا لمواجهتهم، بما أن في هذه القوات الحربية صالحهم حيث تصدهم عن مهاجمة المؤمنين فلا يُقتلون، ولا يستحقون عظيم النكال أم هم يؤمنون.

ثم «وأخرين من دونهم» خطراً وخيانة، أو معرفة بهم فيهما «لا تعلمهم اللّه يعلمهم» فالأصل هو الحصول على القوة الرهيبة الإرهابية العادلة في كافة الميادين الحيوية، ثقافية وعقيدية وإقتصادية وسياسية وحربية أماهيه من قوات يحاول اعداءنا أن يسبقونا فيها سناداً لسيادتهم وسيطرتهم علينا.

ف «من قوة» تحلق على كافة القوات، مهما أشارت «رباط الخيل» وفسرت الروايات «٢» تلك القوة بقوات الحرب ولا سيما السابقة، حيث المدارُ هو طليق «قوة» تعم كافة القوات الإيمانية.

---

(١)). سورة الأنفال ٨: ٦٠

(٢)). الدر المنثور ٣: ١٩٢ عن عقبة بن عامر الجهني قال سمعت النبي صلى الله عليه و آله يقول وهو على المنبر «واعدوا لهم ما استطعتم من قوة» ألا إن القوة الرمي، قالها ثلاثاً عنه قال: سمعت رسول اللّه صلى الله عليه و آله يقول: إن اللّه يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة: صانعه الذي يحتسب في صنعته الخير والذي يجهز به في سبيل اللّه والذي يرمي به في سبيل اللّه، وقال: ارموا واركبوا وأن ترموا خير من أن تركبوا، وقال: كل شيءٍ يلهو به ابن آدم فهو باطل إلا ثلاثة: رمية عن قوسه وتأديبه فيه وملاعبته أهله فإنهن من الحق ومن علم الرمي ثم تركه فهي نعمة كفرها.

وفيه أن رسول اللّه صلى الله عليه و آله مر على ناس ينتصلون فقال: حسن اللهم مرتين أو ثلاثاً إرموا وأنا مع ابن الأدرع فأمسك القوم قال: ارموا وأنا معكم جميعاً فلقد رموا عامة يومهم ذلك ثم تفرقوا على السواء ما يضل بعضهم بعضاً

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٠٩

وقد يروى عن النبي صلى الله عليه و آله قوله في القوات الحربية: «من تعلَّم الرمي ثم تركه فقد عصاني «١» و «من تعلم الرمي ثم نسيه فهي نعمة جحدها». «٢»

ومهما كان الرمي يومئذٍ بالنبال قضيةَ الظروف والإمكانيات، فهو اليوم- وبعد توسُّع الأسلحة- يعم كل رمي بري وبحري وجوي بمختلف وسائله المستطاعة الأتوماتيكية وسواها، حيث القصد هو رمي العدو إرهاباً وقضاءً عليه، فكيف يكتفي برميه بما هو مجهز بأقواه فإنه أغواه!.

ولأن الأكثرية الساحقة أو المطلقة من البشرية سائرة سيراً كالساً فالساً معاكساً لشرعة اللّه فهم- إذاً يعارضونها جهلًا أو تجاهلًا وعداءً بمختلف أساليب المعارضة كيلا يقعوا في ذلك الفخ! أم لا يصطدموا به، لذلك فعلى المجموعة المؤمنة إعداد قوات إرهابية ولا سيما الحربية المكافحة للحفاظ على كيانها وكونها، وكيف تختص «من قوة» بقوة الأسلحة الحربية والحاجة إلى سائر القوات أكثر حيث الفتنة أشد من القتل وأكبر، فهل يؤمر المسلمون بإعداد القوة الحربية دون الأخرى منها والأهم حفاظاً على كيان الإسلام في المسلمين؟،

ومجرد وقوع الآية بين الآيات الحربية لا يحصر آية القوة الطليقة فقط بتلك القوة مهما كانت هي البارزة منها في المظهر، ولكن غيرها ولا سيما العقيدية هي البارزة في المحضر، المفروضة للحفاظ على الكيان الإسلامي.

ومن مخلفات هذه القوة الإرهابية العادلة- الأصلية- أمام الإرهابات الباطلة- إرهاب عدو الله وعدوكم، فلا يجرءون على الميل إليكم والنيل منكم، ولا إعانة سائر الكفار عليكم حيث يعيشون يأساً من الغَلَب عليكم فتعيشون أنتم على رغد الأمن والكرامة.

وكما ترهبون به الأعداء الرسميين كذلك «آخرين من دونهم» من منافقين أم سائر

---

(١)). وفيه أخرج القراب عن عقبة بن عامر قال: لا أترك الرمي أبداً ولو كانت يدي مقطوعة بعد شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه و آله يقول: من تعلم الرمي ثم تركه فقد عصاني

(٢)). وفيه أخرج البزاز عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه و آله قال:-

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١١٠

الكافرين.

فإعداد ما في الطوق من الطاقات الذاتية وسواها فريضة دائبة على كل المجموعة المؤمنة، طمأنةً للذين يدخلون في دين الله، تزغيباً لمن يحيدون عنه، وترهيباً لمن يتربصون به الدوائر، فلا يفكروا يوماً في الوقوف في وجه المدِّ الإسلامي، ولكي ينطلق لتحرير الإنسان عن عبودية العباد إلى عبودية خالق العباد.

ذلك، وكما على المؤمنين برسالة السماء أن يُعدوا ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل حفاظاً على الثغور والأقطار الإسلامية، كذلك- وبأحرى- عليهم أن يعدوا ما استطاعوا من قوة الثقافة الحيوية والعقيدة الإيمانية والأخلاق الحميدة والسياسة الصالحة والإقتصاد الصالح والحضارة السلمية، حتى لا ينغرَّ جاهلون بما عند الكفار من مظاهر، فليجدوا في المؤمنين قوات من كل الحيويات مكافحةً صالحة للسيطرة على ما عند الكافرين.

فإعداد المسلمين بكل الطاقات الحيوية المكافحة فرض جماهيري، سداً لكافة المنافذ التي ينفذ منها الكفار، تسرُّباً إلى المجموعة المسلمة فترسُّباً فيها فتحويلًا لها عن الحيوية الإسلامية إلى غيرها.

أجل إن القوة المكافئة ضرورة لا محيد عنها للمسلمين، ولكن القوة المكافحة هي التي تجعلهم سادة الأمم وقادتها، بيدهم أزمة أمورهم وأمور الناس وكما يفعله الإمام المهدي عليه السلام.

إذاً فهذه الآية ترسم مسيراً حيّاً للحياة الإسلامية تضم في خضمِّه كافة الصالحات، التي هي رسوم صالحة لصالحة الحياة في كل النشآت، فرضاً لما يصلحها ويفلحهم فيها، ورفضاً لطالحها التي تفلجهم فيها.

وهنا «عدو الله عدوكم» له عوان هو عدو محمد وعترته المعصومين عليهما السلام وكما يروى متواتراً عنه صلى الله عليه و آله قوله: «عدوي عدو الله» «١» و «عدوه عدوي» «٢» و «من عاداه فقد

---

(١). ملحقات إحقاق الحق ٤: ٤٩ و ٦: ٤٠٦ و ١٦: ٦١٣- ٦١٤ و ٢٠: ٢٢٦

(٢). المصدر ٤: ٤٩- ٥٠- ٢٩٥- ٢٩٧ و ٦: ٤٠٦- ٤١٧ و ١٦: ٦١٣- ٦١٤ و ٢٠: ٢٢٦

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١١١

عادى اللّه» «١» «اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ..». «٢»

ولأن إعداد الطاقات المكافحة بحاجة إلى أموال وما أشبه كما هي بحاجة إلى سائر الإستعدادات، فليكن المؤمنون على نُبهة ويَقظة دائمة أن الإنفاق في هذه السبيل مفروض قدر الحاجة المكافحة، وهو يوفَّ إليهم عاجلًا هنا وآجلًا في الأخرى: «وما تنفقوا من شيءٍ في سبيل اللّه» أياً كان ذلك الشيءُ، من شيءٍ المال والثقافة والعقلية الإيمانية أماهيه «يوفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون» فمادة الإنفاق- إذاً- أيّاً كان هي منكم وإليكم على أية حال.

ذلك إعلان المحاربة من الضفة الإيمانية إلى الضفة الكافرة بكامل الإعدادات إن هوجموا نفسياً أو عقيدياً، فالحرب الإسلامية- إذاً- ليست إلا وقائية دفاعية، ولذلك:

«وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ «٣»»

فإذا جنح فريق من الكفار إلى مسالمة المعسكر الإسلامي وموادعته فإن على القيادة الإسلامية أن تجنح لها:

أجلٍ «ولا تدفعن صلحاً دعاك إليه عدُّوك وللّه فيه رضىً فإن في الصلح دَعةً لجنودك وراحة من همومك وأمناً لبلادك، ولكن الحذر كل الحذر من عدوِّك بعد صلحه، فإن العدو ربما قارب ليتغفَّل، فخذ بالحزم، واتهم في ذلك حسن الظن، وإن عقدتَ بينك وبين عدوك عُقدة أو ألبسته منك ذمة فحُطْ عهدك بالوفاء، وارعَ ذمتك بالأمانة، واجعل نفسك جُنَّة دون ما أعطيت، فإنه ليس من فرائض اللّه شيءٌ الناس أشد عليه اجتماعاً مع تفرق أهواءهم وتشتت آراءهم من تعظيم الوفاء بالعهود ..» «٤»

والجنوح هو الميل، والسَّلم هو الصلح السليم و «إن جنحوا» هؤلآء الكفار الخَوَنة

---

(١). المصدر ٥: ٤١

(٢). المصدر ٢: ٤٢٦- ٤٢٥ و ٣: ٣٢٢- ٣٢٧ و ٦: ٢٢٥- ٣٠٤ و ٧: ٥٣- ٥٦ و ١٦: ٥٥٩- ٥٨٧

(٣). سورة الأنفال ٨: ٦١

(٤). نهج البلاغة الخطبة ٢٩٢ فيما أمر به أمير المؤمنين عليه السلام مالك الأشتر النخعي لما ولاه مصر

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١١٢

«للسَّلم» معكم، تركاً للصِّدام نفسياً وعقيدياً، وتركاً لأية فتنة «فاجنح لها» كما جنحوا دونما تعلل وتخلخل وتململ بما هو طبيعة الحال من مخابيء الخيانات للكافرين الذين ليس لهم مبدءٌ سليم يستندون إليه، وهم ينقضون عهودهم في كل مرة، مجرَّبون في نقض العهد، فحقل الإعتداء والسلم لا يعامَل فيها إلَّا بالمثل.

وإن خطر لك خاطر من هذا القبيل من كذبهم ونقضهم ف «توكل على اللّه» في تطبيق أمر اللّه، ولكي يعرف العدو ويعرف معه آخرون أن ليس الأصل في كتلة الإيمان المقاتلة والإستئصال لأعداء الذين، إنما هو الدفاع عن النواميس والحفاظ على كيان الإيمان «إنه هو السميع» قالات الأعداء وقالاتكم «العليم» بكل الحالات، فإن لم تجنحوا للسَّلم عند ما جنحوا فقد تتطاول ألسنتهكم عليكم أنكم تؤججون نيران الحروب التوسعية ولا تريدون سَلماً إضافة إلى ظاهرة التخلف عن الإعداء بالمثل، فإن رفض الجناح للسَّلم رغم جناحهم للسلم نقض لقاعدة الإعتداء!.

أجل، والصبغة الإسلانية وصيغتها السليمة هما السَّلم ما سلم المسلمون عن كيد الكفار وميدهم، فليس لهم إلا الدفاع عن نواميسهم الخمسة دون أي هجوم بدائي لتفتُّح البلدان، اللَّهم إلّا تفتحاً للقلوب بالحكمة والموعظة الحسنة وجدالهم بالتي هي أحسن، ثم إذا شكَّلوا خطراً على الضفَّة المؤمنة فالدفاع الذي هو حق لكل حي عن حياته وحيويته.

«وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَا ٦٢ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ «١»»

«إن يريدوا» لأسوء الإحتمالات في جنوحهم للسَّلم، فجنوحك لها «وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك اللّه» وليس هو قوتك واستمرارك للحرب دون تقبُّل للسَّلم المتوقَّع، «حسبك اللّه» الذي يأمرك بذلك الجنوح ف «هو الَّذي أيدك بنصره» دون

---

(١)). سورة الأنفال ٨: ٦٣

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١١٣

سبب ظاهر في بدر وحنين وسواهما «بالمؤمنين» الصامدين مثل علي أمير المؤمنين عليه السلام «١» ومن أشبه، وهم من السبب الظاهر، نصر حاضر ملموس «بالمؤمنين» ونصر غائب بملائكة أم دونهم، كما «وما رميت إذ رميت ولكن اللّه رمى» و «هو الذي ألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً» في ذلك التأليف الأليف «وما ألفت بين قلوبهم» حيث القلوب بيد اللّه يقلبها كيف يشاء لما يشاء، فطالما النعمة تكفَّرها والرحم يُقطع، ولكن اللّه إذ قارب بين القلوب لم يزحزحا شيءٌ، «واذكر نعمة اللّه عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم» «ولكن اللّه ألف بينهم انه عزيز» فيما يفعل «حكيم» لا يغفل ولا يجهل.

ذلك، وهذا التأليف الأليف كان بالرسول صلى الله عليه و آله مهما لم يكن من الرسول صلى الله عليه و آله فحين تؤلف قلوب بنصيب من الزكاة للمؤلفة قلوبهم فبأحرى منها النبي صلى الله عليه و آله أن يؤلف اللّه به القلوب:

فقد «بلغ رسالات ربه فلمَّ به الصَّدع ورتق به الفتْق وألَّف بين ذوي الأرحام بعد العداوة الواغرة في الصدور، والضغائن القادحة في القلوب». «٢»

ف «المؤمن غر كريم والفاجر خبث لئيم وخير المؤمنين من كان تألَّفه للمؤمنين ولا خير فيمن لا يألف ولا يُؤلف». «٣»

---

(١) الدر المنثور ٣: ١٩٩- أخرج ابن عساكر عن ابي هريرة قال: مكتوب على العرش: لا إله إلا أناوحدي لا شريك لي محمد عبدي ورسولي أيدته بعلي وذلك قوله: هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين.

وفي ملحقات إحقاق الحق ٣: ١٩٤ الگنجي في كفاية المطالب (١١٠) بسند متصل عن أبي هريرة مثله، وفيه عنه روى أبو نعيم الحافظ بسنده عن أبي هريرة عن أبي صالح عن ابن عباس عن جعفر الصادق رضى الله عنه في هذه الآية قالوا: نزلت في علي عليه السلام وان رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: وروى مثله، وفيه عنه روي في كتاب الشفا روى ابن قانع القاضي عن أبي الحمراء مثله، وفيه ١٤: ٥٨٥ ورواه الحسكاني في شواهد التنزيل ١: ٢٢٣ بعدة طرق عن أنس وجابر وأبي الحمراء عنه صلى الله عليه و آله

(٢)). نهج البلاغة قال عليه السلام: «وبلغ رسالات ربه»

(٣)). نور الثقلين ٢: ١٦٦ في أمالي الشيخ الطوسي باسناده إلى أمير المؤمنين عليه السلام قال: سمعت رسول اللّه صلى الله عليه و آله يقول: المؤمن غرٌّ كريم، قال عليه السلام: وسمعت رسول اللّه صلى الله عليه و آله يقول: شرار الناس من يبغض المؤمنين وتبغضه

قلوبهم المشاءون بالنميمة المفرقون بين الأحبة الباغون للناس العيب أولئك لا ينظر اللّٰه إليهم ولا يزكيهم يوم القيامة ثم تلا صلى الله عليه و آله «هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١١٤

ذلك، ولأن الدار هي دار التزاحم، ولكلٍّ طموحات غير محدودة تقتضي التحسُّد على أصحاب النعم التي هو يفقدها، فليمكن إزالة البغضاء والعداء اللذين هما الخليفة الطبيعية، أن تزال بما في الأرض من نفس هذه النعم، اللّهم إلّا بعناية ربانية على ضوء الإيمان باللّٰه مهما كانت بسبب أرضى كالأموال، أم سماوي كالرسول صلى الله عليه و آله.

فطالما حاول كثير من أولي النعمة أن يؤلفوا قلوب المعدمين بأموال فازدادوا بغضاء وعداءً، إذ لا صلة لهذه العطيات بمرضات اللّٰه وعناياته الخاصة، فالرحمة الربانية هي أية وسيلة هي وصيلة للتأليف: «ولا يزالون مختلفين إلّا من رحم ربك ولذلك خلقهم». «١»

فهنا تأييدان إثنان ربانيان: «أيدك بنصره» الخاص دون أسباب ظاهرة، سواءٌ أكان بالملائكة أم دون أي سبب خلقي، «بالمؤمنين» وهم من الأسباب الظاهرة ولكن شرطَ تأليف قلوبهم، وليس هو أيضاً إلا من اللّٰه، إذاً فالنصر واحد هو من عند اللّٰه دون فارق في أصله أنه من عند اللّٰه.

فلقد وقعت المعجزة الربانية التي لا يقدر عليها إلّا اللّٰه، أن إستحالت هذه القلوب النافرة المستنفرة، وهذه الطباع الشَّموس المستنكرة، استحالت إلى هذه الكتلة المتراصَّة المتآخية الذَّلول، المتحاثَّة بعضها بعضاً في تحكيم الألفة والمحبة بذلك المستوى المنقطع النظير في تاريخ أي بشير ونذير.

إنها بالفعل عجيبة أن تستحيل قلوب متنافرة إلى مزاج عريق من الحب والألفة الإيمانية التي تليّن جاسيها، وترقّق حواشيها، وتُندي جفافها، فإذاً نظرة العين ولمسة اليد ونطق اللسان وخفقة القلب، هي ترانيم من التعارف والتعاطف الوطيد العتيد والسماحة والهوادة، التي لا يعرف سرها إلا الذي ألف بينها.

---

(١)). سورة هود ١١: ١١٩

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١١٥

ولمثل هذه القلوب يقول الرسول صلى الله عليه و آله: إن من عباد اللّٰه لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبصهم والشهداء يوم القيامة بمكانهم من اللّٰه تعالى، قيل: يا رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله تخبرنا مَن هم قال: هم قوم تحابوا برَوح اللّٰه بينهم على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، واللّٰه إن وجوههم لنور وإنهم لعلى نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس». «١»

وترى حين لا يتمكن رسول الهدى صلى الله عليه و آله أن يؤلف بين قلوبهم وهم مؤمنون ولو بأن ينفق ما في الأرض جميعاً، فما هو دور المؤلفة قلوبهم في حقل الزكوة؟.

الجمع هنا أن ليس الإنفاق بالذي يؤلف بين القلوب إن لم يشاءِ اللّٰه، ثم اللّٰه يؤلف بين القلوب بمؤلفات ومنها الزكاة.

ثم هنا التأليف بين قلوب المؤمنين، وهناك تأليف قلوب الكافرين إلى الإيمان، فالمؤلفة قلوبهم إلى الإيمان هم الذين تكملت الدعوة الصالحة لهم إلى الإيمان، ثم تُزوَّد جاذبية الدعوة بذلك الإنفاق فيؤلَّفون إلى الإيمان بإذن اللّٰه.

ف «المؤلفة قلوبهم» إلى الإيمان هم الذين ألفت قلوبهم قبل الإنفاق، ثم يكمل للدخول في رَبع الإيمان بالإنفاق.

وأما المؤمنون المختلفون فقد يؤلف بين قلوبهم بما يريد اللّٰه وبصالح الدعوة الرسالية.

تحريض رباني على قتال مكافح عَدَداً وعُدَداً

«يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ «٢»»

«حسبك اللّٰه» أصلًا في كل حسْب وحساب، «ومن اتبعك المؤمنين» بأمر اللّٰه ونصره لهم، فهم أيضاً من حسْب اللّٰه حسب أمر اللّٰه وتقديره، وحساب اللّٰه وتدبيره.

---

(١)). أخرجه أبو داود عنه صلى الله عليه و آله

(٢)). سورة الأنفال ٨: ٦٥

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١١٦

«يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَايَفْقَهُونَ «١»»

تكنيك عَددي حربي إلى عُدَدَاتها عرفناها من ذي قبل: «وأعدوا ..» وهو أمر مرحلي في ظروف حاسمة خطرة تقتضي مواجهة الواحد من المؤمنين بعشرة من الكافرين، قضيةَ كثرتهم اولآء وقلتهم هؤلآء و «بأنهم» أولآء «قوم لا يفقهون».

فقد أمر المؤمنون القلة أمام الكافرين الكثرة أن يقاتلوهم ويغلبوهم وهم معشارهم: «عشرون صابرون يغلبوا مأتين- و- مائة يغلبوا ألفاً».

وترى إذا كان القصد من العشرين أمام مأتين واجب تحمل المِعشار من المؤمنين أمام عشرة أضعافهم من الكافرين، فلماذا- إذاً- البداية ب «عشرين»؟.

لأن المعشار غير مفروض فيما دون العشرين وقد كانت سرايا الرسول صلى الله عليه و آله لأقل تقدير العشرين، ولأكثرها قد تكون مائة فلذلك إن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً، تأكيداً لواجب المعشار وتبييناً للحالته الحاضرة، كما وقد ابتدأ في الآية الثانية بالمائة مما يلمح أن المائة حينذلك كان أقل تقدير في الأحيان ثم الأنف.

لأن الفقه هو التوصل بعلم حاضره إلى علم غائب والكفار لا يعلمون غائب الكون بحاضره لا مبدءً ولا معاداً ولا ما بين المبدء والمعاد، وإنما «يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون». «٢» فهم لا يبصرون بالدنيا ما وراءها، وإنما يبصرون إليها كأصل وختام للحياة، فهم- إذاً- حريصون على الحياة الدنيا، والمؤمنون حريصون على الآخرة، فهم أولآء يضحُّون في سبيل اللّٰه، ولا يبالون أن يُقتلوا فيها، والكافرون حريصون على الدنيا حائطون عليها بكل حائطة، وطبيعة الحال بين هؤلاء وهؤلآء، الصابرين في سبيل اللّٰه والذين لا يفقهون إلا اللهو، أن يغلب الأولون على الآخرين، اللّٰهم إلّا إذا تخلف فريق عما شُرط له أو عليه.

---

(١)). سورة الأنفال ٨: ٦٤

(٢)). سورة الرّوم ٣٠: ٧

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١١٧

ذلك، فالمؤمن الفقيه الصابر إنما يقدم في الجهاد قضيةَ إيمانه الفقيه الصابر، وهو هو القوة التي لا قوة فوقها يساميها أم مثلها فيساويها، فالشجاعة والجرأة والإستقامة والطمأنينة والثقة بالله وأنه يتربص إحدى الحسنيين، هي التي تعدل- لأقل تقدير- عشراً من القوات الكافرة الخاوية عن تلكم القوات الإيمانية.

فحينما المؤمن يطير ويستطير بهذه القوى، ليس الكافر ليطير إلا بالهوى، فما اتفق الكافر وغايته الغاوية الهاوية، وهي الحفاظ على الحياة الدنيا وزينتها. فهو مقدام عليه دون أية هوادة، فأما أن يموت في سبيل هذه الحياة فلا، ولكن المؤمن يموت في سبيل حياة هي أحيي وأبقى «وما عند الله خير وأبقى».

فالصبر والفقاهة المستصحبَان للإيمان هما رمز الغلبة على أصحاب الفشل والسفاهة المستصحبَان اللّاإيمان، وهذه سنة مستمرة بين المتناحرين، أن الأقوى منهم روحية وتصميماً وغايةً هو الأقوى في النضال على أية حال.

فمعشار المؤمن من الكفار مغوار يقتل عشرة منهم بطبيعة الحال، ف «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها» تقرر أقل تقدير لَنا عِليه الحسنة، فلأن الجهاد حسنة فمجاهد واحد بجهاده في سبيل الله له عشر أمثاله من قبيل الكفر أن يغتالهم أو يقتلهم أو يغلبهم دونما تزعزع وفتور.

ثم «يغلبوا» مرتين في بصورة الجزاء خبراً عن الشرط ولكنه أمر لأمور عدة: منها أن في كونها خبراً كذبٌ حيث غُلبوا ويُغلبون مراراً وتكراراً، ومنها أن التخفيف لا مجال له الخبر إلا كذباً و «الآن خفف الله عليكم» تخفيف، من المعشار المغوار إلى ضِعف في واجب القرار ومحرم الفرار.

ذلك ولكن الإخبار هنا معنى بالإنشاء وبينهما فارق تحليق عناية الإنشاء على كافة الموارد كضابطة، ولكن صدق الإخبار يكفيه حصول المخبر به بطبيعة الحال، ومهما تخلف أحياناً فإنه لملابسات مضادة لشروط الغلبة.

وهنا «يغلبوا» دون يقاتلوا دليل واجب الغلبة بواجب المعشار فضلًا عما فوقه،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١١٨

ولأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، فإذا فلت فالت دون تقصير من معشار المؤمنين فلا بأس به.

فإيجابية العدد المعشار في المؤمنين هي لأمور منها أنهم «صابرون» وسلبية القوة للكافرين بأضعافهم العشرة «بأنهم قوم لا يفقهون» فما هي الصلة بين عدم الفقه وأنهم يُغلبون؟.

«الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ «١»»

ترى ولماذا يعبر هنا عن المعشار والنصف بهذه الطائلة المفصلة، وما هو اختصاص «عشرون ومائة وألف وألفان»؟

علّة- كما أسلفناه- لأن سراياه ما كانت تقل عن عشرين ولا هي أكثر من مائة «٢» فقضية واقع الحال أن يعبر عما هو، فقد فرض عليها الإصطبار حتى الغلبة في نطاق معشار المؤمنين من الكفار، ثم ولم يكن المعشار إلا في نطاق العشرين وما زاد، فلا يجري الحكم في الأقل من العشرين، كما لا يجري في الأقل من المأتين في الحكم الثاني. «٣»

---

(١)). سورة الأنفال ٨: ٦٦

(٢)). في تفسير الرازي ١٦: ١٩٤ روى أنه صلى الله عليه و آله كان يبعث العشرة إلى وجه المائة بعث حمزة فيثلاثين راكباً قبل بدر إلى قوم فلقيهم أبو جهل في ثلاثمائة راكب وأرادوا قتالهم فمنعهم حمزة وبيث رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عبد اللَّه بن أنيس إلى خالد بن صفوان الهذلي وكان في جماعة فأبتدر عبد اللَّه وقال يا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله صفه لي فقال: إنك إذا رأيته ذكرت الشيطان ووجدت لذلك قشعريرة وقد بلغني أنه جمع لي فأخرج إليه واقتله، قال: فخرجت نحوه فلما دنوت منه وجدت القشعريرة فقال لي: مَن دخل؟ قلت له من العرب سمعت بك ويجمعك ومشيت معه حتى إذا تمكنت منه قتلته بالسيف وأسرعت إلى الرسول صلى الله عليه و آله وذكرت أني قتلته فأعطاني عصا وقال: أمسكها فانها آية بيني وبينك يوم القيامة

(٣)). نور الثقلين ٢: ١٦٦ في تفسير العياشي عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل يقول في آخره: وقد أكره علي بيعة أبي بكر مغضباً اللَّهم انك تعلم أن النبي صلى الله عليه و آله قد قال لي: إن تموا عشرين فجاهدهم وهو قولك في كتابك: إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مأتين .. وسمعته يقول: اللَّهم فإنهم لم يتموا عشرين حتى قالها ثلاثاً ثم انصرف، أقول استدلاله عليه السلام بالآية مما يدل على أنها غير منسوخة بالثانية نسخاً رسمياً، إنما هو نسخ أحياناً حسب مختلف الإعدادات والاستعدادات الإيمانية والملابسات الحربية

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١١٩

ذلك، ولما شق على المؤمنين ذلك التكليف قلةً في اصطبارهم وعلةً في قرارهم ضَعفاً في كثير منهم مهما صمد القليل، خفف اللَّه عنهم المعشار إلى الضِعف «١» قضيةَ الضَّعف.

وترى ذلك الضعف هو في العِدة والعُدة الحربية؟ ولا يسبب هذا الضعف تخفيفاً عن التكليف حيث الفرض فيه واقعُ ذلك الضَّعف!.

إنه ضَعف في الفقه والإصطبار أمام العِدة والعُدة الزائدة للعدو، وهو قضية الحال وطبيعتها حين يكثر المؤمنون والصادقون فيهم- بالطبع- قلة وفي الكثرة علة، وهذا مما تعنيه: «فيكم ضعفاً» دون أنتم ضعفاء، إنما فيكم، في ظرف الكثرة العديدة يكون لأكثركم، ضعفاً في الإيمان بفقهه وصبره.

وهنا «علم» بين علم حاضر لحضور وحدوث معلومه أن حدث فيهم ذلك الضعف، وبين علم سابق معه بسابق ضعفهم وأنهم سوف لا يتحملون ذلك التكليف العضال.

ف «الآن» وهو بطبيعة الحال بعد ردح من زمن التكليف الأول وتطبيعة فيه «خفف اللَّه عنكم» غور المعشار «و» حال أنه «علم» بأحد الوجهين أم كليهما «أن فيكم ضعفاً» لا يجبر لضعف الفقه والصبر في الأكثر.

ف «لا يكلف اللَّه نفساً إلا وسعها» وحينما الأكثر في الأكثر ليس لهم ذلك الصبر والصمود الذي كان في القلة المؤمنة الصابرة، إذاً فليخفف في التكليف.

ذلك ولا حاجة إلى تأويل العلم هنا بما تعوَّده المتأولون من خلاف الظاهر الباهر،

---

(١)). قال عطاء عن ابن عباس: لما نزل التكليف الأول ضج المهاجرون وقالوا: يا رب نحن جياعوعدونا شباع ونحن في غربة وعدونا في أهليهم ونحن قد أخرجنا من ديارنا وأموالنا وأولادنا وعدونا ليس كذلك. وقال الأنصار: شغلنا بعدونا وواسينا إخواننا فنزل التخفيف، وقال عكرمة: إنما أمر الرجل أن يصبر عشرة لمائة حال ما كان المسلمون قليلين فلما كثروا خفف اللَّه تعالى عنهم

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٢٠

إنما هو العلم بما هو حاصل من المعلوم بعد تحويل القلة إلى الكثرة، فقد كان يعلم من القلة الصابرة القوةَ، فكلفهم كما يستطيعون، ثم كان يعلم من الكثرة غير الصابرة ضعفاً في الصمود والثبات المقدام فخفف المعشار إلى النصف.

أجل وإن الله تعالى «عالِم السر من ضمائر المضمِرين ونجوى المتخافتين، وخواطر رجم الظنون، وعُقَد عزيمات اليقين، ومسارق إيماض الجفون، وما ضمنته أكنان القلوب وغيابات الغيوب، وما أصغت لاستراقه مصائخ الأسماع، ومصائف الذرّ، ومشاني الهوامّ، ورجْع الحنين من المولَهات، وهمْس الأقدام، ومنفَسح الثمرة من ولائج غُلُف الأكمام، ومنقَمع الوحوش من غيران الجبال وأوديتها، ومختبأِ البَعوض بين سوق الأشجار وألحيتها، ومغرز الأوراق من الأفنان، ومحطّ الأمشاج من مسارب الأصلاب، وناشئة الغيوم ومتلاحمها، ودرور قَطر السحاب في تراكمها، وما تسقي الأعاصير بذيولها، وتعفو الأمطار بسيولها، وعَوْم بَنات الأرض في كُثبان الرمال، ومستَقر ذوات الأجنحة بذُرى شناخيب الجبال، وتغريد ذوات المنطق في دياجير الأوكار، وما أوعبته الأصداف وحضنت عليه أمواج البحار، وما غشيته سُدْفة ليلٍ، أو ذرَّ عليه شارق نهار، وما اعتقبت عليه أطباق الدياجير وسبحات النور، وأثر كل خطوة، وحس كل حركة، ورجع كل كلمة، وتحريك كل شفةٍ، ومستقر كل نَسمِة، ومُثقال كل ذرة، وهَما هم كل نفس هامَّة، وما عليها من ثمر شجرة، أو ساقط ورقة، أو قرار نطفة، أو نُقاعة دمٍ ومضغةٍ، أو ناشئة خلق وسُلالةٍ، لم يلحقه في ذلك كُلفة، ولا اعترضته في حفظ ما ابتدع من خلقه عارضة، ولا اعتورته في تنفيذ الأمور وتدابير المخلوقين ملالة ولا فترة، بل نفذهم علمه، وأحصاهم عدده، ووسعهم أعدَلُهُ، وغمرهم فضله، مع تقصيرهم عن كنه ما هو أهله». «١»

ذلك ولقد «خرق علمه باطن غيب السترات، وأحاط بغموض عقائد السريرات، «٢»

---

(١)). (الخطبة ٨٩)

(٢)). الخطبة ١٠٦

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٢١

«كل سر عنده علانية، وكل غيب عنده شهادة». «١»

وترى أنها تنسخ الأولى لمكان «خفف اللَّه»؟ والحكمان تابعان لموضوعيهما وهما القوة والضعف في الإيمان، فلا نسخ- إذاً- وإنما هو التخفيف الأحيائي حين يفقد الموضوع الثاني شرط الأول، ولضعف الإيمان- بعد- مرزءَته ومسؤوليته. «٢»

فالمسؤولية العامة الهامة أولًا وأخيراً هي «واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ..»

حيث تعني إلى جانب القوات الحربية الظاهرة، قوات التصبُّر والإيمان والفقه الباهرة، ولكي تتحقق- لأقل تقدير- المكافحة: لا غالب ولا مغلوب، ولكنه كفرض دائب:

غالب ولا مغلوب، اللَّهم إلّا إذا خرج عن المستطاع ف «الآن خفف اللّه عنكم وعلم أن فيكم ضَعفاً».

والأصل في النسبة هنا يتراوح بين عُشر ونصف في قبيل الإيمان «٣» رعايةً لمختلف حالات الضعف والقوة في مختلف المجالات، ثم الأصل الثابت الضابط في هذا البين واجب إعداد القوة قدر المستطاع فرادى وجماعات، ولكي يترجح كفة الإيمان وضفَّته على ضفة الكفر بكفته، تترجح ولا تتأرجح، رغم الأقلية الدائمة لقبيل الإيمان، والأقلية الفقيهة الصابرة فيهم أنفسهم.

فآية العشرين- إذاً- برزخ بين كونها منسوخة وثابتة، فليست منسوخة بمعنى النسخ المصطلح حيث قد تفرض الملابسات الحربية والإعدادات والإستعدادات

(١)). الخطبة ١٠٧

(٢)). راجع إلى حاشية (٢) من صفحه إلى (٢٨٨)

(٣)). نور الثقلين ٢: ١٦٧ في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل يقول فيه: أما علمتم أن اللّهعزَّ وجلّ قد فرض على المؤمنين في أول الأمر أن يقاتل الرجل منهم عشرة من المشركين ليس له أن يولي وجهه عنهم ومن ولاهم يومئذٍ دبره فقد تبوء مقعده من النار ثم حولهم رحمة منه لهم فصار الرجل منه عليه أن يقاتل رجلين من المشركين تخفيفاً من اللّه عزَّ وجلّ للمؤمنين ففسخ الرجلان العشرة. وفي تفسير العياشي عن الحسين بن صالح قال: سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام يقول: كان علي عليه السلام يقول: من فر من رجلين في القتال من الزحف فقد فر من الزحف ومن فر من ثلاثة رجال في القتال من الزحف فلم يفر

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٢٢

الإيمانية واجب غلبة المعشار من المؤمنين على الكافرين، ولا ثابتة على أية حال حيث سمح للنقلة إلى النصف حين يضعف المؤمنون في إيمانهم وصبرهم وفقههم رغم واجب الإستمرار في مثلث: الإيمان الفقيه الصابر.

«مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ «١»»

«ما كان» هنا كما فيما أشبه تضرب إلى أعماق الماضي الرسالي «أن يكون له أسرى» بأسرهم «حتى يُثخن في الأرض» إغلاظاً على العدو وسيطرة عليه: «فإذا لقيتم الذين كفروا فضربَ الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشُدوا الوثاق فإمَّا مَنَّا بعدُ وإما فداءً حتى تضع الحرب أوزارها ..» «٢»

فليس التكليف إذاً رسولياً- فحسب- بل هو رسالي موجَّه إلى كافة القيادات الحربية والقوات المسلحة الإسلامية، ألا يأسروا من عدوهم حتى يثخنوا في أرض المعركة، ويذلوا العدو، فهنا لهم أن يكون لهم أسرى، فالأسر قبل الغلبة ممنوع بأسره، وهو بعدها أسر بعلامةَ الغلبة، وتقليلًا من قوات العدو، ولكنه قبلها إشتغال عن أصل الحرب فاشتغال للعدو وأكثر بها.

ذلك، فأما الذين يريدون عَرَض الدنيا العارض المعترض، فهم عاجلون في الآجل، فيأسرون استرقاقاً وغُنماً قبل وصوله أجله، وفيه فتٌّ لعضد الحرب وثُلّم في صميم التصميم عليها، إشتغالًا بأسرى وغنائم قد يُنحي إلى أسرهم أنفسهم بحصرهم وغَلَبهم بعد ما غَلبوا شيئاً يسيراً دونما إثخان للعدو في أرض المعركة.

«تريدون» أنتم المستعجلون لأخذ الأسرى قبل أوانه، «عرض الدنيا والله يريد الآخرة» فالأصل في الحرب هو الغلبة، وليس الأسر والغنم إلا بعدها، وإلا فسوف تُغلبون وكما حصل في أحد لما ترك الرماة قواعدهم ناحين منحى الغنائم ولما يحِنْ

(١)). سورة الأنفال ٨: ٦٧

(٢)). سورة محمّد صلى الله عليه و آله ٤٧: ٤

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٢٣

حينها.

وهنا يبرز أن جماعة من المسلمين تطلبوا إلى الرسول صلى الله عليه و آله أن يكون له أسرى وغُنم قبل أن يثخن في الأرض بُغية الحياة الدنيا، فاستأصلت هذه الآية تلك البغية الباغية عن الرسول والرسالات، فاتهام النبي صلى الله عليه و آله نفسه بتلك البغية إقتحام عليه بالتخلف عن السنة الرسالية الثابتة كضابطة، ثم:

«لَوْلَا كِتَابٌ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ «١»»

ف «فيما أخذتم» نص على أن جمعاً منهم أخذوا أسرى وغنيمة قبل الإثخان في الأرض وكما حصل في أحد، وهنا «كتاب من اللّه سبق» دليل على أنهم كانوا «لولا كتاب من اللّه لمسكم عذاب عظيم».

وهكذا نعلم أن أخذ الأسرى قبل الإثخان في أرض المعركة هو من كبائر المنهيات في شرائع اللّه كلها، حيث إن «ما كان- و- عذاب عظيم» شاهدان إثنان على أممية ذلك الحكم الحاسم في حقل الحروب.

«فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» «٢»

«مما غنمتم» ليست لتختص بغنائم دار الحرب، مهما كان الدور هنا دورها، ف «الحلال ما لا يُعصى اللّه فيه، والطيب ما لا يُنسى اللّه فيه». «٣»

ثم وهذه الخاصة هي الغنيمة المحلَّلة الخاصة بما بعد الإثخان في الأرض، وأما الغنيمة قبل الإثخان فمحظورة غير محلَّلة، ومن الغنيمة غير المحظورة إضافة إلى سائر غنائم الحرب أخذ الفداء من الأسرى وكما خيّر النبي صلى الله عليه و آله في آية محمد «فإمّا منّا بعد وإما فداءً» وليس قتل الأسرى وارداً في شرعة اللّه، بل هم داخلون بعد الأسر في مدرسة داخلية إسلامية هي بيوت المسلمين، يعامَلون فيها كما يعامَل سائر

---

(١)). سورة الأنفال ٨: ٦٩

(٢)). سورة الأنفال ٨: ٦٩

(٣)). مجلة العرفان العدد الثالث المجلد ٦١ صفحه ٣٨٩ عن الصادق عليه السلام

الأهلين ليلمسوا الخُلُق الإسلامية المجيدة فينجذبوا إليه، فرواية التخيُّر في قتلهم أو فداءِهم لا تصدَّق، لا سيما وأنها تخالف التخير بين المن والفداء، إذاً فاللّه ورسوله من أمثال هذه الروايات براءٌ!.

ذلك، ومما يشهد صراحاً لحظر قتل الأسرى الخطاب التالي:

«يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنْ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمْ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» «١»

ف «الأسرى» هنا كل أسرى الحرب من كافة الكفار مشركين وأهل كتاب، قل لهم:

«إن يعلم اللّه في قلوبكم خيراً» وهو نور الهدى الفطرية غير المستورة بعد، القابلة للإهتداء إلى الحق في هذه المدرسة الداخلية الإسلامية السليمة، مما يدل أن خيراً في قلوب الأسرى الكفار يبشرهم بخير من اللّه فكيف- إذاً- يُقتلون.

ف «خيراً مما أخذ منكم» هو الهدى والمال، فقد أخِذت منهم أموال فيؤتيهم اللّه أموالًا بعد إيمانهم هنا وفي الأخرى، وأخذت منهم حريتهم الكافرة فيؤتيهم اللّه بعد إيمانهم حرية مؤمنة «يغفر لكم واللّه غفور رحيم». «٢»

(١)). سورة الأنفال ٨: ٧٠

(٢)). تفسير الفخر الرازي ١٦: ٢٠٤ قال ابن عباس نزلت هذه الآية في العباس وعقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحرث. كان العباس أسراً يوم بدر ومعه عشرون أوقية من الذهب أخرجها ليطعم الناس وكان أحد العشرة الذين ضمنوا الطعام لأهل بدر فلم تبلغه التوبة حتى أسر فقال العباس: كنت مسلماً إلا أنهم أكرهوني فقال صلى الله عليه و آله: إن يكن ما تذكرة حقاً فالله يجزيك فأما ظاهر أمرك فقد كان علينا، قال العباس: فكلمت رسول الله صلى الله عليه و آله أن يرد ذلك الذهب علي فقال: أما شيءٌ خرجت لتستعين به علينا فلا، وكلفني رسول الله صلى الله عليه و آله فداء ابن أخي عقيل بن أبي طالب عشرين أوقية وفداء نوفل بن الحرث فقال العباس تركتني يا محمد اتكفف قريشاً فقال رسول الله صلى الله عليه و آله: أين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها: لا أدري ما يصيبني فإن حدث بي حادث فهو لك ولعبد الله وعبيد الله والفضل، قال العباس: وما يدريك؟ قال: أخبرني به ربي قال العباس: فأنا أشهد أنك صادق وأن لا إله إلّا الله وإنك عبده ورسوله والله لم يطلع عليه أحد إلا الله ولقد دفعته إليها في سواد الليل ولقد كنت مرقاباً في أمرك فأما إذا أخبرتني بذلك فلا ريب، قال العباس: فأبدلني الله خيراً من ذلك، لي الآن عشرون عبداً وإن أدناهم ليضرب في عشرين ألفاً وأعطاني زمزم وما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة وأنا انتظر المغفرة من ربي»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٢٥

ذلك، ومن أدنى الخير في قلوبهم ألَّا يحاربوا المسلمين بعدُ، فهم ضيوفهم في بيوتهم على كفرهم، فقد أوتوا خيراً مما أخذ منهم فلا يبتلَون بعدُ بمزيد الكفر والإثم بمحاربتهم.

فهم بعد أسرهم آمنوا أم لم يؤمنوا قد أوتوا خيراً مما أخذ منهم من أموال وحريات، وهذه طمأَنةٌ لهؤلآء الأسرى تخفيفاً لهم عن عبء الأسر والعُسر إلى راحة وسير مهما ظلوا كافرين.

وهنا «إن يعلم اللَّه» تعني إن كان في قلوبكم خير، فإن عِلم اللَّه والواقع هما سيان لا يتخلف أحدهما عن الآخر، فإنه بكل شيءٍ عليم، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، بل هو أوسع من الواقع في كل حال حيث كان يعلم قبل حصوله كما يعلمه بعد زواله.

فهذه لمسة لقلوب الأسرى المنكسرة تحيي فيها الرجاء، وتطلق فيها الأمل، وتشيع فيها النور تعليقاً بمستقبل هو خير مما مضى، إنفتاحاً لنور الإيمان بعد نار الإثخان، رحمة إسلامية سامية منقطعة النظير في تاريخ الإحسان بالإنسان في حالة الحصر والأسر.

فلا يعني إستبقاء الأسرى بأيدى المسلمين في شرعة الإسلام تسخيرهم إستغلالًا وإستذلالًا لهم إنتقاماً، وإنما يعني ليلمس قلوبهم مكامن الخير والرجاء والصلاح فالإصلاح، وليوقظ في فِطَرهم أجهزة الإستقبال للهدى في المدرسته الداخلية العالية.

وهنا «الأسرى» لا تختص بآسرة القرابة مهما نزلت بشأن بعض منهم، «١» حيث

(١)). نور الثقلين ٢: ١٦٨ في قرب الإسناد للحميري عن أبي حعفر عن أبيه عليهما السلام قال: أتي النبي صلى الله عليه و آله بمال فقال للعباس أبسط ردائك وخذ من هذا المال طرفاً فبسط درائه فأخذ منه طائفة ثم قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله هذا من الذين قال اللَّه تبارك وتعالى «يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى ..»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٢٦

النص ليس ليختص ببعضه، إنما هو «الأسرى» الشاملة لكل أسرى الحرب الإسلامية على مدار الزمن الإسلامي إلى يوم الدين.

هنا، وعلى ضوء الآيتين (٧٠- ٧١) ينقسم الأسرى إلى من يعلم الله فيهم خيراً ومن يريدون الخيانة والأسر للأولين خيرٌ لهم إذ «يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم» فقد أخذت عنهم الحرية في الكفر وغنائم، وخير منهما الحرية في الإيمان وأموالٌ تؤتى لهم في حقل الإيمان، على ضوء التربية المتواصلة في المدارس الداخلية الإسلامية.

ثم الأسر للآخرين صدٌ عن مواصلتهم في محاربة المسلمين «وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل» أسرهم «فأمكن منهم» والإمكان منهم في أسرهم أمكن منه قبل أسرهم.

وهكذا يعامل الإسلام مع الأسرى رعاية لمصلحة الجانبين، حتى بالنسبة لمن يريدون الخيانة حيث يصد عليهم سبيل الخيانة الجاهرة، ويُمكِّن منهم حين تظهر منهم الخيانة، ومن الطبيعي أن الخيانة على هذه الرقابة المحلِّقة البيتية، وعلى ضوء التربية الإسلامية المتواصلة، هي أقل بكثير من الخيانة في حرية الكفر بجوِّه وعند أهليه.

وهنا إجابة عن سؤال: كيف يسمح الإسلام أو يفرض إسترقاق الأحرار مهما كانوا من الكفار فضلًا عن المسلمين؟.

نقول: لا يعني الإسترقاق إسلامياً إلّا الإسترقاق للطرفين، لهم أنفسهم لكيلا يستمروا في حربهم إذا ظلوا في أمة الكفر، وللمسترِقين، علَّهم في الحياة المنزلية الإسلامية ينتبهوا فيصبحوا مسلمين، أم يقل ضلالهم عما كان بما قرر من حسن المعاملة معهم.

وهنا نسأل ما هو قضية العدل والفضل من قبل الجيش الغالب لمن غُلبوا؟ هل يتركهم كما هم دون نيل من أنفسهم وأموالهم وقواتهم فيرجعوا لجديد الحرب وعلّها

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٢٧

أقوى مما كان وأغوى؟

أم يأخذوا منهم أسرى رجالًا ونساءً ثم يبيدوهم، أو يسجنوهم، أو يعطوهم كمال الحرية الطليقة في الوسط الإسلامي، وهذا ثالوث لا يرضاه العدل الإسلامي ومصلحية الحفاظ على الأصلح، فالإبادة مع رجاء الإصلاح ظلم، والسجن تعطيل للطاقات دونما مصلحة، إلا ثقلًا وحِملًا على بيت مال المسلمين، وضغطاً على الأسرى فيرجعون إلى كفر أقوى وعداءٍ أعدى وأغوى، وإعطاء الحرية لهم سماح للإفساد في الوسط الإسلامي وهو أخطر من بقاءهم بين أهليهم.

وهنا طريقة خامسة هي المثلى، والصالحة للأسرى والوسط الإسلامي، هي فرض الثقافة الصالحة في المدارس الداخلية الإسلامية وهي بيوت المسلمين الذين يسترقون هؤلآء الكفار، ففيها يغربَلون فيقتسمون إلى مؤمنين أم قريبين للإيمان: «إن يعلم الله في قلوبكم خيراً»، أم يظلوا كفاراً معاندين- لأقل تقدير!-: «وإن يريدوا خيانتك ..».

ففي العشرة الإسلامية السليمة، الخليقة البارعة، إن فيها لتأثيراً عظيماً في الأكثرية الساحقة من الكفار الأسرى، حيث يعامَلون في هذه المدارس الداخلية كما يعامَل مع سائر الأهلين بكل حنان ومحبة، في رعاية ورقابة كاملة شاملة.

ذلك، ولما تخرَّجوا مثقَّفين بالخلق والعقيدة والأعمال الإسلامية فهنا يأتي دور تحريرهم فرضاً أو ندباً حسب مختلف المناسبات والملابسات، ومنها فرض الزكاة وسائر الإنفاقات ويجمعها النص: «وفي الرقاب» وكذلك في ديات وكفارات ونذورات وما اشبه.

فلا يعني الإسترقاق في النظام الإسلامي عبودية إنسان لإنسان، وإنما هو النظام الإجباري الثقافي الصالح في هذه المدارس الداخلية الصالحة، سرداً للثقافات وطرداً للجهالات، ولذلك لا يسمح لأي‌حرٍّ أن يبيع نفسه، وإنما يسمح لاسترقاق أسرى الحرب إسترفاقاً بهم وبأنفسهم، صداً عن الشر والضر، وحملًا إلى الخير والبر.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٢٨

ولأن للمالكين حقوقاً على هؤلآء الرقيق أولًا وأخيراً، فلهم من الناحية الإقتصادية حق الإبقاء عليهم دون تحرير وإن تحولوا مسلمين، اللّهم إلا فرضاً أو ندباً في مواردهما المسرودة في الكتاب والسنة.

ذلك، ومن الساحة الإسلامية التسوية في الحاجيات المعيشية بين الرقيق وسائر الأهلين، ففي حقل الإحسان: «وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت إيمانكم». «١»

ثم إذا آمنوا يرغب في زواجهم: «وأنكحوا الأيامى والصالحين من عبادكم وإماءكم إن يكونوا فقراء يغنيهم اللّه من فضله واللّه واسع عليم». «٢» كما وينهى عن ظلمهم فيما يروى عن الرسول صلى الله عليه و آله: «من لطم مملوكة أو ضربه فكفارته عتقه».

ويخاطب صاحباً له عيَّر مسلماً بأنه إبن أمه: «أعيَّرته بأمه؟ إنك امرءٌ فيك جاهلية، إخوانكم خولكم- عبيدكم- جعلهم اللّه تحت أيديكم فمن كان إخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس، ولا تكفلوهم ما يفلُّهم فإن كلفتموهم فأعينوهم».

ويسأله صلى الله عليه و آله عبد اللّه بن عمر قائلًا: يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله كم نعفو عن الخادم إذا أساء؟

فصمت برهة ثم قال: أعفو عن الخادم كل يوم سبعين مرة».

وقال صلى الله عليه و آله: إذا أتى أحدكم خادمه بطعام فليجلسه وليأكل معه، كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته».

فلا تعني شِرعة الرق في الإسلام إلا التثقيف إجبارياً للأسرى الكفرة في بيوت المسلمين، وإلا التجنب عن الفوضى السياسية والدينية إن ظلوا أحراراً فأضلوا كما ضلوا.

---

(١)). سورة النّساء ۴: ٣۶

(٢)). سورة النّور ٢۴: ٣٢

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٢٩

ذلك، فالإستعباد في النظام الإسلامي لا يعني الإستبداد والملكية الظالمة وسلب الحرية الصالحة، إنما يعني تحرير الإنسان الكافر من عبودية الأصنام والطواغيت، كما أن المدارس الداخلية التي تسلب حرِّيَّة ليست بَحَرِيَّة للإنسان لتعطية حُرِيَّة أن يتعرف إلى ما يصلح له ويُصلحه.

أجل، وإن الرقية في الإسلام استعباد للّهخروجاً عن عبودية العباد، وأحسن به حُرية حريَّة بالإنسان أن يخرج من ظلمات الجهالات والرجعيات فيعيش عيشة عاملة عارفة حَرِيَّة في التدرج إلى مدارج الإنسانية العالية الغالبة.

ذلك، في حين نرى من هؤلآء الناقدين على الإسترقاق في الإسلام، أنهم يسترقون ويستعبدون جماهير الضعفاء والمستضعفين أمماً بأجمعهم، مسيطرين عليهم في كل نواميسهم بكل الأبواب السبع الجهنمية: استكباراً واستعماراً واستثماراً واستحماراً، واستبداداً، واستضعافاً واستخفافاً، إفضاءً للمستضعفين عن كافة الميزات الإنسانية بل والحيوانية دون أية إفاضة، بين إبادة لهم وتشريد وإجاعة وسائر ألوان الظلم الساحق الماحق.

ذلك، وهنا حلٌّ وسط لمشكلة الأسرى تحلها آية محمد: «فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق فإمّا مناً بعد وإما فداءً حتى تضع الحرب أوزارها».

فمثلث الملابسات الحربية، المركَّز على «فشدوا الوثاق» يقتضي إحدى هذه الزوايا الثلاث، فأول الأدواء لداء الكفر في الأسرى هو المنّ، أن تمنوا على جنود الكفر فتحرروا أسرى منهم علَّهم يفيقوا عن غفوتهم، وينتبهوا عن غفلتهم بما يرون فيكم من هذه السماحة المنقطعة النظير، وذلك إذا لم يشكِّل تحريرهم خطراً على الجماعة المؤمنة، وكما حصل في فتح مكة المكرمة بما قاله الرسول صلى الله عليه و آله «إذهبوا فأنتم الطلقاء» بل ولم يأسرهم أو يحصرهم بعد الفتح المبين الأمين، لأنه محمد الأمين.

وثانيها هو الفداء، أن تحرروهم بفدية نفسية من أسراءكم عندهم، أم فدية مالية،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٣٠

رعايةً لنفس الحائطة.

وثالثها الإستمرار في أسرهم حين لا سبيل أصلح منه، سداً لكل ثغور الخطر، وتثقيفاً لهم في المدارس الداخلية المنزلية.

ذلك، ففي مسبَّع الطرق عند إثخان العدو، هذه الثلاث هي المحبورة حسب الترتيب المصلحي، المركَّز على إصلاحهم وسد الإفساد منهم، وتلك الأربعة محظورة إذا لا تأتى بخير إلا شراً وفساداً.

ذلك، ولكي يأمن خيانة جمع من الأسرى فلا يبادر ببادرة عاجلة فيهم ف:

«وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ «١»»

فالأسرى الخَوَنة لا يفلحون أو يفلجون حيث يُمكِّن الله منهم فيُمكِّن من النقمة منهم «والله عليم» بما يحكم «حكيم» فيما يحكم، ومن علمه وحكمته أمر النصح بشأن الأسرى، باحتمال التأثير فيهم وفتح منفذ من الهدى إليهم.

«إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ «٢»»

هنا الولاية المتقابلة مفروضة بين المؤمنين المهاجرين بإيمانهم، المجاهدين بأموالهم وأنفسهم في سبيل اللَّه، وكذلك، المؤدين والمناصرين لهم بإحسان، وهي في نفس الوقت غير مفروضة ككلّ بينهم أولآء وبين المؤمنين غير المهاجرين حتى يهاجروا، وهذه المهاجرة بطبيعة الحال هي المستطاعة، فالمؤمنون الذين لا يهاجرون بإيمانهم في سبيل اللَّه، تفضيلًا لراحة الوطن والشغل والمال والعيال على صالح الإيمان «ما لكم من ولايتهم من شيءٍ حتى يهاجروا» ولكن مع الوصف «وإن

---

(١)). سورة الأنفال ٨: ٧١

(٢)). سورة الأنفال ٨: ٧٢

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٣١

استنصروكم في الدين فعليكم النصر» حيث الإنتصار للدين فرض المؤمنين على أية حال، «فعليكم النصر» لهم أولآء اللّهم «إلّا على قوم بينكم وبينهم ميثاق» فلا تنصروا هؤلآء المؤمنين غير المهاجرين عليهم فيما فيه نقض ميثاق اللّهم إلا ما فيه إيمان أو نقضه، إذ لا يصح ميثاق بين المؤمنين والكفار فيه نقض أو نقض للإيمان «والله بما تعملون بصير».

ذلك، فلا استنصار لهم فيه واجب النصر فيما يخالف صالح الميثاق كأن يستنصروهم في حرب بادءة من المستنصرين، وأما الحرب المعتدية المفروضة عليهم من الكفار فليست النصرة فيها مما يخالف الميثاق، إذ إن ميثاق متاركة الحرب وعدم المهاجمة طليقة بالنسبة

لكل المسلمين، ولا يحق لجماعة من المسلمين أن يعاهدوا محاربهم في متاركة حرب خاصة بينهم، حتى إذا حاربوا سائر المسلمين كانت نصرهم باستمصاركم مخالفة لذلك الميثاق.

فالإستنصار في الدين يفرض النصرة على أية حال، وقد يصح القول- إذاً- إن الإستثناء في «إلا على قوم» منقطع عن المستثنى منه «استنصروكم في الدين» فإذا كان الإستنصار في الدين فالنصرة محتمة على أية حال، وإذا لم يكن في الدين فلا نصرة فيما يخالف الميثاق.

ذلك، وليست المهاجرة المأمور بها في القرآن لتختص بزمن الرسول صلى الله عليه و آله فإن كل الزمن هي زمن الرسول في تحقيق رسالاته كلها.

أفترى «قالوا ألم تكن أرض اللّه واسعة فتهاجروا فيها». «١»

رداً على «كنا مستضعفين في الأرض» تختص بالمهاجرة زمن الرسول؟ والآية تندد بكافة المستضعفين المقصرين في ترك المهاجرة بإيمانهم. فلا يتبلور الإيمان بشروطه وظروفه ومعداته إلا بالحركة المهاجرية، أن يهاجر المؤمن بإيمانه، حفاظاً عليه، أم دعوة أوسع مما فيه إليه.

---

(١)). سورة النّساء ٤: ٩٧

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‌٧، ص: ١٣٢

وترى ما هي هذه الولاية المثبتة بالمهاجرة الإيمانية، المنفية في غير مهاجرة؟ هل هي ولاية المحبة والإيمان «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ..»! «١» أم ولاية النصرة والأمان؟ «وإن استنصروكم فعليكم النصر»!.

إنها بعد ما لم تكن من هاتين، هي ولاية الوراثة إذ كانت قبل الهجرة بالإيمان، وبعدها بالهجرة والإيمان، ومن ثم ثبتت بأولي الأرحام في حقل الإيمان كما فصلناها في آيات الميراث.

فقد اختصت ولاية الميراث هذه بالمهاجرة ترغيباً فيها وترعيباً عن تركها، ومن تركزت وثبتت في أولي الأرحام كما هنا وفي آية النساء «٢» وذلك بعد فتح مكة إذ لم تبق للمهاجرة دور حتى تدور معها الوراثة.

ذلك، والإستنصار في الدين كما المحبة فيه لهما دور ثابت جلي في حقل الإيمان وإن لم يهاجر المؤمن، اللّهم «إلّا على قوم بينكم وبينهم ميثاق» فليس هنا على المؤمنين المهاجرين أن ينصروا المؤمنين غير المهاجرين في مال وما أشبه، وأما في الدين فهو ثابت لا مردّ له، حيث النصرة الدينية لا ينقضها أو ينقصها ميثاق، بل ولا يعقد ميثاق يناحر واجب النصرة في الدين، حيث الدين ليس لينقض نفسه أو ينقص

---

(١)). سورة التّوبة ٩: ٧١

(٢)). الدر المنثور ٣: ٢٠٥- أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله آخى بين‌المسلمين من المهاجرين والأنصار فآخى بين حمزة بن عبد المطلب وبين زيد بن حارثة وبين عمر بن الخطاب ومعاذ بن غراء وبين الزبير بن العوام وعبد اللّه بن مسعود وبين أبي بكر وطلحة بن عبيد اللّه وبين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع وقال لسائر أصحابه: تآخوا وهذا أخي يعني علي بن أبي طالب عليه السلام قال: فأقام المسلمون على ذلك حتى نزلت سورة الأنفال وكان مما شدد اللّه به عقد نبيه صلى الله عليه و آله قول اللّه تعالى: إن الذين آمنوا وهاجروا ... فأحكم اللّه تعالى بهذه الآيات العقد الذي عقد رسول اللّه صلى الله

عليه و آله بين أصحابه من المهاجرين والأنصار يتوارثون الذين تآخوا دون من كان مقيماً بمكة من ذوي الأرحام والقرابات فمكث الناس على ذلك العقد ما شاء اللّٰه ثم أنزل اللّٰه الآية الأخرى فنسخت ما كان قبلها فقال: والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولوا الأرحام والقرابات ورجع كل رجل إلى نسبه ورحمه وانقطعت تلك الوراثة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٣٣

من نفسه بإقرار قرار يعارضه.

«وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ» «١»

هنا موالات الكافرين وهناك موالات المؤمنين وبينهما برزخ الموالات بين المؤمنين المهاجرين وغير المهاجرين، وكل ذلك حسب العقيدة والعملية الطالحة أو الصالحة أو العوان بينهما، وهنا «ان استنصروكم فعليكم النصر» في كل هذه «إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير» إذ يخرج عن الإسلام غير المهاجرين الذين هم من المسلمين مهما قصروا في الهجرة، وهذه فتنة وفساد كبير، كما «وإن لم تفعلوا» في ولاية الميراث ما أمرتم به «تكن فتنة في الأرض وفساد كبير» لمكانة المهاجرة الهامة قبل الفتح، مهما اختلف فساد عن فساد قضيةَ مختلف التخلفات عن هذه الفروض.

هذا، فضمير الغائب في «إلا تفعلوه» راجع إلى كل ما مضى من أمر أو نهي في حقل الوَلاية والميثاق والنصرة، ولا سيما استنصار المؤمنين غير المهاجرين في الدين.

«وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ» «٢»

فالذين لم يهاجروا من المؤمنين أو لم يأووا وينصروا فما أولئك بالمؤمنين حقاً مهما كانوا من المؤمنين، ثم:

«وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» «٣»

فالإيمان والمهاجرة والمجاهدة في سبيل اللّٰه هي الإيمان حقاً من قبل ومن بعد،

---

(١)). سورة الأنفال ٨: ٧٣

(٢)). سورة الأنفال ٨: ٧٤

(٣)). سورة الأنفال ٨: ٧٥

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٣٤

ثم «وأولوا الأرحام» من هؤلاء المؤمنين حقاً «بعضهم أولى ببعض في كتاب اللّٰه»- «من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً».

فهنا وفي النساء نسخت آية «أولوا الأرحام» آيات الميراث بالأخوة والمهاجرة الإيمانية، فقد كان الميراث قبل الهجرة بالأخوة الإيمانية، ثم بدل بعد الهجرة بالمهاجرة مع الإيمان، ثم بعد فتح مكة بدل بالأرحام مهما بقيت الأخوة الإيمانية في الوارث على حالها ولكن شرطَ أن تكون في حقل الأرحام الأقرب فالأقرب إلى الميت «١» وقد يروى عن النبي صلى الله عليه و آله قوله: «لا هجرة بعد الفتح» إذ أصبحت مكة المكرمة بعد الفتح دار الإسلام، ولكن بقيت الهجرة- على طول الخط- من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام لها أحكامها إلّا ما يستثنى.

وهنا بعد استقرار الوجود الفعلي للإسلام وبعد فتح مكة المكرمة يعود الميراث إلى أولوية أولي الأرحام داخل النطاق الإسلامي العام، إلغاءً شرط المهاجرة إذ لم يبق لها دور أم مضى دوره الهام، وكذلك شرط المجاهدة في سبيل اللّه، حيث يلبي تركيز الميراث على الأرحام جانباً فطرياً عريقاً في كل الحقول والعقول، فما دامت لا تُعارض تلبية الفطرة أهم منها من تكاليف الكيان الإسلامى، فالفطرة تلبَّى دون معارض.

ذلك، وفي واجهة أخرى لآية «أولوا الأرحام» وهي ولاية الأمر كما فصلناها على ضوء آية النساء نجد هذه الولاية ناصة خاصة في الأئمة الأثنى عشر عليهما السلام.

ومن ذلك قوله صلى الله عليه و آله: «ولاية أمير المؤمنين عليه السلام حصن اللّه» «٢» و «هو الصراط المستقيم» «٣» ومن القول الثابت ولاية علي عليه السلام «۴» و «إن الناس لا يضلون ولا يهلكون

---

(١) الدر المنثور ٣: ٢٠٧- أخرج الطيالسي والطبراني وأبوا الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال: آخى رسول اللّه صلى الله عليه و آله بين أصحابه وورث بعضهم من بعض حتى نزلت هذه الآية «وأولوا الأرحام ..» فتركوا ذلك وتوارثوا بالنسب

(٢) ملحقات إحقاق الحق ٧: ١٢٣ و ١۴: ۵٢٢

(٣) المصدر ٧: ١٢۵ و ١۴: ۴٨٧

(۴) المصدر ١۴: ۴٠٢

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‌٧، ص: ١٣۵

وهم في ولاية علي عليه السلام «١» و «من لم يوال علياً لم يشم رائحة الجنة» «٢» «فليتمسك بولاية علي عليه السلام «٣» و «أوصي من آمن بي وصدقتني من جميع الناس بولاية علي بن أبي طالب عليه السلام» «۴» و «ولايته ولايتي وولايتي ولاية اللّه» «۵» و «تمام دين اللّه ولاية علي عليه السلام بعدي» «۶» و «من لقى اللّه وهو جاحد لولاية علي .. لا يقبل اللّه من أعماله شيئاً» «٧» وهو «إمام أوليائي» «٨» و «إمام أولياء ربي» «٩» ف «علي ولي اللّه» «١٠» و «ولي رسول اللّه» «١١» و «ولي كل مؤمن» «١٢» و «من كنت وليه فعلي وليه» «١٣» «من كنت نبيه فعلي وليه» «١۴» «فهو أولي الناس بكم بعدي» «١۵» و «من كنت أولى به من نفسه فعلي أولى به من نفسه» «١۶» و

---

(١)). المصدر ١۶: ۴٣٩

(٢)). المصدر ٧: ١٧٧- ١٧٨ و ١٧: ١٨٣ و ٢١: ٣۶١- ٣۶٢

(٣)). المصدر ۴: ٣٣١ و ۵: ١٠٨- ١١١ و ٧: ٣٨۶

(۴)). المصدر ۶: ۴٣۵- ۴٣۶ و ١۶: ۶١٩- ۶٢٠ و ٢١: ٣١٣- ٣١۴

(۵)). المصدر ٢: ٣٣۵ و ۶: ۴٣۶ و ١٧: ٩۶- ٩٧، ٣٢٢ و ٧: ١٢٢ و ١۶: ۶١٩ و ٢١: ٣۶٠

(۶)). المصدر ۵: ٣۵

(٧)). المصدر ۶: ۴٠٩

(٨)). المصدر ٢٠: ٢۴۶، ٣۴٣- ٣۴۴ و ١۵: ٨١- ٨٣، ٨۵، ٨۶- ٨٧، ١٩٠

(٩)). المصدر ٢٠: ٣٢٠، ٣٤١، ٣٤٤

(١٠)). المصدر ٤: ١٢٨– ١٢٩، ١٣٠، ١٤٤– ١٤٨، ٢٨٧، ٢٨١، ٣٥٧، ٤٨٩ و ٥: ٤ و ٦: ٤٤٢ و ٧: ٣٨٥ و ١٥: ٨٨– ٩٢ و ٢٠: ٢٥٠– ٢٥١، ٣٢٨، ٣٩١، ٤٣٥– ٤٣٦

(١١)). المصدر ٤: ٦٤– ٦٥، ١٣١، ١٣٤، ٣٣٠، ٣٥٧ و ١٥: ١١٤، ١٢٣ و ١٧: ٣٠٧ و ٢٠: ٣٤٥– ٣٤٧

(١٢)). المصدر ٤: ٧٩، ٩٩، ١٢١، ١٣٥– ١٣٩، ٢٣٠، ٢٧٧، ٣٣٠– ٣٣١، ٣٥٨– ٣٥٩، ٣٨٧ و ٥: ٣٥، ٣٧، ٤١– ٤٢، ٥٨، ٩٨، ٢٨٨، ٣٠٤، ٣٠٩، ١٥: ٩٢– ١١٤ و ١٦: ١٥١– ١٥٢، ١٦٥ و ٢٠: ٣٤٨، ٣٦٢، ٥٥٣، ٤٩٤

(١٣)). المصدر ٤: ٤٣٧ و ٦: ٣٦٩– ٣٨٠ و ١٧، ٣٢٥ و ١٦: ٥٧٧– ٥٧٨، ٥٨٤ و ٢٠: ٣٥٣، ٣٥٦ و ٢١: ٣٩٨

(١٤)). المصدر ٦: ٣٨٠

(١٥)). المصدر ١٥: ١٢٤– ١٢٥ و ٤: ٣٨٨

(١٦)). المصدر ٢: ٣٦١

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٣٦

«من آمن بي فليتول علياً وذريته» «١» و «من كنت مولاه فعلي مولاه». «٢»

---

(١). المصدر ٦: ٤٣٦ و ١٧: ٩٦– ٩٧، ٣٢٢ و ٢١: ٣٥٩– ٣٦٠

(٢). المصدر ٢: ٤٢٦– ٤٦٥ و ٣: ٣٢٢– ٣٢٧ و ٤: ٢٩٢، ٤٠٨– ٤١٠، ٤٣٧– ٤٤٣، ٤٤٧– ٤٥٠ و ٥: ٤٣، ٦٠، ٧٢، ٧٧، ٨٠، ٨٩، و ٦: ٢٢٥– ٣٠٤ و ١٦: ٥٥٩– ٥٧٨ و ٢١: ١– ٩٣

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٣٧

المجاهدون يقتُلون ويُقتلون و هم منتصرون فيهما

«إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ «١»»

هنا المشتري هو اللّه، والمشترى به هو الحياة الدنيا: «أنفسهم وأموالهم» والمشترى هو الجنة: «فليقاتل في سبيل اللّه الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل اللّه فيُقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً» «٢»

فأنفُس المؤمنين وأموالهم في هذه التجارة المربِحة هي بمنزلة العُروض المبيعة، والأعواض المضمونة هي بمنزلة الأثمان المنقودة، والصفقة رابحة خالصة غير فالسة ولاكالسة، لزيادة الأثمان على السِلَع، وإضعاف الأعواض على القِيَم.

وهنا الجنة جنتان جنة الجنان وجنة الرضوان، ومبتغى أهل اللّه في الأصل هو الثان: «ومن الناس من يشتري نفسه ابتغاء مرضات اللّه واللّه رؤوف بالعباد». «٣» إذ «رضوان من اللّه أكبر». «٤»

وهنا «إشترى» منذ الفطرة إلى العقلية الإنسانية، إلى العقلية الإيمانية، وهم قابلون

---

(١)). سورة التّوبة ٩: ١١١

((٢)). سورة النّساء ٤: ٧٤.

الدر المنثور ٣: ٢٨٠- أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي وغيره قال قال عبد اللَّه ابن رواحة لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله: اشترط لربك ولنفسك ما شئت، قال: اشترط لربي أن نعبده ولا تشركوا به شيئاً واشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا قال: الجنة، قال: ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل فنزلت هذه الآية، وفيه أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد اللَّه قال: نزلت هذه الآية على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وهو في المسجد فكبر الناس في المسجد فأقبل رجل من الأنصاري ثانياً طرفي ردائِه على عاتقه فقال يا رسول اللَّه أنزلت هذه الآية؟ قال: نعم فقال الأنصاري: بيع ربيح لا نقيل ولا نستقيل

((٣)). سورة البقرة ٢: ٢٠٧

((٤)). سورة التّوبة ٩: ٧٢

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏٧، ص: ١٣٨

هذه التجارة الرابحة المربحة: «يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. تؤمنون باللَّه ورسوله وتجاهدون في سبيل اللَّه بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون». «١»

ثم «أنفسهم» تعني إلى أنفسهم الذاتية، الذين يتعلقون بِهم كأنفسهم نسيباً أو سببياً، كما أن «أموالهم» تعم إلى الحاضرة، الأموال التي بإمكانهم الحصول عليها، مضحِّين بكل طاقاتهم وإمكانياتهم ف «يقاتلون في سبيل اللَّه» ثم لهم إحدى الحسنيين «فيَقتلون» وهي حسنى الغلبة على أعداءهم «ويُقتلون» كخطوة أخيرة حين لا يتمكنون أن يَقتلوا أو يحافظوا على حياتهم فيقدِّمون حياتهم لإحياء سبيل اللَّه وهي الحسنى الأخرى، وقد يجمعون بينهما أن يَقتلوا ثم يُقتلوا وهما على سواءٍ لهم «في سبيل اللَّه» وعن النبي صلى الله عليه و آله قال: «ومن سل سيفه في سبيل اللَّه فقد بايع اللَّه». «٢»

وذلك «بأن لهم الجنة» بمراتبها حسب مراتبهم في هذه التجارة، وعُلياها هي جنة الرضوان.

«وعداً عليه» إذ كتب على نفسه هذه الرحمة الغالية المتعالية «في التوراة والإنجيل والقرآن» فإن في هذه الكتب الثلاثة تشجيعات وذكريات عن المقاتلين في سبيل اللَّه بما كتب اللَّه على نفسه «بأن لهم الجنة» ومن هذه الجنة هنا إحدى الحسنيين.

«إن اللَّه اشترى ..» فمنهم من ينسى عهده توانياً عن القتال، ومنهم الموفي بعهده «ومن أوفى بعهده» الذي عاهد عليه اللَّه يقال لهم: «فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به» وبيعهم هنا مبيعهم: «أنفسهم وأموالهم» حيث بايعوا به «بأن لهم الجنة»- «وذلك هو الفوز العظيم».

هنا «فيَقتلون ويُقتَلون» تسوِّي في حقل الجهاد بالأنفس فاعلية القتل ومفعوليته،

((١)). سورة الصّف ٦١: ١١

((٢)). الدر المنثور ٣: ٢٨٠- أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله:.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏٧، ص: ١٣٩

فإن قَتَل وقُتِل فقد جمع بين الجهادين، وإن فاز بأحدهما فهو شهيد في جانب واحد، وعلى أية حال فالشهيد القتيل في سبيل اللَّه له درجة عند اللَّه عالية غالية، وإليكم مقتطفات مما روي عن النبي صلى الله عليه و آله بحق الشهداء في سبيل اللَّه:

«لودِدت أني أقتل في سبيل اللّه ثم أحيا ثم أقتل ..» «١» و «توكل اللّه بالمجاهد في سبيله أن يُدخله الجنة» «٢» و «إن في الجنة مائة درجة أعدها اللّه للمجاهدين في سبيله» «٣» و «تمني الشهيد أن يرجع إلى الدنيا فيُقتل عشر مرات». «٤»

وترى «من أوفي شرطيةٌ جزاءُها «فاستبشروا»؟ وصالح الجزاء- إذاً- «فليستبشر» ليوافق فاعلَ الشرط، إنَّ «من اللّه» قد تلمح أن «أوفى» أفعل تفضيلًا!.

أم هو إستفهامية إستفحامية و «أوفى» تفضيل؟ وفاصل «بعهده» بين المفضل والمفضل عليه لا يناسبه حيث الفصيح- إذاً- «من أوفى من اللّه بعهده»! ثم لا موقع للفاءِ إذ لا شرطَ.

---

(١)

). مفتاح كنوز السنة بخ- ل ٥٦ ب ٧ و ١١٩، ل ٩ ب ١ ونس- ل ٢٥ ب ٣ و ٢٠ ومج- ك ٢٤ ب ١ وما- ل ٢١ ح ٢٧ و ٤٠ وحم- ثان ص ٢٣١ و ٣٨٤ و ٤٢٤ و ٤٧٣ و ٤٩٦ و ٥٠٢.

أقول وبياناً لهذه الرموز: بخ/ صحيح البخاري- مس/ صحيح مسلم- بد/ سنن أبي داود- تر/ سنن الترمذي- نس/ سنن النسائي- مج/ سنن ابن ماجة- مى/ سنن الدارمي- ما/ موطأ مالك- ز/ مسند زيد بن علي- عد/ طبقات ابن سعد- حم/ مسند أحمد بن حنبل- ط/ مسند الطيالسي- هش/ سيرة ابن هشام- قد/ مغازي الواقدي.

ثم: ك/ كتاب- ب/ باب- ح/ حديث- ص/ صفحة- ج/ جزء- ق/ قسم- قا/ قابل ما قبلها بما بعدها- م م فوق العدد من جهة اليسار تدل على أن الحديث مكرر مرات والرقم الصغير فوق العدد من جهة اليسار يدل على أن الحديث مكرر بقدره في الصفحة أو في الباب

(٢)). بخ- ل ٥٦ ب ٢ ول ٥٧ ب ٨- مس- ل ٣٣ ح ١٠٣ و ١٠٤- بد- ل ١٥ ب ٩ وتر- ك ٢٠ ب ١ ونس- ك ٢٥ ب ١٤ ومج- ل ٢٤ ب ١ ومى- ل ١٦ ب ٢ وما- ك ٢١ ح ٢ وحم- ثان ص ٢٣١ و ٣٨٤ و ٣٩٨ و ٣٩٩ و ٤٢٤ و ٤٩٤

(٣)). بخ- ك ٥٦ ب ومس- ك ٣٣ ح ١١٦ ومى- ك ١٦ ب ١٩ وحم- أول ص ٢٦٦

(٤)). بخ- ل ٥٦ ب ٦ و ٢١ ومس- ك ح ١٠٨ و ١٠٩ و ١٢١ وتر- ك ٢٠ ب ١٣ و ٢٥ وك ٤٤ سورة ٣ ح ١٨ و ١٩ ونس- ك ٢٥ ب ٣٢ و ٣٤ ومج- ك ٢٤ ب ١٦ ومى- ك ١٦ ب ١٧ وحم- ثالث ص ١٠٣ و ١٢٦ و ١٣١ و ١٥٣ و ١٧٣ و ٢٣٩ و ٢٥١ و ٢٧٦ و ٢٧٨ و ٢٨٤ و ٣٦١، رابع ص ٢١٦، خامس ص ٣١٨ و ٣٢٢ وط- ح ١٩٦٤ وقد- ص ١٢٦

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‌٧، ص: ١٤٠

قد تتحمل «من أوفى» كلا الشرطية والإستفهام، وأما «فاستبشروا» شرطاً فتحوَّل من الغياب إلى الخطاب «فاستبشروا أنتم الموفون ...» ثم «من اللّه» هنا تعني: عهده النازل له من اللّه، المعنيَّ من «وعداً عليه حقاً ..».

وأما الإستفهام فلا، فأصلُ «أوفى» ينافيه، حيث يراد المعنيان، ولا أن الفاء لا موقع لها، حيث يفرّع الإستبشار- إذاً- على ذلك الإشتراء والوعد والوفاء الأوفى.

فالمعنيان- إذاً- معنَّيان حيث يوافقان أدب اللفظ وحَدَب المعنى، والقرآن حمال ذو وجوه فاحملوه إلى أحسن الوجوه، وأحسنها الجمع بين الوجوه الحسنة مهما كانت درجات.

وإليكم تصريحات من كتابات الوحي بشرعة الجهاد:

في «نِبوءِتْ هَيِّلِد»: وحي الطفل: لُحمان حَطُوفاه- النازل عليه قبل ميلاد الرسول صلى الله عليه و آله بسبعين سنة، يقول عنه صلى الله عليه و آله باللغة الأنقلوسية وهي العبرانية الرمزية:

«نَهَرا كَد مَطَا وَلَاتْ قَصْ مِتِيعْبِد قَطَاطَاهْ وَهُوَاهْ طِينَا دَامَلْطَا».

يُشرق العالم لما يصل- ويُخمد نيران الخلافات- ويوصل إلى القيامة الكبرى- ويحارب في سبيل الله- ويُبعث من أمة محرومة مهدومة. «١»

ذلك، وفي تصريحات متكررة في «التوراة والأنجيل» وملحقاتهما أن الشرعة المحمدية هي الشرعة النارية حيث تحرق الفتن والمفتتنين، وأنها تزيل نفسية الإستبداد والإستكبار من أنفس المستكبرين، بالجهاد المتواصل، وتُخضع الفراعنة أمام شِرعة الحق-، والقيام بالسيف عَلَم من أعلام القدسية الإيمانية للذين معه- وعصا قوته لا تعني إلَّا بسط العدل، وهدم بساط الظلم- وأنها من علائم الحمية والغيرة-.

ثم توسع نطاق الجهاد في حقله الكتابي إلى حروب موسى وداود وشعيب عليهما السلام

---

(١)). لقد فصلنا القول حول وحي الطفل في كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية) وبطيات الفرقان حسب المناسبات، وكذلك سائر الوحي بحق الجهاد الإسلامي وسائر ميزاته، فراجع

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٤١

واستعداد المسيح عليه السلام للحرب ولكن تركه الحواريون فصُلب بزعم جمع منهم جامحين. «١»

ونموذجاً عالياً غالياً من وحي التوراة عن شرعة الجهاد النص التالي حيث يحمل بِطيّات البشارات الثلاث لنبوءات ثلاث، يحمل ميِّزةً- للشرعة الأخيرة- بارزة هي أنها الشرعة النارية، وإليكم النص بالأصل العبراني:

«وِزُئْتُ هَبَّرَاخاهْ اشِرْ بِرَخْ مُوشِهْ إيشْ ها الُوهيمْ ات بِني يِسرائِيل لِفنِي مُوتُو وِيُّومِرْ يِهُواه مِسِّيني باوْ زارَح مِسِّعير لامُو هُو فيعَ مِهَرْ فاران وِآتّاهْ مِرْ بِبُتْ قُدِش مي مينو اش داتْ لامو. «٢»

«وهذه بركة باركها موسى رجل الله ببني إسرائيلَ عند موته وقال جاء الله من سيناء، تجلى من ساعير، تلعلع من جبل فاران: (حرى) وورد مع الآف المقدسين وظهر على يده اليمنى الشريعة النارية».

ونموذجاً آخر هو من الإنجيل قول المسيح كما في (لوقا ١٢: ٤٩): جئت لألقي ناراً على الأرض. فماذا أريد لو اضطرمت. ولي صبغة أصطبغها وكيف أنحصر حتى تكمل. أتظنون أني جئت لألقي سلاماً على الأرض. كلا أقول لكم بل إنقساماً ..».

وفي (لوقا ٢٢: ٣٥- ٣٧): «ثم قال لهم حين أرسلتكم بلا كيس ولا مِزوَد ولا أحذية هل أعوزكم شيءٌ؟ فقالوا: لا فقال لهم لكن الآن من له كيس فليأخذه، ومزود كذلك، ومن ليس له فليبع ثوبه ويشتري سيفاً لأني أقول لكم إنه ينبغي أن يتم فيّ أيضاً هذا المكتوب وأحصى مع أَثَمة. لأن ما هو من جهتي له إنقضاء فقالوا يا رب هو ذا هنا سيفان. فقال لهم: يكفي».

«اللّهم إنك علمت سبيلًا من سبلك جعلت فيه رضاك وندبت إليه أولياءك وجعلته أشرق سبلك عندك ثواباً وأكرمها لديك مآباً واجهاً إليك مسلكاً ثم اشتريت فيه من

(١)). راجع كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية) تجد نصوصاً وفيرة حول الجهاد

(٢)). (سفر التثنية ١- ٢)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٤٢

المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون وعداً عليك حقاً، فاجعلني ممن إشترى فيه منك نفسه ثم وفى لك ببيعه الذي بايعك عليه غير ناكث ولا ناقض عهداً ولا مبدلًا تبديلًا. «١»

«ألا حرٌّ يدع هذه اللماظة لأهلها، إنه ليس لأنفسكم ثمن إلَّا الجنة فلا تبيعوها إلَّا بها»-

«فلا أموالَ بذلتموها للذي رزقها، ولا أنفس خاطرتم بها للذي خلقها». «٢»

و «أول الجهاد الدعاء إلى طاعة الله عزَّ وجلّ من طاعة العباد وإلى عبادة الله من عبادة العباد وإلى ولاية الله من ولاية العباد». «٣»

وترى لماذا «بأن لهم الجنة» دون «بالجنة»؟ لأن «بالجنة» حتم لا مرد له وكأنها تقابل ذلك القتال باستحقاق أصيل، ولكن «بأن لهم الجنة» هو وعد الجنة وليست هي هيه، فقد إشترى أنفساً خلقها وأموالًا رزقها، إذاً- إلا تلطفاً في الدعوة وتعطفاً على الخليقة، وكما يستقرضنا ربنا ويستعطينا، فوا خجلتاه إن عصيناه على عطفه ورحمته!.

فيا ويلاه! أين التراب ورب الأرباب؟ حيث الرب على عُظمه يجعل نفسه مشترياً لنفس العبد وقد خلقها، ولِماله وقد رزقه، ففي الحقّ الحقُّ هو المشتري من نفسه وهو البايع لنفس ونفيس هما من خلقه، ثم «وعداً عليه» تجعله كأنه مديون ب «أن لهم الجنة» لا تقبل إقالة ولا إحالة!، ثم يستشهد لثابت وعده بما أنزله «في التوراة

(١)). نور الثقلين ٢: ٢٧٢ في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام أن أمير المؤمنين عليه السلام كان إذا أراد القتال قال هذه الدعوات

(٢)). هما في نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام

(٣)). وفي نور الثقلين ٢: ٢٦٩ في الكافي كتب أبو جعفر عليهما السلام في رسالة إلى بعض خلفاء بني أمية ومن ذلك: من ضيع الجهاد الذي فضله الله تعالى على الأعمال وفضل عامله على العمال تفضيلًا في الدرجات والمغفرة والرحمة لأنه ظهر به الدين وبه يدفع عن الدين وبه اشترى الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بالجنة بيعاً مفلحاً منجحاً اشترط عليهم فيه حفظ الحدود وأول ذلك الدعاء إلى طاعة الله عزَّ وجلّ ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٤٣

والإنجيل والقرآن».

وإنها لبيعة رهيبة وبيع رهيب، في عنق كل مؤمن، لا تَسقط عنها إلَّا بسقوط إيمانه، فعونَك الله وعوذاً منك إليك في الإيفاء بذلك العقد العقيد!.

وهكذا الله «يكرمهم على لسان الحقيقة وعلى لسان المعاملة، اشترى منهم الأجساد لمواضع وقوع المحبة من قلوبهم فأحياهم بالوصلة». «١»

«التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنْ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ» «٢»

مواصفات تسع لأهل الجنة هي والموفين بعهد اللَّه عشرة كاملة من صفات المؤمنين: «ومن أوفى بعهده (الى) اللَّه: التائبون ...» فقراءه الجر «٣» جرٌّ إلى غير المتواتر زعم أنها أوصاف لمجرور «بشر المؤمنين» رغم أن الموصوف الأصيل الأقرب لفيظاً ومعنوياً هو «من أوفى» وهؤلآء هم:

«التائبون» إلى اللَّه من ذنب وغير ذنب حيث التوبة لا تختص بذنب فإنها الرجوع إلى اللَّه على أية حال، والتوبة شعور بالندم على ما مضى- إن كانت عن ذنب- وتوجُّهٌ إلى اللَّه فيما بقي عن ذنب أم غير ذنب.

«العابدون» اللَّه دون سواه، ودون سُمعة أو رئاء الناس، عابدون إياه عبادة وعبودية وإقراراً بالربوبية، العابدون معرفة وعقيدة وعملًا للَّه، وكما يترجمها الإنجاه إلى اللَّه بكل الكيان، و «العابدون» دون الذين يعبدون، للتدليل على استمرارية العبادة والعبودية للَّهعلى أية حال، لا فقط حال العبادات.

«الحامدون» اللَّه دون سواه إلَّا حمداً به للَّه، «الحمادون الذين يحمدون اللَّه على

---

(١)). مجلة العرفان العدد الثالث المجلد ٦١ ص ٣٩١ عن الإمام الصادق عليه السلام

(٢)). سورة التّوبة ٩: ١١٢

(٣)). نور الثقلين ٢: ٢٧٤ في روضة الكافي عن أبي بصير عن أبي عبد اللَّه عليه السلام قال: تلوت: التائبون .. فقا: لا، إقرء «التائبين العابدين» إلى آخرها فسئل عن العلة في ذلك؟ فقال: اشترى من المؤمنين التائبين العابدين

السراء والضراء «١» حمداً بأقوالهم وأحوالهم وأفعالهم للَّه. «٢»

«السائحون» سيحاً أنفسياً كالصيام «٣» وما أشبه، وسيحاً في سبيل اللَّه جهاداً «٤» وسواه، وهو مأخوذ من سيح الماء الجاري، فالمؤمنون الموفون بعهودهم من اللَّه هم كالماء الجاري: فكما أن راكد الماء ينتن ويعفن وجاريه ينظَف وينظِّف، كذلك المؤمنون هم سائحون جارون في مجاري الصلاح والإصلاح لأنفسهم وللآخرين، فمن الجري في أنفسهم الصوم حيث يطهِّر القلب بجاري ماءه الحيوي، ومنه في أنفسهم ومَن سواهم الجهاد في سبيل اللَّه وله مصاديق عدة:

كالسيح لطلب العلم في اللَّه، وكسب الإخوان في اللَّه، والسير في أرض اللَّه، وكل سيح آفاقي وأنفسي في سبيل اللَّه، فالجامد الواقف ليس مؤمناً باللَّه، إنما هو الحركي السائح الكادح: «يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه». «٥»

ولقد ذكر الرسول صلى الله عليه و آله مصداقاً أنفسياً فردياً لذلك السيح هو الصيام، ومصداقاً آفاقياً هو الجهاد في سبيل اللَّه، وهذا يشمل كل حركة للساكلين إلى اللَّه.

فكما أن «الحافظون لحدود اللَّه» تشمل كل حدوده، كذلك «السائحون» تشمل كل حركة ذات بركة في سبيل اللَّه.

ولماذا ذكرت الواو مرتين بين هذه التسع؟ علّة لأن الثلاث الأخيرة هي المتميزة الهامة التي تشمل سائر العشر المذكورة من ذي قبل، وأنها من المسؤوليات الجماعية، أم وتعني التسوية بين الآمرين والناهين والحافظين، فإن مسؤولياتهم واحدة هي

---

(١)). الدر المنثور ٣: ٢٨١ عن ابن عباس قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله:.

(٢)). المصدر أخرج البيهقي في الشعب عن عائشة قالت: كان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إذ أتاه الأمر يسرُّه قال: الحمد للَّهالذي بنعمته تتم الصالحات وإذ أتاه الأمر يكرهه قال: الحمد للَّهعلى كل حال

(٣)). المصدر أخرج ابن جرير عن عبيد بن عمير قال سئل النبي صلى الله عليه و آله عن السائمين قال: همالصائمون، ورواه عن أبي هريرة وابن مسعود عنه صلى الله عليه و آله

(٤)). المصدر أخرج ابن أبي حاتم والطبراني والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي أمامة أن رجلًا استأذن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله في السياحة قال: إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل اللَّه

(٥)). سورة الإنشقاق ٨٤: ٦

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٤٥

الحفاظ على حدود اللَّه.

«الراكعون الساجدون» للَّهدون سواه حيث يختصان- في مظاهر الإحترام- باللَّه، ولأنهما أظهر مظاهر الصلاة فهي المعنية بهما كمصداق بارز بين مصاديقها، ثم هم راكعون للَّهساجدون في كل أقوالهم وأحوالهم وأعمالهم، وهما- على اختلاف درجتهما- تشملان كافة درجات الخضوع للَّهفي كل الحقول.

«الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر» بشروطهما المسرودة في القرآن والسنة.

«والحافظون لحدود اللَّه» علمياً وعقيدياً وعملياً، دون زيادة عليها أو نقيصة عنها، وهؤلآء هم أئمة الدين في سببه إلى الإمام ف «إنما الهبة قبل أن يرفع إلى الإمام فإن انتهى إلى الإمام فليس لأحد أن يتركه». «١»

ذلك، وهذا التاسع يحلِّق على كل المحاور الثمانية الأولى فإن حدود اللَّه علمياً وعقيدياً ومعروفياً وعملياً، شخصياً وجماعياً ودعائياً، تشمل المسؤوليات الجماعية إلى الشخصية دون إبقاء لأية مسؤولية، مهما اختلف مراتب ذلك الحفظ رسولياً ورسالياً.

«وبشر المؤمنين» الموصوفين بهذه العشر إبتداءً ب «من أوفى بعهده» فتلك إذاً عشرة كاملة في الصفات الإيمانية فردية وجماعية.

ولأن المسؤوليات الجماعية التي تصنع الجماعة المسلمة ليست إلّا بعد تحقق الفردية، لذلك تقدمت هي عليها، تقديماً للجمع بينهما «ومن أوفى بعهده من اللَّه» وتأخير له «والحافظون لحدود اللَّه» وبينهما متوسطات بين فردية محضة أو جماعية محضة.

---

(١)). المصدر في الكافي عن أبي عبد اللَّه عليه السلام قال: من أخذ سارقاً فعفى عنه فذالك له فإن رفعه إلى الإمام قطعه فإن قال الذي سرق له: أنا أهب له لم يدعه الإمام حتى يقطعه إذا رفعه إليه وإنما الهبة قبل أن يرفع إلى الإمام وذلك قول اللَّه عزَّ وجلّ «والحافظون لحدود اللَّه». فإن انتهى

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٤٦

إن حدود اللَّه المحدودة في القرآن والسنة لها حفاظات حسب مختلف الملابسات لا حِوَل عنها أبداً، اللَّهم إلَّا مِن حد إلى حد هو أهم منه حسب المقرر في شِرعة اللَّه.

وهنا عديدٌ قاصدك «حدود اللَّه» وفقاً بين الحافظين الأصليين لحدود اللَّه الأربعة علىالإسلام، وذكرها في القرآن بنفس العدد: «ومن يعص اللَّه ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها». «١»- «ومن يتعد حدود اللَّه فقد ظلم نفسه». «٢»

وترى ماذا يعني الترتيب القاصد بين الست الأولى والثلاث الأخرى؟

«التائبون» تعبيدة لصالح العبادة، سواءَ أكانت توبة عن ذنب، أم توبة ارتقاء عن الحالة الحاضرة إلى أرقى منها وأعلى، حتى تحل العبادة موقعها الأعلى، تحليةً بعد تخليةً، حيث يتخلى عن ذنب أو نقص آخر ثم يتحلّى بالعبادة.

ثم «العابدون» تحلِّق على كافة العبادات، توحيداً لصالح العبادة للّٰهبعد توحيد التوبة والإنابة إلى اللّٰه، إذاً ف «التائبون العابدون» هما عبارة أخرى عن: «لا إله إلا اللّٰه».

ولأن أصل العبادة هو الحمد للّٰهكما يحق له، ف «الحامدون» هي ثالثة الأوصاف للأوفياء المؤمنين، ثم الحمدُ العبادةُ والعبادةُ الحمدُ لابد لهما من حِراك فسيح دون جمود، فالسيح فيهما هو المرغوب المطلوب.

ولأن الصلاة هي خير موضوع، حيث هي عمود الدين وعماد اليقين، ثم الركوع والسجود هما أظهر مظاهر العبودية في الصلاة، إذاً ف «الراكعون الساجدون» هما مرحلتان أخيرتان مكملتان لمربع التوبة العبادة الحمد السيح.

ومن السيح في الصلاة أن تكون في جماعات، قصداً إليها من كل مكان قريب أو غريب، توحيداً للصفوف، وتوطيداً للألفة بجمع الألوف.

هذه هي الست الأولى التي تتبنى صناعة الإيمان الوفي لأشخاص المؤمنين، ومن ثم الثلاث الأخيرة كمسؤوليات هامة جماعية لهؤلاء الذين تخطوا الخطوة الأولى،

---

(١)). سورة النّساء ٤: ٤

(٢)). سورة الطّلاق ٦٥: ١

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٤٧

تقديماً للأمر والنهي بما هما قائمتان لصرح الإسلام العام، وتأخيراً ل «الحافظون لحدود اللّٰه» كضابطة للحفاظ على حدود الفرد والجماعة الربانية للأفراد والجماعات، فالإيمان الوفي على تفاصيل مواصفاته يختصر بجمعي الصفات الفردية والجماعية في «الحافظون لحدود اللّٰه» وهنا موقع البشارة السارة: «وبشر المؤمنين».

ثم «الحافظون لحدود اللّٰه» تعم الفردية والجماعية، بكل مراحل الحفظ: تعلماً واعتقاداً وتعليماً، ودعوة ودعاية لها، وحفظاً عن التحريف والتعطيل والتجديف، وحفاظاً على صالح التطبيق دون زيادة عليها أو نقيصة عنها.

إذاً فالدعوة إلى سبيل اللّٰه بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، وما أشبه من المحافظة على حدود اللّٰه، كل ذلك معني ب «الحافظون لحدود اللّٰه».

وإذاً «وبشر المؤمنين» بهذه الرسالة السامية، تطبيقاً لهذه الشروط الإيمانية.

«مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ا ١١٣ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ» «١»

هنا روايات مختلَقة قضية العصبية العمياء المذهبية أن رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله استغفر لعمه وأبويه المشركين وقد ماتوا مشركين، فلكي يُمس من كرامة أبوي النبي صلى الله عليه و آله وأبي علي عليه السلام مسوا من كرامته هو صلى الله عليه و آله أن خالف أمر ربه في ذلك الإستغفار الإستهتار!.

فلقد نهاه الله أن يستغفر للمنافقين في آيات عدة مضت، فضلًا عن المشركين الرسميين الذين ماتوا على إشراكهم بالله، وإستحال غفرانه لهم بقوله: «إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء». «٢» فكيف- إذاً- يستغفر النبي صلى الله عليه و آله للمشرك معارضاً لما قرره الله من سلبية الغفران في حقل الشرك؟.

وترى كيف يفترى على رسول الهدى صلى الله عليه و آله الذي يعارض المشركين وهو مأمور

---

(١)). سورة التّوبة ٩: ١١٣- ١١٤

(٢)). سورة النّساء ٤٨ و ١١٦

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٤٨

بالإعراض عنهم: «إتبع ما أوحي إليك من ربك لا إله إلّا هو وأعرض عن المشركين ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظاً وما أنت عليهم بوكيل». «١»

ففي هذه وفي مكيات أخرى أمر بمفاصلة المشركين والإعراض عنهم، وعدم الإستغفار لهم، ثم هو يستغفر لوالديه اللذين ماتا مشركين؟! أم ولعمه أبي طالب الذي مات مشركاً؟!.

كلّا، إن المشرك هو المفتري على الرسول تلك التخلُّفة النكراء، والمفتري على عمِّه وعلى والديه الذين ماتوا موحدين، أنهم ماتوا مشركين!.

فواعجباه بينما يقول الله: «إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار». «٢» رغم ذاك يسمح رسول الله صلى الله عليه و آله لنفسه أن يستحل لأبويه وعمه المشركين حلّ الجنة باستغفار لهم؟! داخلًا في أنصار هؤلآء الظالمين!.

الحرب سبحال وليس ضماناً الغلب للمسلمين الّا غلباً ايماناً

تتمة من قيلات المنافقين والذين في قلوبهم مرض، وعرض لمكانات الشهداء في سبيل الله عند الله تشجيعاً على الجهاد وتنديداً بدعايات المتخلفين.

«أَوَلَمَّا أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْها قُلْتُمْ أَنَّى هذا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» «٣»

هذه هي مصيبة الهزيمة العظيمة في أحد التي استقطبت واجهات النظر بين المنهزمين، ومن اعتراضاتهم عليها بصيغة السؤال «أنى هذا» وقد وُعدنا النصر كما انتصرنا في بدر، ومما هوَّن هذه المصيبة «قد أصبتم مثليها» إذ هزمتموهم مرة في بدر

---

(١)). سورة الأنعام ٦: ١٠٧

(٢)). سورة النّساء ٤: ٤٨

(٣)). سورة آل عمران ٣: ١٦٥

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٤٩

وأخرى يوم أحد في مطلع المعركة قبل تخلفكم عن أمر الرسول صلى الله عليه و آله ووهنكم.

و «مثليها» في عديد الإصابات ومديدها، إذ «كان المسلمون قد أصابوا ببدر مائة واربعين رجلًا قتلوا سبعين واسروا سبعين فلما كان يوم أحد أصيب من المسلمين سبعون رجلًا «١» فاغتموا بذلك فانزل الله الآية». «٢»

وقد تعني «مثليها» كلا المثلين، فانها طليقة في جنسهما الشامل لعدد الهزيمة وعدد المصابين، ومما يجيب عن ذلك التساؤل كأصل في الإصابة «قل هو عند أنفسكم» حيث تركتم مقاعدكم للقتال تخلفاً عن أمر الرسول صلى الله عليه و آله وبُغية الغنيمة حيث

---

(١)). شهداء احد على ما ذكره ابن هشام في سيرة النبي هم: حمزة بن عبد المطلب- مصعب بن عمير- عبد اللّٰه بن جحش- شماس بن عثمان وهؤلاء من المهاجرين، ثم:

عمرو بن معاذ بن النعمان- الحارث بن رافع- عمارة بن زياد السكن- سلمة بن ثابت- عمرو بن ثابت بن وقش- ثابت بن وقش- حسيل بن جابر ابو حذيفه اليمان- صيفى بن قيظي- عباد بن سهل- الحارث بن اوس بن معاذ- اياس بن أوس- عبيد بن التهيان- حبيب بن يزيد بن تيم- يزيد بن حاطب بن امية بن رافع- ابو سفيان بن الحارث بن قيس بن زيد- حنظلة بن أبي عامر وهو غسيل الملائكة- انيس بن قتادة- أبو حبة بن عمر بن ثابت- عبد اللّٰه بن جبير بن النعمان وهو امير الرماة- ابو سعد خيثمة بن خيثمة- عبد اللّٰه بن سلمة- سبيع بن حاطب بن الحارث- عمرو بن قيس- قيس بن عمرو بن قيس- ثابت بن عمر بن زيد- عامر بن مخلد- ابو هبيرة بن الحارث بن علقمة بن عمرو- عمرو بن مطرف بن علقمة بن عمرو- أوس بن ثابت بن المنذر اخو حسان بن ثابت- انس بن النضر عم انس ابن مالك خادم رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله- قيس بن مخلد- كيسان عبد لنبي نجار- سليم بن الحارث- نعمان بن عبد عمرو- خارجة بن زيد بن أبي زهر- سعد بن الربيع بن عمرو بن أبي زهر- اوس بن الأرقم- مالك بن سنان من بني خدرة وهو والد أبي سعيد الخدري- سعيد بن سويد- عتبة بن ربيع- ثعلبة بن سعد بن مالك- سقف بن فروة بن البدي- عبد اللّٰه بن عمرو بن وهب- ضمرة حليف لبني طريف- نوفل بن عبد اللّٰه- عباس بن عبادة- نعمان بن مالك بن ثعلبة- المجدر بن زياد- عبادة بن الحسماس- رفاعة بن عمرو- عبد اللّٰه بن عمرو من بني حرام- عمرو بن الجموح من بني حرام- خلاد بن عمرو بن الجموح- ابو ايمن مولى عمرو بن الجموح- سليم بن عمرو بن جديدة- عنترة مولى سليم- سهل بن قيس- ذكوان بن عبد قيس- عبيد المعلى- مالك بن تميلة- حارث بن عدي بن خرشة- مالك بن اياس- اياس بن عدي وعمرو بن اياس- وهؤلاء من الأنصار

(٢)). نور الثقلين ١: ٤٠٨ في تفسير العياشي محمد ب أبي حمزة عمن ذكره عن ابي عبد اللّٰه عليه السلام في الآية

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٥٠

أهمتكم أنفسكم وظننتم باللّٰه الظنونا.

ذلك، وأما مبادلة أسرى بدر- بديلًا عن قتلهم- بالفداء، ومبادلة الفداء باستشهاد مثلهم من المسلمين في عام قابل- كما يروى- «١» فهو إغراءٌ بأجهل الجهل تعالى اللّٰه عن ذلك علواً كبيراً.

فالقول بالأفواه ما ليس في القلوب نفاق عارم، كما أن تطابق القول والقلب- لا سيما مع الفعل- إيمان صارم، وبينهما عوان من الإيمان والنفاق يعبر عن صاحبه ب «الذين آمنوا» إيماناً مبدئياً مهما اختلف درجاته. «٢»

وقد تعني «الذين نافقوا» كل المتخلفين في تلك المعركة، ف «المؤمنين» هم- إذاً-

---

(١)). المصدر في تفسير علي ابراهيم ان النبي صلى الله عليه و آله لما تبعوا قريشاً بعد احد الى حمراء الأسد ثمرجعوا الى المدينة فلما دخلوا المدينة قال اصحاب رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله ما هذا الذي أصابنا وقد كنت تعدنا النصر؟ فأنزل اللّٰه: «أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم انى هذا قل هو من عند أنفسكم» وذلك ان يوم بدر قتل من قريش سبعون واسر منهم سبعون وكان

الحكم في الاسارى القتل فقامت الانصار الى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقالوا يا رسول اللَّه هبهم لنا ولا نقتلهم حتى نفاديهم فنزل جبرئيل عليه السلام فقال ان اللَّه قد اباح لهم الفداء ان يأخذوا من هؤلاء يطلقوهم على ان يستشهد منهم في عام قابل بقدر من ياخذون منه الفداء فاخبرهم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بهذا الشرط فقالوا: قد رضينا نأخذ العام الفداء من هؤلاء ونتقوى به ويقتل منا في عام قابل بعدد من ناخذ منهم الفداء وندخل الجنة فأخذوا منهم الفداء واطلقوهم فلما كان هذا اليوم وهو يوم احد قتل من اصحاب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله سبعون فقالوا يا رسول اللَّه ما هذا الذي اصابنا وقد كنت تعدنا النصر؟ فأنزل اللَّه «او لما اصابتكم ...».

وفي تفسير الفخر الرازي ٩: ٨٢ روي عن علي عليه السلام قال: جاء جبرئيل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه و آله يوم بدر فقال: يا محمد ان اللَّه قد كره ما صنع قومك في اخذهم الفداء من الأسارى وقد امرك ان تخيرهم بين ان يقدموا الأسارى فيضربوا اعناقهم وبين أن يأخذوا الفداء على ان تقتل منهم عدتهم فذكر رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ذلك لقومه فقالوا: يا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عشائرنا وأخوننا نأخذ الفداء منهم فنتقوى به على قتال العدو ونرضى ان يستشهد منا بعددهم فقتل يوم احد سبعون رجلًا عدد اسارى بدر فهو معنى قوله «قل هو من عند انفسكم» اي بأخذ الفداء واختياركم القتل

(٢)). مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام في كلام طويل ومن ضعف يقينه تعلق بالأسباب ورخص لنفسه بذلك واتبع العادات وأقاويل الناس بغير حقيقة والسعي في امور الدنيا وجمعها وامساكها، مقر باللسان انه لا مانع ولا معطي إلا اللَّه وان العبد لا يصيب إلا ما رزق وقسم له والجهد لا يزيد في الرزق وينكر ذلك بفعله وقلبه قال اللَّه «يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ...»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٥١

صادِقوا الإيمان، فإن «نافقوا» وجاه «المؤمنين» تعبير قاصد، ولكن الوجه الأول أوجه فإن «تعالوا ..» تشي إلى تخلفهم عن أصل القتال والدفاع، فقد لا تشمل المتخلفين ضمن المعركة فضلًا عن الذين هموا أن يفشلوا.

«الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» «١»

«لإخوانهم» هنا كما «لإخوانهم» فيما مض

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٥١

صادِقوا الإيمان، فإن «نافقوا» وجاه «المؤمنين» تعبير قاصد، ولكن الوجه الأول أوجه فإن «تعالوا ..» تشي إلى تخلفهم عن أصل القتال والدفاع، فقد لا تشمل المتخلفين ضمن المعركة فضلًا عن الذين هموا أن يفشلوا.

«الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» «١»

«لإخوانهم» هنا كما «لإخوانهم» فيما مضى: «وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ...» «٢»

ثم «وقعدوا» حال عن القائلين لإخوانهم قيلتهم الغيلة، والجواب تعجيز لهم على غرار قيلتهم «قل فادرؤا عن أنفسكم الموت» بقعود وسواه من أسباب الفرار عن الموت فيما تزعمون «إن كنتم صادقين» في «لو أطاعونا ..».

ذلك، ولكن الدرء عن الموت أمرٌ والدرء عن القتل أمرٌ آخر، فاستحالة الدرء عن الموت لا تُحيل الدرء عن القتل، فإنّ بالإمكان الإبتعاد عن أسبابه، إلّا أن الموت هنا يعم القتل، و «ما كان لنفس أن تموت إلّا بإذن اللَّه» «قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم» حيث تعم مضاجع الموت الأعمَّ من القتل، وقد مضى فصل القول فيه فلا نعيد.

«وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ» «٣»

«ولا تحسبن» خطاب لكل الحاسبين ذلك الحسبان الجاهل القاحل، والعائشين في جوّهِ بتلك الدعاية المجمِّدة للطاقات الحربية، فلا تشمل رسول الهدى صلى الله عليه و آله، إنما هو خطاب لأهله على الأبدال، دون من لا يخلد او لن يخلد بخلده ذلك الحسبان المناحر للإيمان، في الرزخ، إنها من معاريف الإيمان بفضل الشهادة وأصل الحياة بعد

---

(١)). سورة آل عمران ٣: ١٦٨

(٢)). سورة آل عمران ٣: ١٥٦

(٣)). سورة آل عمران ٣: ١٦٩

الموت، مهما كان الشهداء درجات «١» كما أن سائر الصالحين درجات.

و «امواتاً» هنا المسلوبة عن ساحة الشهداء بتّة، لا تعني- بطبيعة الحال- الموت الذي بعده حياة، بل هو موت الفوت، حيث خيِّل إلى ناكري الحياة بعد الموت ككل، وناكري الحياة البرزخية وحياة الشهادة المتميزة فيها.

إذاً ف «ولا تحسبن» تحلّق النهي عن ذلك الحسبان على كل حقوله كجواب ثان عن الشبهة المختلَقة ضد القتال، فالأول يجعل الموت بإذن اللَّه أمراً لابد منه، والثاني يحول بين القتل في سبيل اللَّه والدعايات ضده أنه فوت، وكيف يُقدم العاقل على فناء حياته، قائلًا:

«بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون».

ليس فحسب أنهم «أحياءٌ» كما كانوا قبل استشهادهم، بل هم كانوا قبله في حياة

---

(١)). الدر المنثور ٢: ٩٦- ان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: ان الشهداء ثلاثة فأدنى الشهداء عند اللَّه منزلة رجل خرج منبوذاً بنفسه وماله لا يريد ان يَقتل ولا يُقتل اتاه سهم فأصابه فأول قطرة تقطر من دمه يغفر له تقدم من ذنبه ثم ...

وفيه (٩٨) اخرج البزاز والبيهقي والاصبهاني في ترغيبه عن انس بن مالك قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله الشهداء ثلاثة رجل خرج بنفسه وماله محتسباً في سبيل اللَّه لا يريد ان يُقتل ولا يَقتل يكثر سواد المؤمنين فان مات او قتل غفرت له ذنوبه كلها واجير من عذاب القبر وأومن من الفزع الاكبر وزُوج من الحور العين وحلت عليه حلة الكرامة ووضع على رأسه تاج الوقار والخلد، والثاني رجل خرج بنفسه وماله محتسباً يريد ان يَقتل ولا يُقتل فان مات او قُتل كانت ركبته مع ركبة ابراهيم خليل الرحمن بين يدي اللَّه في مقعد صدق عند مليكٍ مقتدر، والثالث رجل خرج بنفسه وماله ومحتسباً يريد ان يَقتل ويُقتل فان مات او قتل جاء يوم القيامة شاهراً سيفه واضعه على عاتقه والناس جاثون على الركب يقول: ألا افسحوا لنا مرتين فانا قد بذلنا دماءنا واموالنا للَّه، قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله والذي نفسي بيده لولا قال ذلك لابراهيم خليل الرحمن او لنبي من الانبياء لتنحى لهم عن الطريق لما يرى من واجب حقهم حتى يأتوا منابر من نور عن يمين العرش فيجلسون فينظرون كيف يقضي بين الناس لا يجدون غم الموت ولا يغتمون في البرزخ ولا تفزعهم الصيحة ولا يهمهم الحساب ولا الميزان ولا الصراط ينظرون كيف يقضي بين الناس ولا يسألون شيئاً إلا أعطوا ولا يشفعون في شيءٍ ألا شُفِّعوا ويعطَون من الجنة ما احبوا وينزلون من الجنة حيث احبوا.

وفي نور الثقلين ۱: ۴۰۹ في تفسير العياشي عن ابي جعفر عليهما السلام قال: أتى رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقال: إني راغب نشط في الجهاد قال: فجاهد في سبيل اللّه فإنك ان تقتل كنت حياً عند اللّه ترزق وان مت فقد وقع اجرك على اللّه وان رجعت خرجت من الذنوب الى اللّه، هذا تفسير «ولا تحسبنَّ ...»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج۷، ص: ۱۵۳

بعيدة عن حضرة الربوبية خليطة بكل شقاء، ثم الآن «عند ربهم» عندية الزلفى والكرامة المتميزة «يرزقون» رزقاً من عنده، فهي- إذاً- حياة عند ربهم يرزقون عند ربهم، بعد أن كانوا أحياءً بحياة بعيدة خليطة بموات وظلمات.

أترى «أحياءٌ» تعني- فقط- الحياة الآخرة؟ و «أمواتاً» تحلق على كل حلقات الموت بعد الشهادة، فلو كانوا أمواتاً في البرزخ بين الحياتين لصدق أنهم اموات؟ مهما أحيوا يوم القيامة، ثم لا تصدق «أحياءٌ» على الذين يُحيَون يوم الدين وهم أموات في البرزخ، وإنما صيغته الصالحة «بل يحيون يوم الدين» ثم الخطاب ليس لناكري الحياة يوم الدين مهما كانوا ضمنه في طليق الخطاب! فليس لناكري الحياة البرزخية من محيص ولا محيد عنها وجاه هذه الآية المصرحة بها في بنود عدة.

ذلك وبأحرى لا تعني «أحياءٌ» حياة الذكر ولا واقع لها ولا موقع إلّا الخيال، ثم إذا لا حياة في البرزخ فأين- إذاً- ذلك الخيال، اللّهم إلّا خيالًا هنا على خيال، فكيف- إذاً- «بل هم أحياءٌ عند ربهم يرزقون ...»! ثم وكيف هم «فرحين- يستبشرون ..» أما ذا من حالات مرضية بعد الموت؟.

ويا لها من حياة الزلفى المنقطعة النظير: حياة الشهداء في سبيل اللّه، أن يكونوا «عند ربهم يرزقون» كما المقربون والسابقون: «إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون». «۱»

ولا تعني عندية الرب مكاناً ولا زماناً، وانما هي مكانة ربانية قدر مساعليهم ودرجاتهم، من الزلفى والمعرفة بجنب اللّه.

ذلك ولأنهم انقطعوا عن النفس والنفيس إلى اللّه، فاصبحوا وهم ليسوا عند انفسهم ونفائسهم، فإنما هم عند ربهم حيث ضحوا في سبيل ربهم، فهم- إذاً- أحياءٌ عند ربهم، فالمتفاني في سبيل هو محسوب على ذلك السبيل، سبيل اللهو ولا سمح اللّه، أو سبيل اللّه رزقنا اللّه اياه.

---

(۱)). سورة الأعراف ۷: ۲۰۶

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج۷، ص: ۱۵۴

فالمستشهدون في سبيل اللّه- في صيغة سائغة لهم- هم خرجوا من عند انفسهم فعرجوا الى معراج «عند ربهم» فما لم يخرج السالك من عند نفسه لم يعرج الى «عند ربه» كما وكل تحلية بحاجة الى تخلية قبلها يناسبها، والمستشهد في سبيل اللّه يتخلى عن كلما يملكه في سبيل اللّه، فيتحلّى بالزلفى عند اللّه، فطوبى له وحسن مآب.

وكما العندية في حياتهم الدنيا ذات درجات، كذلك يفتها يوم البرزخ- وبأحرى الأخرى- ذات درجات «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى».

و «عند ربهم» هي رمزٌ لكل مواصلة ربانية عن كل مفاصلة، إذ انقطع الشهيد عن كل ما لديه الى اللّه، فلم يبق له ولا عنده إلا سبيل اللّه، فأصبح بنفسه سبيل اللّه:

فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ «۱»

«فرحين» حال لهم لمثلث الأحوال «أحياءٌ- عند ربهم- يرزقون» فرحين أحياءً، وفرحين عند ربهم، وفرحين يرزقون، أتراهم- بعدُ- أمواتاً عن تلك الحياة، والميت الفائت ليس يشعر حتى يفرح او يترح!.

و «ما آتاهم اللّه من فضله» هو أنهم «أحياءٌ عند ربهم يرزقون» ولا فضل أفضل منه أو يساويه أم يساميه، مهما كانت «عند ربهم» درجات حسب درجات الزلفى للنبيين والصديقين والشهداء والصالحين فإنهم كلهم- على درجاتهم- من «الذين أنعم اللّه عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقاً». «٢»

«ويستبشرون» هل تعني يبشرون؟ وصيغتها هي صيغتها؟ ثم لا دور- إذاً- للباء في «بالذين ..».

الإستبشار هو طلب السرور بالبشرى، وهو «بالذين لم يلحقوا بهم» يعني بسببهم

---

(١)). سورة آل عمران ٣: ١٧٠

(٢)). سورة النّساء ٤: ٦٩

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‌٧، ص: ١٥٥

ومصاحبتهم، فهم يطلبون البشرى في حياتهم البرزخية بسبب الذين لم يلحقوا بهم، طلباً لبشراهم انفسهم باستمرار القتال في سبيل اللّه، سواء في نومهم أو يقظتهم أو بما أخبر اللّه من حالهم وقالهم، فمثلث الإستبشار معنيٌّ ب «يستبشرون» كما و «يستبشرون» فيما بينهم.

ومادة البشرى هي «أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون» فهي بشراهم لأنفسهم، وهي بشراهم للذين لم يلحقوا بهم، و «هم» في «عليهم- ولا هم» يعمهم والذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، فقد يلمح ذلك الإستبشار أنهم مطلعون على أحوال الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، وأنهم يوصلون هذه البشارة إليهم في الرؤيا واليقظة أماهيه، وإنما «لا خوف عليهم» دون (لا يخافون) كما «لا يحزنون» حيث الخوف يعم نفسيَّه وخارجيَّه، والحزن يخص النفسي لما مضى.

و «الذين لم يلحقوا بهم» هم الذين يجاهدون على أشراف اللحوق بهم، لحقوا بهم بالشهادة أم بالموت، حيث الأصل هو قضاء النحب في سبيل اللّه شهادةً أو موتاً. «١»

«يستبشرون .. ألا خوف عليهم» أنفسهم وإياهم «ولا هم يحزنون» أنفسُهم هؤلآء، لا خوف مما يحصل ولا حزن مما حصل، حيث الحصيلة الأصلية من الحياة ككلٍّ حاصلة عندهم إذ «هم احياءٌ عند ربهم يرزقون» ويستبشرون ...- يستبشرون بنعمة من اللّه وفضل- الذين استجابوا ..- احسنوا- واتقوا- فزادهم إيماناً» وعلى ضوء هذه العشرة الكاملة «فانقلبوا ..» إنقلاباً عن كل ما سوى اللّه إلى اللّه حيث يعيشون مع اللّه عند اللّه لا سواه.

---

(١)). نور الثقلين ١: ٤٠٩ في روضة الكافي ابن محبوب عن الحارث بن النعمان عن بريد العجلي قال سألت ابا جعفر عليهما السلام عن قول اللّه عمن ذكره «يستبشرون ...» قال: هم واللّه شيعتنا حين صارت ارواحهم في الجنة واستقبلوا الكرامة من اللّه عز وجل واستيقنوا انهم كانوا على الحق وعلى دين اللّه عز ذكره فاستبشروا بمن لم يلحق بهم من اخوانهم من خلفهم من المؤمنين ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‌٧، ص: ١٥٦

إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ «١»

أولياء الشيطان هم الذين يتولونه على دركاتهم في ولايته ومنها الخوف على النفس والنفيس في سبيل اللَّه، فالخائفون غيرَ اللَّه في سبيل اللَّه هم من أولياء الشيطان، والخائفون اللَّه هم من أولياء الرحمن، ف «من عرف اللَّه خاف اللَّه ومن خاف اللَّه سخت نفسه عن الدنيا» «٢» و «من خاف اللَّه أخاف اللَّه منه كلَّ شيءٍ ومن لم يخفف اللَّه أخافه اللَّه من كل شيءٍ» «٣»

«فلا تخافوهم» أترى «هم» هنا أولياء الشيطان الذين خوّفوهم في سبيل اللَّه؟ ولم يكن الخوف من هؤلآء، بل هو من الناس الذين جمعوا لكم وهم المشركون!.

«هم» هنا هم الناس الذين جمعوا لكم، والذين يخافونهم من ضعفاء المؤمنين هم من أولياء الشيطان حيث يخوفهم «فلا تخافوهم» كما خافهم أولياء الشيطان «وخافون إن كنتم مؤمنين» باللَّه.

المقتولون في سبيل اللَّه أحياءٌ بحياة خاصة عند ربهم

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ «٤»

الصبر كاستقامة سلبية حفاظاً على كيان الإيمان هو الناحية السلبية من كلمة التوحيد، كما الصلاة قوامةٌ إيجابية- تَداوُمَ التكامل لحاصل الإيمان- هو الناحية الإيجابية لكلمة التوحيد، فالصبر ككلٍّ يعني الشطر الأوّل لهذه الكلمة، والصلاة ككل

---

(١)). سورة آل عمران ٣: ١٧٥

(٢)). نور الثقلين ١: ٢١٣ في اصول الكافي باسناده الى حمزة قال قال ابو عبد اللَّه عليه السلام ..

(٣)). المصدر عن المصدر باسناده الى الهيثم بن واقد قال سمعت ابا عبد اللَّه عليه السلام يقول: ..

(٤)). سورة البقرة ٢: ١٥٣

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٥٧

للشطر الثاني، و «إن اللَّه مع الصابرين» تأكيد للمرحلة الأولى فإنها أهم من الثانية، وهذه المعية الربانية للصابرين كافلة لصالح المرحلتين.

هنا تُرجَّح ميزانية الصبر حيث المسرح يستقبل حكم الجهاد بملاقات الأهوال ومقارعة الأبطال فالإهتمام بالصبر فيه أهم، وهناك في أخرى «وإنها لكبيرة إلّا على الخاشعين». «١» ترجّح ميزانية الصلاة لأنها كأصل وضابطة خير موضوع وهي عمود الدين، ونظراً إلى احتمال ثان «إنها» تعني الإستعانة بكلا الصبر والصلاة، فهما- إذاً- رِدف بعض ولِصق بعض في حظيرة الإيمان، مهما اختلف مجالاته في تأثير أهم لأحدهما صبراً أو صلاةً، وقد فصلنا القول فيهما على ضوء آية الخاشعين، وأن من الصبر ممدوح مأمور به، ومنه مقبوح منهي عنه كالصبر على الظلم والضيم.

والإستعانة بالصبر والصلاة في كل المجالات لها دور عظيم عميم لإدارة الشؤون الحيوية الإيمانية، فردية وجماعية في كل الحقول، ولا سيما في حقل الجهاد، فانه للمسلمين حياد ومهاد وسداد، فعلى الأنفس المؤمنة أن تكون مشدودة الأعصاب، شديدة الإعتصاب، مجندة القوى، يقظة للمداخل والمخارج، وللداخل والدخيل والخارج، والزاد الأوّل في كل ذلك هو الصبر، صبراً عن المعاصي وعلى الطاعات، وعلى جهاد المشتاقين اللَّه، والكائدين بشرعة اللَّه، وصبراً على بُطء النصر، وعلى بُعد الشُّقة، وعلى كل مشقة في هذه السبيل الشاقة الطويلة، وعلى انتقاش الباطل وقلة الناصر، وعلى التواء النفوس وضلال القلوب وثقلة العناد ومضاضة الأغراض، ومن «استقبل البلايا

بالرحب وصبر على سكينة ووقار فهو من الخاص ونصيبه ما قال الله عز وجل: «ان الله مع الصابرين». «٢» وحين يقلُّ الصبر أو يكلُّ فالصلاة، وإنها المعين الذي لا ينصب، والزاد الذي لا ينفد، تُجدِّد الطاقة الكليلة، وتُزوِّد القلوب العليلة،

---

(١)). سورة الأعراف ٧: ٤٥

(٢)). نور الثقلين ١: ١٤١ عن مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام: .. وفيه عن تفسير العياشي عن الفضيل عن ابي جعفر عليهما السلام قال: يا فضيل! بلغ من لقيت من موالينا عنا السلام وقل لهم إني اقول: إني لا أغني عنكم من الله شيئاً إلا بورع فاحفظوا ألسنتكم وكفوا ايديكم عليكم بالصبر والصلاة ان الله مع الصابرين

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٥٨

فيمتد- إذاً- حبلُ الصبر دونما انقطاع، ف «استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين»، ومن الصبر في المقال بعد الصبر في الحال والفعال:

وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَاتَشْعُرُونَ «١»

هذه من الآيات الدالات على الحياة البرزخية، تختص هنا بمن يقتل في سبيل الله لمناسبة المسرح والموقف، ف «أموات» هنا يعني موت الفوت الذي ليس فيه ولا بعده حياة، فهو الموت المطلق، لا مطلق الموت الذي تصاحبه حياة تعينها «بل أحياء» فهم أحياء بعد موتهم «ولكن لا تشعرون» حسيّاً أنهم أحياء، فاشعروا معرفياً بما يعرِّفكم الله أنهم «أحياء».

وإنها ليست- فقط- حياة الذكر بعد الموت، فما هي الفائدة للميت دون حياة أن تكون له حياة الذكر وهو لا يشعرها، ثم الثانية النظيرة لها، الشارحة لحياتها أكثر منها «عند ربهم يرزقون. فرحين .. ويستبشرون ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون». «٢» تصريحات لا حِوَلَ عنها لواقع الحياة بعد الموت دون حياة التخيُّلات.

إنهم يعيشون بعد موتهم «في الجنة على صور أبدانهم» «٣» «في قالب كقالبه في الدنيا فيأكلون ويشربون فإذا قدم عليهم القادم عرفوه بتلك الصورة التي كانت في الدنيا» «٤»، وفي صيغة ثالثة «إن الأرواح في صفة الأجساد» «٥»

---

(١)). سورة البقرة ٢: ١٥٤

(٢)). سورة آل عمران ٣: ١٩٦

(٣)). المصدر في المجمع عن ابي بصير قال: سألت ابا عبد الله عليه السلام عن ارواح المؤمنين؟ فقال: في الجنة على صور ابدانهم لو رأيته لقلت فلان

(٤)). المصدر عن المجمع عن يونس بن ظبيان قال كنت ابي عبد الله عليه السلام جالساً فقال: ما يقول الناس في ارواح المؤمنين؟ قلت: يقولون: في حواصل طير خضر في قناديل تحت العرش، فقال ابو عبد الله عليه السلام: سبحان الله! المؤمن أكرم على الله من ان يجعل روحه في حوصلة طائر أخضر، يا يونس! المؤمن اذا قبضة الله تعالى صير روحه في قالب كقالبة في الدنيا فيأكلون ...»

(٥)). في الكافي عن الصادق عليه السلام: ... في شجر من الجنة تعارَفُ وتساءَلُ فاذا قدمت الروح على الارواح تقول دعوها فانها قد اقفلت من هول عظيم ثم يسألونها ما فعل فلان وما فعل فلان، فان قالت لهم: تركته حياً ارتجوه، وان قالت لهم: قد هلك قالوا: قد هوى هوى

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٥٩

وما أقبحها فرية على رسول الهدى صلى الله عليه و آله أنهم «في صورة طير بيض تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش». «١»

فلو أنها- فقط- حياة الذكر، فكيف «لا يشعرون؟» وحتى الماديين الناكرين للحشر يمشون وراءَ حياة الذكر، رغم أنها لهم خيال على خيال، فان حياة الذكر إنما يشعرها ويعمل على تحصيلها من له حياة بعد الموت حتى يلتذ بحياة الذكر فيها.

وإن حب حياة الذكر- الفطري- هي من الأدلة الفطرية على استمرارية الحياة بعد الموت، وهو من الحجج الدامغة على ناكري الحياة بعد الموت، إذاً لو لم تكن بعد الموت حياة، فأي دافع لمن يُبطل حياته لبقاء آخرين، وأن يُحرم نفسه لذَّاتها ليتمتع آخرون، حيث العاقل- أيّاً كان- لا يعطي إلا استعطاءً بديلَ ما يعطي، إما هنا أم في الحياة الأخرى، وليست حياة الذكر لها دور إلّا لمن يحيى بعد موته حتى يشعر تلك الحياة، وإذ لا حياة فلا شعور للذكر حتى يجهد في تحصيله!.

وقيلة القائل: إن الخطاب في «لا تقولوا» موجّه الى المؤمنين الذين يعتقدون في الحياة بعد الموت كأصل ثالث من الدين، فكيف ينهاهم عن قالتهم هذه وهم مؤمنون؟

فلتكن «بل أحياءٌ» حياة الذكر!.

إنها مردودة عليهم، بان الحياة البرزخية لم تكن باهرة لهم كحياة القيامة، وهذه هي الثالثة من أصول الدين، وأما البرزخية التي يَشك فيها حتى الآن جماعة من المسلمين- ومنهم قائل هذه القيلة- فلم تكن بذلك الظهور، فلتذكر لهم بمثل هذه الذكريات التي تحملها الآيات البرزخية الباهضة، الناهضة لما فوق العشرين!.

ثم وحياة الذكر أيضاً- إضافة إلى أنها لائحة حتى للماديين- هي كذلك تتطلب حياةً بعد الموت تُدرك فيها كلذَّة من ملاذها! وإذا تُدرك إذ لا حياةَ بين الدنيا والآخرة فكيف يرغِّب القرآنُ المؤمنينَ إلى حياة تخيلية لا واقع لها؟!.

---

(١)). الدر المنثور ١: ١٥٥ قال صلى الله عليه و آله في صورة ...، وفيه عن كعب بن مالك ان رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: ان ارواح الشهداء في اجواف طير خضر تعلق من ثمر الجنة او شجر الجنة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٦٠

فالقول إن «بل هم أحياءٌ» قد تعني الحياة الأخرى، يرده أن الإعتقاد فيها هو من اوّليات العقائد الإسلامية التي ابتدأ الإسلام بها، ثم العبارة الصالحة لخصوصها «بل هم يحيون» دون «أحياء» الدالة على استمرارية الحياة دون فوت، فلنستعن باللّه صبراً- فيما نستعين- بالصبر على أمثال هذه الأقاويل، والرد عليها بنصوص من القرآن كهذه وأضرابها.

وهنا احتمالات أخرى لا تحتملها هذه الآية وأضرابها الصريحة في الحياة البرزخية ... «١» وترى الآية- بعدُ- مختصة بحياة الشهداء، نافية لحياة غيرهم من السعداء والأشقياء؟ كلّا! فان هذه الحياة الخاصة رزقاً عند ربهم، هي للنبيين أخص، وليسوا كلهم ولا جُلُّهم من الشهداء، كما وفي غيرهم من هو أفضل من بعض الشهداء، فلماذا تختص هذه الكرامة- فقط- بالشهداء! ثم وإثبات الحياة الرزخية للشهداء، فليس لينفيها عن غير الشهداء، لا سيما وأن المجال هنا مجال الترغيب للقتال في سبيل اللّه، وجبر خواطر أهليهم أن افتقدوهم، فلكل مجالٍ قالٌ، كما لكل قالٍ مجالٌ.

ومن ثم فعشرات من الآيات الدالة على الحياة البرزخية لكافة المكلفين، مؤمنين وكافرين، إنها تدلنا دلالة قاطعة لا محيد عنها على شمولية الحياة البرزخية دونما استثناء! وسوف نوافيكم بقول فصل حول الحياة البرزخية على أضواءها في محالها حسب دلالاتها وأدلتها.

ثم وفي رجعة ثانية الى الآية «ولا تقولوا» نهي عن قولة الممات للشهداء، وطبعاً في حقل «مات وفات» ثم لا حياة ما مات أبداً، ولا يقوله مسلم، أم لا حياة في البرزخ بين حياتي الأولى والأخرى كما كان يظنه المسلمون فيمن سواهم ولما يبين لهم برزخ الحياة، فهذا من البيان: «لا تقولوا- هم- أموات» «بل» قولوا «أحياءٌ» وان لم

---

(١)). كالقول انها حياة الهدى، الظاهرة في الأخرى، ام استمرارية الحياة الدنيا بنفس هذا البدن امحياة روحانية مخمصة دون اي جسم، ام حياة ارواحهم في اجساد اخرى غير اجسادهم، امّا ذامت تقولات زور لا مسند لها إلا تطفلات!.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٦١

تشعروا تلك الحياة، وقد يشعركم إياها حالة النوم: «اللّه يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ..». «١» «هو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ..». «٢»

إنهم قُتلوا في ظاهر الجسد الدنيوي، وما يشعركم أنهم- كذلك- قتلوا الروح وفي جسد آخر هما غير محسوسان، فحين يخبرنا ربنا «بل أحياءٌ» نصدقه كما نصدق الحياة المحسوسة وأحرى، حيث الوحي أحرى بالتصديق من الحس وأقوى.

أجل! «أحياء» أحيا من قسم كثير من الأحياء في البرزخ، ولذالك لا يغسلون كما يغسل الموتى، ويكفَّنون في ثيابهم التي استشهدوا فيها، فالغسل تطهير للجسد الميت وهم لا يُحكم عليهم- بقتلهم- حكم الميت، فثيابهم بعد قتلهم هي ثيابهم قبله! رمزاً الى حياة لهم قوية فائقة.

وقد وردت في شأن الشهداء آيات وروايات، يقرنون بالنبيين والصديقين قبل الصالحين: «ومن يطع اللّه والرسول فأولئك مع ... النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً». «٣» ومن الشهداء هم القتلى في سبيل اللّه، لا سواه.

وفي حديث الرسول صلى الله عليه و آله: «ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيءٍ إلا الشهيد ويتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة».

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ «٤»

في «لنبلونكم» تأكيدات ثلاث في تحقيق ذلك البلاء، ثالثتها جمعية الصفات الربانية المستفادة من صيغة المتكلم مع الغير، فلابد في مَسرح الإيمان من مَصرع

---

(١)). سورة الزمّر ٣٩: ٤٢

(٢)). سورة الأنعام ٦: ٦٠

(٣)). سورة النّساء ٤: ٦٩

(٤)). سورة البقرة ٢: ١٥٥

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٦٢

البلاء بشتى الألوان، نفسياً: «من الخوف» وبدنياً: «والجوع» ومالياً: «ونقص من الأموال» ونفسياً لكم ومَن هو مثلكم: «والأنفس» وكضابطة تشمل كل نفس ونفيس من غال ورخيص: «والثمرات».

ف «الثمرات» تعم ثمرات العقول والعلوم والقلوب، ومن الثالثة الأولاد الصالحون الذين هم من أغلى ثمرات الحياة، مهما شملت ثمرات الزرع والضرع، حيث الثمرات النفسية أنفَسُ وأغلى من ثمرات الجسم.

«وبشر الصابرين» على هذه البلايا المحلِّقة على المؤمنين فيما لَهم من حَيَويات روحية ومادية: «الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فلَيَعلمنَّ اللَّه الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين». «١»

أجل و «إن اللَّه يبتلي عباده عند الأعمال السيئةَ بنقص الثمرات وحبس البركات وإغلاق خزائن الخيرات ليتوب تائب ويتذكر متذكر» «٢»، ثم و «كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون». «٣» كما يبتليهم وهم صالحون، مخلِصون ومخلَصون: «وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات». «۴»

---

(١)). سورة العنكبوت ٢٩: ١- ٣

(٢)). عن نهج البلاغة عن الامام امير المؤمنين علي عليه السلام

(٣)). سورة الأعراف ٧: ١۶٣

(۴)). سورة البقرة ٢: ١٢۴

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‌٧، ص: ١۶٣

لن يصيبنا الا ما كتب لنا قاتلين او مقتولين

إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَهُمْ فَرِحُونَ «١»

«إن تصبك حسنة» في حرب وسواها، من غلبة وغنيمة وسواهما «تسؤهم» ثم «وإن تصبك» رمية «مصيبة» على أية حال «يقولوا قد أخذنا أمرنا» لصالحنا حيث قعدنا عن الحرب «من قبل» ثم «ويتولوا» عن جنابكم إلى نواديهم «وهم فرحون» «٢» رغم أن المؤمنين هم قَرِحون!.

ذلك بأنهم «يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون» حاسبين السيئة شراً في كل حال، والحسنة خيراً بأي مجال، رغم أن الحياة سجال بين مختلف الفتن، تمحيصاً للمؤمنين، وتقليصاً للكافرين، وهنا الجواب كلمة واحدة هي:

قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ «٣»

فحيث نمشي ونمضي بأمر اللَّه إلى جبهات القتال، إذاً ف «لن يصيبنا إلَّا ما كتب اللَّه لنا» قتلًا لأجل مسمىً فلا ضير، بل هو خير في سبيل اللَّه، أم لأجل معلق على القتال فكذلك الأمر، حيث علِّق على تحقيق أمر اللَّه، فهو مجتمع أمريه تكويناً وتشريعاً كما الأول، مهما اختلف محتوم عن معلق حيث هما بأمر اللَّه و «هو مولانا» لا سواه «وعلى اللَّه» لا سواه «فليتوكل المؤمنون» باللَّه، دون توكلّ في أيِّ من الأمور على سواه.

---

(١)). سورة التّوبة ٩: ٥٠

(٢)). الدر المنثور ٣: ٢٤٨ أخرج ابن أبي حاتم عن جابر عبد اللَّه قال: جعل المنافقون الذين تخلفوابالمدينة يخبرون عن النبي صلى الله عليه و آله أخباء السوء يقولون: إن محمداً وأصحابه قد جهدوا في سفرهم وهلكوا فبلغتهم تكذيب حديثهم وعافية النبي صلى الله عليه و آله وأصحابه فساءهم ذلك فأنزل اللَّه تعالى: أن تصبك ..»

(٣)). سورة التّوبة ٩: ٥١

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٦٤

وهنا «ما كتب لنا» يعم إصابة الحسنة والسيئة، وهما لنا حسنة حيث كتب اللَّه لنا، فما كتب اللَّه للمؤمن هو خير له أيّاً كان، وما يكتبه غيره مفارقاً شرعة اللَّه هو شر أيّاً كان، فهو- إذاً- مما كتب اللَّه عليه كما هو كتبه على نفسه، ف «لنا» صالحة تختص بالصالحين و «علينا» طالحة لسائر الناس الطالحين «وأن ليس للإنسان إلّا ما سعى».

فالمؤمنون منصورون هازمين ومنهزمين، قاتلين ومقتولين ف «إن اللَّه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل اللَّه فيَقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم». «١»

ذلك، فلا تعني «ما كتب اللَّه لنا» أن كل المحاصيل بسوء الإختيار إلى حسنه هي مما «كتب اللَّه لنا» طالما الكتابة الربانية تحلِّق عليها كلها، إذ «ما كان لنفس أن تموت إلّا بإذن اللَّه كتاباً مؤجلًا». «٢» فأين كتابه من كتابة؟.

هنا كتابة حسنة أو سيئة ونحن في سبيل اللَّه وتحقيق أمر اللَّه، فهي خير لنا تكويناً إلى تشريع وتشريعاً إلى تكوين، وهناك كتابة حسنة أو سيئة وهم في سبيل الطاغوت فهي شرٌ لهم في تكوين، وشر لهم في تشريع، حيث خالفوا فيها شرعة اللَّه فهو مما كتب اللَّه عليهم، وهنا يبرز ناصع الحق وناصحه من قول الرسول صلى الله عليه و آله: «قال لكل شيءٍ حقيقة وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه» «٣»

إذاً فنحن السالكون إلى اللَّه، المجاهدون في سبيل اللَّه، نعيش إحدى الحسنيين، وأنتم السالكون إلى الطاغوت المجاهدون في سبيله تعيشون إحدى السؤتين:

قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ

---

(١)). سورة التّوبة ٩: ١١١

(٢)). سورة آل عمران ٣: ١٤٥

(٣)). الدر المنثور ٣: ٢٤٩- أخرج أحمد عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه و آله قال: ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٦٥

بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ «١»

إعلام عام هام في هذه الإذاعة القرآنية من قبل المؤمنين بهذه الرسالة السامية قبال الذين لا يؤمنون، من ملحدين أو مشركين أو كتابيين أو منافقين من المسلمين، وكل الذين في قلوبهم مرض وليست حياتهم الجهاد في سبيل اللَّه، وهم متربصون بالسالكين إلى اللَّه، المجاهدين في سبيل اللَّه، أن تصيبهم مصيبة سيئة في هذه السبيل.

وقد «تكفل اللّه لمن جاهد في سبيله لا يخرجه من بيته إلا الجهاد في سبيله وتصديق كلمته أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر وغنيمة» «٢»

«وكذلك والمرء المسلم البريء من الخيانة ينتظر إحدى الحسنيين، إما داعي اللّه فما عند اللّه خير، وإما رزق اللّه فإذا هو ذو أهل ومال ومعه دينه وحسبه» «٣»

وهكذا يؤدينا رسول اللّه صلى الله عليه و آله على ضوء كتاب اللّه، تكريساً محيصاً لحياتنا في الحصول على «إحدى الحسنيين». «۴»

لقد تكرر ذكر الحسنى في القرآن ثمانية عشر مرة، المناسبة منها لما هنا تعني الحياة الحسنى، وهي الطليقة دون اختصاص بجانب منها تحلِّق على كافة الحيويات

---

(١)). سورة التّوبة ٩: ٥٢

(٢)). نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام

(٣)). تفسير روح المعاني ١٠: ١١۶ وصح من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و آله قال: تكفل اللّه ..

(۴)). المصدر أخرج الحاكم وصححه وضعفه الذهبي من طريق سعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة عن أبيه عن جده: بينما النبي صلى الله عليه و آله بالروحاء إذ هبط عليه أعرابي من سرب فقال مَن القوم وأين تريدون؟ قال: قوم بدوا مع النبي صلى الله عليه و آله، قال: مالي أراكم بذّة هيئتكم قليلًا سلاحكم؟ قال: ننتظر إحدى الحسنيين أما أن نُقتل فالجنة وإما أن نغلب فيجمعهما اللّه تعالى لنا، الظفر والجنة، قال: أين نبيكم؟ قالواها هوذا، فقال له يا نبي اللّه ليست لي مصلحة آخذ مصلحتي ثم ألحق، قال: اذهب إلى أهلك فخذ مصلحتك فخرج رسول اللّه صلى الله عليه و آله يوم بدر وخرج الرجل إلى أهله حتى فرغ من حاجته ثم لحق ببدر فدخل في الصف معهم. فاقتتل الناس فكان فيمن استشهد فقام رسول اللّه صلى الله عليه و آله بعد أن انتصر فمر بين ظهراني الشهداء ومعه عمر فقال: ها يا عمر انك تحب الحديث وان للشهداء سادة وأشرافاً وملوكاً وان هذا يا عمر منهم»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١۶۶

الحسنى ف «للذين استجابوا لربهم الحسنى». «١» «وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاءً الحسنى». «٢» «فأما من أعطى واتقى. وصدق بالحسنى، فنيسره لليسرى». «٣» وإلى «إحدى الحسنيين» إنشقاقاً للحسنى إلى اثنتين، إنما هي الحسنى هنا، فإما نَقتل في سبيل اللّه أم نُقتَل: ف «إن اللّه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل اللّه فيَقتلون ويُقتَلون وعداً عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم». «۴»

فالحسنيان بالنسبة لآحاد المجاهدين في سبيل اللّه أن يَقتلوا أو يُقتلوا، وهما نسبة إلى المجموعة المجاهدة غالبين ومغلوبين، فحين يؤدي المجاهدون في سبيل اللّه واجبهم كان انهزامهم كهزيمتهم عن عدوِّهم على سواءٍ.

فسواء أصابتهم سيئة أم أصابتهم حسنة في حرب وسواها، فما داموا هم هنا وهناك في سبيل اللّه فهم يعيشون إحدى الحسنيين إذ «لن يصيبنا إلا ما كتب اللّه لنا» من حياة أو ممات، من هزيمة أو انهزامة، ومن مختلف ملابسات الحياة.

ذلك وقد يُجمع بين الحسنيين فرادى وجماعات، فالمناضل الذي يَقتل ثم يُقتل، والجيش الذي يَهزم ويُهزم، أما ذا من جمع بين الحياتين الإيمانيتين، هؤلآء هم من مجامع الحسنيين.

فرغم أن أعداءَنا يتربصون بنا كل دوائر السوء غالبين ومغلوبين، هنا يعبر عنهما ب «الحسنيين» فإما إحداهما أم كلاهما، فلا نعيش نحن إلّا حياة سعيدة على أية حال ما دمنا نعيش مرضات اللّٰه تحقيقاً لشرعته في حياتنا وكل حيوياتنا، مهما أنكر ناكرون، حيث الواقع لنا «إحدى الحسنيين» مهما كان متربَّص العدو إصابتنا بقتل أو شبهه وهي الوحيدة دون أية حسنى فضلًا عن إحدى الحسنيين.

---

(١)

). سورة الرّعد ١٣: ١٨

(٢)). سورة الكهف ١٨: ٨٨

(٣)). سورة التّوبة ٩: ٦

(٤)). سورة التّوبة ٩: ١١١

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٦٧

فذلك الإعلان مما يرتعش به العدو حيث يعرف- مهما كان ناكراً في نفسه- أننا صامدون في خط النار، غير راجعين إلّا بإحدى الحسنيين، فحين يعرف العدو مدى صمودنا يحسب حسابه أمامنا فيهدر وينحدر من علواءه وغلواءِه إلى واقع حضيضه، فيفقد حظه في جبهة القتال.

ذلك في ضَفَّة الإيمان على مدار حياة الإيمان، وأما حياة الكفر ف: «نحن نتربص بكم أن يصيبكم اللّٰه بعذاب من عنده» هنا، وبعد الموت في البرزخ والأخرى «أو بأيدينا» أن تُقتلوا أو تُغلبوا، فنحن- إذاً- منتصرون غالبين ومغلوبين، وأنتم معذبون غالبين ومغلوبين «فتربصوا» بنا إحدى الحسنيين «إنا معكم متربصون» بكم إحدى السوءتين.

قتال قبال قتال دون اعتداء

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللّٰهَ لَايُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ «١»

«وقاتلوا» أمر بالدفاع عن أنفس المسلمين قتالًا «في سبيل اللّٰه» دون سائر السبيل وقد سئل النبي صلى الله عليه و آله عمن يقاتل في سبيل اللّٰه فقال: هو من قاتل لتكون كلمة اللّٰه هي العليا ولا يقاتل رياءً ولا سمعة». «٢»

أجل إنه فقط قتال في سبيل اللّٰه دون سائر السبل التي عرفتها البشرية في حروبها الطويلة دونما أصل إلا قضية الأمجاد والإستعلاء في الأرض، ولا في سبيل المغانم وسائر المكاسب السياسية أمّاهيه، ولا في سبيل تسويد طبقة على أخرى او جنس على آخر، إنما هو «في سبيل اللّٰه» لا سواه، لتكون كلمة اللّٰه هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

ولم يكن الدفاع الدموي مسموحاً فيه العهد المكي لظروف مضت واقتضت الحالة

---

(١)). سورة البقرة ٢: ١٩٠

(٢)). تفسير الرازي ٥: ١٢٧ روى ابو موسى ان النبي صلى الله عليه و آله سئل ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٦٨

السبيلة أمام الهجمات الكافرة، وهنا وبعد الإذن في القتال «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ...». «١» يؤمر المسلمون بقتال من يقاتلهم دون اعتداءٍ وهو قتال من لا يقاتلهم من سائر الكفار، والأهلين من مقاتليهم، وهكذا كان يأمر الرسول صلى الله عليه و آله «فيقول انطلقوا باسم اللّه تقاتلون اعداءَ اللّه لا تقتلوا شيخاً فانياً ولا طفلًا صغيراً ولا امرأة ولا تغلوا». «٢»

ومن الإعتداء ملاحقة المدبِر عن المعركة، أو مقاتلة من ألقى إليكم السَّلَم أمّن ذا من هؤلآء الذين ليسوا في حالة القتال مهما كانوا مقاتلين قبل هنيئة وقد تكون هذه الآية أولى ما نزلت بشأن الأمر بالقتال مهما كانت آية الحج أولاها بشأن الإذن لها:

فلما نزلت كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله يقاتل من قاتل ويكف عن قتال من تركه وبقي على هذه الحالة إلى ان انزل اللّه «اقتلوا المشركين». «٣» ومن الإعتداد مقاتلة غير المقاتل البدائي، إذ كان محرماً في البداية ثم سمح فيها «حتى لا تكون فتنة ويكون الدين للّه».

«ان اللّه لا يحب المعتدين» في كل الحقول، و «لا يحب» من اللّه هي عبارة أخرى عن يبغض إذ لا يصح في ساحته سلب الحب والبغض لكائن هو كوّنه، اللّهم إلّا جهلًا بحاله وسبحانه عن أن يجهل، فهو يحب من أطاعه ويبغض من عصاه ولا عوان بينهما غير محبوب له ولا مبغوض، إذ لا يخلو إنسان عن حالة طاعة او عصيان.

وترى القتال خاصة بمن يقاتلنا؟ «والفتنة اكبر من القتل». «٤» و «الذين يسعون في الأرض فساداً» هم أخطر من المقاتلين، أمّن ذا ممن يجوز أو يجب قتالهم.

قد يعني «وقاتلوا» هنا المرحلة الثانية في شأن القتال فإنها كأمثالها من أحكام

---

(١)). سورة الحج ٢٢: ٣٩

(٢)). الدر المنثور ١: ٢٠٥- أخرج ابن ابي شيبة عن انس قال كنا اذا استنفرنا نزلنا بظهر المدينة حتى يخرج الينا رسول اللّه صلى الله عليه و آله فيقول: ..

(٣)). تفسير الفخر الرازي ٥: ١٢٧ قال الربيع وابن زيد هذه الآية أول آية نزلت في القتال فلما نزلت ..

(٤)). سورة آل عمران ٣: ٢١٧

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٦٩

مرحلية، فقد أذن في القتال بداية العهد المدني، ثم أمر بها هنا دفاعياً في خصوص الذين يقاتلونكم دون اعتداء، ثم سمح أو أمر بقتال المفتتين والساعين في الأرض فساداً شخصياً وجماهيرياً، ثم الدفاع الهجومي حفاظاً على المستضعفين المظلومين المضلَّلين «وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل اللّه او أدفعوا». «١»- «فقاتلوا أولياء الشيطان». «٢» «فقاتلوا ائمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون». «٣»

ثم يحلِّق القتال على كل الحقول الكافرة وربوعها: «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين للّه». «٤» «... ويكون الدين كله للّه». «٥» اعلاناً صارخاً بتداوم القتال حتى لا تكون فتنة سلباً لها ككل من كل المفتتين: «ويكون الدين كله اللّه» تحليقاً لطاعة اللّه على كل الربوع باستقرار حاكمية اسلامية سامية عالمية حيث ننتظرها في الأيام الأخيرة في الدولة المهدوية المظفرة.

لذلك فقد تكون هذه الآيات متفاصلة النزول فترةً بعد أخرى حتى تصدق المرحلية الباهرة منها، ونحن نعيش بعد الأخيرة منها المرحلية الأخيرة «حتى لا تكون فتنة» إذاً فحياتنا نحن المسلمين أجمع هي حياة القتال سلباً لأية فتنة وايجاباً لدولة الحق العالمية حتى يأتي دورها بمواصلة المجاهدات الجادّة من مجاهدين مسلمين في كل المعمورة.

فالجهاد في سبيل الله سلبياً لإزالة النكبات والعقبات، وايجابياً لإقامة دولة الحق، ذلك هو حياة المسلم على طول الخط، في مختلف الحقول الحيوية الإنسانية والإسلامية السامية، علمياً وعقيدياً وأخلاقياً وسياسياً واقتصادياً وحربياً، بحرب حارة أم باردة.

---

(١)
). سورة آل عمران ٣: ١٦٧
(٢)). سورة النّساء ٤: ٧٦
(٣)). سورة التّوبة ٩: ١٢
(٤)). سورة آل عمران ٣: ١٩٣
(٥)). سورة الأنفال ٨: ٣٩

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٧٠

ففرض المقاتلة «حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله الله» يحلِّق على كل العصور الإسلامية، مهما كانت زمن الغيبة هي تعبيد الطريق وتوطئَة لإجتثاث الفتن العالمية عن بكرتها.

فسياسة الخطوة بعد الخطوة، سائرة دائرة في الحفاظ على أنفس المسلمين، ابتداءً من الحياد عن جوِّ الإيذاء، ثم الصبر دون دفاع، ثم دفاع قدر المقدور عن أنفسهم المهاجَم عليها، ثم الدفاع عن نفوس آخرين مستضعفين، ثم الدفاع عن ناموس الحق أمام من لا يدينون دين الحق مهما لم يهاجموا هم أنفسهم عقيدياً ولا نفسياً، حملًا لهم على سماع الحق فإما تسليماً لما تسلَّموه أم إخماداً لنائرتهم.

وكلٌّ يقدَّر بقدر المستطاع، دون النزوع الى ما لا يطاق، وإلى أن يتسلم الإمرة الشاملة- على العالم كله- ولي الأمر كله عجل الله تعالى له الفرج وسهل له المخرج.

ولماذا كان الكف عن الدفاع في العهد المكي واجباً لزاماً؟ والدفاع- على أية حال- حق ذاتي لكل مَن يهاجم؟.

قد يكون من أسبابه تطوع نفوس المؤمنين الأُوَل- وهم قواعد بناية الإسلام- للتصبُّر، خضوعاً لقيادة موحِّدة، وهم شديدوا الحماسة لا يتصبرون على الظلم والضيم، وذلك الصبر يمرِّن على الطوع رغم النزعات الشديدة والهياجات المدبَّرة في أية حركة مضادة عليهم، صبراً بما أمروا «كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة».

ثم البيئة العربية كانت- ولا تزال- بيئة نخوة ونجدة، إذاً فصبر المسلمين على الأذى وفيهم من يملك الصاع صاعين واصواعاً، ذلك كان مما يثير نخوة الآخرين وتحريك قلوبهم نحو الإسلام بهكذا مسلمين، وقد حدث بالفعل في اضطهاد الشعب عند ما اجمعت قريش على مقاطعة بني هاشم فيه لكي يتخلوا عن حماية الرسول صلى الله عليه و آله، فلما تفاقم أمر الإشتداد في الإضطهاد ثارت نفوس من قريش نجدة ونخوة، فمزقت صحيفة المعاهدة الملعونة ضد الرسول صلى الله عليه و آله وانتهى الحصار، كخلفية صالحة لذلك الحياد عن الدفاع في تلك الفترة.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٧١

ومن ثم لم يكن من الصالح سياسياً اسلامياً للقيادة العليا الرسالية إثارة حروب دموية داخل البيوت، إذ كان المسلمون في العهد المكي فروعاً قليلة من غزيرة البيوت، ولم تكن هناك سلطة موحدة تتولى الإيذاء العام، فلو أذن للمسلمين بالدفاع لكان معناه الإذن في اقامة

المعارك المتواصلة في حل البيوت، مما كان يجعل الإسلام في نظر المشتركين دعوةَ تفتيت للبيوت، فأما بعد الهجرة وقد انعزلت الكتلة المؤمنة كوحدة مستقلة وحيدة غير وهيدة فقد تغيّرت الحال فتحولت إلى سماح القتال.

كل ذلك إضافة الى أن مسلمي مكة- وهم شذر نزر- ما كانوا يستطيعون البُقيعة على أنفسهم ونفائسهم، فضلًا عن الدفاع الدموي، الذي ما كان يخلِّف إلا إستئصالًا للكتلة المؤمنة عن بكرتها وهي في بزوغها ولما تقوى.

لهذه وأشباهها كان العهد المكي عهد الإستسلام حتى يأتي امر اللّه وقد أتى ابتداءً بالإذن في القتال، وانتهاء إلى حرب دائبة «حتى لا تكون فتنة ويكون الدين للّه» وطبعاً بعد إلقاء الحجة الساطعة والبيان، والتأكيد من عناد الكفار وصمودهم على إثارة الفتن.

وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ «١»

«هم» المكرورة هنا راجعة إلى المقاتلين من الكفار وليسوا هم جميعاً، فالحرب حتى الآن هي الدفاعية المحضة دونما أية هجمة إبتدائية.

و «ثقفتموهم» لا تعني فقط وجدتموهم او اخذتموهم «ملعونين اينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلًا». «٢» فهي اخص من وجدتموهم: «فاقتلوا المشركين حيث

---

(١)). سورة البقرة ٢: ١٩١

(٢)). سورة الأحزاب ٣٣: ٦١

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٧٢

وجدتموهم». «١»

والثقف هي الدرك الدقيق المحيط مع حذق وشطارة، فهي الملاحقة الدقيقة الحاذقة الشاطرة، مما يدل على أن ملاحقة المقاتلين مسموحة، اللّهم إلّا إذا انتهوا أو استسلموا وألقوا إليكم السلم، او أدبروا عن المعركة دونما عزم على المواصلة ولا فتنة.

ثم «وأخرجوهم من حيث أخرجوكم» هو من الإعتداء بالمثل، فكما اخرَجوكم عن حرم اللّه أخرِجوهم عنه، ولا تسمحوا لهم بالمقام عنده، فلقد فتنوكم إذ أحربوكم حتى أخرجوكم، فتنةً عن دينكم، وضغطاً عليكم حتى تتركوه «والفتنة أشد من القتل»- «وإخراج أهله منه أكبر عند اللّه والفتنة اكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ...». «٢» فالإرتداد عن الدين هو أشد وأكبر من القتل، لأن ذلك قتل للأرواح وهذا قتل للإجساد، كذلك ومحاولة الإرتداد أشد وأكبر من القتال التي هي محاولة القتل، فليقاتَل، صاحب الفتنة كما يقاتَل المقاتِل، وهو أحرى أن يقاتَل.

فلأن «الفتنة اشد واكبر من القتل» فقد يجوز أو يجب قتال المفتتنين وإن لم يكونوا مقاتلين، إنذاراً عليهم في البداية حتى يكفوا عن فتنتهم، ثم يقاتَلون إن لم ينتهوا، حيث الفتنة أشد واكبر من القتل، والأكبر- هو بطبيعة الحال- أوجب قتالًا.

ف «قاتلوهم- واقتلوهم» ولكن «ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام» حرمةً له «حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم» مما يلمح لسماح قتالهم في سائر الأمكنة وإن لم يقاتلوكم ما هم مفتنون «كذلك» البعيد المدى، السديد الصدى «جزاء الكافرين» مقاتلين أو مفتتنين.

---

(١)). سورة التّوبة ٩: ٦

(٢)). سورة البقرة ٢: ٢١٧

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٧٣

وإذا كانت مقاتلة المشركين وقتلهم عند المسجد الحرام محظوراً إلا إذا قاتلوا عنده، فبأحرى محظوراً قتل المسلم المذنب اللاجىء إلى المسجد الحرام، مهما يضيق عليه حتى يخرج فيقام عليه الحد.

و «عند المسجد الحرام» لا «فيه» كما «يقاتلوكم فيه» علّه للتأشير إلى توسعة مكان الحظر عن قتالهم أنه ليس فقط «في المسجد الحرام» بل و «عند المسجد الحرام» وأكثره الحرم كله: «فان قاتلوكم فيه فاقتلوهم» فيه و «عند المسجد الحرام».

وإنما استثني عن سماح القتال أم واجبه «حتى يقاتلوكم فيه» فان لم يقاتلوكم فيه ولكنهم يفتنون المسلمين، فكذلك لا تقاتلوهم فيه ولا عنده، بل قاتلوهم خارج الحرم بعد ما أخرجتموهم عنه، لكي تكفوا عن فتنتهم أن تمتد إلى داخل الحرم، وداخل المجموعة المسلمة، فحرمة الحرم والمسجد الحرام تقتضي عدم مقاتلة غير المقاتلين فيه وإن كانوا مفتتنين، ولكنهم يقاتَلون في غير الحرم.

فَإِنْ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ «١»

وترى الإنتهاء هنا هو عن القتال عند المسجد الحرام فقط مع بقاءِهم على شركهم او قتالهم في سواه؟ فاين الغفر والرحمة لهؤلآء وهم مشركون بعدُ أم ومقاتلون وإن في غير المسجد الحرام!.

أو هو الانتهاء عن القتال إطلاقاً- عند المسجد الحرام وسواه-؟ فكذلك الأمر مهما كان أخف من الاوّل!.

أم هو الإنتهاء عن كل فتنة قتالًا وسواها من دعايات مضادة على المسلمين؟

فكذلك الأمر مهما كان أخف منهما! أم ولا يفتنون المسلمين، فلا قتال ولا فتنة بالنسبة لهم، ولكنهم مفتنون مع بعضهم البعض، أم- وعلى فرض المحال- لا يفتنون، ولا بعضهم البعض، ولكن الشرك فتنة مهما كانت على المشركين أنفسهم، و «لا تكون فتنة» تنفي كل دركاتها، ثم «ويكون الدين كله للّه» تنفي كل طاعة لغير اللّه!.

أم هو الإنتهاء عن الشرك؟ وفيه حق الغفر والرحمة! «قل للذين كفروا ان ينتهوا

---

(١)). سورة البقرة ٢: ١٩٢

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٧٤

يغفر لهم ما قد سلف وان يعودوا فقد مضت سنة الاولين». «١»

ولأن اقرب الانتهاء هنا سياقاً هو الإنتهاء الاول ثم الثاني ثم الثالث، وأن الغفر والرحمة بإطلاقهما أقربه هو الإنتهاء الرابع، فقد تعني «فان انتهوا» مربع الإنتهاء وفي كلٍّ غفر ورحمة حَسَبَه، «فان انتهوا» عن القتال عند المسجد الحرام «فان اللّه غفور» عن قتالهم عنده «رحيم» بهم، «فان انتهوا» عن مطلق القتال «فان اللّه غفور» عن مطلق قتالهم «رحيم» بهم في دنياهم مهما كانوا معاقبين في أخراهم إذا ماتوا على شركهم.

«فان انتهوا» عن كل ذلك وعن الفتنة والشرك «فان اللّه غفور رحيم» في الدنيا والآخرة «وان ليس للانسان إلّا ما سعى».

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَاتَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ «٢»

«... ويكون الدين كله للّهفان انتهوا فان اللّه بما يعملون بصير». «٣»

وتراها ضابطة ثابتة محلقة على كل العصور الإسلامية: وجوب قتال المفتتنين في الدين مقاتلين وسواهم «حتى لا تكون فتنة» مهما ظلوا كافرين «ويكون الدين- كله- للّه» وهو الطاعة المطلقة للّهالمحلِّقة على كل الأجواء في المعمورة، مهما كانت هنالك أديان أخرى على هامش دين اللّه، إلّا أن القوه والقدرة المطاعة ككل هي لدين اللّه، حيث تصبح سائر الاديان في تقية؟.

أم هي أمر خاص بالمجاهدين زمن الرسول صلى الله عليه و آله؟ ولم يكن لينتهِ الى الغاية السلبية:

«حتى لا تكون فتنة» فضلًا عن الإيجابية: «ويكون الدين للّه»!.

أم هو أمر عام، ولكن الفتنة هنا هي القتال، ف «قاتلوهم» أولاء المقاتلين «حتى لا

---

(١)). سورة الأنفال ٨: ٣٨

(٢)). سورة البقرة ٢: ١٩٣

(٣)). سورة الأنفال ٨: ٣٩

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٧٥

تكون فتنة» المقاتلة؟ والفتنة أعم من المقاتلة، وهي أشد وأكبر من القتل والمقاتلة، ولو كانت «فتنة» هي- فقط- فتنة المقاتلة لكان النص «الفتنة» إشارة إليها دون «فتنة» المحلقة على كل فتنة، قضيةَ الإستغراق المستفاد من النكرة المنفية، ثم «ويكون الدين للّه» لا تناسب اختصاص الفتنة المنفية بالمقاتلة، فقد لا يقاتلون بالحرب الحمراء الدموية، وهم مقاتلون بحرب شعواء سوداء باردة ضد العقيدة الإيمانية تضليلًا للمؤمنين، وإبقاءً لمن سواهم على قصورهم في الدين، ومهما كان النص يواجه قوة المشركين في شبه الجزيرة- فإنها هي التي كانت تفتن الناس وتمنع أن تكون هناك أية مجالة لدين للّه- ولكنه عام الدلالة كنص قرآني يحلِّق على كافة الأعصار والأمصار، فهو مستمر التوجيه كسائر التوجيهات القرآنية «حتى لا تكون فتنة ويكون الدين للّه».

ففي كل يوم تقوم قوة ظالمة مفتتنة تفتن الناس عن دينهم وتحول بينهم وبين تسمُّع الحق والإستجابة له عند الإقناع، فالجماعة المسلمة مكلفة بتحطيم تلك القوات، إطلاقاً للناس من قهرها، وبعثرتهم من قبرها، إحياءً للضمائر واستجاشة «لمن كان حياً ويحق القول على الكافرين».

كما وأن عليهم إزالة فتنة الشرك عن أنفس المشركين كما عن سواهم.

إذاً فالكفر المعتدي على المؤمنين وعقيدة الإيمان، أو المعتدي على من يفكر في الإيمان، ذلك الكفر فتنة على قبيل الإيمان، والواجب على المؤمنين ككلٍّ هو الحفاظ على جوّ الإيمان بكل سماح لمن يتحرى عنه دونما صدٍّ، وهو يتطلب قتال المفتتنين «حتى لا تكون فتنة» إخماداً لنائرتها «ويكون الدين للّه».

ولا يتحقق ذلك السلب إلّا باخضاع الإستعمار الكافر، ولا ذلك الإيجاب إلّا بتأسيس دولة اسلامية عالمية تهيمن على كافة السلطات الزمينة والروحية في المعمورة، وهذه هي أملنا المبشر به لزمن الإمام المهدي عجل اللّه تعالى فرجه الشريف، وعلينا قبل قيامه أن نوطِّىءَ له نعبِّد الطريق بكلا السلب والإيجاب، فلقيام

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٧٦

المهدي عجل اللّه تعالى له الفرج وسهل له المخرج- شرطٌ سلبي هو إمتلاء الأرض ظلماً وجوراً، وإيجابي هو تبلور الإيمان من مجاهدين مسلمين زمن الغيبة الكبرى كما قبلها، حتى تُعبَّد طريق التفجُّرة العالمية وسط ذلك السلب والإيجاب، كما وإيجابه له بداية السلب:

«حتى لا تكون فتنة» ونهاية الإيجاب: «ويكون الدين- كله- للّه». فعلى المقاتلين المسلمين تجنيد كافة الطاقات والإمكانيات، كما يجندها الكفار، حتى ينتهي الأمر أخيراً إلى «لا تكون فتنة ويكون الدين كله للّه».

. قد يعم أمر المقاتلة أهل الكتاب المتخلفين وكما في آية التوبة:

قَاتِلُوا الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ «١»

فهم بإعطاءهم الجزية وهم صاغرون تخمد نائرتهم وتسكن فائرتهم وإن لم يؤمنوا.

ثم المقاتلة لإزالة الفتنة ليست إلّا بعد البيان القاطع القاصع المقنع، «فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكم اللّه وهو السميع العليم». «٢»

فالذين هم في شقاق الإفتتان تُخمد نائرتهم بإحدى ثلاث: قتلهم أو استسلامهم أو إسلامهم، وهي حصيلة تلك القتال الإسلامية، كلٌّ تلو الأخرى.

أجل وإن الفتنة عن الدين فيما بين المؤمنين أو المستضعفين هي إعتداء عارم على أقدس النواميس الانسانية، جارفة ناموس العقل والعِرض والمال والنفس، والدين هو أنفس من النفس وسائر النواميس، وحقاً إنها أشد وأكبر من القتل، حيث تقتل وتفتك بالنفاسة والقداسة الروحية للإنسان.

---

(١)). سورة التّوبة ٩: ٣٠

(٢)). سورة البقرة ٢: ١٣٧

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٧٧

وسواءً أكانت هذه الفتنة الفاتنة بالتهديد والأذى وخلق جو الإضطهاد على الذين آمنوا، وسلب الحرية لمن يتحرى عن حق الإيمان والإيمان الحق.

أم بإقامة أوضاع فاسدة من شأنها تضليل الناس وإفسادهم وإبعادهم عن منهج الحق تزييناً للكفر وتلطيخاً للحق بما يحق.

ومثالًا ماثلًا بين أيدينا لذلك هو الإستعمار الإستحمار الإستكبار الإستثمار الإستبداد الإستضعاف الإستخفاف: الشرقي الشيوعي والغربي الرأسمالي، فانها- على اختلافهما في تنظيمات اقتصادية وسياسية أماهيه- متجاوبان في إختلاق الأجواء المعادية لشريعة اللّه، المعتدية عليها وعلى المتشرعين بها، المستجلبة للضعفاء إلى زخرفاتهم.

فعلى المسلمين كافة هجمة جماهيرية قوية متواصلة في كل الحقول الحيوية على هذين اللعينين «حتى لا تكون فتنة ويكون الدين للّه».

هنا يسود «إحدى الحسنيين» حسنى الحياة الدينية العزيزة بإزالة الفتنة وتأسيس دولة الحق، أم حسنى الموت في هذه السبيل: «قل هل تربصون بنا إلّا إحدى الحسنيين»؟.

«فإن انتهوا فلا عدوان إلّا على الظالمين» وهذا- دون ريب- إنتهاءٌ عن الفتنة، فلا قتال عند انتهاءها، وإنما يبقى عدوان على الظالمين دون فتنة، قصاصاً وملاحقة أياً كان الظالم بحق الناس، مسلماً او كافراً؟.

ثم و «الظالمين» المتبقين من أهل الفتنة، فإن انتهوا كمجموعة وبقي هناك ظالمون فإنما العدوان عليهم لا سواهم.

وإنما يعبر عن مناجزة الظالمين وقصاصهم بالعدوان من باب المشاكلة اللفظية، والّا فهو محض العدل كما «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم» وليس الجزاءُ إعتداءَ الظلم؛ بل هو إعتداء العدل، أعني المقابلة بالمثل، كما «ويمكرون ويمكر اللّه واللّه خير الماكرين»، وقد يعني «فلا عدوان»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٧٨

حصره في الظالمين لظلمهم بالفتنة، فان انتهوا عن ظلمهم فلا مجال لعدوانهم حيث زال سببه وهو ظلمهم.

وقديُعنى هنا مثلث المعنى وما أحراه في إطلاق اللفظ وطلاقة المعنى، كما هو السنة المتبّعة في الذكر الحكيم، دونما حصر على المعاني الضيقة المحدودة دونما أية حجة.

الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ «١»

صحيح أن القتال في الشهر الحرام حرام: ف «الشهر الحرام بالشهر الحرام»: «يا ايها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر اللّه ولا الشهر الحرام». «٢»

«يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصدٌّ عن سبيل اللّه وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند اللّه والفتنة أكبر من القتل». «٣» ولكنه لا يمانع الإعتداء بالمثل ف «الشهر الحرام بالشهر الحرام» فكما تحل القتال عند المسجد الحرام إن قاتلوكم عنده: «فان قاتلوكم فاقتلوهم». «٤» كذلك «الشهر الحرام وأحرى».

ثم وبصورة عامة كضابطة: «والحرمات قصاص» من حرمة النفس والمال والعرض أمّاهيه، إلا فيما يستثنى نوعية قصاصه، كالزنا واللواط والخناء، فلا تحِلّ قصاصاً بالإتيان بمثلها، وإنما عقوبة أخرى كالحد والتعزير أما شابه من تأديب.

وكصورة أعم منهما «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم» كضابطة، مهما اختلف شكليات الإعتداء بالمثل حسب النصوص، فمِن مِثلٍ ماثلٍ لنا بين أيدينا، معروف عندنا دونما تعريف به ك «النفس بالنفس والعين بالعين والأذن

---

(١)). سورة البقرة ٢: ١٩٤

(٢)). سورة المائدة ٥: ٢

(٣)). سورة البقرة ٢: ٢١٧

(٤)). سورة البقرة ٢: ١٩١

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٧٩

بالأذن والجروح قصاص». «١» وكذلك الأموال وسائر الحقوق.

ومن مثل لا نعرفه وقد عرَّفت به شرعُة اللّه كحدِّ الزنا واللواط والقذف أمّا شابه، و «الحرمات» جمعاً لحرمة وهي ما يحرم هتكه ويجب تعظيمه، إنها ليست لتختص بالشهر الحرام والحرم والمسجد الحرام والكعبة المباركة كما قيل، بل هي كافة الحرمات المهتوكة فإن فيها قصاصاً وملاحقة حسب الحدود المقررة في الشرع.

«فمن اعتدى ...» هي أعم من «الحرمات قصاص» كما الحرمات أعم من الشهر الحرام، ضوابط تلوَ بعضٍ تقرر قاعدة حرمة الإستسلام وتقبُّل الظلم والضيم من أعداء اللّه.

ولأن الإعتداء بالمثل قد يعدوه إلى ما فوقه خطأً أو جهلًا أم عصبية الإنتقام الطاغية، لذلك «واتقوا اللّه» عن طغواكم في ذلك المجال وفي كل مجال «واعلموا ان اللّه مع المتقين».

وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ «٢»

«سبيل اللّه» هنا وبمناسبة موقف القتال- وكقدر معلوم- هو القتال في سبيل اللّه، فكما أنها بحاجة إلى عِدة المجاهدين المناضلين، كذلك عُدّة الأموال لتصرف في حاجياتها، ثم هي في وجه عام أعمُ من الجهاد بالنفس وأي نفيس بالإمكان إنفاقه في أي سبيل من سبل اللّه، وأفضل سبل اللّه المحلّقة عليها كلها هو «حتى لا تكون فتنة ويكون الدين- كله- للّه» فالإنفاق فيه هو تجنيد كافة الطاقات والإمكانيات في سبيل تحقيق كلا السلب والإيجاب، إنفاقاً نفسياً ومالياً، وإنفاقاً ثقافياً وعقلياً وسياسياً، وعلى الجملة انفاقاً في كافة الحقول، اجادةً بالموجود، وتحصيلًا لغير

---

(١)). سورة المائدة ٥: ٤٥

(٢)). سورة البقرة ٢: ١٩٥

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٨٠

الموجود، فالآية- إذاً- في نطاق آية الإعداد: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل» فترك ذلك الإنفاق إلقاءٌ بأيدينا أنفسنا بكل ما لدينا إلى مفازات الهلاك، وكما نرى المسلمين هلكى في كافة الحقول الحيوية بما تركوا الإنفاق اللائق في سبيل اللّه.

ثم إنه كما الجهاد- بحاجة الى رجال كذلك بحاجة إلى اموال، فمن مجاهد ليس عنده مال، ومن ذي مال لا يسطع على الجهاد، فلينفق بديل جهاده من الأموال، بل والمجاهد بنفسه وعنده مال عليه أن ينفق قدر المستطاع.

فقد كان كثير من فقراء المسلمين الراغبين في الجهاد والذود عن منهج اللّه وراية العقيدة لم يكونوا يجدون ما يزودون به أنفسهم ولا يتجهزون به من عُدة الحرب، فيؤتون النبي صلى الله عليه و آله ثم «تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألّا يجدوا ما ينفقون». «١»

لذلك نرى الدعوة إلى الجهاد تصاحب الدعوة إلى الانفاق في أغلب المواضيع، وهنا يعد عدم الإنفاق تهلكة ينهى عنه- فيما ينهى- المسلمون.

الإنفاق في سبيل اللّه محدد بالعفو بصورة عامة «سيألونك ماذا ينفقون قل العفو» وهو الزائد عن ضرورات الحياة، وكلٌّ من الإفراط والتفريط في حقل الإنفاق إلقاء إلى التهلكة، ومفعول «لا تلقوا» محذوف معروف وهو كافة النواميس الإنسانية والإسلامية، والباء فى «بأيديكم» للسببية، وقولة القائل إنها زائدة قولة زائدة.

فالمعنى «ولا تلقوا» انفسكم وأنفس الآخرين، أم وسائر نواميسكم «بأيديكم ..»

بسبب قوّاتكم ومحاولاتكم أنفسكم «إلى التهلكة»- «وأحسنوا» في الإنفاق «إن اللّه يحبُّ المحسنين»، والتهلكة هي الهلاك بمراتبها، الهلاك المطلق أو مطلق الهلاك، وغير صحيح التفتيشُ عما يصدّقها مصدراً، لأنها يتيمة في وزنها في اللغة العربية، فإن القرآن هو الأصل في لغة وغير لغة فأنى تصرفون؟.

ف (هلك الشيء يهلك هَلاكاً وهلوكاً ومهلَكاً ومهلُكاً وتهلُكة) بمعنى والاسم الهُلك، وقول اليزيدي إن التهلُكة من نوادر المصادر ليست مما يجري على القياس،

---

(١)). سورة التّوبة ٩: ٩٢

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٨١

إنه زائد من القول ويزيدي منه، حيث القرآن هو القياس والمقياس لكل مقياس وقياس، وهو المقتَبس في كل شيءٍ.

ولأن «التهلُكة هي المفازة، لأنه يهلك فيها كثيرة» «١» فقد تعني التهلكة غير الهلاك ككل، فإنما هي مفازة الهلاك، فهي إذاً مصير الإنسان بحيث لا يدري أين هو، فهي «كل شيىء تصير عاقبته إلى الهلاك» «٢» وقد تؤيده نفس الصيغة بديلة عن الهلاك.

إن الإنفاق في سبيل اللّه عفواً هو الوسط العدل المفلح المنجح، والإقتار بعدم الإنفاق أو التقليل فيه إلقاءٌ الى التهلكة، والإكثار بالإسراف كذلك إلقاءٌ إلى التهلكة:

«ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً». «٣»

«والذين إذ انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً». «٤»

فمن التهلكة في تفريط الإنفاق تهلكة الكيانِ الإسلامي واستقلال الكتلة المسلمة أمام الأعداء، التي تخلِّف تهلكة الأموال والأنفس والأعراض وتهلكة العقيدة أمّاهيه من نواميس المسلمين، ومنها تهلكة الكيان الإقتصادي المهدَّد من قبل الشيوعية المختلفة من الإقتار في الإنفاقات الواجبة والمستحبة.

ومنها تهلكة روح الحنان والإيثار في هؤلآء المقترين البخلاء.

ثم من التهلكة في افراط الإنفاق تجاهل الحاجيات الشخصية والعائلية التي تبوء إلى ذل الفقر وبؤس السئوال وضنك المعيشة و «لو أن رجلًا أنفق ما في يديه في سبيل من سبيل اللّه ما كان أحسن ولا اوفق» «٥» ولكن اين تهلكة من تهلكة؟، فتهلكة التفريط في الإنفاق تحلق على كافة النواميس فردية وجماعية، ولكن تهلكة الإفراط ليس

---

(١)). لسان العرب لابن منظور الإفريقي

(٢)). لسان العرب لابن منظور الإفريقي

(٣)). سورة الأسراء ١٧: ٢٩

(٤)). سورة الفرقان ٢٥: ٦٧

(٥)). نور الثقلين ١: ١٧٩ عن الكافي بسند متصل عن حماد اللحام عن ابي عبد اللّه عليه السلام قال: لو أنرجلًا ... اليس اللّه يقول: «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة»؟

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٨٢

إلا في الصالح المعيشي للمُفرط.

هنا لشطري الآية حالتان، متصلة ومنفصلة، فالأولى تربط «لا تلقوا» ب «انفقوا» ولا سيما في حقل الجهاد في سبيل اللّه.

والثانية تجعل كلًّا تستقل في كافة حقولها، فالإنفاق العفو في سبيل اللّه واجب أو راجح على أيةً حال، والإلقاء إلى التهلكة محرم على أية حال، إفراطاً أو تفريطاً في إنفاق المال، أو تهديراً للحال في سائر النواميس الخمس.

فالمناضل المتساهل في خط النار المهتدر لنفسه زعم الشهادة به، وهو قادر على الحفاظ على نفسه لفترة أم على طول الخط، قتلًا لأعداء، أم تضعيفاً لهم، إنه ممن يلقي نفسه بأيديه إلى التهلكة، بل وأنفسَ الآخرين، حيث يضعف بفقد كل مناضل أَزر الجهاد، فيبوء أحياناً إلى الإنهزام «وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً»!

كما المجاهد القاعد عن القتال، او المتهاون فيه حفاظاً على نفسه ورياحته- هو كذلك- ممن يلقي بيديه إلى التهلكة، وكذلك سائر التهلكات نفساً وعقلًا وديناً وعِرضاً ومالًا، أن يلقي الإنسان نفسه بيده إلى ايٍ منها، وليس الجهاد في سبيل اللَّه على شروطها من التهلكة، فإن تعريض اي نفس او نفيس لخطر السقوط حفاظاً على ناموس الدين مما لابد منه، وهذه ضابطة عامة: التفدية بالمهم حفاظاً على الأهم، فإنما التهلكة المنهية هي الخاوية عن أية فائدة، دونما أهمية لما يستهلك له نفسه أو نفيسه، ف «ليس التهلكة أن يُقتل الرجل في سبيل اللَّه ولكن الإمساك عن النفقة في سبيل اللَّه» «١» وليس إقدام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام على ما أقدم وكان فيه هلاكه من

---

(١)). الدر المنثور ١: ٢٠٧- أخرج الفريابي وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في الآية وفيهبطرق كثيرة عن أسلم أبي عمران قال: كنا بالقسطنطنية وعلى اهل مصر عقبة بن عامر وعلى اهل الشام فضالة بن عبيد فخرج صف عظيم من الروم فصففنا لهم فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم فصاح الناس فقالوا: سبحان اللَّه يلقي بيديه إلى التهلكة؟ فقام أبو أيوب صاحب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقال: ايها الناس إنكم تتأولون هذه الآية هذا التأويل وإنما نزلت هذه الآية فينا معشر الانصار إنا لما أعز اللَّه دينه وكثر ناصروه قال بعضنا سراً دون رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: إن أموالنا قد ضاعت وإن اللَّه قد أعز الاسلام وكثر ناصروه فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع فيها، فأنزل اللَّه على نبيه يرد علينا ما قلنا: وانفقوا في سبيل اللَّه ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة فكانت التهلكة الإقامة في الاموال وإصلاحها وتركنا الغزو

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٨٣

إلقاء النفس إلى التهلكة لأنه «خيّر في تلك الليلة لتمضي مقادير اللَّه عز وجل» «١»، أم إنه كان يعلم بالعلم الظاهر القابل للمحو والإثبات، المتقبّل للبداء، دون العلم الباطن المخصوص باللَّه، وعلى أية حال فهو العارف واجبه وهو يعرِّفنا واجبنا فلا سئوال تنديداً بما فعل.

ولكن إصرار الامام الرضا عليه السلام على التمنع من قبول ولاية عهد المأمون كان من الإلقاء إلى التهلكة فلذلك تقبّل الولاية. «٢»

---

(١)

). نور الثقلين ١: ١٨٠ في اصول الكافي بسند متصل عن الحسن بن الجهم قال: قلت للرضا عليه السلام امير المؤمنين عليه السلام قد عرف قاتله والليلة التي يقتل فيها والمواضع الذي يقتل فيه وقوله لما سمع صياح الأوزّ في الدار: صوايح تتبعها نوايح، وقول ام كلثوم: لو صليت الليلة داخل الدار وأمرك غيرك يصلي بالناس فأبى عليها وكثر دخوله وخروجه تلك الليلة بلا سلاح وقد عرف عليه السلام ان ابن ملجم لعنة اللَّه قاتله بالسيف كان هذا مما لا يحسن تعرضه؟ فقال: ذلك كان ولكنه خيّر في تلك الليلة لتمضي مقادير اللَّه عز وجل

(٢)). المصدر في عيون أخبار الرضا في باب مولد الرضا عليه السلام ملك عبد اللّه المأمون عشرين سنة وثلاثة وعشرين يوماً فاخذ البيعة في ملكه لعلي بن موسى الرضا عليه السلام بعهد المسلمين من غير رضاه وذلك بعد ان يهدده بالقتل وألحّ مرة بعد أخرى في كلها يأبي عليه حتى أشرق من تأبيّه على الهلاك فقال عليه السلام: اللهم إنك قد نهيتني عن الإلقاء بيدي إلى التهلكة وقد أكرهت واضطررت كما اشرفت من قبل عبد اللّه المأمون على القتل متى لم أقبل ولاية عهده وقد اكرهت واضطررت كما اضطر يوسف ودانيال عليهما السلام إذ قبل كل واحد منهما الولاية من طاغية زمانه اللهم لا عهد إلا عهدك ولا ولاية الا من قِبَلك فوفقني لإقامة دينك وإحياء سنة نبيك فانك أنت المولى والنصير ونعم المولى انت ونعم النصير، ثم قبل ولاية العهد من المأمون وهو باكٍ حزين على ألّا يولي أحداً ولا يعزل أحداً ولا يغيِّر رسماً ولا سنة وأن يكون في الامر مشيراً من بعيد.

وفيه في خبر آخر طويل قال له المأمون بعد أن أبى من قبول العهد: فباللّه أقسم لئن قبلت ولاية العهد وإلا اجبرتك على ذلك فان فعلت وإلا ضربت عنقك، فقال الرضا عليه السلام: قد نهاني اللّه عز وجل ان ألقي بيدي إلى التهلكة فان كان الأمر على هذا فافعل ما بدالك فأنا أقبل على أن لا أولّي أحداً ولا أعزل أحداً ولا انقض رسماً ولا سنة واكون في الأمر بعيداً مشيراً مرضي منه بذلك وجعله ولي عهده على كراهة منه عليه السلام لذلك.

وفيه عن الفقيه في الحقوق المروية عن علي بن الحسين عليهما السلام: وحق السلطان أن تعلم أنك جُعلت له فتنة وانه مبتلىً فيك بما جعله اللّه عز وجل له عليك من السلطان وأن عليك ألّا تتعرض لسخطه فتلقي بيدك إلى التهلكة وتكون شريكاً له فيما يأتي اليك من سوء.

وفيه عن كتاب كمال الدين وتمام النعمة باسناده الى سلمان الفارسي عن النبي صلى الله عليه و آله حديث طويل يقول فيه لعلي عليه السلام: يا أخي ستبقى من بعدي وستلقى من قريش شدة من تظاهرهم عليك وظلمهم لك فان وجدت عليهم أعواناً فجاهدهم وقاتل من خالفك بمن وافقك وان لم تجد أعواناً فاصبر وكف يدك ولا تلق بها الى التهلكة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٨٤

«وأحسنوا ان اللّه يحب المحسنين» وهو الإحسان في الإنفاق ألّا يفرِط ولا يفرِّط، إنفاقاً لما زاد عن حاجياته الضرورية وأفضله الإيثار. «١»

ثم الإحسان في الأعمال بوجه عام أنك «إذا صليت فأحسن ركوعك وسجودك، وإذا صمت فتوقَّ كل ما فيه فساد صومك، وإذا حججت فتوقَّ كل ما يحرم عليك في حجك وعمرتك، وكل عمل تعلمه للّهفليكن نقياً من الدنس». «٢»

وكما أن «أحسنوا» «ولا تقلوا» هنا موجَّه إلى من يستطع الإنفاق، كذلك المعوزين المجاهدين أن يتعرضوا للإنفاق، فقد «كان رجال يخرجون في بعوث يبعثها رسول اللّه صلى الله عليه و آله بغير نفقة فإما يقطع بهم وإما كانوا عيالًا فامرهم اللّه أن يستنفقوا مما رزقهم اللّه ولا يلقوا بأيديهم إلى التهلكة، والتهلكة أن يهلك الرجل من الجوع والعطش ومن المشي وقال: لمن بيده فضل: وأحسنوا إن اللّه يحب المحسنين». «٣»

وكضابطة ثابتة في إيجابية الإنفاق، هي أنه- ككلٍّ- في سبيل اللّه أياً كان، كذلك وفي سلبية: «ولا تلقوا بايديكم إلى التهلكة» هي- ككل- أن يتسبب الإنسان لتهلكة نفسه أو غيره روحياً أو جسدياً، فمنها القنوط عن رَوح اللّه لما تعصي، حيث يوِّرطك في سائر المعاصي فتصبح ممن قال اللّه «بلى من كسب سيئة فاحاطت به خطيئته

(١)). في الدر المنثور ١: ٢٠٧- اخرج جماعة عن الضحاك ابن جبيرة أن الانصار كانوا ينفقون في سبيل اللّه ويتصدقون فأصابهم سنة فساء ظنهم وأمسكوا عن ذلك فأنزل اللّه: «وانفقوا في سبيل اللّه ...»

(٢)). نور الثقلين ١: ١٨١ في محاسن البرقي عنه عن ابن محبوب عن عمر بن يزيد قال: سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام يقول: إذا أحسن المؤمن عمله ضاعف اللّه عمله بكل حسنة سبعمائة وذلك قول اللّه تبارك وتعالى: «يضاعف لمن يشاء» فأحسنوا اعمالكم التي تعملونها لثواب اللّه، فقلت له: وما الإحسان؟ قال: إذا صليت ..

(٣)). الدر المنثور ١: ٢٠٧- أخرج ابن جرير وابن ابي حاتم عن زيد بن أسلم قال: كان رجال

فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون».

كلام فيه ختام حول الجهاد الإسلامي.

في صيغة مختصرة لا تعني الجهاد اسلامياً إلا الدفاع عن النواميس، ولا سيما ناموس العقيدة الصالحة التي ترتبط بها كل الحيويات الإنسانية دون إبقاء: «ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون». «١» حيث تحل وسطاً من آيات الجهاد، وهذا هو سبيل اللّه في القتال الإسلامي على طول الخط، دونما غاية أخرى توسُّعية سلطوية غادرة قاهرة، إلّا الحفاظ على واقع الإيمان وجوِّه، والدفاع عن المستضعفين الذين لا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلًا.

فالجهاد هو الذي يحيي مَيْت المستضعفين، ومَيْت جوِّ الدين، ومَيْت كل الحَيَويات الإسلامية، وكما نرى في وسط آخر من آيات الجهاد: «يا ايها الذين آمنوا استجيبوا للّهوللرسول إذ دعاكم لما يحييكم ... واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن اللّه شديد العقاب». «٢»

ليس الإسلام- رغم ما يتقوله مسيحيون- دين السيف والدم، ودين الضغط والإكراه، حرجاً متفلِّتاً عن كل النهضات الرسالية على مدار الزمن- إذ كانت تعتمد- ككل- على الدعوة الحسنة المرِنة الليِّنة- كما يصرخون بذلك في أبواقهم الإستحمارية فيصدقهم حمُرٌ مستضعَفة ويثبت على إيمانهم آخرون.

كيف وهو يقول «أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين». «٣»

---

(١)

). سورة الأنفال ٨: ٨

(٢)). سورة الأنفال ٨: ٢٤- ٢٥

(٣)). سورة النّحل ١٦: ١٢٥

ولا أحسن- في آخر الأمر- بعد الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن- لا أحسن للإبقاء على حق الحق إلّا القتال «ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن الا الذين ظلموا منهم ..». «١» فان آخر الدواء هو الكي.

فقبول الضيم والظلم باستمرار الفتنة هو من أظلم الظلم على الإنسانية مهما افتراه على المسيح عليه السلام مِن الذين هم يستجيبون كل النفوس والنفائس ممن لا يخضعون، قضية التوسعية الغادرة!.

كيف وقد جاهد نبيون منهم المسيح عليه السلام مهما لم يستجيبه الحواريون إلّا نزراً، وكما جاء في كتب العهدين وهم أولآء يفترون على السيد المسيح فرية القولة: من لطمكم على خدٍّ فاسمحوا له أن يلطمكم على الخد الآخر.

معاهدات حربية

الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَايَتَّقُونَ «٢»

فليس- فقط- أنهم لا يؤمنون بالله، بل ولا يؤمنون بعهودهم التي عاهدوها معكم حيث «ينقضون عهدهم في كل مرة»- «عاهدت منهم» ألا يبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بسوء «وهم لا يتقون»: أيةً تخلُّفة، وإنطلاقة عن أية عهود وقيود، فلا يربطهم عن شماسهم أي رباط منكم ولا منهم أنفسهم في عهودهم، فلا علاج عن بأسهم إلا نقض عهودهم هذه التي هم ينقضوها في كل مرة، وإلا قتالهم واستئصالهم حتى يخلوا جو الإنسانية من بأسهم وتعسهم.

فإنما العهد الملتزَم هو المستقيم الذي يُطَمئِن، دون المنزلق المنحلق «فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم» معاملةً معهم بالمثل، فإن لم يستقيموا لكم فلا تستقيموا لهم، حيث الإستقامة مع غير المستقيم إعوجاج، وانخداع فانخلاع عن الأمَنَة إلى شفا

---

(١)). سورة العنكبوت ٢٩: ٤٦

(٢)). سورة الأنفال ٨: ٥٦

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٨٧

جرف الهلكات.

وهنا قواعد حربية مستفادة من آيات عدة نحن أمامها، نعد منها: الكفار الذين يعاهدون المعسكر الإسلامي معاهدات ثم تنقضون عهدهم في كل مرة، إذاً:

فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ «١»

فملاحقتهم على حذق إذاً مفروضة لمقتالتهم، حيث الثقْف- فضلًا عن أكيده التثقيف- هو الملاحقة اليقظة الحاذقة اللازقة دون فتور، فظفر وإدراك بسرعة وحذق «فشرد بهم» بعد تشريدهم أنفسهم «مَن خلفهم» فحين تشردهم قوياً صارماً دفعاً عن أخطارهم قتلًا لهم أم نفياً إياهم إلى البعيد، فقد شردت بهم مَن خلفهم «لعلهم يتذكرون» ألا مجال لاختلاق الدوائر ضد المجموعة المؤمنة.

وهنا «تثقفن» تأكيد لواجب تثقيف العدو وتضييق كل المجالات عليه.

فهؤلآء الذين لا يستطيع أحد يطمئن إلى عهدهم، إنما جزاءهم هنا هو حرمانهم عن كل ما حرموا غيرهم من الأمن، فتخويفهم وتشريدهم والضرب على أيديهم لحد يرهب معهم مَن خلفهم من المتسامعين بهم.

وإنها الضربة المروِّعة المرهبة للهروب والشرود إتقاءً عن أذاهم، كأقل ما يعامل معهم، ومن ثَمَّ قتالهم وقتلهم باستئصالهم عن بكرتهم.

خوف الخيانة من المعاهد الذي تكررت منه حلُّ المعاهدة فلا إلتزام بها بعد:

وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ الْخَائِنِينَ «٢»

وهنا «تخافن» تأكيد للخوف، أن الخوف المتأكد المرتقَّب أكيداً من هؤلآء الخَوَنة الناقضين عهودهم، ذلك الخوف يحل عُقَد معاهدتهم، فكما نبذوا إليكم عهدهم فتخافنهم، كذلك «فانبذ إليهم» عهدهم «على سواء» نبذاً كنبذهم دونما تعدٍّ طورَه «إن اللّه لا يحب الخائنين» فكيف يصح لكتلة الإيمان أن تأتمنهم في عهدهم المنقوض

---

(١)). سورة الأنفال ٨: ٥٧

(٢)). سورة الأنفال ٨: ٥٨

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٨٨

كل مرة.

أجل «فانبذ إليهم» عهدهم إلقاءً إليهم بإعلام الإلغاء، فإن في اجتماع نقض العهد في كل مرة وتخوُّف الخيانة من جرَّاءِه خطراً حاسماً جاسماً على المؤمنين، فلينبذ إليهم عهدهم كما نبذوا، إعلاناً جاهراً بالقتال.

ذلك، فلا يجوز نقض عهدهم ما لم ينقضوا، ولا تخافن منهم خيانة «فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم» وكما أن نقضهم عهدهم خيانة، كذلك نقضكم عهدهم قبل نقضهم، أم نقضكم ولما ينقضوا، وهم دائبون في النقض على تخوفٍ من خيانتهم، إلّا أن تنبذ إليهم على سواءٍ، فنقض عهدهم دون نبذ وإعلام بالنقض خيانة «إن اللّه لا يحب الخائنين» كفاراً كانوا أم مؤمنين.

وقد نزلت الآية في بني قريظة حيث خوفَّته صلى الله عليه و آله خيانتهم وهم ينقضون عهدهم في كل مرة «١» وقد عاهدوا رسول اللّه صلى الله عليه و آله ثم أجابوا أبا سفيان ومن معه من المشركين إلى مظاهرتهم على رسول اللّه صلى الله عليه و آله، وهناك حقل «إما تخافن من قوم خيانة» بعد نقضٍ منافق للعهد، وأما النقض الجاهر فقد يترقب به نقض جاهر مثله، فلا مورد إذاً للإعلام بنقضه، إنما المحتاج إليه ما لم ينقض جاهراً، وقد قاتل رسول اللّه صلى الله عليه و آله أهل مكة لما نقضوا عهدهم جاهراً بقتل خزاعة وهم من ذمة النبي صلى الله عليه و آله.

وهنا «على سواءٍ» برهان قاطع لا مردَّ له أن النبذ إليهم ليس إلّا بعد نبذهم وتخوُّف خيانتهم، فلكل نبذ نبذٌ مثله على سواءٍ، دون أن يبرَّر نبذٌ ولما يَنبذ العدو مهما كان ينبذ في كل مرة، فانظر إلى السماحة الإسلامية السامية ألا تسمح للمؤمنين نقضاً عملياً

---

(١)). الدر المنثور ٣: ١٩١- أخرج أبو الشيخ عن ابن شهاب قال: دخل جبريل عليه السلام على رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله فقال: قد وضعت السلاح وما زلنا في طلب القوم فأخرج فإن اللّه قد أذن لك قريظة وأنزل فيهم «وأما تخافن ..» وفيه عن علي بن الحسين عليهما السلام قال: لا تقاتل عدوك حتى تنبذ إليهم على سواء إن اللّه لا يحب الخائنين، وفيه أخرج ابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن سليم بن عامر قال: كان بين معاوية وبين الروم عهده وكان يسير حتى يكون قريباً من أرضهم فإذا انقضت المدة أغار عليهم فجاءه عمرو بن عبسة فقال: اللّه أكبر وفاء لا غدر سمعت رسول اللّه صلى الله عليه و آله يقول: من كانت بينه وبين قوم عهد فلا يشد عقده ولا يحلها حتى ينقضي أمرها أو ينبذ إليهم على سواء

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٨٩

لعهد الناقض عهدهم، إلّا بإلقاء الإلغاء، دونما حيلة وغيلة ومباغتة، اللّهم إلا حيلة وغيلة بغيلة.

وهنا نسمع علياً أمير المؤمنين عليه السلام يقول في حديث له طويل: «فقدمت البصرة وقد اتسقت إليّ الوجوه كلها إلا الشام فأحببت أن أتخذ الحجة وأقضي العذر وأخذت بقول اللّه: «وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء» فبعثت جرير بن عبد اللّه إلى معاوية معذوراً إليه، متخذاً للحجة عليه، فرد كتابي، وجحد حقي في دفع بيعتي». «١»

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَايُعْجِزُونَ «٢»

ليس الكفر ليسبق الإيمان ولا الكافرون ليسبقوا المؤمنين في ميادين السباق الحيوية، اللّهم إلا بظاهرٍ من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون، و «إنهم لا يعجزون» اللّه ولا رسل اللّه ولا المؤمنين باللّه، فليس الباطل أيا كان ليعجز الحق مهما كان له جولة، فإن للحق دولة: «أم حسب الذين كفروا أن يسبقونا ساء ما يحكمون». «٣» فمهما نجوا من القتل في حرب وسواها متخلفين عن شرعة اللّه، فليس سبقاً لهم ف «لا يحسبن الذين كفروا إنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين». «٤» فهل تراهم- إذاً- سابقين في ذلك الميدان الميدان؟.

«وأملي لهم إن كيدي متين». «٥»! فقد خسروا السباق بكل الرفاق، واللّه هو السابق وعباده الصالحون.

فلا هم سابقون مشيئةَ اللّه في التكوين مهما تخلفوا عنها في التشريع إذ لن يضروا اللّه شيئاً، ولا هم سابقوه في أي سباق آخر إعجازاً له وإحجازاً إياه عما يشاء.

---

(١). نور الثقلين ٢: ١٦٤ في كشف المحجة لابن طاووس عنه عليه السلام

(٢). سورة الأنفال ٨: ٥٩

(٣) سورة العنكبوت ٢٩: ٤

(٤) سورة آل عمران ٣: ١٧٨

(٥) سورة الأعراف ٧: ١٨٣

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٩٠

إنه يجب على المؤمنين إعداد المستطاع من كافة القوات والإمكانيات أمام أعدائِهم.

تخلف عن قيادة القوات المسلمةو نفرٌ جماعي للقتال على تفقه في الدين اذا رجعوا

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ «١»

الصادقون هنا هم الصادقون في إيمانهم بأيمانهم وسواها من قالاتهم وحالاتهم وفعالاتهم، ف «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه ..» صدقاً طليقاً حقيقاً بصالح الإيمان.

فالكون مع الصادقين في كينونة الصدق هو من معارج تقوى اللّه، وهنا مدارج ثلاث:

«آمنوا- اتقوا اللّه- كونوا مع الصادقين» فمن كمال الإيمان هو تقوى اللّه عملياً كما آمنتم لفظياً وقلبياً، تقوىً عن كل ما لا يرضاه اللّه، ثم من كمال التقوى هو الكون مع الصادقين «٢» وهم ائمة المؤمنين المتقين الصادقين، فهم- لأكمل مصداق- أئمة الدين «٣»

---

(١)). سورة التّوبة ٩: ١١٩

(٢). في الدر المنثور ٣: ٢٩٠ عن ابن مسعود قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وان البر يهدي إلى الجنةوإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند اللّه صديقاً وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند اللّه كذاباً» وفيه عن أسماء بنت يزيد أن رسول اللّه صلى الله عليه و آله خطب فقال: ما يحملكم على أن تتبايعوا على الكذب كما يتتابع الفراش في النار كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب في خديعة حرب أو إصلاح بين اثنين أو رجل يحدث امرأته ليرضيها، وعن أبي بكر أن رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: الكذب مجانب للإيمان، وعن سعد بن أبي وقاص عن النبي صلى الله عليه و آله قال: يطبع المؤمن على كل شيء إلا الخيامة والكذب، وعن أبي برزة عن النبي صلى الله عليه و آله قال: الكذب يسود الوجه والنميمة عذاب القبر، وعن أسماء بنت عميس قالت كنت صاحبة عائشة التي هيأتها فأدخلتها على النبي صلى الله عليه و آله في نسوة فما وجدنا عنده قرى الأقداح من لبن فتناوله فشرب منه ثم ناوله عائشة فاستحيت منه فقلت: لا تردي يد رسول اللّه صلى الله عليه و آله فأخذته فشربته ثم قال: ناولي صواحبك فقلت لا نشتهيه فقال: لا تجمعن كذباً وجوعاً فقلت إن قالت إحدانا لشيءٍ تشتهيه لا نشتهي أيعد ذلك كذباً فقال: إن الكذب يكتب كذباً حتى الكذيبة تكتب كذيبة، وعن الحسن بن علي عليهما السلام سمعت رسول اللّه صلى الله عليه و آله يقول: دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن الصدق طمأنينة وإن الكذب ريبة، وعن ابن عباس قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: في خطبته: إن أعظم الخطيئة عند اللّه اللسان الكاذب ذلك ومن طرائق الإلتزام بالصدق ما يروي أن واحداً جاء إلى النبي صلى الله عليه و آله وقال: إني رجل أريد أن أؤمن بك إلا أني أحب الخمر والزنا والسرقة والكذب والناس يقولون إنك تحرم هذه الأشياء ولا طاقة لي على تركها بأسرها فإن قنعت مني تبرك واحد منها آمنت بك فقال صلى الله عليه و آله: أترك الكذب فقبل ذلك ثم أسلم فلما خرج من عند النبي صلى الله عليه و آله عرضوا عليه الخمر فقال: إن شربت وسألني الرسول صلى الله عليه و آله عن شربها وكذبت فقد نقضت العهد، وإن صدقت أقام الحد علي فتركها ثم عرضوا عليه الزنا فجاء ذلك الخاطر فتركه وكذا السرقة فعاد إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله وقال: ما أحسن ما فعلت لما منعتني عن الكذب انسدت أبواب المعاصي علي وتاب عن الكل

(٣) الدر المنثور ٣: ٢٩٠- أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: مع علي بن أبي طالب عليه السلام وأخرج ابن عساكر عن أبي جعفر مثله

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٩١

وكما تظافر به الحديث عن المعصومين عليهما السلام.

ذلك، ولأن «الذين آمنوا» تعم كافة المؤمنين بدرجاتهم، ف «الصادقون» فيهم هم الرعيل الأعلى منهم بطبيعة الحال، وكما يروى عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله إجابة عن سؤال: يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله أعامةٌ هذه الآية أم خاصة، فقال: أما المأمورون فعامة المؤمنين أمروا بذلك، وأما الصادقون فخاصة لأخي علي وأوصيائي من بعده عليه السلام إلى يوم القيامة ..». «١»

---

(١) نور الثقلين ٢: ٢٨٠ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة باسناده إلى سليم بن قيس الهلالي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال في اثناء كلام له في جمع من المهاجرين والأنصار في مسجد أيام خلافة عثمان: أسألكم باللّه أتعلمون أن اللّه عزّ وجلّ لما أنزل «يا ايها الذين آمنوا اتقوا اللّه وكونوا مع الصادقين» فقال سلمان يا رسول اللّه عامة ... قالوا اللّهم نعم.

أقول: وممن روى تفسير الصادقين بهم عليه السلام: الثعلبي في تفسيره (٢١٩) والگنجي في كفاية الطالب (١١١) والبسط ابن الجوزي في التذكرة (٢٠) وصاحب كتاب شرف النبي صلى الله عليه و آله في مناقب الكاشي، والخركوشي في شرف المصطفى بنقل ابن شهر آشوب في كفاية الخصام (٣٤٨) وأبو يوسف يعقوب بن سفيان في نفس المصدر (٣٤٧) والخطيب الخوارزمي والسيوطي في الدر المنثور ٣: ٢٩٠ والترمذي في مناقب مرتضوي (٤٣) والشوكاني في تفسيره ٢: ٢٩٥ والألوسي في روح المعاني ١١: ٤١ والقندوزي في ينابيع المودة (١١٩)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٩٢

فقد تعني الصادقون الصديقيين في أخرى «ومن يطع اللّٰه والرسول فأولئك الذين أنعم اللّٰه عليهم من النبيين والصديقيين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً». «١»

ولأن «الذين آمنوا» يحلِّق على طول الزمان وعرض المكان، فلابد لهم أن يكونوا مع الصادقين على طول الخط، فهم- إذاً- المعصومون من الأمة، حيث الأمر بالكون مع غير المعصوم إغراء بالجهالة، وجمع «الصادقين» دليل عديد المعصومين فلا تختص العصمة- إذاً- في هذه الأمة بشخص الرسول صلى الله عليه و آله ولم يذهب أحد من الأمة إلى عصمة الخلفاء أو الأئمة الأربعة، وقد ذهبت جماعة منهم إلى عصمة الأئمة الإثنى عشر، فليكونوا هم المعصومين، وإلّا فلا مصداق إذاً للصادقين، ثم ومعيتهم كما المعية مع الرسول صلى الله عليه و آله لا تختص بحضورهم، بل الأصل فيها هي معية سنتهم الثابتة الموافقة لكتاب اللّٰه، وإنما أمر المؤمنون في تقواهم بهذه المعية لأنهم يخطئون ويجهلون، فلابد لهم- إذاً- من سناد يسندهم ومولىً يليهم في كل أقوالهم وأحوالهم وأعمالهم، وهؤلآء هم المعصومون الذين لا يجوز عليهم الخطأ، وإلا فلا طائل تحت الكون معهم وهم كأمثالنا يخطئون!، والقول إن «الصادقين» لا يجب أن يكونوا أشخاصاً خصوصاً فإن أجماع الأمة معصوم صادق، هو زخرف من القول وغُرر من الغَرور قضية الدور المصرح أن يكون الراجع والمرجع كلاهما كل الأمة!، وإذا عني من إجماع الأمة الضرورة القطعية الإسلامية، فهو الكاشف قطعياً عن سنة الصادقين المعصومين.

مَا كَانَ لِاهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَايُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَايُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَا ١٢٠ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا

---

(١)). سورة النّساء ۴: ۶۹

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٩٣

يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمْ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ «١»

هنا بركات سبع تقابل دركات سبع قضاءً في حركات في سبيل اللّٰه، يوصف بها الذين مع رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله ف «ما كان» تستأصل كل تخلُّف عن رسول اللّٰه فيما يأمر أو ينهى على طول خط الرسالة منذ بزوغها إلى يوم الدين، ثم «ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه» تستأصل كل رغبة قلبية عنه، فعلى المؤمنين أن يعيشوا رهن إشارته، ويرغبوا فيه فوق رغبتهم في أنفسهم، سواءٌ في ذلك أهل المدينة ومَن حولهم من الأعراب، أم سائر أهالي المدن وحولهم من الأعراب: سكان اليوادي، وذكر «أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب» يعني ذكر الأقرب إليه مكاناً فالأقرب، وهنا «لا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه» تعني: لا ينبغي لهم أن يكرموا أنفسهم عما يبذل النبي صلى الله عليه و آله فيه نفسه، ولا يحفظوا منهجهم في المواطن التي تحضر فيها نهجه، إقتداءً به وإتباعاً لأثره.

ذلك، وهم الذين تبنَّوا هذه الحركة المباركة الإسلامية بمناصرة المهاجرين، فهم أهلها الأقربون، فهم بها ولها ولهذا الدين الجديد كأسٍ وأثافي، فقد آووا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ونصروه وعزروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، فباتوا يمثِّلون القاعدة الصلبة الرصينة المتينة للإسلام في الجزيرة كلها، وإلى كل المعمورة، وكذلك القبائل الضاربة من حول المدينة منذ أسلمت وباتت تؤلف الحزام الخارجي للقاعدة، فهؤلآء وهؤلآء ليس لهم أن يتخلفوا عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ولا أن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه في صالح الإسلام ودولته.

ذلك، ولكنه ليس يختص بهم التكاليف الإيمانية عامة لا تختص بفريق دون آخرين.

فقد تحلِّق طاعة الرسول صلى الله عليه و آله فيما يفعل أو يقول، والرغبة فيه، تحلقان على كل عصر ومصر من ساكني القصور إلى ساكني الأكواخ، حيث التكليف رسالي تعم كل

---

(۱)). سورة التّوبة ۱۲۰- ۱۲۱

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج۷، ص: ۱۹۴

زمان ومكان وأياً كان من المكلفين إلى يوم الدين وأيان.

ولقد كان الرسول صلى الله عليه و آله يقود الأمة إلى كل خير وهو السبَّاق إليه، ومن قوله في السرايا التي كان يتركها: «والذي بعثني بالحق لولا ضعفاء الناس ما كانت سرية إلا كنت فيها». «۱»

ذلك، ولا يعني التخلُّف عن رسول اللَّه إلَّا التخلف عن أمره، فإذا نهى عن الخروج معه كان الخروج معه تخلفاً عنه، كما أن عدم الخروج معه حين يأمر تخلُّفٌ عنه.

ثم «لا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه» تعني لا تحجبهم أنفسهم بمشتهياتها ورغباتها أن يرغبوا لها عنه صلى الله عليه و آله فالباء هنا للسببية والمصاحبة: لا تكن أنفسهم سببا للرغبة عنه، ولا مصاحبة لها، بل عليهم أن يقدِّموا رغباته على رغباتهم ف «من يطع الرسول فقد أطاع اللَّه».

وليست الآية لتأمر بالقتال معه صلى الله عليه و آله وإنما الإئتمار بأمره صلى الله عليه و آله مهما كان قعوداً، كما للقاصرين والعُجَّر وغير المحتاج إلى حضورهم، أم خروجاً وهو لقدر الكفاءة، فلا تنافي آية النفر- التالية- حتى تنسخ بها.

هذا، وذلك التأليب والتأبيب بمن يتخلف عن رسول اللَّه أو يرغب بنفسه عن نفسه، وذلك التشجيع بطاعته وولايته الطليقة، كل ذلك يرجع إلى صالحهم أنفسهم كمؤمنين بهذا الدين، ف:

«ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل اللَّه ولا يطاءون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلًا إلا كتب لهم به عمل صالح إن اللَّه لا يضيع أجر المحسنين».

فظمأٌ في سبيل اللَّه في الهاجرة الحارقة، ونَصَبٌ في سبيل اللَّه تعباً ناصباً، ومخمصةٌ في سبيل اللَّه جوعاً مُدقعاً، ووطأةٌ في سبيل اللَّه موطئاً يغيظ الكفار، ونيلًا من عدو اللَّه في سبيل اللَّه في نفس أو نفيس، كلٌّ «كتب لهم به عمل صالح» في مخمَّسه.

---

(۱)). الدر المنثور ۳: ۲۹۲- أخرج ابن أبي حاتم من طريق عمرو بن مالك عن أصحاب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: لما نزلت هذه الآية «ما كان لأهل المدينة ..» قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله:.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٩٥

ومن ثم «ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة» في سبيل اللّه «ولا يقطعون وادياً» في سبيل اللّه «إلا كتب لهم» به عمل صالح «ليجزيهم اللّه» بهذه الوفرة الغالبة «أحسن ما كانوا يعملون» وهو هنا هذه السبعة المباركة لهؤلآء السالكين إلى اللّه.

ولقد أثر ذلك البلاغ البالغ في قسم من المؤمنين لحد عزموا على النفير في سبيل اللّه فحدَّدهم عند حده، إخراجاً لهم عن جزره ومدِّه قائلًا:

وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ «١»

هنا يُقتسم المؤمنون إلي قسمي القاعدين للتفقة في الدين، والخارجين النافرين لصيانة الدين في جبهات الحرب، مما يدل على واجب التفقة في الدين وجوباً عينياً دونما أية وقفة، حيث الحرب أحيانية، وهي على بالغ فرضها ضد أعداء الدين واجب كفائي، فكما الفتنة أكبر وأشد من القتل، فالتفقة في الدين حفاظاً على صالح العقيدة الصامدة أوجب من القتال، حيث العدو المقاتل يشكِّل خطراً على الأبدان، والداعية المضللة تشكل خطراً على العقيدة والأرواح في الأديان، فالحفاظ على الروحية الإيمانية أولى من الحفاظ على الدماء وأوجب.

ولأن النفر- وإن كان في الإستنفار العام- لا يعم كافة المؤمنين، ضرورةَ بقاء المعذورين، وآخرين يتفقهون في الدين، لذلك، «وما كان المؤمنون لينفروا كافة» نفراً جماعياً للكف عن دين اللّه، وحين لا يمكن ولا يجوز أن ينفر المؤمنون كافة «فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة» والفرقة هي الجماعة الفارقة بينهما وبين جماعة أخرى بمختلف الأشتغال والمسؤوليات، ومختلف الطاقات والإمكانيات، ومختلف الأواصر والقرابات، فِرَقٌ مجتمعة على دين اللّه، مفترقة فيما يفرق بعضهم عن بعض في هذه وما أشبه.

وطائفة من كل فرقة، جمع منها مرابطة تطوف حول الآخرين مِراسة في حراسة

---

(١)). سورة التّوبة ٩: ١٢٢

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٩٦

عليهم، حفاظاً على الدينين بنواميسهم وبلادهم، فالذين بإمكانهم ذلك التطواف، عليهم ذلك النفر حفاظاً على الحدود والثغور الظاهرة، ثم الباقون «ليتفقهوا في الدين» بردح النفْر لهؤلآء «ولينذروا قومهم» الطائفين النافرين «إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون»: المحاذير والمحاظير بما يتفقهون عندهم، وهي الحدود والثغور المعرفية والعقيدية والعملية.

فهنا «ليتفقهوا» لا ترجع- فقط- إلى النافرين، فإن مجال النفر هو الجهاد وليس التفقة في الدين، فالمحور الذي تحور حوله الآية هو «المؤمنون» و- إذاً- ف «ليتفقهوا» هم غير النافرين.

ذلك، وإن تكن جبهات الحرب أيضاً مجالات لعملية التفقة في الدين، ولكنها ليست إلَّا على هوامش الجهود من المتفقهين الرسميين للدِّين، فهم الأساتذة الأولون في إنذار النافرين، مهما تلمذوا عليهم هؤلآء تفقهاً عملياً للجهاد في سبيل اللّه.

وفي إرجاع ضمير الجمع في «ليتفقهوا»- فقط- إلى النافرين جمع لمسؤولية التفقة مع الجهاد فيهم، وسلب لهما عن الباقين، رغم أن مجال التفقة للباقين أوسع بكثير من النافرين.

ذلك، وقد يُعنى من ضمير الجمع كلا الباقين «١» والنافرين «٢» مهما كان الأولون هم

---

(١)). الدر المنثور ٣: ٢٩٢- أخرج أبو داود في ناسخة وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباسقال: نسخ هؤلاء الآيات: انفروا خفافاً وثقالًا ... قوله: وما كان المؤمنون لينفروا كافة، يقول: لينفر طائفة ولتمكث طائفة مع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فالماكثون مع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله هم الذين يتفقهون في الدين وينذروا إخوانهم إذا رجعوا إليهم من الغزو لعلهم يحذرون ما نزل من بعدهم من قضاء اللَّه في كتابه وحدوده، أقول: وأخرجه مثله عن عبد اللَّه بن عبيد بن عمير

(٢)). نور الثقلين ٢: ٢٨٢ عن الكافي عن يعقوب بن شعيب قال قلت لأبي عبد اللَّه عليه السلام إذا حدث على الإمام حدث كيف يصنع الناس؟ قال: أين قول اللَّه عزَّ وجلّ: «فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ..» قال: هم في عذر ما داموا في الطلب وهؤلاء الذين ينتظرونهم في عذر حتى يرجع إليهم أصحابهم، وفيه عنه عن عبد الأعلى قال: سألت أبا عبد اللَّه عليه السلام عن قول العامة: إن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: من مات وليس له إمام مات ميتة جاهلية؟ قال: الحق واللَّه، قلت: فإن إماماً هلك ورجل بخراسان لا يعلم من وصيه لم يسعه ذلك؟ قال: لا يسعه، إن الإمام إذا هلك وقعت حجة وصيه على من هو معه في البلد وحق النفر على من ليس بحضرته إذا بلغهم إن اللَّه عز+ وجلّ يقول: «فلولا نفر ..» وفيه عن عيون الأخبار في باب العلل التي ذكر الفضل بن شاذان أنه سمعها من الرضا عليه السلام فإن قال: فلم أمر بالحج؟ قيل لعلة الوقادة وطلب الزيادة- إلى أن قال: مع ما فيه من التفقة ونقل لأخبار الأئمة عليهما السلام إلى كل صقع وناحية كما قال اللَّه عزَّ وجلّ: فولا نفر ... «وليشهدوا منافعهم» وفيه عن العلل عن عبد اللَّه المؤمن الأنصاري قال: قلت لأبي عبد اللَّه عليه السلام: إن قوماً يروون أن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: إختلاف أمتي رحمة؟ فقال: صدقوا، فقلت: إن كان ويختلفوا إليه فيتعلموا ثم يرجعوا إلى قومهم فيعلموهم، إنما أراد اختلافهم من البلدان لا إختلافاً في دين اللَّه إنما الدين واحد، وفيه عنه عن عبد الأعلى قال قلت لأبي الحسن عليه السلام إن بلغنا وفات الإمام كيف نصنع؟ قال: عليكم النفير، قلت: النفير جميعاً؟ قال: إن اللَّه يقول «فلولا نفر ..»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٩٧

الأصلاء والآخرون هم الهوامش لاختلاف مجال التفقة بينهما.

فلأن التفقة في الدين جهاد كما القتال، فقد يصدق على الخارجين لذلك أنهم من النافرين ف «لولا نفر» لكلى الجهاد القتال، والجهاد التفقة في الدين، ف «طائفة من كل فرقة» هي القادرة على التطواف حول كل فرقة، حفاظاً عقيدياً وثقافياً، أو حفاظاً على الثغور الإسلامية.

فالتفقة في الدين فرض على كل قاعد ونافر مهما اختلف مراتبه ومجالاته حسب اختلاف الملابسات، فعلى الذي لم يتفقه من نبْعته، عليه أن يتفقه عمن تفقه ما لا يصل إلى النبعة، ومن تفقة قليلًا فعليه أن يتفقه ممن تفقه أكثر منه، فلا حدَّ- إذاً- للتفقة في الدين، وهو على فرضة الأعياني يجب أن يكون متعاوَناً عليه بين المؤمنين أجمع، ولكن النفر للجهاد ليس فرضاً على الأعيان وحتى في الإستنفار العام قضيةَ أنه غير مستطاع لكافة المؤمنين، والتفقة في الدين المستطاع لهم أجمعين مهما اختلف درجاته ومجالاته.

ذلك، ف «طائفة» هي بين طائفة النفر للتفقة في الدين وأخرى طائفة النفر للجهاد للحفاظ على الدينين، فقه علمي للقاعدين، وفقه عملي للنافرين، ولكى يتفقه المؤمنون كلا الفقهين، فعلى كلّ من القاعدين والنافرين أن يفقه الآخرين.

وعلى أية حال فالتفقه في الدين بحاجة إلى حركة فقهية سواء للقاعدين أو

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ١٩٨

النافرين، فإنه منهج حركي لا يفقه إلا من تحرك به، لذلك نسمع الإمام الصادق عليه السلام يقول فيمن لزم بيته ولم يتعرف إلى أحد من إخوانه: وكيف يتفقه هذا في دينه؟.

فالفقاهة العملية التي ندرسها من خلال جبهات الحروب في سبيل الله هي من حصائل الفقاهة العلمية، ثم الفقاهة العلمية هي أيضاً بحاجة إلى فقاهة عملية تكافلًا وتكاملًا للمتفقه بين الفقاهتين.

نحن نجزم بالتجارب بأن الذين لا يندمجون في الفقه الحركي، تفرغاً لدراسة الدين في الكتب والحوزات بصورة باردة جامدة، هؤلآء لم يتفقهوا في الدين كما يصح، فكيف يقودون الحركة الإسلامية السامية في حقول الجهاد بمختلف صوره؟.

ثم التفقه في الدين لا يختص بالفقه الأصغر وهو فقه الأحكام بل والفقه الأكبر وهو أحرى من جهات شتى، لأنه أصول المعارف الدينية، وهي لا تقبل التقليد، والتفقة في الفقه الأكبر يسهِّل التفقه في الفقه الأصغر دون عكسه.

وهل الدين يختص بأحكامه الفرعية دون قواعده وأثافيِّه حتى يختص التفقة في الدين بها دونها؟ ولأن الفقه هو التوصل بعلم حاضر إلى علم غائب فالتفقة إذاً هو التكلّف في هذا الحقل قدر المستطاع، ف «تفقهوا في الدين فإنه من لم يتفقه في الدين فهو أعرابي». «١»

ذلك، وإذا دار الأمر بين التفقة في الدين والجهاد دون إمكانية الجمع بينهما فالمتعين هو التفقة فإنه يتبنَّى إيمان المتفقه والمجاهدين ولا عكس، والحفاظ على

---

(١)). الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام وفيه عن المفضل بن عمر قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: عليكم بالتفقة في دين الله ولا تكونوا أعراباً فإنه من لم يتفقه في دين الله لم ينظر الله يوم القيامة ولم يزك له عملًا، وفيه عن أبان بن تغلب عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لوددت أن أصحابي ضربت رؤوسهم بالسياط حتى يتفقهوا، وفيه عنه عليه السلام قال له رجل: جعلت فداك رجل عرف هذا الأمر لزم بيته ولم يتعرف إلى أحد من إخوانه، قال فقال: وكيف يتفقه هذا في دينه، وعن الخصال عن الحارث الأعور قال قال أمير المؤمنين عليه السلام ثلاث بهن يكمل المسلم: التفقة في الدين والتقدير في المعيشة والصبر على النوائب، وعنه عن موسى بن أكيل قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: لا يكون الرجل فقيهاً حتى لا يبالي أيَّ ثوبيه ابتذل وبما سدّ فورة الجوع

فقاهة الإيمان أوجب من الحفاظ على نفوس المؤمنين، ثم وكلٌّ من طائفة التفقه والجهاد ينوب عن الآخر، فللمجاهدين من أجر المتفقهين وللمتفقهين أجر الشهداء فإن «مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء» حيث الشهادة في سبيل الله ترسمها مداد العلماء، مداً لها إلى الشهادة وسواها من الهويّات الإيمانية.

وهل يستفاد من الآية وجوب أو جواز العمل بخبر الواحد أو الخبر الواحد- عن القرائن العلمية- اعتباراً ب «ينذروا» و «لعلهم يحذرون» إذ لا مجال لرجاء الحذر إلّا بعد واجب أو راجح قبول الإنذار؟ كلَّا حيث الطائفة المتفقهة سواء أكانت الباقية أو النافرة هي جماعة فيها مجالة القبول للمنذَرين، بحجة الكتاب والسنة الصالحة للتقبل، وقد أمرنا ألّا نقفُ ما ليس لنا به علم، وأن الظن لا يغني من الحق شيئاً، ولعل «لعلّ» هنا تعني ترجيين اثنين: ترجى الحذر برجاء الحجة في ذلك الإنذار الإعذار، وترجٍّ ثان بعد واقع الحجة فيه.

فعلى المنذر أن ينذر بما يملكه من حجج الحق، فإن حقت الحجة للمنذَرين فهناك واجب الحذر عما منه ينذِرون، ومما ينذَر منه المنذَرون تصديق ما ليس لهم به من علم في حقل الإنذار، فالمنذَرون- إذاً- ينذَرون بتلك الحجة التي تثبت مادة الإنذار، إجتهاداً أو تقليداً صالحين.

ولمكان الفرض المستفاد من «ليتفقهوا في الدين» نرى واجب التفقه على الذين عليهم أن يفقِهوا، أثقل مادةً وكيفيةً من واجبه على الباقين، على أنهم سواءٌ في واجب أصل التفقة قدر القناعة الذاتية، ثم المفروض على الآخرين التفقه في تقبل ذلك الفقه بأذن صاغية وقلوب واعية، فإن بلغت لهم حجته تقبّلوه، وإلا فإلى مَن إنذاره حجة دون أية وقفة في حقل التعلم.

وهكذا يبشِّر عباد صالحون في حقول المعرفة الدينية: «فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب». «١»

---

(١)). سورة الزّمر ٣٩: ١٨

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٠٠

ثم التفقه في الدين ليس يختص بالأحكام حتى يحاول الحصول بالآية على حجية الخبر الواحد، بل الأصل فيه هو أصل الدين وعلى هامشه فرعه، فهل يتقبل أصل من الدين بخبر الواحد تقليدياً؟ أم هو بحاجة إلى إقتناع بحجة مقبولة، وهكذا شأن الفروع كما تقول آية الذكر: «فأسألوا اهل الذكر إن كنتم لا تعلمون»: «١» فقد ينحصر القبول في حقل الدين بالكتاب والسنة القطعية، إجتهاداً تفصيلياً هو الإجتهاد، أم إجمالياً هو التقليد، فليكن التقليد أيضاً بالإجتهاد قدر المستطاع، فالمسلمون كلهم متفقهون في الدين دونما استثناء مهما اختلف الفاعليات والقابليات.

وحين يجب على غير النافرين إلى الجهاد أن يتفقهوا في الدين بوجه صالح مقبول، كذلك على النافرين إذا رجعوا إليهم أن يتفقهوا منهم بوجه صالح مقبول، وهو إتباع علم أو أثارة من علم، دون إعتماد على ظن وما أشبه، ودونما تقليد أعمى.

وأصل الفقه وأثافيه أحكامياً وعقيدياً وسياسياً وعسكرياً وسواها من الفقه الإسلامي إنما هو القرآن وعلى هامشه السنة القطعية، فالمشي وراء سائر الأدلة المتخيلية، ولا سيما المجانبة للكتاب والسنة، إنه سفاهة وليس فقاهة.

ذلك، والآيات القرآنية كهذه وما أشبه، ومن كتابات السماء «٢» والروايات هي فوق حد الإحصاءِ، بكلمة واحدة هي فرض العلم دينياً فرضَ عين، ودنيوياً فرضَ كفاية.

---

(١)). سورة النّحل ١٦: ٤٤

(٢)). فمما في كتب السماء ما ينقله في منية المريد عن الإنجيل في السورة السابعة عشرة منه: «ويل لمن سمع بالعلم ولم يطلبه كيف يُحشر مع الجهال إلى النار، أطلبوا العلم وتعلّموه فإن العلم إن لم يُسعدكم لم يشقكم، وإن لم يرفعكم لم يضعكم، وإن لم يغنكم لم يفقركم، وإن لم ينفعكم لم يضركم، ولا تقولوا: نخاف أن نعلم فلا نعمل، ولكن قولوا: نرجو أن نعلم ونعمل، والعلم يشفع لصاحبه، وحق على الله أن لا يخزيه، إن الله يقول يوم القيامة: يا معشر العلماء ما ظنكم بربكم؟ فيقولون: ظننا أن ترحمنا وتغفر لنا، فيقول تعالى: فإني قد فعلت، إني استودعتكم حكمتي لا لشرّ أردته بكم، بل لخير أردته بكم، فادخلوا في صالح عبادي إلى جنتي ورحمتي» (العوالم ٢- ٣: ١٢٥)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٠١

ومما يروى عن رسول الهدى صلى الله عليه و آله قوله: «من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيي به الإسلام كان بينه وبين الأنبياء درجة واحدة في الجنة». «١»

و «نوم مع علم خير من صلاة مع جهل» «٢»- و «إذ جاء الموت إلى طالب العلم وهو على هذه الحال مات شهيداً» «٣» و «طالب العلم أفضل عند اللّٰه من المجاورين، والمرابطين، والحجاج، والمعتمرين، والمعتفكين، استغفرت له الشجر والبحار والرياح والسحاب والنجوم والنبات وكل شيءٍ طلعت عليه الشمس» «٤»- و «من أراد أن ينظر إلى عتقاء اللّٰه من النار فلينظر إلى العلماء» «٥»

و «تعلموا العلم فإن تعلمه حسنة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، لأنه معالم الحلال والحرام، سالكٌ بطالبه سبيل الجنة، ومؤنس في الوحدة، وصاحب في الغربة، ودليل على السرَّاء والضرَّاء، وسلاح على الأعداء، وزين الأخلَّاء، يرفع اللّٰه به أقواماً يجعلهم في الخير أئِمة يُقتدى بهم، ترمق أعمالهم، وتقتبس آثارهم، وترغب الملائكة في خلتهم، لأن العلم حياة القلوب، ونور الأبصار من العمى، وقوة الأبدان من الضعف، وينزل اللّٰه حامله منازل الأنبياء، ويمنحه مجالس الأبرار في الدنيا والآخرة، بالعلم يطاع اللّٰه ويُعبد، وبالعلم يُعرف اللّٰه ويوحَّد، وبه توصل الأرحام، ويُعرف الحلال والحرام، والعلم إمام العقل والعقل وزيره، يلهمه اللّٰه السعداء، ويحرمه الأشقياء». «٦»

وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «... إن العلم ذو فضائل كثيرة، فرأسه التواضع، وعينه البراءَة من الحسد، وأذنه الفهم، ولسانه الصدق، حفظه الفحص، وقلبه حسن

---

(١)). العوالم (٢- ٣: ١٣١) نقلَا عن منية المريد للشهيد الثاني

(٢)). المصدر ١٣٢

(٣)). المصدر (١٣٣) عن أبي ذر قال: باب من العلم تتعلمه أحب إلينا من ألف ركعة تطوعاً وقالسمعنا رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله يقول: إذا جاء الموت.

(٤)). المصدر عن عيون المعجزات وإرشاد الديلمي عن النبي صلى الله عليه و آله

(٥)). المصدر (١٣٣)

(٦)). المصدر ١٣٣ عن تحف العقول قل النبي صلى الله عليه و آله:.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٠٢

النية، وعقله معرفة الأسباب بالأمور، ويده الرحمة، وهمته السلامة، ورجله زيادة العلماء، وحكمته الورع، ومستقره النجاة، وفائدته العافية، ومركبه الوفاء، وسلاحه لين الكلام، وسيفه الرضا، وقوسه المداراة، وجيشه محاورة العلماء، وماله الأدب، ذخيرته إجتناب الذنوب، وزاده المعروف، ومأواه الموادعة، ودليله الهدى، ورفيقه صحبة الأخيار». «١»

وعنه عليه السلام: العلم أفضل من المال بسبعة: الأوّل: أنه ميراث الأنبياء والمال ميراث الفراعنة، الثاني: العلم لا ينقص بالنفقة والمال ينقص بها، الثالث: يحتاج المال إلى الحافظ والعلم يحفظ صاحبه، الرابع: العلم يدخل في الكفن ويبقى المال، الخامس:

المال يحصل للمؤمن والكافر والعلم لا يحصل إلا للمؤمن خاصة، السادس: جميع الناس يحتاجون إلى صاحب العلم في أمر دينهم ولا يحتاجون إلى صاحب المال، السابع: العلم يقوي الرجل على المرور على الصراط والمال يمنعه». «٢»

وعنه صلى الله عليه و آله: «طالب العلم بين الجهال كالحي بين الأموات» «٣» وعنه صلى الله عليه و آله: «أعلم الناس من جمع علم الناس إلى علمه وأشجع الناس من غلب هواه، وأكثر الناس قيمة أكثرهم علماً، وأقل الناس قيمة أقلهم علماً». «٤»

وعنه صلى الله عليه و آله: «من خرج يطلب باباً من علم ليرد به باطلًا إلى حق أو ضلالة إلى هدىً كان عمله ذلك كعبادة متعبد أربعين عاماً». «۵»

وعن الباقر عليه السلام: «عالم ينتفع بعلمه أفضل من عبادة سبعين ألف عابد». «۶»

وعنه صلى الله عليه و آله: «الأنبياء قادة، والفقهاء سادة، ومجالستهم زيادة». «٧»

---

(١)). المصدر ١٣۵ تحف العقول عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث.

(٢)). المصدر ١٣٨ منية المريد عنه عليه السلام

(٣)). المصدر ١۴٣ عن أمالي الطوسي

(۴)). المصدر ١۴٣ مكارم الأخلاق

(۵)). المصدر ١۴٨- أمالي الطوسي

(۶)). المصدر ١۴٩

(٧)). المصدر ١۶٧- أمالي الطوسي

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٠٣

وعنه صلى الله عليه و آله: «اللهم إرحم خلفائي- ثلاث مرات- قيل له: يا رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله ومَن خلفاءك؟ قال: الذين يأتون من بعدي ويروون حديثي وسنتي فيعلمونها الناس من بعدي». «١»

وهنا «حديثي» قبل «سنتي» وقرنُه، لا ريب أنه يعني أنه يعني القرآن: «فبأي حديث بعد اللّٰه وآياته يؤمنون». «٢» فكما النبي صلى الله عليه و آله مزدوج الشخصية الرسولية من الكتاب والسنة، كذلك الذين يخلفونه من معصومين عليهما السلام وسواهم، إنما هم يروون كتاب اللّٰه وسنة رسوله صلى الله عليه و آله رواية صادقة حاذقة حادقة إلى الحق المرام من الثقلين.

وقال صلى الله عليه و آله: «... ومن خرج من بيته يلتمس باباً من العلم كتب اللّٰه له بكل قدم ثواب ألف شهيد من شهداء بدر» «٣»

وقال صلى الله عليه و آله: «سألت جبرئيل عليه السلام فقلت: العلماء أكرم عند اللّٰه أم الشهداء؟ فقال: العالم الواحد عند اللّٰه أكرم من ألف شهيد فإن إقتداءَ العلماء بالأنبياء، وإقتداء الشهداء بالعلماء». «۴»

وقال صلى الله عليه و آله: «إذ كان يوم القيامة وُزن مداد العلماء بدماء الشهداء فيرجح مداد العلماء على دماء الشهداء». «۵»

وقال صلى الله عليه و آله: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» «۶» وعن الصادق عليه السلام:

«طلب العلم فريضة على كل حال». «٧»

ذلك، ولأن الفقه أخص من العلم، حيث الفقه هو التوصل بعلم حاضر إلى علم

---

(١)). المصدر ١٧۴ عيون أخبار الرضا عليه السلام

(٢)). سورة الجاثية ۴۵: ۶

(٣)). المصدر ١٧۶ جامع الأخبار

(٤)). المصدر ١٧٦ عن عيون المعجزات

(٥)). المصدر ١٨٥- أمالي الطوسي

(٦)). المصدر ١٩٧- غوالي اللئالي عنه صلى الله عليه و آله

(٧)). المصدر ٢٠٠- بصائر الدرجات

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٠٤

غائب، لذلك أصبح الفقه والتفقه في الدين من ميزات العلم البارعة وكما في متواتر الحديث.

في استنفار عام إنفروا خفافاً وثقالًا وعلى أية حال

انفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ «١»

«انفروا» لجهاد عدوكم حالكونكم «خفافاً» غير مثقّلين بأهلين وأموال وبنين «وثقالًا» بهم مثقّلين، أو و «خفافاً» يسهل لكم النفر لشبابكم وما أشبه «وثقالًا» يثقل لشيو وختكم وما أشبه، فعلى أية حال انفروا دون تثاقل إلى الأرض وأية عاذرة غادرة مما يبين أن لا عذر إطلاقاً عن ذلك الجهاد من خفة أو ثقل، اللّهم إلا الأعذار القاطعة، فقد كان ذلك استنفاراً عاماً لا يستثنى منه.

«وجاهدوا بأموالكم» التي تأخذونها معكم إلى جبهات القتال، والتي تقدمونها إليها «وأنفسكم» هي الأخرى المقدمة لها «في سبيل اللّه» دون سواه، لغزوة الروم في تبوك أما أشبهها «ذلكم خير لكم» من تثاقلكم إلى الأرض رضىً بالحياة الدنيا من الآخرة «إن كنتم تعلمون» ما أعد اللّه لكم من خير في الدارين.

هذا، وذلك استنفار منقطع النظير من هذا البشير النذير لحرب منقطعة النظير، وفي جو مظلم من الدعايات المضللة ضدها، المثقِلة إلى الأرض فيها.

فهنا «خفافاً وثقالًا» حالان تشملان كافة الأحوال لكل المسلمين حينذاك، قطعاً لكل المعاذير غير العاذرة، ف «جاهدوا بأموالكم وأنفسكم» تستنفر كل الأموال والأنفس، من جامع بينهما في ذلك الجهاد، ومن معذور في أحدهما، فرضاً عليه الجهاد بالآخر، حضوراً في المعركة بهما كليهما، أم بأموالكم إن لم تقدروا بأنفسكم، أم بأنفسكم إن لم تكن لكم أموال، استقطاباً لكافة الطاقات والإمكانيات في ذلك الإستنفار العام لكافة القوات الإسلامية عن بكرتها.

---

(١)). سورة التّوبة ٩: ٤١

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٠٥

أجل «انفروا خفافاً»: ١- ناشطين- ٢- قليلي العيال، ٣- خفافاً من السلاح، ٤- مشاةً، ٥- شيوخاً، شباباً،- ٦- ومهازيل- ٧- مراضاً أما أشبه «وثقالًا» يقابلها: ١- شاقة عليكم، ٢- ثقيلي العيال، ٣- ثقيلي السلاح، ٤- ركباناً، ٥- شيوخاً- ٦- سماناً- ٧- صحاحاً.

وقد قدمت «خفافاً وثقالًا» تأكيداً على النفر، أو كان النفير الخفاف متقدمين كما «رجالًا» في الحج على «كل ضامر» تشجيعاً للإتجاه إلى المفروض وكأنه على الضعفاء قبل الأقوياء.

إذاً ف «خفافاً وثقالًا» تعم الجميع نفراً في كل حال دون التماس حجج ومعاذير أو خضوع للعوائق والتِّعِلّات، وكما عن ابن أم مكتوم أنه قال لرسول اللّه صلى الله عليه و آله أعلي أن أنفر؟ قال: ما أنت إلا خفيف أو ثقيل- فرجع إلى أهله ولبس سلاحه ووقف بين يديه فنزل قوله تعالى: «ليس على الأعمى حرج». «١»

وقد خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه فقيل له: إنك عليل صاحب ضرر، فقال: استنفر اللّه الخفيف والثقيل فإن عجزت عن الجهاد كثِّرت السواد وحفظت المتاع. «٢»

---

(١)). تفسير الفخر الرازي ١٦: ٧٠ وفيه قال مجاهد إن أبا أيوب شهد بدراً مع الرسول صلى الله عليه و آله ولم يتخلف عن غزوات المسلمين ويقول قال اللّه: «انفروا خفافاً وثقالًا» فلا أجدني إلا خفيفاً أو ثقيلًا، وعن صفوان بن عمرو قال: كنت والياً على حمص فليقيت شيخاً قد سقط حاجباه من أهل دمشق على راحلته يريد الغزو، قلت يا عم أنت معذور عند اللّه، فرفع حاجبيه وقال: يا ابن أخي استنفرنا اللّه خفافاً وثقالًا، ألا إن من أحبه ابتلاه

(٢)). المصدر عن الزهري: خرج .. وفيه قيل للمقداد بن الأسود وهو يريد الغزو: أنت معذور، فقال: أنزل اللّه علينا في سورة براءة: انفروا خفافاً وثقالًا. وفي تفسير «في ظلال» ٤: ٢٢٦: قرأ أبو طلحة سورة براءَة: فأتى على هذه الآية فقال: أرى ربنا استنفرنا شيوخاً وشباناً جهزوني يا بَنيَّ، فقال بنوه: يرحمك اللّه قد غزوت مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله حتى مات ومع أبي بكر حتى مات ومع عمر حتى مات فنحن نغزو عنك، فأبى فركب البحر فمات فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد تسعة أيام فلم يتغير فدفنوه بها، وفيه روى ابن جرير باسناده عن أبي راشد الحراني قال: وافيت المقداد ابن الأسود فارس رسول اللّه صلى الله عليه و آله جالساً على تابوت من توابيت الصيارفة وقد فضل عنها من عظمة يريد الغزو فقلت له: قد أعذر اللّه إليك، فقال: أتت علينا سورة البَعوث» أقول: وهي من اسماء هذه السورة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏٧، ص: ٢٠٦

ذلك، ولأن الآية في موقف الإستنفار العام فلا تنسخ ولا تنسخها آيات العذر من عمىً وما أشبه، فلكلٍّ دور يخصه دونما تناسخ.

ذلك، والروايات المروية عن النبي صلى الله عليه و آله بحق الجهاد والمجاهدين تبلغ مئات ومئات وإليكم عناوين منها: «من قاتل لتكون كلمة اللّه هي العليا» و «أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل اللّه» و «الجهاد أفضل العمل» و «غَدوةٌ في سبيل اللّه أو رَوحةٌ خيرٌ من الدنيا ومافيها» «إن في الجنة مائة درجة أعدها اللّه للمجاهدين في سبيله» «لا يزال من أمتي أمة يقاتلون على الحق حتى تقوم الساعة» «المجاهد في سبيل اللّه حق على اللّه عونه» و ... «١»

أترى الإسلام يأمر أو يسمح بقتال من لا يقاتلنا ولا يضارنا بشيء؟

كلّا! فإن قتال من لا يعتدي إعتداء محظور كضابطة: «وقاتلوا في سبيل اللّه الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن اللّه لا يحب المعتدين». «٢» وليس الإعتداء في حقل القتال بالذي يقبل النسخ حتى يُظن نسخ الآية بما يُظن، وأما «قاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين- كله- للّهفإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين». «٣» فقد تعني قتال المفتتنين على المؤمنين والمستضعفين، سواء أكانت فتنة نفسية أم عقيدية أماهيه من فتن مدمِّرة مُزَمْجِرة.

ففيما يقول اللّه «اقتلوهم حيث ثقفتموهم». «٤» فقد يعني «الذين يقاتلونكم» كما في سابقتها، وأحيان يقول: «قاتلوهم» فالمفاعلة تعني مادة الفعل المتداول بين طرفيه، فلا تعني إلا قتال الذين يقاتلوننا أم هم يريدون قتالنا فندافع إذاً عن أنفسنا.

(١)). مفتاح كنوز السنة نقلًا عن عشرات من كتب السنة

(٢)). سورة البقره ٢: ١٩٠

(٣)). سورة البقرة ٢: ١٩٣ وسورة الأنفال ٨: ٣٩

(٤)). سورة البقرة ٢: ١٩١

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٠٧

وليس المعني من الفتنة التي لأجلها يسمح في قتال الفاتنين، إلا الأخطار المتجاوزة من أهليها، وأما هؤلآء الكفار الذين لا يفتنون المؤمنين ولا سائر المستضعفين فلا أمر ولا سماح لقتالهم أبداً.

فالقتال الإسلامي هو فقط قتالٌ كافّة، تكف بأس الذين كفروا «وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة وإعلموا أن اللّه مع المتقين». «١»

فالتقوى في القتال هي الإتقاء عنها في غير الكف والإعتداء بالمثل، كفاً عن فتنتهم وإعتداءً كما اعتدوا، ثم لا قتال بعد! وإنما «أذن للذين يقاتَلون بأنهم ظلموا وأن اللّه على نصرهم لقدير». «٢»

لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمْ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ «٣»

أعرض هو العارض الزائل دون إصالة ذاتية، فهو مقابل الذات الأصلية: «تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند اللّه مغانم كثيرة». «٤»

«يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا». «٥» «تريدون عرض الدنيا واللّه يريد الآخرة». «٦»

والعرض القريب هو السهل التناول، قرباً في زمان ومكان ومكانة دون أي بُعدٍ وأية صعوبة.

ف «لو» أن ذلك الجهاد «كان عرضاً»: غنيمة «قريباً»: بمتناوَل أيديهم طمعاً فيه «وسفراً قاصداً» قريباً سهلًا يسيراً فيه غنيمة وغلبة، لكان يُقصد بطبيعة الحال- فلا تعني «مقتصداً» حيث الأقل من المقتصد أقرب للإتباع، إنما «قاصداً» يُقصد وكأنه

(١)). سورة التّوبة ٩: ٣٦

(٢)). سورة الحج ٢٢: ٣٩

(٣)). سورة التّوبة ٩: ٤٢

(٤)). سورة النّساء ٤: ٩٤

(٥)). سورة الأعراف ٧: ١٦٩

(٦)). سورة الأنفال ٨: ٦٧

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٠٨

بنفسه يَقصد، إذاً «لاتبعوك» في جهاد العدو «ولكن بعدت عليهم الشقة» في هذه السفرة إلى تبوك الروم شقة في المسافة وشقة في المصَافة حيث شاع بالمدينة أن الروم قد اجتمعوا يريدون غزو رسول اللّه صلى الله عليه و آله في عسكر عظيم، وأن هرقل قد سار في

جنوده وجلب معهم غسان وجذام وبهراء وعاملة، وقد عساكره البلقاء، ونزل هو حمص فأمر رسول اللَّه صلى الله عليه و آله التهيؤ إلى تبوك ... «١»

فهذه الشقة مسافةً ومصافةً خاوية عن عَرَض قريب ومرض غريب كانت تمنعهم عن هذه الغزوة، وهنا المندَّد بهم هم جمع منهم لا كلهم أو كثير منهم لمكان:

«سيحلفون باللَّه» إذا رجعتم إليهم: «سيحلفون باللَّه لو استطعنا لخرجنا معكم» فهم الذين في قلوبهم مرض من المنافقين وأضرابهم، و «إلا تنصروه» تعمهم دون صالحي المؤمنين المناصرين إياه على آية حال.

هؤلاء الهلكى الأنكاد «يهلكون أنفسهم» إعذاراً لا يُقبل، تخلفاً عن المفروض

---

(١)). نور الثقلين ٢: ٢٢٢ عن تفسير القمي في قوله تعالى «ولكن بعدت عليهم الشقة» يعني إلى تبوك وذلك أن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لم يسافر سفراً أبعد منه ولا أشد منه وكان سبب ذلك أن الضيافة كانوا يقدمون المدينة من الشام معهم الدرموك والطعام وهم الأنباط فأشاعوا بالمدينة ..» فأمر رسول اللَّه صلى الله عليه و آله التهيؤ إلى تبوك وهي من بلاد البلقاء وبعث إلى القبائل حوله وإلى مكة وإلى من أسلم من خزاعة ومزينة وجهينة وحثهم على الجهاد وأمر رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بعسكره فضرب في ثنيته الوداع وأمر أهل الجِدة أن يعينوا من لا قوة به ومن كان عنده شيءٌ أخرجه وحملوا وقووا وحثوا على ذلك وخطب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقال بعد أن حمد اللَّه وأثنى عليه: أيها الناس أن أصدق الحديث كتاب اللَّه ...

قال: فرغب الناس لما سمعوا هذا من رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وقدمت القبائل من العرب من استنفرهم وقعد عنه قوم من المنافقين وغيرهم ولقى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله الجد بن قيس فقال‌له: ياابا وهب ألا تنفر معنا في هذه الغزاة لعلك أن تحتفد من بنات الأصفر؟ فقال: يا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إن قومي ليعلمون أنه ليس فيهم أحد أشد عجباً بالنساء مني وأخاف أن خرجت معك أن لا أصبر إذ رأيت بنات الأصفر فلا تفتني وائذن لي أن أقيم، وقال لجماعة من قومه: لا تخرجوا في الحر، فقال ابنه: ترد على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وتقول ما تقول ثم تقول لقومك: لا تنفروا في الحر واللَّه لينزلن اللَّه في هذا قرآناً يقرءه الناس إلى يوم القيامة فأنزل اللَّه على رسوله في ذلك: ومنهم من يقول أئذن لي ولا تفتني إلا في الفتنة سقطوا وان جهنم لمحيطة بالكافرين، ثم قال الجد بن قيس: أيطمع محمد أن حرب الروم مثل حرب غيرهم؟ لا يرجع م هؤلاء أحد أبداً

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٠٩

واستحقاقاً للعذاب «واللَّه يعلم أنهم لكاذبون» في قالتهم: «لو استطعنا لخرجنا معكم» وأمثالها. «١»

وهذه السلسلة من آيات الجهاد هي منقطعة النظير في مسارحة، إذ كانت غزوة تبوك هي من أشد الغزوات عليهم وأحدِّها فيهم، حيث «بعدت عليهم الشقة» كل البعد من جهات عِدة تمنع هؤلآء عن تلك العُدَّة.

ولقد ركزت آيات السورة منذ الثامنة والثلاثين حتى الأخيرة- وهي أكثر من ثلثي آياتها- ركزت على حثِّ الجهاد والتنديد بالمتكاسلين عنه، من المنافقين والذين في قلوبهم مرض، مما يبين شدة وطأتهم وتواطئهم ضد الإسلام، وتباطئهم عن مشاركة الجهاد.

فهؤلآء هم المندَّد بهم طيلة هذه الآيات ومنها «إلا تنصروه» دون كافة المؤمنين، كما قد يزعمه أصحاب صاحب الغار، تبجيلًا لصاحبهم وتخجيلًا لسائر الأصحاب، فما أجهلهم في ذلك التفسير التعتير التعيير، إزراءً بكافة المؤمنين بمن أفاضلهم كالإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام ومن أشبه.

ولأن شؤون نزول الآيات ليست لتحددها بحدودها السابقة، فهي- إذاً- مطلقة منطلقة، مطبَقة على كافة الموارد المشابهة من الحروب القاصية العاصية، فكلما كان الخطر أعظم فالمسؤولية لدفعه أهم وأضحم على مدار الزمن الرسالي، دون

---

(١)). نور الثقلين ٢: ٢١٢ في كتاب التوحيد عن أبي عبد اللّه عليه السلام في الإية قال: أكذبهم اللّه عزَّ وجلّ في قولهم: «لو استطعنا لخرجنا معكم» وقد كانوا مستطيعين للخروج، وفي تفسير العياشي عن زرارة وحمران ومحمد بن مسلم عن أبي جعفر وأبي عبد اللّه في الإية، انهم يستطيعون وقد كان في علم اللّه لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لفعلوا.

وفي الدر المنثور ٣: ٢٤٦- أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: ان رسول اللّه صلى الله عليه و آله قيل له: ألا تغزو بني الأصفر لعلك أن تصيب ابنة عظيم الروم؟ فقال رجلان: قد علمت يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله أن النساء فتنة فلا تفتنا بهن فائذن لنا فائذن لهما فلما انطلقا قال أحدهما إن هو الا شحمة لأول آكل فسار رسول اللّه صلى الله عليه و آله ولم ينزل عليه شيءٌ في ذلك فلما كان ببعض الطريق نزل عليه وهو على بعض المياه «لو كان عرضاً ..» ونزل عليه «عفا اللّه عنك لم أذنت لهم ..» ونزل عليه «لا يستأذنك ..» ونزل عليه «انهم رجس ..»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢١٠

اختصاص بالزمن الرسولي.

لذلك لا تجد في ذلك المسرح الطائل ولا لمحة لخصوص غزوة تبوك، مع العلم أن اللّه صرح بمسرح بدر وحنين والأحزاب وما أشبه، على أن هذه المصرح بها أيضاً ليست لتقف بخاصة مواقفها، حيث التاريخ يتجدد دونما وقفة أبداً، فلتجدَّد المسؤوليات أمام حوادثها وكوارثها على طول الخط.

أجل و «لو كان عرضاً قريباً» معروضاً عليهم من قرب «وسفراً قاصداً» يُقصد لكل قاصد «لا تبعوك» لمكان الأريحية القاصدة لهؤلاء المنافقين، وستراً على كفرهم كأنهم من الموافقين «ولكن بعدت عليهم الشقة» الشقة الشاقة البعيدة التي تتقاصر دونها الهمم الساقطة وتتعاسر العزائم الهابطة.

فكثيرهم أولآء الذين يتهاوون في صاعد الطريق وسامقه إلى الآفاق الفائقة ويميلون إلى تفاهة الأعراض الدانية الفانية، عائشين على هوامش الحياة وغوامشها:

«سيحلفون باللّه لو استطعنا لخرجنا معكم» وهم مستطيعون واقعياً، ولا يستطيعون بأعذار غادرة مائرة، كذبٌ ماكر حاكرٌ يدل على ضعف خامر، مهما خيّل إليهم أنهم أقوياء، كلا وأنهم ضعفاء أغوياء «واللّه يعلم إنهم لكاذبون» كما وأهل اللّه يعلمون.

لقد حاولوا ماكرين ليأذن لهم الرسول صلى الله عليه و آله ليكونوا مع القاعدين المعذورين، فأذن لهم ظناً منه أنهم صادقون في اعتذارهم حسب المرسوم من تصديق ظاهر الإعتذار ممن يدعي ويبزر الإيمان، ولكنه كان عاجلًا فعفى اللّه عنه صلى الله عليه و آله:

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ «١»

هنا يُتساءَل قائد القوات المسلحة الرسولي «لم أذنت لهم حتى ..» قريناً ب «عفى اللّه عنك» دون أن تبرز توبة منه صلى الله عليه و آله واستعفاءٌ، فهل هو بعدُ عصيان بقرينة «عفى اللّه عنك لم أذنت لهم»؟ أم ليس عصياناً بنفس النص، حيث لم يقرن بتوبة؟.

قد تعني «عفى» دون «يعفو» عفواً سابقاً سابغاً على إذنه كما له سابقة في: «علم

---

(١)). سورة التّوبة ٩: ٤٣

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢١١

اللَّه أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم». «١» فإنه عفو عن حكم الصيام ليلًا أن اللَّه نفى بما عفى حكم صيام الليل، فليس- إذاً- عفواً عن عصيان رفعاً، وإنما هو عفوٌ دفعاً، وكما الإستغفار والغَفر حيث يجمعان الدفع إلى الرفع، فقد عفى اللَّه عنه قبل إذنه إياه لذلك الإذن، ثم نبه دون تأليب «لم أذنت لهم» وبيَّن سبب التأنيب «حتى تعلم ..» ولكنه تعالى عرفهم إياه فلم يكن- إذاً- إذنه عصياناً.

وما أحسنه تعبيراً أدبياً يحافظ على كرامة الرسول صلى الله عليه و آله أن يبدأ بالعفو قبل ظاهرة المعاتبة، مما يدل على أنها معاتبة ودِّية أدبية، دون أية معاقبة أم مسٍّ من كرامة العصمة.

كما وأن «حتى تعلم» تبيِّن أن ذلك لم يكن محظوراً في أصله، وقد يتبين من آيات تالية أن في حضورهم محظوراً، إذ «لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلّا خبالًا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم واللَّه عليم بالظالمين. «٢»

ومن عفوه تعالى عنه، صلى الله عليه و آله أنه تعالى عرَّفهم خلال هذه الآيات البينات، فاستأصل- إذاً- حظر إذنه لهم، حيث النتيجة من عدم إذنه حصلت بهذه الآيات، ونتيجة إذنه أنهم كانوا خبالًا وفتنة حضروا، فلا مبرر إذاً لتكلُّفات فارغة عن الحق المرام، وكأن «هذا مما نزل بإياك أعني واسمعي يا جارة، خاطب اللَّه تعالى بذلك نبيه وأراد به أمته» فمن ذا الذي أذن لهم من الأمة حتى يفسر ذلك الخطاب تأويلًا إليهم دونه؟!، وهو- فقط- قائد القوات المسلحة، وليس لأحد أن يأذن لأحد دون إذنه.

وغاية ما هنالك أنه صلى الله عليه و آله أذن عاجلًا دون تثبُّت، فلم يتبين له الذين صدقوا ويعلم

---

(١)). سورة البقرة ٢: ١٨٧

(٢)). نور الثقلين ٢: ٢٢٣ في عيون الأخبار باسناده إلى علي بن محمد بن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا عليه السلام فقال له المأمون: يابن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أليس من قولك أن الأنبياء معصومون؟ قال: بلى، قال: فما معنى قول اللَّه عزَّ وجلّ- إلى أن قال-: فأخبرني عن قول اللَّه عزَّ وجلّ «عفا اللَّه عنك لم اذنت لهم» قال الرضا عليه السلام: هذا مما نزل ... كذلك قول اللَّه عزَّ وجلّ «لئن اشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين» وقوله «ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلًا» قال: صدقت يابن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢١٢

الكاذبين، فإن لم يأذن كانوا يقعدون كما أذن، فكان يعرفهم أنهم كاذبون. «١»

ذلك، فلم يكن إذنه- إذاً- بإذن اللَّه، مهما كان معذوراً لم يكن في إذنه عاصياً للَّه، ولكنه كيف يتلائم إذنه هذا- إذاً- مع «لتحكم بين الناس بما أراك اللَّه». «٢» و «ما ينطلق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى». «٣» وأضرابهما من الحجج على عصمته الطليقة؟!.

إن الرسول صلى الله عليه و آله على عصمته الطليقة قد يُطْلقه اللَّه تعالى فيفلت فلتة يسيرة، لكي يعلم- وتعلم معه الأمة- أنه ليس مكتفياً بنفسه: «ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلًا». «٤»

وهكذا تفسر كافة المظاهر من تأنيبات اللّٰه رسولَه صلى الله عليه و آله وسائر الرسل، أنها لصالح الرسالة، كيلا يزعم زاعمون أنه يقول ما يقول من عند نفسه، دون صِدام بينها وبين عصمته الطليقة. «۵»

وقد يجيب الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام عن سؤال الزنديق بحق هفوات الأنبياء بقوله: «وأما هفوات الأنبياء وما بينه اللّٰه في كتابه فإن ذلك من أدل الدلائل على حكمة اللّٰه عزَّ وجلّ الباهرة وقدرته القاهرة وعزته الظاهرة، لأنه علم أن براهين الأنبياء تكبر في صدورهم، وأن منهم من يتخذ بعضهم إلهاً كالذي كان من النصارى في إبن مريم، فذكرها دلالة على تخلفهم عن الكمال الذي تفرد به عزَّ وجلّ، ألم تسمع إلى قوله في صفة عيسى عليه السلام حيث قال فيه وفي أمه: «كانا يأكلان الطعام» يعني من

---

(١)). الدر المنثور ٣: ٢٤٧- أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله «عفا اللّٰه عنك» قالوا: إستاذنوا رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله فان أذن لكم فاقعدوا وإن لم يأذن لكم فاقعدوا

(٢)). سورة النّساء ۴: ١٠۵

(٣)). سورة النّجم ۵٣: ۴

(۴)). سورة الأسراء ١٧: ٧۴

(۵)). الدر المنثور ٣: ٢۴٧- أخرج عبد الرزاق في المصنف وابن جرير عن عمرو بن ميمون الأودي قال: إثنتان فعلهما رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله لم يؤمر فيهما بشيءٍ، إذنه للمنافقين وأخذه من الأسارى فأنزل اللّٰه: عفا اللّٰه عنك ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢١٣

أكل الطعام كان له ثفل ومن كان له ثِفل فهو بعيد عما ادعته النصارى لابن مريم. «١»

ذلك، فليس ليفيض اللّٰه عصمته الخاصة الطليقة على أحد من عباده، والعصمة الرسالية لا تعني إلّا تلقياً رسالياً وبلاغاً وتطبيقاً رساليين، ومن البلاغ الرسالي تبيين أنهم ليسوا إلّا رسلًا لا يستقلون عن اللّٰه ولا يستغلون رسالة اللّٰه، فلابد- إذاً- لهم من هفوات تدليلًا على قصوراتهم الذاتية، ثم اللّٰه يبينها لذلك ولكي لا يبقى نقص في شرعته.

فلو أن اللّٰه عصمهم كما هو لضل كثير رغماً أنهم آلهة، ولو أنه لم يبين قصورهم الذاتي لم يتبينوا أنهم ليسوا بآلهة، ولا ما هو الحق فيما قصروا.

إذاً فهفوات النبيين فيما دون العصيان هي ضرورات ذوات أبعاد.

فكما أن قضية الحكمة الربانية أن يعصم رسوله بعصمة طليقة، كذلك الحكمة من واجهة أخرى حفاظاً على الرسالة من الغلو فيها أن يُطْلقه اللّٰه طرفة بعد طرفة، ثم يمسكه على طول الخط وفي كل طرفة، تدليلًا على «ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلًا. إلّا رحمة من ربك إن فضله كان عليك كبيراً». «٢» وليس فيه تضليل للأمم حيث يبين اللّٰه لهم موارد هفواتهم، وأنها ما كانت عصياناً له تعالى إلا خطأً قاصراً دون تقصير.

ذلك وكما أبطأ عنه الوحي ردحاً حتى ظن ظانون أن ربه ودَّعه وقلاه فنزلت:

«والضحى. والليل إذا سجى. ما ودعك ربك وما قلى» فكما الضحى صالحة للحياة، كذلك الليل إذا سجى، وهكذا سجى ليل انقطاع الوحي، كضحى الوحي، هما صالحان لهذه الرسالة، مهما اختلف صورة عن صورة، حيث السيرة واحدة تعني تبنِّي هذه

---

(١)). بحار الأنوار ٩٠: ١١٢ باب رد المتناقض في القرآن

(٢)). سورة الأسراء ١٧: ٨٧

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢١٤

الرسالة السامية ألَّا يُظَن بالرسول أنه يملك وحي اللَّه، أو أنه يصدر بوحي من عقليته البشرية.

كما وأن «ما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون». «١» نموذج آخر من هذه الحائطة، فرغم أن التلاوة وخط الكتاب هما من الفضائل، قد يصبحان خارجين عنها إلى الرذائل، حيث «إذاً لارتاب المبطلون».

وبعد كل ذلك فقد كان الرسول صلى الله عليه و آله مأذوناً أن يأذن لمن شاء من المؤمنين: «إنما المؤمنون الذين آمنوا باللّه ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون باللّه ورسوله فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر اللّه لهم إن اللّه غفور رحيم». «٢»

فظاهر إقرار هؤلآء المنافقين من ناحية، وظاهرة الإستئذان- وهي حسب هذه الآية إمارة أخرى على الأيمان- من أخرى، قد سمحت له أن يأذن لهؤلآء بمجرد استئذانهم، دون أن يعرف كذبهم حتى عرَّفهم اللّه إياه.

فلما لم يكن الصادق بيناً له عن الكاذب، فهو له أن يحملهم دون معرفة على الكذب؟ كلّا! ولكن الحائطة في ذلك المسرح الخطير كانت تقتضي أن يؤجل إذنهم نَظِرة تبيُّنه، وقد كفى اللّه أمره أن عرَّفهم إياه فعرِفهم في هذه الإذاعة القرآنية.

إذاً ف «لم أذنت لهم» بعد «عفى اللّه عنك» وقبل «حتى يتبين» قصاراه التأنيب بما لا ينبغي وهو في نفسه غير محظور، أم إن إذنهم بين محظور ومحبور، محظور إذ لم يتبين كذبهم، ومحبور إذ «لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالًا» ولكنهم ما كانوا يخرجون وإن لم يأذن لهم، ثم اللّه بين له صلى الله عليه و آله كذبهم فلم يبق في البين محظور، ولا سيما أن عدم إعدادهم عُدةً «ولكن كره اللّه انبعاثهم فثبَّطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين» إذاً ف «حتى تعلم» كان حاصلًا دون تمام بعدم إعدادهم عُدة، ولم يخسر هنا إلا تمام العلم بكذبهم، وقد جبر اللّه كسره بما أخبره.

---

(١)

). سورة العنكبوت ٢٩: ٤٨

(٢)). سورة النّور ٢٤: ٦٢

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢١٥

ذلك، إضافة إلى أنه كان يعرفهم في لحن القول: «ولتعرفهم في لحن القول». «١» ومنه هنا «إئذن لي ولا تفتنِّي» وسائر قالِهم القال الغائِل.

ذلك، ومن لطيف جبر الكسر- في إذنه- من اللّه، أنه تكفل فَضحهم بعلامات كذبهم ودلالاته في ثلثي آيات السورة، أو ليس بيان اللّه بعد إذنه أبين من تبيُّنه إن لم يأذن لهم؟!.

وبعد ذلك كله فلم يثبت بعد أنه صلى الله عليه و آله أتى بمحظور، فإن إذن قائد القوات لمن يستأذنه للقعود ليس في أصله محظوراً، بل هو محبور لأصل السماح الرباني «فأذن لمن شئت منهم» وظاهر صدقهم لمكان الإسلام ومكانته، دون واجب إتهامهم أو راجحة لكيلا يأذن لهم «حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين».

وليس ذلك التبيُّن واجباً أصلياً لا يُجبر، بل هو راجح رسالي وقد أجبر بنفس استئذانهم، ولحن القوم منهم، وببيان اللّه عنهم، فلم يُفت منه شيءٌ بذلك الإذن، بل هو من ضمن البلاغ الرسالي بإذن اللّه حتى يُعلم قصورة الذاتي، وأنه ليس إلهاً كما زعمته النصارى في المسيح عليه السلام.

وفي الآيات التالية يبين اللّه له كيان الإستئذان في الجهاد أن ليس إلا من الذين لا يؤمنون باللّه واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون.

كلام حول العصمة:

العصمة بين طليقة ذاتية وعرضية، فالأولى خاصة باللّه لا تعدوه إلى سواه، ثم العرضية بين رسالية لرسل أم سائر المعصومين عليهما السلام، وهي محدودة بقضية الرسالية تلقياً للوحي وبلاغاً وتطبيقاً فردياً وجماعياً، ولا تحصل إلَّا في ظرف العصمة البشرية وما أشبه، وهي درجات حسب درجات الرسالات، وليست على أية حال طليقة، وإنما هي في خط البلاغ الرسالي السليم.

---

(١)

). سورة محمد صلى الله عليه و آله ٤٧: ٣٠

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢١٦

ثم عصمة بشرية ليست من محطات العصمة الربانية وتسمى العدالة وهي أيضاً درجات، والعصمة البشرية التي هي محطة الرسالة لابد وأن تحصل بجهاد متواصل من صاحِبها مهما صاحبَها تأييد رباني من قبل ومن بعد، ويعبر عنه بالإصطفاء: «إن اللّه اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين». «١» «إني اصفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي». «٢» «اللّه يصطفي من الملائكة رسلًا ومن الناس». «٣» فهذه وما أشبه هي للرسل، ثم لخلفاء معصومين لهم: «ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ..». «٤» أم غير خلفاء: «يا مريم إن اللّه اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين». «٥» أم في حقل المِلكية غير الرسالية: «قال إن اللّه اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم»، «٦» وهكذا الإجتباء: «ولكن اللّه يجتبي من رسله من يشاء». «٧» ككل، وفي إبراهيم: «شاكراً لأنعمه إجتباه وهداه إلى صراط مستقيم». «٨» وفي آدم: «ثم إجتباه ربه فتاب عليه وهدى». «٩» وفي يونس: «فاجتباه ربه فجعله من الصالحين». «١٠» وفي يوسف: «وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث»، «١١» وفي الرسل الإبراهيميين: «ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم». «١٢» وعلى أية حال ف «اللّه يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب». «١٣»

---

(١)

). سورة آل عمران ٣: ٣٣

(٢)). سورة الأعراف ٧: ١٤٤

(٣)). سورة الحج ٢٢: ٧٥

(٤)). سورة الفاطر ٣٥: ٣٢

(٥)). سورة آل عمران ٣: ٤٢

((٦)). سورة البقرة ٢: ٢٤٧

((٧)). سورة آل عمران ٣: ١٧٩

((٨)). سورة النّحل ١٦: ١٢١

((٩)). سورة طه: ٢٠: ١٢٢

((١٠)). سورة القلم ٦٨: ٥٠

((١١)). سورة يوسف ١٢: ٦

((١٢)). سورة الأنعام ٦: ٨٧

((١٣)). سورة الشّورى ٤٢: ١٣

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢١٧

وكلٌّ من الإصطفاء والإجتباء يعني طلب الأصفى والأجبى، فلابد من صفاء أصفى وجباء أجبى حتى يصطفي اللَّه ويجتبي.

وترى كيف يصطفي ويجتبي مثل يحيى الذي «آتيناه الحكم صبياً» إنه يصطفيه لما يعلم أنه سوف يقوم بصالح الجدارة لبلاغ الرسالة، فهو الذي يصنع الرسل لحمل أمانات وحيه وبلاغ رسالاته بما يعلم فيهم من جدارات سابغة، سابقة ولا حقة.

فقد قال في موسى: «ولتُصنع على عيني .. واصطنعتك لنفسي». «١»

فقد صنعه اللَّه علي عينه منذ حمله وولاده ورضاعه ليأهل لحمل رسالته، «ثم جئت على قَدَر يا موسى» بما جاهدتَ واجتهدت وجرَّبت وجُرِّبت «واصطنعتك لنفسي» هكذا، بين جهاد منك وتأييد من ربك.

فرسل اللَّه عليهما السلام هم صنائع اللَّه ولكن دون فوضى جزاف وترجيح دون مرجح، فقد يحمِّلهم من تكاليف الدعوة ومشاق الدعاية ما يصلح لمحتدهم الرسالي.

القول أن صناعتهم من اللَّه هي التي تقدمهم على مَن سواهم، فما هي الرجاحة لهم على من سواهم؟ مردود بأن اللَّه إنما يشاء في كل دور من الأدوار الرسالية أن يُصنع رسول أم رسل، فلا يصلح أن يصنع هكذا كلَّ الخليقة، فإنما يصطفي مَن يعلم جدارته وهو يتحمل ما يحمَّل من رسالته.

فلا ترجيح- إذاً- دون مرجح، بل هو ترجيح بمرجح، ثم اللَّه يصنع المترجح في علمه كما يصلح لحمل رسالته، وبصورة عامة «اللَّه أعلم حيث يجعل رسالته»:

فقد يصطفي من هو بالفعل أصفى وهو يبقى أصفى كرسول الهدى محمد صلى الله عليه و آله وأضرابه، أم يصطفى من يعلم أنه سوف يكون أصفى فيصفِّيه اللَّه لحد يصلح لحمل رسالته تعالى، وهما مشتركان في واجب حمل الرسالة بكل جدارة معنية دون تفلُّت عنها ولا تلفُّت إلى غيرها.

ومما يختص باللَّه تعالى فيهم أن يصطفيهم من أصلاب طاهرة وأرحام مطهرة لم

((١)). سورة طه: ٣٩ و ٤١

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢١٨

تنجسهم الجاهلية بأنجاسها، ولم تلبسهم من مدلهمات ثيابها.

ذلك، وحصيلة البحث حول العصمة الرسالية، أن تحصُّل الحالة اللابقة اللائقة لحمل رسالة الله لابد له من تحصيل، إما إلهي فقط؟ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى! أم خَلقي فقط؟ وهو خارج عن مقدوره إذا عنت كل أبعادها، فلتكن أمراً بين أمرين: أن يصطفي الله من يعلم أنه سوف يحمل كل أعباء رسالته دون إبقاء، ثم هو يؤيده قبل رسالته وعندها وبعدها، حيث تعبئة الرسل منذ ولادهم حتى نزول الوحي إليهم، وهم على طول الخط مجتهدون قمة جهدهم وغاية سعيهم ووسعهم.

فالشروط التي تهيىء لنزول الوحي ليست كلها مختارة لأيإنسان، فلابد في الخارجة عن الإختيار من صنع رباني يصيِّر إلى صالح الوحي الرسالي وليس ليسيِّر، كما وليست مسيَّرة كلها، فأن ليس للإنسان إلا ما سعى، فالرسالة بمقدماتها وأصلها وبلاغها هي أمر بين أمرين من صنع رباني فيما لا صنع لغيره فيه، وصنع إنساني هو بين رحمة ربانية وجدارة إنسانية، فليست الرسالة إذاً لرسل الله ترجيحاً دون مرجح.

وأما لماذا صنع الله الإستعداد للحصول على جدارة الرسالة لبعض دون بعض، فأرسل بعضاً إلى آخرين؟ فذلك قضية الإبتداء والإمتحان: «ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون». «١»

فلو أنه خلقهم درجة واحدة وصنعهم كما يصنع الرسل لبطل الإمتحان، ثم وليس الكل يتماشون مع ما خلق الله لهم من إعداد الخير لولا الإجبار، فما دام الإختيار لا يصبحون في درجة واحدة من الجدارة مهما خلقوا في درجة واحدة من الإعداد والإستعداد.

ذلك، والإمتحان في توفر المعدات للوصول إلى الكمال القمة أعلى من عدمه، فلو أن الناس استووا في تلك المعدات القمة لم يكونوا ليستووا في جدارة نزول الوحي إليهم اللّهم إلا خروجاً عن الإختيار، وفي ذلك بطلان الإختيار والتكليف.

---

(١)). سورة الزّخرف ٤٣: ٣٢

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢١٩

لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَا ٤٤ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ «١»

ضابطة ثابتة لا تخطىء، فالذين يؤمنون بالله واليوم الآخر لا ينتظرون الإذن في أداء فريضة الله بعد ما أمرهم الله وأكد لهم، فهم لا يتلكأون في تلبية داعي الله نفْراً في سبيل الله، بل هم سِراع إليها خفافاً وثقالًا، طاعةً لأمره ويقيناً بلقاءه وإبتغاءَ مرضاته دونما حاجة إلى حثٍّ بعد ما حثهم الله فضلًا عن الإستئذان.

أفبعد أمر الله المؤكد بالجهاد بالأموال والأنفس يُستأذن رسول الله في ذلك الجهاد، فضلًا عن استئذانه في تركه، إذاً فمجرد استئذانهم للقعود لهم عن الإيمان حين يكون الإستئذان للجهاد يشي بعدم الإيمان «والله عليم بالمتقين» إياه، والطاغين دون حاجة إلى استئذان منهم وعدم استئذان، فإنما ذلك البيان إعلان للرسول والذين معه ليعرفوا المنافقين في لحن القول.

ولقد كان أكابر المهاجرين والأنصار يقولون: لا نستأذن النبي صلى الله عليه و آله في الجهاد، فإن ربنا ندبنا إليه مرة بعد أخرى، فلماذا- إذاً- الإستئذان؟ وكانوا بحيث لو أمرهم الرسول صلى الله عليه و آله بالقعود لشق عليهم. فترى علياً عليه السلام لما يأمره الرسول صلى الله عليه و آله بأن يبقى في المدينة يشق ذلك عليه حتى يقول رسول الله صلى الله عليه و آله: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى.

والإستئذان المنفي هنا يختص بالقعود، بل هو الظاهر في الخروج، مما يرجح أن جماعة منهم إستأذنوه للخروج فأذن لهم، كما وأن «إئذن لي ولا تفتني» هو من آخرين استأذنوه للبقاء، فقد يصح حمل «لم إذنت لهم» على الأمرين، إذن فى الخروج وإذن في البقاء، والجهاد في سبيل اللّه ليس من مسارح الإذن سلباً وإيجاباً.

أجل «لا يستأذنك .. إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون باللّه واليوم الآخر» سواءٌ أكان

---

(١)). سورة التّوبة ٩: ٤٤ و ٤٥

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٢٠

استئذانهم للجهاد أم تركه، وهو أحرى دلالة على كفرهم باللّه واليوم الآخر، فالإستئذان في هذا المسرح لأيٍكان ومن أيٍّ كان، إنما هو لأولئك الذين خلت قلوبهم من الإيمان، فهم يتلمسون المعاذير وهم في ريبهم يترددون، استئذاناً للخروج وآخر للقعود.

ذلك الإستئذان كان للقعود وأن استأذنوه بعدُ للخروج: «فإن رجعك اللّه إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين». «١»

وفي «لا يستأذنك» تلميحة أنهم لم يستأذنوه- فقط- في القعود، بل وفي الخروج مع المجاهدين أيضاً ليزيدوكم خبالًا، ولكن المحور في «لم أذنت لهم» هم الذين إستأذنوه لعدم الخروج حيث «لو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ..».

وهنا «لا يستأذنك» علم حادث له صلى الله عليه و آله إذ لو كان يعلمه لكان استئذانهم إياه علماً له بكذبهم، فلا يرد أنه لم يكن مأذوناً في إذنهم حين أذن لهم ولا يعمه «فأذن لم شئت منهم».

إنهم أولآء الأنكاد البعاد «إرتابت قلوبهم» فى الحق «فهم في ريبهم يترددون» بين الخروج والبقاء، وكلاهما منهم خيانة وكيد على الجماعة المسلمة «ومن تردد في الريب سبقة الأولون وأدركه الآخرون وقطعته سنابك الشياطين»، «٢» فذلك علامة أولى لكذبهم في استئذانهم ثم ثانياً:

وَلَوْ أَرادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقاعِدِينَ «٣»

إن إرادة الخروج، العازمة الحاسمة، قضيتُها الطبيعية الواقعية إعداد عُدة له وإن

---

(١)). سورة التّوبة ٩: ٨٣

(٢)). نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام

(٣)). سورة التّوبة ٩: ٤٦

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٢١

بسيطاً، وهم لم يُعدوا له أية عُدة، إلا كل عُدَّة للتخلف عنه «ولكن كره اللّه انبعاثهم فثبطهم»: كسَّلهم وضعَّف رغبتهم في الإنبعاث كيلا يخرجوا، فإن خروجهم مروج فيهم، فخروج عن صالح الحرب إلى طالحها، فقد تطلَّبت منهم شِرعَةُ التكليف أن يخرجوا، ثم ثبطهم شِرعة التكوين بما تثبطوا في أنفسهم «وقيل اقعدوا مع القاعدين» قيلة من رؤوس النفاق حيلة، وقيلة من الشيطان الرجيم غيلة، ثم اللّه لم يمنعهم عن هذه القيلة الحيلة الغيلة، وعن قعودهم بها، حيث «إنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً». «١» «وقضينا لهم قرناء فزينوا ما بين أيديهم وما خلفهم». «٢» ذلك و:

لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ «٣»

«لو» إحالة واقعية بما عزموا على عدم الخروج وبما ثبطهم اللَّه «وقيل أقعدوا مع القاعدين لو خرجوا فيكم» أنتم المؤمنين الصالحين «ما زادوكم إلّا خبالًا»: فساداً واضطراب رأي «ولأوضعوا»: أسرعوا فيها وفي أي فساد «خلالكم»: تخللًا فاسداً كاسداً بين صفوفكم الإيمانية، حال أنهم: «يبغونكم الفتنة»: أن يطلبوكم إياها، كأن لا بغية لهم بخروجهم فيكم إلّا إياها «وفيكم سماعون لم» اذناً لكل كلام دونما تثبُّت عنه كالبسطاء من المؤمنين والذين اسلموا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم، «واللَّه عليم بالظالمين» الضالين والمضلّلين، ذلك:

لَقَدْ ابْتَغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ «٤»

و «من قبل» هنا منه يوم أحد حيث تخلف عبد اللَّه بن أبي سلول بثلث القوم خذلانا للنبي صلى الله عليه و آله وإضلالًا للذين معه «وقلبوا لك الأمور» التي كانت مؤاتية لصالح

---

(١)). سورة مريم ١٩: ٨٣

(٢)). سورة فصّلت ٤١: ٢٥

(٣)). سورة التّوبة ٩: ٤٧

(٤)). سورة التّوبة ٩: ٤٨

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٢٢

الحرب حيث عملوا دعايات مضادة لها بين صفوف المؤمنين «حتى جاء الحق وظهر أمر اللَّه» نصرة بعد النكسة «وهم كارهون» مجيء الحق وظهور الأمر، متربصين عليه دوائر السوء، عليهم دائرة السوء ولكنهم لا يعلمون.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ «١»

هؤلاء الأنكاد الأغباش، ومنهم جَدُ بن قيس حين يقول له الرسول صلى الله عليه و آله: يا جد هل لك في جهاد الأصفر؟ قال: أتأذن لي رسول اللَّه فإني رجل أحب النساء وإني أخشى إن أنا رأيت نساء بين الأصفر أن افتتن، فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وهو معرض عنه: قد أذنت لك، فأنزل اللَّه «ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني» «٢» «ألا في الفتنة سقطوا» بأنفسهم المفتونة الفاتنة، فلم يفتنهم النبي صلى الله عليه و آله بترك الإذن لقعودهم ترغيباً في بنات بني الأصفر خلاف ما يروى. «٣»

ويا له من مشهد مرسوم يرسم لهم كأن الفتنة فيه هاوية وهم فيها ساقطون، فهم هنا في جحيم الفتنة التي أججوها بذات أيديهم ماقتون، ثم هم أججوه خالدون «وإن جهنم لمحيطة بالكافرين».

المهاجرون في سبيل اللَّه في مراغمات

وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً

---

(١)). سورة التّوبة ٩: ٤٩

(٢)). الدر المنثور ٣: ٢٤٧- أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر عبد اللَّه قال سمعت رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله يقول لجد بن قيس: ..

(٣)). وفيه أخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه و آله قال: اغزوا تغنموا بنات بني الأصفر فقال ناس من المنافقين انه ليفتنكم بالنساء فانزل الله هذه الآية

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٢٣

رَحِيماً «١»

ولأن المهاجرة فيها مخاوف وأخطار قد تمنع المؤمن عن الإقدام عليها لحد قد يعذر نفسه عنها كأنه لا يجد لها حيلة ولا يستطيع سبيلًا، لذلك نجد اللّه هنا يسكب فيها الطمأنينة بحقائق أخرى من ضمانات اللّه تعالى في الآخرة والأولى.

ذلك! شرطَ أن تعني المهاجرة سبيلَ اللّه، فليست هي هجرة للثراء والبواء والخروج عن العناء، فانما هي «سبيل اللّه» بكل ترح وفرح.

نرى هنا المهاجرة تضمن خير الدنيا والآخرة، فهنا «يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة» واللّه لقد وجدت أنا الكاتب في هجرتي إلى اللّه من شر الطاغوت الشاه عليه لعنة اللّه وجدت في مهاجري الثلاثة: النجف ولبنان ومكة المكرمة مراغماً كثيراً وسعة، ومنها موسوعة الفرقان التي هي من حصائل هذه الهجرة المباركة واللّه هو المستعان.

والمراغَم الكثير ما يُرغم من الموانع لأصل الهجرة أم في المهاجر فإن «أرض اللّه واسعة» فكلما اعترض سبيلَه رادعٌ أرغمه اللّه وإنْ بنقلته إلى أرض أخرى، وليس- فقط- مراغماً كثيراً إرغاماً للموانع، بل «وسعة» وفسحة في مجالات الحياة، حيث يجد في الأرض منطَلقاً وفسحة، فلا تضيق به أرض المهاجرة ولا يعدم الحيلة والوسيلة للحياة الإيمانية وللرزق أماهيه.

فإنما هو ضعف النفس البشري يخيل إليها أن وسائل الحياة مرتبطة- فقط- بأرض الوطن وبظروف وملابسات خاصة إن فارقتها لم تجد للحياة- إذاً- سبيلًا.

فرغم أن أرض الوطن اصبحت مراغِمة لإيمانه تصبح المهاجر في سبيل اللّه مراغَمة معاكسة لما يخيِّل إلى المهاجرين أن الوطن يوطِّن المواطِن والهجرة تهجره عن التوطن والإطمئنان، فسبيل اللّه في الهجرة هي التي تضمن بإذن اللّه تلك المعاكسة

---

(١)). سورة النّساء ٤: ١٠٠

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٢٤

الحبيبة الشيِّقة، ولكي لا يخاف المهاجرون في سبيل اللّه عن أرض الوطن أية صعوبة مراغِمة لعيشتهم.

ذلك مراغَمة هنا، ثم بالنسبة للأخرى- وحتى للذي مات في الطريق:

«ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى اللّه ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على اللّه» وهنا نسمع الرسول صلى الله عليه و آله يقول: «من خرج من بيته مجاهداً في سبيل اللّه وأين المجاهدون في سبيل اللّه، فخر عن دابته فمات فقد وقع أجره على اللّه، أو لدغته دابة فمات فقد وقع أجره على اللّه، أو مات حتف أنفه فقد وقع أجره على اللّه». «١»

وليس الموت أو القتل في سبيل اللّه- في احتمالهما فيها- بالذي يهين عزم المؤمن، فكلٌّ منهما هيِّن في نفس المؤمن حيث الأجل إنما هو بيد اللّه، فإذا هاجر بأمر اللّه ثم مات في طريقة أو في المهجر فقد تجاوب امران إلهيان في موته أو قتله ف «أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة».

ذلك! ولأن سبيل اللّه طليقة تشمل كل سبله المسبَّلة للمؤمنين، فقد تشمل سبيل الحج «٢» وسبيل الدعوة إلى اللّه، وسبيل تحصيل العلم وسائر السبل الربانية مهما كانت درجات.

وقد فصلنا على ضوء آيات الحج أن المحرم الداخل في الحرم- بقدر متيقن- إن مات قبل المناسك كفى عن حجة او عمرته، وعلّه ايضاً لكل من المحرم والداخل في الحرم، ثم لمن مات قبل الإحرام والحرم أجره مهما لم يسقط عنه حجه او عمرته، فإن وقوع الأجر أعم من سقوط التكليف، كما الناوي للحج ولما يستطيع له أجره ولكنه

(١)). الدر المنثور ٢: ٢٠٩- أخرج ابن سعد واحمد والحاكم وصححه عن عبد اللّه بن عتيك سمعت النبي صلى الله عليه و آله يقول: ...، وفيه عن ابن زيد قال: هاجر رجل من بني كنانة يريد النبي صلى الله عليه و آله فمات في الطريق فسخر به قوم واستهزءوا به وقالوا: لا هو بلغ الذي يريد ولا هو أقام في أهله يقومون عليه يدفن فنزل القرآن «ومن يخرج ..» وفيه عن عروة عن ابيه أن الزبير بن العوام قال: هاجر خالد بن حزام إلى ارض الحبشة فنهشته حية في الطريق فمات فنزلت فيه «ومن يخرج ..»

(٢)). المصدر أخرج أبو يعلى والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: من‌خرج حاجاً فمات كتب له أجر الحاج إلى يوم القيامة ومن خرج معتمراً فمات كتب له اجر المعتمر إلى يوم القيامة ومن خرج غازياً في سبيل اللّه كتب له اجر الغازي إلى يوم القيامة

إذا استطاع وجب عليه.

بأموالهم وأنفسهم

الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَائِزُونَ ا ٢٠ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ ٢١ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ «١»

تتمة من المواصفات للمفضّلين على سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، وهنا «أعظم درجة عند اللّه» بالنسبة لمن دونهم من المؤمنين حقيقة التفضيل، ولغير المؤمنين مجارات في التفضيل، أن لو كانت مجرد السقاية والعمارة فضلًا فهؤلآء المؤمنين هم «أعظم درجة عند اللّه» الذي تسقون حاجّه وتعمّرون بيته، ففي مثلث المحتملات بين الإيمان وشروطه وغير الإيمان هو أعظم مِن سواه، دون مساوات فضلًا عن تفضيل اللّاإيمان على الإيمان، ثم الإيمان الأكمل أفضل مِن سواه مهما حمل سواه من فضائل متخيلة.

وهنا «رحمة ورضوان» قبل وقبال «جنات» تدل أنهما فوق هذه الجنات، فهي جنات معرفية: «رحمة» لنا منا بفضل اللّه، وأخرى روحية من اللّه فينا: «رضوان» «ومساكن طيبة في جنان عدن ورضوان من اللّه أكبر ذلك هو الفوز العظيم». «٢» «قل أؤُنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من اللّه واللّه بصير بالعباد». «٣»

ذلك، فهنا «رضوان» بعد «رحمة» هو أفضل مصاديق الرحمة وأثافيُّها، وهنا المعرفة للعبودية والعبودية هي سبيل الرضوان «فبأي آلاء ربكما تكذبان». ثم و «خالدين فيها» تعم هذه الثلاثة وبقمّتها «رضوان» من اللّه.

(١)). سورة التّوبة ٩: ٢٠- ٢١- ٢٢

(٢)). سورة التّوبة ٩: ٧٢

(٣)). سورة آل عمران ٣: ١٥

وهنا «نعيم مقيم» هو قضية فضله تعالى، فليس العذاب- إذاً- مقيماً لأنه قضية عدله حيث: «من جاء بالحسنة فله عشر أمثاله ومن جاء بالسيئة فلا يُجزى إلّا مثلها».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ «١»

فإنما الولاية هي ولاية اللَّه بكل أبعادها اللائقة باللَّه، ثم وفي سبيل مرضاته ولايةُ أولياء اللَّه، وقضية الإيمان باللَّه أن «لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان» فولايتهم أولآء إنتقاض للإيمان أو إنتقاص من الإيمان «ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون» المنتقضون الإيمان»، أو المنتقصون من الإيمان.

وهنا «إن استحبوا» تعم إلى كفارهم منافقيهم حيث الإستحباب لا يعني مقولة اللفظ فقط، بل هو مقولة القلب ثم القالب له مظهر، فاستجابة الكفر في ثالوثه أم ضلع من أضلاعه إستجابة، مهما كان الجمع أغلظ، فإنه للإيمان أرفض.

وليس فقط «لا تتخذوا .. أولياء» بل وحاربوهم على ولاية اللَّه كما تحاربون سائر الكفار دون تمييز، وكما يروى عن الإمام علي عليه السلام: «ولقد كنا مع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله نقتل آبائنا وإخواننا وأعمامنا ما يزيدنا ذلك إلّا إيماناً وتسليماً ومضياً على اللقم وصبراً على مضض الألم وجداً على جهاد العدو». «٢»

أجل وفي مسرح الإيمان بآصرة القلب الواعي تتقلب سائر الأواصر من الدم والنسب والحسب، وتبطل ولاية القرابة في أسرة وسواها، فللَّه الولاية الأولى وعلى هامشها ولاية أولياء اللَّه، قدَرَ ما قدره اللَّه، بعيدة عن ولاية اللَّه نفسه، حيث هي تخصه ربوبية، وكما ولاية الخلق تخصهم عبودية دونما خلطٍ ولا غلْظٍ.

قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ

---

(١)). سورة التوبة ٩: ٢٣

(٢)). نهج البلاغة للسيد الشريف الرضى عنه عليه السلام

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‌٧، ص: ٢٢٧

اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَايَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ «١»

رغبات ثمان تُعرَض بمسرح الحب أمام اللَّه ورسوله وجهاد في سبيله، فقضية الإيمان هي أن الأحب إلى صاحبه هو اللَّه أصيلًا، ثم الرسول فصيلًا لرسالته عن اللَّه، و «جهاد في سبيله» وسيلًا وصيلًا لمرضاته.

فمخمس «آبائكم- أبنائكم- إخوانكم- أزواجكم- عشيرتكم» يحلّق على كافة الصِّلات النسبية والسببية أماهيه من صلات حيوية، فإن «آباءكم» تشمل الوالدين، بل والأعمام والأخوال والعمات والخالات، و «أبناءكم» تشمل البنات إلى الأولاد والأحفاد منهما أو أحدهما، و «أزواجكم» تشمل إلى البعولة الزوجات في مثلثه الزواجات دائمة ومنقطعة وأمة، ثم «وعشيرتكم» تعم كل الوصائل والفصائل البعيدة نسبياً وسببياً وودّياً.

ومثلث «أموال إقترفتموها- تجارة تخشون كسادها- ومساكن ترضونها» تعم كافة الرغبات المالية، حاضرة ك «أموال اقترفتموها» ومستحضرة لمستقبل: «تجارة تخشون كسادها» ثم أمكنة لكم بمن يتصلون بكم، أم لأموالكم، أم لتجارتكم: «ومساكن ترضونها».

فقد حلَّقت تلك الثمانية على كل الرغبات الحيوية لنا نعيشها ونعيِّش بها، ونحن في وسط بينها أن نبصره إليها دون نفاذ عنها إلى مرضات اللّه فتُعمينا: «فتربصوا حتى يأتي اللّه بأمره واللّه لا يهدي القوم الفاسقين» أو أن نبصر بها فتبصِّرنا فإيماناً باللّه وهجرة في اللّه وجهاداً في سبيل اللّه، وعلى حد المروي عن الإمام علي عليه السلام بشأن الدنيا: «من أبصر بها بصّرته ومن أبصر إليها أعمته».

هناك في حقل الولاية المحظورة يُذكر فقط «الآباء والإخوان» دون البقية المذكورة هنا، لأنهما- فقط- مسرح الولاية والنفاذ في أمور الإنسان، دون الملحقين

---

(١)). سورة التّوبة ٩: ٢٤

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٢٨

به العائشين على هامشه، وهنا في حقل الحب يأتي دور البقية مع الآباء والإخوان.

ولأن الحب الأعلى هو للأغلى فليكن اللّه ورسوله أحب إلى المؤمن حتى من نفسه فضلًا عما سواها، فحين يقول عمر: واللّه لأنت يا رسول اللّه أحب إلي من كل شي‏ءٍ إلّا من نفسي- يجيبه: لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه». «١»

ولأن الحب ليس إلّا نحو الكمال، فالمحبوب- إذاً- ليس إلا الكمال بمن يحمله، فالأحب هو الأكمل، ففي مثلث حب الإنسان نفسه، وسواها من خلق، وربه، لا ميزان لأصله ولا فصله إلا أصل الكمال وأكمله، إذاً فحب من سوى اللّه أو ما سواه دونه إلحاد حادٌّ، ثم كون غير اللّه أحب إليك من اللّه إلحاد وسط بإشراك، ومن ثم التسوية في الحب بين اللّه وسواه إشراك خالص، والتوحيد هو أن يكون اللّه أحب إليك مما سواه، ولكلٍّ دركات، ولتوحيد الحب درجات «والذين آمنوا أشد حباً للّه». «٢» قالًا وحالًا وأعمالًا، والتوحيد الحق في حب اللّه هو أن لا تحب إلّا إياه، ثم تحب ممن سواه مَن يحبه اللّه فتحبه في حب اللّه قدَرَه، وأدنى درجات حب اللّه هو الرجاحة القلبية لحبه على من سواه، فالرجاحة العملية لحب من سواه أو ما سواه ضَعف في مظهر الإيمان، كاشفاً عن ضعفه في القلب.

ولأن المؤمنين بصورة طليقة تشمل- إلى المعصومين- العدولَ والفساق الذين دخل الإيمان في قلوبهم، والذين أسلموا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم، بل والمنافقين، فالتنديد هنا موجه أولًا إلى الأخيرَين، حيث المنافق يحب غير اللّه أكثر منه علماً وتقصيراً، والمسلم الساذج قبله يحب هكذا قصوراً عن تقصير وجهالة، ثم إلى فساق المؤمنين حيث الفسق عملياً ترجيح لغير اللّه على اللّه في المظهر، كاشفاً عن ضعف الإيمان.

---

(١)). الدر المنثور ٣: ٢٢٣- أخرج أحمد والبخاري عن عبد اللّه بن هشام قال كنا مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال: واللّه .. فقال صلى الله عليه و آله: لا يؤمن ..

(٢)). سورة البقرة ٢: ١٦٥

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٢٩

ومحور التنديد في مراتب الحب هنا أن يكون غير اللّه أحب إليك منه، لا لأن التسوية غير محظورة، وإنما لعناية مظاهر الحب بين اللّه وما سواه، حيث الفسوق عملياً هو مظهر من مظاهر الترجيح لغير اللّه على اللّه، وأما الحب قلبياً فأقل درجاته في حقل الإيمان أقل رجاحة لحب اللّه على ما سواه ومن ثم درجات إلى حب العصمة وعصمة الحب.

ذلك ف «من الإيمان كون اللّه ورسوله أحب إلى المرء من سواهما» «١» تقديماً لحب اللّه وعلى ضوءه حب النبي صلى الله عليه و آله وهكذا يكون «حب النبي من الإيمان» «٢»

ذلك حب اللّه أصالة وحب رسوله رسالة، ومن لزامات ثاني الحبين حب الأئمة من أهل بيته عليهما السلام وكما يروى عنه متواتراً: «عنوان صحيفة المؤمن حب علي» «٣» «حب علي براءَة من النار» «۴» و «من مات على حب آل محمد مات شهيداً» «۵» «أساس الإسلام حبي وحب أهل بيتي». «۶»

---

(١)

). مفتاح كنوز السنة نقلًا عن بخ- ك ٢ ب ٩ و ١۴، ك ٧٨ ب ۴٢، ك ٨٩ ب ١، ك ٩٣ ب ١٠، مس- ك ١ ح ۶۶- ۶٨، ك ۴۵ ح ١۶١- ١۶۵، تر- ك ٣٨ ب ١٠، ك ٣۴ ب ۵٠، نس- ك ۴٨ ب ٢- ۴، حم- ثالث ص ١٧٢ و ١٧۴ و ١٩٢ و ٢٠٠ و ٢٠٢ و ٢٠٧ و ٢٠٨ و ٢١٣ و ٢٢۶ و ٢٢٧ و ٢٢٨ و ٢٣٠ و ٢۵۵ و ٢٧۵ و ٢٧۶ و ٢٧٨ و ٢٨٣ و ٢٨٨ ط- ح ٢١٣١

(٢)). المصدر نقلًا عن بخ- ك ٢ ب ٨، ك ٨٩ ب ١، ك ٩٣ ب ١٠، مس- ك ١ ح ۶۶- ٧٠، تر- ك ٣۴ ب ۵٠ ك ٣٨ ب ١٠، نس- ك ۴۶ ب ٣- ۴ و ١٩ و ٢٠، مى- ك ٢٠ ب ٢٩، حم- ثالث ص ١٧٢ و ١٧۴ و ١٧٧ و ١٩٢ و ٢٠٠ و ٢٠٢ و ٢٠٧ و ٢٠٨ و ٢١٣ و ٢٢۶ و ٢٢٧ و ٢٢٨ و ٢٣٠ و ٢۵۵ و ٢٧۵ و ٢٧۶ و ٢٧٨ و ٢٨٣ و ٢٨٨، رابع ص ٢٣٣ و ٢٣۶، خامس ص ١٧٠ و ٢٣٣ و ٢٣۶ و ٢٩٣ ط- ح ٢١٣١

(٣)). هي متواترة في عشرات من الروايات عن الرسول صلى الله عليه و آله كما في ملحقات إحقاق الحقفليراجع

(۴)). هي متواترة في عشرات من الروايات عن الرسول صلى الله عليه و آله كما في ملحقات إحقاق الحقفليراجع

(۵)). هي متواترة في عشرات من الروايات عن الرسول صلى الله عليه و آله كما في ملحقات إحقاق الحق فليراجع

(۶)). هي متواترة في عشرات من الروايات عن الرسول صلى الله عليه و آله كما في ملحقات إحقاق الحق فليراجع

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٣٠

وهذه الآية تنديدة شديدة مديدة بهؤلآء الذين ظلوا بعد الفتح بمكة مصلحيةَ الحفاظ على أموالهم وأهليهم خوفَ تهدُّرهما رغم التهدُّر من دينهم واستمرارية السلطة المشركة عليهم.

ذلك، ثم «لا تجعلن أكثر شغلك بأهلك ووَلَدك، فإن يكن أهلك وولدك أولياء اللّه فإن اللّه لا يضيع أولياءه، وإن يكونوا أعداء اللّه فما همك وشغلك بأعداءِ اللّه». «١»

وهنا سير تنازلي في الولاية أمام اللّه، ألّا تولوا الكافرين من هؤلآء، ثم لا يكونوا أحب إليكم من اللّه ورسوله وجهاد في سبيله وإن كانوا مؤمنين، فالآية السابقة للأولى، والأخرى للأخرى، توحيداً وطيداً لولاية اللّه ورسوله وحبه والجهاد في سبيله، تفضيلًا فضيلًا له على مَن سواه من نفس أو نفيس، فإن كل متعَلق دون اللّه نحيس بخيس.

ثم «فتربصوا حتى يأتي اللّه بأمره» توعيد بمن يحب غير اللّه أكثر من اللّه مهما كان مؤمناً، فضلًا عن حب الكافرين من الأرقاب أو تولِّيهم فإنهم- إذاً- حيَّات وعقارب.

و «أمره» المتوعيد هنا يعم أمر الحياة لهم إلى أن يأتي اللّه بقوم يحبهم ويحبونه:

«يا ايها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي اللَّه بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل اللَّه ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل اللَّه يؤتيه من يشاء واللَّه واسع عليم». «٢» «ويستبدل قوماً غيركم». «٣»

ومن هؤلآء- إلى الذين يأتون في آخر الزمان- هم الذين فتح اللَّه بهم مكة المكرمة، فحين لم يهاجر جماعة من المؤمنين إلى المدينة تحبباً إلى أموالهم وأهليهم وتحفظاً عليهم فليتربصوا «حتى يأتي اللَّه بأمره» بمن يفتح اللَّه بهم عاصمة الدعوة وأنتم بعدُ لازقون بها مخلدين إليها لازمين، رغم كرور الأمر بالهجرة عنها.

---

(١)). نهج البلاغة (٣٥٢ ح/ ٦٣٦ عن الإمام علي عليه السلام

(٢)). سورة المآئدة ٥: ٥٤

(٣)). سورة التّوبة ٩: ٣٩

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٣١

وذلك التجرد عن كل آصرة أمام حب اللَّه يطالَب به الفرد والجماعة المؤمنة، أن يتصبَّغوا بصبغة اللَّه، فرغم أنه شاقٌّ حسب الطبيعة البشرية، ولكنه سهل يسير على المؤمن الذي لايخشي أحداً إلَّا اللَّه.

فالتجرد في اللَّه عن كل آصرة ووسيلة ووصيلة وفصيلة، عن كل نفس ونفيس، هو قضية الإيمان الصادق الأمين باللَّه ورسوله، فجهاد في سبيله.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٣٢

.. بما ظلموا واخرجوا من ديارهم

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ «١»

قد تلمح «هاجروا» بمضيها أنها السابقة على نزول الآية إذاً فهي الهجرة إلى المدينة، فالآية إذاً مدينة في سورة مكية، ولكنها قد تعني الهجرة إلى الحبشة، السابقة على هذه الآية في مكة، ثم المهاجرة هى حجر الأساس في حكم الآية، سواء اكانت سابقة أم لاحقة، إذاً فهي تشمل بتجريدها عن مضيها كل مهاجرة في اللَّه من بعد ماظلموا، من مكة إلى الحبشة، ومن المدينة الى مكة حيث كان من الانصار مهاجرون لان المدينة كانت دار شرك، ثم من مكة الى المدينة، ومن ثم كل انتقالة في اللَّه من مكان إلى مكان اياً كان وايان ما طلعت الشمس وغربت.

فقد يهاجر- للحفاظ على ايمانه أم نشر الايمان- عن وطن أم مال وأهلين، وأخرى عن حياة عن بكرتها حيث تكون حياة الإيمان في خطر السقوط، فإذا دار الأمر بين حياتي أنا وحياة الايمان فالايمان أحرى بالبقاء.

وفي الخبر «لا يدخل الجنة إلّا من هاجر» حيث تعم صيغة المهاجر كلَّ أهل الجنة، وغير المهاجر في النار، فليس- فقط- مهاجرة خاصة من مكان إلى آخر، بل هجران المعاصي والتباعد عن المآسي، وتحقيقاً لكلمة الحق: «لا إله إلا اللَّه».

«لا إله» تقتضي المهاجرة عن ابعاد ثلاثة من المحرمات وهي النفسية والجماعية والمعيشية تحت السلطة الطاغوتية، كما «إلا اللَّه» تثبيت لثلاثة أخرى هي النفسية والجماعية وتثبيت السلطة الربانية، فالمؤمن مهاجر على أية حال ما دام هنالك فسق أو كفر فردي أم جماهيري أم في الحكم حيث المسؤولية لنفي الباطل وتحقيق الحق تشكِّل الحياة الإيمانية.

(١)). سورة النّحل ١٦: ٤١

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٣٣

ثم المهاجرة هي التباعد فقد تكون مهاجرة في اللّه كما هنا، أم مهاجرة في الشيطان، ثم الأولى قد تكون من بعد ما ظُلموا كما هنا وهي أفضلها، وأخرى من بعد ما ظَلموا بمقامهم في دار المجرمين ثم تابوا وهاجروا وهي أوسطها، وثالثة لم يَظلموا ولم يُظلموا وانما يهاجرون لبسط الدعوة الإلهية فكالأولى، أم تزيدها فضلًا حيث تكون الدعوة أفضل وأشمل دون اختصاص بالحفاظ على إيمان المهاجر.

فكلما كانت الهجرة في اللّه أصعب، والدعوة فيها الى اللّه اتم واتعب، كانت الهجرة افضل وأوعب، والآية تبين موقف المهاجرة الفضلى الشاملة للرسول والذين معه وهي ذات درجات حسب الدرجات، مهاجرة إلى الحبشة «١» ثم الى المدينة المنورة «٢» وفي الكل مهاجرة من الشهوات والإنيات والأنانيات الى اللّه وفي اللّه، مهما كان فيها تنقُّل مكاني أم لم يكن، حيث إن حجر الأساس فيها التباعد عما سوى اللّه الى اللّه وفي اللّه، مهما اختلف الظروف والأشكال، فالمهاجرة في اللّه لا تحدّ بحدود المكان والزمان وإنما هي المكانة والإيمان يهاجُر للحافظ عليه والمزيد فيه، ف «إن المهاجر من هجر ما نهى اللّه عنه، هجر السوء والخطايا والذنوب» «٣» ولقد «كان من الأنصار مهاجرون لأن المدينة كانت دار شرك» «٤» «كانوا من المهاجرين لأنهم هجروا المشركين». «٥»

فالمسلم المصابر على إيمانه، المتثابر في اللّه، إنه من المهاجرين أينما حل أو ارتحل أم سكن واستكن، وجملة القول في المهاجرة ككل أنها تنقسم حسب

---

(١)). الدر المنثور ٤: ١١٨- اخرج عبد حميد وابن جرير وابن المنذر وابن حاتم عن قتادة في الآيةقال: هم اصحاب محمد ظلمهم اهل مكة فاخرجوهم من ديارهم حتى لحق طوائف منهم بارض الحبشة ثم بوأهم اللّه المدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار هجرة وجعل لهم انصاراً من المؤمنين.

(٢)). المصدر اخرج ابن جرير وابن حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: انهم قوم من اهل مكة هاجروا الى رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله بعد ظلمهم وظلمهم المشركون

(٣)). صحيح البخاري باب الايمان ٤

(٤)). سنن النسائي البيعة ١٣

(٥)). سنن النسائي البيعة ١٣

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٣٤

الأحكام التكليفية، خمس بخمسة فصالحاتها درجات كما طالحاتها دركات.

ثم المهاجرة في اللّه هي تُجسِّد كلمة التوحيد بسلبها: «لا إله» في سلبيات المهاجرة، وباثباتها: «إلا اللّه» في إيجابياتها، فكل من يحمل كلمة التوحيد فهو مهاجر في بُعديها على أية حال، حيث الحواجز في السلوك إلى اللّه كثيرة، فالموحد هو دائب المهاجرة في اللّه.

«لنبوئنهم في الدنيا حسنة» حياةً حسنة كما يطلبونها ليل نهار: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة» فالمهاجرة في اللّه تسهِّل كل صعب، وتحسّن كل سوءٍ «ومن يهاجر في سبيل اللّه يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة ومن يخرج من بيته مهاجراً الى اللّه ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على اللّه وكان اللّه غفوراً رحيماً». «١»

لا تفكر أنك اذا هاجرت وطنك وشغلك في اللّه تلقي بنفسك الى التبعثر والحيرة دون بواء، فقد وعدك اللّه بترك بوائك في اللّه «لنبوئنهم في الدنيا حسنة» رغم ان الدنيا دار عناء وشقة سيئة، وذلك طرف من الاجر ضئيل فان متاع الدنيا اياً كان قليل «ولأجر الآخرة» وحسنتها «اكبر» من اجر الدنيا وحسنتها «لو كانوا يعلمون» والبواء هنا لا تخص دار الهجرة مهما كانت من البواء الحسنة، حيث النص «لنبوئنهم في الدنيا حسنة» سواء أكانت بواء دار الهجرة ام الرجوع الى ارض الوطن ام فيهما، وعلى اية حال فهي البواء والحياة الحسنة، الملائمة للحفاظ على كرامة الايمان، مهما كانت فيها صعوبات في ظاهر الحال ..

وترى من المعنيون هنا ب «يعلمون»؟ اهم المهاجرون في اللّه؟ وهم بطبيعة الحال يعلمون، وإلّا فلم يهاجرون ان لم يكونوا يعلمون!، ثم و «لو» المحيلة عادياً لمدخولها تُحيل لهم ان يعلموا خير أجر الآخرة، وانه اكبر، فليسوا- اذاً- إلّا المشركين السابق ذكرهم، ثم وليست «لو كانوا يعلمون» لتختص علمهم بحسنى الآخرة، بل وقبلها

---

(١)). سورة النّساء ٤: ١٠٠

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٣٥

حسنى الدنيا، والكفار لا يعلمون الحسنيين، اذ لا يعرفون حسنى الحياة الدنيا، ولا يصدقون الاخرى فضلًا عن حسناها!

عاقَبوا بمثل ما عاقبوا به .. ثم قتلوا او ماتوا

في هذه الآيات تعقيبات لما سلفت من الاذن في القتال، مهاجرةً في سبيل اللّه مع وعد النصر في ختام بأمره الجهاد حق الجهاد واعتصام باللّه «ونعم النصير».

والمهاجرة في سبيل اللّه- وحياة المؤمن كلها مهاجرة- هي تجرُّدة كاملة شاملة من كل ما تهفو له النفس في سبيل غير اللّه، إيثاراً لتلك السبيل على كل سبيل.

ولا تعني المهاجرة هنا- فقط- ترك الوطن السكَن إلى كما حصل مرتين في مكة المكرمة، تارة الى الحبشة واخرى الى المدينة، حيث المهاجرة في اللّه لا تحمل معها صورة خاصة، ولا سيما ان السورة مدنية وقد تمت تلك المهاجرات الخاصة، وانما تعني التباعد عن كل ما يعرقل المسير في سبيل اللّه، واهمه المهاجرة الأنفسية، ثم الافاقية هي من مظاهرها، فقد تقتضي الهجرة عن ارض الوطن، وأخرى البقاء في ارض الوطن، كما قد تنتهي الى القتل واخرى الى الموت.

ومن ميِّزات هذه الآيات ان تسعاً منها متتالية تحمل ثمانية عشر من اسماء اللّه تعالى، تُختم كل واحدة باسمين من اسماء اللّه الحسنى بعد الجلالة: وان اللّه لهو خير الرازقين- العليم الحليم- العفوُّ الغفور- السميع البصير- العلي الكبير- اللطيف الخبير- الغني الحميد الرؤوف الرحيم، أحياكم ثم يميتكم».

وهذه ظاهرة منقطعة النظير في الذكر الحكيم، مما يدل على عظم الموقف للمهاجرين في سبيل اللّه:

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ا ٥٨ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ «١»

---

(١)). سورة الحج ٢٢: ٥٨- ٥٩

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٣٦

هنا «هاجروا في سبيل اللّه» هو الأصل «ثم قتلوا او ماتوا» دون تفاضل، فقد يُقتل في سبيل اللّه، وقد يَقتل ثم يموت، ام لا يَقتل ولا يُقتل ثم يموت، والمهاجر في سبيل اللّه هو في ايٍّ من هذه الحالات الثلاث على سواء في «ليرزقنهم رزقاً حسناً» بعد القتل او الموت، وهو حياة طيبة عند اللّه، ممتازة عن سائر الحياة لسائر القتلى أو الأموات الذين لم يهاجروا في سبيل اللّه، ثم لم يقتلوا او يموتوا في سبيل اللّه، مهما كانوا مؤمنين، فان المهاجرة في سبيل اللّه تصبّغ القتل او الموت بنفس الصبغة الآلهية «صبغة اللّه ومن احسن من اللّه صبغة ونحن له عابدون». «١»

إذاً فلا يفضَّل في سبيل اللّه على الميت في هذه السبيل ويفضُّل ذلك الميت على القتيل في غير هذه السبيل «٢» وقد سمع سلمان الفارسي النبي صلى الله عليه و آله يقول: من مات مرابطاً اجرى اللّه عليه مثل ذلك الأجر وامن الفتانين، واقرؤوا ان شئتم «والذين هاجروا- الى قوله- حليم» «٣» بل والآيتان نزلتا بشأن الميت في هذ السبيل. «۴»

وهذه التسوية هي قضية «ان اللّه لهو خير الرازقين» حيث المفاضلة هنا خلاف الخير، كما هي قضية انه «عليم» باحوال المهاجرين في سبيل اللّه، ولو كان بينهم تفضيل فهو على حدّ السبيل، وانه «حليم» بعباده، فلا يختص رزقُه بخصوص القتل في سبيله، حيث الأصل هو المهاجرة في هذه السبيل، فمن يعيش حياتَه مهاجرة في سبيل اللّه، فهو من اهل هذه الآية على قدر نصيبه من هذه السبيل: «ومن يهاجر في

---

(١)). سورة البقرة ٢: ١٣٨

(٢)). الدر المنثور ۴: ٣۶٩- اخرج ابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم عن فضالة بن عبيدالانصاري الصحابي انه كان برودس فمروا بجنازتين احدهما قتيل والآخر متوفى فمال الناس على القتيل فقال فضالة: مالي ارى الناس مالوا مع هذا وتركوا هذا؟ فقالوا: هذا القتيل في سبيل اللّه، فقال: واللّه ما ابالي من اي حفريتها بعثت اسمعوا كتاب اللّه: «والذين هاجروا ..»

(٣)). المصدر اخرج ابن ابي حاتم وابن مردويه عن سلمان الفارسي سمعت رسول اللّه صلى الله عليه و آله يقول: ...

(۴)). في جوامع الجامع وروى انهم قالوا: يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما اعطاهم اللّه من الخير ونحن نجاهد معك كما جاهدوا فما لنا ان متنا معك، فانزل اللّه هاتين الآيتين

سبيل اللّه يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة ومن يخرج من بيته مهاجراً الى اللّه ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع اجره على اللّه وكان اللّه غفوراً رحيماً». «١»

فهنا الموت وهو اعم من القتل، وهناك القتل او الموت، مما يدل على ألّا فارق بينهما ما هما مشتركان «في سبيل اللّه» اللهم إلا تفارقاً في درجات السبيل، فقد يفضل قتيل على ميت او قتيل، او ميتٌ على ميت او قتيل «ولكل درجات مما عملوا وما ربك بظلام للعبيد».

ذلك ترغيب عام هام بالنسبة للمهاجرة في سبيل اللّه، ولان طبيعة الحال في حياة المهاجرة ان يتربص بها دوائر السوء، يتلوه وعد النصر:

ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ «٢»

فهذه ضابطة عامة هي السماح في المعاقبة بالمثل في سبيل اللّه، وأما المعاقَب في غير سبيل اللّه فلا سماح له بالمثل اذا كان تأديباً ام ردُّة فعل لما أخطأ، اللهم إلا من ظُلم.

فالمعاقِب بالمثل إذا بغي عليه، انه موعود بالنصر، حيث عوقب في سبيل اللّه، وعاقب بالمثل باذن اللّه، فاذن: «لينصرنه اللّه ان اللّه لعفو غفور».

اترى ما هي الصلة بين وعد النصر لمن بغي عليه وبين عفو اللّه وغفره؟ علّه بمناسبة شأن النزول حين دافع سرية الرسول في الشهر الحرام عن انفسهم فتحرجوا. «٣»

ثم المعاقبة بالمثل مسموحة كضابطة وليست واجبة الا احياناً، وهي مرجوحة

---

(١)). سورة النّساء ٤: ١٠٠

(٢)). سورة الحج ٢٢: ٦٠

(٣)). الدر المنثور ٤: ٣٦٩- اخرج ابن ابي حاتم عن مقاتل في الآية قال: ان النبي صلى الله عليه و آله بعث سرية في ليلتين بقيتا من المحرم فلقوا المشركين فقال المشركون بعضهم لبعض قاتلوا اصحاب محمد صلى الله عليه و آله فانهم يحرمون القتل في الشهر الحرام وان اصحاب محمد صلى الله عليه و آله ناشدوهم وذكروهم باللّه ان يعرضوا لقتالهم فانهم لا يستحلون القتال في الشهر الحرام الا من بدأهم وقاتلوهم فاستحل الصحابة قتالهم ونصرهم اللّه عليهم

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٣٨

اخرى على سماحها، «وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفى واصلح فاجره على اللّه». «١» «وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين». «٢»

كيف لا «فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لاثم فان اللّه غفور رحيم». «٣» فالغفر شامل حتى موارد السماح بالاضطرار فضلًا عن غير الاضطرار مهما كان مسموحاً، حيث الاصل المحلّق على الاصول هو التغامض عن المعاقبة بالمثل، ما كان دفعاً للسيئة بالحسنة «ادفع بالتي هي احسن السيئة» ام دون دفع ما لم يخلِّف تطاولًا من الظالم عليه وعلى من سواه من المظلومين علّه ينتبه.

فقد يبتلى المؤمن بالمعاقبة بالمثل والظرف رجاحة العفو والإصلاح، فالنصرة الإلهية تشملة كظروف الرجاحة والوجوب «ان اللّه لعفو غفور» عن مثل ذلك اللمم.

ثم الغَفْر لا يختص برفع اثر العصيان بعد ما كان، بل ودفع العصيان عن المعفو، من نفسهام سواه، فحين يعاقب المؤمن بالمثل ثم يُبغى عليه يعفو اللّه عما فعل ويغفر له دفعاً عنه من نفسهام سواه عن التطاول، حيث المعاقبة تخلِّف تطاولًا طائلًا من المعاقب عليه واللّه يغفره ويستره عن المظلوم ف «ان اللّه لعفو غفور» تتبع في معناها موارده، وهذه المعاني معنية حسب الموارد المختلفة.

للمجاهدين علامات

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ «٤»

---

(١)). سورة الشّورى ٤٢: ٤٠

(٢)). سورة النّحل ١٦: ١٢٦

(٣)). سورة المائدة ٥: ٣

(٤)). سورة محمد صلى الله عليه و آله ٤٧: ٣١

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٣٩

سنة حتمية تربوية إلهية هي بلوى المؤمنين، إمتحاناً دون امتهان، إختياراً لنفوسكم في معتركات البلايا والرزايا في سبيل اللّه: «حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين» ومن ثم إختياراً لأعمالهم التي تخبر عن نفوسهم كإذاعات خارجية:

(ونبلو اخباركم). و (نعلم) هنا كما في نظائرها «١» هي من العَلَم: العلامة، لا العِلْم المعرفة، فاللّه لا تخفى عليه خافية، فإنه عليم بما في الصدور قبل أن تصدرها كأخبار، وإنه يعلم السر وأخفى، فكيف تخفى عليه السريرة وما دونها فيبلوهم لكي يعلم! وإنما هو عَلمٌ: أن يجعل بالبلوى: جهاداً وسواه- علامة على النفوس المجاهدة الصابرة المثابرة، بما تجاهد وتصبر وتصابر، وعلامة الأخبار الأفعال، فإنها علامات النفوس، فيعرفها الكيّسون من حق القول وحق الفعل، كما يعرف المنافقون من لحن القول ولحن الفعل، وكما يناسب دار الإبتلاء.

هذا: دون العِلم عن الجهل وحاشاه، فإنه هُراء! ودون العلم الفعلي أم ماذا فإنه تكلف وتعسف وكلام اللّه منه براء لانه بيان للناس وهدى ونور، وهو حمال ذو وجوه، فاحملوه على أحسن الوجوه: ف (حتى نعلم): نجعل علامة ل (المجاهدين منكم والصابرين) ومنها أخباركم: الأعمال الجهادية الصابرة التي تخبر عن طيبة نفوسكم:

(ونبلو اخباركم): حتى نعلم .. وحتى نبلو اخباركم، «٢» فبلوى المؤمنين ذريعة لعلامة الإيمان، ولبلوى أخبار الإيمان، فلا تظهر أخباركم الإيمان إلا في تقلب الأحوال، وعند تقلب الأحوال تعرف جواهر الرجال، وعند الإمتحان يكرم المرء أو يهان، فالإبتلاء بالبأساء والضراء، وبالسعة والنعماء، وما إلى ذلك من كرب وبلاء، إنها تكشف عما هو مخبوء في معادن النفوس، مجهول لسائر النفوس، بل ولأصحابها أيضاً، فإن حب الشيء يعمي ويصم، ومن ثم تتكشف لها ما خفي عنها انفسها وقبل

---

(١)). نجد في أحد عشر موضعاً في القرآن، لم تأت في أحدها موجهاً على مفعولين، والعلميتعلق دائماً بمفعولين، فليس إلا عَلْماً- من علِمَ يعلِم عَلْماً وعلامة- لا علم يعلَم علماً، يدل على ذلك وحدة المفعول وأدلة الآيات والعقول، رغم انه لم يذهب اليه أحد فيما أعلم، فكم ترك الأول للآخر!. (الفرقان م ٩)

(٢)). ف «نبلوَ» مفتوحة بالعطف على المجاهدين، فهما اذاً مقصودان في «حتى نعلم» فالعلامة هنامنها خفية هي علامة الايمان في القلب، ومنها ظاهرة هي علامة أخبار الجهاد والصبر، فبلوى هذه الاخبار هي من «نعلم المجاهدين ..» ولكي تظهر علامة الايمان الخفي، بمن يعلم السر وأخفى

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٤٠

أن تظهر أخبارها كما تتكشف لغيرها بعد أن تُبلى أخبارها، فكل بلوى تخلِّف عَلْمين:

علامتين، واحدة سراً لذوات الصدور، واخرى جهراً لسائر الناس: (حتى نعلم .. ونبلو اخباركم)!

لنهديهم سبلنا

وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَإِنَّ اللّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ «١»

وقد يختلف «جاهدوا فينا» عن «جاهدوا في سبيلنا» حيث الأول أخص، والجهد فيه امسُّ، وعبارة أخرى عن «جاهدوا فينا»: جاهدوا في الله كما «وجاهِدوا في الله حق جهاده» المخاطَب فيها أهل الله الخصوص حيث تتلوها- «هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة ابيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس ..» «٢»

ففي (٣٠) موضعاً من القرآن المذكور فيها المجاهدة بصيغَها المختلفة لا نجدها في الله إلّا في هاتين، ثم البقية بين في سبيل الله ام مطلقها بالأموال والأنفس أماذا؟

مما يدل على أن المجاهدة في الله هي القمة المرموقة منها بين درجاتها.

فهنا جهاد في سبيل الله يؤمر به كل من يؤمن بالله، ثم جهاد في الله يؤمر به أهل الله الخصوص، فيعدهم هنا «لنهدينهم سبلنا» وهي غير سبيل الله الواضحة لكل من يجاهد فيها.

فالسبل الربانية الغامضة التي لا يُهتدى اليها إلّا بالجهاد في الله، وهي عِدة حسب عِدّات الجهاد في الله وعُدَّاته، إنها سبيلَ الله المعروفة لكافة المكلفين المأمورين بالجهاد فيها.

---

(١)). سورة العنكبوت ٢٩: ٦٩

(٢)). سورة الحج ٢٢: ٧٨.

في تفسير القمي في رواية ابي الجارود عن ابي جعفر عليه السلام قال: هذه الآية لآل محمد عليهما السلام ولأشياعهم

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٤١

إذاً فللجهاد ترتيب ثلاثي: في سبيل الله- في الله- ثم الاهتداء إلى سبل الله، والمحسنون هنا هم «الذين جاهدوا فينا وان الله لمع المحسنين» معية الرحمة الواصبة التي فيها هداية سُبل الله معرفية وعلمية وعملية أماهيه، وهي بصيغة اخرى جَنَّة معرفية.

ثم «في الله» و «فينا» كما تختلفان رتبة عن «في سبيل الله» كذلك بينهما، فقد يفوق الجهادُ في الله- كما في آية الحج للوسطاء الشهداء بين الرسول والأمة- يفوق الجهادَ فينا كما هنا.

فهو في الله لا يعني إلّا الله لأنه الله، جهاداً معرفياً أو عملياً، وهو فينا قد يعني صفات الله كما واسماءه الحسنى حيث الجمع في «فينا» كاضرابها يعني جمعية الصفات، ثم هو في سبيل الله أدنى الجهاد مهما عم التكليف به لكافة المكلفين.

ف «الذين جاهدوا فينا» هم الوسط بين الذين جاهدوا في الله والذين جاهدوا في سبيل الله، والجهاد في الله بجمعية صفاته، ألّا ينحو فيه المجاهد إلّا منحاه، تغافلًا عن نفسهومُناها إلّا إياه، متدنياً إلى الله متدلياً بالله، وعند ذلك «لنهدينهم سبلنا» ككل، لأنه استخدم جهاده «فينا» ككل، وأن ليس للإنسان إلّا ما سعى.

وهكذا يعدنا ربنا- ومن أحسن من الله وعداً- أن الجهاد في الله يخلِّف الإهتداء إلى سبل الله، وهي سبل السلام على ضوء نوره وكتابه المبين، بتبيين رسوله الأمين:

«... قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور باذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم». «١»

فالجهاد في الله هكذا سبيل إلى «سبلنا» وهي سبيل إلى «صراط مستقيم» وهو الغاية المرموقة المقصود للسالك إلى الله، والطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق! فهناك سبل المرسلين: «وما لنا ألّا نتوكل على اللّه وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما

---

(١)). سورة المآئدة ٥: ١٦

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٤٢

آذيتمونا وعلى اللّه فليتوكل المتوكلون». «١» وهنا سبلهم وكافة المجاهدين «لنهدينهم سبلنا» «وأن اللّه ليس للإنسان إلّا ما سعى»، ثم: «إن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله». «٢» فالمجاهدات والإرتياضات غير الموافقة لشرعة القرآن هي كلها هباءٌ وخواء، قالةً أم فعالةً، ف «لا قول إلّا بعمل، ولا قول ولا عمل إلّا بنية، ولا قول ولاعمل ولا نية إلّا بإصابة السنة» وهي سنة اللّه على ضوء القرآن والسنّة.

إنما من جاهد يجاهد لنفسه

وَمَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ «٣»

«ومن جاهد» طبعاً في سبيل اللّه وفي اللّه وإلّا لكانت على نفسه لا لنفسه «فانما» دونما إبقاء «يجاهد لنفسه» فانها سعي لصالحة نفسه في الحياتين، وليسن لصالح ربه ف «إنّ اللّه لغني عن العالمين» والمجاهدة هي المبالغة في الجهاد فانها مفاعلة بين طرفي النزاع، وليس جهاداً دونما منازع، فهنا نزعات النفس ورغباتها تعرَقل المسير، وكما هناك الرغبات والنزعات الإبليسية خارجة النفس، والعقل المتبني الفطرة المتأيد بوحي السماء هو المجاهد الوحيد في ميادين السباق بهؤلآء الرفاق الأقوياء، وحياة المؤمن هي سلسلة معارك الجهاد آفاقياً وانفسياً في سبيل اللّه، دونما فترة ولا فطور، وإلّا لكانت حياةً جاهلة قاحلة، مقلوبة في إنسانيتها فضلًا عن إسلاميتها.

فقد تجاهد اللّه ولا عائدة منها إليك في أمرها فتتهاون- إذاً- فيها، أو قد يشاركك

---

(١)). سورة ابراهيم ١٤: ١٢

(٢)). سورة الأنعام ٦: ١٥٣

(٣)). سورة العنكبوت ٢٩: ٦

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٤٣

اللّه في تلك العائدة نصف لك فكذالك الأمر وأقوى، ولكن اللّه غني عن العالمين و «من جاهد فانما يجاهد لنفسه» وما اللّه إلّا دليل الرشاد وموقف العباد في كل جهاد، فلماذا إذاً التهاون في سبيل الجهاد.

وما سبيل اللّه في جهاد وسواه، إلّا سبيل صالح المجاهد في اللّه، حيث يبلّغه مناه، ويمده إلى مداه، ويهديه هداه، وما وعدُ الثواب للمجاهدين إلّا رحمة من اللّه وفضلًا دونما استحقاق، فالجهاد بالنفس والنفيس بكل غال ورخيص، يُصلح من نفس المجاهد وقلبه، ويرفع من تصوراته وآفاقه، فيستعلي به على الشح، ويستجيش افضل ما كيانه وإمكانه من عِدّات وعُدّات.

حتى تعني لقاء ربوبية الجزاء! بل ولقاء الرب ايضاً تعمها وسواها من لقاء يرجى لقبيل الايمان: «فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملًا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه احداً».

بل ورجاء اللقاء دون يقينه قد يختصه بغير الحياة الآخرة لأنها متيقنة لأهلها حيث: «يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون»، «١» فهو إذاً رجاء اللقاء المعرفي ورجاء الثواب في الدارين، ولا سيما في «لقاءالله»، وليس في القرآن رجاء اللقاء إلّا للمؤمنين «لقاء اللّه» كما هنا و «لقاء ربه» كما في الكهف، ثم «لا يرجون لقاءنا». «٢» للكافرين.

انه «لقاء اللّه» معرفياً بعبودية، وعبودياً بمعرفة، محلقاً على كل درجات الزلفى إلى اللّه حسب درجات العبودية والمعرفة.

و «كان يرجوا» تضرب إلى أعماق الماضي كماً وكيفاً، أن أصبح رجاء لقاء اللّه عشيراً له في حياته، ولا يصلح رجاء إلّا بتقديم أسباب للحصول على المرجو، والعبودية والمعرفة الإيمانية هما السببان الرئيسيان للقاء اللّه في الآخرة والأولى، و «اجل اللّه» هنا هو الوقت المؤجل للقاءه عاجلًا أم آجلًا، كلما ازدادت المعرفة زادت العبودية، وكلما ازدادت العبودية زادت المعرفة، حتى يصبح العبد «أوّل العابدين» في

---

(١)). سورة الرّعد ١٣: ٢

(٢)). سورة يونس ١٠: ٧

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏٧، ص: ٢٤٤

عبوديته، ومتدلياً باللّه في معرفته، حيث لا يبقى بينه تعالى وبينه اي حجاب حتى حجاب نفسه إذ يتغافل عنها في تلك الجذبة الربانية، فلا يبقى إلّا حجاب الذات، حينما تفنى حجب الإنيات. فرجاء اللقاء بشروطه الصالحة يَخْلفه وبقدره ودونما تخلُّف «أجل اللّه» لذلك اللقاء «وان ليس للإنسان إلّا ما سعى» والراجي المفتاق المشتاق يلقى اجل اللّه أياً كان «وهو» لا سواه «السميع» صوت القال والحال وصيتهما «العليم» بكل حال وقال وأفعال.

جاهِدوا مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله

وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ «١»

«سورة أن آمنوا» قد تعني إلى «سورة» كاملة تحمل الأمر بالإيمان والجهاد، مجموعة آيات تحملهما، بل ولا سورة في القرآن كاملة تحمل أمرهم بالإيمان والجهاد، فإن سورة «المنافقون» الخاصة بهم لا تحملهما، فالمعني من «سورة» هنا هو مجموعة من آيات تعني غرضاً واحداً.

«إستأذنك أولوا الطول منهم»: بسعة في المال وقوة في البدن، حيث الطول يعمهما، فرغم أنهم الذين يجب عليهم أن يستقدموا نراهم يستأخرون قائلين: «ذرنا نكن مع القاعدين».

هم يقولون «ذرنا نكن مع القاعدين» الذين قعدوا عن القتال معذورين، ولكنهم في الحق قاعدون مع سائر الخالفين:

رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَايَفْقَهُونَ «٢»

---

(١)). سورة التّوبة ٩: ٨٦

(٢)). سورة التّوبة ٩: ٨٧

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏٧، ص: ٢٤٥

«الخوالف» جمع خالفة وتاءها للتأنيث اعتباراً بأنهن النساء، «١» وسائر الضُّعفان، والمعذورين، مهما كانوا من أشجع الشجعان المناضلين.

وذلك لأنهم أجمع يظلمون في أمكنتهم دون خروج للحرب مهما اختلف أعذارهم، ومنهم غير معذورين.

ومن الخالفين النساء حيث يقمن في دور الحي بعد رحيل الرجال، سُمِّين بها تشبيهاً لهن بالأعمدة تكون في أواخر البيوت المضروبة، لأنهن كماهيه خوالف في البيوت لكثرة لزومهن إياها.

أم وهي للمبالغة، وهم المتخلفون على مكنتهم بدنياً ومالياً، فالخوالف تشمل المتخلفين قاصرين ومقصرين، وكون القادرين على الخروج كالخوالف المتخلفين قصوراً أو تقصيراً تنديد بهم شديد ف «طبع على قلوبهم» أكثر ممن سواهم «فهم يفقهون» الحقائق المعنية، وفاعل الطبع هنا هم أنفسهم، ثم الله طبع على قلوبهم بما طبعوا «فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم» ف «الخالفين» هنا تعني المقصرين منهم إلى القاصرين، وقد يُعنى معهم العدول الصالحون.

فيا لهم- على طَولهم- من بؤس وخذلان حيث رضوا بأن يكونوا مع الخوالف المتخلفين المقصرين والمخلفين القاصرين، فهم على طَولهم بين مقصر وقاصر.

ذلك ومن «الخوالف» الصالحين مَن خلَّفهم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله من أشجع الشجعان كما خلف رسول اللَّه صلى الله عليه و آله علياً في غزوة تبوك وهو يبكي ويقول تخلفني مع الخوالف فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلَّا النبوة». «٢»

ولأن «رضوا ..» هنا في موقف التنديد فالقصد من مثلث الخوالف- إذاً- هم دون

---

(١)). نور الثقلين: ٢: ٢٥١ في تفسير العياشي عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: «رضو بأن يكونوامع الخوالف» فقال: النساء انهم قالوا «أن بيوتنا عورة» وكان بيوتهم في أطراف البيوت حيث ينفرد الناس فأكذبهم اللَّه قال: «وما هي بعورة أن يريدون إلا فراراً» وهي رفيعة السمك حصينة

(٢)). الدر المنثور ٣: ٢٦٦- أخرج ابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص أن علي بن أبي طالب عليه السلام خرج مع النبي صلى الله عليه و آله حتى جاء ثنية الوداع يريد تبوك وعلي يبكي ..

الأخير المخلّف على قوته ليكون خليفة الرسول صلى الله عليه و آله بعد غيابه وحتى إيابه.

ذلك، وهنا «أن آمنوا» خطاباً موجهاً إلى المنافقين دليل أنهم ليسوا داخلين في المؤمنين، مهما شملتهم خطابات الإيمان فيما لا قرينة فيه على إختصاصها بإيمان القلب.

وهنا «أولوا الطَّول» هم الرؤوساء الذين عليهم التقدم في أمر الجهاد، لطَولهم ولكونهم يُقتدى بهم، ففي تركهم الجهاد- إذاً- ثالوث من التخلفات، تخلف دون عذر، وتخلف على طَول، وتخلف يخلِّف تخلف الآخرين التابعين لهم.

فمن الناس من لا حول له ولا طَول وهو يتقدم للجهاد وما أكرمهم! ومنهم من يملك كل حول وطول ولا يتقدم وما الأمهم وألعنهم، ومنهم عوان بينهما متوسطين، فهم عوان بينهما «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى».

وأولوا الطول من المنافقين هم متخاذلون على طَولهم، إستخذاءً أمام واجب الجهاد، فهنا خطتان، خُطة الإلتواء والإنكماش والتخلف والرضى بالأدنى، هي خطة المؤمنين، ومهما لم يعرّف اللّه- ما عرف من المنافقين- لغير الرسول صلى الله عليه و آله والحاضرين معه زمن الوحي، ولكنه عرَّفهم بكل معالمهم في أقوالهم وأحوالهم وأفعالهم، ما يرسم لنا خُطة لهم لئيمة معروفة على مدار الزمن.

فكما أن معرفة الشيطان بخطواته تكفينا عن معرفته بشخصه، كذلك معرفة المنافقين مهما كانوا أشطن من الشياطين.

ذلك، وإن للذل ضريبة أن للعز ضريبة هما ولكن ضريبة الذل أفدح بكثير وأقدح، فرغمٍ ما يخيَّل إلى بعض النفوس أن ضريبته الكرامة باهظة فتختار الذل هَرَباً من تكاليف الكرامة الباهظة، فتعيش عيشة رخيصة تافهة، قلقة مفزعة، تخاف من ظلها، وتفرق من صداها ف «يحسبون كل صيحة عليهم» و «لتجدنهم أحرص الناس على حياة ..» رغم كل ذلك نجدهم يؤدُّون ضريبة أفدح من ضريبة الكرامة، حيث يؤدون ضرائب الذل من كل أنفسهم ونفائِسهم وهم لا يفقهون أن لهم كل الشرور وهم

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٤٧

الفالجون المفلجون:

لَكِنْ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَا ٨٨ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ «١»

«لكن» هؤلآء هم طراز آخر حيث أدواء كل ضرائب الإيمان، رسولياً من الرسول ورسالياً من الذين آمنوا معه، ف «جاهدوا بأموالهم وأنفسهم» في كل ميادين الجهاد «وأولئك لهم الخيرات» كلها «وأولئك هم المفلحون» في ملتويات الحياة هنا وفي الأخرى: «أعد اللّه لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم».

وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنْ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ «٢»

هنا «المعذرون من الأعراب» هم قسم آخر من الخالفين، فالأعراب هم أهل البوادي، البعيدون عن صالح المعرفة الإيمانية، وإنما «المعذِّرون» دون «العاذرون- أو- المعتذرون» لتشمل إلى هؤلآء مَن يعتذر لمن سواه، إعتذاراً لأنفسهم وإعذاراً لمن سواهم.

ثم «قعد الذين» دون «قعدوا» تلمح أن المعذِّرين لم يقعدوا كلهم، إنما هم «الذين كذبوا اللّه ورسوله» والآخرون خرجوا كما خرج الآخرون، ولذالك «سيصيب الذين كفروا منهم» وهم «الذين كذبوا اللّه ورسوله» منهم «عذاب أليم».

ثم «كفروا منهم»: «المعذرون» دليل أنهم بين كافر نفاقاً، وبين معذور يعتذر لنفسه ولمن أشبهه، وبين غير معذور قد يخرج وقد لا يخرج والأولون من المعذرين هم المهدَّدون بعذاب أليم.

---

(١)). سورة التّوبة ٩: ٨٨- ٨٩

(٢)). سورة التّوبة ٩: ٩٠

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٤٨

فلو أنهم كلهم كانوا قاصرين معذورين، فما هو المرجع لضمير الجمع في «منهم»؟

ولا يصلح «الذين كذبوا ..» له مرجعاً حيث الكاذبون اللّه ورسوله كلهم كافرون.

ولكن «كذبوا» مخففة دون مثقلة ليست لتنافي الإيمان، حيث المعذِّر إذا كذب في اعتذاره فقد كذب اللّه ورسوله.

إذاً ف «المعذرون» تشمل الصادقين منهم والكاذبين، والآخرون هم أعم من الكافرون وسواهم، والكافرون منهم هم المهدَّدون بعذاب أليم.

إذاً ف «قعد الذين كذبوا اللّه ورسوله» هم بين كافرين منهم وسواهم لإشتراكهم في ذلك الكذب فإنه دركات، كما الصدق درجات.

ذلك، وإلى الإفصاح عن المعذورين بين المعذَّرين وسواهم، حيث أعذرهم اللّه:

لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَايَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ا ٩١ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَاأَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ «١»

هؤلاء الأربع ليس عليهم حرج إذا قعدوا «٢» وإن كان الخروج لهم أرجح لمكان «واللّه غفور رحيم» فلا غفر إلا عن متروك واجب أو راجح، فحين لا يجب الجهاد فقد يبقى راجحا، فإن بإمكان الضعيف على ضعفه والمريض على مرضه والفقير على فقره، بإمكانهم الجهاد قدر وسعهم، أم- ولأقل تقدير- أن يكثِّروا عديد المجاهدين في المنظر، فإن له أثراً في تخويف العدو، فلذلك قد يجب خروجهم كما في الإستنفار

---

(١)). سورة التّوبة ٩: ٩١- ٩٢

(٢)). في الدر المنثور ٣: ٢٦٧ عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب لرسول اللّه صلى الله عليه و آله براءة فكنت أكتبما أنزل اللّه عليه وإني لواضع القلم على أذني إذ أمرنا بالقتال فجعل رسول اللّه صلى الله عليه و آله ينظر ماذا ينزل عليه إذ جاء أعمى فقال: كيف بي يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله وأنا أعمى؟ فنزلت «ليس على الضعفاء ..» وفي المجمع نزلت في ابن مكتوم وكان ضرير البصر جاء إلى النبي صلى الله عليه و آله فقال يا نبي اللّه إني شيخ ضرير خفيف الحال نحيف الجسم وليس لي قائد فهل لي رخصة في التخلف عن الجهاد؟ فسكت النبي صلى الله عليه و آله فأنزل اللّه الآية

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٤٩

العام وقد مضى. «١»

ثم ونفي الحرج عن هؤلاء مشروط بما «إذا نصحوا للّهورسوله» إحساناً إلى الجهاد وتقويه للمجاهدين، وليس فقط أن يسكتوا عن تفشيلهم وتفليلهم فتقليلهم فإنه كفر في حقل الجهاد، بل «إذا نصحوا للّهورسوله» نصحاً موجهاً إلى المجاهدين، تقويه لهم وتشويقاً، أم توجيهاً لتكتيكات حربية، أم حفاظاً على أهليهم وما أشبه من حذمات وراء الجبهة، ونصحاً للخاملين المعذِّرين دون عذر، أن يتسابقوا إلى جبهات النضال.

فحين يُعذر المؤمن ويُحرج أن يجاهد بنفسه وماله، فلا يعذر إذاً- عن سائر الجهاد المعني بالنصيحة لصالح المجاهدين والجهاد، توجيهاً وجيهاً كما يستطيعون لتقوية العَدد والعُدد في هذه السبيل.

فهؤلآء هم المحسنون في حقل الجهاد، غير المحرَجين قضيةَ إعذارهم للخروج «وما على المحسنين من سبيل» الإحراج للإخراج «واللّه غفور» لهم «رحيم» بهم، إذ لم يقصِّروا في الجهاد مهما تركوا راجحاً في سبيله.

ولقد بلغت النصيحة للّهولرسوله لحد يقول عنها الرسول صلى الله عليه و آله «الدين النصيحة»؟

ولمن؟ «للّه ولكتابه ولرسوله ولدين اللّه ولأئمة المسلمين وعامتهم» «٢» و «على إقام

(١)). نور الثقلين ٢: ٢٥٢ في أصول الكافي عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: وكذلك إذا نظرت في جميع الأشياء لم تجد أحداً في ضيق ولم تجد أحداً إلا وللّه عليه الحجة وللّه فيه المشية ولا أقول أنهم ما شاؤا صنعوا ثم قال: إن اللّه يهدي ويضل، وقال: وما أمروا إلا بدون سعتهم، وكل شيء أمر الناس فهم يسعون له وكل شيء لا يسعون له فهو موضوع عنهم ولكن الناس لا خير فيهم ثم تلا: ليس على الضعفاء ...» فوضع عنهم «ما على المحسنين من سبيل واللّه غفور رحيم» «ولا على الذين ..» فوضع عنهم لأنهم لا يجدون

(٢)). المصدر أخرج مسلم وأبو داود والنسائي عن تميم الداري أن ر (رسول اللّه صلى الله عليه و آله) قال: .. قالوالمن يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله؟ للّه ..، ورواه عنه صلى الله عليه و آله باسقاط «ولكتابه» ابن عمر.

وفي نور الثقلين ٢: ٢٥٣ في كتاب الخصال عن تميم الداري قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: من يضمن لي خمساً أضمن له الجنة، قيل وما هي يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله: قال: النصيحة للّهعزَّ وجلّ والنصيحة لرسوله والنصيحة لكتاب اللّه والنصيحة لدين اللّه والنصيحة لجماعة المسلمين»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٥٠

الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم» «١» وهنا في حقل الجهاد ترغيباً إليه وإعانة عليه.

وبصيغة أخرى «الناصح للّهالذي يؤثر حق اللّه على حق الناس وإذا حدث له أمران، أو بداله أمر الدنيا وأمر الآخرة بدأ الذي للآخرة ثم تفرغ للذي للدنيا». «٢»

ولقد اعتبر الناصح للّهولرسوله هنا من قمة المحسنين، ثم أطلقت كضابطة: «ما على المحسنين من سبيل» لإحراجهم فيما يفلت من أيديهم غير مقصرين، وهناك فروع عدة متفرعة على هذه الضابطة:

١- الإحسان في حقل العقيدة يكفِّر لمماً فيها.

٢- الإحسان في حقل العمل كفارة لتقصير فيه كالتوبة عن الذنب «٣» وإجتناب كبائر السيئات، والإتيان بكبائر الحسنات، وسائر المكفِّرات المسرودة في القرآن.

٣- الإحسان في الحفاظ على الأمانة يكفر عن ضياعها فلا بديل عنها على المؤتَمن، بل وكل محسن إذا تفلَّت عنه- قصوراً دون تقصير- إضرار مالي على غيره، فلا سبيل إلى تحريجه في أخذ بديله عنه، اللّهم إلّا بدليل قاطع لا مردَّ عنه، أم يقال إنه خارج عن «المحسنين» مهما لم يكن من المسيئين أيضاً، فكما أن دم المسلم ليس ليذهب هدراً في قتل الخطأِ، كذلك مال المسلم، فإن حرمة مال المسلم كحرمة دمه.

فالذي يضيّع مال المسلم أمانةً وسواها، هو مسيءٌ عاص للّه، وهو مديون ما ضيَّعه، وأما الذي يَضيع مال مسلم عنده دون تقصير، فإن كان محسناً شملته الآية، وأما

(١)). وفيه أخرج البخاري ومسلم والترمذي عن جرير قال بايعت النبي صلى الله عليه و آله على إقام الصلاةوإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم» وفيه أخرج أحمد والحكيم الترمذي عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه و آله قال: قال اللّه عزَّ وجلّ: أحب ما تعبدني به عبدي إلي النصح لي

(٢)). الدر المنثور ٣: ٢٦٧- أخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد والحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن أبي حاتم عن أبي ثمامة الصائدي قال قال الحواريون يا روح اللّه أخبر مَن الناصح للّه؟ قال: الذي.

(٣)). نور الثقلين ٢: ٢٥٢ في الفقيه قال الصادق عليه السلام: شفاعتنا لأهل الكبائر من شيعتنا، فأماالتائبون فإن اللّه عزَّ وجلّ يقول: «ما على المحسنين من سبيل»

القاصر في ضياع مال المسلم فلا هو محسن ولا مسيءٌ، فكيف يدخل في نطاق الآية؟ وهنا ضابطة الغرامة محكَّمة بمجرد ضياع مال، فإنما الإحسان حسب هذه الآية هو الذي يستثني الغرامة.

وهنا «المحسنين» تعني الذين يحسنون في عملٍ مّا، فلا سبيل عليهم فيه مهما كان عليهم سبيل فيما يسيئون، أم عمل خارج عن كلا الإحسان والإساءة.

وفي حقل الأمانة لا يصدق الإحسان إلّا ما كانت مجانية الحفاظ عليها أم أقل من القدر المستحق على تأمل فيه، وأما الأمانة المستأجر فيها بأجرة عادلة، فهي تجارة قد لا تدخل في نطاق الآية، فإن موردها هو النصح للّهورسوله في حقل الجهاد، وليس له فيهما بديل من مال وسواه.

فالتجارة العادلة وإن كانت مرضية للّهمحبورة في شرعة اللّه ولكنها ليست إحساناً حيث يتطلب تقديماً دون مقابل أم زيادة على المستحق.

فالقدر المعلوم من نفي السبيل هو حقل الإحسان الخالص، دون ما دونه مهما لم يكن إساءَة.

ثم الحرج المنفي هنا وفي كل مجالات المسؤوليات يختص بالمحسنين في سبيل اللّه، الناصحين للّهورسوله، وليس المستثنى إلَّا الضعف الُمحرج، والمرض الُمحرج، والنفقة المحرجة، فأما الذين لا حرج عليهم للخروج من هؤلاء فهم خارجون عن الإستثناء كسائر الخارجين.

ولأن «المحسنين» طليقة، فالسبيل المنفية بحقهم ليست إلا في طليق إحسانهم، فما عليهم من سبيل في الدنيا والآخرة، وأما الذين خلطوا إحساناً بإساءَة، في متن الأمر أو مقدماته الآفاقية أو الأنفسية، فلا تُنفى عنهم هذه السبيل.

ذلك، ثم «الضعفاء» هم كل هؤلاء الذين لا يستطيعون جهاداً لضعف ذاتي كالشيخوخة وما أشبه، لحدّ لا نفع في جهادهم اللّهم إلا قليلًا لا يُجبِر زهاق أنفسهم.

«والمرضى» هم غير المستطيعين لضعف عارض، فإن استطاعوا علاجاً غير

محرج قبل فوات الأوان فمفروض قضيةَ استطاعة الجهاد باستطاعة ما يُعدُّ له.

و «الذين لا يجدون ما ينفقون» لا تعني وجدان المال الحاضر، بل وهو وجدان ما يحصل به مال قدر المقدور، من شغل وأية محاولة أخرى صالحة في شرعة اللّه غير محرجة ولا معسِرة.

فكما أن «فلم تجدوا ماءً» لا تعني عدم الوجود، بل هو عدم الإستطاعة لاستعماله في الطهارة، كذلك «لا يجدون هنا» فإن وجده بعمل فيه أجرة، أم قبول هدية أو هبة أو صدقة، أو استقراض وما أشبه، ما لا يمس من حرمته وكرامته الإيمانية، فهو واجد لما ينفقه في الجهاد.

ثم الذي عنده مال قدر نفقة العيال، هو غير واجد لما ينفقه لتقدم واجب النفقة على العيال، على نفقة الجهاد.

وأخيراً حين لا يجد هو ولكن يجد عند الرسول صلى الله عليه و آله فهو أيضاً واجد حيث المعذور هنا: «الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه .. ألا يجدون ما ينفقون» لا من عند أنفسهم ولا عند الرسول صلى الله عليه و آله.

ذلك، ولأن الذين يأتون الرسول صلى الله عليه و آله ليحملهم فلا يتحملهم، هم بالغون أعلى قمم النصح عملياً للجهاد، لذلك لم يشترط في عدم تحريجهم «إذا نصحوا للّهولرسوله» فإنهم من أحسن المحسنين.

وقد نزلت الآية الثانية في البكائين «١» وقد يروى أنهم سألوه الحِملان من النعال «٢»

---

(١)). الدر المنثور ٣: ٢٦٧- أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب قال جاء ناس من أصحاب رسولاللّه صلى الله عليه و آله يستحملونه فقال: لا أجد ما أحملكم عليه فأنزل اللّه «ولا على الذين ..» قال: وهم سبعة نفر من بني عمر بن عوف سالم بن عمير ومن بني وافن حرمى بن عمرو ومن بني مازن ابن النجار عبد الرحمن بن كعب يكنى أبا ليلى ومن بني المعلى سلمان بن ضخر ومن بني حارثة عبد الرحمن بن زيد أبو عبلة ومن بني سلمة عمرو بن غنمة وعبد اللّه بن عمرو المزني

(٢)). المصدر أخرج ابن المنذر عن علي بن صالح قال حدثني مشيخة من جهينة قالوا: أدركنا الذين سألوا رسول اللّه صلى الله عليه و آله الحملان فقالوا ما سألناه إلا الحملان على النعال، وفيه أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن إبراهيم بن أدهم في الإية قال: ما سألوه الدواب ما سألوه إلا النعال .. وعن الحسن مثله

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٥٣

وهي أقل ما يحملهم للجهاد! وقد قال فيهم رسول اللّه صلى الله عليه و آله أمام المجاهدين: «لقد خلفتم بالمدينة أقواماً ما أنفقتم من نفقة ولا قطعتم وادياً ولا نلتم من عدو نيلًا إلّا وقد شركوكم في الأجر ثم قرأ الآية. «١»

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَايَعْلَمُونَ «٢»

هنا يختص السبيل في الوجد والانفاق ب «الذين يستأذنونك وهم. غنياء» والقصد من الغنى هنا ما يتمكن فيه من الإنفاق للجهاد بنفسه إن أمكن وبمن سواه، وتجهيزاً لمن لا يجد، إن لم يمكن، فمسؤولية الجهاد طليقة قدر الإمكانية بالنفس والنفيس، بالدم والمال والتوجيهات الحربية والنصائح الراجعة إلى صالح الحرب وما سواها من سبل اللّه.

«رضوا بأن يكونوا مع الخوالف» المتخلِّفين عن مُكنتهم أو القاصرين العُجَّز نساءً ورجالًا وأطفالًا «وطبع اللّه على قلوبهم فهم لا يعلمون» مدى جريمتهم النكراء في التخلف عن الجهاد في سبيل اللّه.

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَاتَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ «٣»

«يعتذرون إليكم»: المجاهدين، غادرين إذ مضى ما مضى وأنتم سالمون «إذا

---

(١)). الدر المنثور ٣: ٢٦٧- أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: .. وفيه أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال: أمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله الناس أن ينبعثوا غازين فجاءت عصابة من أصحابه فيهم عبد اللّه بن معقل المزني فقالوا يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله إحملنا فقال: واللّه ما أجد ما احملكم عليه فتولوا ولهم بكاء وعز عليهم أن يحبسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقة ولا محملًا فأنزل اللّه عذرهم «ولا على الذين إذا ما أتوك ..»

(٢)). سورة التّوبة ٩: ٩٣

(٣)). سورة التّوبة ٩: ٩۴

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢۵۴

رجعتم إليهم» من النضال «قل لا تعتذروا» إذ «لن نؤمن لكم» ثقة بصدقكم قضيةَ إعتذاركم.

ولأن «لن» تؤبِّد السلب فقد تدل على أنهم غادرون في إعتذارهم وسواه على طول الخط حتى يلاقوا يومهم الذين كانوا يوعدون.

إذ «قد نبأنا اللّه من أخباركم» أن لن تؤمنوا ف «لن نؤمن لكم» إيمانَ التأمين لتصديقكم وأمنه «وسيرى اللّه عملكم ورسوله» في المستقبل كما مضى «ثم» بعد مثلث زمان الغدر والنفاق، المحلق على حياة التكليف ككل «تردون إلى عالم الغيب والشهادة» وهناك «فينبئكم بما كنتم تعلمون» إنباء عرض الأعمال كما صدرت، وإنباء النتيجة كما أنتجت: «يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم اللّه نفسه واللّه رؤوف بالعباد». «١»

سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ «٢»

«سيحلفون باللّه» معتذرين أنهم صادقون، أم ومهما يكن في أمرٍ «لتعرضوا عنهم» دونما تنديد وإستجواب «فأعرضوا عنهم» إعراضاً قضيةَ النفاق، فقد لا يعني الإعراض المأمور به الإعراض المطلوب لهم، بل هو بعد التنديد والتنكيد إعراض عنهم بجعلهم في عزلة كأنهم لا شيء، فلا تحدثوهم بعدُ ولا تعاشروهم ولا تواصلوهم أبداً، فقد وقعت المفاصلة التامة ل «إنهم رجس» فلا ترجسوا أنفسكم الطاهرة بمصاحبتهم، ولا يرجى منهم أي خير حيث سدوا على أنفسهم كل منافذه «ومأواهم جهنم جزاءً بما كانوا يكسبون» وليس التلطُّف مع منافق أو كافر إلَّا بغية إنجذابه إلى الإيمان.

وهنا «إنهم رجس» قد تؤيد عدم نجاسة أبدان الكفار، حيث الرجس وهو أنجس

---

(١)). سورة آل عمران ٣: ٣٠

(٢)). سورة التّوبة ٩: ٩۵

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢۵۵

من النجس- وكما إختص ب «لحم خنزير» مع ردْفه بالميتة والدم «فإنه رجس»- إنه لم ينجس أبدان المنافقين فكيف ينجس النجس أبدان المشركين، فإنما هي رجاسة روحية لهم هي أرجس وأنجس من أرواح الكافرين، ولذلك «إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار».

فذلك- إذاً- تجسيم حسي للدنس المعنوي، ترجيساً لأرواحهم النحسة، مما يدعو إلى التقذر والإشمئزاز، فهم رجس يلوث الأرواح، ونجس يدنس المشاعر، كالجثة المنتنة في وسط الأحياء حيث تؤذي وتعدي.

وهنا نتبين أن التجنب عن الأرجاس الروحية هو واجب المؤمنين، اللّهم إلّا إذا أثرت فيهم الدعوة الربانية أو أحتمل التأثير، فأما إذا كان «سواء عليهم ءَأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون» فهنا الإعراض عنهم أوسع من سائر المواقف.

يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَايَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ «١»

فالمؤمن لا يرضى إلا ما يرضاه اللّه فكيف ترضون عنهم بحلف وسواه «فإن اللّه لا يرضى عن القوم الفاسقين» وفي حديث النبي صلى الله عليه و آله قال: «من التمس رضا اللّه بسخط الناس رضى الله عنه، أرضى عنه الناس ومن التمس رضا الناس بسخط اللّه سخط

اللّٰه عليه واسخط عليه الناس» «٢» وعن الإمام الرضا عليه السلام: «من خاف اللّٰه أخاف اللّٰه منه كل شيء ومن لم يخف اللّٰه أخافة اللّٰه من كل شيء».

---

(١)). سورة التّوبة ٩: ٩٦

(٢)). نور الثقلين ٢: ٢٥٤ عن المجمع جاء في الحديث

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٥٦

جاهد الكفار والمنافقين

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ «١»

أتراها نزلت «جاهد الكفار بالمنافقين» إذ «إن رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله لم يقابل منافقاً قطُّ، إنما كان يتألَّفهم» «٢» والمنافق إن لم يقاتَل لا يقاتِل» به إذ «لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلّا خبالًا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم بالمؤمنين الموثوقين، فهذا هو نفسه خبال وإيضاع وتضييع أن يخيَّل بالآية أنها هكذا أنزلت!.

أم هي كماهيه ولكن الجهاد لا يختص بالقتال فمن جهاد المنافقين إلزامهم على الفرائض «٣» كما التزموا بها بإقرارهم أنفسهم لما أسلموا، كما منه التلطُّف معهم على حائطة، وتأليف قلوبهم لكي يتحوَّلوا عن إقرارهم باللسان إلى إقرارهم بالجنان إيماناً يُدخلهم في حقل المؤمنين.

كما ومنه- إذا لزم الأمر- قتالهم وكما قاتلهم علي عليه السلام «فجهاد علي عليه السلام جهاد رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله». «٤»

إذاً فجهاد الكفار هو حملهم بالحكمة والموعظة الحسنة إلى إقرار الإيمان ثم إلى قراره، وإلّا فالقتال، ثم جهاد المنافقين هو إلزامهم على ما أقروا به، ثم إلتزامهم بواقع الإيمان وإلّا فالقتال.

---

(١)). سورة التّوبة ٩: ٧٣

(٢)). نور الثقلين ٢: ٢٤١ مجمع البيان روى عن أبي عبد اللّٰه عليه السلام أنه قرأ «جاهد الكفار بالمنافقين» قال: إن .. وفيه روى قراءَة أهل البيت عليهما السلام «جاهد الكفار بالمنافقين» قالوا: لأن النبي صلى الله عليه و آله لم يكن يقاتل المنافقين ولكن كان يتألفهم ولأن المنافقين لا يظهرون الكفر وعليم اللّٰه بكفرهم لا يبيح قتلهم إذا كانوا يظهرون الإيمان

(٣)). المصدر في تفسير القمي عن أبي جعفر عليه السلام قال: ..

(٤)). المصدر عن تفسير القمي عن أبي عبد اللّٰه عليه السلام في قوله «يأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين» قال: هكذا نزلت فجاهد رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله الكفار وجاهد علي عليه السلام المنافقين فجهاد علي .. وفيه عن أمالي الشيخ الطوسي باسناده إلى ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه و آله: لأجاهدن العمالقة يعني الكفار وأتاه جبرئيل عليه السلام قال: أنت أو علي

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٥٧

فلا يعني «جاهد» إلَّا المجاهدة بمختلف درجاتها، مهما لا يصل في المنافقين إلى قتال إلَّا في حالات قلال، ف «لما نزلت جاهد الكفار والمنافقين» أمر رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أن يجاهد بيده، فإن لم يستطع فبقلبه، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم سيتطع فليلقه بوجه مُكَفْهَر». «١»

فهنا «واغلظ عليهم» مرحلة أخيرة حاسمة بين مرحليات الدعوة في خطوات المجاهدة، وقتالهم إن الأمر مطوي في «وأغلظ عليهم».

ذلك، ف «جاهد» الشامل للقتال في آخر المجال، «واغلظ عليهم» الدال على غلظهم في الجهاد، هما دليلان إثنان على أن «جاهد» لا يختص بالقتال، إذ لا دور ل «أغلظ» بعد «جاهد» إن عني به القتال، ولا غلظ أغلظ من القتال.

ذلك، فالمجاهدة في سبيل اللَّه هي الصراع الدائم للسالكين إلى اللَّه، سلباً لما سوى اللَّه وشِرعته، وإيجاباً للَّهبشرعته، فقد يدخل في نطاقها كافة المحاولات في هذه السبيل لتكون كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة اللَّه هي العليا.

إذا فكافة الإجراءات الإيمانية لتحقيق كلمة «لا إله إلا اللَّه» هي مجاهدات في سبيل اللَّه، سلباً للكفر وجلباً إلى الإيمان.

و كما ليست هذه المجاهدات لوناً واحداً وشكلًا فارداً، كذلك مجاهدة الكفار والمنافقين، كلٌّ كما تقتضيه حاله ومجاله، وليس «أغلظ عليهم» إلّا مرحلة أخيرة حاسمة بعد كمرحليات المجاهدات اللطيفة العطيفة، ومنها- مع الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة تأليف قلوب نافرة بمال ف «الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل اللَّه بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند اللَّه». «٢» وهي بصورة طليقة «الذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن اللَّه لمع المحسنين». «٣»

---

(١)). الدر المنثور ٣: ٢٥٨- أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود قال لما نزلت.

(٢)). سورة التّوبة ٩: ٢٠

(٣)). سورة العنكبوت ٢٩: ٦٩

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٥٨

فهكذا «جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم» هنا وفي التحريم (٩)/ «ومأواهم جهنم وبئس المصير» ولأن المنافقين هم أخطر من الكفار واقعياً مهما كانوا أقرب إلى المسلمين ظاهرياً، فجاهدهم- إذاً- أكثرهم منهم وأوعر، فالمنافقين- كما الكافر- نار، حيثما دار، وإخماد النار واجب المؤمنين الأحرار، ولكي تبقى الحياة المسلمة سلمية أمينة عن الأشرار، بذلًا لكل جهد في إصلاح الأمر مهما بلغ به الأمر في ذلك الأمر، حفاظاً على الإمرة الإسلامية والكتلة المسلمة عن هجمات وهجيات أنفسية أو دعائية أماهيه؟. وإلى «واغلظ عليهم» فإنه أغلظ المجاهدة وآخر المطاف فيهاالغَلظ من قتالهم إذا لزم الأمر، فآخر الدواء الكي.

ذلك ولقد كان الرسول صلى الله عليه و آله يلاين المنافقين كثيراً علَّهم يلينون عن شدتهم، ويفيقون عن غفوتهم، ويغضي عنهم كثيراً علَّهم يُغيضون، بالغاً معهم في الصفح والحلم والسماحة غايتها، فإذا إنتهى أمد اللين فلتكن الشدة بمراحلها، فإن لم تنفع فالحسم القاطع، وذلك عند ما يتظاهرون بمظاهر الكفر، وكما فى النص التالى:

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قالُوا وَلَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا وَما نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْناهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُنْ خَيْراً لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَما لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ «١»

«يحلفون باللَّه ما قالوا» ما قالوه وغالوا فيه مثل «لا تفتني- يلمزك في الصدقات- هو أذن- إنما كنا نخوض ونلعب «في استهزاءهم» خضتم كالذي خاضوا- كما مضت.

أم وما يروى عن قالاتهم القالة الغائلة ك «والله لئن كان هذا الرجل صادقاً لنحن شر من الحمير «٢» وما شتموه «٣» ك «سمِّن كلبك يأكلك» «۴» دركات سبع جهنمية من

---

(١). سورة التّوبة ٩: ٧۴

(٢). قد مضت روايات عن الدر المنثور بهذا المعنى

(٣). الدر المنثور ٣: ٢۵٨ عن ابن عباس قال كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله جالساً في ظل شجرة فقال: انه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعيني شيطان فإذا جاء فلا تكلموه فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق فدعاه رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقال على مَ تشتمني أنت وأصحابك؟ فانطلق الرجل فجاء أصحابه فحلفوا باللّه ما قالوا حتى تجاوز عنهم وأنزل اللّه: «يحلفون باللّه ما قاتلوا ..»

(۴) المصدر عن قتادة قال ذكر لنا أن رجلين اقتتلا أحدهما من جهينة والآخر من غفار وكانت جهينة حلفاء الأنصار فظهر الغفاري على الجهني فقال عبد اللّه بن أبي للأوس أنصروا أخاكم واللّه ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: سمن كلبك يأكلك، واللّه لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل فسعى بها رجل من المسلمين إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله فأرسل إليه فسأله فجعل يحلف باللّه ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢۵٩

قالاتهم الكافرة ومحاولاتهم الماكرة في مختلف المجالات «وكفروا بعد إسلامهم» بألسنتهم، فإن كلمة الكفر تنقض كلمة الإسلام، و «إسلامهم» هنا تعم من آمن منهم بلسانه وقلبُه كافر، أم مّا يدخل الإيمان في قلبه، أم دخل دخيلًا قليلًا ضئيلًا، فكفروا بقالاتهم الكافرة بعد إسلامهم بأيٍّ من زواياه الثلاث، حيث إن قالة الكفر تنقض قالة الإسلام على أية حال.

ثم «وهموا بما لم ينالوا» من إغتيال النبي صلى الله عليه و آله وقد سماهم اللّه تعالى لنبيه صلى الله عليه و آله. «١»

---

(١). المصدر أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك في الآية هم الذين أرادوا أن يدفعوا النبي صلى الله عليه و آله ليلة العقبة وكانوا قد اجمعوا أن يقتلوا رسول اللّه صلى الله عليه و آله وهم معه في بعض اسفاره فجعلوا يلتمسون غرمه حتى أخذ في عقبة فتقدم بعضهم وتأخر بعضهم وذلك ليلًا قالوا إذا أخذ في العقبة دفعناه عن راحلته في الوادي فسمع حذيفة وهو يسوق النبي صلى الله عليه و آله وكان قائدة تلك الليلة عمار وسائقة حذيفة بن اليمان فسمع حذيفة وقع أخفاف الإبل فالتفت فإذا هو بقوم متلثمين فقال إليكم يا أعداء اللّه فأمسكوا ومضى النبي صلى الله عليه و آله حتى نزل منزله الذي أراد فلما أصبح أرسل إليهم كلهم فقال: أردتم كذا وكذا فحلفوا باللّه ما قالوا ولا أرادوا الذي سألهم عنه فذلك قوله: يحلفون ... وفيه عن ابن عباس في الآية قال: هم رجل يقال له الأسود بقتل رسول اللّه صلى الله عليه و آله وفيه عن عروة في قصة تبوك المفصلة فقال النبي صلى الله عليه و آله: هل علمتم ما كان شأنهم وما أرادوه؟ قالوا: لا واللّه يا رسول اللّه قال: فإنهم مكروا ليسيروا معي حتى إذا طلعت الشمس طرحوني منها، قالوا: أفلا تأمر بهم يا رسول اللّه نضرب أعناقهم؟ قال: أكره أن يتحدث الناس ويقولوا: إن محمداً وضع يده في أصحابه، فسماهم لهما وقال اكتماهم، وفيه أخرج البيهقي في الدلائل عن ابن إسحاق نحوه وزاد بعد قوله الحذيفة هل عرفت من القوم أحداً فقال لا، فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله إن اللّه أخبرني بأسمائِهم وأسماء آبائِهم وسأخبرك بهم إن شاء اللّه عند وجه الصبح فلما أصبح سماهم له: عبد اللّه بن أبي سعد وسعد بن أبي سرح وأبا حاصر الأعرابي وعامر أو أبا عامر والجلاس بن سويد بن الصامت ومجمع بن حارثة ومليحا التيمي

وحصين بن غير وطعمة بن أبيرق وعبد اللّه بن عيينة ومرة بن ربيع فهم إثنا عشر رجلًا حاربوا اللّه ورسوله وأرادوه فأطلع اللّه نبيه صلى الله عليه و آله ذلك وذلك قوله عزَّ وجلّ: وهموا بما لم ينالوا» وكان أبو عامر رأسهم وله بنوا مسجد الضرار وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة.

وفيه من حديث حذيفة بن اليمان قلنا يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله ألا تبعث إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم؟ قال: لا، إني أكره أن تحدث العرب بينها أن محمداً قاتل بقوم حتى إذا أظهره اللّه بهم أقبل عليهم يقتلهم ثم قال: اللّهم ارمهم بالدبيلة قلنا يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله وما الدبيلة؟ قال: شهاب من نار يوضع على نياط قلب أحدهم فيهلك.

وفي نور الثقلين ٢: ٢٤٣ في تفسير العياشي عن جابر بن أرقم عن أخيه زيد بن أرقم قال: لما أقام النبي صلى الله عليه و آله علياً عليه السلام بغدير خم وبلغ فيه عن اللّه ما بلغ ثم نزل إنصرافنا إلى رحالنا وكان إلى جانب خبائي خباء نفر من قريش وهم ثلاثة ومعي حذيفة اليمان فسمعنا أحد الثلاثة وهو يقول: واللّه ان محمداً الأحمق إن يرى أن الأمر يستقيم لعلي من بعده، وقال الآخرون أتجعله الأحمق ألم تعلم أنه مجنون قد كاد أنه يصرع عند امرأة ابن أبي كبشة، وقال الثالث: دعوه إن شاء أن يكون أحمق وإن شاء أن يكون مجنوناً واللّه ما يكون ما يقول أبداً فضغب حذيفة من مقالتهم فرفع جانب الخباء فأدخل رأسه إليهم وقال: فعلمتموها ورسول اللّه بين أظهركم، ووحي اللّه ينزل إليكم؟ واللّه لأخبرنه بكرة مقالتكم، فقالوا له: يا عبد اللّه وانك لهنا وقد سمعت ما قلنا؟ أكتم علينا فإن لكل جوار أمانة، فقال لهم: ما هذا من جوار الأمانة ولا مجالسها، ما نصحت للّهورسوله إن أنا طويت عنه هذا الحديث، فقالوا له: يا عبد اللّه فاصنع ما شئت لنحلفن انا لم نقل وانك قد كذبت علينا افتراه يصدقك ويكذبنا ونحن ثلاثة؟ فقال لهم: أما أنا فلا أبالي إذا أديت النصيحة إلى اللّه وإلى رسوله فقولوا ما شئتم أن تقولوا، ثم مضى حتى أتى رسول اللّه صلى الله عليه و آله وعلي إلى جانب محتب بحمايل سيفه فأخبره بمقالة القوم فبعث إليهم رسول اللّه صلى الله عليه و آله فأتوه فقال لهم: ماذا قلتم؟ فقالوا: واللّه ما قلنا شيئاً فإن كنت أبلغت عنا شيئاً فمكذوب علينا فهبط جبرئيل بهذه الآية «يحلفون باللّه» وقال علي عند ذلك ليقولوا ما شاءوا واللّه إن قلبي بين أضلاعي وإن سيفي لفي عنقي ولأن هموا لأهمين فقال جبرئيل عليه السلام للنبي صلى الله عليه و آله: أخبر الأمر الذي هو كائن فأخبرني النبي صلى الله عليه و آله علياً بما أخبر به جبرئيل فقال: إذاً اصبر للمقادير

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٦٠

«وما نقموا» من رسول اللّه صلى الله عليه و آله والذين معه «إلّا أن أغناهم اللّه ورسوله من فضله» بما حصلوا عليه من غنائم الغزوات وبسط الأمن والرياحة المعيشية في ظل الإسلام، أفهذه هي السيئة التي قدمها لهم الإسلام حتى ينقمون منه هكذا؟.

وهنا «رسوله» كما مضى ليس يعني إلا رسالة البلاغ، فلذلك أفرد الضمير للّهبعد «رسوله» في «من فضله»، ولأن اللّه لا يدخل في حساب العدد حتى يُردف بغيره في عدٍّ، كما أن «ورسوله من فضله» فقد تعني «أغناهم رسوله من فضله»: اللّه، وهذا من مقابلة النعمة بالنقمة وما أنحسها وأشرسها من هؤلآء الأغباش الأنكاد!.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٦١

ذلك، ثم أنظر إلى بالغة الرحمة وسابغتها الموعودة لهؤلاء الخَوَنة إن تابوا عن إرتدادهم: «فإن يتوبوا يك خيرا لهم» وهذا نص قبول توبتهم لصريح وعد الخير «وإن يتولوا» معرضين على ما هم عليه من الكفر والنكران «يعذبهم اللّه عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة» ومن عذاب الدنيا خروجهم عن قوة الإسلام وأمنه، وقتلهم قضية حكم الإرتداد المعمَّد دون توبة، إذاً فتوبة المرتد مقبولة بذلك النص، ولكن المنافق

المتعمق المتحمق في نفاقه، المتعرق في كفره، ليس ليتوب وكما توعده اللّه بالعذاب من ذي قبل «إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين». «١» ثم «وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير».

ذلك، فكلمة الكفر إضافة إلى باطنه، تقلب الإنسان ظهر بطن، فالحذر الحذر من حصائد الألسنة وكما عن النبي صلى الله عليه و آله: «وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم» «٢» فإن أكثر معاثر الأقدام، ومصارع الأنام هي من جرائر ألسنتهم عليهم، وعواقب الأقوال السيئة التي تؤثر عنهم، فالألسنة هي الزارعة وهي الحاصدة ما تزرعها.

«وَمِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصّالِحِينَ ٧٥ فَلَمّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ» «٣»

معاهدة على شرط «لئن آتانا من فضله» فهم أنحس ممن «يعبد اللّه على حرف فإن أصابه خير إطمأن به وإن أصابته فتنة إنقلب على وجهه». «٤» «فلما آتاهم من فضله» وأخذوا يعيشون على رَغَد عيش وطمأنينة جأش «بخلوا به» نقضاً ل «لنصدقن» ثم «وتولوا وهم معرضون» نقضاً ل «لنكونن من الصالحين» وذلك من أنحس الخيانة الكافرة، فهل هم بعدُ يوفَّقون لتوبة حتى يتوب اللّه عليهم كما وعد «فإن

---

(١)). سورة التّوبة ٩: ٦٦

(٢)). المجازات النبوية للسيد الشريف الرضي (٩٨)

(٣)). سورة التّوبة ٩: ٧٥- ٧٦

(٤)). سورة الحج ٢٢: ١١

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٦٢

يتوبوا يك خيراً لهم»!.

ذلك، وقد يجري بصورة خفيفة في غير المنافق من ضعيف في إيمانه كثعلبة بن خاطب ومن أشبه «١» ولكن النص يحمل صورة ثقيلة لا تحمل مثل ثعلبة إلّا جرياً في خفيفها.

ولأن تخلف العهد نفاق فيه، ولا سيما إذا أضيف إليه الإعراض، فقد يدوم ذلك النفاق عقاباً مُعقباً:

«فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِما أَخْلَفُوا اللّهَ ما وَعَدُوهُ وَبِما كانُوا يَكْذِبُونَ ٧٧ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ وَأَنَّ اللّهَ عَلاّمُ الْغُيُوبِ» «٢»

«فأعقبهم» ذلك النفاق الكافر، ف «أعقبهم» اللّه، بذلك «نفاقاً في قلوبهم» عريقاً يبقى «إلى يوم يلقونه» أعقبهم «بما اخلفوا اللّه ما وعدوه وبما كانوا يكذبون»: إعقاباً بإعقابهم عقاباً هنا، جزاءً وفاقاً، «بلى من كسب سيئة فاحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون».

فكما الإيمان يُعقِب إيماناً على إيمان وهدى على هدى: «الذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم» كذلك الكفر والنفاق يُعقبان كفراً ونفاقاً على القلوب «إلى يوم يلقونه» فلا يوفقون لتوبة إذ صدت على قلوبهم منافذ النور إلى مهاوي النار: «جهنم يصلونها وبئس القرار».

---

(١)

). مجمع البيان قيل نزلت في ثعلبة بن خاطب وكان من الأنصار قال للنبي صلى الله عليه و آله: ادع الله أنيرزقني مالًا، فقال: يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه أما لك في رسول الله أسوة حسنة؟ والذي نفسي بيده لو أردت أن تسير الجبال معي ذهباً وفضة لسارت، ثم أتاه بعد ذلك فقال يا رسول الله صلى الله عليه و آله أدع الله أن يرزقني مالًا والذي بعثك بالحق لئن رزقني مالًا لأعطين كل ذي حقه حقه، فقال: اللّهم أرزق ثعلبة، قال: فاتخذ غنماً فنمت كما ينمى الدود فضاقت عليه المدينة فتنحى منها فنزل وادياً من أوديتها ثم كثرت حتى تباعد عن المدينة فاشتغل بذلك عن الجمعة والجماعة فبعث رسول اللّه صلى الله عليه و آله المصدق ليأخذ الصدقة فأبى وبخل وقال: ما هذه إلا أخت الجزية، فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله يا ويل ثعلبة فأنزل اللّه عزَّ وجلّ الآيات

(٢)). سورة التّوبة ٩: ٧٧- ٧٨

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٦٣

قَاتِلُوا الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ «١»

«قاتلوا ..» أهجوماً لم يكن ضد المشركين؟ أم دفاعاً، فعماذا؟.

هنا «لا يؤمنون باللّه ولا باليوم الآخر» كشريطة أولى لهذا القتال يُخرجهم عن الإيمان أيًّا كان ويُلحقهم بالمشركين، فإن ركن الإيمان الركين هو الإيمان باللّه واليوم الآخر، وهم يشركون باللّه وينكرون اليوم الآخر، وكما في كتاباتهم المحرفة عن جهات أشراعها، نُكراً لجسمانية المعاد أم للجزاء العدل فيه، أم تجاهلًا عن أصله كما في التوراة، نُكرات متشابهة لصالح المعاد العدل، كما تشابهت قلوبهم فهي خاوية عن الحق المرام.

ثم «ولا يحرمون ما حرم اللّه ورسوله» «حرم اللّه» في كافة شرائعه، أم و «حرم اللّه» في شرعتهم الكتابية ف «رسوله» إذاً كل رسل اللّه أم رسلهم أنفسهم، ثم «حرم اللّه» في قرآنه «ورسوله» في سنته، وهنا «لا يحرمون» يشملهم كلهم، ولا أقل دون الآخرين، حيث لا يلتزمون بما هم به متشرعون من حرمات اللّه في الشرائع كلها أم في شرعتهم أنفسهم تحريماً عقيدياً أو عملياً حيث يعاملون المحرمات كما المحلَّلات، ولا سيما القسم الكبيرمن المسيحيين القائلين بنسخ شريعة الناموس أي العمل بما افتدى المسيح عليه السلام بنفسه عنها فحلت به كافة المحرمات.

ومن ثم «ولا يدينون دين الحق» في دينهم فضلًا عن دين الحق لهذه الشرعة القرآنية، وهم: «من الذين أوتوا الكتاب» وقد عني من «دين الحق» هذا الدين في «هو الذي أرسله رسوله بالهدى ودين الحق ..» كما يأتي.

إذاً فلا يقاتَل أهل الكتاب إلّا الموصوفون بهذه التخلفات الثلاث، ثم قولهم: عزيز ابن اللّه، وإتخاذهم أحباركم ورهبانهم أرباباً من دون اللّه، وهم يأكلون أموال الناس

---

(١)). سورة التّوبة ٩: ٢٩

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٦٤

بالباطل، ويصدون عن سبيل اللّه، فبهذه الدركات السبع الجهنمية يقاتَلون حيث هم يشابهون فيها المشركين، فهم- إذاً- يتلون تلوهم إذ ينحون منحاهم ويغزون مغزاهم «قاتلهم اللّه أنى يؤفكون».

إنهم ليسوا فقط طاعنين في ديننا بل طاعنون في كل الأديان، بل وطعنتهم أطعن وأمعن من طعنات المشركين وسائر الكفار وكما وصفهم اللَّه جملة واحدة: «يريدون أن يطفئوا نور اللَّه بأفواههم ...»، وكما نجد مواقفهم المضللة أمامهم وأمام المؤمنين؟.

«قاتلوا .. حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون» أمام السلطات الإيمانية، دون أية فرعنة واستكبار، وبكل ذلّ وهم صغار، وهذه أقل ما يعامَل معهم في شرعة العدل والحكمة.

وهذه الآية هي الوحيدة في القرآن بميّزاتها ولا سيما ضريبة الجزية، وما هي إلا حفاظاً على أمنهم في ظل الدولة الإسلامية، وكما تؤخذ سائر الضرائب من المؤمنين.

فلأن هؤلاء المتخلفين من أهل الكتاب هم كالمشركين، لذلك فهم في صفوفهم لواجب قتالهم وكما يروى عن النبي صلى الله عليه و آله: القتال قتالان المشركين حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وقتال الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر اللَّه، فإذا فاءت أعطيت العدل» «١» و «الجزية» هي هيئة خاصة من الجزاء، وعلَّها من أهل الكتاب جزاءُ عدم قتالهم، ثم جزاء الحفاظ عليهم في دولة الإسلام علّهم ينتهون.

ثم «عن يدٍ» مقرونةً ب «وهم صاغرون» قد تعني «عن يدٍ» منهم دون أن يرسلوها بوسيط إستعلاءً أم يؤجلوها نسيئة دون نقد، ثم و «عن يد» منكم، وهي القدرة المستعلية لكم عليهم، والنعمة في ذلك الأخذ، حيث الجزية بديلة عن الحفاظ عليهم تحت رقابة السلطة الإسلامية، فهذه رحمة ربانية عليهم، فقد تعني «عن يد» كلتا اليدين: معطية وآخذة، بمعنييها، في كلٍّ، «وهم صاغرون» دون أي استعلاء واستقلال ضمن الدولة الإسلامية، سواء في إعطاء الجزية أم سواه من حركات حيوية.

---

(١)

). الدر المنثور ٣: ٢٢٨- أخرج ابن عساكر عن أبي أمامة عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال:.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‌٧، ص: ٢٦٥

فلا تعني «وهم صاغرون» انهم مُهانون مهتوكون، وإنما تعني أنهم صاغرون أمام السلطة الإسلامية، وأمام شروطات الذمة، فهم في الحق- إذاً- عائشون في مدرسة داخلية إسلامية، يعامَل معهم بصلح وصفاءٍ ووفاءٍ ما هم «صاغرون» أمام السلطة الإسلامية، دون أية مجاهرة بحرمات اللَّه مهما هم عاملوها في خفاء.

وترى «الجزية» بعدُ هي بديلة القتال، والنفس المهدورة لا تباع بمال، ولا سيما هذه القليلة، فهل القصد من قتالهم- فقط- أخذ المال؟.

«الجزية» هي مهلة بسيطة وسيطة بين بقاءهم أحراراً في فتنتهم، وإبقاءِهم كأسرى علَّهم ينتبهون فينتهون، ودفع المال بتلك الحالة الصاغرة هو بطبيعة الحال يدفعهم إلى تأمل وتروٍّ تخلصاً عن خسران المال والحال، ولو أنهم فُتنوا حال دفعهم جزيتهم، لم تكن الجزية دافعة عن قتالهم، فإنما دور الجزية هو فيما إذا هم ينتهون عن القتال والفتنة ولما ينتهوا عن ضلالهم البعيد، فلكي تتاح لهم فرصة التأمل تؤخذ منهم جزية عُجالةً، إجالةً للنظر في أمرهم فتحولًا- علَّه- عن أمرهم، وطبيعة الحال في «يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون» أنهم تخطوا مرحلتي الخطر على المؤمنين، فلا يحاربونهم نفسياً ولا عقيدياً وإلا فلا دور للجزية عن يد وهم صاغرون، فهم أولآء الذين يريدون أن يطفئوا نور اللَّه بأفواههم، لا تنطفىء نارهم تخمد، فقد انطفأت إرادتهم النارية عن إطفاء نور اللَّه.

فكما لا يعني أسر المشركين في جبهات القتال، إلّا حصرهم في مدرسة داخلية تربوية حتى يؤمنوا بما يلمسون من حالات المسلمين وفعالاتهم وقالاتهم الإيمانية، فكذلك الأمر لهؤلاء الذين يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون.

فهم أولآء يقاتَلون حتى يتركوا فِتَنهم التي تسمح لقتالهم، انطفاءً لنارهم الحارقة، فإما إيماناً أم تركاً لفتنتهم، ثم يدفعوا الجزية عند ما دخلوا في السلطة الإسلامية دون قتل لهم أو أسر إكراهاً على الدين، إذ «لا إكراه في الدين» فهم لا يُترَكون- إذاً- بحريتهم الشريرة، بل هم يعيشون تحت الرقابة والحفاظة الإسلامية بأداء الجزية عن

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٦٦

يد وهم صاغرون، رقابة تسلب عنهم فتنتهم وتفرض عليهم أدباً إسلامياً بما يلمسونه في ذلك الجو السامي.

وذلك تعديل ليس عنه بديل في التعامل التعايش بين المسلمين وهؤلاء المتخلفين من الذين أوتوا الكتاب، فقه حكيم مستنير ينير الدرب على من يدق باب الهدى أم يتحرى عنها.

وطبيعة الحال هي عدم إمكانية التعايش بين المسلمين والكفار إلا في ظل ظليل من أوضاع ومقررات عادلة بطبيعة المنهج الحركي الإسلامي، مقابلة للواقع المرير الشرير الكافر بحركة عاقلة عادلة مكافئة له، متفوقة عليه، لكي يُصلحه أم يسلخه لتكون كلمة اللّه هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله للّه». «١»

وهنا- في حقل أهل الكتاب- يختص القتال فالجزية بمن فيه هذه الدركات السبع، وأما الصالحون منهم المتقون فلا، إذ «ليسوا سواءً من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات اللّه آناء الليل وهم يسجدون. يؤمنون باللّه واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين. وما يفعلوا من خير فلن يُكفروه واللّه عليم بالمتقين». «٢» «ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون. وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين». «٣»

فليس اللّه ليأمر بقتال أمثال هؤلاء آمنوا أم يؤمنوا أم لا يؤمنون، إنما هم الموصوفون بتلك السبع الجهنمية، صداً عن فتنتهم وتسديداً لهم عن بغيهم، فإنهم

---

(١)). سورة الأنفال ٨: ٣٩

(٢)). سورة آل عمران ٣: ١١٥

(٣)). سورة المائدة ٥: ٨٣

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٦٧

بصفاتهم هذه حرب على دين اللّه إعتقاداً وسلوكاً، وطعنٌ فيه ككلّ حرباً على الكلتة المؤمنة بحكم طبيعة التعارض والتصادم المبدئيين بين دين اللّه ودين ما سواه.

فكما المشركون تجب قتالهم دفاعاً عن صالح العقيدة وصداً عن الطعن في الدين، كذلك الكتابيون الذين يقتفون آثاراً لهم مهما تسموا بالكتابيين.

ولقد أثبت الواقع التاريخي المرير واقع التعارض بينهم وبين المسلمين، وقوفاً لهؤلاء الكتابيين في وجه الدين ككل، وفي وجهه كهذا الأخير، وإعلان الحرب عليه وعلى أهله دون هوادة خلال الفترة السابقة لنزول هذه الآية حتى يومنا هذا.

ذلك، فأقل تقدير لإصلاح الحال ضِماناً لإزالة هذه العوائق المزرية، وحفاظاً على عدم الإكراه في الدين، هو كسر شوكة السلطات القائمة على ما يضاد الدين الحق حتى تسلم أو تستسلم- ولأقل تقدير- عيشة تحت الذمة بدفع الجزية، سلباً لطليق حريتهم في معارضة دين اللّه.

ففي مثلث إستسلامهم، ومساهمتهم في نفقات الحفاظ على أنفسهم، وعدم المظاهرة الضارة ضد الدين ككل وضد الإسلام، تُشكّل هندسة المهادنة لردح التجربة للمجموعة، ولهم إنجذاباً إلى شرعة الحق، أم ولأقل تقدير تركاً لمعارضتها.

ذلك، رغم أن القضية اليوم أصبحت تاريخية فحسب، إذ لا وجود لهكذا مسلمين ودولة إسلامية تصلح لتطبيق هذه الأحكام السياسية، فعلينا أولًا أن نفتش عن وجود جادٍّ جيد للمسلمين، ثم نتحدث عن هذه الإصلاحات والصلاحيات، والمنهج الإسلامي هو دائماً منهج الواقعية دون الخيالية الأحلامية المعلقة على هواء الفروض وأهواء الإفتراضات، فليس المنهج الإسلامي في شيء من مناهج الآرائيين الذين يقولون: «إن كان كذا كان كذا» ويفتشون عن موضوعات ومواضيع الأحكام الخيالية من خلال النذور والإتفاقيات البعيدة عن متعوَّد الواقع المعاش.

ونحن حين نبحث عن هذه الضوابط الإسلامية على ضوء القرآن، نبحث فحصاً عن خلق جو تتحقق فيه هذه الأحكام، حيث القرآن يحلق في ضوابطه على كل

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٦٨

زمان ومكان، ويطلب من معتنقيه بجدية أن يؤسسهم أنفسهم كمسلمين واقعيين ثم يعملوا في تحرير الإنسانية عن دركات الكفر، إلى بركات الإيمان واللّه هو المستعان.

اقعدوا لهم كل مرصد

فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ «١»

هناك «إلى مدتهم» تحدد سلبية البراءة للمعاهَدين، فمن مدتهم «أربعة أشهر» المقررة لهم، كما منها المدَد الأخرى التي علّها كانت مقررة لهم، ولكن «إذا انسلخ» تختص المدة المقررة بالأشهر الحرم.

«فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين» وهم أعم من المعاهَدين إلى مدة ناقضين وغير ناقضين، ومن غير المعاهَدين، حيث «الأشهر الحرم» هي المدة المقررة لهم أجمع، ولأنهم كانوا ملزَمين منذ الفتح بالإسلام استسلاماً وسواه، إذاً فبارز الإشراك باللّه بعد الفتح محظور يهدد صاحبه بالقتل بعد انسلاخ الأشهر الحرم.

وهنا حصار مربع عليهم في حقل التضييق عليهم لا لِطتة عنها ولا فلتة منها:

١- «فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» في الحرم وسواه مهما كان كونهم في الحرم أحرم.

٢- «وخذوهم» حين يفلُّون عن المآخذ، ثم ٣- «واحصروهم» في المحاصر لكي تقتلوهم، وأخيراً ٤- «واقعدوا لهم كل مرصَد» تضييقاً عليهم كافة مجالات الحرية ولا سيما في البلد الحرام، وكل ذلك إلزاماً عليهم بما التزموا به- منذ الفتح من إسلامهم ثم نقضوه، «فإن تابوا» عن إشراكهم باللّه» وإن في ظاهر الحال، ثم «وأقاموا الصلاة» كقمة من الصِلات مع اللّه قضيةَ ظاهرة التوحيد، «وآتوا الزكاة» صلةً مع أهل اللّه في

---

(١)). سورة التّوبة ٩: ٥

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٦٩

الصدقات، إذاً «فخلوا سبيلهم» دونما نقمة عليهم لما سبق منهم، ف «إن اللّه غفور» لهم «رحيم» بهم، حيث القصد من هذه التضييقات هو توبتهم إلى اللّه وقد حصلت، مهمما كانت توبة إسلام الإستسلام نفاقاً، أم لما يدخل الإيمان في قلوبهم، فضلًا عن داخل الإيمان، حيث إن سبيل الإيمان هي الخطوة الخطوة.

ذلك، ولقد هددهم رسول اللّه صلى الله عليه و آله حيث «افتتح مكة ثم انصرف إلى الطائف فحاصرهم ثمانية أو سبعة ثم ارتحل غُدوة وروحة ثم نزل ثم هجر ثم قال: أيها الناس إني فرط لكم وإني أوصيكم بعترتي خيراً موعدكم الحوض والذي نفسي بيده لتقيمُنَّ الصلاة ولتؤتن الزكوة أو لأبعثن عليكم رجلًا مني أو كنفسي فليضربَن أعناق مقاتلهم وليسبين ذراريهم فرأى الناس أنه يعني أبا بكر وعمر فأخذ بيد علي رضى الله عنه فقال: هذا». «١»

إذاً فإقام الصلاة وإيتاء الزكاة هما أصلان أصيلان من فروع الدين، بعد أصوله الأصلية، فكما لا يخلى سبيل المشرك عن ضابطة «اقتلوا و ..» كذلك تارك الصلاة أو الزكوة، فقد «حرمت هذه دماء أهل القبلة» «٢» وقد يأتي نبأه الفضل بعد حين.

هنا «فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ..» وهناك «قاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين للّه». «٣» تحكمان بأن هنا للإسلام سيفاً «جاهرة لا تغمد حتى تضع الحرب أوزارها ولن تضع الحرب أوزارها حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت الشمس من مغربها أمن الناس كلهم في ذلك اليوم ..». «٤»

---

(١)). الدر المنثور ٣: ٢١٣- أخرج الحاكم وصححه عن مصعب بن عبد الرحمن عن أبيه قال: افتتح رسول اللّه صلى الله عليه و آله مكة .. وفيه أخرج ابن سعد عن عبد الرحمن بن الربيع الظفري وكانت له صحبة قال: بعث رسول اللّه صلى الله عليه و آله إلى رجل من أشجع تؤخذ صدقته فجاءه الرسول فرده فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: إذهب إليه فإن لم يعط صدقته فاضرب عنقه

(٢)). المصدر أخرج أبو الشيخ عن الحسن «فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكوة» قال: حرمت .. وفيه أخرج أبو الشيخ عن قتادة في الآية قال: فإنما الناس ثلاثة نفر، مسلم عليه الزكوة ومشرك عليه الجزية وصاحب حرب يأتمن بتجارته إذا أعطى عشر ماله

(٣)). سورة البقرة ٢: ١٩٣

(٤)). نور الثقلين ٢: ١٨٧ في تهذيب الأحكام عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: سأل رجل أبي عن حروب أمير المؤمنين عليه السلام- وكان السائل من محبينا- فقال له أبي: إن اللّه تعالى بعث محمداً صلى الله عليه و آله بخمسة أسياف ثلاثة منها جاهرة لا تغمد إلى .. فيومئذٍ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً، وسيف منها ملفوف وسيف منها مغمود سلُّه إلى غيرنا وحكمه إلينا، فأما السيوف الثلاثة الشاهرة فسيف على مشركي العرب قال اللّه تبارك وتعالى «اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ... فإن تابوا ..» يعني فإن آمنوا «فإخوانكم في الدين» فهؤلاء لا يقبل منهم إلّا السيف والقتل أو الدخول في الإسلام، وما لهم في ذراريهم سبي على ما أمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله فإنه سبي وعفا، وقبل الغداء

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٧٠

أجل «أقتلوا ..» حين لا علاج لهؤلاء المفتتنين إلّا القتل، فآخر الدواء الكي، قتلًا عاقلًا عادلًا للحفاظ على الأهم في قسطاس الحق بين الجماهير، و «حيث» هنا تعم قتلهم إلى كل مكان حتى الحرم، وكل زمان حتى الأشهر الحرم المعروفة.

ذلك، وفي الحق لا يعني القتال في حقل الإسلام إلا الدفاع عن الحق والوقاية له، رعاية لعادلة السنة الإسلامية في القتال، فقد «كان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إذا أراد أن يبعث سَرِيَّة دعاهم فأجلسهم بين يديه ثم يقول: سيروا بسم اللَّه وباللَّه وفي سبيل اللَّه وعلى ملة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لا تغلوا ولا تُمَثِّلوا ولا تغدروا ولا تقتلوا شيخاً فانياً ولا صبياً ولا إمرأة ولا تقطعوا شجراً إلَّا أن تضطروا إليها وأيما رجل من أدنى المسلمين أو أفضلهم نظر إلى رجل من المشركين فهو جار يسمع كلام اللَّه فإن تبعكم فأخوكم في الدين وإن أبى فأبلغوه مأمنه واستعينوا باللَّه عليه». «١»

ثم وليس قتال المشركين إلّا بعد الدعوة الظاهرة الجاهرة المقنعة لحدّ تقطع الأعذار، فإن تمنّعوا عن قبول الدين الحق فهم- إذاً- معاندون مفتتنون، فهنالك الدفاع عن الحق ذوداً عن الفتنة المعاندة.

وليست الحروب الإسلامية- على أية حال- لتعني تفتُّح البلاد، أو حمل أهليها إكراهاً على الدين، إذ «لا إكراه في الدين» هي ضابطةٌ عامة لا تُستثنى، وإنما تعني تفتُّح القلوب، أو الذود عن فتنة المؤمنين باللَّه أو المستضعفين، «والفتنة أكبر- أشد- من القتل» فالفتنة التي هي أشد وأكبر من القتل هي من حقول الدفاع، وبأحرى من

---

(١)). المصدر في الكافي علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن معاوية بن عمار قال: أظنه عن أبي حمزة الثمالي عن أبي عبد اللَّه عليه السلام قال: كان نور رسول اللَّه صلى الله عليه و آله:.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏٧، ص: ٢٧١

فتنة القتل.

ومن وصايا الإمام علي عليه السلام في سنة الحرب: «لا يحملنكم شنآنهم على قتالهم قبل دعائهم والإعذار إليهم». «١» و «لا تقاتلونكم حتى يبدءوكم، فإنكم بحمد اللَّه على حجة، وترككم إياهم حتى يبدءوكم حجة أخرى لكم عليهم». «٢»- «لقد ضربت أنف هذا الأمر وعينه، وقلبت ظهره وبطنه، فلم أر لي فيه إلا القتال أو الكفر بما جاء به محمد صلى الله عليه و آله، «٣»- «فواللَّه ما دفعتُ الحرب يوماً إلّا وأنا أطمع أن تلحق بي طائفة فتهتدي بي، وتعشو إلى ضَوئي، وذلك أحب إلي من أن أقتلها على ضلالها وإن كانت تبوء بآثامها». «٤»

ويقول لإبنه الحسن عليه السلام: «لا تدعونَّ إلى مبارزة، وإن دُعيت إليها فأجب، فإن الداعي با غ والباغي مصروع». «٥»

ذلك، وهنا «فخلوا سبيلهم» مشروط بمثلث التوبة وإقام الصلاة وإيتاء الزكوة، إذاً فهلا نخلّي سبيلهم عن القتال إن تابوا ولم يصلوا أم لم يزكوا؟ وقتال تارك الصلاة أو الزكوة غير وارد في الإسلام على المسلمين.

قد تكون الصلاة والزكوة- وهما ركنان ركينان بين فروع الدين- إمارتين لصادق

---

(١)). (الخطبة ٢٥١)

(٢)). (الخطبة ٢٥٣)

(٣)). (الخطبة ٤٣)

(٤)). (الخطبة ٥٥)

(٥)). (٢٣٣ ح). ويكتب إلى أهل الأمصار إعذاراً لقتال في صفين: «وكان بدءُ أمرنا أنَّا التقينا والقوم من أهل الشام، والظاهر أن ربنا واحد ودعوتَنا في الإسلام واحدة، ولا نستزيدهم في الإيمان باللّه والتصديق برسوله ولا يستزيدوننا، الأمر واحد إلّا ما اختلفنا فيه من دم عثمان ونحن منه براءٌ، فقلنا: تعالوا نداوِ ما لا يُدرك اليوم بإطفاء الثائرة وتسكين العامة حتى يشتد الأمر ويستجمع، فنقوى على وضع الحق مواضعه، فقالوا: بل نداويه بالمكابرة، فأبوا حتى جنحت الحروب ورَكَدت، ووقدت نيرآنها وحمست، فلما ضرَّسْتْنا وإياهم ووضعت مخالبها فينا وفيهم أجابوا عند ذلك إلى الذي دعوناهم إليه فأجبناهم إلى ما دعوا، وسارعناهم إلى ما طلبوا، حتى استبانت عليهم الحجة وانقطعت منهم المعذرة» (٢٩٧)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٧٢

الإيمان، حيث القصد من التوبة هو صالحها وواقعها دون الإقرار- فقط- بالشهادتين.

إذاً فهل نخلّي سبيل التائب التارك لهما حين نتأكد التوبة؟ وهذا خلاف النص المقيِّد تخلية سبيلهم بكل هذه الثلاثة! أم نقاتله؟ وهو غير وارد إسلامياً!.

وقد يقال إن ملاحقة التائب التارك لهما أو لأحدهما هي قضية مفهوم الشرط ولا حجة فيه؟ ولكنه- أولًا- إذا كان مفهوماً فهو حجة لكونه مفهوماً من وجه الخطاب، ثم «اقتلوا» لم تستثن إلا في وجه ذلك المثلث، فهو إذاً تمسكٌ بالعموم لا المفهوم.

ولكن «اقتلوا المشركين» تضيّق نطاق القتل بحالة الإشراك، فإذا تابوا عنه فلا إشراك حتى يعمه «اقتلوا»، إذاً «فخلوا سبيلهم» بعد الشرطين الأخيرين هي التخلية الكاملة، ألا تتعرضوا لهم بشيءٍ، فهي دونهما تقتسم حسب انقسام الثلاثة، تخلية عن قتلهم بالتوبة عن إشراكهم، ثم تخلية عن سائر التعرض لهم إن «أقاموا الصلاة وآتوا الزكوة».

فقد نلا حقهم لا فقط لإشراكهم، بل ولتركهم هامة الفروع، فلنخل سبيلهم عند التوبة في ملاحقة القتل، ثم سائر السبيل عند إقام الصلاة وإيتاء الزكوة في سائر الملاحقات المحلِّقة على تاركي المفروضات وفاعلي المرفوضات.

فقد انقسمت تخلية سبيلهم حسب أقسام التوبة، تخلية لسبيل الحياة بالتوبة، وتخلية لسائر الحرية فيها بالآخرين، فإنْ تركوا الأخيرين أو أحدهما تبقى الملاحقة لغرض الحمل عليهما باقياً، فهذه الثلاث بالنسبة لمن ظل مشركاً ملاحقة للقتل، ثم لمن تاب وهو تارك للعمودين ملاحقة لسائر المضايقات حملًا عليهما من باب الأمر بالمعروف المفروض بمراتبه.

ثم وقتل المسلم لتركه الصلاة أو الزكوة يحتاج إلى قاطع الدليل «١» وليس، وقد

---

(١)). الدر المنثور ٣: ٢١٣- أخرج ابن سعد عن عبد الرحمن بن الربيع الظفري وكانت له صحبةقال: بعث رسول اللّه صلى الله عليه و آله إلى رجل من أشجع تؤخذ صدقته فجاءه الرسول فرده فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله إذهب إليه فإن لم يعط صدقته فاضرب عنقه، وفي آيات الأحكام للجصاص ٣: ١٠١ روى معمر عن الزهري عن أنس قال لما توفي رسول اللّه صلى الله عليه و آله ارتدت العرب كافة فقال عمر يا أبا بكر أتريد أن تقاتل العرب كافة، فقال أبو بكر إنما قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله إذا شهدوا أن لا إله إلّا اللّه وأن محمداً رسول اللّه وأقاموا الصلاة وآتوا الزكوة منعوني دماءكم وأموالهم، واللّه لو منعوني عقالًا مما كانوا يعطون إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله لقاتلتهم عليه، وفيه روى مبارك بن فضالة عن الحسن قال: لما قبض رسول اللّه صلى الله عليه و آله ارتدت العرب عن الإسلام إلا أهل المدينة فنصب أبو بكر لهم الحرب فقالوا: نشهد أن لا إله إلّا اللّه ونصلي ولا نزكي، فمشى عمر والبدريون إلى أبي بكر وقالوا: دعهم فإنهم إذا استقر الإسلام في قلوبهم وثبت أدوا، فقال: واللّه لو منعوني عقالًا مما أخذ رسول اللّه

صلى الله عليه و آله على ثلاث: شهادة أن لا إله إلا الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكوة وقال الله تعالى: «فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكوة فخلوا سبيلهم» والله حتى لا أسأل فوقهن ولا أقصر دونهن، فقالوا له: يا أبا بكر نحن نزكي ولا ندفعها إليك، فقال: لا والله حتى آخذها كما أخذ رسول الله صلى الله عليه و آله وأضعها مواضعها، وروى حماد بن زيد عن أيوب عن محمد بن سيرين مثله، وفيه روى الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن أبي هريرة قال: لما قبض رسول الله صلى الله عليه و آله واستخلف أبو بكر وارتداد من ارتد من العرب بعث أبو بكر لقتال من ارتد عن الإسلام فقال له عمر يا أبا بكر ألم تسمع رسول الله صلى الله عليه و آله يقول: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: «لا إله إلا الله» فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله؟ فقال: لو منعوني عقالًا مما كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه و آله لقتالهم عليه-

وفيه ١٣ عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه و آله: من فارق الدنيا على الإخلاص للهوعبادته وحده لا شريك له وإقام الصلاة وإيتاء الزكوة فارقها والله عنه راض

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٧٣

يبعده- إضافة إلى ذلك- أن أهل الكتاب غير داخلين في «اقتلوا» وهم تاركوا الصلاة والزكوة وكل الواجبات الإسلامية؟ فكيف يقتل المسلم لتركه إياهما؟.

ولكن المرجو من المسلم غير المرجو من غيره كتابياً وسواه، إلا أنا نجدد السؤال بالنسبة لمن هو مسلم يقيم الصلاة ويؤتي الزكوة ثم يتركهما فهل يقتل بذلك؟ ودون إثباته خرط القتاد!.

ذلك، وقد يعني «وأقاموا الصلاة وآتوا الزكوة» بعد أن «تابوا» الإعتقاد بوجوب الصلاة والزكوة، ثم وتطبيقهما دليل ذلك الإعتقاد، فالذي يتوب عن الإشراك ثم لا يقيم الصلاة ولا يؤتي الزكوة، لا يُعلم منه أنه- حقاً- تاب، إذ ليست لفظة التوبة هي التوبة، إنما هي الرجوع عن عقيدة الإشراك، ثم يُعلم ذلك الرجوع بإمارة هامة لتلك العقيدة هي إقام الصلاة وإيتاء الزكوة كرأسين أصليين لزوايا الإيمان عملياً.

فقصارى المستفاد من الآية وجوب قتال المشركين، ومن تاب عن إشراكه هو

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٧٤

خارج عن «المشركين» فلا قتل إياه، ثم «فخلوا سبيلهم» المشروط «بإقام الصلاة وإيتاء الزكوة» لا يختص بالتخلية من قتلهم، بل وسائر المذكورات معه ك «خذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد» فهذه الثلاثة الأخيرة هي أعم في التائب التارك للصلاة والزكوة، من القتل، فيستثنى القتل لخروجه عن الإشراك، ويبقى الباقي لترك العمودين، حيث المفروض أخذ تاركهما بكل مأخذ وحصره وقعود كل مرصد له حتى يقيم الصلاة ويؤتي الزكوة، فإنَّ «خلوا سبيلهم» تعني تحريرهم عن كل ما ذكر، فلم يقل «لا تقتلوهم» حتى تختص التخلية بترك قتلهم، إنما هو تحريرهم طليقاً، وليس يحرَّر طليقاً تارك الصلاة والزكوة أياً كان.

ثم وهذا النص قصاراه أنه كان يواجه واقعاً متميزاً في مشركي الجزيرة يومذاك، فما كان أحدهم ليعلن توبته ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة إلا وهو يعني الإيمان بالإسلام كله، إذاً فالتارك لهذين العمودين- حينذاك- مع ظاهرة التوبة، لم يعرف منه صالح التوبة، فقد يكون نفاقاً أم وفاقاً غير صالح.

إذاً فالأشبه أن ترك الصلاة والزكوة دون هذه الملابسات التي تدل على نكرانهما لا يبرِّر قتل تاركهما على أية حال، وما يروى من قتال تاركي الصلاة والزكاة محمول على مواضع النكران لهما، دون تركهما على إيمان وتصديق تساهلًا فيهما وتكاهلًا.

ذلك، ثم المشركون الأفراد، الذين لا يجمعهم تجمع جاهلي تصدياً للإسلام وتعرضاً بأهله قتلًا أم إضلالًا، لا يتصدى لهم الإسلام حرب إبادة، بل ويكفل لهم الأمن ترغيباً لهم ليسمعوا كلام اللّٰه ثم يُبلَغوا مأمنهم تروِّياً يمنعهم عن التردي، وكما يأمر اللّٰه سبحانه رسوله بمثل الأمر التالي:

وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ «١»

هنا إستجارة المشرك المرفوع عنه الأمان عند الملاحقة للقتال هي موضوع

---

(١)). سورة التوبة ٩: ٦

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٧٥

لواجب الإجارة، لا فحسب، بل و «حتى يسمع كلام اللّٰه» حيث الإستجارة قد تلمح بأنه متجرٍّ عن الحق المرام، ولا فحسب أيضاً بل «ثم أبلغه مأمنه» عند أهليه وربعه، وطبعاً في غير المعسكر المعادي فإنه ليس مأمناً، و «ذلك» المثلث من الرحمة الرحيمة للمشركين المستجيرين «بأنهم قوم لا يعلمون» فعن جهل هم مشركون وان كان جهلًا مقصِّراً، والجهل القاصر المطلق لا يتصور في الإشراك باللّٰه ولذالك «إن اللّٰه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء». «١» ثم الجهالة العامدة ممن «جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً» غير مغفور هناك ولا معذور هنا فلا يشمله «إستجارك» حيث الإجارة هنا إجارة لعناد عامد لا يرجى منه خير، اللّٰهم إلّا إذا احتمل خيره أم- ولأقل تقدير- دفع شره، فهو أيضاً داخل في الإجارة.

وحين تجب إجارة أحد من المشركين عند إستجارته، فبأحرى إستجارة المجموعة الشركية، ولأن «إستجارك» طليقة، فكذلك «أجره حتى يسمع كلام اللّٰه ثم أبلغه ما منه».

فلا تفتكر أنه قد يخدعك باستجارت كاذباً فلا تأجره، بل تأسره، اللّٰهم إلّا بأكيد الكيد الخطِر اللعين المكين، حيث يعني خطراً على الصف المسلم، فالأصل- إذاً- هو الإجارة بالإستجارة، إلا فيما يستثنى حفاظاً على الأهم من صالح المجموعة المسلمة.

ولكن «أحدٌ من المشركين» أياً كان، وهو في إجارة قيادة القوات المسلحة، لا يخشى منه خطرٌ على فرد فضلًا عن المجموعة، فلكي تكون حجة الحق هي العليا قد نجيره لما يستجير، آمنين عن كيده وميده، ثم «أبلغه مأمنه» حيث الموضوع هو طليق الإستجارة فله طليق الإجارة وإبلاغ المأمن.

ذلك، فاحتمال أن أحداً من المشركين يستجير لكي يستنير يمنع عن ملاحقته، حيث القصد منها دفع نائرة الفتنة القاطعة، فحين يرجى زوالها جراً إلى الإيمان

---

(١)). سورة النّساء ٤: ٤٨

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٧٦

والرحمة فلماذا بعدُ استمرار الملاحقة «١»، بل وإذا لا نحتمل فعلَّ الواقع الخارج عن الإحتمال يحتمل تحرِّيه أو تنبهُّه، بل وإذا نتأكد ألَّا خير فيه ولا شرَّ.

وهنا «حتى يسمع كلام اللّٰه» قد تفسر المعني من هذه الإستجارة أنها تقصد التحري عن الحق المرام، ولكن «حتى يسمع» ليس جزاءً للشرط، إنما هو من الغايات الصالحة للجزاء.

ثم إذا يسمع كلام اللّٰه لا ينتظر منه فورُ الإيمان، بل «ثم أبلغه مأمنه» ليجيد التفكر ويعيد النظر إجالة له دون عُجالة حتى يرتكن الإيمان في قلبه، وهذه العناية الأدبية هي غاية ما يمكن رعايته منها، تحرياً عن مواضع الإسترشاد فالرشاد، دون رفض للمستجير زعم أنه كاذب أو محتال، فالأصل- على حائطة- صدق المستجير، ما فيه محتَمله «فأجره حتى يسمع كلام اللّٰه».

وهل هذه الإجارة تختص بالرسول صلى الله عليه و آله؟ أم ومن يخلفه في القيادة الحربية؟ أم تعم كل المؤمنين المحاربين حين تكون الإجارة صالحة لا تحمل خطراً على جيش الإسلام.

«أجره» بعد خطابات جامعة تصلح خطاباً لكل فرد فرد من المؤمنين وكما يروى عن النبي صلى الله عليه و آله قوله: «من استجاركم فأجيروه» «٢» و «يجير على المسلمين» «٣» حتى «النساء والعبيد». «٤»

وهنا «كلام اللّٰه» الطليق في صيغته، لا يعني طليقاً منه في محتواه، إنما هو «كلام

---

(١)). في تفسير الفخر الرازي ١٥: ٢٢٦ نقل عن ابن عباس انه قال: إن رجلًا من المشركين قال لعليبن أبي طالب عليه السلام: إن أردنا نأتيالرسول صلى الله عليه و آله بعد انقضاء هذا الأجل لسماع كلام اللّٰه أو لحاجة أخرى فهل نقتل؟ فقال علي عليه السلام: لا- إن اللّٰه يقول: «وإن أحد من المشركين استجارك فأجره ..»

(٢)). مفتاح كنوز السنة نقلًا عن حم- ثان ص ٩٩

(٣)). المصدر عن حم- ثان ص ٢١٥ و ٣٦٥، رابع ص ١٩٧، خامس ص ٢٥٠، هش- ص ٤٦٩، قد- ص ٣٣٩

(٤)). المصدر بعنوان «إجارة النساء والعبيد» عن بخ- ك ٥٨ ب ٩، بد- ك ١٥ ب ١٥٥، تر- ك ١٩ ب ٢٦، مى ك ١٧ ب ٥٨، عد- ج ٨ ص ٢١

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٧٧

اللّٰه» الذي يهديه هدياً صالحاً إلى اللّٰه، فتلاوة آيات الطلاق والعدة وما أشبه ليست لتنفع المشرك، إنما هي الآيات المبرهنة لتوحيد اللّٰه وصدق هذه الرسالة، حاملة الحكمة والموعظة الحسنة، فإن لكلِّ مجال مقالًا ولكل مقالٍ مجالٌ.

فقد خصصت هذه الآية- آية: «أقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» وخصتها بالمعاندين الذين ليسوا ليسمعوا كلام اللّٰه تحرياً عن الحق، فإنما هم فاتنون ضالون مضلون صادُّون عن سبيل اللّٰه حيث يبغونها عوجاً، ولأن الفتنة أكبر وأشد من القتل ف «قاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين للّٰه». «١» وعلى ضوء هذه الآية تعرف الحقائق التالية:

١- السمع الصالح لكلام اللّٰه للتحري عن الحق يكفى حجة للحق، مما يدل حجة القرآن البالغة، الدالة على ربانية آياته، وأنها دون أي مساعد آخر يُرشد السالكين المتحرين عن الحق إليه، فقيلة أن القرآن لا يُفهم إلّا بدلالة وتفسير السنة كأصل، إنها غيلة وحيلة على القرآن الذي هو بيان للناس، ولأن المعدات والقابليات مختلفة فعلى القيادة الحربية إسماعه كلام اللّٰه لحدّ يُقنعه تماماً دون أي خفاء لكيلا يبقى له عذر في رفض الحق.

٢- الإستجارة لسمع الحق تفرض على أهله عندها الإجارة الصالحة له، وإتاحة الفرصة بعده حتى يتروى فيما سمع- كما تشير له «ثم» المراخية لإبلاغة مأمنه- مما يبرهن على أن معرفة أصول الدين ليست إلّا بالإجتهاد قدر الجهد والإمكانية الذاتية، ثم الإستعانة الإستجارة بمن يعرف الحق بصورة مقنعة، فلا تعني الإستجارة هنا فقط فسح المجال بين المستجير وبين سماع كلام اللّٰه لمكان القصور الذاتي أو الحالي للبعض من المستجيرين، فعلى أهل اللّٰه أن يبينوا كلام اللّٰه قدر ما يقنع المستجير.

٣- وبطبيعة الحال لا تعني «حتى يسمع كلام اللّه» مجرد السماع لمجرد الكلام وإن لم يفهم معناه ومغزاه كالذي لا يعرف لغة القرآن، أو يعرفها ولكنه لا يعرف مغازي

---

(١)). سورة البقرة ٢: ١٩٣

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٧٨

الكلام لحد تنتجه صالح النتيجة.

٤- ولأن هذه الآية تحمل فرضاً فطرياً عقلياً صالحاً للدعوة الربانية الصالحة التي لا مرد لها ولا حِوَل عنها، لذلك فلا تتحمل النسخ حيث «لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي» ولا ملاحقة قبل بيان الحجة وتمامها، فليست أمثال «قاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة» مما تنسخ هذه الآية.

٥- ولأن الخطاب هنا يخص الرسول صلى الله عليه و آله في «إستجارك فأجره» فقد نتلمح قرن البيانالرسولي إلى بيان القرآن، الرسالي، ولمكان «وأنذر بالقرآن من يخاف وعيد» مما يفرض المحاولة الصالحة المقنعة لكامل السمع لكلام اللّه، دون مجرد الكلام أيّاً كان ومن أيٍّ كان مهما يحمل كل القرآن، إنما هو «وقل لهم في أنفسهم قولًا بليغاً» يبلغ إلى شغاف أنفسهم، فعلى قيادة الجيش الإسلامي هذه الرعاية الشاملة الكاملة الكافلة لإسماع حجة الحق على ضوء كلام اللّه.

٦- ولأن «استجارك» تفرض السماح لسماع كلام اللّه، فكذلك في بدء القتال والملاحقة من المفروض الدعاء الحق قبله بما يُقنع قم القتال، ف «إن أحد من المشركين» الذين لم يسمعوا إلى كلام اللّه، أم سمعوا والتهوا أم على أية حال لم يقتنعوا، أم تمنَّعوا عن سماعه ثم استجاروا «فأجره ..» حيث القصد من القتال توجيههم إلى اللّه بداية أم نهاية وعلى أية حال، ف «لا يجرمنكم شنآن قوم على ألَّا تعدلوا إعدلوا هو أقرب للتقوى».

ذلك، فمجرد إحتمال أن المشرك في طريق التحري، ليس فقط ليحرم ملاحقته قتلًا أو حصراً، بل ويسمح للإستغفار له وكما فعله إبراهيم لما سمع آزر يقول «واهجرني ملياً» فاستفاد من ذلك أنه يعني مهلة للتفكير فاستغفر له، ف «ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم. وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٧٩

أنه عدو للّهتبرء منه ..». «١»

ذلك، وهل تختص هذه الإستجارة بما تعني سماع كلام اللّه لمكان «حتى يسمع كلام اللّه»؟ طليق «استجارك» يطلقها إلى غير هذا المعني، فقد يعني ذلك الإطلاق اغتنام الفرصة في هذا المجال لإسماعه كلام اللّه، حيث الإضطرار يحمل الناكر للحق أياً كان ليسمع كلام اللّه حفاظاً على صالحه المقصود من إستجارته، فإذا سمع كلام اللّه سمعَ التدبر لا الإدبار «ثم أبلغه مأمنه» إذ لا يُعنى من «يسمع» إلّا سمع التفكر والإهتداء دون سواه مِن سمعٍ لا يغني سامعه شيئاً حيث لا يعني الإستنارة به.

فالمشرك المستجير عند الملاحقة يُجار على أية حال «حتى يسمع كلام اللّه» سواءٌ أكانت استجارته لذلك أم لسواه، فإنما القصد هنا اغتنام هذه الفرصة المتيحة لنا لنُسمعه كلام اللّه، فإن سمع مؤمناً فإلى جيش الإسلام، وإن سمع متردداً متروياً «فأبلغه مأمنه» وإن سمع

غير سامع فلم تحصل- إذاً- الغاية المعنية من إجارته وهي «حتى يسمع كلام اللّٰه» فلا إبلاغ إلى مأمنه، بل هو كسائر المشركين غير المستجيرين، اللّٰهم إلا إذا لا يشكل خطراً على الصف الإسلامي، فمجرد إستجارته يفرض إجارته.

فالحملة الإسلامية على المشركين ليست حملة إبادة، بل هي حملة هداية ما وجدت إليها سبيلًا، أم إيقافاً لفتنة المشركين.

ذلك، فقد تشمل «ثم ابلغه مأمنه» المستجير الذي سمع كلام اللّٰه ولم يؤمن، ولكنه لا ينوي محاربة المسلمين على أية حال، فهذا أيضاً «ثم أبلغه مأمنه» فإنما هنا مسرح واحد لقتالهم هو قتالهم أو اغتيالهم أو تضليلهم المسلمين، وإلّا فلا ملاحقة إلا لاهتدائهم إلى الحق، وإلا فلا سلب- إذاً- معهم ولا إيجاب، حيث القتال إنما يعني إزالة الفتنة، نفسية ودعائية، ولو عني من الإستجارة الإستهداء أم مجال التحري لجيء بلفظه الخاص، دون الإستجارة العامة، فمجرد الإستجارة لأيهدف كان إلا

---

(١)). سورة التّوبة ٩: ١١۴

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٨٠

الحلية الخطرة على المسلمين، إنه موضوع واجب الإجارة «حتى يسمع كلام اللّٰه».

فيا لهذه الإجارة الرحيمة من قمة عالية وهمة غالية، حراسةً على المشرك لحد إبلاغه إلى مأمنه وهو بعدُ مشرك، ما لم يشكِّل خطراً على كيان الإسلام والمسلمين، سواءً سمع كلام اللّٰه سمعَ قبول فإيمان، أو سمع التحري والتروي، أو سمع الخوف دون تقبل وتروٍّ، ولكنه بهذه الإستجارة يعني ابتعاده عن كافة الحزازات ضد الحوزة الإسلامية، وكل «ذلك بأنهم قوم لا يعلمون» فالعالمون حق الإسلام المعارضون إياه لا إجارة لهم.

ثم مبدء الإشراك من قضاياه ورزاياه عدم الإلتزام بالعهد، فعلى المسلمين أن يأخذوا حذرهم منهم حالة الصلح كما في حالة الحرب حتى لا يؤخذوا على غِرَّة.

«كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللّٰهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ» «١»

«كيف يكون للمشركين عهد» عليكم «عند اللّٰه وعند رسوله» دون أن تعاهدوهم، وليس لهم مبدءٌ صالح يُلزمهم على عهد صالح لصالح المسلمين، اللّٰهم «إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام» حاسبين حسابكم في معاهدتهم، وهنا «فما استقاموا لكم» في تلك المعاهدة «فاستقيموا لهم» معاملة بالمثل عادلة، قضيةَ تطبيق المعاهدة الإسلامية السلمية «إن اللّٰه يحب المتقين» إياه عن أية تخلُّفه في معاهدة وسواها، فلا يجب- إذاً- الناقضين عهودهم وإن مع المشركين القائمين بشروطات المعاهدة، المستقيمين لكم فيها.

فحين يعهد المشركون لكم عهداً أنتم غير قابليه فلا عهد لهم عند اللّٰه وعند رسوله، فضلًا عما لا يعهدون، وأما إذا عاهدتموهم «عند المسجد الحرام» أم سواه، فاستقيموا لهم ما استقاموا «إن اللّٰه يحب المتقين» وهنا ضمير الجمع راجع إلى «المشركين» دون خصوص «الذين عاهدتم عند المسجد الحرام» لأن «ما استقاموا» ضابطة لا تنحصر في الآخرين، وأن الأولين هم ركن الكلام.

---

(١)). سورة التّوبة ٩: ٧

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٨١

وغير صحيح أن غيرهم إذا استقاموا لم تجب الإستقامة لهم لأن معاهدتكم إياهم ليست عند المسجد الحرام، فلا أن صالح المعاهدة يختص بالمسجد الحرام، ولا أن رعاية العدالة خاصة بهؤلاء المعاهدين في ذلك المكان الخاص، وهنا المقصود صلح الحديبية فقد عني المسجد الحرام كله.

ذلك ومن قبل «كيف يكون للمشركين عهد» يسلب الإستقامة لعهدهم حين لا يستقيمون، ثم يفرضها حين يستقيمون كالذين عاهدتم عند المسجد الحرام، فالعهد المستقيم لزامه الإستقامة قدرها دون حِوَل عنها أياً كان ومن أيٍ كان.

وترى «ما استقاموا» تتجزء في أقدار الإستقامة بأجزاءها؟ ففيما يستقيمون فاستقيموا وفيما ينقضون فانقضوا إذ كان للمعاهدة بنود.

ولكن «إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقضوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين» قد تنافي التجزء، اللَّهم إلَّا أن «أتموا» وجاه «لم ينقضوكم شيئاً» جمع قبال جمع، فإذا أَتَموا أتِموا، ثم «ما استقاموا لكم فاستقيموا لهم» كما وأنه قضية العدالة والمقابلة بالمثل، ثم قد تعمم «ما استقاموا» فرض «فاستقيموا» وإن بعد موتهم، حيث الأصل لسماح أو فرض قتالهم هو فتنتهم، فحين يستقيمون بعهد ودون عهد فواجب الإستقامة لهم قائم، بل وبأحرى بعد تمام مدتهم، حيث إن الإلتزام بالمعاهدة بعد تمام مدتها أدل على سلمهم طيلة المدة.

إذاً ف «أتموا عهدهم إلى مدتهم» قد تعني إلى مدة عهدهم مدةَ الإلتزام بالمعاهدة، أم لا مفهوم له أن قاتِلوهم بعد تمام المدة وإن كانوا ملتزمين بما التزموه في نفس المدة.

وهنا «ما» في «ما استقاموا» إما شرطية مضمَّنةَ الزمان وهي الأشبه، أم زمانية، وعلى أية حال ف «ما» تطلِق شرط الإستقامة بجزاءها إلى مدتهم بعد موتهم.

ثم ترى بعد «إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام» حصر للوفاء بالمعاهدة فيهم؟

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٨٢

ولا حصر واقعياً فيهم! ذلك حصر فيمن يستقيمون، وهؤلاء كانوا مثالًا للإستمامة لمكان «فما استقاموا لكم» فليس للمسجد الحرام والذين عاهدوكم عنده ميزَّة في ذلك الإستثناء إلّا مصداقية بارزة لهم دون حصر، فما هذا الإستثناء استثناءً بموضوع يفيد الحصر، بل بمصداق بيِّن منه كما في الإيمان عند رؤية الناس: «فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين». «١»

ثم وضابطة «فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم» محكَّمة لكل هؤلاء الذين يستقيمون في عهودهم، سواءً أكانوا من المعاهدين عند مسجد الحرام أم سواه.

فالمبدء الأول للمشركين أنه ليس لهم عهد عند الله وعند رسوله، فإنهم ناقضوا عهد الله بإشراكهم به، وناقضوا عهد رسول الله بنكرانهم له، فكيف يكون- إذاً- لهم عهد عند الله وعند رسوله للجماعة المؤمنة بالله وبرسوله، فذلك إستفهام إنكاري يوقظ المسلمين بأن الأصل فيهم أولآء الأنكاد الأنكاث هو نقض العهود فلا يوثق بهم أبداً، فعليهم اليقظة الدائمة أمامهم، حياطةً على النقض المرتقب منهم دائماً.

ذلك لأنهم كأصل يكمنون لكم العداء العارم دون رغبة فيكم ولا رقابة عليكم، فالأصل في معاهدة المسلم المحارب عدم النقض فإذا نقض انتقض، ثم الأصل في معاهدة المشرك المحارب النقض، فإذا لم ينقض لم ينتقض، فلا تجوز بدار النقض منا لعهد المشرك قبل نقضه، فإنه- إذاً- حجة علينا وإعتداء بغير مثل.

وهكذا يُلزمنا الإسلام بالوفاء بالعهود مع المشركين فضلًا عن المسلمين، ولكن علينا أن نحتاط أمام المشركين المعاهدين إذ ليس لهم عند الله ولا عند رسوله عهد.

وإذا كانت الإستقامة للمعاهدات الإسلامية مع المشركين بهذه المثابة فماذاترى في المعاهدات الإسلامية مع بعضهم البعض، فهل يجوز نقضها من طرف واحد بأي سناد؟ كلّا وحتى الرسول صلى الله عليه و آله ليس له ذلك النقض فضلًا عمن سواه مهما بلغ به الأمر.

---

(١)). سورة يونس ١٠: ٩٨

فلا يبرِّر نقض العهد إلّا نقضه قدره، دون أي مبرر آخر دونما استثناء.

وهنا «عند المسجد الحرام» قد يعني إلى صلح الفتح بمكة صلحَ الحديبية إذ لم يسبق لهم معاهدة قبل الفتح إلا فيها مما يوسع نطاق المسجد الحرام إلى الحرم كله، و «عند» هنا لأن الحديبية هي على أشراف الحرم وشفيره فإن بعضها في الحرم وبعضها في الحل.

كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَيَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ «١»

«كيف» يكون لهم عهد وهم لا يراعون عهداً عاطفياً إنسانياً بقرابة وما أشبه ف «لا يرقبون فيكم إلّا ولا ذمة» عهداً بمعاهدة، فهم خلو عن كل عهد «إلّا» بقرابة و «ذمة» بقرار، فكيف يوثق بهم وهم لا عهد لهم من هذا وذاك.

فالإل هو كلما يقابل الذمة مما تجب رعايته ورقابته من ١- تحديد فطري أو عقلي أو عرفي ٢- أم صفاء ولمع إنساني، ٣- أم جوار ٤- أم قرابة نسب أو سبب، فقد جاء الإل بمعاني عدة لا تناسب هنا إلا هذه الأربعة، وأما العهد فهو المعني ب «ذمة» ثم «الله» ليس ليعبر عنه بالإل، وأما «ذمة» فهي العهد الذي يُذم على نقضه، فهو العهد اللزام المذموم نقضه.

إذاً ف «لا يرقبون» حراسة ورقابة «في مؤمن إلّا» قرابة أم صفاءً ولمعاً إنسانياً، أم فطرة أو عقلية أو عرفية أماهيه من رقابات أصلية هي قضية أصل الإنسانية، ثم «ولا ذمة» بمعاهدة وذمام، فهو- إذاً- خواء عن أية مراقبة لمؤمن فكيف يكون لهم عهد؟!.

فقد فسدت إنسانيتهم وكسدت حيث حُجبت فِطَرهم وعقولهم وحلومهم و علومهم عن لمس الحقائق، فهم إذاً شر الدواب الصم البكم الذين لا يعقلون.

«يرضونكم» في إلٍّ أو ذمةٍ «بأفواههم» مداهنة لا مهادنة حيث «تأبى قلوبهم» عن أية رقابة لأيإلٍّ أو ذمة، وعلى الجملة كأصل «أكثرهم فاسقون» متخلفون عن كل

---

(١)). سورة التّوبة ٩: ٨

وثاق ووثيقة، مهما كان لأقلهم إلٌّ أو ذمة كالذين عاهدتم عند المسجد الحرام.

ف «أكثرهم فاسقون» هنا لا يعني مطلق الفسوق فإن كلهم فاسقون عن طاعة الله وشرعته، فإنما حكم الأكثرية هنا يختص بحقل عدم رقابة إلّ أو ذمة.

فهؤلاء لا يسالمونكم أو يعاهدون ألا يعاهدون إلا مضطرين «وإن يظهروا عليكم» غَلَباً في المعركة أم في القوة «لا يرقبون في مؤمن إلّا ولا ذمة وأكثرهم فاسقون» خارجون عن أي إلٍّ أو ذمة.

فهم- إذاً- لا يقفهون في التنكيل بكم لحد حتى المتعارَف في أية بيئة إنسانية، متجاوزين كافة الحدود والأعراف، وهم أولآء الأنكاد الأغباش:

«اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» «١»

«اشتروا بآيات اللّه» أنفسية وآفاقية، رسولية ورسالية، هذه الآيات المرئية لهم المعروضة عليهم، اشتروا بها «ثمناً قليلًا» من متعة الحياة الدنيا، وكل ثمن أمام آيات اللّه قليل.

وبالنتيجة «فصدوا عن سبيله» أنفسَهم وسواهم، فأصبحوا في قالهم وحالهم وفعالهم صداً عن سبيل اللّه على آية حال، في كل حلّ وترحال، فهم يحملون أصول الفتن وأثافيّ الِمحَن، والفتنة أكبر وأشد من القتل، فقاتلوهم يعذبهم اللّه «إنهم ساء ما كانوا يعملون».

هناك «لا يرقبون فيكم» اللامحة لخصوص المؤمنين الحضور، وهنا «في مؤمن» طليقة تشمل كل مؤمن على مد الزمن إلى يوم الدين، انتقالًا عن خاص إلى عام كيلا يخيَّل إلينا أن هذه العداوة خاصة بجماعة خصوص من المؤمنين.

هنا «فصدوا عن سبيله» وأمثالها لها نطاق واسع يعم إلى «الذين اشتروا بآيات اللّه ثمناً قليلًا» كل هؤلاء الذين يصدون عن سبيل اللّه، وأفضل سبل اللّه هو القرآن وعلى ضوءه رسول القرآن.

---

(١)). سورة التّوبة ٩: ٩

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏٧، ص: ٢٨٥

فقد يُصد عن القرآن تكذيباً له وتزييفاً لموقفه، وهذا هو الكفر الجاهر المستهتر، أم يُصد عنه بطرق ملتوية تنقباً بنقاب الحفاظ على حرمة القرآن، والحياد عن المسّ من كرامة القرآن كالقيلات الغيلات التالية:

١- القرآن ظني الدلالة وقطعي السند، والحديث قطعي الدلالة وظني السند.

٢- في أن ظواهر القرآن حجة أم لا إختلاف بين العلماء، فكيف يستدل بما فيه خلاف؟

٣- آيات القرآن مجملات هي بحاجة إلى تبيان بالحديث، فالأصل هو الحديث حيث يفسر القرآن!.

ذلك وما أشبه من هر طقات تعني أن القرآن ليس بياناً ولا تبياناً، بالرغم من أنه في أعلى قمم الفصاحة والبلاغة، فهو يحمل أبين بيان وأفضل تبيان، ف: «هذا بيان للناس وهدىً وموعظة للمتقين». «١»- «فقد جاءكم بينة من ربكم وهدىً ورحمة فمن أظلم ممن كذب بآيات اللّه وصدف عنها سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوءَ العذاب بما كانوا يصدفون». «٢»

أو ليس نكران أن القرآن بيان للناس، وجعله في بوتقة النسيان، وإبعاده عن أمته وحوزته، أليس ذلك صدفاً عنه أن يجعل في زاوية منعزلة عن ناسه بأساسه.

ثم وكتمان أن القرآن بيان للناس وتبيان يستجر لعنة ربانية على الكاتمين ف «إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم اللّه ويلعنهم اللّاعنون». «٣»

فليس يختص كتمان الآيات البينات أن تكتم عن بكرتها، بل وكتمان أنها بينات بدعايات كالتي سلفت وما أشبه، إنه كتمان كسائر الكتمان مهما اختلف دركاته.

---

(١)

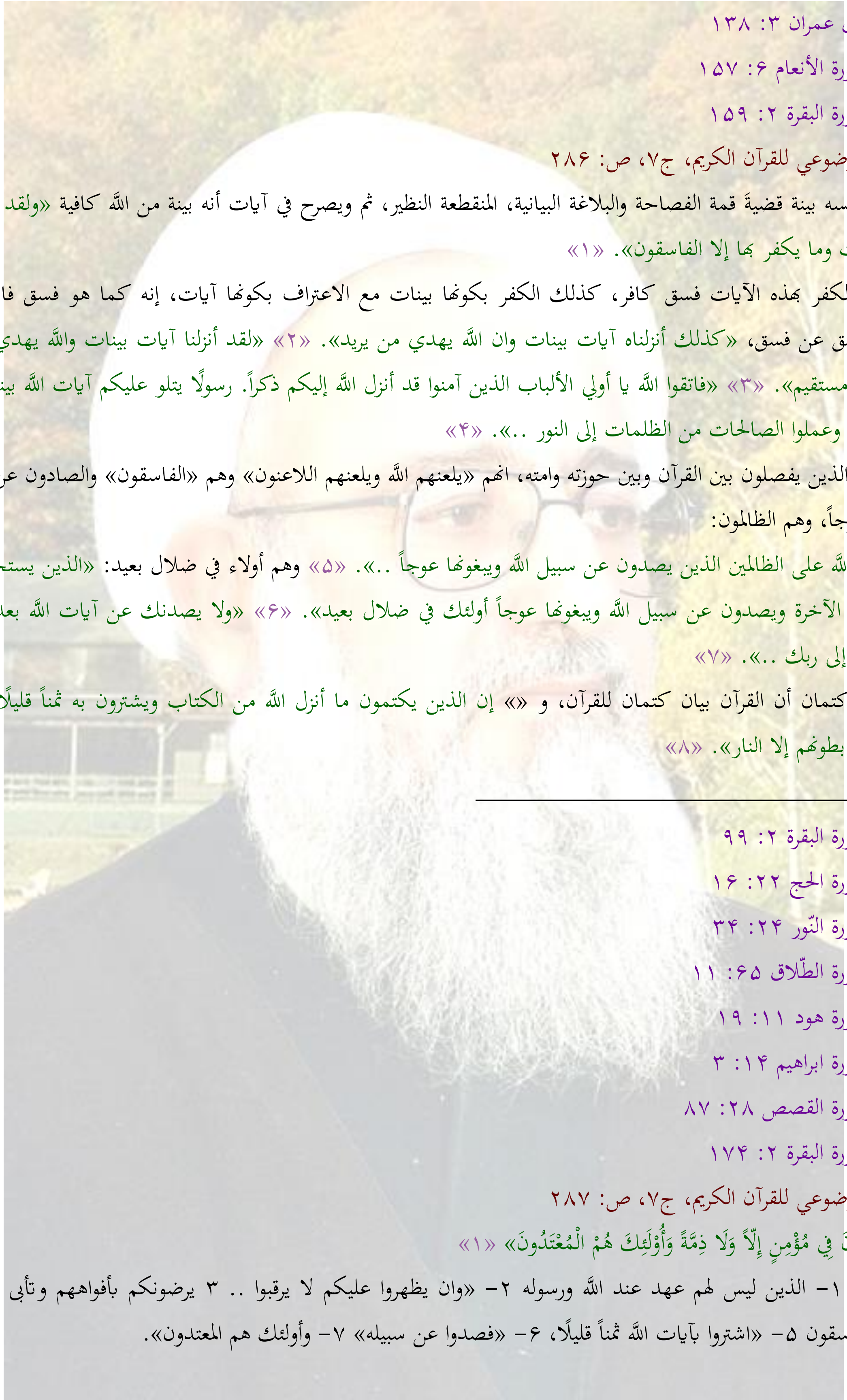

). سورة آل عمران ٣: ١٣٨

(٢)). سورة الأنعام ٦: ١٥٧

(٣)). سورة البقرة ٢: ١٥٩

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٨٦

فالقرآن بنفسه بينة قضيةً قمة الفصاحة والبلاغة البيانية، المنقطعة النظير، ثم ويصرح في آيات أنه بينة من اللَّه كافية «ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون». «١»

فكما أن الكفر بهذه الآيات فسق كافر، كذلك الكفر بكونها بينات مع الاعتراف بكونها آيات، إنه كما هو فسق فاسق، مهما اختلف فسق عن فسق، «كذلك أنزلناه آيات بينات وان اللَّه يهدي من يريد». «٢» «لقد أنزلنا آيات بينات واللَّه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم». «٣» «فاتقوا اللَّه يا أولي الألباب الذين آمنوا قد أنزل اللَّه إليكم ذكراً. رسولًا يتلو عليكم آيات اللَّه بينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ..». «٤»

إذاً فهؤلاء الذين يفصلون بين القرآن وبين حوزته وامته، انهم «يلعنهم اللَّه ويلعنهم اللاعنون» وهم «الفاسقون» والصادون عن سبيل اللَّه ويبغونها عوجاً، وهم الظالمون:

ف «لعنة اللَّه على الظالمين الذين يصدون عن سبيل اللَّه ويبغونها عوجاً ..». «٥» وهم أولاء في ضلال بعيد: «الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل اللَّه ويبغونها عوجاً أولئك في ضلال بعيد». «٦» «ولا يصدنك عن آيات اللَّه بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك ..». «٧»

أجل، إن كتمان أن القرآن بيان كتمان للقرآن، و «» إن الذين يكتمون ما أنزل اللَّه من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلًا أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار». «٨»

---

(١)). سورة البقرة ٢: ٩٩

(٢)). سورة الحج ٢٢: ١٦

(٣)). سورة النّور ٢٤: ٣٤

(٤)). سورة الطّلاق ٦٥: ١١

(٥)). سورة هود ١١: ١٩

(٦)). سورة ابراهيم ١٤: ٣

(٧)). سورة القصص ٢٨: ٨٧

(٨)). سورة البقرة ٢: ١٧٤

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٨٧

«لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلّاً وَلَا ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ» «١»

«أولئك» ١- الذين ليس لهم عهد عند اللَّه ورسوله ٢- «وان يظهروا عليكم لا يرقبوا .. ٣ يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم ٤- وأكثرهم فاسقون ٥- «اشتروا بآيات اللَّه ثمناً قليلًا، ٦- «فصدوا عن سبيله» ٧- وأولئك هم المعتدون».

هؤلاء الأنكاد البعاد عن كل شؤون الإنسانية، الحاصِلون على هذه الدركات السبع الجهنمية، كأنهم «هم المعتدون» فقط لا سواهم، حيث ركزت فيهم جذور الإعتداء، واستأصلت جذور الإهتداء، فكيف يكون- إذاً- لهم عهد عند الله وعند رسوله؟.

وهم على هذه الأوصاف النكدة علَّهم لهم منفذ إلى رحمة الله حيث تسقبلهم بشارة الله:

«فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» «٢»

فطالما الأخوة في الدين هي التي بين المؤمنين، فقد تشمل هؤلاء المشركين شريطة التوبة، وإقام الصلاة وإيتاء الزكوة كما فصلناها من ذي قبل، وهي الأخرى بين المؤمنين وأدعيائهم غير المعروف آباءهم: «.. وما جعل أدعياءكم أبناءكم .. ادعوهم لآباءهم فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم ..». «٣» ثم لا رابعَ إلّا اليتامى، ولكنهم لأنهم صغار غير مكلفين لم يصرح لهم بالأخوة في الدين:

«يسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم ..». «٤» ولكن

---

(١)). سورة التّوبة ٩: ١٠

(٢)). سورة التّوبة ٩: ١١

(٣)). سورةالأحزاب ٣٣: ٥

(٤)). سورة البقرة ٢: ٢٢٠

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٨٨

نسبتهم إلى المؤمنين في الأخوة قد قد تجعلهم إخوة في الدين، ما تتطلبه هذه الأخوة في الدين، وليس عليهم أولآء لصغرهم فرض في حقل أن يراعوهم بالاخوة الدينية، اللّهم إلّا ما يفرض على أولياءهم من تأديبهم وتدريبهم على الدين.

وحين تثبت الأخوة في الدين بين المؤمنين ككل «١» حتى بالنسبة للقاصرين فهلّا تثبت بين فريقي المسلمين شيعةًوسنةً أماهيه من الفرق، وهم ككل حاصلون على هذه الثلاثة، وحتى التاركين منهم للصلاة والزكوة، المصدقين لهما، هم غير خارجين عن هذه الأخوة الشاملة رَبع الإيمان، فقد تثبت حرمة اغتيابهم بعضهم بعضاً بنص آية الحجرات منضمة إلى هذه الآيات «إنما المؤمنون أخوة» و «ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه».

فقيلة حلية اغتياب أهل السنة غِيلة على وحدة الأخوة الإسلامية، وحيلة لوهْدتها أعاذنا الله من سوء الفهم والعصبية الجاهلة العمياء!، فإنما «نفصل الآيات لقوم يعلمون».

فحين يصبح المؤمنون الجُدَد- على سوابقهم المزرية- ثم الأدعياء غير المعروف آباءُهم، حين يصبح هؤلاء وهؤلاء ومعهم يتاماهم إخواناً لهم في الدين، أفلا يكون سائر المسلمين إخواناً لنا نحن الشيعة الإمامية، زعم أن الإيمان فالأخوة الإيمانية تختص بنا، ويكأن آيات الإسلام والإيمان والأخوة الإيمانية تخاطبنا فحسب دون سوانا؟ وهكذا الغلطة المغلَّظة بين جمع من إخواننا السنة حيث يرفضون أخواتنا الإيمانية، أم ويفضلون اليهود والنصارى علينا!.

وهكذا نزغ شيطان الإستعمار والأستحمار بيننا لحد جعلنا شذر مذر، تاركين لوحدة الإعتصام بحبل الله هابطين لوهدة الإنقسام عن حبل الله، عاملين على بث الخلافات وحثِّها فيما بيننا، وهذه هي بغية أعداءنا لكي يكونوا علينا- المتفرقين المفترقين- ظاهرين قاهرين!.

والقول إن إخواننا فاسقون في عقيدة الدين متجاهرين، فهم ممن يحل اغتيابهم؟

غول من القول، حيث الفسق المتجاهر به في حقل حلّ الإغتياب هو الذي يعترف

---

(١)). في تفسير العياشي جابر عن أبي جعفر عليهما السلام «فان تابوا» يعني فإن آمنوا فإخوانكم في الدين

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٨٩

صاحبه بأنه فسق، ثم لا يبرِّر سائر الفسق المستور أن يغتاب فاسد العقيدة فيه، والإكثرية المطلقة من إخواننا قاصرون وإن كان عن تقصير، فليسوا يعاندون الحق فينكرونه لعنادهم، بل هم حسب بيئتهم وملابساتهم ظلوا في تلكم العقائد، وعلى الدعاة إلى اللَّه أن يدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادلوهم بالتي هي أحسن.

ولو حلت الغيبة بين فرق المسلمين لفرقت بينهم أكثر مما هم متفرقون، وهم مأمورون بالوحدة قدر المستطاع، إعتصاماً بحبل اللَّه جميعاً دون تفرق وتمزق، فكيف يجوز اغتيابهم فيما هم غير متجاهرين من فسوق، أم هم غير مقتنعين أنه فسوق، فمن شروط الأمر والنهي ثم جواز الإغتياب، أن يكون الواجب والمحرم واضحين للمأمور والنهي وضحَ النهار، فإن تخلف بعدُ فأمر أو نهي، ثم إن أصر وجاهر فإصرار في الحمل على شرعة اللَّه وجهار في عرض مآسيه عله ينتهي.

«وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ» «١»

هنا نكث اليمين والطعن في الدين يُردفان عطفاً مما يدل على أن ذلك العهد المؤكد باليمين كان على المحايدة تجاة الدين، ألا يحاربوا المؤمنين في الدين، ولا يطعنوا طعنة أخرى في الدين كالدعاية ضده أو مظاهرة عدو على المؤمنين، فعند نكثهم وطعنهم «فقاتلوا أئمة الكفر» الناكثين الطاعنين، «إنهم لا أيمان لهم» قاتلوهم «لعلهم ينتهون» عن كفرهم، أم- لأقل تقدير- عن نكثهم وطعنهم.

وهنا تبرز من ملامح الحرب الإسلامية أنها فقط حرب دفاعية أمام الهجمة الكافرة على نفوس المؤمنين أم على عقائدهم وسائر نواميسهم، فحين ينتهون عن الطعن في الدين فلا قتال، كما لا قتال حين لا يقاتلونكم.

ولأن الأصل في نكث اليمين والطعن في الدين بين جموع الكافرين، هو من أئمة الكفر دون المأمومين لهم، لذلك «فقاتلوا أئِمة الكفر» وطبعاً بمن يساندهم من هؤلاء

---

(١)). سورة التّوبة ٩: ١٢

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٩٠

الأتباع الأغباش «لعلهم ينتهون» والقصد الأصيل في ذلك القتال ليس هو الإنتقام، بل الإنتهاء عن النكث والطعن في الدين، ثم علياه هي الإنتهاء عن الكفر.

وقد تشمل «أئمة الكفر»- جرياً- كل من يحمل راية الضلالة والمتاهة كأصحاب الجمل ومن أشبه حيث يشكِّلون على الإسلام خطراً علَّه أخطر ممن سواهم من الكفار الرسميين. «١»

ذلك، ففرض قتال ائِمة الكفر طليق على أية حال، فإنهم بطبيعة حالهم الشريرة يؤمُّون الكفر بكل بنوده السلبية للإيمان والإيجابية لنفسه، قتلًا للأنفس وطعناً في

---

(١)). نور الثقلين ٢: ١٨٨ في قرب الإسناد للحميري عن حنان بن شدير قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: دخل علي أناس من أهل البصرة فسألوني عن طلحة والزبير فقلت لهم: كانوا من أئمة الكفر، إن علياً عليه السلام يوم البصرة لما صف الجمل قال لأصحابه لا تعجلوا على القوم حتى أعذر فيما بيني وبين الله وبينهم فقام إليهم فقال: يا أهل البصرة هل تجدون علي جوراً في حكم؟ قالوا: لا، قال: فحيفاً في قَسم؟ قالوا: لا، قال: فرغبة في دنيا أخذتها لي ولأهل بيتي دونكم فنقمتم علي فنكثتم بيعتي؟ قالوا: لا، قال: فأقمت فيكم الحدود وعطلتها في غيركم؟ قالوا: لا، قال: فما بال بيعتي تنكث غيري لا تنكث، إني ضربت الأمر أنفة وعينه فلم أجد إلا الكفر أو السيف، ثم ثنى إلى أصحابه فقال: إن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه: «وإن نكثوا إيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون. فقال أمير المؤمنين عليه السلام: والذي فلق الحبة وبرء النسمة واصطفى محمداً صلى الله عليه و آله بالنبوة إنهم لأصحاب هذه الآية وما قوتلوا منذ نزلت، ورواه العياشي عن حنان بن سدير عنه عليه السلام

أقول: مغتصبوا الخلافة هم من أهل هذه الآية ولكن

الملابسات منعت الإمام عن القيام بالسيف أمامهم.

وفي أمالي المفيد باسناده عن أبي عثمان مؤذن بني قصي قال سمعت علي بن أبي طالب عليه السلام حين خرج طلحة والزبير على قتاله: عذرني الله من طلحة والزبير، بايعاني طائعين غير مكرَهين ثم نكثا بيعتي من غير حدث أحدثته ثم تلا هذه الآية، ورواه العياشي في تفسيره عن أبي عثمان المؤذن وأبي الطفيل والحسن البصري مثله، ورواه الشيخ في أماليه عن أبي عثمان المؤذن وفي حديثه قال بكير: فسألت عنها أبا جعفر عليهما السلام فقال: صدق الشيخ هكذا قال علي هكذا كان وفيه عن العياشي عن الحسن البصري قال: خطبنا علي بن أبي طالب عليه السلام على هذا المنبر وذلك بعد ما فرغ من أمر طلحة والزبير وعائشة، صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسول الله صلى الله عليه و آله ثم قال: يا أيها الناس والله ما قاتلت هؤلاء إلا بآية تركتها في كتاب الله، إن الله يقول: «وإن نكثوا أيمانهم ..» أما والله لقد عهد إليّ رسول الله صلى الله عليه و آله وقال: يا علي لتقاتلن الفئة الباغية والفئة الناكثة والفئة المارقة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٩١

الدين بكل ما يملكونه أو يُمَلّكون من طاقات وإمكانيات في مؤاتية المجالات.

فالقادة الأئمة هم بين أئمة الإيمان وأئمة الكفر، فلابد لأئمة الإيمان برَبْعهم أن يقاتلوا أئمة الكفر بربعه: «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين». «١» ف «أئمة الكفر» هنا ظاهرة بديل ضمير: «فقاتلوهم» عبارة قاصدة لموضوعية إمامة الكفر لفرض القتال مهما لم يكن نكث لأيمان وسواها.

وهنا «لعلهم ينتهون» تعني- لأقل تقدير- الإنتهاء عن إمامة الكفر فتنة وإفساداً على المؤمنين وسائر المستضعفين، ثم إنتهاءً عن أصل الكفر، وإذاً فهم إخوانكم في الدين.

ثم «لا أيمان لهم» بعد «إن نكثوا أيمانهم» تعبير قاصد إلى أن أيمانهم لم تكن أيماناً قاصدة صادقة، فإن طبيعة حال الأيمان هي الوفاء دون النكث، فالأيمان المنكوثة ليست في الحق بأيمان، وإنما هي قالتها دون حالتها وفعالتها، وصِرف القالة في اليمين قالة غائلة.

هؤلاء أئمة الكفر وهم دركات، كما وأئمة الايمان درجات علياها الأئمة من آل الرسول صلى الله عليه و آله، الأعزة عند الرسول وعلى حد تعبيره صلى الله عليه و آله: «لا يزال الإسلام عزيزاً إلى إثنى عشر خليفة كلهم من قريش» «٢» و «الأئمة من المهاجرين». «٣»

وترى «إن نكثوا ..» تختص واجب قتال أئمة الكفر- فقط- بما إذا نكثوا وطعنوا، فغير المعاهَد الطاعن لا يقاتَل؟ «أئمة الكفر» موضوعاً ل «قاتلوا» تكفي دليلًا أن لها الموضوعية التامة الطامة في حكم واجب القتال، فسواءٌ في ذلك المعاهَد الناكث

---

(١)). سورة البقرة ٢: ٢٥١

(٢)). مفتاح كنوز السنة بخ- ك ٩٣ ب ٥١ ومس- ك ٣٣ ح ٥- ١٠ وتر- ك ٣١ ب ٤٦ وحم أول ص ٣٩٨ قا ٤٠٦، خامس ص ٨٦ و ٨٧ و ٩٣ و ٩٤ و ٩٥ و ٩٦ و ٩٧ و ٩٨ و ٩٩ و ١٠٠ و ١٠١ و ١٠٦ و ١٠٧ و ١٠٨ وط- ح ٧٦٧ و ١٢٧٨

(٣)). المصدر ط- ح ٩٢٦ و ٢١٣٣

وغير المعاهَد ما دام الطعن في الدين بإمامة الكفر قائماً، فذلك- إذاً- حكم يحلق على كافة أئمة الكفر الطاعنين في الدين للطول التأريخي والعرض الجغرافي.

ذلك، ومن أبرز النكث للأيمان فالطعن في الدين هو نكث يمين الأيمان المدعى إرتداداً عنه جاهراً، مما يفت عضد الدين ويضعف ساعد اليقين حيث يخيِّل إلى بسطاء المؤمنين أنهم ارتدوا عنه بما وجدوا فيه من الديِّنين، طعناً عملياً يعمل في إضلال البسطاء سراعاً، ودليلًا باهراً على الشمول إضافةً إلى ظاهرة العموم، أن «نكثوا» هنا بعد «فإن تابوا ..» فهو في الأصل نكث بعد التوبة، ثم يشمل كل نكث، ثم كل إمامة للكفر، وقد سبق ذلك النكث ما يعممه تماماً، فسابق «كيف يكون للمشركين عهد» مع «إن تابوا» مرتين، دليل باهر لذلك التعميم.

فلا تختص «أئمة الكفر» بمن يطعنون في الدين وهم كفار جاهرين، بل وأنحس وأنكى منهم كبراء بزعم الناس، يُظهرون الإيمان مضمِرين الكفر ثم يرتدون، وذلك كاف في زعزعة إيمان البسطاء المستضعفين.

إذاً فنكث الأيمان يشمل نكث الإيمان- وبأحرى- لأنه أيضاً يمين من الأيمان، بل وأحرى مما سواه من أيمان، فقضية طليق «أئمة الكفر» بنقض الأيمان والطعن في الدين هي وجوب قتال كل من يحمل مشعل الضلالة والطعن في الدين، ملحداً أو مشركاً أو كتابياً أم ومسلماً يحمل ما يحملون بل هو أخطر وأنكى، فأصحاب البدع الجاهرة، الذين يُبدعون خلاف الضرورة من شرعة الحق هم من أئمة الكفر، وترى إذا انتهى المرتد عما فعل وأبرز الإيمان، فهل يثبت قتاله بعدُ أم لا؟ «لعلهم ينتهون» حيث تُنهي قتالهم لغاية إنتهاء هم، دليل نفيه عندئذٍ، اللّهم إلَّا أن يدل قاطع الدليل على إستثناء المرتدين.

وهل للكافر يمين لمكان «نكثوا أيمانهم» حيث النكث لها دليل واقعها؟ أم لا- ل «إنهم لا أيمان لهم»؟ إن لهم يميناً ما لم ينكثوا، فحين نسمع منه يميناً لا نتأكد كذبه فقد نعامله معاملة صادق اليمين على حذر لأنهم- كأصل- لا أيمان لهم، إذ لا مولى لهم به

يحلفون.

«أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ» «١»

هذه الآية- بما بعدها- تواجه ما حاك في نفوس ضعيفة لم يتعرق الإيمان بعدُ فيها، من تردد وتهيُّب للإقدام على هذه الخطوة الحاسمة الجاسمة القاصمة، ومن تعلل ورغبة وتَعِلَّة في أن يفيء المشركون الباقون إلى الإسلام دون اللجوء إلى القتال الشامل، ومن خوف على نفوسهم ومصالحهم، ركوناً إلى أيسر وسائلهم في مسائِلِهم.

فالقرآن يواجه هذه المشاعر بملابساتها الملبَّسة على أصحابها، والتعِلَّات والمخاوف المحلقة عليها، استجاشة لقلوب المؤمنين بذكريات وأحداث ورغبات صالحة، تذكرة بنقض المشركين عهودهم بعد إبرامها وسائر ما افتعلوه بحق الرسول صلى الله عليه و آله والذين معه.

وهنا سرد مختصر غير محتصر لثالوث أئمة الكفر: «نكثوا أيمانهم»- «وهموا بإخراج الرسول» «هم بدءوكم أوّل مرة» وكل واحدة من هذه الثلاثة تكفي في فرض قتالهم فضلًا عن الثالوث كله.

و «ألا تقاتلون» إستفهام إنكاري عمن يتهاون ولا يتعاون في قتال هؤلاء الناكثين البادئين في حرب وقد «هموا بإخراج الرسول» مما يدل على مدى تعرُّق الكفر في نفوسهم النحيسة البيئسة.

١- «نكثوا أيمانهم» مع الرسول- كما هو شيمتهم الشنيعة: نقضاً لعهد الحديبية ف «إن بني بكر الذين كانوا دخلوا في عقد قريش وعهدهم وثبتوا على خزاعة الذين دخلوا في عقد رسول اللّه صلى الله عليه و آله وعهده ليلًا .. فقاتلوهم للضغن على رسول اللّه صلى الله عليه و آله ..» «٢»

---

(١)). سورة التّوبة ٩: ١٣

(٢)). الدر المنثور ٣: ٢١٥- أخرج ابن إسحاق والبيهقي في الدلائل عن مروان بن الحكم والمسوربن مخرمة قالا: كان في صلح رسول اللّه صلى الله عليه و آله يوم الحديبية بينه وبين قريش أن من شاء أن يدخل في عقد النبي صلى الله عليه و آله وعهده دخل فيه ومن شاء أن يدخل في عهد قريش وعقدهم دخل فيه فتواثبت خزاعة فقالوا: ندخل في عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: ندخل في عقد قريش وعهدهم فمكثوا في تلك المداهنة نحو السبعة عشر أو الثمانية عشر شهراً ثم إن بني بكر الذين كانوا دخلوا في عقد قريش وعهدهم وثبوا على خزاعة الذين دخلوا في عقد رسول اللّه صلى الله عليه و آله وعهده ليلًا بماءٍ لهم يقال له الوتير قريب مكة فقالت قريش: ما يعلم بنا محمد صلى الله عليه و آله وهذا الليل وما يرانا أحد فأعانوهم عليهم بالكراع والسلاح فقاتلوهم معهم للضعفن على رسول اللّه صلى الله عليه و آله وركب عمر وابن سالم عند ما كان من أمر خزاعة وبني بكر بالوتير حتى قدم المدينة على رسول اللّه صلى الله عليه و آله بأبيات أنشدة: اللّهم إني ناشد محمداً وادعوا عباد اللّه يأتوا مدداً فيهم رسول اللّه قد تجردا إن شئتم حسنا فوجهه بدر بدا في فيلق كالبحر يجري مزبداً إن قريشاً اخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكد وزعموا أن ليس تدعو أحداً فهم أذل وأقل عدداً قد جعلوا لي بكداء رصداً هم بيتوا لنا لهجير هجداً وقتلونا ركعاً وسجداً فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: نصرت يا عمرو بن سالم فما برج حتى مرت غمامة بني كعب وأمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله الناس بالجهاد وكتمهم مخرجه وسأل اللّه أن يعمي على قريش خبره حتى يبغتهم في بلادهم

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٩٤

وكان صلى الله عليه و آله قد قبل من شروطهم ما حسبه الخليفة عمر قبولًا للدنية!.

ثم وفى لهم أحسن الوفاء وأدقَّه، ولكنهم نقضوا عهده صلى الله عليه و آله وخاسوا به بعد عامين لأول فرصة سانحة.

٢- «وهموا بإخراج الرسول» مرات عدة، يوم الندوة، ويوم الشعب، وليلة الفراش التي انتهت إلى الهجرة، ثم وكل أيامهم كانت تحمل هماً بالغاً قالًا وحالًا وفعالًا لإخراج الرسول صلى الله عليه و آله عن عاصمة الدعوة، وذلك أنحس وأنكى ما حصل منهم طول هومومهم بخصوصهم وعمومهم، ثم ولم يكونوا يكتفون إخراجه بإحراجه عن مكة، بل وهموا بإخراجه أيضاً عن المدينة لما أقدموا عليه من المشورة والإجتماع على قصده بالقتل، فهمهم لإحراجه في المدينة همٌّ لهم لإخراجه عنها كما أخرجوه عن مكة المكرمة.

٣- «وهم بدءوكم أوّل مرة» بدءً بالقتال والنكال منذ بزوغ الدعوة، ومن ثم بعد الهجرة خلال بضع أشهر، في حرب بدر التي أصبحت- خلاف قصدهم- بادرة القوة الإسلامية ضدَّهم.

فلقد بيتوا عليه في بيت اللّه الذي يأمن فيه القاتل والسارق، فمحمد صلى الله عليه و آله لا أمان له

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٩٥

في ذلك البيت الأمين لأنه يدعو إلى الهدى، ويردهم عن الردى، بيتوا عليه على حريته وعلى دمه دونما تحرُّج ولا تذمم، وبكل تهرُّج، حتى أخرجوه عن مكة بعد كل ما أحرجوه، ثم أصروا على إبادته في مهجره بقيادة أبي جهل في بدر، ثم قاتلوهم بادئين في أحد والخندق، ثم جمعوا لهم في حنين ولا يزالون وكما قال اللّه: «ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دنيكم إن استطاعوا» مما يبين الطبيعة الشركية النكدة اللئيمة.

وكما هم بدءوكم في قصة خزاعة، والبادىء بالقتال يحق قتاله على أية حال.

«ألا تقاتلون» هؤلاء الأنكاد البعاد؟ «أتخشوهم» أنتم «فاللّه أحق أن تخشوه» فأتمروا بأمره «إن كنتم مؤمنين» به «ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين». «١»

و «من خاف اللّه أخاف اللّه منه كل شيءٍ ومن لم يخف اللّه أخافه اللّه من كل شيء»، فلا يُخاف في سبيل اللّه أيُّ مخيف إلا اللّه الذي يأمرنا أن نسلك سبيله دون خوف ممن سواه.

«قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَا ١٤ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» «٢»

هنا «يشف صدور قوم مؤمنين» دون «صدوركم» أو «صدور المؤمنين» ككل، مما يلمح بنزول الآية بشأن ناقضي عهد الحديبية حيث إن بكراً وثبوا على خزاعة الداخلين في عقد رسول اللّه صلى الله عليه و آله واثخنوهم قتلًا وجرحاً وتشريداً.

أجل «قاتلوهم» أولآء الناقضين، وبالنتيجة «يعذبهم اللّه بأيديكم» القوية بالإيمان، وقلوبكم الندية بالإيمان ثم «ويخزهم» كما أخزوا فريقاً من المؤمنين «وينصركم عليهم» بصورة قاطعة لا قِبَل لهم بها، ثم «ويشفِ صدور قوم مؤمنين»

---

(١)). سورة آل عمران ٣: ١٣٩

(٢)). سورة التّوبة ٩: ١٤- ١٥

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٩٦

مظلومين مهضومين «ويُذهب غيظ قلوبهم» الغائظة على تلك الحالة المخزية المزرية «ويتوب اللّه على من يشاء» منكم مقاتلين ومن هؤلاء المظلومين المقتص لهم، ثم ومن الناقضين الذين قد يتوبون إلى اللّه عما نقضوا وأبغضوا اللّه ورسوله حين يرون نصراً كمؤمنين، إحساساً لهم أنهم منصورون بغير ظاهرة القوة الحربية، فتفتح بصيرتهم على الهدى.

«والله عليم» بكل ما حصل ويحصل وما صالح أم طالح لكم ولمن سواكم «عليم» بالعواقب المخبوءَة وراء هذه التقدمات، «حكيم» فيما يأمر وينهى ويقضي ويقدر، «حكيم» يقدر نتائج الأعمال والحركات والنيات.

ذلك، فطبيعة الحال تقتضي بأن المؤمنين تغيظ قلوبهم بما يلمسون من مثل ذلك الكبت الشديد والنقض العنيد، فذلك العذاب بأيديكم المؤمنة والخزي للناقضين ونصرتكم عليهم، إن فيها لشفاءً لصدورهم عما جرحت وضيقت وحرجت، وإذهاباً- بالنتيجة- لغيظ قلوبهم.

ولقد تجري هذه الآية فيمن يدعي الإسلام، وهو ناقض لعهده مفض يديه منه حيث يعامل المسلمين كما يعامَل الكافرون.

وترى «يعذبهم» لا تنافي «وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم» وان الدنيا دار عمل ولا حساب والآخرة دار حساب ولا عمل؟.

العذاب المسلوب كما قدمناه هو عذاب استئصال وما أشبه بيد القدرة الربانية دون سيط الإنسان، ثم العذاب هنا ليس حسب الحساب المخصوص بالأخرى، إنما هو شطر ضئيل منها تتقدم هنا لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

والقتل والحصر والتشريد وما أشبه، كما الحدود والتعزيرات، هي عذابات مأمور بها بأيدي المؤمنين على المتخلفين عن شرعة الله تأديباً لهم وتأنيباً وردعاً وتقليلًا للفساد.

ذلك «وقاتلوهم» هذا قد يمتد أمره إلى فتح مكة التي تجمع كل هذه المواصفات،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٩٧

فسائر الحروب الفاتحة لم تكن تحمل منها إلا يسيراً قصيراً، وإنما فتح مكة هو الذي حمل كل هذه المواصفات لقبيل الإيمان.

وهنا «غيظ قلوبهم» في إذهابه رحمة عليهم خروجاً لقلوبهم عن التغيظ التضيق بما أصيبوا من مكائد الكفار، فهي رحمة صالحة لهم، وهناك غيظ آخر في ذهابه رحمة عليهم وعلى الآخرين الذين يجب كظم الغيظ عنهم لكونهم مؤمنين، وهذا مجال قول النبي صلى الله عليه و آله «ما من جرعة يتجرعها الإنسان أعظم أجراً عند الله من جرعة غيظ في الله». «١»

والقصد من جرعة الغيظ هنا الصبر عند الإهتياج، واللظم عند الإنزعاج، وترك إتباع نوازع النفس إلى ما تدعوا إليه في تلك الحال من شفاء غيظ، أو تنفيس كرب، أو إطلاق عقال، أو فعل مراقبة للَّهسبحانه تنجزاً لثوابه، واحتجازاً عن عقابه، فشبه صلى الله عليه و آله تلك الحال بالجرعة، كأن الإنسان بالكظم لها والصبر عليها قد ضاق بها مرارة، وأساغ منها حرارة.

«أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ» «٢»

«أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون». «٣»

«أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مسّتهم البأساءُ والضراءُ وزلزلوا حتى يقول الرسولُ والذين آمنوا متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب». «٤» «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين». «٥»

---

(١)). المجازات النبوية للسيد الشريف الرضي (٩٦)

(٢)). سورة التّوبة ٩: ١٦

(٣)). سورة المؤمنون ٢٣: ١١٥

(٤)). سورة البقرة ٢: ٢١٤

(٥)). سورة آل عمران ٣: ١٤

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٩٨

«أم حسبتم أن تتركوا» لحالكم دونما ابتلاء وإمتحان وتمحيص «ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم» عَلْماً وعلامة بواقع الجهاد الذي هو علامة النجاح، كما أن تركه علامة السقوط، فلهذه المجاهدات المفروضة أبعاده، منها تميُّز المجاهدين الواقعيين عن المدعين الجهاد «يقولون في المجالس كيت وكيت فإذا جاء الجهاد فحيدي حياد».

و «جاهدوا» الطليقة هنا تعم الجهاد الأنفسي إلى الآفاقي إلى الأنفسي، وجهاد النفس هو أعظم، وهو أتم مهاد لجهاد سائر الأعداء، ولا يعني جهاد النفس قتل النفس الأمارة بالسوء، إنما هو جعلها سليمة أمام العقلية الإيمانية، خارجة عن طيشها وعيشها المتخلف عن شرعة الله، فتفسير جهاد النفس بقتل النفس غلظ رائج دارج لا يعبأ به!.

«جاهدوا ولم يتخذوا» أية وليجة تلج في صفوفكم وصنوفهم «من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة» فالوليجة الربانية هي المعرفة التقية، والتقوى المعرفية أماهيه، الوالجة في قلوبهم والحاكمة في صفوفهم، ثم من الوليجة الرسولية تقبُّل قيادته العليا من الله، ومن ثم الوليجة الإيمانية ولوج المؤمنين بعضهم في بعض، مندغمين مع بعضهم البعض صفاً كأنهم بنيان مرصوص، وليس ذلك الإمتحان ليعلم الله الذين جاهدوا منكم إلّا عَلماً لا عِلماً «والله خبير تعلمون».

ف «يا معشر الأحداث اتقوا الله ولا تأتوا الرؤساء، دعوهم حتى يصيروا أذناباً، لا تتخذوا الرجال ولايج من دون الله أنا والله خير لكم» «١» و «إياكم والولايج فإن كل وليجة دوننا فهي طاغوت- ند». «٢»

وهكذا «فإن كل سبب ونسب وقرابة ووليجة وبدعة وشبهة منقطع إلّا ما أثبته

---

(١)). نور الثقلين ٣: ١٩١ في تفسير العياشي عن ابن أبان قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: .. ثم ضرب بيده إلى صدره

(٢)). المصدر عن أبي الصباح الكنائي قال قال أبو جعفر عليهما السلام:.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٢٩٩

القرآن» «١» ولأن «المؤمنين» درجات فأولج الولايج منهم وأبهج المناهج هم ولاة الأمر المعصومون عليهما السلام، فإنهم استمرارية كاملة شاملة لكيان الرسول صلى الله عليه و آله بينهم. «٢»

فكما الوليجة الرسولية هي- فقط- «رسوله» كذلك الوليجة الرسالية بعده ولوجاً قيادياً بينهم ليسوا إلّا خلفاءَه المعصومين عليهما السلام، ومن ثم الدرجات التنازلية لسائر المؤمنين قضيةَ صالح الملابسات والمناسبات.

فمما لا مرية فيه أن الإنسان أياً كان لا يقدر أن يعيش عيشة صالحة بشخصه مهما كان شخصياً محيصاً، اللّهم إلّا بوليجة ربانية تلج قلبه وفكره، مرشداً أو مناصراً ليكون على بصيرة ومسيرة فمصيرة صالحة لأمر في حياته.

فالمجاهدون من المؤمنين في مختلف حقول الجهاد هم الذين لا يتخذون وليجة في جهادهم وجهودهم إلّا «الله- ورسوله- والمؤمنين» فوليجة الله- كالإخلاص له فيه- دائبة لا تنفصل إلا بانفصال الإيمان، وطالما الوليجة الرسولية منفصلة بانفصاله عنا ولكنها الوليجة الرسالية مستمرة معنا، في كيانه الرسالي بسنته صلى الله عليه و آله والآخر المتمثل في عترته عليهما السلام، ومن ثم الوليجة الإيمانية من المؤمنين على كتاب الله وسنة رسوله، فمتخلفة الولايج من المؤمنين مرفوضة، والصالحة منها مفروضة، ولتكون هذه الولايج النيرة الربانية زاداً صالحاً في هذه السفرة الشاقة البعيدة المليئة بالأشلاء والدماء، كما أن «في سبيل الله» راحلتهم التي ترحلهم.

فكما أن جهاد المؤمن محصور في سبيل اللّه، محسور عما سواها وسواه، كذلك وليجته في جهاده هي وليجة اللّه ابتغاء رضاه ورجاء لطفه تعالى في غناه، ثم وما يرضاه من الرسول والمؤمنين، وذلك هو الجهاد الصالح دون سواه، فقد انتقشت كلمة لا إله إلّا اللّه في زادهم «في سبيل اللّه» لا سواه، وراحلتهم «وليجة اللّه و ...» لا سواها.

---

(١)

). المصدر عن أصول الكافي عن أحمد بن محمد بن خالد مرسلًا قال قال أبو جعفر عليهما السلام:.

(٢)). المصدر عن أصول الكافي عن أبي جعفر عليهما السلام في الآية يعني بالمؤمنين الأئمة عليهما السلام لم يتخذوا الولايج من دونهم

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٠٠

وعبارة أخرى عن «وليجة» هي «بطانة» ف «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالًا ودُّوا ما عنتُّم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا الآيات إن كنتم تعقلون». «١»

ذلك «وقد أخبرك اللّه عن المنافقين بما أخبرك ووصفهم بما وصفهم به لك، ثم بقوا بعده فتفرقوا إلى أئمة الضلالة والدعاة إلى النار بالزور والبهتان، فولوهم الأعمال، وجعلوهم حكاماً على رقاب الناس، فأكلوا بهم الدنيا، وإنما الناس مع الملوك والدنيا إلا من عصم اللّه». «٢»

فعلى المؤمن أن يتزود في قلبه ونيتة وليجة اللّه، وفي كيف يجاهد؟ وليجة رسول اللّه صلى الله عليه و آله فإنه الذي يدل إلى صالح الجهاد بوحى اللّه، ثم وليجة المؤمنين باللّه شرط الموافقة للأولين كتاباً وسنة، تعاوناً معهم في سبيل اللّه، وذلك المثلث يرسم له هندسة صرح الجهاد الصالح، فلا نكسة فيه ولا ركسة بإذن اللّه.

قاتلوا الذين يقاتلونكم

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ «٣»

صحيح أن «قاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله للّه». «٤» نعم الذين يلونكم والبعيدين عنكم، إلّا أن القدر المستطاع قبل قيام صاحب الإمر بالدولة الإسلامية العالمية، ليس المستطاع قبله إلا قتال الذين يلونكم «٥» وكما الإنذار

---

(١)). سورة آل عمران ٣: ١١٨

(٢)). نهج البلاغة الخطبة ٢٠٨ عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام

(٣)). سورة التّوبة ٩: ١٢٣

(٤)). سورة الأنفال ٨: ٣٩

(٥)). نور الثقلين ٢: ٢٨٥ في تفسير القمي في الآية قال: يجب على كل قوم أن يقاتلوا ممن يليهمممن يقرب من بلاءهم ولا يجوزوا ذلك الموضع.

وفي الدر المنثور ٣: ٢٩٣- أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن جعفر بن محمد عليهما السلام انه سئل عن قتال الديلم فقال: قاتلوهم فإنهم من الذين قال اللّٰه تعالى: قاتلوا الذين يلونكم من الكفار، وفيه ابن مردويه عن ابن عمر أنه سئل عن غزو الديلم فقال سمعت رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله يقول: «قاتلوا الذين يلونكم من الكفار» قال: الروم

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٠١

والدعاية الإسلامية آخذان في خطواتهما من الأقربين الملاصقين، كذلك القتال، فهما الحد الأدنى والخطوة الأولى من الناحيتين السلبية والإيجابية الممثلة لكلمة التوحيد، سلباً للكفر وإيجاباً للإيمان.

ذلك «وليجدوا فيكم غلظة» تحذروهم- أولاء وسواهم من الكفار- عن النيل منكم، فلابد للمؤمنين إضافة إلى واقع القتال قوة إرهابية عادلة ترهب أعداء اللّٰه:

«وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ..»، «١» ثم «واعلموا أن اللّٰه مع المتقين» في القتال والغلظة، إتقاءً عن الإفراط والتفريط، مشياً على معتدَل الجادة في سبيل اللّٰه كما أمر اللّٰه، وبصورة جادة.

فحين تشكَّل دولة إسلامية بغياب صاحب الأمر عجل اللّٰه تعالى فرجه الشريف، فلا عليها ولا لها إلَّا أن تقاتل جيرانهاالأقربين من الكفار المقاتلين المفسدين، إتقاءً عن التجاوز عنهم إلى الآخرين، حيث الكفر ملة واحدة، فقد يجنِّد جنوده دفعة واحدة وحملة فاردة لاجتثاثكم.

ذلك، ولأن «الذين آمنوا» لا تختص بدولة إسلامية، وهم مبعثرون في المعمورة، فعليهم القتال الدائب قدر المستطاع بصورة متواصلة سوماً للعذاب على الكفار المفسدين الخَطِرين عليهم، حتى تُعبَّد الطريق لدولة المهدي عليه السلام العالمية.

فهناك للمجموعة المسلمة مثلث من الجهاد في مثناه: دعائياً وحربياً، فالضلع الأوَّل «الذين يلونكم من الكفار» لكل دولة أو دويلة أو مجموعة أو منظمة إسلامية سليمة، والثاني أن تتعاون كافة المجموعات الإسلامية في شتى أنحاء المعمورة، مترابطين مع بعضهم البعض ومرابطين وكما قال اللّٰه تعالى: «وإذ تأذن ربكم ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ..» والثالث والأخير- وهو من

---

(١)). سورة الأنفال ٨: ٦٠

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٠٢

حصائل ذلك الجهاد الإسلامي المتكافل وفصائله- هو تأسيس الدولة الإسلامية العالمية بقيادة صاحب الأمر وولي العصر حجة بن الحسن العسكري عجل اللّٰه تعالى فرجه وسهل مخرجه، وأما الحرب الباردة الدعائية فلا حد لها إلا كافة الدعايات الكافرة، أن نحاربها بألسنتنا وأقلامنا.

وقيلة القائل الغائل إنها منسوخة ب «قاتلوا المشركين كافة» منسوخة بأن «كافة» هي وصف للمقاتلة المستفادة من «قاتلوا» فلتكن مقاتلة كافَّة بأسَهم عن المسلمين، تكفهم عنهم وتجعلهم في أمن منهم، فهم- إذاً- «الذين يلونكم من الكفار» يلونكم جوارَ المكان والحدود الجغرافية، أم ويلونكم جوار البأس مهما كانوا بعيدين، وهما ليسا إلّا قتال الدفاع، دون هجوم بدائي أيّاً كان.

ولقد كانت سنة الحروب للقائد الرسولي صلى الله عليه و آله هكذا في خطوات، من «أنذر عشيرتك الأقربين» في العهد المكي حرباً عقيدية، تبنياً لأعضاء الدولة وأعضادها في المدينة، وإلى حرب المشركين المدنيين ثم المكيين ثم سائر الجزيرة وإلى الشام والروم، حيث

الجمع بين كل الأعداء في حرب واحدة منذ البداية، إنسحاق لأصل الدعوة بمجموعتها الدينين، ما لم يفعله قائد القوات الرسولية في زمنه فضلًا عمن سواه!.

فلمحاربة الأعداء الأقربين، ولا سيما الدخلاء الداخليين، تقدم حسب كل التكتيكات الحربية، كما وهي أقل مؤنة وأكثر معونة وأوجب دفعاً للخطر الحادق الحاذق.

ثم «الذين يلونكم من الكفار» إن كانوا أقوياء، كان تعرُّضهم لدار الإسلام أكثر، وتبرزهم أخطر من البعيدين، فهم أولى بالدفع ممن سواهم، وإن كانوا ضعفاء كان إستيلاءهم عليهم أسهل، وإبقاءهم على حالهم إشتغالًا بالبعيدين يخلق لهم مجالًا للإستعداد، وعلى أية حال ف «لقد كان لكم في رسول اللّه أسوة حسنة لمن كان

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‌٧، ص: ٣٠٣

يرجوااللّه واليوم الآخر وذكر اللّه كثيراً». «١» فقد إبتدأ في كلا الغزو والدعوة بالأقربين، مراعياً سياسة الخطوة حتى ملك الجزيرة بكاملها، ثم إلى غير الجزيرة من الروم وما أشبه، سنة سارت عليها الفتوحات الإسلامية. تواجه من يلون دار الإسلام مرحلياً، فلما أسلمت الجزيرة أو كادت، ولم تبق إلا فلول منعزلة لا تؤلف طاقة خطرة بعد فتح مكة، كانت غزوة تبوك على أكناف الروم، ثم انساحت الجيوش الإسلامية إلى الروم وفارس إلى أن وحِّدت الرقعة الإسلامية وتواصلت حدودها ببعضها البعض، فإذا هي كتلة ضخمة شاسعة الأرجاء، واسعة الأنحاء، متماسكة الأطراف، ثم لم تمزقها إلَّا الحدود المختلقة المختلفة المتخلِّفة بين ديار الإسلام فأصبحت دويلات فشكلت ويلات على المسلمين أجمع.

ذلك، وترى «وليجدوا فيكم غلظة» تعني الخشونة والفظاظة التي تنافي صالح الدعوة؟ إنها غلظة رهيبة في القوات المسلحة وسائر الإستعدادات أمام المحاربين دون سائر الكفار فضلًا عن المؤمنين، فقد تعني «غلظة» منكرةً، الغلظة التي لابد منها على المعاندين، فلا تنافي اللينة في الدعوة والرحمة في الدعاية ف «لا تجادلوا أهل الكتاب إلّا بالتي هي أحسن إلّا الذين ظلموا منهم». «٢» فحين لا تؤثر الرحمة إلّا زحمة فهنالك الغلظة أمام غلظة، حيث الرحمة أمام الظالم المعاند العامد، إنها زحمة وقسوة على المظلوم، فهي- إذاً- غلظة أمام غلظة، بلا هوادة ولا تميُّع ولا تراجع، إنها قوة وصلابة ومهابة «حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله للّه».

ذلك، وكما أن الرأفة والرحمة في الدعوة الربانية من تقوى اللّه، كذلك الغلظة في محالها من تقوى اللّه، فالرأفة مكان الغلظة كما الغلظة مكان الرأفة هما خارجتان عن

---

(١)). سورة المؤمنون ٢٣: ٢١

(٢)). سورة العنكبوت ٢٩: ۴۶

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‌٧، ص: ٣٠۴

تقوى اللّه إلى الطغوى على حكم اللّه.

ولقد كانت الحروب الإسلامية بقيادة القائد الرسولي أو الرسالي، مبنية على تقوى اللّه: «إن اللّه يحب المتقين» فلا يحب الطاغين.

ولقد كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله إذا أمر الأمير على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى اللّه تعالى ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال: إغزوا باسم اللّه، في سبيل اللّه، قاتلوا من كفر باللّه، إغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثِّلوا وليداً، فإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم وأدعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم

أدعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما عليهم، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم اللَّه تعالى الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم من الغنيمة شيءٌ إلَّا أن يجاهدوا مع المسلمين، وإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن أبوا فاستعن باللَّه تعالى عليهم وقاتلهم ...». «١»

إذاً فلا تعني الغلظة معهم إلَّا في ضوء التقوى، وليست هي الوحشية والبربرية مع الأطفال والنساء والشيوخ وسائر العُجَّز غير المحاربين، إنما هي الخشونة التي لا تميّع الحركة ولا نفسح مجالًا لأعداء الدين أن يهاجموا المؤمنين، فهذا الدين- كما هو اللَّه-

---

(١)). أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي، وأخرج أبو داود عن رجل من جهينة أن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: لعلكم تقاتلون قوماً فتظهرون عليهم فيتقونكم بأموالهم دون أنفسهم وذراريهم فيصالحونكم على صلح، فلا تصيبوا منهم فوق ذلك فإنه لا يصلح لكم».

وعن العرياض ابن سارية قال: نزلنا مع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قلعة خيبر ومعه من معه من المسلمين وكان صاحب خيبر رجلًا مارداً متكبراً فأقبل النبي صلى الله عليه و آله فقال: يا محمد! لكم أن تذبحوا حمرنا وتأكلوا ثمرنا وتضربوا نساءنا؟ فغضب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وقال: يا ابن عوف اركب فرسك ثم ناد: إن الجنة لا تحل إلَّا لمؤمن وان اجتمعوا للصلاة فاجتمعوا ثم صلى بهم ثم قال فقال: أيحسب أحدكم متكئاً على أريكته، قد يظن أن اللَّه تعالى لم يحرم شيئاً إلا ما في القرآن، ألا وإني قد وعظت وأمرت ونهيت عن أشياء، إنها لمثل القرآن أو أكثر وإن اللَّه لم يحرم لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا باذن ولا ضرب نسائهم ولا أكل ثمارهم إذا أعطوا الذي عليهم.

ورفع إليه صلى الله عليه و آله- بعد إحدى المواقع- إن صبية قتلوا بين الصفوف فحزن حزناً شديداً فقال بعضهم: ما يحزنك يا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وهم صبية للمشركين، فغضب النبي صلى الله عليه و آله وقال ما يعني: إن هؤلاء خير منكم، إنهم على الفطرة، أو لستم أبناء المشركين، فإياكم وقتل الأولاد إياكم وقتل الأولاد

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٠٥

«أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة وأشد المعاقبين في موضع النكال والنقمة».

ذلك، وأحرى من الدفاع والحرب الحارة الحارقة، الدفاع والحرب الباردة وهي الدِّعائية بعد تقديم البراهين البينة الدُّعائية.

وهنا خطوات أولاها واولاها الدعوة الداخلية بمختلف واجهاتها، كيلا ينصدم المسلمون بدعايات مضلِّلة يحملها المتظاهرون بالإسلام، ومن ثم سائر المهاجمين على المقدسات الإسلامية السامية.

فهؤلاء الربانيون الحافظون لحدود اللَّه هم ثقات الإسلام وحصونه، الذين يصدون الهجمات الهمجات المضلِّلة للمسلمين.

«وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ا ١٢٤ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ» «١»

رجعة في نهاية السورة إلى تتمات من مواصفات المنافقين والكافرين، أنهم «إذا ما أنزلت سورة» يتساءلون هازئين أنفسهم والمؤمنين «أيكم زادته هذه إيماناً» والجواب الحاسم القاصم ظهورهم «فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً» على إيمانهم «وهم يستبشرون» ببشائرها

«وأما الذين في قلوبهم مرض» وريبة رَجِسة «فزادتهم رجساً» بمزيد كفرهم «إلى رجسهم» من كفرهم «وماتوا وهم كافرون»-: «وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلّا خساراً».

أجل وقضية إختلاف القلوب سعة وضيقاً هي اختلاف إنعكاس القرآن عليها، فالطاهر القلب، المنشرح الصدر، المتحري عن الحق يزيدهم القرآن إيماناً كلما نزلت آياته البينات أو تليت عليه، ف «إنما المؤمنون الذين إذا ذكر اللَّه وجلت قلوبهم وإذا

---

(١)). سورة التّوبة ٩: ١٢٤- ١٢٥

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٠٦

تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون». «١»

والنجس القلب ورَجِسه الضال الشاك، «٢» والضيّق الصدر يزداد به ضلالًا ورجساً إلى رجسه: «فمن يرد اللَّه أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حَرَجاً كأنما يصَّعَّد في السماء كذلك يجعل اللَّه الرجس على الذين لا يؤمنون». «٣»

ف «رجساً إلى رجسهم» تعني ضلالًا على ضلالهم، حيث سمي الضلال هنا رجساً، وهو مرض القلب، ف «بتمام الإيمان دخل المؤمنون الجنة، وبالزيادة في الإيمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عند اللَّه، وبالنقصان دخل المفرطون النار» «٤» و «الإيمان يبدو لمظة- نقطة بيضاء-

قاتلوا في سبيل اللَّه والمستضعفين ..

«فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً» «٥»

أمر باتٌّ لا حِوَل عنه بالقتال في سبيل اللَّه، ولا يأتمر به إلّا «الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة» تضحيةً بالفانية ف «إن اللَّه أشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل اللَّه فيقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز

---

(١)). سورة الأنفال ٨: ٢

(٢)). نور الثقلين ٢: ٢٨٦ في تفسير العياشي عن زرارة بن أعين عن أبي جعفر عليه السلام في «رجساً إلى رجسهم» يقول: شكاً إلى شكهم

(٣)). سورة الأنعام ٦: ١٢٥

(٤)). نور الثقلين ٢: ٢٨٥ في أصول الكافي عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد اللَّه عليه السلام

(٥)). سورة النّساء ٤: ٧٤

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٠٧

العظيم». «١» وأما الشاري الحياة الآخر بالدنيا، أم غير الشاري إحداهما بالأخرى فليس ليقاتل في سبيل اللَّه.

«ومن يقاتل في سبيل اللَّه» إحياءً للحق واماتة للباطل «فيُقتل» في هذه السبيل «أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً» يوم الأجر العظيم.

وإنما «يَغلب» دون «يَقتل» لأنه قد يَقتل ولا يَغلب، ثم وليس القصد من القتال في سبيل الله القتل فاعلًا أو مفعولًا بل غَلَب الحق على الباطل قاتلًا أو مقتولًا، إذاً ف «يُقتل» هي إحدى الحسنيين كما «يَغلب» هي الحسنى الأخرى مهما قَتَل أو قُتِل، أم لم يَقتل ولم يُقتل، أو قَتَل وقُتِل، والغاية القصوى من القتال في سبيل الله «أو يغلب» مهما قَتل أو لم يَقتل، ولكنه إذا قُتل فهو معهما ثلاث هم مشتركون في «أجراً عظيماً».

ولا معنى للقتال في حقل الإيمان إلّا «في سبيل الله» دون سائر السبل المتخلفة عن سبيله، من سبيل الغنيمة والسلطة والمجد شخصياً وقومياً وتوسعة أياً كان، إنما هي إعلاء كلمة الله وإخفاض كلمة الباطل سواء غَلب أو غُلب، قَتل أو قُتل.

فالقتل فاعلًا ومفعولًا في سبيل غلب الحق على الباطل حياة، والحياة في سبيل غلب الباطل على الحق ممات، و «فوق كل برٍّ برٌّ حتى يُقتل الرجل في سبيل الله فإذا قتل فليس فوقه بر». «٢»

هنا «فيُقتل أو يغلب» تجعل القاتل والمقتول في سبيل الله على حد سواءٍ في «فسوف نؤتيه أجراً عظيماً» فالقتيل- إذاً- غالب كما الغالب قاتلًا وغير قاتل.

وإنما لم يأت «يُغلب» بديلًا عن «يُقتل» لمحةً الى أن القاتل في سبيل الله غير منهزم ولا مغلوب على أية حال، فحين يوطن المناضل في سبيل الله نفسه على إحدى الحسنيين فلا يهم أبداً فراراً ولا وهناً، لأنه يَرى غلبَة على أي الحالين.

وإنما قدم القتل على الغلبة حيث الأجر العظيم مضمون للقتيل في هذه السبيل إذ قضى نحبه، وأما الغالب فقد تطرء عليه طوارىء السوء مما يحبط صالحات ويقللها.

فالقتل في سبيل الله هو أسلم للقتيل، والغَلب فيها أسلم للكتلة المسلمة ولكنه

---

(١)). سورة التّوبة ٩: ١١١

(٢)). نور الثقلين ١: ٥١٧ في كتاب الخصال عن جعفر بن محمد عن أبيه عليهما السلام أن النبي صلى الله عليه و آله قال: ..

خطر على الغالب لزهوة أم طارئة أخرى تنقص من أجر الغَلَب العظيم.

«وَمَا لَكُمْ لَاتُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً» «١»

«وما لكم» استنهاض للمثبطين عن القتال- لا المقاتلين- تنديداً بتثبيطهم عن القتال قضية نفاق أم ضعف إيمان أم إسلام قبل إيمان، ف «ما لكم» تستنهض هؤلاء الثلاث ليلحقوا بصفوف المؤمنين المقاتلين لا سيما وأن أهليهم المؤمنين رجالًا ونساءً وأطفالًا هم ظلوا تحت نير الظلم والهوان، فحتى إن لا يقاتلوا في سبيل الله مجردة، فليقاتلوا في سبيله لنجاة الأهلين الملتصقين بهم فالقرآن لا يقضي على حكم الفطرة الإنسانية بالتضحية للأهلين، وإنما يصفيه الى واجهة الإيمان، حيث يسبك كل الإيجابيات والسلبيات للمؤمنين في قالب التوحيد، تهذيباً عن شوائب الأهواء والآمال الفاسدة، فلذلك نرى هنا ردف سبيل الأهلين بسبيل الله! ومهما تصفوا نياتهم أولاء كما يحق في بداية الأمر، فميادين القتال في سبيل الله هي مدارس تربوية تغير من إنيات المشاركين وتبلور نشاطاتهم.

هنا سبيل «المستضعفين» في سبيل الله مدمج في سبيل اللّه، فلا تعني إلّا السبيل التي قررها الله للحياة الإيمانية، حفاظاً على أصل الإيمان وعلى «المستضعفين من الرجال والنساء والولدان» المؤمنين «الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية» وهي حينذاك مكة

المكرمة «الظالم أهلها» حيث لا يسمحون حرية للإيمان ولا يسامحون كتلة الإيمان «واجعل لنا من لدنك ولياً» يلي أمرنا «واجعل لنا من لدنك نصيراً» ينصرنا.

فالقتال في سبيل تحقيق دعوات هؤلاء المستضعفين- الإيمانية- قتال في سبيل اللَّه، هجمة دفاعية على الظالمين بحقهم تحريراً لهم عن نيرهم المذل، وتحريراً لحق

---

(١)). سورة النّساء ۴: ٧۵

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٠٩

الحرية للإيمان المذل.

ولقد دعى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله من قبلُ أن يخرجه ربه من هذه القرية الظالم أهلها فأخرجه «١» بعد ما أحرجه الظالمون فيها: «كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وان كثيراً من المؤمنين لكارهون». «٢»

ذلك، والقتال- كآخر الدواء الكيّ في سبيل سلب الظلم وإيجاب العدل هو قتال في سبيل اللَّه، تحقيقاً للسلب والإيجاب في كلمة التوحيد، لتكون كلمة اللَّه هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى: «ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكتبهم فينقلبوا خائبين». «٣»

إذاً فكل قرية فيها مؤمنون مستضعفون تحت وطأة الظلم الفاتك الحالك، هي مشمولة ل «هذه القرية الظالم أهلها» دون اختصاص بمكة المكرمة، وعلى سائر المؤمنين قتال أهلها ما أستطاعوا تخليصاً للمستضعفين، حكماً صارماً لا حِوَل عنه على مدار الزمن الرسالي حتى يأتي دور صاحب الأمر الذي به تملأ الأرض قسطاً وعدلًا بعد ما ملئت ظلماً وجوراً.

«الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً» «۴»

لأن القتال في سبيل اللَّه هي سبيل الإيمان، والقتال في سبيل الطاغوت هي سبيل الشيطان، إذاً «فقاتلوا أولياء الشيطان» وهم المقاتلون في سبيل الطاغوت، إمحاءً

---

(١)). نور الثقلين ١: ۵١٧ في روضة الكافي عن علي بن الحسين عليهما السلام قال في حديث طويل: وقدكانت خديجة عليها السلام ماتت قبل الهجرة بسنة ومات أبو طالب بعد موت خديجة بسنة فلما فقدها رسول اللَّه صلى الله عليه و آله سئم المقام بمكة ودخله حزن شديد وأشفق على نفسه من كفار قريش فشكى الى جبرئيل ذلك فأوحى اللَّه عز وجل إليه: أخرج من هذه القرية الظالم أهلها وهاجر الى المدينة فليس لك اليوم بمكة ناصر وانصب للمشركين حرباً فعند ذلك توجه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله الى المدينة

(٢)). سورة الأنفال ٨: ۵

(٣)). سورة آل عمران ٣: ١٢٧

(۴)). سورة النّساء ۴: ٧۶

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣١٠

للطغيان بعوامله.

وكيف نقاتل أولياء الشيطان ولهم كثير العِدة والعُدّة، نقاتل ل «إن كيد الشيطان كان» منذ كوّن وإلى يوم الدين «ضعيفاً» إذ لا حجة له إلّا دامغة، وحجة الإيمان هي البالغة.

ثم وأولياء الشيطان يحاربون ما تضمن حياتهم بزهراتها وزهواتها، وأنتم لا تربَّصون في قتالكم إلّا إحدى الحسنيين، ومهما كانت للباطل جولة فإن للحق دولة لهؤلاء الصامدين في وجوه الطغات البغات.

وترى كيف يكون كيد الشيطان ضعيفاً وهو رأس الزاوية في كل ضلالة، ثم النساء المتأرجفات بتلمذة الشيطان «إن كيدهنَّ عظيم»؟. «١»

إن العُظم لكيدهن ليس إلّا في تعبير «العزيز» الحضيض، والضعف في كيد الشيطان هو عبارة الرحمن العزيز، ثم إن عُظمه ليس إلا نسبة الى سائر الكيد من الناس دون كيد الكائد الأصيل، ومن ثم قد يجتمع الضعيف والعظيم، فمهما كان الشيطان عظيماً فليس قوياً بل هو ضعيف أمام الحجج البالغة الربانية. «٢»

فكيد الشيطان هو في نفسه ضعيف أمام حجج الرحمان، مهما كان قوياً وِجاه من أتبع هواه وكان أمره فرطاً.

أترى المقاتل في سبيل اللّه كأصل، ولكن بخالجة الرياء أو خارجة الأهواء، أو الغيرة والعصبية قومية أو عنصرية أو إقليمية أماهيه؟ تراه مقاتلًا في سبيل الطاغوت؟

فليقاتَل كما يقاتَل أولياء الشيطان، أم هو مقاتل في سبيل اللّه؟ و «للّه الدين الخالص»!.

إنه عوان بينهما، لا خالصاً في سبيل اللّه، ولا مالصاً عنها في سبيل الطاغوت، فهو

---

(١)). سورة يوسف ١٢: ٢٨

(٢)). نور الثقلين ١: ٥١٧ في أصول الكافي عن أبي ليلى قال سمعت أبا جعفر عليهما السلام يقول: إذا سمعتم العلم فاستعملوه ولتتسع قلوبكم فإن العلم إذا كثر في قلب رجل لا يحتمله قدر الشيطان عليه فإذا خاصمكم الشيطان فأقبلوا عليه بما تعرفون فإن كيد الشيطان كان ضعيفاً، فقلت: وما الذي نعرفه؟ قال: خاصموه بما ظهر لكم من قدرة اللّه عز وجل

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‌٧، ص: ٣١١

لا يؤجر على قتاله ولا يقاتَل بها، بل يُنصح لتكون نيته خالصة غير مالصة.

وقد تجمع «الذين آمنوا» هنا الى خُلَّص الإيمان مزيجه ما لم يكن إيماناً بالطاغوت، ف «يقاتِلون في سبيل اللّه» قد تشمل كل مؤمن مقاتل مهما خالجته الرئاء وسواها من خالجة خارجة عن قمة الإيمان الخالص.

ولو اختصت مواصفة الإيمان بالمخلِصين فقط خرج عن الدور الأكثرية الساحقة من المؤمنين إذ «لا يؤمن أكثرهم باللّه إلّا وهم مشركون» في الطاعة لا- فقط- في العبودية.

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا» «١»

لقد كانت جماعة مؤمنة في العهد المكي قائلة: «يا نبي اللّه كنا في عزٍ ونحن مشركون فلمَّا آمنا صرنا أذلة؟ فقال صلى الله عليه و آله إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم فلما حوّله اللّه الى المدينة أمره بالقتال فكفوا فأنزل اللّه «ألم تر ..»». «٢»

و «أيديكم» هنا تعم كافة القوات المدافعة، ألسنة «٣» أم أسلحة أخرى يدافع بها، اللّهم إلّا في إصلاح بحكمة وموعظة حسنة.

---

(١)). سورة النساء ٤: ٧٧

(٢)). الدر المنثور ٢: ١٨٤ عن ابن عباس إن عبد الرحمن بن عوف وأصحابه أتوا النبي صلى الله عليه و آله فقالوا: وفيه عن قتادة في الآية قال: كان ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه و آله وهم يومئذٍ بمكة قبل الهجرة يسارعون الى القتال فقالوا للنبي صلى الله عليه و آله ذرنا نتخذ معاول فنقاتل بها المشركين وذكر لنا ان عبد الرحمن بن عوف كان فيمن قال ذلك فنهاهم نبي اللّٰه صلى الله عليه و آله عن ذلك قال: لم أومر بذلك فلما كانت الهجرة وأمروا بالقتال كره القوم ذلك وصنعوا فيه ما تسمعون قال اللّٰه تعالى: قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلًا

(٣)). نور الثقلين ١: ٥١٨ عن أصول الكافي عن أبي عبد اللّٰه عليه السلام في الآية قال: يعني: «كفواألسنتكم» أقول: وهذا تفسير بالمصداق الخفي الخفيف

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏٧، ص: ٣١٢

فكما أن للأيدي أن تبسط عند المكنة والمصلحة، كذلك عليها أن تكف في معاكسة الأمر «١» فسنة التقية جارية في ظروفها إيجابية وسلبية حفاظاً على الأهم من قضايا الإيمان.

واللوم هنا موجه الى كل هؤلاء الذين يهمون ببسط أيديهم على الظالمين دون عِدة ولا عُدَّة مكافئة، ثم إذا حصلنا لهم وأمروا ببسط أيديهم كَفوا أيديهم، معاكسين كلًا من الكف والبسط خلاف الصالح لكيانهم وخلاف شرعة اللّٰه «فلما كتب عليهم القتال» بعد ما كتب عليهم كف الأيدي «إذاً فريق منهم» لا كلهم- فإن منهم مؤمنين واقعيين- «يخشون الناس» النسناس المعتدين عليهم «كخشية اللّٰه» الذي «لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد» وهي منتهى الخشية «أو أشد خشية» من اللّٰه، ويا ويلاه! ويْكأن هؤلاء الناس هم أشد بأساً من اللّٰه وتنكيلًا.

وإن أشد الناس حماساً وإندفاعاً وتهوُّراً في وقته وواقعه، قد يكونون هم أشدهم جزعاً وإنهايداً وهزيمة في وقت الهماس الجادِّ وواقعه، وهم ممن قال عنهم عليٌّ أمير المؤمنين عليه السلام «إذا كنتم في المجالس تقولون كيت وكيت وإذا جاء الجهاد فحيدي حياد»! ولا فحسب تلك الخشية المقلوبة المغلوبة بل «وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال» كأنهم يوبخون الرب على تلك الكتابة الصالحة، ويكأنهم أعرف بمصالحهم من اللّٰه! «لولا أخرتنا الى أجل قريب» وقد أخرهم منذ العهد المكي الى أجل بعيد.

---

(١)

). المصدر ٥١٨ فيي وضة الكافي عن الفضيل عن أبي جعفر عليهما السلام قال: يا فضيل أما ترضون أنتقيموا الصلاة وتؤتوا الزكوة وتكفوا ألسنتكم وتدخلوا الجنة ثم قرء «ألمتر ..» أنتم واللّٰه أهل هذه الآية.

وفيه عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليهما السلام قال: واللّٰه للذي صنعه الحسن بن علي عليهما السلام كان خيراً لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس واللّٰه لقد نزلت هذه الآية «ألمتر ..» إنما هي طاعة الإمام وطلبوا القتال «فلما كتب عليهم القتال» مع الحسين عليه السلام «قالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا الى أجل قريب» نجب دعوتك ونتبع الرسل، أرادوا تأخير ذلك الى القائم عليه السلام.

وفيه في تفسير العياشي الحلبي عن الباقر عليه السلام «كفوا أيديكم» قال: نزلت في الحسن بن علي عليهما السلام أمره الله بالكف «فلما كتب عليهم القتال» نزلت في الحسين بن علي عليهما السلام كتب الله عليه وعلى أهل الأرض أن يقاتلوا معه

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣١٣

و «أخرتنا» قد تعني تأخير تلك الكتابة، وتأخير أجل الموت الحاصل بتحقيقها، وتأخير أجل الموت دون قتل الى المقدر لهم من الأجل وهو قريب مهما تأجّل.

وتأخير القتال الى زمن الدولة الأخيرة فإن كل آت قريب، والثاني ملمَّح له ب «أينما تكونوا يدرككم الموت» ومن ثم الثلاثة الأخرى، فليست محاولة تأخير الأجل بالتخلي عن واجب القتال بالذي يحوِّل الأجل المحتوم، ثم الأجل المعلق بتحقيق أمر الله هو خير أجل بخير عمل، والآجال كلها بيد الله، فهي متجاوبة مع ما كتب الله فيوافق التكوينُ التشريعَ، ومحاولة تأخير الأجل بترك ما فرض الله ظناً أن فيه الأجل، إنما محاولة المعارضة لأمر الله، وله الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين.

وحين لا يستطيع الإنسان أن يكف عن نفسه الآجال المعلقة بغير حوله وقوته، فليرجح الأجل المعلق بتحقيق أمر الله، قضيةَ الإيمان بالله والتسليم لأمر الله، بحول الله وقوة الله.

فإذا قدِّر الموت بأجل محتوم أو معلق لوقت مّا فبأحرى أن يأتي حين تأتي بأمر الله، لا عاصياً لله، وإذا لم يقدر الأجل أياً كان في ذلك الوقت فلماذا التأخُّر عن القتال فيه؟.

«قل متاع الدنيا قليل» مهما طالت «والآخرة خير لمن اتقى» الله «ولا تظلمون» في الأولى والأخرى «فتيلًا» فلا يأتيكم أجلكم بالقتال ظلماً، بل هو عدل محتوماً ومعلقاً.

فلئن علم المؤمن قتله في سبيل تحقيق أمر الله فنِعمَّا هو، فضلًا عما لا يعلم، فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً.

والتنديد هنا- كما فيما مضى ويأتي- موجه الى مثلَّث المنافقين وضعفاء الإيمان والذين أسلموا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم، فالآخرون يقولون قولتهم على بساطة وجهالة، والأولون بحيلة ومماكرة، والأوسطون بقلة إيمان.

وقد تكون طبيعة الحال للمؤمن البدائي في الظروف الصعبة الملتوية المكية

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣١٤

المعرقلة على صف الإيمان، قد تكوِّن فيه ظاهرة الدفاع عن حق الإيمان المرضوض في حرم الله، فهنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالًا شديداً ولم ينج إلّا من رحمه الله، وهم الفريق الآخر الذين قاتلوا لما أمروا بالقتال مهما كان منهم السباق إلى القتال في العهد المكي وقد نهوا عنه.

ومن الحِكَم الحكيمة الّائحة لنا في كف الأيدي في الفترة المكية التي كانت لاذعة لا تطاق، ولا سيما بالنسبة لهؤلاء الذين عاشوا حياتهم الهجمات البدائية فضلًا عن الدفاعية فمنها ما يلي:

١- إن الفترة المكية كانت هي رأس الزاوية التربوية الإيمانية، إعداداً لطائل المصابرات والمثابرات أمام الخطرات والحرمانات، تربية على الصبر على ما لا يُصبر عليه عادة، تجرداً عن الإنيات والعصبيات، وضبطاً للأعصاب في كل الأعتاب، فلا تندفع وتهتاج لأول ظاهر من مظاهر الهياج والإندفاع، وليتم الإعتدال في الطبيعة الإيمانية، تربّياً على اتباع القيادة السلمية في كل خالجة وخارجة مهما كانت مناحرة للمألوف عنده والمعروف لديه.

٢- ذلك ولكي يعاكس الإسلام الحالة الجاهلية الدموية حتى عند الدفاع فضلًا عن الهجوم، فلا يتحول من مبدء دعوة صالحة الى ثارات وغارات تنسي معها مبدأ الدعوة الإسلامية السلمية.

٣- ولو أذن ببسط الإيدي في العهد المكي لكان سبباً لأنتشاء معارك بيتية، لاختلاف وإختلاف الفريقين في جُلِّ البيوت ثم يقال: هذا هو الإسلام، ولقد قيلت، والإسلام آمر بالكف فكيف إذا أمر بالبسط، ومن دعايات قريش في الموسم في أوساط القادمين للزيارة، أن محمداً يفرِّق بين الوالد وولده فوق تفريقه لقومه وعشيرته، فكيف إذا أمر ببسط الأيدي منازعة وقتالًا بين الأهلين.

٤- ذلك- وكما في قوم نوح عليه السلام- كان من يعلم الله من قسم من المعاندين أنهم أنفسهم سوف ينقلبون مؤمنين واقعيين ومن جنود الإسلام المخلصين.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣١٥

٥- ثم النخوة العربية من دعاتها أن تثور للمظلوم المحتمل للأذى دون مراجعة، ولا سيما الأذى بحق كرام الناس الذين كانت لهم سوابق سوابغ، فقد يغربل كف الأيدي عن الإنتقام من هؤلاء فتنتج تلك الغربلة مناصرين لهؤلاء المظلومين ينحازون إلى جانبهم، وقد يؤمنون كما آمنت منهم جماعات، ومن مظاهرها نقض صحيفة الحصار لبني هاشم في شعب أبي طالب بعد ما طال عليهم الجوع وأشتدت المحنة.

٦- ومن وراء كل ذلك قلة عَدَد المسلمين وعُدَدهم حينذالك وإنحصارهم في مكة قبل أن تبلغ الدعوة بالغ الجزيرة، ففي مثل هذه الظروف الملتوية المعرقلة على المجموعة المؤمنة المكتوفة الأيدي، ترى ماذا كانت الحالة لو بسطت أيديها؟ في الحق إنها كانت بسطاً لإنمحاء الجماعة المؤمنة عن بكرتها، إخفاقاً لنائرتها وحنفاً لها قبل أن تتنفس، ومحقاً لجذورها ببذورها قبل أن تتنفَّش.

ولقد عنى كف الأيدي حينذالك سلباً وإيجاباً يتبنيَّان كلمة التوحيد، سلباً لاستلابهم بأسرهم وهم في بادىء أمرهم، وإيجاباً لما هم عليه من صامد الإيمان وتداومه، وليعبِّدوا طريقاً سالكة إلى تأسيس دولة الإسلام بعد الهجرة الهاجرة.

«أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَايَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً ا ٧٨ ا مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً» «١»

«يقولون هل لنا من الأمر شيءٌ قل إن الأمر كله للّهيخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيءٌ ما قُتلناها هنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلي اللّه ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم

---

(١)). سورة النساء ٤: ٧٨- ٧٩

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣١٦

واللّه عليمبذات الصدور». «١»

إنه لا يقدر الإنسان- أياً كان- أن يفر من الموت كأصل، أما الأجل المحتوم فلا فرار عنه إطلاقاً، وأما الأجل المعلق على المعلوم أو المحتمل فعليه أن يفر منه حفاظاً على أصل الأجل، وأما المعلق على أمر اللّه تكويناً أو تشريعاً أن شرع القتال وعلق الأجل عليها، فكيف الفرار؟. «٢»

ففيما يحتم الموت حسب الأسباب الظاهرة فالتجنب عنه مفروض حين لم تفرض عليه هذه الأسباب، فإذا فرضت فالتجنب مرفوض، وكذالك الأمر فيما يحتمل فيه الموت، فالموت المتحتَّم أو المتحمل في حقل تطبيق الفرض فرض، وهما في سائر الحقول ولا سيما في رفض الفرض أو إقتراف محظور محظور مرفوض.

وهنا الخطاب العتاب موجَّه الى هؤلاء الذين كتب عليهم القتال فيرفضونها خوفَ الموت، بأن الأجل المحتوم آت «أينما تكونوا» دون معرفة منكم وخُبرة، ثم المعلق- كذلك- آت فيما لا حِوَل عنه ولا حَوْل ولا قوة، فليعلق ذلك الأجل بعُلقة أمر الله ونعما هو، دون تعلُّق بعصيانه فتعلُّق بغير أمره أم بعصيانه وبئسما هو.

فكما الحياة الإيمانية هي الكائنة بأمر الله، فليكن كذلك الممات بأمر الله في شرعته، وكما يأمر بتكوينه، فعيش المؤمن مرضات الله في حياته ومماته، فهو- إذاً- حيٌّ على طول الخط، كما العائش حياته ومماته في غير مرضات الله ميت على طول الخط.

فلا تعني «أينما تكونوا يدرككم الموت» تركاً لواجب الحذر والحيطة على النفس ما استطاع الإنسان إليه سبيلًا، فقد سبق أن أمرَ بأخذ الحِذر، ومنه الحذر عن الموت

---

(١)). سورة آل عمران ٣: ١٤٩

(٢)). وقد يوجه ذهاب الإمام علي عليه السلام الى المسجد يوم قتل على علمه بقتله أنه كان يعلم موته في نفس الوقت بمحتوم الأجل أو معلقه فكيف يفر عن الموت المحتوم، فقد كان أحرى به ألا يترك جماعة الصلاة حتى تأتيه فيها الأجل المعلوم لديه

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣١٧

ببواعثه المرفوضة غير المفروضة ولا الراجحة، وكما أمر بالحائطة في صلاة الخوف، ونهى عن إلقاء النفس الى التهلكة! ولا يعني الفرار عن بواعث الموت- حتماً أو إحتمالًا- غير المفروضة، إلا الفرار عن الآجال المعلقة دون المحتومة.

ولو كانت الآجال- محتومة ومعلقة- معروفة لأصحابها، لاختص الفرار بالمعلقة دون المحتومة، فلأنها مجهولة فرض علينا الفرار عن كل بواعث الموت حتماً أو إحتمالًا عقلائياً، اللهم إلّا ما فرض علينا الخوض فيها كالقتال في سبيل الله- أو رجّحه- ولكن الحياد فيها أيضاً مفروضة ما لم يعن فشلًا وتكاسلًا وتخاذلًا: «قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذاً لا تمتعون إلا قليلًا». «١»

فعلى المقاتل في سبيل الله الحائطة الشاملة في أمرين: على نفسه ما وجد إليها سبيلًا، وعلى إنهزام الكافرين، تكريساً لكافة قواته وإحتياطاته في كلا الأمرين، دون أن يتهدر في أحدهما دون الآخر، وإنما عليه تحصيل «إحدى الحسنيين» تقديماً أصيلًا لحسنى الحياة الإيمانية بغَلَب المسلمين على الكافرين، ثم الحسنى الأخرى في سبيل الأولى وكلتاهما «سبيل الله».

إن الموت كأصل شاملٌ مدركٌ كلَّ حي أينما كان «ولو كنتم في بروج مشيدة» فلا يمكن الفرار عن أصل الموت بالتخلي عن القتال.

ولأن واقع الموت ليس إلّا بيد الله «وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلًا» فليكن أجله بأمر الله كما يأمر بالقتال، فإن كان أجله المحتوم أو المعلق في القتال فنعما هو، وإن لم يكن فنعما هو، فقد يربح المقاتل «إحدى الحسنيين» والتارك لفرض القتال يخسرهما إلى إحدى السوءتين، فحياته ممات كما ومماته ممات.

ذلك «وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك» تفريقاً بين الله ورسوله كشيمة الكافرين: «إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن

---

(١)). سورة الأحزاب ٣٣: ١٦

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣١٨

يتخذوا بين ذلك سبيلًا أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً». «١»

ذلك! وجعلًا للرسول عِدلًا للّهوكأنه إله الشر وجاه اللّه إله الخير؟ وليس الرسول إلا حامل الخير برسالته الربانية، وليس مكوِّناً لخير أو شر كما ليس مشرِّعاً، فإنما هو بشر يوحى إليه بكل خير.

وهكذا كانوا يهدفون بقيلاتهم العليلات كهذه، التطيرَ بالنبي صلى الله عليه و آله ظناً أنه- وعوذاً باللّه- شؤم عليهم، يأتيهم السوء من قبله، فإن أجدبت السنة، ولم تنسل الماشية أم قل نسلها، أو إذا أصيبوا في حرب، تطيروا به، وحين يصيبهم خير نسبوه الى اللّه، تفريقاً بين اللّه ورسوله، وتجريحاً للقيادة الرسالية تخلصاً عن عبءِ التكاليف التي أرسل بها ومنها تكليف القتال، وأمثال ذلك من سوء التصور الجاهل القاحل بساحة الربوبية والرسالة «وهميحسبون أنهم يحسنون صنعاً!.»

«قل» لهؤلاء المجاهيل المفترين على رسول الهدى أن الشر من عنده، والمفترين على اللّه أن رسوله عِدله في إصابة الشر واللّه هو مصيب الخير، «قل كلٌ» من الحسنة والسيئة المصيبة إياكم «من عند اللّه» قضيةَ توحيد الربوبية، فكما أن إصابة الخير لابد وهي بإذن اللّه كذلك إصابة الشر، ولكنهما في الأمور التكليفية كما يناسب الإختيار، فمن يستحق الخير بما يقدمه يصيبه الخير، ومن يستحق الشر يصيبه الشر «فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً» يتقولونه من هذا القبيل، أو يسمعونه من رسول الوحي تصليحاً لأخطاءهم الجاهلة، فليس- فقط- أنهم «لا يفقهون» بل «لا يكادون يفقهون» بسوء إختيارهم.

وهنا «عند» في كلتا الإصابتين تختص باللّه دون مشارك من مصاب بهما أو سواه، ف «ما أصاب من مصيبة إلا بإذن اللّه». «٢» «وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن

---

(١)). سورة النساء ٤: ١٥٠

(٢)). سورة التغابن ٦٤: ١٢

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣١٩

اللّه». «١» «قل لن يصيبنا إلا ما كتب اللّه لنا هو مولانا». «٢»

ذلك، ومن ناحية أخرى ليست إصابة السيئة إلّا من نفس المصاب حيث يسبِّبها «فأعلم أنما يريد اللّه أن يصيبهم ببعض ذنوبهم». «٣» و لو يوآخذ اللّه الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة». «٤»

وأما الحسنة فمهما كانت بما تقدمه من نفسك ولكنها من اللّه فإنه أولى بحسناتك منك وأنت أولى بسيئاتك من اللّه». «٥»

«مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ» «٦»

فالسيئة كيفما كانت هي من نفسك مبدءً ثم من عند اللّه إبداءً، والحسنة هي من اللّه ومن عند اللّه مهما كنت مستحقها بما تقدمه بفضل اللّه إذ التوفيق لها والتشجيع إليها وتهيئة أسبابها الرئيسية كلها من اللّه، فبأحرى أن يقال عنها «من اللّه» كما هي «من عند اللّه» ف «بيدك الخير» مبدءً وإبداءً «والشر ليس إليك» مبدءً مهما كان من عندك إبداءً وجزاء وفاقاً.

إذاً فلا تناحُر بين الآيتين فإن لِكلٍّ مجالًا دون ما للأخرى، حيث الأولى تحقِّق واقع كل مصيبة من عند اللَّه، أنها لا تحصل إلّا بإذن اللَّه، والأخرى تحقِّق حقيقة أخرى ليست داخلة ولا متداخلة مع الحقيقة الأولى، هي أنه تقدس وتعالى سنَّ منهجاً وشِرعة ودل على نجدي الحسنة والسيئة، فلناجد الحسنة حسنَة من عند اللَّه وهي من

((١)). سورة آل عمران ٣: ١٦٦

((٢)). سورة التّوبة ٩: ٥١

((٣)). سورة المآئدة ٥: ٤٩

((٤)). سورة الفاطر ٣٥: ٤٥

((٥)). نور الثقلين ١: ٥١٩ قال أبو الحسن الرضا عليه السلام قال اللَّه: يا ابن آدم بمشيتي كنت أنت الذي تشاء لنفسك ما تشاء وبقوتي أديت فرائضي وبنعمتي قويت على معصيتي جعلتك سميعاً بصيراً قوياً وما أصابك من سيئة فمن نفسك وذاك اني أولى بحسناتك منك وأنت أولى بسيئاتك مني وذاك اني لا اسأل عما أفعل وهم يسألون

((٦)). سورة النساء ٤: ٧٩

اللَّه، ولناجد السيئة سيئة من نفسه وهي من عند اللَّه.

كما بادىء النعم من اللَّه عز وجل وقد نحلكموه ألشر من أنفسكم.

إذا ضربتهم في سبيل اللَّه فتبينوا ...

«وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ٩٢ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ا ٩٣ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ٩٤ لَايَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً ٩٥ دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ٩٦ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً ا ٩٧ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَايَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًاا ٩٨ فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوّاً غَفُوراً ٩٩ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً» «١»

((١)). سورة النساء ٤: ٩٢ و ٩٣ و ٩٤ و ٩٥ و ٩٦ و ٩٧ و ٩٨ و ٩٩ و ١٠٠

وإذا كان قتال غير المسلم- المسالم- محظوراً فماذاترى في قتال المسلم وقتله، فلا خطأ هنا ولا عمد، أخذاً بالحائطة الكاملة الشاملة كيلا يتفلت عن مؤمن أن يقتل مؤمناً.

وفي قتل المؤمن خطأً موارد ثلاث في كلٍّ حكمه الخاص سداً لفراغه، وصداً عن تكرره، تكريساً لكل الإهتمامات للحفاظ على النفوس المحترمة البريئة.

وأما قتل المؤمن تعمداً فلا يذكر هنا إلّا مثناه، فثانيه أنه لإيمانه، فلعوان بينه وبين قتله خطأٌ عوان من الأحكام في النشأتين.

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً «١»

«ما كان» تضرب إلى أعماق الزمن الرسالي، فلا يسمح الإيمان لمؤمن أن يقتل مؤمناً عن قصد وتعمد، لإيمانه أم لبواعث أخرى مهما كان بينهما بون، وقد تتكفل «لإيمانه» الآية التالية.

ولأن الخطأ يقابل العمد فهو- إذاً- ماسوى العمد، ثم قد يكون خطأً محضاً كأن يرمي حيواناً أو كافراً مهدور الدم فأصاب مؤمناً «٢» فذلك الخطأ الذي لا شك فيه، أم شبه عمد كأن يريد ضربه فقتله دون تقصُّد لقتله ولكن إذا ضربه بما يقتل عادة فلا يصدَّق في عدم قصده، فإن ضربه بما لا يقتل عادة فقُتل صُدِّق في عدم قصده، إلا اذا كانت كيفية الضرب قاتلة وذلك في مقام الإثبات.

---

(١)). سورة النساء ٤: ٩٢

(٢)). ومما يدل عليه صحيحة فضل بن عبد الملك على رواية الصدوق عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنهقال: إذا ضرب الرجل بالحديدة فذلك العمد، قال: وسألته عن الخطإ الذي فيه الدية والكفارة أهو أن يتعمد ضرب رجل ولا يتعمد قتله؟ فقال: نعم، قلت: رمى شاةً فأصاب إنساناً قال: «ذلك الخطأ الذي لا شك فيه عليه الدية والكفارة» (الفقيه باب القود ومبلغ الدية رقم ٢).

وصحيحة أبي العباس وزرارة عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: «إن العمد أن يتعمد فيقتله بما يقتل مثله والخطأ أن يتعمده ولا يريد قتله يقتله بما لا يقتل مثله والخطأ الذي لا شك فيه أن يتعمد شيئاً آخر فيصيبه» (التهذيب باب القضايا في الديات رقم ٢٢)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٢٢

واما الثبوت فقصد القتل كاف في العمد إذا قتل مهما كانت الآلة مما لا تقتل عادة. «١»

واما اذا قتله- متردداً بين كفره وإيمانه- لكفر، حيث يظن كفره، فهو قتل عمد لإنسان وليس عمداً لقتل مؤمن، فهو محرم لعدم التأكّد من جواز قتله، خطأً مقصراً في الموضوع والحكم، أم وأحدهما، فلا قصاص فيه لعدم تمحضّه في العمد، وفيه عتق رقبة ودية مسلمة إلى أهله.

وترى من هو المؤمن الذي ما كان لمؤمن أن يقتله إلا خطأً؟ إنه- بوجه عام- هو الذي يقر بالإيمان مهما شك في صدقه ف «لا تقولوا لمن ألقى اليكم السلم لست مؤمناً».

وأما المقطوع كذبه كمقطوع النفاق فلا يدخل في نطاق «مؤمناً» لا يحل قتله، ولكنه لا يدل على جواز قتله، لا وحتى المشرك غير المحارب كما تقدم هنيئة، وكما- بأحرى- لا يحل قتل المشكوك في إيمانه وكفره.

فهنا «ما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلّا خطأً» هي كضابطة ثابتة في حقل الإيمان، فأما أن تثبت حِلَ قتل غير المؤمن أياً كان فلا، اللّهم إلّا بدليل، كما الدليل على جواز قتل المؤمن قصاصاً أم حداً آخر.

فالضابطة في كل النفوس هي الحرمة مهما كانت بالنسبة لنفوس المؤمنين أحق وأحرى.

فكما «ما كان لمؤمن» لا تسمح لغير المؤمن قتلًا، كذلك «مؤمناً إلا خطأً» لا تسمح لغيره قتيلًا، كما أن قتل مؤمن خطأ غير مسموح فيما قصّر حكماً أو موضوعاً.

أترى بعدُ «إلّا خطأً» تعم كافة الأخطاء محظورة وغير محظورة؟ كمن يقتل الذي يظنه كافراً دونما حجة على كفره إلّا ظناً، فإنه لم يقتل- إذاً- مؤمناً متعمداً، إذ لم يتأكد من إيمانه، ولم يقتله- كذلك- لإيمانه! إن شمول الإستثناء لشبيه العمد كهذا قد

---

(١)). كما في الصحيح عن رجل ضرب رجلًا بعصىً فلم يرفع عنه حتى قتل أيدفع الى اولياء المقتول؟ قال: «نعم ولكن لا يترك يعبث به ولكن يجاز عليه بالسيف» (التهذيب ٢) ٤٨٩)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏٧، ص: ٣٢٣

يجعله حِلًا، ف «خطأً» في غير المحظور مستثنىً متصل، وفي المحظور منفصل، ثم «ومن يقتل مؤمناً خطأً» يشمل الخطأين في واجب الدية.

أم هو متصل فيهما و «إلّا خطأً» لا تحلل الخطأ المحظور، وإنما يجعله وارداً بحق المؤمن المخطىءِ في محظور، ومهما كان الإيمان قيد الفتك ولكن المؤمن ليس معصوماً، أو عادلًا إلا نزراً.

إذاً ف «إلا خطأً» في محظور، هي ك «يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى» حيث لا يحلّل وصفُ الإيمان حالَة السكر، وكذلك لا يحلِّل الإيمان الخطأٌ.

المحظور، وإنما هو واقع في حقل الإيمان، وليس قتل المؤمن متعمداً واقعاً فيه في يعديه، ولا سيما اذا كان لإيمانه فخروجٌ عن أصل الإيمان، و «ما كان» لا يعني إلا الحرمة المغلَّظة في قتل المؤمن لإيمانه أو على علم بإيمانه، وأما «خطأ» فقد تشمل قتل المؤمن دون علم بإيمانه، ظناً منه أنه كافر فهذا محظور محرّم ولكنه ليس فيه قصاص، إنما القصاص فيما إذا قتل مؤمناً عارفاً إيمانه.

فكما المؤمن قد يقتل المؤمن خطأً محضاً أو غير محظور مطلقاً، كذلك قد يقتل المؤمن خطأً محظوراً كما حصل زمن الرسول صلى الله عليه و آله ونزلت هذه الآية بشأنه. «١»

---

(١)). الدر المنثور ٢: ١٩٢- أخرج ابن جرير عن عكرمة قال كان الحرث بن يزيد بن نبيثة من بني عامر بن لؤى يعذب عياش بن أبي جهل ثم خرج مهاجراً الى النبي صلى الله عليه و آله فلقيه عياش بالحرة فعلاه بالسيف وهو يحسب أنه كافر ثم جاء الى النبي صلى الله عليه و آله فأخبره فنزلت هذه الآية فقرأها عليه ثم قال له قم فحرِّر.

وفيه أخرج بن حرير عن ابن زيد في الآية قال نزلت في رجل قتله أبو الدرداء كان في سرية فعدل أبو الدرداء الى شعب يريد حاجة فوجد رجلًا من القوم في غنم له فحمل عليه السيف فقال: لا إله إلا اللّه فضربه ثم جاء بغنمه الى القوم ثم وجد في نفسه شيئاً فأتى النبي صلى الله عليه و آله فذكر ذلك له فقال له رسول اللّه صلى الله عليه و آله ألا شققت عن قلبه فقال ما عسيت أجد هل هو يا رسول اللّه إلّا دم فقال فقد أخبرك بلسانه فلم تصدقه قال كيف بي يا رسول اللّه قال فكيف بلا إله إلا اللّه قال فكيف بلا إله إلا اللّه حتى تمنيت أن يكون ذلك مبتدء إسلامي قال ونزل القرآن وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأً- حتى بلغ- إلا أن يصدقوا- قال: إلا أن يضعوها.

وفيه أخرج الروياني وابن منذر وأبو نعيم معاً في المعرفة عن بكر بن حارثة الجهني قال كنت في سرية بعثها رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فاقتتلنا نحن والمشركون وحملت على رجل من المشركين فتعوذ مني بالإسلام فقتله فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه و آله فغضب وأقصاني فأوحى اللَّه إليه «وما كان لمؤمن ..» فرضي عني وأدناني، وفي تفسير الفخر الرازي ١٠: ٢٢٧ روى عروة بن الزبير أن حذيفة بن اليمان كان مع الرسول صلى الله عليه و آله يوم أحد فأخطأ المسلمون وظنوا أن أباه اليمان واحد من الكفار فأخذوه وضربوه بأسيافهم وحذيفة يقول: انه أبي، فلم يفهموا قوله إلا بعد أن قتلوه فقال حذيفة يغفر اللَّه لكم وهو أرحم الراحمين، فلما سمع الرسول صلى الله عليه و آله ذلك ازداد وقع حذيفة عنده فنزلت هذه الآية

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٢٤

هذا في مقام الثبوت، وأما الإثبات فقد يقبل قول القائل أنني تأكدت كفره وحِلَّ دمه، مهما لم يقبل قوله: أنني ما قصدت قتله وقد ضربه بآلة قتاله.

ففي ظاهرة الخطإ في قتل المؤمن الحكم هو الدية المسرودة باحتمالاتها في الآية، وفي ظاهرة العمد فالقصاص إلّا أن يسامح عنه أهل القتيل، تبديلًا بدية أم دون تبديل.

وقتل الخطإِ كما يعنى خطأ الموضوع كذلك الخطأ في الحكم على علم بالموضوع كمن يشك في إيمانه فيقتله على شكه، ولا قصاص إلّا في العمد المحض أن يقتله على يقين من إيمانه، لإيمانه أم لمنازعة.

وفي صيغة أخرى قتل مؤمن مؤمناً على أربعة أوجه، اثنان عمد وآخران خطأ، فقد يعمد إلى قتل المؤمن لإيمانه فهو كما قال اللَّه تعالى «ومن يقتل مؤمناً متعمداً ..» أو يعمد إلى قتله لإيمانه ف «في القصاص حياة يا أولي الالباب» أو يقتله خطأً مقصراً أو قاصراً ف «من يقتل مؤمناً خطأً» ولكنه في الخطإ المقصر مقصِّر وفي الخطإ القاصر قاصر، و «ما كان» تحرِّم هنا غير الخطإ حرمة مغلظة مهما كان بين العمدين بون، ثم لا حرمة مغلظة في الخطإ المقصر ولا حرمة اطلاقاً في الخطإ القاصر، فلا تعني «إلّا خطأً» حل قتل الخطإ، بل إنه لا ينافي أصل الإيمان كقتل العمد.

ثم وقتل العمد هو محظور على أية حال سواء أكان القاتل مكرماً أو مضطراً أمّا هو، حيث إن الاكراه والإضطرار لا يحلِّلان دم المؤمن، ولا غير المؤمن الذي لا يستحق القتل، فلا تقية في الدم «إنما جعلت التقية ليحقن بها الدماء فإذا بلغ الدم فلا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٢٥

تقية» «١» ولا يقتل في قتل العمد إلا المباشر مكرَها أو مضطراً أمَّن هو لأنه القاتل. «٢»

ولو تعرض لقتل الآمر بقتل الغير إن لم يقتله فهل يخيِّر بين الأمرين لتساوي حرمة النفسين؟ أم يهدّر الأخرى حفاظاً على نفسه، أم يهدر نفسه حفاظاً على الأخرى؟.

البراهين الدالة على وجوب حفظ النفس لا تشمل ما فيه هدر الغير للحفاظ على النفس، ثم الدالة على حرمة قتل الغير طليقة تشمل كل موارده ف «ما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلّا خطأً» تخرج العمد وان كان مكرهاً أو مضطراً، مهما وجب الدفع عن نفسه بأي وجه كان، ولكنه الوجه المسموح المجبور دون المحظور.

ثم «خطأً» قد تكون مفعولًا له «إلا لخطأ» أو حال «حال خطإٍ» أو وصفاً للمصدر المقدر «إلّا قتلًا خطأً» وعلّ الثلاثة معنية كلها، فإن حال الخطإ وغرض الخطإِ ونفس الخطإ في القتل كلها من القتل خطأً. «٣»

والخطأ- كما سبق- تعم الخطأ في القصد والخطأ في الفعل والخطأ في المعرفة:

خطأً في الحكم وخطأً في الموضوع، فما لم يكن القتل عمداً محضاً تشمله «خطأً» مهما اختلف الأخطاء تقصيراً وقصوراً.

وترى إذا حالة النوم أو الصرع أما أشبه من حالات غير إرادية، فهل هو داخل في قتل الخطإ؟ قد يقال: لا، حيث العمد والخطأ يتمحوران الإرادة والإختيار، وفي غيرها لا خطأ كما لا عمد.

ولكن مقابلة «خطأ» ب «متعمداً» مما توسّع نطاق الخطإ أنه ما سوى العمد مهما لم

---

(١)). هي الصحيح المروي في الكافي ٢: ٢٢٠ رقم ١٦ ونحوه الموثق

(٢)). وتدل عليه بعد ظاهر الآية صحيحة زرارة عن أبي جعفر عليهما السلام في رجل أمر رجلًا بقتل رجل فقتله؟ قال: «يقتل به الذي قتله ويحبس الآمر بقتله في السجن حتى يموت» (الكافي ٧: ٢٨٥ والتهذيب باب الأثنين إذا قتلا واحداً تحت رقم ١١)

(٣)). تفسير الفخر الرازي ١٠: ٢٣٠ عن النبي صلى الله عليه و آله: «ألا إن قتيل الخطإ العمد قتيل السوط والعصا فيه مائة من الإبل»، أقول: اللهم إلا من لم يرفع عصاه حتى قتل كما سبق

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٢٦

يكن قصد وإرادة، و «توبة من الله» قد تعني الأخطاء المحظورة، أم وجبراً لغير المحظورة فإن في نفس القتل حضاضةً عمداً أو خطأً او خارجاً عنهما.

ذلك، ولأن دم المؤمن لا يذهب هدراً، وليست الدية عقوبة، بل الأصل فيها عدم هدر الدم هباءً منثوراً.

وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا «١»

هذه ضابطة الجزاء في قتل الخطإ، ثم يستثنى موردان إثنان فيهما ما فيهما من جزاءٍ، وهنا مثنَّى الجزاء على القاتل مؤمناً خطأً، مهما كان محظوراً أو غير محظور.

وللجزاء هنا بُعدان إثنان ثانيهما حق لأهل القتيل ويمحيه «إلا أن يصَّدَّقوا» ولكن الأوَّل «فتحرير رقبة مؤمنة» ليس حقاً لهم حتى يصَّدَّقوا، إنما هو حق «رقبة مؤمنة» أن تحرَّر كبديلٍ مَّا عن قتل المؤمن خطأً، وحق للمؤمنين أن يُسد فراغُ مؤمن قتيل بتحرير رقبة منهم. «٢»

فالحكمة الحكيمة في «تحرير رقبة» أنه تعويض للمجتمع المسلم عن قتل نفس مؤمنة باستحياء نفس مؤمنة أخرى، فإن التحرير إحياءٌ ميسور فإن أصل الإحياء غير ميسور.

وأما «دية مسلمة الى أهله» فهي تسكينة متينة مكينة لثائرة النفوس وجبر لكسر خواطر المفجوعين، وتعويض لهم عن بعض ما فقدوه من نفع القتيل، وهنا قضية السماحة الإسلامية هي التصدق بالدية، تحريضاً على التسامح حتى بالنسبة لدية

---

(١)). سورة النساء ٤: ٩٢

(٢)). نور الثقلين ١: ٥٣٠ في تفسير العياشي عن مسعدة بن صدقه قال سئل جعفر بن محمد عليهما السلام عن قول الله: «وما كان لمؤمن ..» قال عليه السلام: أما تحرير رقبة مؤمنة ففيما بينه وبين الله وأما الدية المسلمة الى أولياء المقتول «وإن كان من قوم عدو لكم» قال: وإن كان من أهل الشرك الذين ليس لهم في الصلح وهو مؤمن فتحرير رقبة فيما بينه وبين الله وليس عليه الدية وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وفيما بينه وبين الله ودية مسلمة الى أهله.

أقول وعن حفص البختري عمن ذكره عنه عليه السلام مثله بتقديم الدية كما في الآية.

وفي الفقيه عن الصادق عليه السلام في رجل مسلم في أرض الشرك فقتله المسلمون ثم علم به الإمام بعد فقال عليه السلام: يعتق مكانه رقبة مؤمنة وذلك قول اللّه: «فإن كان من قوم عدو لكم ..»

النفس فضلًا عن سواها.

وهذه الدية ساقطة فيما إذا كان أهل القتيل كافرين محاربين، فإنهم يستعينون بها على حرب المسلمين، ولا دور لهم في استرضاءهم، وهم قد يكونون راضين بقتله لإيمانه.

وأما أهله غير المحاربين الذين بينهم وبيننا ميثاق فدية الدم لهم ثابتة كما للأهل المسلمين.

وهنا التحرير والدية يختصان بحقل الإيمان قاتلًا ومقتولًا، فإن مصبَّ الحكم هو المؤمن قاتلًا ومقتولًا ف «ما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلّا خطأ» اللّهم إلا استناداً الى طليق «ومن قتل» فإنه يشمل- إذاً- كل الخاطئين في القتل مؤمنين وسواهم وبالغين وسواهم، ولكن المسؤولية في غير البالغين هي على عواتق أولياءهم.

وفي سقوط الدية إذا كان أهل القتيل كفاراً بلا ميثاق دليل سقوط الميراث من المؤمنين للكفار، وتسليم الدية لأهله الكفار الذين لهم ميثاق لا يدل على كونها ميراثاً لهم.

وترى «رقبة» تختص بالعبيد وقد مضى دورهم منذ زمن بعيد؟ وصيغته الصريحة:

«تحرير عبد مؤمن» فكيف تختص «رقبة» برقبة العبد، وهناك رقاب للأحرار قد تقيدت وتأسرت بديون أم جرائم أخرى لا يستطيعون التحلل عنها، سواء المسجونين منهم أم مربوطين بسائر الرباطات.

صحيح أن الأولوية في تحرير الرقبة هي للرق عن أسره بأسره، ولكنه عند فقده يختص بسائر الرقبات أن تفك عن أسرها بآصارها التي قيدتها حيث الميسور لا يسقط بالمعسور.

لذلك تأتي هنا وفي أمثاله «تحرير رقبة مؤمنة» «١» وتأتي «عبد- أو- أمة- أو- ما

---

(١)). هنا مرات ثلاث ثم «تحرير رقبة» في ٥: ٨٩ و ٥٨: ٣، وفي ٩٠: ١٣ «فك رقبة» وفي ٢: ١٧٧ و ٩: ٦٠ «وفي الرقاب»

ملكت أيمانكم» أكثر من «رقبة» بكثير. «١»

إذاً فالأشبه عدم سقوط واجب التحرير حين لا يوجد ملك يمين، بل ينتقل الواجب الى المصداق الثاني من «تحرير رقبة مؤمنة» وهذه مسلمة أولى كحق عام للمسلمين فقد انتقص عنهم مؤمن فليجبر بإحياء مؤمن، ولأنه مستحيل فليحرر رقبة مؤمنة، فشرط الإيمان في التحرير هنا شرط أصيل لا حِوَل عنه ولا فارق هنا بين ذكر وأنثى. «٢»

ومن ثم مسلمة ثانية هي «دية مسلمة الى أهله» وهم ورثته المحقون ولا تشمل «أهله» القاتَل، فكيف يسلِّم القاتل دية المقتول إلى نفسه إذا كان من أهله، بل إنه ليس من أهله إنه عمل غير صالح.

والدية كسائر التركة تقسم بين سائر الورثة كما فرض اللّه من بعد وصية يوصي بها أو دين.

وأما قدرها؟ فقد قُدِّر بمقادير عدة «٣» أضبطها وأثبتها ألف دينار ذهباً كسعر ثابت على مدار الزمن دون غيار مهما تغيرت سائر المقدرات. «٤»

---

(١)). مثل «الحر بالحر والعبد بالعبد» (٢: ١٧٨) «عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء» (١٦: ٧٥) «وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادتكم وإماءكم» (٢٤: ٣٢) «فواحدة أو ما ملكت أيمانكم» (٤: ٣) «والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم» (٤: ٢٤) «وما ملكت أيمانكم» والى (١٥) آية تذكر «ملكت أيمانكم» إذاً ف «رقبة» هي أقل بكثير من عبد وأمة وملك اليمين، مما يؤكد طليق المعنى في «رقبة»

(٢)). الدر المنثور ٢: ١٩٣- أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس قال أتى النبي صلى الله عليه و آله رجل فقال إن علي رقبة مؤمنة وعندي أمة سوداء فقال أئتني بها فقال صلى الله عليه و آله تشهدين أن لا إله إلا اللّه واني رسول اللّه؟ قالت: نعم قال: اعتقها

(٣)). والتقديرات هي ألف دينار وعشرة الآف درهم ومائة من مسان الأبل أو مأتا بقرة أو ألف‌شاة أو مأتا حلة كل حلة ثوبان من برود اليمن

(٤)). مما يدل على أصالة ألف دينار صحيحة عبد الرحمن بن الحجاج قال سمعت ابن أبي ليلى يقول: كانت الدية في الجاهلية مائة من الأبل فأقرها رسول اللّه صلى الله عليه و آله «ثم انه فرض على أهل البقر مأتي بقرة وفرض على أهل شاة ألف شاة ثنية وعلى أهل الذهب ألف دينار وعلى أهل الورق عشرة الآف وعلى أهل اليمن الحلل مأتي حلة» (رواه الصدوق في المقنع الى هنا وفيه مائة حلة وفي المختلف مائى حلة).

قال عبد الرحمن بن الحجاج فسألت أبا عبد اللّه عليه السلام عما روى ابن أبي ليلى فقال: كان علي عليه السلام يقول: «الدية ألف دينار وقيمة الدنانير عشرة الآف درهم وعلى أهل الذهب ألف دينار وعلى أهل الورق عشرة الآف درهم لأهل الأمصار ولأهل البوادي الدية مائة من الأبل ولأهل السواد مائتا بقرة أو ألف شاة» (الوسائل أبواب ديات النفس ب ١ ح ١).

وفي الدر المنثور ٢: ١٩٣- أخرج ابن المنذر عن أبي بكر بن عممرو بن حزم عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه و آله كتب الى أهل اليمن بكتاب فيه الفرائض والسنن والديات وبعث به مع عمرو بن حزم وفيه «على أهل الذهب ألف دينار» يعني في الدية.

وفيه أخرج أبو داود عن جابر بن عبد اللّه أن رسول اللّه صلى الله عليه و آله قضى في الدية على أهل الابل مائة من الابل وعلى أهل البقر مائتي بقر وعلى أهل الشاة ألفي شاة وعلى أهل الحلل مائتي حلة وعلى أهل القمح شيءٌ لم يحفظه محمد بن إسحاق

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‌٧، ص: ٣٢٩

وهنا «إلّا أن يصَّدّقوا» تسامحٌ جماعي من أهله عن الدية لأنها حقهم كلهم، فإذا تصدق بعضٌ دون بعضٍ يسقط نصيب المصدِّق دون سواه، ثم وليس لهم أن يصَّدَّقوا نصيب الوصية والدين من الدية إلّا أن يوفي بهما ما سواها من التركة.

وعلى أية حال فحكم الدية كسائر التركة لكل من يستحقها من وصية ودين وورثة.

ترى ما هو دور «مسلمة» مواصفة ل «دية» وقد كانت تفي بالمقصود «ودية لأهله»؟ علّها للإشعار الى واجب التسليم جبراً لخواطرهم دون تساءل منهم «إلّا يصدقوا» وأن الدية قطعية لا حِوَل عنها «إلّا يصدقوا»، ومن أبعاد كونها «مسلمة» أن تكون تامة غير ناقصة.

وترى «دية مسلمة» هي على العاقلة كما يقال؟ إنها كأصل عادل ليست إلّا على القتال، كما هو الظاهر كالنص من الآية «ومن قتل مؤمناً خطأً فتحرير رقبة» أي فعليه تحرير رقبة دون مَن سواه، ثم «ودية مسلمة إلى أهله» كذلك الأمر، فلو كانت الدية على غير القاتل لكان الواجب ذكره لأنه خلاف القاعدة المسلمة.

ذلك! ومن ثم في آخر الأمر «فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من اللّٰه» فهل الصيام أيضاً على العاقلة، وتوبة من اللّٰه كذلك هي على العاقلة ولا دور له في

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٣٠

القتل خطأً ولا عمداً، اللّهم إلّا بالنسبة لقتال الصغير فإن ديته على وليه فإن دم المسلم لا يهدر.

ذلك، فقيلة القاتل إن الدية على العاقلة قيلة عليلة غير عاقلة، لأنها خلاف الكتاب والسنة العادلة «١» ولا سيما إذا كان القاتل موسراً والعاقلة معسرة فكيف تحمل

---

(١)). في العاقلة روايات ضعيفة الأسناد إضافة الى ضعف متونها، منها رواية سلمة بن كهيل قال: أتي أمير المؤمنين عليه السلام برجل قد قتل رجلًا خطأً فقال له علي عليه السلام من عشيرتك وقرابتك؟ فقال: مالي في هذه البلدة عشيرة ولا قرابة قال فقال: فمن أي البلد أنت؟ قال: أنا رجل من أهل موصل ولدت بها ولي بها قرابة وأهل بيت قال فسئل عنه أمير المؤمنين عليه السلام فلم يجد له في الكوفة قرابة ولا عشيرة قال: فكتب الى عامله على الموصل: أما بعد فإن فلان بن فلان وحليته كذا وكذا قتل رجلًا من المسلمين خطأً فذكر أنه رجل من الموصل وان له بها قرابة وأهل بيت وقد بعثت به إليك مع رسولي فلان وحليته كذا وكذا فإذا ورد عليك إن شاء اللّٰه تعالى وقرأت كتابي فافحص عن أمره وسل عن قرابته من المسلمين فإن كان من أهل الموصل ممن ولد بها وأصبت له بها قرابة من المسلمين فأجمعهم إليك ثم أنظر فإن كان منهم رجل يرثه له سهم في كتاب اللّٰه لا يحجبه عن ميراثه أحد من قرابته فالزمه الدية وخذه بها نجوماً في ثلاث سنين وإن لم يكن من قرابته أحد له سهم في الكتاب وكانوا قرابته سواء في النسب وكان له القرابة من قبل أبيه وأمه سواء ففض الدية على قرابته من قبل أمه من الرجال المكدرين المسلمين ثم اجعل على قرابته من قبل أبيه ثلثي الدية واجعل على قرابته من قبل أمه ثلث الدية وإن لم يكن له قرابة من قبل أبيه ففض الدية على قرابته من قبل أمه من الرجال المكدرين المسلمين ثم خذهم بها واستأدهم الدية في ثلاث سنين فإن لم يكن له قرابة من قبل أبيه ولا قرابة من قبل أمه ففض الدية على أهل الموصل ممن ولد بها ونشا ولا تدخلن فيهم غيرهم من أهل البلد ثم استأد ذلك منهم في ثلاث سنين في كل سنة نجماً حتى تستوفيه إن شاء اللّٰه تعالى وإن لم يكن لفلان بن فلان قرابة من أهل الموصل ولم يكن من أهلها وكان مبطلًا في دعواه فرده الي مع رسولي فلاناً فأنا وليه والمؤدي عنه ولا يبطل دم امرءٍ مسلم» (الوسائل كتاب الديات أبواب العاقلة ب ٢ ح ١).

ومنها مرسلة يونس بن عبد الرحمن عمن رواها عن أحدهما عليهما السلام أنه قال في الرجل إذا قتل رجلًا خطأً فمات قبل أن يخرج الى أولياء المقتول من الدية أن الدية على ورثته فان لم يكن له عاقلة فعلى الوالي من بيت المال (التهذيب ٢: ۴٩٣).

أقول: هذه الثانية تقرر الدية على ورثة القاتل إن مات بعد ما قتل، فلا تعني إلا أن الدية هي من ديونه المستثناة من تركته وهو يعارض الأولى، مع ما فيها من خلاف الضرورة.

وفي تفسير الفخر الرازي ١٠: ٢٣٣ روى المغيرة أن امرأة ضربت بطن امرأة أخرى فألقت جنيناً ميتاً فقضى رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله على عاقلة الضاربة بالعرة فقام حمل بن مالك فقال: كيف ندى من لا شرب ولا أكل ولا صاح ولا أستهل ومثل ذلك بطل، فقال النبي صلى الله عليه و آله هذا من سجع الجاهلية

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٣١

الدية على المعسر ولم يكن القتل إلّا من الموسر، ولم تكن العاقلة عليها مسؤولية الحفاظ على مرتكب الجريمة خطأً أو عمداً حتى يؤدب بتأدية الدية.

إذاً ف «الدية على العاقلة» لا أصل لها إسلامياً مهما اشتهرت بين الفقهاء، وهي كما عرفناها خلاف الآية.

وبصيغة أخرى «تحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى أهله» إيجاب للأمرين ولابد له من موجَب عليه ولم يذكر قبلُ إلّا القاتل فهو- إذاً- الواجب عليه، ثم الجناية خطأً أو عمداً صادرة منه فليست كفارتها إلّا عليه.

ثم «تحرير رقبة» لا خلاف أنه على القاتل ولا فارق في نسج الآية بينه وبين «دية مسلمة».

والعاقلة لم يصدر عنها قتل فكيف تؤخذ بما لم تفعل «ولا تزر وازرة وزر أخرى» «ولا تكسب كل نفس إلا عليها» و «لها ما كسبت وعليها ما أكتسبت» وعن النبي صلى الله عليه و آله قوله: «لا يؤخذ الرجل بجريرة أبيه ولا بجريرة أخيه. «١»

وعلى آية حال لا نجد مبرراً من الكتاب والسنة ومن العقل والفطرة يحمل الدية على العاقلة، فتحرير رقبة ودية مسلمة هما المفروضان على القاتل كضابطة عامة، ثم استثني موردان إثنان في نفس الإية:

١- فَإِنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ «٢»

«قوم عدو لكم» لا تعني مطلق العداء، وإنما هو عداء الكفر للإيمان لمكان «لكم» الشاملة لكافة المؤمنين ولا يعاديهم- ككل- إلّا الكفار.

ثم وليس الكفر فقط هنا موضوع الحكم، بل هو الكفر المعادي دون ميثاق، لذلك لا ينافي «وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق».

---

(١)). آيات الأحكام للجصاص ٢: ٢٧٢، وفيه وقال صلى الله عليه و آله لأبي رمثة وابنه أنه لا يجني عليك ولا تجني عليه

(٢)). سورة النساء ٤: ٩٢

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٣٢

وترى كيف تسقط الدية المسلمة إن كان القتيل المؤمن «من قوم عدو لكم»؟

ذلك لأن «قوم عدو لكم» هم الكفار، فأهل المؤمن القتيل هم إذاً من الكفار، «وهو مؤمن» يختص المؤمن منهم بالقتيل دون سواه، ولا يرث الكافر المؤمن من دية وسواها. «١»

فالمؤمن أياً كان في ذلك الزمان لابد وان له من قومه كفاراً قلوا أو كثروا، إذاً فتخصيص «مؤمن» «من قوم عدو لكم» بعدم الدية يخصصه بما كان أهله كلهم كفاراً، وإلا لتركت الدية كأصل إذ لم يكن في بداية الإسلام أي مؤمن إلا ومن قومه وأهله كفار في الأكثرية المطلقة من المؤمنين الأولين.

٢- «وَإِنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً» «٢»

«قوم» هنا ك «قومٍ» هناك هم الكافرون، ولكن الميثاق هو الذي يفضِّل أهل القتيل الكافرين على غير أهل الميثاق، فلتسلم ديته الى أهله الكافرين بحرمة الميثاق، وفي تقدم «دية مسلمة» هنا لمحة الى ثابت الدية لهؤلاء الكافرين على كفرهم حيث الميثاق يقرِّب أهله الى المؤمنين وكما النفاق، مهما خص بأحكام دنيوية.

فقد عنت «كان» فيهما المؤمنَ القتيل، والمرجع هو «مؤمناً خطأً» حيث الكلام بداية ونهاية منصبٌ على قتل مؤمن مؤمناً، ولم يفرق في الدية بين الأوسط والطرفين إلا لأن أهله كفار غير متعاهدين، وقد سوى في «دية مسلمة الى أهله» بين الأهل المؤمنين وأهل المعاهدة والميثاق هدنة أو ذمة من الكافرين، حيث الميثاق الإسلامي

---

(١)). الدر المنثور ٢: ١٩٤ عن أبي عياض قال: كان الرجل يجني فيسلم ثم يأتي قومه وهم مشركون فيقيم فتغزوهم جيوش النبي صلى الله عليه و آله فيُقتل الرجل فيمن يقتل فأنزلت هذه الآية «وإن كان من قوم عدوكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة» وليست له دية.
وفيه أخرج ابن المنذر عن جرير بن عبد اللَّه البجلي أن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: من أقام مع المشركين فقد برئت منه الذمة

(٢)). سورة النساء ٤: ٩٢

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٣٣

يشمل كل الخسائر ومنها الدم يبدل عنه بدية مسلمة الى أهله.

وقيد الإيمان في الرقبة يخرج غير المؤمن كافراً أو منافقاً، فإنه قيد قاصد يخص واجب التحرير بالمؤمن «١» وقد يشمل المسلم ولما يدخل الإيمان في قلبه لطليق الإيمان ولا يقابله إلّا الكفر والنفاق.

فتحرير رقبة مؤمنة ضابط ثابت في مثلثة الموارد، والدية ساقطة في الأوسط، ذلك:

«فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللهِ وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً» «٢»

أترى «لم يجد» تخص «تحرير رقبة»؟ وقد لا يجده ولا دية! وحذف المتعلَّق يُطلِق عدم الوجدان لهما!.

«لم يجد» تعني فيما عنت «تحرير رقبة» دون ريب، لأنه الآخر فيهما هنا تأخيراً قاصداً، ولا يكفي التنبيه ثابت الدية لأهل الميثاق لتقديمها على تحرير رقبة، فسواءٌ وجد الدية أم لم يجدها فصيام شهرين متتابعين لزام لمن لم يجد تحرير رقبة. «٣»

إذاً فواجدهما عليه تأدية كليهما، وواجد الدية دون تحرير رقبة يسلم الدية ويصوم شهرين متتابعين، وأما واجد التحرير دون الدية فعليه التحرير ولا دليل على أن الصوم بديل الدية، ومن ناحية الإعتبار بدلية الصيام عن التحرير بيّنة حيث الصيام تحرير للنفس الطائشة وغير المحتاطة حتى تستقيم على الصراط المستقيم، ولا يفيد

---

(١)). في التهذيب بإسناده عن الحسين بن سعيد عن رجاله عن أبي عبد اللَّه عليه السلام قال قال رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله: كل العتق يجوز له المولود إلا في كفارة القتل فإن اللَّه يقول: «فتحرير رقبة مؤمنة» يعني بذلك مقرة قد بلغت الحنث

(٢)). سورة النساء ٤: ٩٢

(٣)). نور الثقلين ١: ٥٣١ في الفقيه عن الزهري عن علي بن الحسين عليهما السلام حديث طويل يذكر فيه وجوه الصوم وفيه «وصيام شهرين متتابعين في قتل الخطإ لمن لم يجد العتق لقول اللَّه عز وجل» «فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين».

وفيه في عيون الأخبار في باب العلل التي ذكر الفضل بن شاذان أنه سمعها من الرضا عليه السلام فإن قال: فلم وجب في الكفارة على من لم يجد تحرير رقبة الصيام دون الحج والصلاة وغيرهما؟ قيل: لأن الصلاة والحج وساير الفرائض مانعة للإنسان من التقلب في أمر دنياه ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٣٤

أولياء القتيل شيئاً.

ذلك ولكن طليق «لم يجد» قد يُطلق واجب صيام شهرين لكلا الأمرين، فالأشبه أنه إن وجد رقبة ولم يجد الدية فعليه صيام شهرين إضافة تحرير رقبة.

وقد تلمح «توبة من اللّه» أن الصيام هنا بديل حق اللّه وهو التحرير دون حق الأهل وهو الدية، والتوبة هنا هي عن قتل الخطإ، لكي يحتاط المؤمن كل حائطة في القتل، ولأن بعض الخطإ إثم بتقصير مهما كان الآخر قصوراً.

وكيف «توبة من اللّه» وهي لابد أن تكون من العبد رجوعاً الى اللّه بعد إبتعاده عنه؟

والحل أن توبة العبد محفوفة بتوبتين من اللّه عليه، توبة منه عليه ليتوب حين يتحرى صالح التوبة: «ثم تاب اللّه عليهم ليتوبوا» ثم توبة منه إلى اللّه «توبوا الى اللّه توبة نصوحاً» ومن توبة من اللّه عليه قبولًا لتوبة إليه: «ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى».

فقاتل المؤمن خطأً- ولا سيما الخطأ المقصر- بعيد عن رحمة اللّه إلّا أن يتوب إلى اللّه بدية مسلمة الى أهل القتيل «وتحرير رقبة مؤمنة» والثاني هو حق اللّه، وبديلة لمن لم يجده، «صيام شهرين متتابعين».

وهل يشترط في تتابع شهري الصيام تتابع الأيام؟ «شهرين متتابعين» ليست قضيتها إلّا تتابعهما، دون تتابع الأيام الستين ككلٍّ، وقد يكفي في تتابعهما تلاحقهما دون فصل أن يصوم اليوم الثلاثين من الأول والأوّل من الآخر حتى يتتابعا، مع التلاحق عرفياً في أيام كل منهما.

ذلك، ولكن قضية شهرين هي ستون يوماً سواء أكانت بداية صومهما أول الشهر أم يوماً آخر، فقضية تلاحق الستين يوماً على أي الحالين عدم الفصل بين هذه الأيام وإن كان بيوم واحد، والرواية القائلة بسماح الفصل في ثاني الشهرين بعد تتابعهما تكميلًا لأيام الأول وصوماً لليوم الأول من الثاني، إنما قد لا تصدق إلا فيما كانت بداية الصيام في أول الشهر، ولكنه إذا فصل بيوم أو أيام في ثاني الشهرين لم يصدق هناك «شهرين متتابعين».

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٣٥

ذلك وفي بعض الروايات أن ذلك السماح ليس إلّا للمعذور، وهذا هو الأليق تأويلًا لترك التتابع أحياناً. «١»

وقضية فرض الصيام شهرين متتابعين أن الواجب الأول هو التتابع في الستين يوماً ثم قدر ما يستطيع التتابع، ثم قدر ما يمكنه الصيام وإن يوماً واحداً ثم ليس عليه شيءٌ.

«وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فِيها وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذاباً عَظِيماً» «٢»

هنا القواعد الأربع من خلود الجحيم وغضب اللّه ولعنته وعذابه الأليم، موجَّهة الى «من يقتل مؤمناً متعمداً» مما يحرضنا على مزيد التأمل في «متعمداً» لنرى ما هو المغزى منها الذي جعل أغلظ النكال على مرتكبه؟ وكأنه من حَمَلَة كشاغل الضلالة؟!.

ظاهر «متعمداً» حالا ل «من يقتل مؤمناً» أن يقتله لإيمانه، عامداً عانداً للإيمان، كما «ولا تقتلوا أنفسكم إن اللّه كان بكم رحيماً. ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليه ناراً وكان ذلك على اللّه يسيراً». «٣»

لقد كان يكفي واحد من هذه الأربعة للحكم بكفر هذا القاتل، ف «إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً». «۴» وجمع بين هذه للمنافقين والمشركين: «ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة

---

(١)). نور الثقلين ١: ٥٣٣ في الكافي بسند متصل عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قطع صوم كفارة اليمين وكفارة الظهار وكفارة القتل؟ فقال: إن كان على رجل صيام شهرين متتابعين فأفطر أو مرض في الشهر الأول فإن عليه أن يعيد الصيام وإن صام الشهر الأول وصام من الشهر الثاني شيئاً ثم عرض له ما له فيه عذر فإن عليه أن يقضي

(٢)). سورة النساء ۴: ٩٣

(٣)). سورة النساء ۴: ٣٠

(۴)). سورة الأحزاب ٣٣: ۶۴

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٣۶

السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً». «١» ثم ولا نجد من جمعت له هذه الأربعة إلا «من قتل مؤمناً متعمداً» فهل هو بعد مؤمن وقد وُعد ما لم يوعد أحد من الكفار؟.

إنه- دون ريب- من يقتل مؤمناً متعمداً لإيمانه «٢» وذلك هو قتل للإيمان وهو أنحس دركات الكفر، فإن كان القاتل كافراً فقد أصبح أكفر مما كان، ولو كان مؤمناً فقد ارتد الى أنحس دركات الكفر فحقٌّ عليه ذلك الجزاء بمربعه، ثم ولا توبة له «٣» حيث الوعد هنا ثابت لا مرد له بتوبة أو سواها.

والروايات الوارة بجواز توبة القاتل عمداً قد تحمل على غير العامد لإيمانه «۴»

---

(١)). سورة الفتح ۴٨: ۶

(٢)). نور الثقلين ١: ٥٣٣ عن الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام سئل عن المؤمن يقتل المؤمن متعمداًأله توبة؟ فقال: إن كان قتله لإيمانه فلا توبة له وإن كان قتله لغضب أو بسبب شيءٍ من أمر الدنيا فإن توبته أن يقاد منه وإن لم يكن علم به انطلق الى أولياء المقتول فأقر عندهم بقتل صاحبهم فإن عفوا عنه فلم يقتلوه أعطاهم الدية وأعتق نسمة وصام شهرين متتابعين وأطعم ستين مسكيناً توبة الى الله عز وجل.

وفيه عن معاني الأخبار عن سماعة قال سألته عن قول الله عز وجل «ومن يقتل مؤمناً متعمداً ..» قال: من قتل مؤمناً على دينه فذلك المتعمد الذي قال الله في كتابه «وأعد له عذاباً عظيماً» قلت: فالرجل يقع بين الرجل وبينه شيء فيضربه بالسيف فيقتله؟ قال: ليس ذلك المتعمد الذي قال الله عز وجل، وفي الكافي بسند متصل عن سماعة عن بي عبد الله عليه السلام مثله

(٣)). الدر المنثور ٢: ١٩٧ عن رسول الله صلى الله عليه و آله قال: «كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً» وفيه عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه و آله: «نازلت ربي في قاتل المؤمن في أن يجعل له توبة فأبى علي» وفيه عن ابن عباس أن رجلًا أتاه فقال ارأيت رجلًا قتل رجلًا متعمداً؟ فقال: «جزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً» قال لقد نزلت في آخر ما نزل ما نسخها شيء حتى قبض رسول الله صلى الله عليه و آله وما نزل وحي بعد

رسول اللّه صلى الله عليه و آله، قال: ارأيت ان تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى؟ قال: وأنّى له بالتوبة وقد سمعت رسول اللّه صلى الله عليه و آله يقول: ثكلته أمه

(٤)). المصدر عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و آله في قوله: «ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاءه جهنم» قال: هو جزاءه إن جازاه، وفيه أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس قال قتل بالمدينة قتيل على عهد النبي صلى الله عليه و آله لم يعلم من قتله فصعد النبي صلى الله عليه و آله المنبر فقال: «يا أيها الناس قتل قتيل وأنا فيكم ولا نعلم من قتله ولو اجتمع أهل السماء والأرض على قتل امرىء مسلم لعذبهم اللّه إلا أن يفعل ما يشاء» أقول: «ما يشاء» هنا سناد الى قومه تعالى: «إن اللّه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء» وفي نور الثقلين ١: ٥٣٤ عن معاني الأخبار عن أبي عبد اللّه عليه السلام في الآية قال: إن جازاه. ثم أقول قد تعني روايات عدم قبول توبة القاتل العامد على توفيقه للتوبة، كما في الكافي عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً وقال: لا يوفق قاتل المؤمن متعمداً للتوبة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٣٧

ولكن القاتل لإيمانه ليس أنحس من المشرك والمرتد وقد تقبل توبتهما، مهما لم تقبل للمرتد عن فطرة في الدنيا.

وقد نستلهم من «جزاءه» إمكانية العفو عنه إن تاب فإن لكل عصيان جزاءً أياً كان ولا ينافيه العفو بتوبة أماهيه من مكفرات، ثم «ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء» قد تشمله، وكذلك «الذين لا يدعون مع اللّه إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم اللّه إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق إثاماً. يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً. إلا من تاب وآمن وعمل عملًا صالحاً ..». «١»

فقتل المؤمن بين خطإ وعمد ولكلٍّ مصاديق عدة، الأخف منها الخطأ الذي لا قصد فيه ولا إرادة كالقتل حالة النوم والغشية، والأثقل منها الأرذل قتل المؤمن لإيمانه، وبينهما متوسطات كلها تخلُّفات عن شرعة اللّه مهما كانت دركات أخفها أن يقتل مؤمناً ظناً أنه كافر دونما تحرٍّ لائق.

و «ما كان لمؤمن» تسلب الايمان عن قاتل المؤمن متعمداً سواء أكان لإيمانه فأنحس أم لأمر آخر فنحس لا يلائم الإيمان، ومربع التهديد ليس إلّا على المتعمد قتل المؤمن لإيمانه.

ثم وقتل المؤمن عمداً لا لإيمانه هو من أكبر الكبائر بعد ما كان لإيمانه ف «من أعان في قتل مسلم بشطر كلمة يلقى اللّه يوم يلقاه مكتوب على جبهته آيس من رحمة اللّه. «٢»

---

(١)). سورة الفرقان ٢٥: ٦٩

(٢)). الدر المنثور ٢: ١٩٧- أخرج ابن المنذر عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: ... وأخرجه ابن عدي والبيهقي في البعث عن ابن عمر

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٣٨

ثم وما هو حد القاتل مؤمناً متعمداً لا لإيمانه؟ إنه القصاص في العمد بأسره لإيمانه أم لا لإيمانه حيث «كتب عليكم القصاص في القتلى» خرج قتل الخطإ وبقي الباقي تحت العموم.

ولأن القتل بكل أنواعه محظور في شرعة اللّه كأصل أصيل في حرمة الدماء إلّا ما خرج بالدليل، لذلك، وألّا يقع المؤمن في محظور قتل الخطأ، نؤمر بالتبين:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً» «١»

هنا عرض آخر لقضية الإيمان وهي التبيُّن في سبيل اللّه ككلٍّ، مهما كان المورد هنا سبيل اللّه المضروب فيها وهي القتال فيها، ولكنه كمصداق من مصاديقها، فلا يختص التبينَ بنفسه، فإنما «سبيل اللّه» المسلوك فيها، لزامها التبين أية سبيل لله وفي أية مجالات من مجالاتها.

وقد يعم الضرب في سبيل اللّه كل ضروبها بكل ضرب فيها، حيث الضرب هو الجدُّ الجادُّ دون اختصاص بالضرب في الأرض الخاص بالسفر، كما ولا تختص سبيل اللّه بالجهاد، فقد تعني «إذا ضربتم في سبيل اللّه» كل جد وإتجاه جاد في كل سبل اللّه دون إختصاص للضرب بضرب خاص ولا إختصاص سبيل اللّه بسبيل خاص.

وقد جاء «الضرب في» على ضربين، ضرب للقتال وضرب للسفر وكما تقابلا في «يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزَّىً لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ..». «٢»

وتفارقا في «وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن

---

(١)). سورة النساء ٤: ٩٤

(٢)). سورة النساء ٤: ١٥٦

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٣٩

خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ..». «١» و «إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت ..». «٢»

والجامع بين الضربين هو العمل الجادُّ فيما يقصد وهو هنا «سبيل اللّه» فسواءٌ أكان ضرباً علمياً- عقيدياً- إقتصادياً- سياسياً- أم حربياً أو أي ضرب من ضروب الضرب في سبيل اللّه.

و «سبيل اللّه» لابد فيها من الضرب المناسب لها تكريساً للطاقات المناسبة لها حتى يُسلك فيها بفلاح وإفلاح.

والتبين إسلامياً هو الذي يرتكن على حجة بينة، وقتل النفس الذي هو أخطر الأمور لابد وأن يكون على بينة، فما كان إحتمال حرمة النفس قائمة لم يجز قتلها.

«ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً» وملقي السلام بطبيعة الحال هو المعروف كفره أو المظنون، فحين يلقي السلام فسلامه حجة لإيمانه وإن لم يتأكد، أم بأقل تقدير لسلامه عليكم حيث يعني وقف الحرب وترك القتال، فإن السلام يعم الإسلام والسِّلم «٣» ف «لست مؤمناً» سلب لإيمانه باللّه كما هو سلب لإيمانه إياكم عن الحرب: لست مؤمناً باللّه، ولست مؤمناً إيانا.

ذلك وإن كانت الروايات المتواترة تختص السلام هنا بسلام الإسلام فإنه أسلم السلام وأحقه بالتصديق وترك الحرب، فمن ثم سلام السَّلم: «وإن جنحوا للسَّلم

---

(١)). سورة النساء ٤: ١٠١

(٢)). سورة المآئدة ٥: ١٠٦

(٣)). الدر المنثور ٢: ١٩٩ عن ابن عباس قال لحق ناس من المسلمين رجلًا معه غنيمة له فقال: السلام عليكم فقتلوه وأخذوا غنيمة فنزلت هذه الآية.

وفيه عن ابن عباس قال مر رجل من بني سليم بنفر من أصحاب النبي صلى الله عليه و آله وهو يسوق غنماً له فسلم عليهم فقالوا ما سلم علينا إلا ليتعوذ منا فعمدوا له فقتلوه وأتوا بغنمه الى النبي صلى الله عليه و آله فنزلت هذه الآية

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٤٠

فأجنح لها وتوكل على اللّه». «١»- «فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السَّلم فما جعل اللّه لكم عليهم سبيلًا». «٢»

وقد ندد الرسول صلى الله عليه و آله أشد تنديد بالذين لم يقبلوا شهادة الإسلام ممن شهدها بلسانه قائلًا «أقتلته بعد أن قال إني مسلم؟ ولما قيل له: إنما قالها متعوذاً، قال: أفلا شققت عن قلبه؟ قال: لم يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله؟ قال: لتعلم أصادق هو أو كاذب، قال:

وكنت عالم ذلك يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: إنما كان يعبر بلسانه إنما كان يعبر بلسانه ..». «٣»

---

(١)

). سورة الأنفال ٨: ٦١

(٢)). سورة النساء ٤: ٩٠

(٣)). الدر المنثور ٢: ٢٠١- أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن الحسن أن ناساً من أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه و آله ذهبوا يتطرقون فلقوا ناساً من العدو فحملوا عليهم فهزموهم فشد رجل منهم فتبعه رجل يريد متاعه فلما غشية بالسنان قال إني مسلم فأوجره السنان فقتله فأخذ متيعة فرفع ذلك الى رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله للقاتل: أقتلته بعد أن قال إني مسلم؟ قال يا رسول اللّه ... قال: فلما لبث القاتل أن مات فحفر له أصحابه فأصبح وقد وضعته الأرض ثم عادوا فحفروا له فأصبح وقد وضعته الأرض الى جنب قبره قال الحسن فلا أدري كم قال أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه و آله دفناه مرتين أو ثلاثة كل ذلك لا تقبله الأرض فلما رأينا الأرض لا تقبله أخذنا برجليه بزيادة فقال النبي صلى الله عليه و آله ان الأرض أبت أن تقبله فألقوه في غار من الغيران قال معمرو قال بعضهم ان الأرض تقبل من هو أشد منه ولكن اللّه جعله لكم عبرة.

أقول: وقد أخرج في الدر المنثور جماعة وفيرة عن عدة من أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه و آله اخطأوا ذلك الخطأ فنددهم صلى الله عليه و آله ونزلت هذه الآية، ولا جدوى لذكر اسماءِهم.

ومن طريق أصحابنا روى القمي في تفسيره حول الآية إنها نزلت لما رجع رسول اللّه صلى الله عليه و آله من غزوة خيبر وبعث أسامة بن زيد في خيل الى بعض قرى اليهود في ناحية فدك ليدعوهم الى الإسلام وكان رجل من اليهود يقال له مرداس بن نهيك الفدكي في بعض القرى فلما أحس بخيل رسول اللّه صلى الله عليه و آله جمع أهله وماله وصار في ناحية الجبل فأقبل يقول: أشهد أن لا إله إلا اللّه وأشهد أن محمداً رسول اللّه صلى الله عليه و آله فمر به أسامة بن زيد فطعنه فقتله فلما رجع الى رسول اللّه أخبره بذلك فقال له رسول اللّه صلى الله عليه و آله: قتلت رجلًا شهد أن لا إله إلا اللّه واني رسول اللّه؟ فقال يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله إنما قالها تعوذاً من القتل؟ فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله أفلا شققت الغطا عن قلبه، لا ما قال بلسانه قبلت ولا ما كان في نفسه علمت

فحلف أسامة بعد ذلك أن لا يقاتل أحداً شهد أن لا إله إلا اللّٰه وان محمداً رسول اللّٰه فتخلف عن أمير المؤمنين عليه السلام في حروبة وأنزل اللّٰه في ذلك: «ولا تقولوا لمن القي إليكم السلام لست مؤمناً ..».

وفي الدر المنثور ٢: ١٩٩ عن عبد اللّٰه بن أبي حدرد الأسلمي قال بعثنا رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله إلى أضم فخرجت في نفر من المسلمين فيهم الحرث بن ربعى أبو قتادة ومحلم بن جثامة بن قيس الليثي فخرجنا معه حتى إذا كنا ببطن أضم مر بنا عامر بن الأضبط الأشجعي على قعود له معه متبع له وقطب من لبن فلما مر بنا سلم علينا بتحية الإسلام فأمسكنا عنه وحمل عليه محلم بن جثامة لشيءٍ كان بينه فقتله وأخذ بعيرة ومتاعه فلما قدمنا على رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله وأخبرناه الخبر نزل فينا القرآن «يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل اللّٰه فتبينوا ..» وفيه عن أبي حدرد الأسلمي نحوه بزيادة: فقال النبي صلى الله عليه و آله: أقتلته بعد ما قال آمنت باللّٰه؟ فنزل القرآن

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٤١

«تبتغون عرض الحياة الدنيا» في نكران الإيمان بأي معنى كان ممن ألقى إليكم السلام، ولا يختص ذلك الإبتغاء البغي محظورَة هذه القولة بنفسه، فإنما هو أنحس دركات الباعث لهذه القولة، ومنها كأخفها عدم الإطمئنان بصدقة، وحتى إن كان عالم ذلك الكذب ولكنه يعامل بما يقول كما قال الرسول صلى الله عليه و آله: «إنما كان يعبر بلسانه»! ثم وحين تبتغون عرض الحياة الدنيا «فعند اللّٰه مغانم كثيرة» في الأولى والأخرى، «وما عند اللّٰه خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون».

ومن ثم «كذلك كنتم من قبل»: كذلك البعيد البعيد الذي أنتم عاملون الآن ابتغاء الحياة الدنيا في جاهليتكم القريبة الغريبة من تسرُّع ورعونة في الغنيمة «فمَّن اللّٰه عليكم» ابتغاء رضوان اللّٰه في حرب وسواها.

و «كذلك» الذي تجدونه ممن ألقى إليكم السلام «كنتم من قبل»- «ولما يدخل الإيمان في قلوبكم» «فمن اللّٰه عليكم» أن تقبَّل منكم هذا الإسلام الخاوي عن الإيمان، بل وإسلام النفاق حيث أجري فيه بمظاهر الإسلام ظواهر أحكام الإسلام.

و «كذلك كنتم من قبل» تخفون إسلامكم عمن تعاشرونهم من الكفار طيلة العهد المكي، [1] فلعل الذي ألقى إليكم السلام كان مسلماً من ذي قبل يكتم إيمانه- كما كنتم

---

(1)). الدر المنثور عن ابن عباس قال بعث رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله سرية فيها المقداد بن الأسود فلما أتواالقوم وجدوهم قد تفرقوا وبقي رجل له مال كثير لم يبرح فقال: أشهد أن لا إله إلا اللّٰه فأهوى إليه المقداد فقتله فقال له رجل من أصحابه أقتلت رجلًا شهدن لا إله إلا اللّٰه واللّٰه لأذكرَّن ذلك للنبي صلى الله عليه و آله فلما قدموا على رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله قالوا يا رسول اللّٰه ان رجلًا شهد أن لا إله إلا اللّٰه فقتله المقداد فقال: أدعوا لي المقداد فقال يا مقداد أقتلت رجلًا يقول لا إله إلا اللّٰه فكيف لك بلا إله إلا اللّٰه غداً فأنزل اللّٰه هذه الآية الى قوله: «كذلك كنتم من قبل» قال فقال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله للمقداد: كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار فأظهر إيمانه فقتلته وكذلك كنت تخفي إيمانك بمكة قبل.

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان الرجل يتكلم بالإسلام ويؤمن باللّٰه والرسول ويكون في قومه فإذا جاءت سرية رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله أخبر بها حيّه يعني قومه وأقام الرجل لا يخاف المؤمنين من أجل أنه على دينهم حتى يلقاهم فيلقي إليهم السلام فيقولون: لست مؤمناً وقد ألقى السلام فيقتلونه فقال اللّٰه تعالى: «.. يعني تقتلونه إرادة أن يحل لكم ماله الذي وجدتم معه وذلك عرض الحياة الدنيا فإن عندي مغانم كثيرة والتمسوا من فضل اللّٰه ... وفيه أخرج ابن سعد وابن أبي شيبة وأحمد والنسائي عن

عقبة بن مالك الليثي قال بعث رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله سرية فغارت على قوم فأتبعه رجل من السرية شاهراً فقال الشاذ من القوم إني مسلم فلم ينظر فيما قال فضربه فقتله فنمى الحديث الى رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله فقال فيه قولًا شديداً فبلغ القاتل فبينا رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله يخطب إذ قال القاتل: واللّٰه ما قال الذي قال إلا تعوذاً من القتل فأعرض رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله عنه وعمن قِبلَه من الناس وأخذ في خطبته ثم قال أيضاً يا رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله ما قال الذي قال الا تعوذاً من القتل فأعرض عنه وعمن قبله من الناس وأخذ في خطبته ثم لم يصبر فقال الثالثة واللّٰه يا رسول اللّٰه ما قال الذي قال الا تعوذاً من القتل فأقبل رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله تعرف المساءة في وجهه فقال: إن اللّٰه أبى علي لمن قتل مؤمناً ثلاث مرار.

وفيه أخرج الشافعي وابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والبيهقي في الأسماء والصفات عن المقداد بن الأسود قال قلت يا رسول اللّٰه ارأيت إن اختلفت أنا ورجل من المشركين بضربتين فقطع يدي، قال: إن ضربته بعد أن قالها فهو مثلك قبل أن تقتله وأنت مثله قبل أن يقولها، وفيه أخرج الطبراني عن جندب البجلي قال إني لعند رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله حين جاء بشير من سريته فأخبره بالنصر الذي نصر اللّٰه سريته وبفتح اللّٰه الذي فتح لهم قال يا رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله بينا نحن نطلب القوم وقد هزمهم اللّٰه تعالى إذ لحقت رجلًا بالسيف فلما خشي أن السيف واقعه وهو يسعى ويقول إني مسلم إني مسلم قال فقتله؟ فقال يا رسول اللّٰه إنما تعوذ فقال: فهلا شققت عن قلبه فنظرت أصادق هو كاذب فقال: لو شققت عن قلبه ما كان علمي هل قلبه الا مضغة من لحم قال صلى الله عليه و آله: لا ما في قلبه تعلم ولا لسانه صدقت قال يا رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله استغفر لي، قال: لا أستغفر لك فمات ذلك الرجل فدفنوه فأصبح على وجه الأرض ثم دفنوه فأصبح على وجه الأرض ثلاث مرات فلما رأوا ذلك أستحيوا وخزوا مما لقي فاحتملوه فألقوه في شعب من تلك الشعاب

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٤٢

- فلما واجهكم في الحرب ألقى إليكم السلام.

و «كذلك كنتم من قبل» إسلامكم، انكم كنتم تلقون السلام على عدوكم حين تسالمونه، فيقبل منكم كما تقبلون منه دونما تكذيب «فمن اللّٰه عليكم» باستمرارية هذه السنة الطاهرة بتكملة إسلامية.

«كذلك» في هذه الزوايا الأربع «كنتم من قبل فمن اللّٰه عليكم» إقراراً وإستمراراً لصالح الغابر، وتصفية للحاضر، إذاً:

«فتبينوا»- «في سبيل اللّٰه» ثم امضوا حيث تؤمرون دونما تسرُّع وإستعجال، «إن اللّٰه كان بما تعملون خبيراً»: سواءً ما تعملون من قبل، أم حالياً وفيما بعد، فعليكم

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٤٣

إخلاص الطويات والنيات للّٰهوفي سبيل اللّٰه.

فلقد كان الدرس الحاضر تكملة للدرس الغابر: «وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأً» فمهما لم يكن القاتل خطأً محظوراً خارجاً عن أصل الإيمان، ولكنه خارج عن كماله، حيث إن صالح الإيمان لزامه التبين في كل ضرب من ضروب الحركات الإيمانية، خارجة عن إفراط المفرّطين وتفريط المفرِطين، جامعة بين الشعار الإسلامي وشعوره، فلا شعار ما لم يكن شعور، ولا شعور تاماً ما لم يكن شعار، بل هو أمر بين أمرين، ووسط بين الجانبين، تبيُّناً صالحاً؛ سليماً عن عَرَض الحياة الدنيا، وغرضها ومرضها.

أجل «فتبينوا» بصالحة الطرق الشرعية في كل سلب وإيجاب، دونما إعتماد على إحتمال أو ظن، بل ولا على علم أجرد من سائر التبين.

ذلك وكما «إن جاءكم فاسق بنبأٍ فتبينوا ..». «١» فتبينُّ الحق هو الأصل الأصيل في شرعة القرآن في كل شارد ووارد، وقد ضمن الله لنا كل إراءَة آفاقية وأنفسية حتى يتبين لنا الحق «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيءٍ شهيد». «٢»

«لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً» «٣»

نرى في هذه الحلقة التربوية مواجهة خاصة لحالة خاصة في الحقل الإسلامي، يعالجها القرآن بتوجيه وجيه وتشويق وتشديد، وكما ورد في أسباب النزول، ولكن النص ليس ليختص بزمن كما هو الدأب الدائب في القرآن كله فإنه طليق من قيود

---

(١)). سورة الحجرات ٤٩: ٦

(٢)). سورة فصّلت ٤١: ٥٣

(٣)). سورة النساء ٤: ٩٥

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٤٤

الزمن الخاص ومن ملابسات البيئة الخاصة، لأنه هدىً للعالمين أجمعين طول الزمان وعرض المكان.

فكما أنه لا يستوى الضارب في سبيل اللَّه، المتبين، كذلك «لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل اللَّه بأموالهم وأنفسهم».

وهنا «المجاهدون في سبيل اللَّه» طليقة بالنسبة لكل جهاد في أية سبيل من سبل اللَّه، فكما «بأنفسهم» تعني التضحية بالنفس في سبيل اللَّه، كذلك هيه بكل محاولة نفسية ثقافية أو عقيدية أماهيه، بألسنة أو أقلام من هؤلاء الكرام،. هنا نفهم المعني من «مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء» فإن مدادهم هكذا ومددهم هكذا هنالك معنى صالح لدماء الشهداء.

ولنأخذ هنا مثالًا كأبرزه، ماثلًا بين أيدينا طول القرون الإسلامية، هو القتال في سبيل اللَّه والمؤمنون في ذلك الحقل ضروب عدة.

منهم المجاهد في سبيل اللَّه بنفسه وماله وأولئك هم المفضلون بصورة طليقة.

ومنهم المخطئون في هذه اللسبل، جهاداً بمال دون نفس أو بنفس دون مال، أو جهاداً بهما وخطأً في قتل المحارب الذي ألقى السلام إسلاماً أو سَلَماً، أم خطأً في كل من الجهادين بنفس أو بمال.

ومنهم القاعدون، وهم بين معذور وهو ناوٍ للجهاد بكامله، وغير معذور لا يضر بقعوده صف المجاهدين، أم هو مضر.

وهنا اللاإستواء بين غير أولي الضرر والمجاهدين، لا يعني الإستواء بينهم وبين أولي الضرر، لا سيما وأن الضرر يعني مع العذر نفس الضرر، أن يضر بقعوده صف الجهاد.

فقد يكون القاعد عن الجهاد معذوراً عن قصور ولا يضر بقعوده صف الجهاد فهنا اللّاإستواء «وكلّا وعد اللَّه الحسنى» وبأحرى غير المعذور ولا المضر المنطبق عليه تماماً: «غير أولي الضرر» بمعنييه.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٤٥

وأما إذا كان من أولى الضرر بالجهاد وهو غير معذور، أم هو معذور عن تقصير، فغير موعود بالحسنى حتى يدخل في حقل اللّايستوي.

فللمجاهدين في سبيل اللّه بأموالهم وأنفسهم درجة على المجاهدين بأحدهما، ولهؤلاء درجة على المعذورين القاصرين الذين لا يضرون بقعودهم، ولهم درجة عليهم إن كانوا مقصرين في عذرهم، ولهم كذلك درجة على القاعدين الذين يُقعدون غيرهم كما يَقعدون وهم غير معذورين.

فكلما كانت الطاقة المستطاعة مبذولة في سبيل اللّه كانت الدرجة أعلى، وإن كان قد يسوى بين المعذور القاصر غير المضر الذي يتحسر على عذره وقصوره حيث يؤتى أجره بنية ما نواه بفضل اللّه.

وقد نزلت «غير أولي الضرر» بشأن مَن دونهم وهم غير المعذورين الذين لا يضرون بقعودهم حيث تخرجهم عن الإستواء شرطَ عدم الضرر، إذ تعني «الضرر» كلا العفو والضرر، فإن عناية خصوص العذر تقتضي «أولي العذر» فالمعذورون خارجون عن الّلاإستواء.

إذاً فالقعود عن الجهاد بعذر لا يسقط عن القاعد ثواب الجهاد في سبيل اللّه، ف «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىءٍ ما نوى» ولكنه قد لا يجعله مع المجاهد على حد سواءٍ.

و «أولى الضرر» صنفان إثنان، ضرر يعذر القاعد وهو المرض وما أشبه، ثم ضرر بقعوده عن الجهاد حيث يضر الصف الإسلامي، وبينهما غير ضرر ولا إضرار بقعوده، وهؤلاء الثلاث لا يستوون والمجاهدين في سبيل اللّه، كما لا يستون هم بين أنفسهم. «١»

---

(١)). الدر المنثور ٢: ٢٠٣- أخرج الترمذي وحسنه والنسائي وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في سننه من طريق مقسم عن ابن عباس أنه قال: «لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر» عن بدر والخارجون الى بدر، لما نزلت غزوة بدر قال عبد اللّه بن جحش وابن أم مكتوم إنا أعميان يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله فهل لنا رخصة فنزلت «لا يستوي القاعدون ..» فهؤلاء القاعدون غير أولي الضرر فضل اللّه المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً درجات منه على القاعدين غير أولي الضرر.

وفيه عن الفلتان بن عاصم قال: كنا عند النبي صلى الله عليه و آله فأنزل عليه- وكان إذا أنزل عليه دام بصره مفتوحة عيناه وفرغ سمعه وقلبه لما يأتيه من اللّه- قال: فكنا نعرف ذلك منه فقال للكاتب أكتب: لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل اللّه فقام الأعمى فقال: يا رسول اللّه ما ذنبنا فأنزل اللّه فقلنا للأعمى انه ينزل على النبي صلى الله عليه و آله فخاف ان يكون ينزل عليه شيءٌ في أمره فبقي قائماً يقول: أعوذ بغضب رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقال للكاتب أكتب: «غير أولي الضرر».

وفيه أخرج ابن ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس «لا يستوى ..» فسمع بذلك عبد اللّه ابن أم مكتوم الأعمى فأتى رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقال يا رسول اللّه قد أنزل اللّه ما قد علمت وأنا رجل ضرير البصر لا أستطيع الجهاد فهل لي من رخصة عند اللّه أن قعدت فقال له رسول اللّه صلى الله عليه و آله: ما أمرت في شأنك بشيءٍ وما أدري هل يكون ذلك ولأصحابك من رخصة فقال ابن أم مكتوم: اللهم إني أنشدك بصري فأنزل اللّه «لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر».

وفي نور الثقلين ١: ٥٣٥ في المجمع أن الآية نزلت في كعب بن مالك من بني سلمة ومرارة بن ربيع من بني عمرو بن عوف وهلال بن أمية من بني واقف تخلفوا عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله يوم تبوك وعذر اللّه أولي الضرر وهو عبد اللّه بن مكتوم، رواه أبو حمزة الثمالي في تفسيره.

وفيه عن عوالي اللتالي روى زيد بن ثابت أنه لم يكن في آية نفي المساوات بين المجاهدين والقاعدين استثنى غير أولي الضرر فجاء ابن أم مكتوم وكان أعمى وهو يبكي فقال يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله كيف لمن لا يستطيع الجهاد؟ فغشيته ثانية ثم أسرى عنه فقال: اقرأ «غير أولي الضرر» فألحقها والذي نفسي بيده لكأني أنظر الى ملحقها عند صدع في الكنف.

وفي تفسير الفخر الرازي ١١: ٨ قال عليه الصلاة والسلام: إذا مرض العبد قال الله عز وجل «أكتبوا لعبدي ما كان يعلمه في الصحة الى أن يبرأ» وقال صلى الله عليه و آله عند إنصرافه من بعض غزواته «لقد خلفتم بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً الا كانوا معكم أولئك حبسهم الضرر»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٤٦

ذلك ولكن «كلًا وعد اللَّه الحسنى» تخرج القاعدين أولي الإضرار بقعودهم، أم بإقعادهم مَن سواهم فإنهم متخلفون عن مسؤوليتهم فكيف وعدهم اللَّه الحسنى، كما وأن «الضرر» دون «الإضرار» قد يختصه بالعذر العاذر، أن لم يُقعده عن الجهاد في سبيل اللَّه بنفسه إلّا العذر النفسي من عمىً أو مرض أو هرم، ولا بمالِه إلّا العذر المالي، إذاً ف «أولي الضرر» هم ألوا الأعذار.

ومن القاعدين أولي الضرر هم الذين ظلوا في مكة بعد الهجرة مستضعفين لا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلًا، ومن غير أولي الضرر، غير المعذورين عن تلك الهجرة المجاهدة إحتفاظاً على أموالهم إذ لم يكن المشركون يسمحون لهم أن يحملوا معهم شيئاً، أم توفيراً لعناء الهجرة وما فيها من مخاطر ومحاظير إذ لم يكونوا يتركونهم

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٤٧

يهاجرون وكثيراً ما كانوا يؤذونهم أو يحبسون، فهم- إذاً- قعدوا عن الهجرة حافظين على إيمانهم مستسرين عن المشركين، حتى إذا وجدوا مجالات للتخلص عنهم كما في حروب، فكانوا يدخلون معهم ثم إذا وصلوا إلى المؤمنين يسلّمون ويظهرون إيمانهم.

فقعود أولي الضرر: العذر، لا محظور فيه أبداً، وقعود غير أولي الضرر فيما لا يجب النهوض فرضاً على الأعيان غير محظور ولا محبور، ثم قعود أولي الضرر والإضرار محظور محظور، والقادر على إزالة العذر ليس معذوراً في أيٍّ من الواجبات على المستطيعين.

ثم «الضرر» تعم كافة الأعذار الشرعية نفسية ومالية وحالية، فليس فرض الجهاد على كافة المؤمنين القادرين، وإنما قدر الواجب فيه أم والراجح، ف «ما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون». «١»

ولو أن «الضرر» لم تشمل عذر التفقة في الدين لغير النافرين، فالتفقه جهاد كما القتال جهاد، وهنا إنقسام في واجب الجهاد بين النفر للقتال والبقاء للتفقه، ولكلٍّ أهله.

وفي كل جهاد في سبيل اللَّه مجاهدون وقاعدون أولوا الضرر والعذر وهما سواءٌ، وقاعدون غير أولي الضرر فلا سواءَ وإن كان «كلا وعد اللَّه الحسنى» ثم قاعدون أولوا الإضرار خارجين عن الحسنى «وان ليس للإنسان إلا ما سعى».

ذلك وللمتطوعين في سبيل اللَّه السابقين إليها درجة على القاعدين غير المفروض نفرهم، فإن للسابق إلى تحقيق الأمر الكفائي سابق الفضل والرحمة، فلكلٍّ سعي ومحاولة في سبيل اللَّه قدر المستطاع عمليةً أم في النية والطوية، لكلٍّ درجة.

ولأن عدم المساوات بين المجاهدين والقاعدين قد يوحي بحرمانهم- على

---

(١)). سورة التّوبة ٩: ١٢٢

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٤٨

إيمانهم- من أجر، لذلك يدركهم النص: «وكلًا وعد اللَّه الحسنى» فما تفضيل المجاهدين عليهم بدرجة مما يحرمهم عن حسناهم الموعودة قدر إيمانهم.

فللإيمان وزنه وقيمته على أية حال، مع تفاضل أهله حسب الدرجات عقيدياً وعملياً، نهوضاً بقضايا الإيمان وتكاليفه.

وهنا نعرف تماماً أن القاعدين ليسوا هم من المنافقين، بل هم من المؤمنين غير السابقين الى الجهاد بفرضه الكفائي، والقرآن يستحثُّهم تلافياً لذلك التقصير غير المحظور، وتلافياً مع المجاهدين السابقين في صفوف السباق فيكونوا معهم من الرفاق.

وقد يقتسم المؤمنون وجاه أي جهاد في سبيل اللَّه الى قسمين إثنين كما في الآية ثم فيهم إنقسامات.

فالمجاهدون في سبيل اللَّه بين من يجاهد بنفسه دون ماله أو بماله دون نفسه أم يجاهد بنفسه وبماله فهم ثلاث.

ثم القاعدون الذين لا يجاهدون بنفس ولا بمال هم بين معذورين، عن تقصير أو عن قصور، وغيرهم، ثم هم بين مضر بقعوده وغير مضر.

فالقاعد المعذور القاصر الذي لا يضر بقعوده جبهات الحرب أو يضر، معذور، والمعذور المقصر وغير المعذور المضر، غير معذور، وغير المعذور وهو لا يضر بقعوده هو معذور.

وهنا «لا يستوى» هو بين «القاعدون غير أولي الضرر» بمعنييه، فإن غير المعذور عن الجهاد المضر بقعوده غير موعود بالحسنى، و «كلًّا وعد اللَّه الحسنى» يُخرج «غير أولي الضرر» غير المعذورين المضرين بقعودهم عن الجهاد.

«فضل اللَّه المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة» وهم- بطبيعة الحال- «غير أولي الضرر» منهم بمعنييه، فالقاعد عن الجهاد دون عذر ولا ضرر لا يستوي مع المجاهد، فللمجاهد عليه درجة بجهاده، ومهما لم يترك القاعد واجبه فقد

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٤٩

ترك الراجح في حقل الجهاد.

وقد تعني «درجة» جنسها الشامل لعديدها لمكان تنوين التنكير الّلامح الى عُظم «درجة».

«وكلًّا وعد اللَّه الحسنى» لمكان الإيمان ونية الجهاد، ولكن السابق إليه بفرضه الكفائي حسناه أحسن من حسنى القاعد غير السابق إليه.

«وفضل اللَّه المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً» تفسيراً ل «درجة» أنها ليست قليلة صغيرة، بل هي عظيمة، وهنا تتجاوب «درجة» مع «أجراً عظيماً» عُظماً في عُدّة وعِدّة، وقد بين في:

«دَرَجاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً» «١»

فقد عنت «درجة» «أجراً عظيماً» ثم عنت وإياها مثلث «درجات منه ومغفرة ورحمة» و «إن في الجنة درجات أعدها اللَّه للمجاهدين في سبيله وما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض». «٢»

أم تعني «درجات» لكلٍّ من القاعدين والمجاهدين فإن كلًّا درجات، وتفضيل المجاهدين- ككل- على القاعدين- ككل- هو بفضل الجهاد درجة، ولكن مع الوصف «لكلٍّ درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون». «٣» «هم درجات عند اللَّه واللَّه بصير بما يعملون». «٤» «نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم». «٥»

أفليس المجاهد في سبيل اللَّه بنفسه دون ماله، والمجاهد بماله دون نفسه، والمجاهد بماله ونفسه، ثم كلٌّ حسب درجات عمله ونيته، أليس هؤلآء أو ليس

---

(١) سورة النساء ٤: ٩٦

(٢)). في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: ...، وعن الأعمش عن عمرو ابن مرة عن أبي عبيدة عن عبد اللَّه بن مسعود قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: من رمى بسهم فله درجة فقال رجل: يا رسول اللَّه وما الدرجة؟ فقال إنها ليست بعتبة أمك، ما بين الدرجتين مائة عام

(٣)). سورة الأنعام ٦: ١٣٢

(٤)). سورة آل عمران ٣: ١٦٣

(٥)). سورة الأنعام ٦: ٨٣

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٥٠

القاعدون أولوا الضرر وغير أولي الضرر، ثم كلٌّ حسب نيته وطويته، درجات، إذاً فتفضيل المجاهدين في سبيل اللَّه على القاعدين بدرجة، لا يعارض «درجات منه ومغفرة ورحمة» فإنها تشمل درجة التقابل بينهما ودرجات كلٍّ بين قبيله «وكان اللَّه غفوراً» لمن يستحقه «رحيماً» بأهلها، ما لم يكن الغفر والرحمة خلاف العدل.

ثم الجهاد في قول فصل ليس ملابسة طارئة من ملابسات الفترة المدينة، لا سيما وأنه لا يختص بالقتال، فالمؤمن حياته جهاد في كل قضايا الإيمان الحركية.

أجل، وإنه ضرورة تصاحب ركب هذه الدعوة السامية على مدار الزمن الرسالي، وليس كما توهمه بعض أن الإسلام نشأ في عصر الإمبراطوريات فكان لابد له من حفظ التوازن من قوة قاهرة يهاب منها، كيف وقد أمر بقتال الكفار المشاغبين إزالة لكل فتنة: «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله للَّه»» «١» «ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكتبهم فينقلبوا خائبين» «٢»

فالحياة الإسلامية حياة جهادية سلباً للفتن وإيجاباً لصالح الحكم العالمي المحلِّق على المكلفين، وليس كما يتقوله بعض النسناس أن الإسلام دين السيف الشاهر التوسُّعي، إنما هو سيف للحفاظ على النواميس، وتثبيت المتاريس دفاعاً عنها وإصلاحاً للناس.

فالجهاد- إذاً- فطرة وجِبلَّة إسلامية وليست ملابسة وقتية ومصلحية طارئة، فلقد كان يعلم اللَّه أنه أمر يكرهه الطغات البغات، أصحاب الشهوات والسلطات الجهنمية.

ويعلم أن الشر متبجح لا يدع الخير ليوجد أو ينمو، فالخير نشوءه خطر على الشر فضلًا عن نموه، فلابد للخير من قوة دفاعية على طول الخط ليحافظ على نفسه وعلى أنفس المستضعفين وليكون الدين كله للَّه.

ولابد أن يكون للخير أسلحة مكافحة في كافة الحقول النضالية ثقافية وعقيدية

---

(١)). سورة الأنفال ٨: ٣٩

(٢)). سورة آل عمران ٣: ١٢٧

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٥١

وخُلقية وسياسية وإقتصادية وحربية: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو اللَّه وعدوكم». «١»

ذلك فضل الجهاد في سبيل اللَّه ويلحقه القعود عن عذر دون إضرار بصف المجاهدين، وأما القاعدون أولوا الأضرار، المتخلفون عن ركب الجهاد دونما أعذار ف:

«إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً» «٢»

إن المستضعف في الأرض في أيٍّ من حقوله ولا سيما العقيدي والعملي، ليس معذوراً في إستضعافه بشرف هذه الكلمة البراقة ما دامت حجة الحق له بالغة أم هي بمتناوله، فإنما يوزن بأبعاد إستضعافه وأسبابه.

فالمستضعف في دينه، الذي بإمكانه ترك بلد الإستضعاف الى غيره حفاظاً على إيمانه، أو الذي بإمكانه الإستقامة على إيمانه إستعانة فيه بطاقات ذاتية وغيرها، إنه لا يُعذر بتقصيره حيث ظلم نفسه بقعوده وتخاذله أمام المستكبرين، وليس هو من القاعدين أولي الضرر حتى يسوّى بالمجاهدين، ولا غير أولي الضرر ولا الإضرار حتى تشمله الحسنى، بل هو من القاعدين أولي الإضرار بأنفسهم وبالمجاهدين.

و «المستضعف» لغوياً هو من طُلب ضعيفاً أو وُجد ضعيفاً، وهذه شيمة المستكبرين انهم يرون مَن سواهم ضعفاء أمامهم فيستضعفونهم طلباً للضغط عليهم وحملهم على ما يرون.

ثم المستضعفون هم ثلاث فرق، فرقة أقوياء صامدون في إيمانهم وليست لهم عدَّة وعُدَّة في حساب المستكبرين، فلا يؤثر فيهم عامل الإستكبار وعملائه، بل

((١)). سورة الأنفال ٨: ٦٠

((٢)). سورة النساء ٤: ٩٧

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٥٢

ويزدادون أمامهم صموداً في إيمانهم، وهم الرعيل الأعلى من أهل الله من المقربين والسابقين وأصحاب اليمين، وقد تعنيهم: «ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم ائمة نجعلهم الوارثين ..».

فهم أولاء أقوياء وليسوا ضعفاء حتى يرجعوا أغوياء، فإنما طُلب ضعفهم من قبل المستكبرين، إذ ليس عندهم عِدَّة ولا عُدة من مظاهر القوة.

وتُقابلهم تماماً فرقة أخرى هم الضعفاء في إيمانهم تحصيلًا أو حاصلًا تقصيراً في مبادِئه وتطبيقاته، فيستضعفهم المستكبرون أن يجدوهم ضعفاء، فيجدوا فيهم آمالهم المضللة ضعفاً عليهم في ضلالات عقيدية وعملية أماهيه وهم المعنيون به «الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ..».

وثالثة هم عوان بينهما، تعنيهم «إلّا المستضعفين ..» فإنهم ضعفاء عن قصور مطلق أم خليط منه، ومن تقصير في إبقاءهم في جوِّ الإستكبار «فأولئك عسى الله يعفو عنهم» ولا سيما الآخرين منهم، حيث الأولون «الولدان» الذين يعيشون قصوراً طليقاً لا حِوَل عنه ليسوا من المذنبين، فالعفو عنهم عَفوي، خلاف العفو الأول فإنه رحمة زائدة في عساه وواقعه.

ف «ولا يقع إسم الإستضعاف على من بلغته الحجة فسمعتها أذنه ووعاها قلبه» «١» إنما هو الذي أسلم نفاقاً «٢» أو وفاقاً ولما يدخل الإيمان في قلبه بأسره.

لا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون ان كنتم مؤمنين

«وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ١٣٩ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَايُحِبُّ الظَّالِمِينَ ١٤٠ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ

(١)). نهج البلاغة عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام

(٢)). الدر المنثور ٢: ٢٠٦ عن ابن زيد في الآية قال لما بعث النبي صلى الله عليه و آله وظهر

الْكَافِرِينَا ١٤١ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَا ١٤٢ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَتَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ا ١٤٣ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ا ١٤٤ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ا ١٤٥ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَا ١٤٦ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَا ١٤٧ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ «١» وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» «٢»

«ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من اللَّه ما لا يرجون وكان اللَّه عليماً حكيماً». «٣» «فلا تهنوا وتَدعُوا الى السَّلْم وانتم الاعلون واللَّه معكم ولن يتركم اعمالكم». «٤»

والوهن هنا وهن العزم مهما جاء في أخرى لوهن العظم «رب إني وهن العظم مني ..». «٥» فإن الوهن في سبيل تحقيق الحق وابطال الباطل تهاون بالحق وتعاون في الباطل، فلا تهنوا في ملاحقة الكفار، ولا تحزنوا على ما يلحقكم من أذى الكفار «و» الحال أنكم «أنتم الاعلون» عليهم على أية حال «إن كنتم مؤمنين» باللَّه عاملين بشرائط الإيمان، فان «اللَّه معكم» ما دمتم انتم مع اللَّه «ولن يَتِركم اعمالكم»: لم

(١)). سورة آل عمران ٣: ١٣٩ و ١٤٠ و ١٤١ و ١٤٢ و ١٤٣ و ١٤٤ و ١٤٥ و ١٤٦ و ١٤٧ و ١٤٨

(٢)). سورة آل عمران ٣: ١٣٩

(٣)). سورة النساء ٤: ١٠٤

(٤)). سورة محمد صلى الله عليه و آله ٤٧: ٣٥

(٥)). سورة مريم ١٩: ٤

ينقصكم أجرها.

«لا تهنوا» تحلِّق على كل الحقول الحيوية الإيمانية، مهما نزلت بمناسبات خاصة، كما يروى أنه «أقبل خالد بن الوليد يريد أن يعلو عليهم الجبل فقال النبي صلى الله عليه و آله: اللّهم لا يعلون علينا فأنزل اللَّه الآية». «١» فقال النبي صلى الله عليه و آله: اللّهم لا قوة لنا إلَّا بك وليس أحد يعبدك بهذا البلد غير هؤلاء النفر فلا تهلكهم وثاب نفر من المسلمين رماة فصعدوا فرموا خيل المشركين حتى هزمهم اللَّه وعلا المسلمون الجبل فنزلت الآية. «٢»

هنا «لا تهنوا» تنزل بعد الهزيمة وبعد الأمر بالعزيمة بملاحقة المشركين، كما يروى أن النبي صلى الله عليه و آله لما رجع من أحد فلما دخل المدينة نزل عليه جبرئيل عليه السلام فقال يا محمد إن اللّه يأمرك أن تخرج في أثر القوم ولا يخرج معك إلّا من به جراحة فأمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله منادياً ينادي يا معشر المهاجرين والأنصار من كانت به جراحة فليخرج ومن لم يكن به جراحة فليقم فاقبلوا يضمدون جراحاتهم ويداوونها فأنزل اللّه على نبيه «ولا تهنوا في ابتغاء القوم ...» و «ان يمسسكم قوم ...» «فخرجوا على ما بهم من الألم والجراح». «٣»

هنا «وانتم الأعلون» تبشر بطليق العلو للكتلة المؤمنة على الكافرين، علواً في المواجهة في الحرب الحارة والباردة وفي كل عزة وسودد، ولكن شريطة كامل

---

(١)). الدر المنثور ٢: ٧٨- اخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس قال: اقبل ..

(٢)). المصدر اخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن جريح قال: انهزم اصحاب رسول اللّه صلى الله عليه و آله في شعب يوم احد فسألوا ما فعل النبي صلى الله عليه و آله وما فعل فلان فنعى بعضهم لبعض وتحدثوا ان النبي صلى الله عليه و آله قتل فكانوا في حزن فبينما هم كذلك علا خالد بن الوليد بخيل المشركين فوقهم على الجبل وكان على احد مجنبي المشركين وهم اسفل من الشعب فلما رأوا النبي صلى الله عليه و آله فرحوا النبي صلى الله عليه و آله: اللهم ..

وفي تفسير الفخر الرازي ٩: ١٥ روى ان ابا سفيان صعد الجبل يوم احد ثم قال: أين ابن ابي كبشة- يعني الرسول صلى الله عليه و آله- اين ابن ابي قحافة اين ابن الخطاب فقال عمر: هذا رسول اللّه صلى الله عليه و آله وهذا ابو بكر وها انا عمر فقال ابو سفيان: يوم بيوم والأيام دول والحرب سجال فقال عمر: لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار فقال: ان كان كما تزعمون فقد خبنا إذن وخسرنا

(٣)). نور الثقلين ١: ٣٩٥ عن تفسير القمي ان النبي صلى الله عليه و آله ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٥٥

الإيمان.

ثم «إن كنتم مؤمنين» تهديدة بعدم الإيمان الصالح لمن يهن ويحزن «وللّه العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يفقهون».

«أنتم الأعلون» منهاجاً وهّاجاً، وحجاباً مبلاجاً في شرعة اللّه، فمهما كان للباطل جولة فان للحق دولة، كما أن لكتلة الإيمان وراثة الأرض «والعاقبة للمتقين».

فلا مسُّ القرح ولا القتل يحق أن يوهن صميم عزم المؤمنين فان لهم إحدى الحسنيين:

«إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ» «١»

هنا أسباب تقتضي «وأنتم الأعلون»: ١- الإيمان: «إن كنتم مؤمنون» و ٢- «اللّه معكم ولن يترِكم اعمالكم» و ٣- «ان يمسسكم قرح فقد مس القوم مثله- إن تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون» ثم ٤- «وترجون من اللّه ما لا يرجون» ومن ثم ٥- «تلك الأيام نداولها بين الناس» ٦- وليعلم ... ٧- ويتخذ ... ٨- وليمحص. أركان ثمانية لذلك العلو العال، تحلِّق على كافة المعارك الدموية، وهذه- الثمان عددَ ابواب الجنة- تُختصر في «إحدى الحسنيين»: «قل هل تربصون بنا إلّا إحدى الحسنيين». «٢»

فأما «تلك الأيام» فدولة الحق فيها للناس ودولة الباطل للنسناس، ف «ما زال منذ خلق اللّه آدم دولة للّهودولة لإبليس فأين دولة اللّه أما هو إلا قائم واحد»، «٣» والدَول هو النقل والمداولة هي المناقلة، ومداولة الأيام بسرَّاءها وضراءها بين الناس هي مناقلتهما بينهم دون ان تستقر أيام السراء في ناس وأيام الضراء في ناسٍ آخرين.

ولماذا تلك المداولة في تلك الأيام وانما الدولة للحق دون الباطل؟.

---

(١)). سورة آل عمران ٣: ١٤٠

(٢)). سورة التوبة ٩: ٥٢

(٣)). نور الثقلين ١: ٣٩٥ في تفسير العياشي عن زرارة عن ابي عبد اللّه عليه السلام في قول اللّه: «تلكالأيام ..»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏٧، ص: ٣٥٦

«تلك الأيام» لا تقصد دولة الحق حتى تداول بين اهل الحق والباطل، وانما هي ايام السلطة الظاهرة والنصر زمنياً وليس روحياً اذ لا روح لغير المؤمنين فليست الدولة الظاهرة للباطل- وهي جولة- تعزيزاً لموقف الباطل وتقويضاً لظهر الحق، فانما هي لمصالح وحكم ربانية يقتضيها دور التكليف، بما يحصل من تقصيرات لأهل الحق.

«وليعلم اللّه» من العَلم: العلامة، دون العِلم: المعرفة، فاللّه يعلَم بمداولة هذه الأيام علامةَ النجاح والفلاح على الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء للحق، كما يعلم علامةَ السقوط على الظالمين «واللّه لا يحب الظالمين» فعند الإمتحان يكرم المرء أو يهان، وعند تقلب الأحوال يُعرف جواهر الرجال، وكما عرفت يوم أحد وأيام أمثاله.

والواو عطفت على محذوف معروف من السياق، ومنه ان هزيمة أهل الحق في الحق ليست إلَّا لهزيمتهم عن الحق كما يرام كما في غزوة أحد، وما إلى هذه من هزائم هي من خلفيات الهزائم عن عزائم الإيمان.

فمداولة «تلك الأيام» بتعاقب الشدة والرخاء إنها محكٌ لا يخطىء، وميزان لا يتأرجح، وليست الشدة أشد من الرخاء، فكم من نفوس أبيَّة تتماسك فيها صابرة مثابرة، ولكنها تتراخى وتنحل بالرخاء، والنفس المؤمنة هي الصامدة في الشدة والرخاء على سواء، محتسبة عند اللّه عناءها فيهما، فلا انتصار بدرٍ يُزهيهم مَرِحين، ولا انهزام أحد يهفيهم قرحين.

«ويتخذ منكم شهداء» إصطفاءٌ ممن عَلَم اللّه من المؤمنين، ومقام هذه الشهادة هو الثالث بعد النبيين والصديقين: «فاولئك مع الذين انعم اللّه عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقاً». «١»

فالصالحون هنا هن المؤمنون المعلَمون هناك، فالشهداء منهم هم المصطفون من بينهم، فليس الشهيد هو من يشهد الشهادتين، فكثيرٌ هم يشهدونها وما هم بمؤمنين،

---

(١)). سورة النساء ٤: ٦٩

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏٧، ص: ٣٥٧

ولا من يشهد فعل الواجبات وترك المحرمات، إنهم المؤمنون المعلَمون ككل «ويتخذ منكم» تبعيض، مهما كان «الذين آمنوا باللّه ورسله اولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم اجرهم ونورهم ..». «١» فانهم من شهداء الحق عند ربهم حيث هم صديقون في إيمانهم، وهم درجات عند اللّه، ذلك، فكذلك الشهداء في الدعاوي حيث تكفي فيهم العدالة او الثقة.

فهم- إذاً- الشهداء على العالمين يوم الدنيا وعلى اعمالهم يوم الدين: «وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون». «٢»

و «الشهداء» هنا بعد النبيين هم الصديقون وأصلح الصالحين التالين للصديقين كما وهم يتلون النبيين، ثم بعدهم أجمع سائر الصالحين كما في آية المنعَمين.

وقد تشمل الشهداء، المستشهدين في سبيل اللّه المخلصين الذين لا يشوبهم في هذه السبيل أي دخيل، إلا مرضات الرب الجليل. «٣»

ثم «واللّه لا يحب الظالمين» دفع لأوهام طارئة كأن يقال دولة الظالمين بمشيئة اللّه دليل أن اللّه يحبهم.

وهكذا يمضي السياق قُدُماً ليكشف عن الحكمة الكامنة وراء «تلك الأيام» في تربية الأمة المسلمة، إعداداً لها لدور أعلى:

وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ «٤»

والفرق بين المحص والفحص ان الفحص هو ابراز الشيء عما هو منفصل عنه

---

(١)). سورة الحديد ٥٧: ١٩

(٢)). سورة الزمّر ٣٩: ٦٩

(٣)). الدر المنثور ٢: ٧٩- اخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: لما ابطأ على النساء الخبر خرجن يستخبرن فاذا رجلان مقتولان على دابة أو على بعير فقالت امرأة من الأنصار مَن هذان؟ قالوا: فلان وفلان، اخوها وزوجها، او زوجها وابنها فقالت: ما فعل رسول اللّه صلى الله عليه و آله؟ قالوا: حي، قالت: فلا ابالي يتخذ اللّه من عباده الشهداء ونزل القرآن على ما قالت: ويتخذ منكم شهداء

(٤)). سورة آل عمران ٣: ١٤١

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٥٨

والمحص ابرازه عما هو متصل به من الخليط والدخيل.

«.. وليبتلي اللّه ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم واللّه عليم بذات الصدور». «١» آيتان لا ثالثة لهما في القرآن تمحصان الذين آمنوا ما في قلوبهم.

فذلك الإتخاذ وهذا التمحيص من كتلة الإيمان على مدار الزمن كما ينحو منحى الإنتخاب لأخلص المخلصين وجاه الكافرين منذ الرسول صلى الله عليه و آله حتى ظهور المهدي عليه السلام،

كذلك وبأحرى ينحو نحو هذه الدولة المباركة التي يلزمها هؤلاء الشهداء الممحصون، من الثلاثمأة وثلاثة عشر رجلًا اصحاب ألويته، ثم ومن العشرة الآف جنوده الأصلاء.

فإن «يمحق الكافرين» بصورة طليقة حقيقةٍ في محقهم، ليس إلَّا ملئت الأرض قسطاً وعدلًا بعد ما ملئت ظلماً وجوراً «٢» ولا نجد محقهم- ككل- إلا في هذه الآية وتلك الدولة الكريمة، أجل وأصحاب المهدي عليه السلام هم من المؤمنين المعلَّمين الشهداء الممحَّصين الصامدين. الماحقين للكافرين عن بكرتهم، فلا يبقى إلا الموحدون للّه مهما بقيت قلة قليلة من اهل الكتاب الموحدين، فقد «واللّه لتمحصن واللّه لتميزن واللّه لتغربلن حتى لا يبقى منكم إلا الأبذر وهو ان يدخل الرجل فيه الطعام يطين عليه ثم يخرجه قد اكل بعضه بعضاً فلا يزال ينقيه ثم يكنُّ عليه ثم يخرجه ثم يفعل ذلك ثلاث مرات حتى يبقى ما لا يضره شيءٌ». «٣»

---

(١)). سورة آل عمران ٣: ١٥٤

(٢)). تفسير البرهان ١: ٣١٨ العياشي عن الحسن بن علي الوشا باسناد له يرسله الى ابي عبدالله عليه السلام قال: ... قلت وما الأبذر؟ قال: الأبذر هو ..

(٣)). نور الثقلين ١: ٣٩٥ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة باسناده الى ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه و آله إن علي بن أبي طالب عليه السلام امام امتي وخليفتي عليها من بعدي ومن ولده القائم المنتظر الذي يملأ الله به الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، والذي بعثني بالحق بشيراً ونذيراً ان الثابتين على القول به في زمان غيبته لأعز من الكبريت الأحمر فقام اليه جابر بن عبد الله الأنصاري فقال: يا رسول الله صلى الله عليه و آله وللقائم من ولدك غيبة، قال: اي وربي «وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين» يا جابر ان هذا الأمر من الله، وسر من سر الله، مطوي عن عباد الله، فاياك والشك فيه فان الشك في امر الله عز وجل كفر

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٥٩

والتمحيص هو التخليص من الشوائب الخارجة والدواخل المارجة، كما المحق هو إنفاد الشيء تدريجياً وإزالته عن بكرته حتى لا يُرى منه شيء: «ليقطع طرفاً من الذين كفروا او يكبتهم».

فالتمحيص هو درجة بعد الشهادة والعَلْم للمؤمنين، عملية تتم في دواخل النفوس وأعماق القلوب، كشفاً لمكنونات الشخصيات، وتسليطاً لأضواء على هذه المكنونات تمهيداً لاستئصال كل دَخَل ودغَل ودجَل، وايصالاً للقلب إلى كامل الصفاء، دون اي غبش ولا ضباب.

وما لم تحصل تلك العلامة والشهادة والتمحيص تماماً، لم يحصل محق الكافرين تماماً، فكثيراً مَّا خيّل إلى المؤمن أنه ما حص خالص، ثم إذا هو يكشف- على ضوء التجربة العملية ومواجهة الأحداث- أن في نفسه عقابيل لم تمحَّص بعد، وعراقيل لم تزل فيها، ومن المصلحة والحكمة أن يُعلم هذا النقص في النفس ليعاود المحاولة في سبكها من جديد، محقاً لكل العراقيل، ولكي يقدر على محق الكافرين.

كيف يُرى الموت وليس الموت مما يرى، إنما هو واقع يحصل للأحياء فهم مدركوه من غير أن يروه؟ ثم ما هو النظر بعد الرؤية؟ وهي هو وهو هي! ومن ثَم تمني الموت من المؤمن في الحرب يعني ان يقتله الكافر، وقتلهم لهم كفر فكيف المؤمنون هكذا يتمنون؟.

١- رؤية الموت هي رؤية أسبابه لجماعة من المؤمنين الذين لم يُقتلوا في الجهاد، لا الموت نفسه، وأسباب الموت الظاهرة في النضال كلها مرئية، كالطعن بالرماح والضرب بالصفاح، والرشق بالسهام والقذف بالسِّلام، وكل هذه مما يُرى، وكما في رؤية إبراهيم الخليل ذبح إسماعيل: «إني ارى في المنام أني اذبحك .. قد صدقت الرؤيا» وليس تصديقها إلا بتقديم سبب الذبح. ذلك، ثم وهي رؤية قتلاهم يتساقطون

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٦٠

وهي أحرى بكونها رؤية للموت.

ومن ثم رؤية قتلهم انفسهم حين قُتِلوا، وهي درك الموت ولمسه في أنفسهم، ورؤية الموت هنا قد تعني كل هذه الثلاث.

ثم «وأنتم تنظرون» قد تعني انتظار الموت المتمنَّى، أم والنظر إلى الميّت القتلى، أم «فقد رأيتموه» في بدر- إلا موت انفسكم- «وانتم تنظرون» مثلث الموت في أحد.

وأما أصل التمني للموت، فهو ينحو منحى حسنى الإستشهاد في سبيل اللّٰه وهي إحدى الحسنيين، ولا ينحو نحو عملية الكفار، فللشهادة واجهتان اثنتان، بذل النفس في سبيل اللّٰه من قبل المؤمن دون تقصد للموت، وانما يقصد إحدى الحسنيين: إماتة الكافر او الموت في سبيل إماتة وإحياء الاسلام، وهذه واجهة مقصودة.

والأخرى غير مقصوده وهي ان يقتله الكافرون، إبتذالًا لنفسه وهدراً فيخسر به المسلمون ويربح الكافرون، وتمني الموت في سبيل اللّٰه لا يعني إلا الأولى، والثانية هي تمنى الكافر ان يقتل المؤمنين.

ومما يدل على تلك الواجهة الوجيهة «تمنون الموت» دون القتل، ومهما كان القتل من فعلهم فالموت ليس إلَّا من فعل اللّٰه، فلذلك جاز تمنيهم أن يميتهم اللّٰه تعالى في الجهاد، وهو أعم- معذلك- من القتل والموت حتف الأنف وذلك حسن، وانما يقبح لو تمنوا أن يقتلهم الكفار.

ففي «تمنون الموت من قبل أن تلقوه» توسعة لأسباب الموت قتلًا وسواه، وإزاحة لتمني القتل الذي هو فعل الكفار، ولما يفترق الموت عن القتل يعمه وحتف الأنف كما هنا.

«وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ» «١»

لقد خلطت جماعة من المؤمنين الدعوة بالداعية فزعموا انتهاء الدعوة بقتل او

---

(١)). سورة آل عمران ٣: ١۴۴

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣۶١

موت الداعية فانقلبوا على أعقابهم، كما حصل بالفعل حين نودي في أحد أن محمداً صلى الله عليه و آله قد قتل، وحصل بعده لما توفي الرسول صلى الله عليه و آله.

وهذه الآية وأضرابها تبيّن أن الدعوة هي الأصلية الثابتة، ومهما كان للداعية حرمته، فالدعوة الرسالية سلسلة موصولة على مدار الزمن الرسالي، يحملها الرسل تلوَ بعضٍ، فلا تموت الدعوة بموت داعية لأنها من اللّٰه وهو حي لا يموت.

فلما انكشف ظهر المسلمين في أحد- حين ترك الرماة قواعدهم بغيةَ الغنيمة- فركبه المشركون واوقعوا بالمسلمين وكسرت رباعية الرسول صلى الله عليه و آله وشجَّ وجهه ونزفت جراحه فاختلطت واحتار المسلمون وتفرقوا أيادي سبا فنادى منادٍ «أن محمداً قد قتل». «١»

---

(١)). نور الثقلين ١: ٣٩٧ في روضة الكافي بسند متصل عن ابي عبد اللّٰه عليه السلام قال: لما انهزم الناس يوم أحد عن النبي صلى الله عليه و آله انصرف اليهم بوجهه وهو يقول: انا محمد انا رسول اللّٰه لم اقتل ولم امت فالتفت اليه فلان وفلان فقالا: الآن يسخر بنا ايضاً وقد هزمنا وبقى معه علي عليه السلام وسماك خرشة ابو دجانة فدعاه النبي صلى الله عليه و آله فقال يا أبا دجانة انصرف وأنت في حل من بيعتك فأما علي فهو أنا وأنا هو فتحول وجلس بين يدي النبي صلى الله عليه و آله وبكى فقال: لا واللّٰه ورفع رأسه الى السماء وقال: لا واللّٰه لا جعلت نفسي في حل من بيعتي إني بايعتك فإلى من انصرف يا رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله إلى زوجة تموت او ولد يموت او دار تخرب او مال يفنى واجل قد اقترب؟ فرق له النبي صلى الله عليه و آله فلم يزل يقاتل حتى أثخنته الجراحة وهو في وجه وعلي عليه السلام في وجه، فلما اسقط احتمله علي عليه السلام فجاء به إلى النبي صلى الله عليه و آله فوضعه عنده

فقال يا رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله أوفيت ببيعتي؟ قال: نعم وقال له النبي صلى الله عليه و آله خيراً وكان الناس يحملون على النبي صلى الله عليه و آله الميمنة ويكشفهم علي عليه السلام فاذا كشفهم اقبلت الميسرة إلى النبي صلى الله عليه و آله فلم يزل كذلك حتى تقطع سيفه بثلاث قطع فجاء النبي صلى الله عليه و آله فطرحه بين يديه وقال: هذا سيفي قد تقطع به فيومئذٍ اعطاء النبي صلى الله عليه و آله ذا الفقار ولما رأى النبي صلى الله عليه و آله اختلاج ساقيه من كثرة القتال رفع رأسه الى السماء وهو يبكي وقال يا رب وعدتني ان تظهر دينك وان شئت لم يعيك فأقبل علي عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه و آله فقال: يا رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله اسمع دوياً شديداً واسمع اقدوم حيزوم وما هم اهم اضرب احداً إلا سقط ميتاً قبل ان اضربه فقال صلى الله عليه و آله هذا جبرئيل وميكائيل واسرافيل في الملائكة عليهما السلام ثم جاء جبرئيل عليه السلام فوقف إلى جنب رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله فقال يا محمد ان هذه لهي المواساة فقال صلى الله عليه و آله ان علياً مني وانا منه فقال جبرئيل عليه السلام وانا منكما ثم انهزم الناس فقال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله لعلي عليه السلام يا علي امض بسيفك حتى تعارضهم فان رأيتهم قد ركبوا القلاص وجنبوا الخيل فانهم يريدون مكة وان رأيتهم قد ركبوا الخيل ويجنبون القلاص فانهم يريدون المدينة فأتاهم علي عليه السلام فكانوا على القلاص فقال ابو سفيان لعلي عليه السلام يا علي ما تريد هوذا نحن ذاهبون إلى مكة فانصرف إلى صاحبك فاتبعهم جبرئيل عليه السلام فكلما سمعوا وقع حوافر فرسه جدوا في السير وكان يتلوهم فاذا ارتحلوا قال: هوذا عسكر محمد صلى الله عليه و آله قد اقبل فدخل ابو سفيان مكة فأخبرهم الخبر وجاء الرعاة والحطابون فدخلوا مكة فقالوا رأينا عسكر محمد صلى الله عليه و آله كلما ارتحل ابو سفيان نزلوا يقدمهم فارس على فرس اشقر يطلب آثارهم فأقبل اهل مكة على ابي سفيان يوبخونه ورحل النبي صلى الله عليه و آله والراية مع علي عليه السلام وهو بين يديه فلما ان اشرف بالراية من العقبة ورآه الناس نادى علي عليه السلام ايها الناس هذا محمد صلى الله عليه و آله لم يمت ولم يقتل فقال صاحب هذا الكلام الذي قال: الآن يسخر بنا وقد هزمنا هذا علي والراية بيده حتى هجم عليهم علي عليه السلام ونساء الأنصار في خدشن الوجوه ونشرن الشعور وجززن النواحي وفرقن الجيوب وحرضن البطون على النبي صلى الله عليه و آله فلما رأيته قال لهن خيراً وأمرهن ان يستترن ويدخلن منازلهن وقال: إن اللّٰه وعدني ان يظهر دينه على الأديان كلها وأنزل اللّٰه على محمد صلى الله عليه و آله وما محمد إلا رسول ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٦٢

ولقد كان لهذه الصيحة الإبليسية وقعها الشديد المديد على المسلمين، فانقلب جماعة منهم على أعقابهم حربياً او نفسياً وهي أخطر وأشجى.

ف «ما محمد إلا رسول» وليس هو المرسِل حتى إذا مات ماتت الدعوة كالداعية، فانما كيانه ككل أنه «رسول»- عليه ما حمِّل وعليكم ما حمِّلتم- عليه تأدية رسالته كما حمِّل، ثم عليكم تأديها كما حمِّلتم، فإذا أدى رسالته كما حمِّل فلماذا- إذاً- إنقلاب على الأعقاب إن مات أو قتل، إذ لم تمت الدعوة ولم تُقتل بموت الداعية.

«وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل» خلت دعوةً خلت عن الحياة والدعوةُ باقية، وكذلك محمد صلى الله عليه و آله مهما كان خاتم النبيين واشرف الخلق أجمعين.

إن محمداً رسول من عند اللّٰه، جاء ليبلغ عن اللّٰه، فاللّٰه باق وكلمته باقية مهما مات الرسول أو قتل، فكيف ترتد جماعة ممن آمن على أعقابهم فينقلبوا خاسرين؟!.

وليس الإيمان بالرسول والحب للرسول إلا لرسالته القدسية، فلا يزولان بزواله، وقد رأينا في هزيمة أحد أبادجانة كيف يُترّس عليه صلى الله عليه و آله بظهره والنبل متواتر عليه دون حِراك!، ورأينا التسعة الذين أفرد فيهم ينافحون عنه ويستشهدون تلو بعض، وكل هذه التضحيات حباً للرسول لمكانة الرسالة.

والمؤمنون الصالحون، العارفون رسالة اللّه، دائمون في الإيمان بها والحب لها مهما مات الرسول صلى الله عليه و آله أم بقي حياً، ولن يبق، إذ «كل نفس ذائقة الموت».

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٦٣

والإنقلاب على الأعقاب ليس يعني فقط إنقلاباً عن الحرب إلى المدينة، فانهم انهزموا ككل مهما حارب من حارب حتى النفس الأخير.

إنما الأصل هو الإنقلاب نفسياً الذي صاحبَها عند الهتاف «أن محمداً قد قتل» فقتل بذلك الهتاف إيمان البعض ووهن آخرون، حيث أحس البعض أن لا جدوى بعدُ في استمرارية القتال، وكأن بموت محمد أو قتله انتهى أمر رسالته، فانتهى- إذاً- أمر الجهاد.

فالإرتداد في هذه المعركة الحربية على الأعقاب هو من خلفيات الإنقلاب النفسي الردىء، ما قل منه أو جل، فكل تحوُّلة عن حالة الإيمان وقالته وفعلته بذلك الهتاف، انقلاب على الأعقاب مهما اختلف الدركات.

وهذا درس يحلِّق على كل الزمن الرسالي، تسوية بينه وبين الزمن الرسولي، أن يستمر المسلمون في تمسكهم بإسلامهم السامي بعد الرسول كما هم متمسكون زمنه، بل والمسؤولية في غيابه أكثر مما كان في حضوره، حيث يفقدون الداعية الأولى، فعليهم أن يجبروا كسر فقده بمواصلة الدعوة والنضال في بسطها وتحقيقها وتطبيقها.

لقد انقلب جماعة على أعقابهم في هتاف أحد، فقيلت قيلات هي ويلات على الكتلة المؤمنة، وكما قالوا قولات هي من رجولات إيمانية.

«قال أناس منهم لو كان نبياً ما قتل، وقال أناس من عَلِيَّة أصحاب النبي صلى الله عليه و آله قاتلوا على ما قاتل عليه نبيكم حتى يفتح اللّه عليكم أو تلحقوا به، وذكر لنا أن رجلًا من المهاجرين مر على رجل من الأنصار- وهو يتشحط في دمه- فقال يا فلان أشعرت أن محمداً قد قتل؟ فقال الانصاري إن كان محمد قد قتل فقد بلَّغ فقاتلوا عن دينكم فأنزل اللّه» «وما محمد ..». «١»

ذلك، وقال أهل المرض والإرتياب والنفاق- حين فر الناس عن النبي- قد قتل

---

(١)). الدر المنثور ٢: ٨٠- اخرج ابن جرير وابن حاتم عن الربيع في الآية قال: ذلك يوم أحد حين اصابهم ما اصابهم من القتل والقرح وتداعوا نبي اللّه قالوا قد قتل وقال اناس ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٦٤

محمد فالحقوا بدينكم الأول فنزلت «١» ويقول أنس بن النضر في هذه المعركة الصاخبة: «٢» ان كان محمد قد قتل فإن رب محمد لم يُقتل، فقاتلوا على ما قتل عليه محمد صلى الله عليه و آله اللّهم إني اعتذر إليك مما يقول هؤلاء وابرء اليك مما جاء به هؤلاء، فشد بسيفه فقاتل حتى قُتل فانزل اللّه «وما محمد إلا رسول ..».

وكما انتهى إلى عمرو بن طلحة بن عبيد اللّٰه في رجال من المهاجرين والأنصار وقد ألقوا بأيديهم فقال: ما يُجلسكم؟ قالوا: قتل محمد رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله قال: فما تصنعون بالحياة بعده قوموا فموتوا على مامات عليه رسول اللّٰه واستقبل القوم فقاتل حتى قتل. «۳»

هنا تتقلب جماعات على أعقابهم زعْمَ أن الرسول صلى الله عليه و آله قتل، ثم انقلب جماعات من نفس النمط بعد وفات الرسول صلى الله عليه و آله وكما يقول خليفة الرسول علي عليه السلام في خطبة الوسيلة:

«حتى إذا دعى اللّٰه عز وجل نبيه صلى الله عليه و آله ورفعه اليه لم يك ذلك بعده إلا كلمحة من خنقة أو وميض من برقة إلى أن رجعوا على الأعقاب وانتكصوا على الأدبار وطلبوا بالأوقار واظهروا الكتائب وفلّوا الدار وغيروا آثار الرسول صلى الله عليه و آله ورغبوا عن أحكامه وبعدوا من أنواره واستبدلوا بمستخلَفه بديلًا اتخذوه وكانوا ظالمين، وزعموا أن من اختاروا من آل أبي قحافة أولى بمقام رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله ممن اختاره الرسول عليه وآله السلام لمقامه، وأن مهاجر آل أبي قحافة خير من المهاجري الأنصاري الرباني ناموس هاشم بن عبد مناف».

---

(۱)

). المصدر اخرج ابن جرير عن ابن جريح قال قال اهل المرض.

(۲)). اخرج ابن جرير عن السدي قال: فشا في الناس يوم احد ان رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله قد قتل بعضأصحاب الصخرة ليت لنا رسولًا الى عبد اللّٰه بن أبي فيأخذ لنا اماناً من أبي سفيان يا قوم ان محمداً قد قتل فارجعوا الى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم، قال انس بن النضر ..

(۳)). المصدر اخرج ابن جرير عن القاسم بن عبد الرحمن بن رافع أخي بني عدي بن النجار قال: انتهى انس بن النضر عم انس بن مالك ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج۷، ص: ۳۶۵

ذلك! والرسول ذكرهم في خطبة الغدير بما ذكرهم ومنها «معاشر الناس أنذركم أني رسول اللّٰه إليكم قد خلت من قبلي الرسل أفإن مت او قتلت أنقلبتم على اعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر اللّٰه شيئاً وسيجزي اللّٰه الشاكرين، ألا وإن علياً هو الموصوف بالصبر والشكر ثم من بعده ولدي من صلبه». «۱»

ذلك الرسول صلى الله عليه و آله يحتج بكتاب اللّٰه ثم خليفته الإمام علي عليه السلام ومن ثم نسمع قرة عينه فاطمة البتول عليها السلام تقول في خطبتها حين مُنِعت فدكاً «أتقولون مات محمد صلى الله عليه و آله فخطبٌ جليل استوثق منه فتقه، وانفتق رتقه، وأظلمت الأرض لغيبته وكسفت النجوم لمصيبته، وأكدت الإهال وخشعت الجبال وأضيع الحريم وأزيلت الحرمة عند مماته، فتلك واللّٰه النازلة الكبرى والمصيبة العظمى لا مثلها نازلة ولا بائقة عاجلة أعلن بها كتاب اللّٰه جل ثناءه في أففنِيتكم في ممساكم ومصبحكم، يهتف في أفنِيتكم هتافاً صارخاً وتلاوة وإلحاناً ولقبله ما حل بأنبياء اللّٰه ورسله حكم فصل وقضاءٌ حتم»:

«ومامحمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر اللّٰه شيئاً وسيجزي اللّٰه الشاكرين» إيهاً بني قيلة أهْضَم تراث أبيه وأنتم بمرىءً مني ومسمع ومنتدءٍ ومجتمع ..». «۲»

اجل وكل انقلابه عن شرعة الإسلام بعد ارتحال الرسول صلى الله عليه و آله إلى جوار رحمة ربه وقبلها إنها مشمولة للتنديد الشديد في آية الإنقلاب، فمثلث الزمان تشمله، انقلاباً في زمنه وبعده زمن الائمة، وبعدهم زمن الغيبة.

إن الرسول ميت على أية حال، فان «كل نفس ذائقة الموت» والناس على ضروب شتى بالنسبة لموته، فمنهم من انقلب بعد موته، ومنهم من ثبت، ومنهم من انكر موته وهو بمرئى المسلمين كالخليفة عمر «فلما توفي رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله قام عمر بن الخطاب

---

(١)). نور الثقلين ١: ٤٠٠ عن الاحتجاج للطبرسي باسناده إلى محمد بن علي الباقر عليهما السلام عن النبي صلى الله عليه و آله ..

(٢)). المصدر عن الاحتجاج روى عبد اللّٰه بن الحسن باسناده عن آبائه عليهما السلام انه لما جمع ابو بكر على منع فاطمة فدك وبلغها ذلك جاءت اليه وقالت: اتقولون.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٦٦

فقال: إن رجالًا من المنافقين يزعمون أن رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله توفى وإن رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله ما مات ولكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع اليهم بعد أن قيل قد مات واللّٰه ليرجعن رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله كما رجع موسى فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم، زعموا رِسلك يا عمر أنصت فحمد اللّٰه وأثنى عليه ثم قال: ايها الناس إنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد اللّٰه فان اللّٰه حيٌّ لا يموت ثم تلا هذه الآية. «١»

وترى ظاهرة التردُّد في «أفإن مات أو قتل» لامحة لاحتمال قتله صلى الله عليه و آله أنه سبَّب موته؟ «٢» واضافة القتل إلى الموت هي للإجابة على سماح الانقلاب بقتله المسموع،

---

(١)). الدر المنثور ٢: ٨١- اخرج ابن المنذر عن ابي هريرة قال لما توفى رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله ... فواللّٰه لكأن الناس لم يعلموا ان هذه الآية نزلت حتى تلاها ابو بكر يومئذٍ واخذ الناس عن ابي بكر فانما هي في افواههم قال عمر: فواللّٰه ما هو إلا ان سمعت ابا بكر تلاها فعقرت حتى وقعت إلى الأرض

ما تحملني رجلاي وعرفت ان رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله قد مات.

وفيه اخرج البيهقي في الدلائل عن عروة قال: لما توفي النبي صلى الله عليه و آله قام عمر بن الخطاب فتوعَّد من قال: قد مات بالقتل والقطع فجاء ابو بكر فقام إلى جانب المنبر وقال: ان اللّٰه نعى نبيكم الى نفسه وهو حي بين اظهركم ونعاكم الى انفسكم فهو الموت حتى لا يبقى أحد إلا اللّٰه قال اللّٰه: «وما محمد إلا رسول ...» فقال عمر: هذه الآية في القرآن واللّٰه ما علمت ان هذه الآية أنزلت قبل اليوم وقال قال اللّٰه لمحمد صلى الله عليه و آله: انك ميت وانهم ميتون.

ويا لثقافة عالية للخليفة في تأويل القرآن لا تمنعه عن الجهل بنصوص الآيات في موته، ولا تمنع حسّه عن الخطأ في موته!.

روى ابان بن عثمان عن ابي جعفر عليهما السلام انه اصاب علياً عليه السلام يوم واحد ستون جراحة وأن النبي صلى الله عليه و آله امر أم سليم وأم عطية ان تداوياه فقالتا انا لا نعالج منه مكاناً إلا انفتق مكان آخر وقد خفنا عليه فدخل رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله والمسلمون يعودونه وهو قرحة واحدة فجعل يمسحه بيده ويقول: إن رجلًا لقي هذا في اللّٰه فقد أبلى وأعذر وكان القرح الذي

يمسحه رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله يلتئم فقال علي عليه السلام: الحمد اللّٰه إذ لم أفر ولم اولي الدبر فشكر اللّٰه ذلك في موضعين من القرآن وهو قوله تعالى: وسيجزي اللّٰه الشاكرين- وسنجزي الشاكرين

(٢)). نور الثقلين ١: ٤٠١ في تفسير العياشي عن عبد الصمد بن بشير عن ابي عبد اللّٰه عليه السلام قال: تدرون مات النبي صلى الله عليه و آله او قتل؟ إن اللّٰه يقول: «أفإن مات او قتل» فبسُمٍّ قبل الموت انهما سقتاة، فقلنا: انهما وابوهما شر من خلق اللّٰه.

أقول: وهذه رواية واحدة يتيمة لا تصدقها الآية، ولئن كان قتله وارداً هكذا لكان النص «او سمّ» ام ولأقل تقدير «أفإن قتل» دون اضافة الموت، وعبارة الترديد بينهما بنفسها تشهد انه لم يقتل، فليس «او قتل» الا اجابة عن زعمهم قتلة في احد.

أقول: اذا لم يعلم عمران ان هذه الآية وما شابهها في القرآن لقلة اطلاعه على القرآن فهلا رأى الرسول صلى الله عليه و آله ميتاً وهلا حضر الصلاة عليه ودفنه‌ام شغلته السقيفة عن كل ذلك، ثم وكيف انشغل بها عن موته ولا دور لها الا بعد موت الرسول صلى الله عليه و آله.

وقد يعتذر عمر عن قولته «كنت أتأول هذه الآية «وكذلك جعلناكم امة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً» فواللّٰه ان كنت لأظن انه سيبقى في أمته حتى يشهد عليها بآخر اعمالها وانه هو الذي حملني على ان قلت ما قلت

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٦٧

وتقديم الموت لمحة إلى انه هو الوارد بحقه، واضيف هنا الى القتل لكي يرد على خليفتهما المتخيلة وهي الانقلاب على الأعقاب، وانهما على سواء فيها لو صدقت وحقت.

فلو قال: «أفإن مات» لم يرد الإستنكار مورده الواقع وهو ظن القتل، ولو قال «أفإن قتل» لم يرد مورد الموت، فالجمع بينهما يجمع الاستنكار لخليفتهما المشتركة المزعومة.

«.. انقلبتم على اعقابكم» وهي الجاهلية الأولى «ومن ينقلب على عقبيه» إرتجاعاً منكراً إلى الجاهلية الجهلاء «فلن يضر اللّٰه شيئاً» إنما أضر نفسه «وسيجزي اللّٰه الشاكرين» الصامدين على هذه الرسالة القدسية، حيث يشكرون هذه النعمة السابغة في الضراء كما في السراء.

«وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ» «١»

تلمح هذه الآية أنه خيّل إلى بعض البسطاء- لما سمعوا ان النبي صلى الله عليه و آله قد قتل- أنه قضى نحبه قبل أجله ولما يبلغ رسالته تماماً؟ وهذه ضرورة رسالية ربانية في واجب الحكمة العالية التربوية أن يدوم الرسول برسالته في شخصه حتى يقضي ما حمِّل منها دون إبقاء!.

---

(١)). سورة النساء ٤: ١٤٥

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٦٨

فهذه الآية تؤنِّب تلك الجهالة في الآجال ولا سيما أجل الرسول، مهما كان فيهم قوالون آخرون بالنسبة لقتلاهم وأنفسهم: «يقولون لو كان لنا من الأمر شيءٌ ما قتلنا ههنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ..» «١»- «يا ايها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزًّى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ..». «٢»

هنا «وما كان» كما في نظائرها تضرب السلب إلى اعماق الزمن الثلاث، إحالة لهذه الكينونة مهما كانت بصيغة الماضي، إذ لا صيغة سائغة له إلا الماضي الذي يستقبله المستقبل «ان تموت».

و «نفس» تعم كافة النفوس الحية لمكان «أن تموت» إضافة الى نفس النفس الدالة على حياة، فكما الإحياء بإذن اللّه كذلك الإماتة، فإنهما من اختصاصات الربوبية، مهما كانت عندنا أسبابٌ لهما، ولكنما السبب الأخير لأقل تقدير ليس إلا بإذن اللّه.

والإذنها تكويني، سواءً أكان دون وسيط فهو أمره التكويني، أم بوسيط كأسباب الموت- ميتة وحية- فهو ايضاً أمره التكويني مقارناً لأسباب الموت.

ثم «كتاباً مؤجلًا» قد تكون حالًا ل «تموت» فلا موتَ إلا باذن اللّه في كتابه المؤجل، فلا يعجل قبل أجله ولا يؤجل عنه، وبين الأجل المحتوم والمعلق عموم من وجه.

ولأن «تموت» تعم الأجل المعلق الى الأجل المحتوم، إذاً ف «مؤجلًا» تعمهما، فكما الأجل المحتوم ليس إلا بإذن اللّه، كذلك المعلق، مهما كان الثاني بأسباب ظاهرة من خلق اللّه. فقدترى اسباب الموت الظاهرة تتوارد على نفس ولكنها لا تموت، أم لاترى أسبابه، امترى اسباباً لما دون الموت متواردة على نفس ولكنها تموت، مما يبرهن أن وراء الأسباب الظاهرة وسواها- في حساباتنا- للموت وعدمه يتوارى

---

(١)). سورة النساء ٤: ١٥٤

(٢)). سورة النساء ٤: ١٥٦

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٦٩

السبب الرباني للموت وعدمه، ولا فرار عن الموت بسببه الخفي الرباني، أجلًا محتوماً او معلقاً وإنما الفرار عن الأسباب الجلية إذا لم يؤمر بها مثل القتال في سبيل اللّه، ففيما وراءها تأتي «ولا تقتلوا انفسكم- لا تلقوا بأيديكم إلى تهلكة» وأضرابها محكمة حاكمة بالحرمة.

وعلّ «الشاكرين» تعني- مع من يريد ثواب الآخرة وهم التجار- تعني بأحرى من لا يريد بعلمه لا ثواب الدنيا ولا ثواب الآخرة، انما يريد مرضات اللّه ولو عذِّب في الدارين، ولا يريد سواها وان عُذِب فيهما أو أثيب: «إنما نطعمكم لوجه اللّه لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً» لا جزاءً دنيوياً- ومنه ما بأيديكم- ولا أخروياً قرره اللّه لأهل طاعته.

«ومن يريد ..» ذلك التعقيب يقدم المحتمل الأول في الأجل، أنه اجَلَ الرسول الأجلّ صلى الله عليه و آله «فمن يرد ثواب الدنيا» ارتداداً على عقبيه «نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة» ثبوتاً على الإيمان «نؤته منها وسنجزي الشاكرين».

«ثواب الدنيا» هنا لذاتها الطليقة، سمي ثواباً لمقارنته بثواب الآخرة، ثم ثواب هو نتيجة العمل أياً كان، مهما غلب ايتعماله على النتيجة الخيِّرة، فعمل الدنيا ينتج لها كما عمل الآخرة لها، وأين عمل من عمل وثواب من ثواب.

وترى الإرادة- فقط- تخلِّف الثواب أياً كان وإن لم تخلف العمل الذي يستحق به الثواب؟ كلا، بل لا تعني الارادة إلا التي تستتبع العمل، فالإرادة التي لا يحول بينها وبين المراد حائل مسيَّر، هي العمل محتَّماً.

ثم وترى «من يرد ثواب الدنيا» تختص بإرادتها دون الأخرى، كما «ومن يرد ثواب الآخرة» تختص بها دون الأولى»؟ ومن يرد هما جمعاً بينهما يُعطاهما كما في دعاءهم «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار». «١»- «فآتاهم

---

(١)). سورة البقرة ٢: ٢٠١

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٧٠

اللّه ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة واللّه يحب المحسنين». «١»

«يرد» في كل منهما تعني- فقط- كلًا منهما، ثم ومريد الدنيا للآخرة هو مريد الآخرة، وحسنة الدنيا هي الحياة الحسنة التي هي مزرعة الأخرة وليست مُزرِءة للآخرة حتى تصبح جمعهما جمعاً بين الضدين.

إذاً ف «من يرد ثواب الدنيا» تعني «من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً»- كما «من يرد ثواب الآخرة» تعني «ومن اراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً. كلًا نمد هؤلآء وهؤلآء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً». «٢» و «من كان يريد حرث الآخرة نزد في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب». «٣»

فمن أقبل على الدنيا بوجهه كله ونآى عن الآخرة بعطفه، فكدح للدنيا جاهداً، ولم يعمل للآخرة صالحاً جاحداً، فهو الذي يريد الدنيا دون الآخرة، ويعاكسه المقبل على الآخرة بعمل الدنيا والآخرة فانه ممن «يرد ثواب الآخرة».

ذلك مهما كان مريدوا الدنيا دركات ومريدوا الآخرة درجات، فقد يؤتى كلٌّ قَدَره، ولماذا «نؤته منها» في كلٍّ منهما والإرادة فيهما طليقة بالنسبة للثواب المراد دون تبعيض؟.

لأن المؤتى على أية حال ليس كل الثواب، فانه موزَّع بين أهليه في الدنيا والآخرة، مهما كان ثواب الدنيا ضئيلًا قليلًا أمام ثواب الآخرة الجليل.

و «منها» في الدنيا قدر ما سعى لها و «ما نشاء لمن نريد» ثم «منها» في الآخرة هو كذلك قدر السعي ولدى اللّه مزيد «فأولئك كان سعيهم مشكوراً»: «وسنجزي

---

(١)). سورة آل عمران ٣: ١٤٨!

(٢)). سورة الأسرى ١٧: ١٩

(٣)). سورة الشورى ٤٢: ٢٠

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٧١

الشاكرين» بفضل ومزيد.

ذلك، وأما من اراد ثواب الدنيا والآخرة، مستقلًا كلٌّ عن الآخر، فهو عوانٌ بين اهل الدنيا والآخرة، وله في كل منهما قدر ما قدم لها ولا يظلمون نفيراً.

«وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَما وَهَنُوا لِما أَصابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَما ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ» «١»

تنديد شدى مديد بالذين وهنوا مع الرسول صلى الله عليه و آله لما أصابهم وضعفوا واستكانوا، ثالوث من التخلف عن الإيمان وهو يدَّعون الإيمان.

«كأيّن» كلمة تكثير علّها مركبة من كاف التشبيه وأيٍّ، يعني كأي نبيٍّ ولكنها- كما يشهد رسم خطها- انقلب عن معنى الجزئين إلى ما يقاربهما وهو «كم من نبي» مما يبين أن كثيراً من النبيين قاتلوا في سبيل اللّه وقاتل معهم ربيون كثير.

و «ربيون» جمع «ربي» وهو العالم الرباني، ام مطلق الرباني، وهو أصل عبراني يعني الأمم الربانية المتربية بالتربية الرسالية، و «رِبّوني» (يوحنا ٢٠: ١٦) لغة عبرانية تعني المعلم وهي من الألقاب المعزّزة اليهودية.

والفارق بين السلبيات الثلاث أن الوهن هو ضعف الإرادة والتصميم، «فما وهنوا لما أصابهم في سبيل اللَّه» من جرْح وقرْح وقتل أو انهزام، فقد واصلوا في قتالهم كمسئولية شرعية مهما كانت النتيجةُ الهزيمةَ الظاهرة، أم وقتل أنبياءهم، إذ هم ميزوا بين الدعوة والداعية.

والضعف يعني انكسار القوات الظاهرية، فلم يؤثر «ما أصابهم في سبيل اللَّه» من مصيبات وهنا في أرواحهم وضعفاً في أجسامهم، فحاربوا في الإصابات كما كانوا يحاربون في غيرها.

ثم «وما استكانوا» من سكن، فالإستكانة هي طلب السكون، تركاً للدعة نتيجةَ الضراعة والضآلة، فهي السكون أمام العدو ليفعل به ما يريد، دونما حراك في العراك،

---

(١)). سورة آل عمران ٣: ١٤٦

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٧٢

أم من الكنية وهي الحالة السيئة، كنية سوءٍ وخيبة، فما طلبوا هذه الحالة لهم من عدوهم تخاذلًا أمامه والتجاءً إليه، فليست من الكون، بل هي بين السكون والكنية ولكلٍ وجه ادبياً ومعنوياً، ولكن الثاني أصح ام هو الصحيح ولا سيما ادبياً. «١»

ولقد حصل كل هذه الثلاث لبعض الحاضرين في أحد، وهناً وضعفاً واستكانة، وهناً يوبِّخون على هذه الوقيعة الوقيحة تحريضاً لهم أن يستنوا بسنة الربيين الكثير الذين قاتلوا مع نبيين كثير:

«وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» «٢»

ذلك قولهم وهم ما على ما هم عليه من صامد الإيمان وثابت الإطمئنان، استغفاراً لذنوب وأسرافٍ لا يخلو عنهما- كلَمَم- غير من عصمه اللَّه وهم المعصومون بعصمة اللَّه، ثم تثبيتاً لأقدامهم في معارك الكرامة، وانتصاراً على القوم الكافرين.

«فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» «٣»

«ثواب الدنيا» هو حسنة الدنيا حيث تناسب الآخرة، ثم «وحسن ثواب الآخرة» هو فضل الثواب فوق عدله لأنهم محسنون، فلابد من الإحسان إليهم «واللَّه يحب المحسنين».

ومن ثواب الدنيا هنا الغنيمة وانشراح الصدر والثناء الجميل وتثبيت الأقدام والنصرة على القوم الكافرين.

ومن لطيف التعبير وعطيفه هنا بعد اعترافهم بالأساءة بحضرة الربوبية تطامناً وتذللًا، أنه تعالى سماهم محسنين، حيث الإعتراف بالقصور والتقصير إحسان في حقل العبودية، كما الاستكبار عن ذلك إساءة بحضرة الربوبية مهما لم تتله سوءٌ او

---

(١)). وجه الأول أنه في الأصل استكن ثم زيد عليه الألف، ولكنه غير وجيه مهما صح معناه بتعمل وتكلف، ووجه الثاني انه في الأصل استكين فبدلت الياء بالألف فصار استكان

(٢)). سورة آل عمران ٣: ١٤٧

(٣)). سورة آل عمران ٣: ١٤٨

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٧٣

أذى.

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ١٤٩ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ١٥٠
سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ١٥١ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ
وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ
الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ١٥٢ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ
يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ١٥٣ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ
الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ
قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَايُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ
الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ١٥٤ إِنَّ الَّذِينَ
تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ «١»

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ١٤٩ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ» «٢»

لقد طال الحديث حول الهزيمة في أحد حيث أخذت ابعاداً عميقة في نفوس المسلمين وفي صفوفهم، فإنها كانت الهزيمة الأولى بعد انتصارهم العظيم ببدر وانتظارهم العميم أن يهزموا على طول الخط ولا ينهزموا.

لذلك نرى السياق يستطرد في أخذ المؤمنين بالتأسية تارة وبالإستنكار أخرى،

---

(١)). سورة آل عمران ٣: ١٤٩ و ١٥٠ و ١٥١ و ١٥٢ و ١٥٣ و ١٥٤ و ١٥٥

(٢)). سورة آل عمران ٣: ١٤٩- ١٥٠

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٧٤

وبالتقرير ثالثة وبالمثل رابعة، وبالتحذير عن الخلفيات المحظورة للهزيمة خامسة وهكذا الأمر.

فهنا ينهى الذين آمنوا أن يطيعوا الذين كفروا كيلا يرتدوا على أعقابهم فينقلبوا خاسرين، وترى هلَّا تكون طاعة الكفار في نفسها إنقلاباً على الأعقاب حتى يحذر عنها حذراً عن خليفتها الإنقلاب، ثم وما هي الطاعة المنهية هنا؟.

إنها طاعة في قولة أو فعلة تنجر إلى الإرتداد عن صالح العقيدة، كما أن خطوات الشيطان تقْدِمات للإشراك باللَّه أو الإلحاد في اللَّه.

والمستفاد من الآيات أنها طاعتهم في اللحوق بهم «١» واللجوء إليهم حتى يأمنوا بأسهم أو ينصروهم «بل اللَّه مولاكم وهو خير الناصرين» وطاعتهم فيما أرعبوهم عن أنفسهم وأرغبوهم عن قتالهم: «سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب ..» وتأثرهم بقالتهم «لو كان محمد رسولًا لم ينهزم».

وعلى آية حال فطاعة الكفار ولا سيما حال الهزيمة العظيمة كهذه، تخلّف رداً على الأعقاب، فلا طاعة إلا للَّهورسوله «بل اللَّه مولاكم وهو خير الناصرين».

لقد انتهز الكفار- من مشركين ويهود- الفرصة الفريسة في تلك الهزيمة العظيمة القريصة ليثبطوا عزيمة المؤمنين عن مواصلة القتال، ويخوفوهم عاقبة أمرهم مع الرسول المنهزم، وجو الهزيمة هو أصلح الأجواء لبلبلة القلوب وخلخلة الصفوف وزلزلة الايمان والإطمئنان.

فقد يخيّل إلى ضعفاء النفوس من المؤمنين إمكانية الحفاظ على إيمانهم مع الإنسحاب وقتياً إلى الكفار حتى تضع الحرب أوزارها، وذلك وَهْمٌ كبير خطير، فإنه ارتداد إلى الاعقاب شاءوا أم أبوا، وإن لم يحسُّوه في الخطوة الأولى.

«سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً

---

(١)). نور الثقلين ١: ٤٠٢ عن المجمع قيل نزلت في المنافقين إذ قالوا للمؤمنين يوم احد عندالهزيمة: ارجعوا إلى اخوانكم وارجعوا في دينكم عن علي عليه السلام

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٧٥

وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ» «١»

ذلك تأمين لقلوب المؤمنين القريحة عن الهزيمة، وتحريض على مواصلة القتال، وقد رجع أبو سفيان والمشركون بعد أحد إلى مكة ثم ندموا واعتزموا الرجوع فألقى اللّه في قلوبهم الرعب فرجعوا إلى مكة فقال النبي صلى الله عليه و آله إن ابا سفيان قد أصاب منكم طرفاً وقد رجع وقذف اللّه فيقلبه الرعب». «٢»

ذلك، والقلب الخاوي عن الإيمان، المليء من الشرك، مرعوب أمام القلوب المؤمنة المطمئنة بطبيعة الحال، ما قدّم المؤمنون شرائط الإيمان والتزموا بها.

«وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» «٣»

ويا له من تعبير قدير نحرير حيث يرسم مشهد الحرب كما هو، فلا يذر حركة في الميدان، ولا خاطرة في النفوس، ولا سمة في الوجوه، ولا خالجة في الضمائر إلا ويثبتها، وكأن العبارات شريطة تحمل صوت المعركة وصورتها وسيرتها وكل ظاهرة منها او باطنة.

«ولقد» تاكيد ان اثنان أن «صدقكم اللّه وعده» حيث وعدكم أن يمدكم بعد بدر «بخمسة آلآف من الملائكة مسومين» شرطَ أن تصبروا وتتقوا و يأتوكم من فورهم

---

(١)). سورة آل عمران ٣: ١٥١

(٢)). الدر المنثور ٢: ٨٣- اخرج ابن ابي حاتم عن ابن عباس في هذه الآية قال: قذف اللّه في قلب ابي سفيان الرعب فرجع الى مكة ... وفيه اخرج ابن جرير عن السدي قال: لما ارتحل ابو سفيان والمشركون يوم احد متوجهين نحو مكة انطلق ابو سفيان حتى بلغ بعض الطريق ثم انهم ندموا فقالوا: بئسما صنعتم انكم قتلتموهم حتى لم يبق الا الشريد تركتموهم ارجعوا فاستأصلوا فقذف اللّه في قلوبهم الرعب فانهزموا فلقوا اعرابياً فجعلوا له جعلًا فقالوا له ان لقيت محمداً فأخبرهم بما قد جمعنا لهم فأخبر اللّه رسوله صلى الله عليه و آله فطلبهم حتى بلغ حمراء الاسد فأنزل اللّه في ذلك فذكر ابا سفيان حين اراد ان يرجع الى النبي صلى الله عليه و آله وما قذف في قلبه من الرعب فقال: سنلقي ..

(٣)). سورة آل عمران ٣: ١٥٢

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٧٦

هذا.

«صدقكم .. إذ تحسونهم باذنه» وهو من الحَسّ: إصابة الحِس، فقد أصبتموهم بحسهم إذ يرونكم اكثر مما كنتم تحسُّباً أن الملائكة المسمومين منكم، حيث سوَّموا وعلَموا انفسهم كل علائم الجندي المحارب في صفوفكم.

وإصابة ثانية هي إبطال حسهم عن بكرته قتلًا، فان: حسَّه، تعني أصاب حِسَّه وتلك الإصابة المزدوجة هي المعنية من «تحسونهم» دون القتل فقط فانه صيغته نفسه، ولا الاصابة الاولى فقط، فان صيغتها هي نفسها، بل هو مثنى إصابة الحس قضيةَ بلاغة التعبير ولباقته: «إذ تحسونهم بإذنه» حيث الإصابتان هما من فعل اللّه كما وعد، وليست القلة القليلة عِدة وعُدة مما تأتي بواحدة منهما.

وذلك الحَسُّ كان مستمراً في أحد «حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم»: ثالوث منحوس من التخلف عن القواعد الحرب وقوائدها.

فلقد «فشلتم» عن مواصلة المقام في مقاعدكم المقررة، ففشلتم عن الحرب «وتنازعتم في الأمر» أمر المقام وأمر القيام «وعصيتم» امر الرسول صلى الله عليه و آله وهم أولآء الذين تركوا مقاعدهم إلى اكتساب الغنيمة بعد انهزام العدو «من بعد ما أراكم ما تحبون» من الإنتصار الذي كنتم له بانتظار، والغنيمة المتروكة بعد الإنتصار.

وقد تعني «من بعد ما أراكم»- فيما عنت- الإنتصار في بدر، كما تعنيه- فيما عنت «لقد صدقكم اللّه وعده».

وما ذلك الفشل والتنازع والعصيان إلا لأن «منكم من يريد الدنيا» تاركين المقاعد المقررة إلى الغنيمة، فاغتنمه المشركون فتراجعوا عن هزيمتهم إلى عزيمتهم للانتصار.

ثم «ومنكم من يريد الآخرة» فالأولون انجرفوا الى ذلك الثالوث المنحوس والآخرون أبتلوا ببلاء الهزيمة ولكنهم ظلوا صامدين.

«ثم صرفكم عنهم ليبتليكم» والصرف هنا هو الإبعاد عن مواصلة القتال، وترى

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٧٧

كيف ينسب ذلك الصرف إلى اللّه والإنصراف عن قتال العدو محرم في شرعة اللّه.

إن ذلك الصرف هو من فعلهم لما انجرفوا في هوّة الثالوث: فشلًا وتنازعاً وعصياناً، وهو من فعل اللّه حيث ترك نصرهم بالملائكة المسومين، ووكلهم إلى أنفسهم.

كما أنه- كذلك- صَرف جماعة آخرين عن مواصلة القتال لما وهنوا وحزنوا بما انهزموا وظنوا باللّه الظنونا، صرفاً بصرف، حرفاً بحرف، هنا وهناك جزاءً وفاقاً.

«صرفكم عنهم» لأنكم انصرفتم: «فلما زاغوا أزاغ اللّه قلوبهم»- «وليبتليكم» انتهانا للمتخلّفين وامتحاناً للصامدين «ولقد عفا عنكم» بعد ما وبخكم لأنكم كنتم مقاتلين في سبيل اللّه مهما اخطأتم فإنكم- بعد- مؤمنون «واللّه ذو فضل على المؤمنين».

«إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» «١»

صرفكم «إذتصعدون» ليبتليكم «إذ تصعدون» وعفى عنكم «اذ تصعدون» ف «اذ» تتعلق بكل هذه الثلاث توافقاً لأدب اللفظ والمعنى.

والإصعاد خلاف الصعود كما الإضراب خلاف الضرب، فهو الإنصراف والذهاب بعيداً هنا عن المعركة فراراً دون قرار، لا سيما وهم زاعمون أن الرسول صلى الله عليه و آله قتيل.

«تصعدون ولا تلوون على أحد» من اللّي: الإلتفات، وهنا الإلتفات على أحد دون «إلى احد» لتعني خلاف اللفتة الحربية، فهم حين الذهاب لم يلتفتوا على أحد من المشركين ليواصلوا في قتالهم فانما أدبروا إدباراً وفراراً.

ذلك «و» الحال ان «الرسول يدعوكم في أخراكم» إذ كان يلاحقكم منبهاً أنه قائلًا:

«إليّ عباد اللّه ارجعوا إليّ عباد اللّه ارجعوا»، «٢» ولأنه لم يصعد ما صعدوا فهو- اذاً- في

---

(١)). سورة آل عمران ٣: ١٥٣

(٢)). الدر المنثور ٢: ٨٧ عن ابن عباس قال صعدوا في أحد فرأوا الرسول صلى الله عليه و آله يدعوهم في اخراهم

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏٧، ص: ٣٧٨

أخراهم من جهتين.

وقد تلمح «فأثابكم» أنهم استجابوا له فرجعوا- وكما في الأثر- وقالوا: واللّه لنأتينهم ثم لنقتلنهم فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله مهلًا فانما أصابكم الذي أصابكم من أجل أنكم عصيتموني، «١» «فأثابكم غماً بغم ..» وترى ما هو الغم المثاب به، ثم ما هو المبدل عنه؟.

الأمر الذي لابد منه في الغم الأوّل أنه هو الغم الثواب الصواب حيث يخلِّف سلب الحزن على ما فاتكم وما أصابكم، فتراه الندم على ما فشلوا وتنازعوا في الأمر وعصوا الرسول صلى الله عليه و آله؟ وليس الندم وحده هو الذي يزيل الحزن على الفائتة والمصيبة وإن كان يخففه!.

ولكن المبدل عنه وهو بطبيعة الحال غم قتال الرسول صلى الله عليه و آله هو الذي يجاوب الندم على ما كان، تناصراً في إزالة الحزن، مهما كان بضمنه غم الهزيمة وانفلات الغنيمة.

فالغم الثاني هو انفلات الغنيمة والهزيمة العظيمة والإصابة الفادحة، وكل ذلك أمام غم الرسول الإمام لا يحسب بشيءٍ فلقد تناسوا الحزن على ما فاتهم وما أصابهم لما علموا أن الرسول صلى الله عليه و آله حيٌ بعد، فلهم رجاء استمرارية النضال وجبر كل إنكسار في تلك الهزيمة.

إن الحزن على كل فائتة صالحة ومصيبة فادحة، هو طبيعة الحال للإنسان أيّاً كان، ولأن ذلك كتاب وليس ليخطأ المصاب- سواء أكان بفعل اللّه فقط أم وبما قدمته نفسه- فلا دور للحزن عليه ف «ما أصابكم من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلّا في

---

(١)). المصدر اخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس «اذ تصعدون في اخراكم» فرجعوا وقالوا ... فبينما هم كذلك اذا اتاهم القوم وقد ايسوا واخترطوا سيوفهم فأثابكم غماً بغم فكان غم الهزيمة وغمهم حين اتوهم «لكيلا تحزنوا» ...

أقول: تفسير الغمين بهذين خلاف الاثابة في الغم الأول فلا يصغى اليه، والحق هو الذي استفدناه من الآية

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏٧، ص: ٣٧٩

كتاب من قبل أن نبرأ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ...». «١»

ولكن غن الأسى على ما مضى من الفشل والتنازع في الأمر وعصيان الرسول صلى الله عليه و آله التي خلَّفت فوت الغنيمة والنصرة وفادح الإصابة، ذلك الغم المقارن باستبشار حياة الرسول صلى الله عليه و آله مما يزيل وينسي كل «ما فاتكم وما أصابكم».

فالغم الأول بديلًا عن الثاني ومسبباً عنه «٢» مع ذلك الإستبشار يحقق تلك السلبية الصالحة: «لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم» فكل نقمة أمام هذه النعمة منفية مطفيَّة، فإن حياة الرسول صلى الله عليه و آله هي فوق كل غنيمة ونصرة.

إذاً «فأثابكم غماً بغم» تعني- بصورة مختصرة- غماً هو الندم على ما قصرتم وزعمتم وظننتم، بغم هو زعم انقتال الرسول صلى الله عليه و آله وواقع الهزيمة وانقطاع الغنيمة، وما أعمقه ندماً على ما قصرّوا والرسول صلى الله عليه و آله حي وهم يزعمون أنه قد قُتِل ففشلوا وأصعدوا، حتى أدركهم في أخراهم وهو يناديهم: إليَّ عباد اللَّه إرجعوا ..».

ويا لها من إثابةٍ مصيبةٍ دورها في تناسي كل حزن ومصيبة، كما وأن فتح مكة المكرمة أنسى كل المآسي السابقة عليه واللاحقة به، فأين ذلك الفتح المبين، وتلكم المآسي بحق الرسول الأمين صلى الله عليه و آله.

أجل «فاثابكم غماً» هو الثواب الصواب بعد الهزيمة وحين الإصعاد، ذلك الغم المنبِّه المريح بعد التأكيد من حياة الرسول صلى الله عليه و آله سكوناً نفسياً بعد الإستكانة حيث تابوا إلى ربهم وثابوا إلى نبيهم، ومن ثم شملهم نعاس اطيف خلاص عما تعبوا:

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعاساً يَغْشى طائِفَةً «٣»

هنا انقسم الذين مع الرسول صلى الله عليه و آله إلى قسمين طائفة الفضيلة: «يغشى طائفة منكم»

---

(١)). سورة الحديد ٥٧: ٢٣

(٢)). حيث تتحمل الباء كلا البدلية والسببية، فكما ان الغم الأول بدل عن الثاني، كذلك هو سببعنه الا في غم انقتال الرسول صلى الله عليه و آله

(٣)). سورة آل عمران ٣: ١٥٤

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٨٠

وطائفة الرذيلة: «وطائفة قد أهمتهم انفسهم ..». فالطائفة المغشوة بالأمنة النعاس بعد إثابة الغم، هم المثابون بالغم المصيبون في أقوالهم وأحوالهم وأعمالهم بعد إثابة الغم، حيث تابوا وثابوا، وقبلهم الذين صمدوا دون أي تقصير، وثالث هم الطائفة الثانية في هذا العرض: «قد أهمتهم أنفسهم ...» لانفس الرسول صلى الله عليه و آله ولا نفيس دعوة الرسول صلى الله عليه و آله، فانما «اهمتهم انفسهم». «١»

و «أمنة» هي الأمن ذي الحراك، تعني حالة آمنة مُطَمْئِنة، و «نعاساً» هي بدل عن «أمنة» او عطف بيان أم صفة، وهي على أية حال تضيق دائرة الأمنة بالنعاس والنعاس بالأمنة، فقد ينعس الإنسان دون أمن، نعاساً من شدة الفتور والمرض، ولكنه نعاس يؤمِّن.

فالنعاس ظاهرة باهرة من رحمات اللَّه، فحين يلمُّ بالمجهدين المرهقين المفزعين وإنْ لحظة واحدة، يفعل في كيانهم فعل المعجزة حيث يردهم الى حياة جديدة، ويسكب في قلوبهم الأمنة وفي كيانهم الراحة. «٢»

وهنا تتقدم «أمنة» على «نعاساً» وفي بدر يتعاكسان: «إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماءً». «٣» واين أمنة ونعاس من نعاس، طالما يتشاركان في نازل النعمة الربانية رحمة على المسلمين.

---

(١)). الدر المنثور ٢: ٨٧- اخرج ابن جرير عن السدي ان المشركين انصرفوا يوم احد بعد الذي كان من امرهم وامر المسلمين فواعدوا النبي صلى الله عليه و آله بدراً من قابل فقال لهم نعم فتخوف المسلمون ان ينزلوا المدينة فبعث رسول اللَّه صلى الله عليه و آله

رجلًا فقال انظر فان رأيتهم قد قعدوا على اثقالهم وجنبوا خيولهم فان القوم ذاهبون وان رأيتهم قد قعدوا على خيولهم وجنبوا اثقالهم فان القوم ينزلون المدينة فاتقوا اللّٰه واصبروا ووطنهم على القتال فلما ابصرهم الرسول قعدوا على الأثقال سراعاً عجالًا نادى بأعلى صوته بذهابهم فلما رأى المؤمنون ذلك صدقوا نبيَّ اللّٰه فناموا وبقى اناس من المنافقين يظنون ان القوم يأتونهم فقال اللّٰه يذكر حين أخبرهم النبي صلى الله عليه و آله: ثم انزل ..

(٢)). روى الترمذي والنسائي والحاكم من حديث حماد بن أبي سلمة عن ثابت عن انس عن ابي طلحة قال: رفعت رأسي يوم احد وجعلت انظر وما منهم يومئذٍ أحد إلا يميل تحت جحفته وفي لفظ آخر عن ابي طلحة: خشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم احد فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ويسقط وآخذه

(٣)). سورة الأنفال ٨: ١١

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٨١

ولقد غشاهم- كلهم- النعاس أمنة منه يوم بدر، وتفرقوا في أحد إلى ثلاث: منهم من نعس دون تغشية وهو السِنة قبل النوم، وآخرون بتغشية هي كامل النوم، ف «يغشى طائفة منكم» تعني أن الاخرى نعست دون تغشية، وثالثة لم تنعس وهي التي «قد أهمتهم انفسهم».

ثم «وطائفة» هنا مبتدء خبره «يظنون» ووصفه «قد أهمتهم انفسهم» فهم خارجون عن النعاس وغشيانه.

أترى هذه الطائفة الأخيرة هي من المؤمنين؟ وقد «أهمتهم أنفسهم» رسول اللّٰه ولا شرعة اللّٰه! ثم المواصفات التالية لا تناسب صادق الايمان ولا أصله!.

أم هم المنافقون أصحاب عبد اللّٰه ابي الذين تخلفوا عن حرب أحد منذ البداية؟

وهم ليس بمغفور لهم «ولقد عفى اللّٰه عنهم إن الله غفور حليم». «١» وإنما ذكروا بعد في «وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل اللّٰه أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالًا لاتبعناكم هم للكفر يومئذٍ أقرب منهم للايمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم واللّٰه أعلم بما يكتمون». «٢» وتلك الطائفة قد شاركت في القتال مهما تخلف قبل الهزيمة وفشلت بعدها وكما تؤيده «لو كان لنا من الأمر شيءٌ ما قتلنا ههنا» و «قل لو كنتم في بيوتكم ..» واصحاب ابن أبي رجعوا الى المدينة قبل الحرب فكانوا في بيوتهم عندها، فلا تصدق في حقهم الآيتان.

فهم إذاً ضعفاء الايمان، لا مؤمنون تماماً ولا منافقون تماماً، بل هم عوان بينهما، طائفة متزعزعة الإيمان، حيث شغلتهم انفسهم وأهمتهم إذ لم يتخلصوا بعد من تصورات الجاهلية وهم مؤمنون، وليس أنهم تخلوا من اللّٰه عن أوليائه لأعدائه، ولا قضاء منه سبحانه عليهم بالكفر والنفاق، وإلا لم يشاركوا في النضال.

إنهم بعدُ في قلق وتأرجف، يحسبون أنهم ضايعون فيما هم يجهلون، فيظنون باللّٰه

---

(١)). سورة آل عمران ٣: ١٥٥

(٢)). سورة آل عمران ٣: ١٦٧

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٨٢

غير الحق أنهم مندفعون في هذه المعركة الصاخبة اندفاعاً دونما تصميم واضح ولا هدف صالح إذ لم ينصرهم اللّٰه فانهزموا أذلة صغاراً.

وهنا مواصفات لهذه الطائفة تقرر موقفها العوان:

١- «قد اهمتهم أنفسهم» فهم مهما دخلوا في معارك الشرف والكرامة ولهم حظ من الايمان ولكنهم عند البلية «أهمتهم انفسهم» حفاظاً عليها وجلباً لمصلحياتها النفسية، فلا يدينون دين الحق إلا لأنفسهم لأنه عامل غير مغلوب، يدورون معه ما درت عليه معايشهم فإذا محصوا بالبلاء قل الديانون.

٢- «يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية» والظن بالحق المطلق غيرَ الحق هو من أنحس الظن وأتعسه، وهو ظن الجاهلية الناكرة لوحدة الربوبية، ظناً أنها مقسمة بين أرباب عدة، فلنا إذاً من الأمر شيءٌ!.

٣- «يقولون هل لنا نت الأمر شيءٌ» امر التشريع وأمر الشرعة وأمر التكوين، ومن الأخير أمر الغلبة كما من الثاني أمر الحق، واذا كان لنا ككمسلمين من أمر الغلبة شيءٌ فلماذا الهزيمة الفادحة؟ وإذا كنا على الحق فلماذا غلَبُ الباطل علينا؟ «قل إن الأمر كله لله» فإذا «ليس لك من الأمر شيءٌ» وأنت رسول، فبأحرى ليس لهم من الأمر شيءٌ وهم متخلفون عن أمر الرسول صلى الله عليه و آله، وفي استئصال الأمر عنهم كلهم للهدليل على المعني من الأمر هنا أنه أمر الله، فلابد وأن يشركنا الله به في بعض أمره ومنه الغلبة على أعداءه، ف «هل هنا» اعتراض على فاعلية الإيمان، كأنه لا فاعلية له فالمؤمن وسواه سواءً في الغلبة وسواها، فإنما لكلٍّ أسبابه المتعودة دون نصرة من الله خاصة لقبيل الايمان!.

ف «قل إن الامر كله لله» إجابة عن هذه الجهالة الفاتكة وايكال للامور الخاصة بالله الى الله، ثم الله ينصر المؤمنين إن اقاموا شرائط الايمان، وحين يصبح الإيمان في هوّة السقوط أمام اللّايمان، والمؤمنون موفون بشرائط الايمان فقد ينصرهم الله كما نصرهم في بدر وهم أذلة.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٨٣

٤- «يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك» نحن قد نبديه لك لتعرفهم وهو:

٥- «يقولون لو كان لنا من الأمر شيءٌ ما قتلنا ههنا» و «هل لنا ..» استفهام إنكار في مظهر الشك، ولكنهم يخفون «لو كان لنا» حيث أحالوا أن لهم «من الأمر شيءٌ».

وقد يعنون بالأمر هنا أمر الإنتصار او الحق او تحقيق وعد الله ناكرين أنه لهم خلاف ما وعد الله، و «ما قتلنا ههنا» قد تعني ما وقعنا في موقف القتل بعد الهزيمة، حيث القتيل ليس له هكذا قول، أم وتعني ما قتل من قتل منّا وقد قتلوا، والجواب:

«قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مصاجعهم ..» فليس القتل صُدفة عمياء وفوضى جزاف، إنما هو مكتوب كما الموت، يحصلان عند أجلهما شئت أم أبيت: «ألم‌تر الى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلًا. أين ما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ..». «١»

أجل، وإن القتال في سبيل الله لا يعجّل أجلًا، كما الفرار من الزحف او عدم المشاركة فيها لا يؤجل عَجَلًا، فالأجل بمحتومه ومعلّقه مكتوب عند الله، وليس لنا أو علينا إلّا المضي في طاعة الله مهما كلف الأمر.

فالحذر في غير الصواب لا يدفع القَدَر، والتدبير فيه لا يقاوم التقدير، فالذين كتب عليهم القتل أو الموت لابد لهم أن يُقتلوا أو يموتوا على أية حال في الوقت المقدر لهما.

وهنا سئوال يفرض نفسه هو أنه لو انحصر الموت باذن اللّه دون تدخّل للاسباب المقدمة له منا، فلا علينا أن نتعرض لأسباب الموت والقتل على أية حال، وليس القاتل- إذاً- إلّا عاملًا من عمال اللّه في إذنه للموت؟.

---

(١)). سورة النساء ٤: ٧٨

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٨٤

والجواب أن الأجل بين محتوم ومعلّق، ولا مردَّ للمحتوم سواءً خرجتَ من بيتك في سبيل الحق او الباطل، فقد يأتيك الأجل المقرر. فالتارك للقتال خوفة عن القتل ليس يتركه الأجل المحتوم بتركه وسواه.

وأما الاجل المعلق، فقد يعلق على محظور محذور كالاسباب المحرمة للموت فحذار حذار منها، فان مات بذلك الأجل فبتقصيره تكليفاً وإذن اللّه تكويناً، وقد لا يأذن فلا يموت، أو يعلق على سبب مشكور فبتطبيقه واجبه امام اللّه وبإذن اللّه، وقد لا يأذن فلا يموت.

فالموت بأجل معلق على تشريع اللّه وتكوينه موت مجبور حيث اذن اللّه كاقتيل في سبيل اللّه، وهو معلقاً على أجل في التكوين دون التشريع محظورٌ إذا كان باختياره، وهو لا مجبور ولا محظور إذا لم يكن باختياره.

ففي ملتقي المشيئتين الإلهتين للموت هو مشكور وصاحبه شهيد، وفي مفترقهما أن يموت دون إذن في شرعة اللّه فليس مشكوراً وهو محظور إن أقدم عليه بعلم واختيار.

وترى «كتب عليهم القتل» كتابة شرعية؟ وقتل المؤمن في الجهاد هو فعل الكافر فكيف كُتب؟ إنها كتابة تكوينية بما يعلم اللّه أن نفوساً يموتون عند أجلهم قتلى، ولا تنافي هذه الكتابة في علم اللّه وتقديره إختيار المتقاتلين في القتال، فلا القاتل مسيَّر ولا المقتول، بل هما مخيران في أسباب القتل وانما الموت المسبب عنه بيد اللّه: «وما كان لنفس أن تموت إلّا باذن اللّه كتاباً مؤجلًا»، وهو كتابة شرعية حيث أمر اللّه، فالشهادة هي مجمع الكتابتين.

ذلك- «وليبتلي اللّه ما في صدوركم ويمحص ما في قلوبكم» في هذه المعارك المكتوبة عليكم «واللّه عليم بذات الصدور».

فليس كالمحنة محكٌ يبتلى بها ما في الصدور ويمحِّص ويصهِّر ما في القلوب، فتنفي عنها الزيف والرئاء، ويكشفها على حقيقتها بلا طلاء ولا أي خفاء، وهذا هو

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٨٥

حق التصحيح للتصور فلا يبقى فيه غبش ولا خلل ولا أية علل.

إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ «١»

المتولون هنا هم الرماة العصاة الذين تركوا مقاعد القتال التي قررها عليهم رسول اللّه صلى الله عليه و آله أم واضرابهم، «٢» لا والمنفقون فانهم انحازوا قبل التقاء الجمعين، فهم أولاء الموصوفون في آية مضت وأضرابها، فلم يكونوا هم من المنافقين المعاندين «إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا» في معركة نفسية، فتخلوا في معركة الميدان، فلذلك «ولقد عفى اللّه عنهم» إذ لم يكونوا معاندين «ان اللّه غفور حليم»، يغفر ويحلم ما له موضع صالح، والمؤمن مهما أخطأ ببعض ما كسب فاستزله الشيطان، فهو بعدُ مؤمن، ليس كافراً ولا منافقاً معاندَين، وكما يخاطَبون في آيات تالية بخطاب الإيمان.

وهذه ضابطة ثابتة أن كل زلة تخلِّف زلة أخرى إلا أن يتاب عنها، فمكاسب السوء غير المنجبرة بالتوبة تستزل اصحابها في اضرابها، وبأسوء وأنكى.

ولعلّ «بعض ما كسبوا» هنا ما جال في نفوسهم أن رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله قد يحرم أنصبتهم من الغنيمة فاستزلهم الشيطان بهذه الزلة التي كسبوها، فعصوا الرسول صلى الله عليه و آله وتركوا مقاعدهم. «٣»

---

(١)). سورة آل عمران ٣: ١٥٥

(٢)). نور الثقلين ١: ٤٠٣ في تفسير العياشي عن زرارة وحمران ومحمد بن مسلم عن احدهما عليهما السلام في قوله: «انما استزلّهم الشيطان» فهو عقبة بن عثمان وعثمان بن سعد، وفيه عن عبد الرحمن بن كثير عن ابي عبد اللّٰه عليه السلام في الآية قال: هم اصحاب العقبة

(٣)). الدر المنثور ٢: ٨٩- اخرج ابن ابي حاتم عن سعيد بن جبيران الذين تولوا منكم- يعني انصرفوا عن القتال منهزمين يوم التقى الجمعان يوم احد حين التقى الجمعان جمع المسلمين وجمع المشركين فانهزم المسلمون عن النبي صلى الله عليه و آله وبقي في ثمانية عشر رجلًا انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا يعني حين تركوا المركز وعصوا امر رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله حين قال للرماة يوم احد لا تبرحوا مكانكم فترك بعضهم المركز ولقد عفا اللّٰه عنهم حين لم يعاقبهم فيستأصلهم جميعاً ان اللّٰه غفور حليم فلم يجعل لمن انهزم يوم احد بعد قتال بدر النار كما فعل بدر فهذه رخصة بعد التشديد

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٨٦

ذلك ولكن الآية تصوِّر صورة دائمة للنفس البشرية حين ارتكاب الخطيئة أنها تفقد ثقتها في قوتها ويختل توازنها وتماسكها فتصبح عُرضة لكل عارض من الوساوس والهواجس، وعندئذٍ يجد الشيطان سبيله إلى هذه النفس الفاترة، فيقودها إلى زلة بعد زلة، حتى ينقطع بهم في تية الضلالة ومتاهة الغواية.

وإنما «عفى اللّٰه عنهم» هنا زلتهم بعد زلة لأنهم بعدُ مؤمنون مهما أخطأوا، وتاركون لقسم كبير من الكبائر وهم في خِضمِّ القتال في سبيل اللّٰه: ف «إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ١٥٦ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ١٥٧ وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ١٥٨ فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ ١٦٠ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ١٦١ أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ١٦٢ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ١٦٣ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ «١»

هذه الآيات هي سنادات أخرى بعد ما قدمنا هنا، على أن «الذين تولوا منكم يوم

---

(١)). سورة آل عمران ٣: ١٥٦ و ١٥٧ و ١٥٨ و ١٥٩ و ١٦٠ و ١٦١ و ١٦٢ و ١٦٣ ١٦٤

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٨٧

التقى الجمعان ..» و «طائفة قد أهمتهم انفسهم» هم كانوا من المؤمنين لا المنافقين، فالمنافق لا يخاطَب ابداً بخطاب الإيمان، وقد يخاطَب بخطاب الكفر، إذ هو كافر في قلبه مهما كان مسلماً بلسانه فليس من المؤمنين.

والمنافق لا يشاوَر بحضرة الرسالة وقد أمر الرسول صلى الله عليه و آله أن يشاورهم ضمن سائر المؤمنين فإن «لنت لهم» ليس إلا وجاه من خالف وتخلّف عن أمر الرسول صلى الله عليه و آله، كما و «هم درجات» يجعلهم كلهم في كتلة الإيمان، وليس المنافق في أية درجة من درجات الإيمان.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ «١»

هنا «الذين كفروا» يعم المنافقين إلى الكفار الرسميين، فيشمل قول عبد اللّه بن أبي سلول والنافقين الذين انحازوا معه يوم أحد قبل الحرب، الى قول المشركين وسائر الكافرين، فذلك الثالوث من الكفر المنحوس له هذه القولة القائلة: «لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ...».

ويكأن عندهم أماناً عن مضيّ تقدير اللّه، مُنعةً عن الموت المقدر أم قتله؟ «وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن اللّه كتاباً مؤجلًا»!

هنا «ضربوا في الأرض» حيث تقابل «أو كانوا غزى» تختص بالسفر في غير الجهاد، مهما اختص أحياناً اخرى بسفر الجهاد ك «اذا ضربتم في الارض فليس

---

(١)). سورة آل عمران ٣: ١٥٦

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٨٨

عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ان خفتم ان يفتنكم الذين كفروا». «١» إذاً فالضرب في الأرض هو مطلق السفر أم مطلق سفر الخوف في جهاد وسواه، و «أو كانوا غزى» مطلق الجهاد في سفر أو حضر.

فليس الضرب في الأرض أي سفر، إنما هو الإنجاد في السير والإيغال في الأرض، تشبيهاً للخابط في البر بالسابح في البحر لأنه يضرب بأطرافه في غمرة الماء شقاً لها واستعانة على قطعها.

إذاً فهو السفر الشاق في غزو كان أم في تجارة، دون الأسفار المريحة التي ليست فيها أية صعوبة نفسية أو جسدية، فانها يعبر عنها بالسفر.

ثم «ما ماتوا» تختص ب «إذا ضربوا» و «ما قتلوا» ب «أو كانواغزىً» مما يدل على اختلاف الموت عن القتل.

ففهل هما متباينان، فالقتيل غير الميت والميت غير القتيل؟ «٢» أم بينهما عموم مطلق، فكل قتيل ميت وليس كل ميت قتيلًا؟ لكلٍّ وجه، وقد يساعد الأوّل أن قتيل إن كان في سبيل اللّه رجع يوم الرجعة ليموت، وان كان في غير سبيل اللّه رجع كذلك وكما في المستفيضة: «يرجع من محض الايمان محضاً او محض الكفر محضاً».

ولكنه يبقى السؤال بالنسبة لمن يقتل خارجاً عن السبيلين كاصطدام السيارة أم السقوط عن الطائرة أو غرق الباخرة أما شابه، فمهما كان في هؤلاء من محّض الايمان محضاً أو محض الكفر محضاً ولكن بينهما منهم عوان وهم الأكثرية الساحقة.

ثم الموت لا يعني إلا خروج النفس عن البدن بأي سبب كان، فانما اشتهر في غير

---

(١)). سورة النساء ۴: ١٠١

(٢)). نور الثقلين ١: ۴٠٢ في تفسير العياشي عن زرارة قال: كرهت ان اسأل ابا جعفر عليهما السلام عن‌الرجعة واستخفيت ذلك، قلت لأسألن مسألة لطيفة ابلغ فيها حاجتي فقلت: أخبرني عمن قتل او مات؟ قال: لا- الموت موت والقتل قتل، قلت: ما أحد يقتل إلا وقد مات؟ فقال: قول اللَّه أصدق من قولك فرق بينهما في القرآن فقال: «افإن مات او قتل» وقال «لئن متم او- قتلتم- إلى تحشرون» ليس كما قلت يا زرارة، الموت موت والقتل قتل، قلت: فان اللَّه يقول: كل نفس ذائقة الموت؟ قال: من قتل لم يذق الموت ثم قال: لابد من ان يرجع حتى يذوق الموت

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‌٧، ص: ٣٨٩

السبب الظاهر للموت بالموت، وفي الظاهر بالصلب والغرق والحرق والقتل وما أشبه، ومن ثم «واللَّه يحيي ويميت» إنما تصلح جواباً عن «ماماتوا وما قتلوا» إذا عم «يميت» كلا الموت والقتل، فطالما الموت لازم لا يشمل القتل لتعدِّيه، ولكنه يشمله اعتباراً بحاصل القتل وهو الموت وليس إلّا بإذن اللَّه.

بل والموت على لزومه يشمل القتل على تعدِّيه اعتباراً بالحاصل عنهما وتصديق ذلك قوله تعالى: «ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون». «١» حيث المورد هنا هو القتل المعني بالموت، فلا تعني مقابلة الموت بالقتل تباينهما كلياً بل هو عموم مطلق.

ثم «قالوا لإخوانهم» هل تعني إخوانهم في النسب؟ وهذه القولة لا تختصهم مهما كانت لهم أنسب، أم لإخوانهم في الدين وهم الكافرون الذين ماتوا أو قتلوا، قولة غائلة تثبِّط عن كل ضرب في الأرض أم قتال، فيهما خوف الموت أو القتل، تجميداً للحياة الحركية في سبيل المصالح الهامة المعنية لكمال الإنسان؟.

قد تعني «إخوانهم» كل من لهم بهم صلة الأخوة نسبية او سببية أماهيه، فولًا يعني الميْت والقتلى من المسلمين الذين كانوا من قبل كافرين، يقولونها لهم تجميداً عن كل حراك صالح في سبيل الحق «لو كانوا عندنا» مشاركين معنا في الكفر أو مسلمين «ما ماتوا وما قتلوا» كما ويعني الميْت والقتلى من أنفسهم، تحسراً على ما أصابهم في القتال، مهما كانت مفروضة عليهم حفاظاً على ضفَّة الكفر.

وترى كيف «قالوا لإخوانهم» وهم مَيْت أو قتلى؟ علّهم قالوها قبل ضربهم في الأرض أو غزوهم، وكما قالوا لهم- اي: لأجعلهم، بعد ما ماتوا او قتلوا كما «قال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا اليه». «٢» والجمع أجمل وأجمع واوسع لهذه الدعاية المجمدة للطاقات، بثاً لهذه الدعاية في صفوف المجاهدين في خطوط

---

(١)). سورة آل عمران ٣: ١۴٣

(٢)). سورة الأحقاف ۴۶: ١١

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‌٧، ص: ٣٩٠

النار، ولكي يربحوا الحرب لأنفسهم.

«ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم»- «لا تكونوا .. ليجعل الله» فحين لا تؤثر فيكم تلك الدعاية الكافرة فتتدفقون إلى الجهاد، أصبح ذلك حسرة في قلوبهم.

و «قالوا لإخوانهم .. ليجعل الله» فإنهم متحسرون بموت أو قتل إخوانهم في الكفر، حيث يخيِّل إليهم «لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا».

ف «ليجعل» في الأوّل غاية معلومة مقصودة «لا تكونوا ليجعل» وفي الثاني غير مقصودة ولا معلومة لهم، فانما هي غاية ثابتة مهما لم يشعروها كما في «فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزنا». «١» والمعنيان معنيَّان فإنهما لهم عانيان حسرة على حسرة في تلك القالة الغائلة، فحين يسمع أقارب هؤلاء الميّت والقتلى الكافرون هذه القالة يتحسرون كما القائلون.

وحين يذيعون هذه الشبهة بين المسلمين فلا يجدون لها موضعاً عند اقوياء هم بسناد إيمانهم، ولا عند ضعفائهم حيث نهاهم الله عن هذه القولة، فهم يتحسرون أن خاب كيدهم وغاب ميدهم عن كتلة الايمان.

ثم «والله يحيي ويميت» تاكيد على حصر الإماتة كما الإحياء بحضرة الربوبية ف «ما كان لنفس أن تموت إلا باذن الله كتاباً مأجلًا».

وهنا «قالوا ..» من الفوارق الرئيسية بين ضفَّة الإيمان والكفر، فلا يرى المؤمن في نضاله إلا إحدى الحسنيين، والكافر متحسر في موته أو قتله إذ لا مولى له ولا رجاء إلّا هذه الدنيَّة.

فالمومن الصالح مدرك لسنن الله، متعرف إلى مشيئة الله، متعرِّق في حب الله والثقة بالله، عارف انه لن يصيبه في سبيل الله إلّا ما كتب الله، وأن ما أصابه فيها لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فلا يتلقى الضراء بالجزع ولا السرّاء بالزهو والهَلَع.

---

(١)

). سورة القصص ٢٨: ٨

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٩١

وعارف أن مجال التقدير والتدبير والرأى والشورى، كل ذلك قبل الإقدام، فإذا أقدم في حدود علمه وصالحه ومسئوليته المحمَّلة عليه استسلم لكل الخلفيّات، عارفاًانها مقضيَّة له في كتاب «ما أصابكم من مصيبة في الارض ولا في أنفسكم إلّا في كتاب من قبل أن نبرأها لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم». «١»

ويا له من توازن بين الكدح والسعي، والتسليم أمام الواقع الممضاة!.

مستهم البأساء والضراء ...

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ «٢»

«أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين». «٣»- «أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون». «٤»- «أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم يفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمنَ الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين». «٥»

كلا! وإنه حسبان قاحل باطل والدار الإمتحان، وعند الإمتحان يكرم المرء او يُهان، فليس- فقط- الإيمان هو الكافل لهدي الصراط المستقيم، بل وصمود الإيمان عند كل ابتلاء وإمتحان، ولأن الأمة المرحومة هي آخر الأمم ورسالتها أكمل الرسالات، جامعة لها أجمع وزيادة، فلتحلِّق عليها ابتلاآت الأمم كلها على ألوانها،

---

(١)). سورة الحديد ٥٧: ٢٣

(٢)). سورة البقرة ٢: ٢١۴

(٣)). سوورة آل عمران ٣: ١۴٢

(۴)). سورة التوبة ٩: ١۶

(۵)). سورة العنكبوت ٢٩: ٣

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٩٢

حيث النص «مثل الذين خلوا من قبلكم» الشامل لكل الأمم الرسالية برسلهم، وكما ابتلي الرسول صلى الله عليه و آله بكل ما ابتلي به كل الرسل، كذلك أمته، فليأتها «مثل الذين خلوا ..»

ككلٍّ ودون إبقاء: ف «لتركبن طبقاً عن طبق». «١» سننَ من كان قبلكم، ولأنكم تحملون أعظم الرسالات الإلهية، وانما يُقدَّر الإبتلاء بقدر الحِمل والثقل.

ولقد أصاب النبي صلى الله عليه و آله يوم الأحزاب وأصحابه بلاءٌ وحصر وكما قال اللَّه: «إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون باللَّه الظنونا. هنالك أبتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالًا شديداً. وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا اللَّه ورسوله إلَّا غروراً». «٢»

وفي مواقف أخرى لا نحصيها، «قلنا يا رسول اللَّه ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو اللَّه لنا؟

فقال: إن من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفرق رأسه فيخلص إلى قدميه لا يصرفه ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه لا يصرفه ذلك عن دينه، ثم قال صلى الله عليه و آله: «ليتمنَّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلّا اللَّه، والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون»، «٣» وقال صلى الله عليه و آله:

«إن اللَّه ليحرب عليكم بالبلاء وهو أعلم به كما يجرب أحدكم ذهبه بالنار فمنهم من يخرج كالذهب الأبريز فذلك الذي نجاة اللَّه من السيئات ومنهم من يخرج كالذهب الأسود فذلك الذي قد أفتتن». «۴»

وهكذا يخاطب اللَّه الجماعة المسلمة الأولى- وإلى البقية حتى الأخيرة- توجيهاً إلى تجارب الجماعات المؤمنة التي خلت من قبل، وإلى سنته السنية في تربية عباده المختارين، الذين يكل إليهم راية الإيمان، وينوط بهم أمانة الإيمان، خطاباً مطرداً

---

(١)). سورة الإنشقاق ٨۴: ١٩

(٢)). سورة الأحزاب ٣٣: ١٢

(٣)). المصدر اخرج احمد والبخاري وابو داود والنسائي عن خباب بن الارت قال قلنا يا رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله ..

(۴)). المصدر اخرج الحاكم وصححه عن ابي مالك قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏٧، ص: ٣٩٣

لكل من يختار لذلك الدور العظيم.

وإنها تجربة حلوة مُرة مرت مع الزمن الرسالي على مدار الزمن، أن تمسهم البأساء والضراء: الشدة التي تصيب الإنسان خارج نفسه أو داخلها «١» فيزلزلوا على صامد إيمانهم «حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر اللّه» فيجابوا: «ألا إن نصر اللّه قريب» مهما بعدت مدته، فان كل آت قريب، ولا سيما لهؤلآء الذين ينصرون اللّه فإنه هو ناصرهم قريباً أم بعيداً وهو على أية حال قريب.

إن نصر اللّه مدَّخر لمن يستحقونه، موعود لهم حين يستحقونه، وهم الذين لا تزل بهم الزلازل، ولا تزعزعهم عن إيمانهم القلاقل، ولا يُحنون رؤوسهم للعواصف، ولا تُكسر ظهورهم بالقواصف، حتى تبلغ البأساء والضراء والزلزال ذروتها، فملئت الأرض ظلماً وجوراً، فهنالك يبعث اللّه مهدي الأمم وصاحب العصر وإمام الدهر الحجة بن الحسن القائم عجل اللّه تعالى فرجه الشريف، الذي به يملأ اللّه الأرض قسطاً وعدلًا كما ملئت ظلماً وجوراً.

ذلك نصر اللّه المطلق المطبَق، ثم له نصرٌ قبله قدر ما حاولوا وجاهدوا في اللّه «وأن ليس للإنسان إلّا ما سعى».

فلقد وعد اللّه المرسلين والمؤمنين النصر: «إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الإشهاد». «٢» ولكن البأساء والضراء قد تزلزلان المؤمنين حتى يضطر الرسول ان يقول: متى نصر اللّه «حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا». «٣» وذلك إستيآس من إيمان مَن كَفَر واطمئنان من آمن، فعند ذلك

---

(١)). قال ابن عباس: لما دخل رسول اللّه صلى الله عليه و آله المدينة اشتد الضرر عليهم لانهم خرجوا بلا مال‏وتركوا ديارهم واموالهم في ايدي المشركين واظهرت اليهود العداوة لرسول اللّه صلى الله عليه و آله فأنزل اللّه ام حسبتم ..» وقال قتادة والسدي: نزلت في غزوة الخندق حين اصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد والحزن وكان كما قال اللّه: وبلغت القلوب الحناجر وتظنون باللّه الظنونا

(٢)). سورة المؤمن ٤٠: ٥١

(٣)). سورة يوسف ١٢: ١١٠

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏٧، ص: ٣٩٤

«جاءهم نصرنا».

تكتية حربية «لا تتخذوا بطانة من دونكم»

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَايَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ «١»

البطانة خلاف الظِهارة، وتستعار لمن تختصه بالإطْلاع على خفيات أمورك المستترة، فقد تكون بطانة خير فمحبورة مشكورة، أم بطانة شرة فمحظورة محذورة. «٢»

و «بطانة من دونكم» تعم مَن سوى المؤمنين، ملحدين او مشركين، او مسلمين:

منافقين، او الذين أسلموا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم، ولكن «لا يألونكم .. ودوا ..

قد بدت ..» تستثني الآخر، كما وقد تستثني غير المعاندين من الكفار، ولكن غير المؤمن أياً كان لا يصلح أن يكون بطانة للمؤمن، مهما اختصت هذه العلل لسبيلة البطانة بالأعداء الألداء منهم.

و «بطانة» هنا قد تكون ذات تعلقين اثنين «لا تتخذوا بطانة» هي «من دونكم» و «لا تتخذوا من دونكم بطانة» فدون المؤمنين لا يصلح لكونهم بطانة للمؤنين ولا سيما في جمعية المصالح الإسلامية التي هي بحاجة إلى شورى العابد من أمة الاسلام كما فصلناها على ضوء آية الشورى.

وهنا مربع الحِكَم الحكيمة تُعَلِّل «لا تتخذوا» لنكون على بصيرة في أمرنا معهم:

---

(١)). سورة آل عمران ٣: ١١٨

(٢)). في غريب القرآن للراغب وروي عنه صلى الله عليه و آله انه قال: ما بعث اللّه من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان تأمره بالخير وتحضه عليه وبطانة تأمره بالشر وتحثه عليه.

أقول: ولكن بطانة الشر ما كانت تقدر على اضلاله وما كان نبي ولا خليفة نبي يتخذ لنفسه بطانة شر مهما لصقوا به

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٩٥

١- «لا يألونكم خَبالًا» والخَبال لغوياً هو الفساد الذي يلحق الحيوان فيورثه اضطراباً، كما بالنسبة للمنافقين في أخرى: «لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلّا خبالًا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم واللّه عليم بالظالمين. لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلّبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر امر اللّه وهم كارهون». «١»

و «خبالًا» في آيتنا، نكرة في سوق النفي، تشمل كل خبال ثقافي- عقيدي- خلقي- إقتصادي- سياسي، أمّا ذا من فساد واضطراب.

و «يألونكم»: يقصرونكم من الألْو: التقصير، فهم أولاء لا يقصرونكم خبالًا وفساداً في أيٍّ من حقوله، فذلك مدى جُهدهم في خَبالكم ما استطاعوا إليه سبيلًا، فإن يقدروا على خبالكم بذات أيديهم فهم- لأقل تقدير- يودونه:

٢- «ودوا ما عنتم»: ودوا عَنَتَكم- في مصدرية «ما»- والذي عنتموه- موصوليته- والعَنَت هو الأمر الذي يُخاف منه التلف، فهم- إذاً- لا يألونكم خبال العنت وسواه، حيث يودون أن يكون كل أمركم إمراً وصعوبة وهلاكاً حيث يبغضونكم على آية حال:

٣- «قد بدت البغضاء من أفواههم» أتوماتيكياً رغم ما يحافظون على قيلاتهم أمامكم، فما يضمر أحدٌ أمراً إلّا وقد يظهر في صفحات وجهه وفلتات لسانه.

٤- «وما تخفي صدورهم أكبر» مما تبدو من افواههم، وهذه هي آيات عداءهم العارم

«قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون».

ويا لها من صورة بينة السمات، ظاهرة الوصمات لاعدائنا الالداء، تنطق لائحة بدخائل هذه النفوس البيئسة التعيسة، تيجل المشاعر الباطنة والانفعالات الظاهرة والحركات النتؤرجفة ذاهبة وآئبة، وكل ذلك لنموذج بشري شرير في الطول التاريخي والعرض الجغرافي، نستعرضها في حالنا ومستقبلنا كما عرضوا علينا في

---

(١)). سورة التوبة ٩: ٤٨

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٩٦

ماضينا.

هؤلاء الانكاد الذين يتظاهرون للمسلمين بالمودة في ساعة القوة، فتكذِّبهم كل خالجة منهم وخارجة، وينخدع بهم المسلمون لظاهر رحمتهم غفلة او تغافلًا من باطن زحمتهم فيمنحونهم الثقة واوداد، وهم لا يألونهم خبالًا ونثراً لأية شائكة في طريقهم ما سَنح لهم وفُسح من شر وضر.

تلك الصورة كانت منطبقة تماماً على قسم من اهل الكتاب الحضور زمن الرسول صلى الله عليه و آله حيث جاوروه في المدينة بكل غيظ كظيم مضمر على المسلمين، والنوايا الخبايا السيئة التي كانت تجيش في صدورهم، والبعض من المسلمين، كانوا- ولا يزالون- ينخدعون بمظاهرهم الحلوة، فيلقون اليهم بالمودة، ويأمنونهم على اسرار لهم كبطانة امينة، فجاء ذلك التنوير التحذير، دون اختصاص بزمن دون زمن، بل هو حقيقة ثابتة تواجه ذلك الواقع المرير الشرير من هؤلآء المنافقين، اهل كتاب او مسلمين.

ذلك! فهل من عقل الإيمان أن تودوهم وتحبوهم دونما عائدة إلا ضراً؟.

هَا أَنْتُمْ أُوْلَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ «١»

«ها» تنبيه لهامة الموقف الخطير «انتم» المسلمين «أولاء» «تحبونهم» اولاءِ الكافرين، وذلك خلاف العقلية الإيمانية، فأنتم «انتم» المؤمنون الصالحون و «أولاء» أولئكم الكائدون الحاقدون، فكيف «تحبونهم» «و» الحال أنهم «لا يحبونكم» أفحباً من ناحية أمام بغض من أخرى، ودون أن يؤثر ذلك الحب تخفيضاً من ذلك البغض البغيض، بل تعزيزاً لبغضهم، وتمكيناً لهم من خَبال وإدغال؟.

ثم «وتؤمنون بالكتاب كله» هذا القرآن وما بين يديه من كتاب، وهم لا يؤمنون

---

(١)). سورة آل عمران ٣: ١١٩

بالكتاب كله، ولا حقّاً بالكتاب بعضه، إذ لا يتبعون كتاباتهم فضلًا عن كتابكم.

وقد تلمح «الكتاب كله» دون «الكتب كلها» بوحدة الكتاب لوحدة الامم الكتابية بوحدة الرسالات.

ثم «وإذ لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ» إذ يرونكم جميعاً وهم شتى، ولكم قوة وسداد وهم ضعف وبداد، ولا جواب لهم في بغضهم البغيض إلّا:

«قل موتوا بغيظكم إن اللَّه عليم بذات الصدور» ومنها صدوركم المليئة من بغض المؤمنين، وهنا «موتوا بغيظكم» أمراً، يعاكس «ولا تموتن إلّا وانتم مسلمون» نهياً، وهما في مجرى واحد في حالة الإختيار، فمهما لم يكن الموت تحت الإختيار ولكن الإسلام والكفر هما تحت الإختيار، فقد تعني «موتوا بغيظكم» استمروا بغيظكم اميت عن حيويتكم، او حتى الموت، امراً تحذيرياً هو ابلغ من النهي ك «إعملوا على مكانتكم اني عامل فسوف تعلمون».

وقد تعني باء الغيظ كلا المعية والسببية، فذلك الغيظ يميت صاحبه حين لا يجد مَفلتاً منه ولا من سببه، وهو معه اينما حل وارتحل حتى الموت، واستمرارية الغيظ تزيد فيه وتزيد حتى يميت.

وفي ذلك لمحة أن استمرارية الغيظ بمزيد هي من أسباب الموت، لانها حالة نفسية رديئة لا تستطيع النفس أن تتحملها، فيوماً مّا هي تتغلب عليها فتميت صاحبها.

وإذا كان الغيظ في سبيل الطاغوت فالموت موتان لِصقَ بعضٍ ورَدفَ بعض، موتاً حال حياته روحياً، وموتاً يقضي على حياته جسمياً فيتم الموت ويطم كل كيانه:

«ظلمات بعضها فوق بعض»، واما «ذات الصدور» دون «الصدور» مجردة، فلأن «ذات»: الصاحبة هي مؤنث «ذو»: الصاحب، وصاحبه الصدور هي التي تصحبها من الضيق والإنشراح بكفر أو إيمان أم أيٍ كان من حالات مجبورة او محظورة.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٩٨

وترى لماذا هنا وفي كثير سواه «ذات الصدور» دون «ذات القلوب» وهي اصل الروح وعمقه؟.

علّه لأن القلوب ايضاً هي ذات الصدور بكل حالاتها ومجالاتها: «فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور». «١»

فكل حالة حسنة او رديئة، منشرحة او ضيّقة في الصدور هي المؤثرة بالمآل في القلوب، فالقلوب هي من ذات الصدور وليست الصدور هي من ذات القلوب.

ثم ابتلاء ما في الصدور تقدمة لتمحيص ما في القلوب: «وليبتلي اللّه ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم». «٢»

إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ «٣»

«ان تمسسكم» حالة «حسنة» مادية او معنوية، فردية أو جماعية أمَّاهيه من حياة حسنة «تسؤهم» هذه الحسنة إذ «لا يألونكم خبالًا وودوا عنتم».

«وإن تصبكم» حالة «سيئة» من ضيق معيشي او انهزام حربي ام نكسة عقيدية أماهية «يفرحوا بها» ولا علاج في تلكم المواجهة المعاندة إلّا الصبر والتقوى.

«وإن تصبروا» في كل حسنة وسيئة، وما يسوءون ويفرحون، دون انفلات عن ثابت الإيمان «وتتقوا» عن المحاظير التي هي نتيجة طبيعية لاختلاف الحالات والواجهات، إذاً «لا يضركم كيدهم شيئاً» اللّهم إلا أذىً بسيطة متحمَّلة «إن اللّه بما يعملون محيط» فهو الذي يدافع عنكم بدافع إيمانكم: «ان اللّه يدافع عن الذين آمنوا» «ويرسل عليكم حفظة» وهو الذي يحيطكم علماً بمكائدهم ومصائدهم فتحذروهم مهما كانوا أقوياء فانهم كائدون أغوياء، وان اللّه لا يهدي كيد الخائنين، وهو الذي

---

(١)). سورة الحج ٢٢: ٤٦

(٢)). سورة آل عمران ٣: ١٥٤

(٣)). سورة آل عمران ٣: ١٢٠

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٣٩٩

يجازيهم بكيدهم فإنه بما يعملون محيط علماً وقدرة.

وهنالك محور الرجاء لمسِّ المصيبة وإصابتها هو الرسول صلى الله عليه و آله ثم الذين معه: «إن تصبك حسنة تسؤهم وان تصبك مصيبة يقولوا قد اخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون. قل لن يصيبنا إلا ما كتب اللّه لنا هو مولانا وعلى اللّه فليتوكل المؤمنون». «١»

فيا عجباه من غفوتنا وغفلتنا حين تصفعنا التجارب المرَّة من هؤلاء المنافقين مرَة تلو مرة ولكننا لا نفيق، ونرى المؤامرات تترى علينا بمختلف الأزياء بل اننا فيها نحيق، فاتحين لهم قلوبنا، وآخذيهم رفقاء الطريق، فمن هنا نذل ونضعف ونستخذى ونلقى كل عنت وخبال حيث يدُس في صفوفنا.

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ا ١٢١ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ «٢»

من السيئات التي أصابت المسلمين هي الهزيمة العظيمة في أحد، ففرحت بها أعداءهم من أهل الكتاب والمشركين، وهكذا ترتبط آية الغدوِّ بسابقتها: «وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها».

وهنا تذكرة عابرة خاطفة بغزوة أحد وسبب الهزيمة، ثم انتقالة إلى غزوة بدر السابقة عليها تدليلًا على استمرارية الرحمة الغالية الربانية لهذه الأمة ما قاموا بشروطها، وأن هزيمة الحرب هي من قضايا الهزيمة عن واجب التطبيق للإمرة الرسالية في حقل الحرب ام وسواها.

ومن ثم تستمر التذكرة بحرب أحد وما خلَّفت من بلورة الإيمان لقلة قليلة، ومن زلزلة الإطمئنان وتأرجف الايمان لكثرة كثيرة، كدرس للأمة الإسلامية مع الأبد، نبراساً ينير الدرب على المجاهدين في خطوط النار للأخذ بالثأر والقضاء على العار، ومتراساً يتترسون به في تَقْدِمات الحرب وتقدُّماتها.

---

(١)). سورة التوبة ٩: ٥١

(٢)). سورة آل عمران ٣: ١٢١- ١٢٢

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٠٠

وهنا انتقالة لطيفة عطيفة من معركة الجدال والتنوير والتوجيه والتحذير، إلى معركة النضال في الميدان، الى معركة أحد ومن قبلها بدر.

وهنا تنضم عراك في الضمير بطي العراك الدموية الفادحة، ومعركة الضمير هي أوسع المعارك في مختلف النضال والجدال.

لقد كان النصر أولًا في بدر ثم الهزيمة ثانياً في أحد، وكما الانتصار كان عظيماً حيث غلبت فيه فئة قليلة على فئة كثيرة بإذن اللَّه، كذلك كانت الهزيمة ايضاً عظيمة، ولكنَّما الهزيمة خلَّفت- رغم أوجاعها وأجواءها المحرجة- انتصاراً معرفياً ويقظة بعد غفوة للكتلة المؤمنة، ولكي لا يغتروا بانتصارهم الاوّل، فيتركوا شروطاته المقررة في شرعة اللَّه.

فلقد مُحِّصنت في هذه الهزيمة نفوس ومُيِّزت صفوف وصنوف، وانطلق المسلمون متحررين عن كثير من أغباش التصورات الخاطئة التي هي عشيرة الفتح الخارق للعادة بطبيعة الحال.

فمعيان قِيَم وتأرجح مشاعر من نزوة الفتح المبين من ناحية، وتسرَّب منافقين وقليلي الايمان من أخرى، ما كنت تُجبر إلا بهزيمة مَّا هي في نفس الوقت من خلفيات تخلف عسكري عن امر القائد الرسالي.

ولم تكن حصيلة الهزيمة بأقل عائدة من حصيلة الفتح أم هي اكثر، فتلك هي حصيلة ضخمة ما أحوج الأمة الإسلامية إلى دراستها طوال تاريخها، ولكي تاخذ حذرها وأهبتها في كل مواجهة نضالية من ذلك الرصيد العظيم.

«و» اذكر من ضمن الذكريات الحربية الفاشلة لفشلٍ من المسلمين «إذ غدوت من أهلك» خرجت غداة من أهلك في المدينة إلى خارجها: «أحد»- حال انك «تبوىء» إيواءً لبواء الحرب الدفاعية «تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال» لأنك قائد الحرب ضوء القيادة الرسالية المحلِّقة على كافة المصالح الروحية والزمنية.

فليس لأحد أن يبوىء المؤمنين مقاعد للقتال والرسول فيهم إلّا هو، فعليك يا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج۷، ص: ۴۰۱

رسول الهدى تنظيم التكتيكية الحربية أمّاهيه من تكنيكات نظامية وانتظامية، وهامة الأمور الجماعية للمسلمين، فإنك الحاكم بين الناس بما أراك اللّه فيللّه كل ما يتطلب الحكم من خلافات روحية أو زمنية: «إنا انزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما اراك اللّه ولا تكن للخائنين خصيماً». «۱»

وليس مجال الحكم بين الناس- في الأكثرية الساحقة- إلا+ فيما هم فيه يختلفون من مصالح معيشية- جماعية- اقتصادية- حربية، اماهيه.

فلا تعني الرسالة الإلهية- فقط- مصالح المحراب والعبادة، بل ومصالح الحرب والإبادة لمن يتربصون باهل الحق كل دوائر السوء.

وكما أن تكاليف المحراب مقررة بوحي اللّه، كذلك تلتيكات الحرب هي بوحي من اللّه، فانهما معاً مدلولان ل «لتحكم بين الناس بما اراك اللّه».

فهذه خرافة قاحلة أن النبي صلى الله عليه و آله شاور أصحابه بشان غزوة أحد أيخرج إليه خارج المدينة فيغزوهم، أم يظل داخلها فيدافع عن الأهلين، فأشاروا عليه بالخروج وكان من رأيه المقام داخل المدينة!. «۲»

---

(۱)). سورة النساء ۴: ۱۰۵

(۲)). الحديث عن يوم أحد قالوا: لما أصيب قريش او من ناله منهم يوم بدر من كفار قريش ورجع كلهم الى مكة ورجع ابو سفيان بعيرة مشى عبد اللّه بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن امية في رجال من قريش ممن اصيب آباءهم وأبناءهم وإخوانهم ببدر فكلموا ابا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة فقالوا يا معشر قريش ان محمداً قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا ندرك منه ثاراً بمن أصاب ففعلوا فاجمعت قريش لحرب رسول اللّه صلى الله عليه و آله وخرجت بجدتها وجديدها وخرجوا معهم بالظعن التماس الحفيظة ولئلا يفروا وخرج ابو سفيان وهو قائد الناس فأقبلوا حتى نزلوا بعينين جبل ببطن السبخة من قناة على شفير الوادي مما يلي المدينة فلما سمع بهم رسول اللّه صلى الله عليه و آله والمسلمون بالمشركين قد نزلوا حيث نزلوا قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله إني رأيت بقراً تنحروأريتُ في ذباب سيف ثلماً وأريتُ أني دخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة فان رأيتم ان تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا فان أقاموا اقاموا بشر مقام وان هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها ونزلت قريش منزلها أحد يوم الأربعاء فأقاموا ذلك اليوم الخمسين ويوم الجمعة وراح رسول اللّه صلى الله عليه و آله حين صلى الجمعة فأصبح بالشعب من احد فالتقوايوم السبت للنصف من شوال سنة ثلاث وكان رأى عبد اللّه بن أبي مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله يرى رأيه في ذلك أن لا يخرج اليهم وكان رسول اللّه صلى الله عليه و آله يكره الخروج من المدينة فقال رجال من المسلمين ممن أكرم اللّه بالشهادة يوم احد وغيرهم ممن كان فاته يوم بدر وحضوره: يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله اخرج بنا إلى اعدائنا لا يرون أنّا جبنا عنهم وضعفنا فقال عبد اللّه بن أبي يا رسول اللّه أقم بالمدينة فلا تخرج اليهم فواللّه ما خرجنا منها الى عدو لنا قط إلا اصاب منا ولا دخلها علينا الا اصبنا منهم فدعهم يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله فان اقاموا بشر وان دخلوا قاتلهم النساء والصبيان والرجال بالحجارة من فوقهم وان رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا فلم يزل الناس برسول اللّه صلى الله عليه و آله الذين كان امرهم حب لقاء القوم حتى دخل رسول اللّه صلى الله عليه و آله فلبس لامته وذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصلاة ثم خرج عليهم وقد ندم الناس

وقالوا استكرهنا رسول اللّه صلى الله عليه و آله ولم يكن انل ذلك فان شئت فاقعد فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله ما ينبغي لنبي اذا لبس لامته ان يضعها حتى يقاتل فخرج رسول اللّه صلى الله عليه و آله في الف رجل من اصحابه حتى اذا كانوا بالشوط بين المدينة وأحد تحول عنه عبد اللّه بن أبي بثلث الناس ومضى رسول اللّه صلى الله عليه و آله حتى سلك في حرة بين حارثة فذب فرس بذنبه فأصاب ذباب سيفه فاستله فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله وكان يحب الفأل ولا يعتاف لصاحب السيف شم سيفك فإني أرى السيوف ستستل اليوم ومضى رسول اللّه صلى الله عليه و آله حتى نزل بالشعب من أحد من عدوة الوادي لى الجبل فجعل ظهره وعسكره إلى احد وتعبى رسول اللّه صلى الله عليه و آله القتال وهو في سبعمائة رجل وأمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله على الرماة عبد اللّه بن جبير والرماة خمسون رجلًا فقال: «انضح عنا الجبل بالنبل لا يأتونا من خلفنا ان كان علينا أو لنا فأنت مكانك لنؤتين من قبلك وظاهر رسول اللّه صلى الله عليه و آله بين درعين».

وفيه اخرج ابن جرير عن السدي ان رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال لأصحابه يوم أحد اشيروا علي ما أصنع فقالوا يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله اخرج إلى هذه الأكلُب فقالت الأنصار يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله ما غلبنا عدو لنا اتانا في ديارنا فكيف وانت فينا فدعا رسول اللّه صلى الله عليه و آله أخرج بنا إلى هذه الأكلب وكان رسول اللّه صلى الله عليه و آله يعجبه أن يدخلوا عليه المدينة فيقاتلوا في الأزقة فأتى النعمان ابن مالك الأنصاري فقال يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله: لا تحرمني الجنة فقال بم قال بأني أشهد أن لا إله إلا اللّه وأنك رسول اللّه وإني لا أفر من الزحف قال: صدقت فقتل يومئذٍ ثم ان رسول اللّه صلى الله عليه و آله دعا بدرعه فلبسها فلما رأوه وقد لبس السلاح ندموا وقالوا بئسما صنعنا نشير على رسول اللّه صلى الله عليه و آله والوحي يأتيه فقاموا واعتذروا اليه وقالوا: اصنع ما رأيت، فقال: رأيت القتال وقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله لا ينبغي لنبي أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل وخرج رسول اللّه صلى الله عليه و آله الى أحد في ألف رجل وقد وعدهم الفتح إن يصبروا فرجع عبد اللّه بن أبي في ثلاثمائة فتبعهم أبو جابر السلمي يدعوهم فأعيوه وقالوا له: ما نعلم قتالًا ولئن أطعتنا لترجعن معنا وقال: اذ همت طائفتان منكم أن تفشلا .. وهم بنو سلمة وبنو حارثة هموا بالرجوع حين رجع عبد اللّه بن أبي فعصمهم اللّه وبقي رسول اللّه صلى الله عليه و آله. فوطىء على جرف نهر فقط فأخذت حربتي فهززتها ورميته بها فوقعت في خاصرته وخرجت

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٠٢

وكيف يرتأي ان يغزى في عقر داره فيذل، ويرشده مِن أصحابه إلى الخروج فلا يذل؟ ام كيف يتبع خلاف رأية وهو الحاكم بما أراه اللّه!، وقد يروى عن حفيده

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٠٣

الصادق عليه السلام انه صلى الله عليه و آله كان رأيه الخروج. «١»

---

(١)). نور الثقلين ١: ٢٨٤ مجمع البيان عن أبي عبد اللّه عليه السلام- وفيه نقل قصة احد باختلاف يسير عما نقلناه عن الدر المنثور ومنها- فقام سعد بن معاذ وغيره من الأوس فقالوا يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله ما طمع فينا أحد من العرب ونحن مشركون نعبد الأصنام فكيف يظفرون بنا وانت فينا لا حتى نخرج اليهم ونقاتلهم فمن منا كان شهيداً ومن نجا منا كان مجاهداً في سبيل اللّه فقبل رسول اللّه صلى الله عليه و آله رأيه وخرج مع نفر من أصحابه يتبوؤن موضع القتال كما قال سبحانه: واذ غدوت من اهلك .. وقعد عبد اللّه بن أبي وجماعة من الخروج اتبعوا رأيه ووافت قريش الى احد وكان رسول اللّه صلى الله عليه و آله عبأ اصحابه وكانوا

سبعمأة رجل ووضع عبد اللّٰه بن جبير في خمسين من الرماة على باب الشعب واشفق ان يأتي كمينهم من ذلك المكان فقال لعبد اللّٰه بن جبير واصحابه ان رأيتمونا قد هزمناهم حتى ادخلناهم مكة فلا تبرحوا من هذا المكان وان رأيتموهم قد هزمونا حتى ادخلونا المدينة فلا تبرحوا والزموا مراكزكم ووضع ابو سفيان خالد بن الوليد في يأتي فارس كميناً وقال: اذا رأيتمونا قد اختلطناه فأخرجوا عليهم من هذا الشعب حتى تكونوا وراءهم وعبأ رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله اصحابه ورفع الراية الى أمير المؤمنين عليه السلام فحمل الأنصار على مشركي قريش فانهزموا هزيمة قبيحة ووقع اصحاب رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله في سوادهم وانحطَّ خالد بن الوليد في مأتي فارس على عبد اللّٰه بن جبير فاستقبلوهم بالسهام فرجع ونظر اصحاب عبد اللّٰه بن جبير الى اصحاب رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله ينتبهون سواد القوم فقالوا لعبد اللّٰه بن جبير قد غنم اصحابنا ونبقى نحن بلا غنيمة؟ فقال لهم عبد اللّٰه اتقوا اللّٰه فان رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله قد تقدم الينا ان لا نبرح فلم يقبلوا منه واقبلوا ينسل رجل فرجل حتى اخلوا مراكزهم وبقي عبد اللّٰه بن جبير في اثنى عشر رجلًا وكانت راية قريش مع طلحة بن أبي طلحة العبدرى من بني عبد الدار فقتله علي عليه السلام فأخذ الراية أبو سعيد بن أبي طلحة فقتله علي عليه السلام وسقطت الراية فأخذه مسافع بن أبي طلحة فقتله حتى قتل تسعة نفر من بني عبد الدار حتى صار لواءهم إلى عبد لهم اسود يقال له صواب فانتهى اليه علي عليه السلام فقطع يده فأخذه باليسرى فضرب يسراه فقطعها فأعتنقها بالجذماوين الى صدره ثم التفت إلى أبي سفيان فقال: هل أعذرت في بني عبد الدار فضربه علي عليه السلام على رأسه فقتله فسقط اللواء فأخذتها عمرة بنت علقمة الكنانية فرفعتها والخط خالد بن الوليد على عبد اللّٰه بن جبير وقد فر أصحابه وبقي في نفر قليل فقتلهم على باب الشعب ثم اتى المسلمين من ادبارهم ونظرت قريش في هزمتها الى الراية قد رفعت فلا ذوابها وانهزم اصحاب رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله عظيمة فأقبلوا يصعدون في الجبال وفي كل وجه فلما رأى رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله الهزيمة كشف البيضة عن رأسه وقال: انا رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله الى اين تفرون عن اللّٰه وعن رسوله؟ وكانت هند بنت عتبة في وسط العسكر فكلما انهزم رجل من قريش دفعت اليه ميل ومكحلة وقالت انما امرأة فاكتمل بهذا وكان حمزة بن عبد المطلب يحمل على القوم فاذا رأوه انهزموا ولم يثبت له احد وكانت هند قد اعطت وحشياً عهداً لئن قتلت محمداً او علياً او حمزة لاعطينك كذا وكذا وكان وحشيٌ عبداً لجبير بن مطعم جشيّاً فقال وحشي: اما محمد فلا اقدر عليه واما علي فرأيته حذراً كثير الالتفات فلا مطمع فيه فكمن لحمزة قال: فرأيته يهد الناس هداً فمربي فوطىء على جرف نهر فقط فأخذت حربتي فهززتها ورميته بها فوقعت في خاصرته.

وفيه أخرج ابن جرير عن السدي ان رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله قال لأصحابه يوم أحد اشيروا علي ما أصنع فقالوا يا رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله اخرج إلى هذه الأكلُب فقالت الأنصار يا رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله ما غلبنا عدو لنا اتانا في ديارنا فكيف وانت فينا فدعا رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله عبد اللّٰه بن أبي ابن سلول- ولم يدعه قط قبلها- فاستشاره فقال يا رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله أخرج بنا إلى هذه الأكلُب وكان رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله يعجبه ان يدخلوا عليه المدينة فيقاتلوا في الأزمة فأتى النعمان ابن مالك الأنصاري فقال يا رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله: لا تحرمني الجنة فقال بم قال باني اشهد أن لا إله الا اللّٰه وانك رسول اللّٰه واني لا افر من الزحف قال: صدقت فقتل يومئذٍ ثم ان رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله دعا بدرعه فلبسها فلما رأوه وقد لبس السلاح ندموا وقالوا بئسما صنعنا نشير على رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله والوحي يأتيه فقاموا واعتذروا اليه وقالوا: اصنع ما رأيت، فقال: رأيت القتال وقال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله لا ينبغي لنبي ان يلبس لامة فيضعها حتى يقاتل وخرج رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله الى احد في الف رجل وقد وعدهم الفتح إن يصبروا فرجع عبد اللّٰه بن أبي في ثلاثمائة فتبعهم ابو جابر السلمي يدعوهم

فأعيوه وقالوا له: ما نعلم قتالًا ولئن اطعتنا لترجعن معنا وقال: «اذ همت طائفتان منكم ان تفشلا» وهم بنو سلمة وبنو حارثة هموا بالرجوع حين رجع عبد اللّه بن أبي فعصمهم اللّه وبقي رسول اللّه صلى الله عليه و آله في سبعمائة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٠٤

كلا وكما ان تَبوُّىءَ مقاعد للقتال كان من شئونه القيادية، كذلك الخروج إلى تلكم المقاعد، وانتصاب الجموع الخاصة لها، كل ذلك كان من رأيه الخاص بما أراه اللّه، مهما شاور المسلمين في ذلك ليشير عليهم صالح الأمر إن اخطأوا ويثبتهم تشجيعاً لهم إن أصابوا، وكما اشتصوب رأي المشيرين عليه بالخروج دون المشيرين بالمقام داخل البلد.

وان لمكان القتال ومقاعدها مكانة هامة في النجاح، يجب تقريرهما على القائد العام للقوات المسلحة حيث يراهما من المصلحة في صالح الحرب.

«واللّه سميع» اقوالهم «عليم» بأحوالهم، إذ تقوَّلوا قيلات حول الحرب ومكانها ومقاعدها، وتحولوا حالات: «إذ همت طائفتان منكم».

لقد مشى النبي صلى الله عليه و آله يومئذٍ على رجليه يبوّىء المؤمنين مقاعد للقتال بنفسه الشريفة وهم قرابة الف، تقابلهم ثلاثة الآف من قريش، كنفس القياس بين الجيشين يوم بدر، فلما تخلف من تخلف بُغية الغنيمة، خلَّف ذلك إنهزاماً دموياً وكارثة قارصة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٠٥

بَلْبَلَ حالة المؤمنين وزلزل طائفة منهم واثبت آخرين، امتحاناً من اللّه للمؤمنين وامتهاناً للمتخلفين.

«إذ همت طائفتان منكم تفشلا ..».

هنالك واقع الغل والفشل من طائفتين أولاهما عبد اللّه بن أبي ومعه قرابة ثلث الجيش حيث تخلف إخذ خالف رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله رأيَه في المقام بالمدينة للدفاع قائلًا:

يخالفني ويسمع للفتية، فيتبعهم عبد اللّه بن عمر وابن حزام والد جابر بن عبد اللّه يوبخهم ويحضهم على الرجوع ويقول: تعالوا قاتلوا في سبيل اللّه او ادفعوا، قالوا: لو نعلم قتالًا لاتَّبعناكم وهم كما قال اللّه: «هم يومئذ للكفر أقرب منهم للإيمان» فرجع عنهم وسبَّهم، فهؤلاء لم يحضروا القتال حتى يقال فشلوا، فانما فلّوا وتخلفوا.

ولماذا ولى الرسول صلى الله عليه و آله رأس النفاق عبد اللّه بن ابي على ثلث الجيش؟ لكي يعرِّف به والذين معه انهم منافقون مهما تظاهروا انهم موافقون، فالمعركة معركة امتحان وامتهان ضمن أنها ميدان دفاع.

ولقد فصلت الآيات الآتية بشأن حرب احد أبعاداً هامة من الواقعة، نتحدث على ضوءها كما تتحدث، فهذه هي الطائفة الاولى من «طائفتان».

والأخرى هي الخمسون الذين قررهم رسول اللّه صلى الله عليه و آله مع عبد اللّه بن جبير حيث تركوا قاعدتهم للقتال طمعاً في الغنيمة ففشلوا، ومن ثمَّ همُّ الفشل ولا فشل- وهو فتٌّ في عضد التصميم بجبن- «واللّه وليهما» فولّي أمرهما فلم تفشلا، وهما حيان من الأنصار: بنو سلمة من الخروج وبنو حارثة من الأوس لما انهزم عبد اللّه بن أبي، همَّتا باتباعه فعصمهما اللّه فثبتوا مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله ولقد بقيت رابعة وليُّها عليٌّ عليه السلام لم تفل ولم تفشل ولم تهم بالفشل حفاظاً على رسول اللّه صلى الله عليه و آله وأمره.

فقد اقترب اصحاب أحد اربع فرق وانكسر المسلمون بهزيمة عظيمة لما خولف أمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله أولًا فيما ارتآه من الخروج للحرب خارج المدينة فخالفه ابن ابي، وثانياً ما قرره من مقاعد القتال وأهمها لابن جبير حيث تفرق جل أصحابه فحصل ما

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج۷، ص: ۴۰۶

حصل!.

أترى الحال في «واللّه وليهما» مدح لهما بتلك الولاية الربانية؟ ام قدح فيهما لماذا همتا بفشل واللّه وليهما؟ إنما مدح من ناحية حيث عصمهما اللّه بتلك الولاية عن تلك الهوّة الجارفة إذ لم تخرجا عن ولاية اللّه بذلك الهم «۱» فهم داخلون في ولاية اللّه و «اللّه ولي الذين آمنوا».

وقَدح فيهما من أخرى لماذا همتا «واللّه وليهما» فيما وعد من النصر!

«وعلى اللّه فليتوكل المؤمنون» ولا سيما في همِّ العصيان، فإذا توكلوا عليه يعصمهم بولايته العشيرة للمؤمنين.

وهكذا يجب على المؤمنين أن يتوكلوا على اللّه مضيّاً في أمر اللّه، واحترازاً عن نهي اللّه، فلو أن اللّه وَكَّل أمورنا إلينا دونما عصمة منه وتسديد لما نجى منا أحد عن ورطات الهلاك، كيف والرسول صلى الله عليه و آله- على محتده العظيم- يقول: ربنا لا تكلنا إلى انفسنا طرفة عين أبداً، ويقول اللّه فيه «ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلًا» وفي يوسف «وهم بها لولا أن رأى برهان ربه».

ذلك، وكيف «همت طائفتان منكم أن تفشلا واللّه وليهما وعلى اللّه فليتوكل المؤمنون. ولقد نصركم اللّه ببدر وأنتم أذلة ...» إذ كنتم ذِلّا للّهوظِلّا لرسول اللّه، ثم ولم ينصركم في أحد أن لم تكونوا ذِلًا، وكنتم أقوياء دون ذِلَّة في عِدَّة او عُدَّة:

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ «۲»

وترى كيف «وأنتم أذلة» وفيهم رسول اللّه صلى الله عليه و آله والمؤمنون الصالحون، «وللّه العزة

---

(۱)). الدر المنثور ۲: ۶۸- اخرج جماعة عن جابر بن عبد اللّه قال: فينا نزلت في بني حارثة وبنيسلمة «اذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ..» وما يسرني آنهالم تنزل لقول اللّه «واللّه وليهما».

وفيه قتادة في الآية قال: ذلك يوم أحد والطائفتان بنو سلمة وبنو حارثة حيان من الأنصار هموا بامر فعصمهم اللّه من ذلك وقد ذكرنا لنا انه لما انزلت هذه الآية قالوا: ما يسرنا انا لم نهم بالذى هممنا به وقد اخبرنا اللّه انه ولينا

(۲)). سورة آل عمران ۳: ۱۲۳

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج۷، ص: ۴۰۷

ولرسوله وللمؤمنين»؟ فهل نزلت «وانتم قليل» ام ضعفاء «۱» كما قيل؟ وهو قول عليل يختلفه الضعفاء حيث يعارض متواتر القرآن!

.. إنما كماهيه «وأنتم اذلة» تعني القلة المستضعفة، وهي ذِلة بحساب الخلق الجاهلين، مهما كانوا أعزة بحساب الخالق «واذكروا إذ انتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون ان يتخطفكم الناس فآواكم وأيديكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون». «۲»

إذاً ف «انتم قليل مستضعفون» هي عبارة أخرى عن «أنتم أذلة» تتجاوبان في عناية واحدة، كما وتعقيبتهما واحدة: «لعلكم تشكرون».

وقد تكون «أذلة» جمعاً للذِّل لا الذُّل، فهم كانوا ببدر ذِلّاً للّه- وتحت ظله- ولرسوله دون شماس، فلذلك نصرهم اللّه وهم قليل مستضعفون، ولكنهم انهزموا في أحد لتركهم ذِلَّهم إلى شماسهم.

وقد يكون المعنيان معنيين وما أحسنه جمعاً تجاوباً مع أدب اللفظ وحدب المعنى، أن اللّه نصركم لأنكم مستضعفون خُضَّعاً للّهولأمره.

و «أذلة» جمع قلة قد تؤيد ذلة القلة في عِدَّة وعُدَّة حربية، وهم مع ذلك ذِلٌّ بطوع الرسول دون شماس.

فلقد كانوا في بدر ثلاثمأة وثلاثة عشر رجلًا بفرس واحد وجِمال قليلة ربما ركب جمع منهم جملًا واحداً وجُلُّهم مشاة، والكفار هم قرابة ألف ومعهم مائة فرس بأسلحة كثيرة.

ولأن غزوة بدر هي بداية الغزوات الإسلامية، وقد شاهد الصحابة من صلابة المشركين في مكة وقوتهم وثروتهم وهم أولاء لا يملكون ما يملكه هؤلاء من عِدَّة

---

(١)). نور الثقلين ١: ٣٧٨ في تفسير العياشي عن ابي بصير قال قرأت عند ابي عبد اللَّه عليه السلام «ولقدنصركم اللَّه ببدر وانتم اذلة» فقال: مه ليس هكذا انزلها اللَّه انما نزلت «وانتم قليل».

وفيه عن تفسير القمي في الآية قال أبو عبد اللَّه عليه السلام ما كانوا اذلة وفيهم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وانما نزل «ولقد نصركم اللَّه ببدر وانتم ضعفاء»

(٢)). سورة الأنفال ٨: ٢٦

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٠٨

وعُدَّة، فهم كانوا- على إيمانهم- أذلة في حساب الكفار، بل وفي حسبانهم انفسهم قضيةَ ظاهر الحال، وهم مع ما هم عليه من ذلة وذلة كانوا ذِلًا لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله لا يخافون في اللَّه أية قوة قاهرة ظاهرة.

ذلك! «فاتقوا اللَّه» لا سواه «ولا تعبدوا الا اياه» «لعلكم تشكرون» اللَّه بما نصركم يوم بدر وينصركم إن كنتم متقين شاكرين «ولقد نصركم اللَّه ببدر ..».

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَا ١٢٤ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ «١»

«نصركم .. إذ تقول» فهما- إذاً- يختصان ببدر، نصرةً وقولةً، ولكنه نقلةً كانت في أحد تنديداً بهم أن لم يصبروا ويتقوا حتى ينصرهم فيه كما نصرهم ببدر، اللّهم إلا في بدايته ولما يتركوا مقاعدهم.

ثم «ألن يكفيكم ..» سئوال تأنيب ينفي الإحالة المزعومة بالنسبة لتلك الكفاية بإمداد ملائكي، كأن فيهم من زعم ألّا يفيد الإمداد إلّا بالجيوش الأرضية، حيث القلة المسلمةترى نفير المشركين لمحاربتهم لأوّل مرة، وهم مفاجَئون بها إذ خرجوا لالتقاء طائفة العير الموقَرة بالمتاجر لا الموقرة بالسلاح، وقد أبلغهم الرسول صلى الله عليه و آله ما أوحي إليه لتثبيت قلوبهم وأقدامهم في هذه المفاجأة المفاجِعة، وهم- على إيمانهم- بشر يحتاجون إلى خارقة العون في هذه الحالة الإستثنائية في صورة تبلغ مشاعرهم المألوفة، وقد أبلغهم ذلك الإمداد شرطَ الصبر على تلقِّي صدمات الهجمة الفاتكة الهاتكة، والتقوى التي تربط القلب باللَّه في الإنتصار والإنهزام.

ذلك- وبأحرى ان تتعلق «إذ» بمحذوف معروف هو «اذكر» فقوله صلى الله عليه و آله- اذاً- كان يوم أحد تنديداً بالمتخلفين من جيشه عن اصل الحرب او عن مقاعدهم «ألن يكفيكم» الآن كما كان يوم بدر «أن يمدكم ربكم ... بلى» يكفيكم ان كنتم مؤمنين الآن

---

(١)). سورة آل عمران ٣: ١٢٤- ١٢٥

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٠٩

كما كنتم يوم بدر، «بلى» و «إن تصبروا وتتقوا» كما صبرتم واتقيتم يوم بدر «ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلآف من الملائكة مسوِّمين» زيادة على بدر لاستمرارية الصبر والتقى «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى». «١»

وترى كيف «ثلاثة آلآف من الملائكة منزلين» يوم بدر، والكفار كانوا يروهم مثليهم رأى العين: «قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة في سبيل اللّه وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين واللّه يؤيد بنصره من يشاء». «٢» وهو ألفان، بل والف كما «فاستجاب لكم اني ممدكم بألف من الملائكة مردفين». «٣» فاين ثلاثة آلآف من الفين، ثم اين هم من ألف؟.

إن الالف المردِفين هم أردفوا آخرين، مما يوضح ان ثلاثة آلآف لم ينزلوا دفعة واحدة، فانما «جاءت الزيادة من اللّه ..». «٤»

واما «مثليهم رأى العين» فهو موقف آخر من بدر كنصرة ثانية، فواقع النصرة كان بثلاثة آلآف من الملائكة منزَلين من حيث تُجارب ولا تُرى، وظاهر النصرة أنهم كانوا يروهم مثليهم- لا لانهم كانوا مثليهم- وانما- رأى العين.

ثم «بلى» يكفيكم ذلك الإمداد الملائكي غير المرئي، «بلى إن تصبروا وتتقوا» كما صبرتم في بدر «ويأتونكم من فورهم هذا» كما أتوكم «يمددكم ربكم بخمسة آلآف من الملائكة مسوِّمين» خمسة هنا بديلًا عن ثلاثة هناك، و «مسوِّمين» هنا بديلًا عن «منزلين» فقط- هناك، وقد صدقهم اللّه وعده في بداية أحد فأمدّهم بخمسة آلآف من الملائكة مسومين كما صدقهم في بدر: «ولقد صدقكم اللّه وعده إذ تحسونهم بأذنه

---

(١)). الدر المنثور ٢: ٦٩- اخرج ابن جرير عن زيد قال قالوا لرسول اللّه صلى الله عليه و آله وهم ينتظرون المشركين يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله أليس يمدُّنا اللّه كما امدنا يوم بدر فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: الن يكفيكم .. منزلين- فانما امدكم يوم بدر بألف قال فجاءت الزيادة من اللّه على ان يصبروا ويتقوا

(٢)). سورة آل عمران ٣: ١٣

(٣)). سورة الأنفال ٨: ٩

(٤)). مضت هذه الجملة عنه صلى الله عليه و آله في الهامش السالف فلا نعيد

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏٧، ص: ٤١٠

حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر من بعد ما اراكم ما تحبون ..». «١»

والتسويم هو التعليم علامة، وهو هنا علّه يجمع إلى علامة الحرب بالمظاهر الجندية، علامة ملائكية تميزهم عن سائر الجيش.

وقد تجمع «مسومين»- حالًا- بين حال المؤمنين والملائكة، مهما كان تسويمها على سواء أو مختلفين. «٢»

وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ «٣»

ما جعل اللّه ذلك الإمداد الملائكي إلّا بشرى لكم للإنتصار «ولتطمئن قلوبكم به» لا لأن النصر مربوط- ككل- بأمثال هذه الإمدادت، وإنما هي موجبات ظاهرة تلتقي مع ظواهر النظرات «وما النصر إلّا من عند اللّه العزيز الحكيم» سواءً أكان بأسباب ظاهرة كهكذا إمداد ام غير ظاهرة كسائر النصر.

هنا القرآن- كأضرابه فيه- يحرص على تقرير هذه القاعدة الرصينة المتينة في التصور الإسلامي، أن مردَّ الامور كلها إلى اللّه، وليس نزول الملائكة إلا بشرى لهم واطمئناناً لقلوبهم أنساً بالمألوف.

لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ «٤»

ولماذا «نصركم اللّه ببدر .. وما النصر إلّا من عند اللّه»؟ «ليقطع طرفاً .. او يكبتهم».

فهناك غاية محدودة لنصر اللّه هي أن يقطع طرفاً من الذين كفروا، نفساً او نفسياً، وأرضاً أو سلطة أو آية فاعلية، وهذه حاصلة منذ الرسول صلى الله عليه و آله وحاضري الائمة وزمن

---

(١)). سورة آل عمران ٣: ١٥٢

(٢)). نور الثقلين ١: ٣٨٨ في تفسير العياشي عن إسماعيل بن همام عن أبي الحسن عليه السلام في قول اللّه «مسومين» قال: العمائم، اعتم رسول اللّه صلى الله عليه و آله فسد لها من بين يديه ومن خلفه.

وفيه عن جابر عن أبي جعفر عليهما السلام قال: كانت على الملائكة العمائم البيض.

وفي الدر المنثور ٢: ٧٠ قال النبي صلى الله عليه و آله: نزلت الملائكة على سيما أبي عبد اللّه ..

(٣)). سورة آل عمران ٣: ١٢٦

(٤)). سورة آل عمران ٣: ١٢٧

الغيبة الكبرى، ولأن الطرف من الهيكل عصوٌ أياً كان، فقد تصور الذين كفروا هيكلًا واحداً له أطراف، وقد يعني هنا لينقص عَدداً من أعدادهم او عُدَداً من إعدادهم فيوهن عضداً من أعضادهم، كواجب نضالي على الذين آمنوا، مستمرٍ على طول الخط حتى يصل إلى «او يكبتهم»:

فهنا غاية غير محدودة لذلك النصر هو «أو يكبّتهم»: يصرعهم- ككل- لمكان ضمير الجمع دون تبعيض كان في ليقطع، يصرعهم على وجوهم، ويهلكهم ويلعنهم ويهزمهم ويذلهم ويغيظهم- والكل معان للكبت- «فينقلبوا خائبين» آيسين لا أمل لهم في رجوع إلى كيان أياً كان، وهذا في الدولة الاسلامية الأخيرة العالمية حيث لا يبقى للكفر رطب ولا يابس، اللّهم إلّا شر ذمة من أهل الكتاب في ذمة الإسلام، لا دور لهم في الحكم.

فكل نصر من اللّه للمؤمنين محدد بحدود صبرهم وتقواهم حتى يصل الأمر الى اصحاب صاحب الأمر الذين هم نخبة التاريخ الرسالي ككلٍّ، أصحابَ ألوية وجيشاً وأنصاراً آخرين من الراجعين معه، عجل اللّه تعالى فرجه.

ذلك! وبصورة عامة الكبت كُتب على الكافرين على مدار الزمن قليلًا او جليلًا ف:

«إن الذين يحادون اللّه ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم وقد انزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين». «١»

لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ «٢»

ترى ما هو الأمر المسلوب عنه مستغرِقاً، وبماذا نصب «او يتوب او يعذبَهم»؟.

أتراه كل أمر حتى المختارة في حقل التكليف؟ ويعارضه واقع الإختيار وأدلته في الكتاب والسنة، وبراهينه العقلية والفطرية! ثم ولا رباط بين سلب الإختيار وموقف الحرب المحرَّض فيها بتقديم كل مكنة ممكنة، وبالصبر والتقوى! ثم «أو

---

(١)). سورة الحديد ٥٧: ٥

(٢)). سورة آل عمران ٣: ١٢٨

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤١٢

يتوب عليهم او يعذبهم» وهما ليسا من أمره لا تخييراً ولا تسييراً.

فلا رباط لهذه الجملة ولا تعلق في تصحيح مذهب المجبَرة المسيّرة، الواهي المتهافت، وهم يسمعون اللَّه تعالى يأمر نبيه أن يدعو الكفار إلى اللَّه، مكرراً دعاءه على أسماعهم، مصراً على إصغائهم، ناهجاً لهم طريق الإيمان ومناره، ومنذراً ومحذراً، وموقظاً ومبشراً، وآخذاً بحجزهم من التهافت في النيران، فكيف له من أمر التكليف شيء؟!.

ام هو أمر الامر والنهي بعد الدعوة؟ وهما معها قوائم ثلاث لكيان الداعية في الدعوة! فسلبها- إذاً- استئصال للرسالة عن بكرتها، واسترسال للمرسل إليهم في نُكرتهم.

أم هو امر التكوين والتشريع ثم له أمر الشرعة بقيادتها في كل حقولها الرسالية للداعية؟ وذلك واقع لا مردّ عنه، وهناك النصر الموعود والواقع قبل، وهنا التوبة عليهم او تعذيبهم بعد، كلاهما من الأمر التكويني الذي ليس له منه شيءٌ، ثم وليس مشرِّعاً كما ليس مكوناً، فإنما هو رسول يحمل شرعة اللَّه دون تخلف عنها قيد شعره، دون زيادة او نقيصة.

فالهداية والإضلال، والثواب والعقاب، وما أشبه، كل ذلك من أمره تعالى، اللهم إلا هداية الدلالة وضلالة تركها، فانهما من فعل الرسول صلى الله عليه و آله وهو لا محالة دال دون ترك على آية حال: «وانك لتهدي الى صراط مستقيم» «انك لا تهدي من أحببت ولكن اللَّه يهدي من يشاء الى صراط مستقيم».

اجل «ليس لك من الأمر شيء» من هداهم وضلالهم، من ثوابهم وعقابهم، من استصلاحهم او استئصالهم او تدبير مصالحهم او تهديرها، او تقديم آجالهم او تأخيرها.

فلقد كان صلى الله عليه و آله اذا رأى من الكفار تشديداً في تكذيبه، ومبالغة في إطفاء نوره سأل اللَّه تعالى ان ياذن له في الدعاء عليهم باستئصال او تعجيل عذاب، فكان تعالى قد

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤١٣

يأذن وقد لا يأذن تبييناً له أنه سبحانه العالم بمسائر الامور مصاديرها، لعلمه ان منهم مَن يؤمن ويتوب- كالوحشي قاتل حمزة، وأضرابه- فيكون- إذاً- زائداً في عداده، وعضداً من أعضاده.

او يأتي من ظهره من يظهر به الدين ويزيد في المسلمين، إذ يعلم سبحانه من المغارب مطالعها ومن المغارس طوالعها، ومن اوائل التلاقح والتزاوج عواقب التولد والنتائج.

ولقد نزلت هذه الآية يوم أحد شُجَّت جبهته، وكسرت رباعيته، واستقطرت دماءه على صفحته المباركة وهو مع ذلك حريص على دعاءهم، ومجتهد في إنقاذهم ... أم وهو عازم على الدعاء عليهم مستأذناً ربه سبحانه «فهم أن يدعوا عليهم فقال: كيف يفلح قوم أدموا وجه نبيهم وهو يدعهم الى اللَّه ويدعونه الى الشيطان، ويدعوهم الى الهدى ويدعونه الى الضلالة، ويدعوهم الى الجنة ويدعونه الى النار، فهم ان يدعو عليهم فانزل اللَّه: «ليس لك من الامر شيء ...» فكف رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عن الدعاء عليهم. «١»

فليس له من أمر النصر الخارق لعادته، ولا من أمر الهدى والضلالة والثواب والعقاب أما شابه من امور تكوينية او تشريعية، ليس له شيء، فانما هو رسول، كل كيانه رسالة اللَّه، دون مشاركة مع اللَّه فيما يختص من تكوين او تشريع باللَّه، ولا تفويض له في أي أمر حتى الولاية الشرعية، ف «إنا أنزلنا عليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بنا أراك اللَّه» دون ما يراه، فضلًا عمن سواه.

ثم‌ترى «أو يتوب عليهم او يعذبهم» معطوفان على «ليقطع طرفاً ..» ف «ليس لك من الامر شيء» جملة معترضة بينهما؟ وهو فتٌّ في عضد الفصاحة وثلم في جانب البلاغة! وهو لا يناسب كونه غاية ل «نصر اللّه» فان «يتوب عليهم» لا تمت بصلة

---

(١)). الدر المنثور ٢: ٧١- اخرج ابن جرير عن الربيع قال نزلت هذه الآية على رسول اللّه صلى الله عليه و آله يوم أحد وقد شج وجهه واصيبت رباعية فهم ..

وفيه اخرج الترمذي وصححه وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عمر قال: كان النبي صلى الله عليه و آله يدعو على اربعة نفر فأنزل اللّه «ليس لك من الأمر شيء ...» فهداهم اللّه للاسلام

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‌٧، ص: ٤١٤

للنصر، فقد يتوب ولا نصر وقد لا يتوب مع النصر!.

أو ان «او» فيها بمعنى «إلّا أن» أو «حتى» كما هما من معانيها؟ وهو الظاهر هنا معنوياً كما هو أدبياً أن «ليس لك من الامر شي‌ءٌ» من التوبة عليهم وعذابهم إلا ان يتوب اللّه عليهم او يعذبهم، يتوب عليهم إن تابوا اليه، او يعذبهم فانهم ظالمون.

اذاً ف «إلّا» هنا استثناء منقطع، ان ليس لك من الأمر شيء إلّا اللّه.

ام و «حتى يتوب عليهم او يعذبهم» فهنالك امر المتابعة لأمر اللّه، ولماذا- اذاً «او» بدلًا عن «حتى» او «إلّا أن»؟ علّه لعناية المعنين مع العلم أن عناية العطف هنا غير مناسبة، ام انه- ايضاً- معني معهما عطفاً لكلا التوبة والعذاب على القطع والكبت، فقد «نصركم اللّه ببدر- وما النصر إلّا من عند اللّه» ليقطع او يكبت اويتوب اويعذب، وليس لك فيها من الأمر شي‌ءٌ، وما أجمله جمعاً بين مثلث المعاني ل «أو» لم تكن تعينها لا حتى ولا إلّا أن، وما أقبحه تحريفاً من لا يعرف مغازي كلام اللّه فيختلق تجديفاً. «١»

وفي الحق «ليس لك من الامر شي‌ءٌ» كجملة مستقلة- مهما عنت ما عنت فيما احتُفت بها- هي من خلفيات ملابسة في السياق تقتضيها، فيرد قول بعضهم «هل لنا من الأمر شي‌ءٌ» وقول آخرين «لو كان لنا من الأمر شي‌ءٌ ما قتلنا هاهنا» ليقول لهم ولأضرابهم- حين ليس لرسول الهدى من الأمر شي‌ءٌ: فبأحرى لمن شواه.

فليس لهم- ككل- كم الأمر شي‌ءٌ لا في نصر ولا هزيمة، إلّا قدر ما يسعون او يفشلون، وبذلك ينسلخ المسلمون بأشخاصهم من بطَر النصر وخطر الهزيمة، ويطامنون من الكبرياء التي يثيرها الانتصار في نفوسهم ومن الزهو الذي تتنفج به ارواحهم وتتنفخ اوداجهم.

فليس لهم- ككل- ريولًا ومرسلًا إليهم- شأن إلا تأدية الواجب في كل حقل، ثم

---

(١)). نور الثقلين ١: ٣٨٩ عن تفسير العياشي عن الجرمي عن أبي جعفر عليهما السلام انه قرء «ليس لك من الأمر شيء أن تتوب عليهم او تعذبهم فانهم ظالمون».

أقول: واية صلة بين «فانهم ظالمون» وما قبلها ان كان «تتوب عليهم او تعذبهم»، ولم يخلد- بعد- بخلد الرسول صلى الله عليه و آله ابداً ان يتوب او يعذب، اللهم إلا ان يدعو اللّه لقبول توبة ام عذاب!

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‌٧، ص: ٤١٥

نفض ايديهم من النتائج.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ «١»

«ليس لك من الامر شيءٌ» إذ لا تملك مما في السماوات وما في الارض شيئاً «ولله ما في السماوات وما في الارض» ملك التشريع والتكوين، ف «يغفر لمن يشاء» ان يغفر له حين يستحقه، بأن يشاء هو المغفرة ويعمل له، «ويعذب من يشاء» ان يعذبه حين يستحقه بان يشاء هو العذاب بما يعمل له.

إذاً ففاعل «يشاء» فيهما هو الله حيث يشاء مغفرة وعذاباً، وهو المغفور له والمعذب حيث يشاء هما فيشاء هما الله «وما تشاءون إلا ان يشاء الله».

ذلك، ولكنه سبقت رحمته غضبه، كما تلمح له هذه التعقيبة «والله غفور رحيم» فبرحمته يغفر ما لم ينافِ عدله سبحانه، كما بعدله يعذب حين لا مجال لغفره ورحمته.

اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَاتَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَايَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ «٢»

ذلك ومثله كثير مِثل «أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم» «سواءٌ عليك أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين». «٣»

والمستفاد من «لن يغفر» بعد «إستغفر لهم أم لا تستغفر» ومن بعد «بأنهم كفروا ..»

أنه يحرم الإستغفار لمن تبين أنه من أصحاب الجحيم، وقد تبين الرسول صلى الله عليه و آله ببيان الله تعالى ذلك فلم يستغفر لهم ولن، إذ «ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم». «۴»

---

(١)). سورة آل عمران ٣: ١٢٩

(٢)). سورة التوبة ٩: ٨٠

(٣)). سورة التغابن ۶۴: ۶

(۴)). سورة التوبة ٩: ١١٣

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ۴١۶

أفبعد ما تبين للنبي صلى الله عليه و آله بعد بيان الله أن هؤلاء المنافقين لا يُستغفر لهم، يخلو بخلده أن يستغفر لهم مأة مرة تأويلًا ل «سبعين مرة» المحظورة بنفس العدد، وهذه القرائن القاطعة تؤكد أنه فقط للتكثير، فلو استغفر لهم مليارات المرات إلى يوم القيامة فلن يغفر الله لهم.

أفهكذا تهتك ساحة الرسول صلى الله عليه و آله القدسية أنه لم يتبين ببيان الله حرمة الإستغفار لهم فاستغفر مأة أو حاول؟!.

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَاتَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ «١»

«المخلَّفون» هم الذين خُلِّفوا عن الجهاد بما تخلَّفوا إستئذاناً لقعودهم وهم فرحون «بمقعدهم خلاف رسول الله» حيث خالفوا أمر قائد القوات الرسالي نفاقاً عارماً «وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله» كراهية هي طبيعتهم المنافقة الكافرة، ومن قالهم في قعودهم خلاف رسول الله: «لا تنفروا في الحر» «٢» تظاهراً بمصلحية الحفاظ على نفوسهم، رغم أن واجب الجهاد- ولا سيما في استنفاره العام- لا يعرف حراً ولا برداً ومأأشبه «قل نار جهنم» المؤججة على المخلَّفين المخالفين «أشد حراً» مما تزعمون «لو كانوا

يفقهون» الحق المرام، بتفقه صالح ينتج لهم علماً غائباً بعلم حاضر، ولكنهم «يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون»-

وهنا «لو» تحيل فقههم عن تقصير تحول إلى قصور، كما أن «لن يغفر» إحالة بما

---

(١)). سورة التوبة ٩: ٨١

(٢)). الدر المنثور ٣: ٢٦٥ عن ابن عباس أن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أمر الناس أن ينبعثوا معه وذلك في الصيف فقال رجال يا رسول اللّه الحر شديد ولا نستطيع الخروج فلا تنفروا في الحر فقال اللّه: قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون فأمره بالخروج.

وفيه أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد اللّه قال: استدار برسول اللّه صلى الله عليه و آله رجال من المنافقين حين أذن للجد بن قيس ليستأذنوه ويقولون: يا رسول اللّه إئذن لنا فإنا لا نستطيع أن ننفر في الحر فأذن لهم وأعرض عنهم فأنزل اللّه في ذلك: «قل نار جهنم أشد حراً ..»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤١٧

اختاروا ذلك النفاق وثبتوا عليه قصوراً عن تقصير.

وهنا «خلاف» دون «خَلف» تعني معنى زائداً عن الخَلْف وهو أنه خَلف الخُلف، حيث تخلفوا أم خُلِّفوا، فإنهم بين من إستأذن متخلفاً ومن نُهي عن الخروج، ف «المخلفون» دون «المتخلفون» لكي تشمل إلى المستأذنين للقعود آخرين منعوا عن الخروج، سواء الذين استأذنوا منهم للخروج: «فإن رجعك اللّه إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً .. فاقعدوا مع الخالفين».

«١» أم لم يستأذنوا للخروج أم قعود وهم مُنعوا عن الخروج، ثالوث منحوس من «المخلَّفين» هم فرحون بمقعدهم خلاف رسول اللّه، وما «قالوا لا تنفروا في الحر» إلّا الأولين، ولكن «المخلَّفون» تعم إليهم الآخرين.

ذلك، وإن كانوا هم يشفقون من ذلك الحر، ويؤثرون راحة الجسد المسترخية في ظلال، على راحة الروُح برَوح ورضوان، فما هم فاعلون- إذاً- بحر جهنم وهي أشد حراً وامدُّ طُولًا وطَولًا؟ .. إنها لسخرية مريرة وهي حقيقة لهم حقيقة بهم، إذاً:

فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ «٢»

هل الأمران هنا تكليفيان؟ والمنافق لا يأتمر بأمر فكيف يكلف به؟!

إنهما تعجيزيان «فليضحكوا قليلًا» هنا كما هم ضاحكون فرحون بمقعدهم خلاف رسول اللّه، ومهما حسبوه كثيراً ولكنه في الحق قليل: «٣»

«فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلّاقليل». «٤» ثم «وليبكوا كثيراً» هنا لو يعلمون ما هو حالهم بمآلهم، وبعد الموت تحسراً وتأسفاً على ما مضى وتخوفاً على الحاضر هناك والمستقبل.

---

(١)

). سورة التوبة ٩: ٨٣

(٢)). سورة التوبة ٩: ٨٢

(٣)). الدر المنثور ٣: ۶۵ عن ابن عباس في الآية قال: الدنيا قليل فليضحكوا فيها ما شاءوا فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى اللّٰه استأنفوا بكاءً لا ينقطع أبداً

(۴)). سورة التوبة ٩: ٣٨

إذاً فلا واقع لأمر ضحكهم «جزاءً بما كانوا يكسبون» كما تختص البكاء الكثير باليوم الأخير، كذلك تختصهما جميعاً بالمنافقين والكافرين، فلا تشمل المؤمنين، اللّٰهم إلا غضاً عن «جزاءً» تأويلًا ل «فليضحكوا ..» وكما يروى عن النبي صلى الله عليه و آله: «واللّٰه لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيراً». «١»

ذلك، فقد يعني الأمران هنا إلى التعجيز التكليفَ مهما لا يأتمرون، أن على الكفار والمنافقين أن يقللوا من ضحكهم هنا ويكثروا من البكاء بما قدمت لهم أنفسهم «جزاءً بما كانوايكسبون» هنا، ثم «ليبكوا كثيراً» جزاءًهناك.

وكذلك الأمر للمؤمنين تغاضياً عن الجزاء السوء، بل حصولًا على الحسنى في الحياة الأخرى حيث الضحك الكثير آية الغفلة والغفوة، مهما كان المؤمن بشره في وجهه وحزنه في قلبه، فهو حين يضحك حزين على ما يرى في الأرض من الفساد.

ذلك، وعلى كل مقصر مؤمناً أو كافراً أن يبكي كثيراً على تقصيره وقصوره، وتخضعاً للّٰه.

وطبيعة الحال في الكافر الغافل والمؤمن المستغفل أن يكون فَرِحاً، وتُعاكساً في المؤمن النابه أن يكون قَرِحاً، فالكافر فَرِح بحريته في شهواته وله رفاق فيها كثير، وليس قرحاً إلا قليلًا فيما لا ينال شهوة أو تناله مصيبة.

والمؤمن قَرِح حيث الإيمان هو قيد الفتك، ولما يرى في الأرض من الفساد الكثير ورفاقة في الإيمان قليل.

---

(١) المصدر أخرج ابن مردويه عن أنس قال قال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله: إني أرى ما لا ترون واسمع ما لا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أصابع إلا وملك واضع جبهته للّٰهساجداً واللّٰه لا تعلمون ما أعلم .. وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى اللّٰه لوددت أني كنت شجرة تعضد.

وفي مفتاح كنوز السنة مثله نقلًا عن: بخ- ك ١۶ ب ٢، ك ۶٧ ب ١٠٧، ك ٨١ ب ٢٧، ك ٨٣ ب ٣، تر- ك ٣۴ ب ٩، مج- ك ٣٧ ب ١٩. مى- ك ٢٠ ب ٢۶، حم ثان ص ٢۵٧ و ٣١٢ و ۴١٧ و ۴٣٢ و ۴۵٣ و ۴۶٧ و ۴٧٧ و ۵٠٢، ثالث ص ١٠٢ و ١٢۶ و ١۵۴ و ١٨٠ و ١٩٢ و ٢١٠ و ٢١٧ و ٢۴٠ و ٢۴۵ و ٢۵١ و ٢۶٨ و ٢٩٠، خامس ص ١٧٣، سادس ص ٨١ و ١۶۴، ط- ٢٠٧١

والضحك المحظور للمؤمن هو الناشيء عن الغفلة، دون الضحك بُشراً تلطيفاً لجو المجتمع الذي يعيشه، فإنه محبور، وقد كان النبي صلى الله عليه و آله مبتسماً.

إذاً فالضحك والبكاء هما ظاهرتان- في الأغلب- لفَرَح أو قَرَح في القلب، فلأن قلب المؤمن قَرِح بما يرى مِن نفسه ومن سواه، فهو باكٍ وإن لم يظهر بكاءه، حيث الأصل في البكاء هو إنكماش النفس، كما أن قلب الكافر فَرِح مَرِح حيث يعيش حرية أهواءه ومعه رفاقة الكثير مهما لم يُظهر فرحَه.

فالأصل في «فليضحكوا قليلًا وليبكوا كثيراً» هم غير المؤمنين، هنا لو عرفوا مآلهم بحالهم الكافرة، وهناك ليس إلا البكاء شاءوا أم أبوا.

ثم الأصل في المؤمنين أن يكونوا فرحي القلب «فليضحكوا قليلًا» بمظهره وقلوبهم باكية، «وليبكوا كثيراً» بمظهره وسواه وقلوبهم حاكية.

ولا يعني حديث النبي صلى الله عليه و آله بقوله «والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيراً» إلا تأويلًا للآية دون تفسير، لأن مآل الضحك إلى فرح القلب والمؤمن فرح القلب بما يعلم الأمثل فالأمثل.

ولأن «فليضحكوا وليبكوا» أمران غائبان فلا يعنيان إلّا حتمية قليل الضحك وكثير البكاء، والأول لا محالة واقع في الدنيا حيث إن الضحك فيها مهما كان كثيراً فهو بجنب بكاء الآخرة قليل.

ثم الثاني لا محالة واقع في الأخرى شاءوا أم أبوا دونما حاجة إلى أمر.

ثم لو كانوا يفقهون هنا «فليضحكوا قليلًا» حين الغفلة «وليبكوا كثيراً» عند النبهة بما قدمت لهم أنفسهم لأخراهم.

فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِي أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِي عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ «١»

هنا نفاق معاكس من هؤلاء الأنكاد، فقد رضوا بالعقود أول مرة باستئذان، وهم

---

(١)). سورة التوبة ٩: ٨٣

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٢٠

أولآء يستأذون للخروج هنا ثاني مرة، والجواب كلمة واحدة: «لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً» فسواء عليكم أستأذنتم للقعود أم للخروج فالقصد واحد هو القعود «فاقعدوا مع الخافين» مستأذنين للخروج أو القعود، وغير مستأذنين.

هنا «فإن رجعك الله» بعد الإنتصار «إلى طائفة منهم» لم يخرجوا دون استئذان أم قعدوا باستئذان «فاستأذنوك للخروج» لغزوة أخرى نَظِرة الإنتصار أم تعميةً لقصد القعود، «فقل ..» ل «أنكم رضيتم بالقعود أول مرة» فما أنتم إلا قاعدين، إذاً «فاقعدوا مع الخالفين» فلا حاجة إليكم بعدُ على أية حال، فمهما كانوا هم خالفين صراحاً فأنتم خالفون قصداً حيث كنتم معهم أوّل مرة، والخالف لغوياً هو المخالف وهو الفاسد، فلا يعنى الخَلَف الصالح حيث العبارة الشاملة للكل «القاعدين» ثم «رضوا بأن يكونوا مع الخوالف» هي الأخرى شاهدة على معنى الخالف.

فقد نزلت هذه الآية على الرسول صلى الله عليه و آله وهو في غزوة تبوك، وهذه الطائفة منهم كان لهم مزدوج النفاق حيث إستأذنوه للخروج لغزوة أخرى بعد ما استأذنوا للقعود عن تبوك، وهذه من الملاحم القرآنية أن يخبر جمعاً من المنافقين ان لن يخرجوا ولم يخرجوا وإن تكذيباً لهذه الملحمة، وكما في جمع من الكافرين «سواء عليهم ءَأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون» والخالفون هنا هم القاعدون الأولون المستأذنون للقعود، وهم هنا لا يستأذنون للخروج، فلا تعني معهم المعذورين من المؤمنين، حيث المعية المعنية هي المحظورة، فإنما الخالفون هم المخلَّفون الفرحون بمقعدهم خلاف رسول الله، دون الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما ينفقون.

وهكذا يواجَه الجندي المتخلف الخالف ألا حاجة إليه في غزوة سهلة حين يرفض النفر في غزوة صعبة ملتوبة، حيث يتبين القصد من الخروج إذاً أنه تعمية القعود الأول نفاقاً بعد نفاق.

والدعوات الربانية ولا سيما القتال في سبيل الله بحاجة ماسة إلى صالحين صلبين مستقيمين مصممين صامدين في طويل الكفاح الشاق المرير، والصف الفاشل،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٢١

المتخلل فيه الضعاف المسترخون، ليس ليصمد كما يرام، حيث يخذلونه في ساعة الشدة والعسرة، فليُنبَذوا بعيداً عن ذلك الصف، مقاتلين في سبيل اللّٰه كأنهم بنيان مرصوص غير واهٍ ولا مرضوض، خالصين عن كل دَخَل ودَجَل.

فالتسامح مع الخالفين في ساعة العسرة لساعة الرخاء واليسرة- حيث يعودون بمظهر المتوعين- ذلك التسامح هو خيانة للصف كله، وجناية على الدعوة كلها، فإلى المفاصلة التامة لكي يخلص الصف عن تسرب النفاق «فاقعدوا مع الخالفين» المجانسين إياكم، وابعدوا عن المناضلين غير المجانسين لكم.

تَكتيكة حربية

«فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّٰهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَاطَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللّٰهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّٰهِ وَاللّٰهُ مَعَ الصَّابِرِينَ» «١»

«فلما فصل طالوت بالجنود» عن سائر الشعب، وهم بطبيعة الحال من المختارين للجهاد الذي تهمه العُدَد الروحية وبالأسلحة الكافية، لا- فقط- العَدد أياً كانوا، وقد يروى «أن طالوت قال لقومه: لا ينبغي أن يخرج معي رجل يبني بناءً لم يفرغ منه ولا تاجر مشتغل بالتجارة ولا متزوج بامرأة لم يبن عليها ولا أبغى إلّا الشاب النشيط الفارغ فاجتمع اليه ممن اختار ثمانون ألفاً» «٢» ولكن الكثير منهم- وهم نخبة- سقطوا في ابتلاءِهم بنهر وبقي القليل المحدد بعدد اصحاب بدر. «٣» «فلما فصل .. قال» والقائل

---

(١)). سورة البقرة ٢: ٢٤٩

(٢)). التفسير الكبير للفخر الرازي ٦: ١٧٩ روى ان طالوت ..

(٣)). الدر المنثور ١: ٣١٨- أخرج ابن جرير عن قتادة قال: ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه و آله قال لأصحابه يومبدر: انتم بعدة اصحاب طالوت يوم لقى وكان الصحابة يوم بدر ثلاثمائة وضعة عشر رجلًا، وفيه أخرج ابن ابي شيبة عن ابي موسى قال: كان عدة اصحاب طالوت يوم جالوت ثلاثمائة وبضعة عشر.

وفيه تفسير الفخر الرازي ٦: ١٨٢- ان النبي صلى الله عليه و آله قال لأصحابه يوم بدر: أنتم اليوم على عدة أصحاب طالوت حين عبروا النهر وما جاز معه إلّا مؤمن

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‌٧، ص: ٤٢٢

بطبيعة الحال هو طالوت قائد الجند، مهما كان قوله من قول نبيهم إذ لم يكن هو بنفسه نبياً.

والإبتلاء هنا ذو بعدين مرضيين في تجنيد الجنود، ابتلاءً بتعوُّد الصبر على الشدائد ومن أشدها العطش حالة الحرب، وهي تتطلب استعداداً بدنياً كما هو روحياً.

ومن ابتلاءً بمدى اتِّباعهم لأمر القائد بما أمر اللّٰه، فلا خير فيمن لا يتصبر على الشدائد، ولا يُصغي إلى أمر القائد، وانفصاله خير من اتصاله، وفصله قبل العراك خير منه بعده، حيث الفصل الأخير هزيمة للجنود عن بكرتهم.

هنا تتجلى الحكمة الربانية في اختيار طالوت عليهم ملكاً كقائد الجنود، مقدماً على معركة صاخبة ومعه جيش من أمة مغلوبة قد عرفت الهزيمة في تاريخها المرير مرة بعد أخرى، وهي الآن تواجه جيش أمة غالبة سحقته قبل ردح في قتال ضاربة.

إذاً فلابد من استعداد وقوة كاملة كامنة في ضمير هذا الجيش، بإرادة تضبط الشهوات والنزوات، وتنضبط بقيادتها الصالحة الربانية لكي تجتاز الإبتلاء قاهرة غالبة من تغلُّبها، لذلك يبلوهم ذلك القائد الرصين الأمين بالعطاش ليعلم من يتصبُّر معه ممن ينقلب على عقبيه، ولقد اقتسموا في ذلك الإبتلاء إلى ثلاثة أقسام:

«فمن شرب منه فليس مني» كيفما كان شربه فانه مُخرَج «ومن يطعمه فانه مني إلا من اغترف غرفة بيده» و «لم يطعمه» لا تعني- فقط- من لم يشرب منه، فقد لا يشرب ولكنه يطعم، وهو عوان بين «فليس مني- و- «فانه مني» برزخاً بين الأمرين، لا هو مخرَج ولا هو في صميم الجيش.

ثم الإستثناء «إلا من اغترق غرفة بيده» يسمح الإغتراف لمن لم يطعمه، ولا يعني

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏٧، ص: ٤٢٣

الشرب بالإغتراف، إنما هو- فقط- اغترف دون شرب منه ولا طعم، فهم- «إذاً- أربعة أقسام:

من شرب منه- من طعم منه- من لم يطعم واغترف- من لم يطعم ولم يغترف.

«فشربوا منه إلّا قليلًا منهم» إذاً فليسوا من القائد، ولينفصلوا عن الجيش الزاحف فإنهم بذور ضعف وخذلان، وهزيمة في الميدان، إذ ليست الغلبة بضخامة العدد، فإنها وخامة إن لم يصلح العُدَد، إنما هي بالقلب الصامد مهما قلوا وكثر العدو.

فهذه أولى الغربلات في الجيش بعد فصله عن القوم، وغربلة ثانية في الذين طعموا منه دون شرب، وثالثة، الذين لم يطعموا واغترفوا غرفة، وبقيت القلة القليلة بمن سوى الأولين المخرجين، وهم كل من لم يشربوا منه، وهم كلهم «الذين آمنوا معه» مهما اختلف درجاتهم الثلاث:

«فلما جاوزه هو الذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده» وهم- بطبيعة الحال- الذين طعموا منه دون شرب، ثم:

«قال الذين يظنون أنهم ملاقوا اللّه ..» وهم- بالطبع- الذين لم يطعموه، مغترفاً بيده، وبأحرى من لم يغترف حيث لم يقترب النهر لاغتراف فضلًا عن سواه». «١»

«قال .. كم من فئَة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن اللّه واللّه مع الصابرين».

أولئك هم الخاشعون المستعينون بالصبر والصلاة، الظانون في قلوبهم، القاطعون بعقولهم أنهم ملاقوا اللّه: هنا معرفياً وزلفىً، وهناك في الأخرى معرفة وزلفى هي الأخرى والأحرى: «واستعينوا بالصبر والصلاة وأنها لكبيرة إلا على الخاشعين.

---

(١)). نور الثقلين ١: ٢٤٨ في تفسير القمي روى عن ابي عبد اللّه عليه السلام انه قال: القليل الذين لم يشربوا ولم يغترفوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا، فلما جاوزوا النهر نظروا الى جنود جالوت قال الذين شربوا منه «لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده» وقال الذين لم يشربوا «ربنا افرغ علينا صبراً ...

وفيه عن تفسير العياشي عن ابي بصير عن ابي جعفر عليهما السلام في قول اللّه «ان اللّه مبتليكم بنهر ...» فشربوا منه الا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا منهم من اعترف ومنهم من لم يشرب فلما برزوا قال الذين اغترفوا لا طاقة لنا ... قال الذين لم يغترفوا: كم من فئة ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏٧، ص: ٤٢٤

الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم اليه راجعون». «١»

فهنا الإستعداد الاستعداد من واقع الإيمان والإيقان، متخطياً كل الموازين والقيم الظاهرية التي يستمد سائر الناس من واقع حالهم العادية، حيث الإيمان ميزان جديد حديد شديد يتغلب على سائر الموازين والقيم المتغلبة في حسابات الناس.

اجل! وانها قاعدة رصينة في حقل الإيمان الأمين، للذين يظنون أنهم ملاقوا اللّه.

وكما نرى هذه الفئَة القليلة العَدد، الكثيرة العُدَدقررت مصير هذه المعركة الصاخبة الضارية، حين ارتبطت برباط الإيمان باللّه، والإطمئنان بنصر اللّه، تصبُّراً في النضال في سبيل اللّه، وتطلبا- مع ذلك كله- إفراغ الصبر عليها من اللّه:

وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ «٢»

«ولما برزوا»- «الذين آمنوا معه» «لجالوت وجنوده» في ميدان النضال بحرب عضال، وأحسوا عِدتهم وعُدتهم الكثيرة، أمام أنفسهم القليلة اليسيرة «قالوا» بكل كيانهم وإمكانهم قول القال والحال والفعال: «ربنا افرغ علينا صبراً» يكافح ما أفرغ علينا عدوناً وسبراً، صبراً باستقامة دون فرار، بكل ثبات وقرار، صبراً تتكسر عنده كافة الصعوبات في ذلك النضال العضال، فيضاً منك يغمرنا ويعمرنا بانسباك سكينة وطمأنينة، احتمالًا لكل الأهوال والمشقات على أية حال.

«وثبت أقدامنا» في كل إقدام، أقَدامنا في قلوبنا قبل قوالبنا سياجاً عن الإنهزام والتفلّت من الميدان، أو اي تلفّت. مَيدَان، فلا تزل أقدامنا، ولا يضل إقدامنا، فنظل مرتكسين تحت الوطأة الحمأة اللعينة، وبالنتيجة:

«وانصرنا على القوم الكافرين» نصرة الإيمان على اللّاإيمان، فقد بعث لنا ملكاً قائداً واتليتنا بنهر فجزنا بلاءَك ناجحين، فجز بنا هذه الحرب منتصرين، فإنا منك

---

(١)). سورة البقرة ٢: ٤٦

(٢)). سورة البقرة ٢: ٢٥٠

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٢٥

وإليك وفي قبضتك يا أرحم الراحمين.

فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتْ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ «١»

هزيمة عظيمة قليلة النظير لهؤلاء الكفار كما كانت لقريش في بدر من البشير النذير، والعَدد نفس العَدد، والعُدد نفس العُدد، فقد «قتل داود جالوت» «٢» ولم يكن يخلد أحد أن هذا الشاب القصير الصغير يقتل جالوت الكبير الكبير، وكما قتل الامام

---

(١)). سورة البقرة ٢: ٢٥١

(٢)). البحار ١٣: ٤٥١ عن تفسير العياشي عن محمد الحلبي عن ابي عبد اللّه عليه السلام قال: كان داودواخوة له اربعة ومعهم ابوهم شيخ كبير وتخلف داود عليه السلام في غنم لأبيه ففصل طالوت بالجنود فدعا ابو داود داود وهو أصغرهم فقال: يا بني اذهب إلى اخوتك بهذا الذي قد صنعناه لهم يتقوون به على عدوهم وكان رجلًا قصيراً ازرق قليل الشعر طاهر القلب فخرج وقد تقارب القوم بعضهم من بعض.

وفيه عن ابي بصير قال سمعته يقول: فمرّ داود على الحجر فقال الحجر يا داود خذني فاقتل بي جالوت فإني إنما خلقت لقتله فأخذه فوضعه في مخلاته التي تكون فيه حجارته التي كان يرمي بها عن غنمه بمقذافه، فلما دخل العسكر سمعهم يتعظمون أمر جالوت فقال لهم داود: ما تعظمون من امره فوالله لئن عاينته لأقتلنه فتحدثوا بخبره حتى أدخل على طالوت فقال: يا فتى! وما عندك من القوة؟ وما جربت على نفسك؟ قال: كان الأسد يعدو على الشاة من غنمي فأدركه فأخذ برأسه فأفك لحيته عنها فاخذها من فيه، قال فقال: ادع لي بدرع سابغة، قال: فأتي بدرع فقذفها في عنقه فتملأ منها حتى راع طالوت ومن حضره من بين اسرائيل فقال طالوت: والله لعسى الله أن يقتله به، فلما أن أصبحوا ورجعوا إلى طالوت والتقى الناس قال داود عليه السلام أروني جالوت فلما رآه أخذ الحجر فجعله في مقذافه فصك بين عينيه فدمغه ونكس عن دابته وقال الناس: قتل داود جالوت، وملكه الناس حتى لم يكن يُسمع لطالوت ذكر واجتمعت بنو اسرائيل على داود وأنزل الله عليه الزبور وعلّمه صنعة الحديد فلينه له وامر الجبال والطير يسجن معه قال: ولم يعط أحدٌ كثل صوته، فأقام داود في بني اسرائيل مستخفياً وأعطي قوة في عبادته.

وفي الدر المنثور ١: ٣٢٠- أخرج ابن جرير وابن عدي عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه و آله: .. ثم قرأ ابن عمر الآية وفيه اخرج ابن جرير عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه و آله: ان الله ليصلح بصلاح الرجل المسلم ولده وولد ولده وأهل دويرته ودويرات حوله ولا يزالون في حفظ الله ما دام فيهم، وفيه اخرج ابن جرير عن ابي مسلم سمعت علياً عليه السلام يقول: لولا بقية من المسلمين فيكم لهلكتم

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٢٦

علي عليه السلام عمرواً في الأحزاب، فاعتبروا يا اولي الألباب.

وهنا حكمة حكيمة ثانية في تغلُّب داود على جالوت هي أن قدر الله أن يتسلم هو الملك بعد طالوت فيكون عهداً ذهبياً لبني اسرائيل في تاريخهم الطويل الطويل، جزاءَ انتفاضة العقيدة في هذه المرة اليتيمة في نفوسهم بعد ضلال طويل وانتكاس وبيل.

ولقد جمعت فيه القيادتان، الزمينة والدينية، بعد ما كانتا مفترقتين عن بعض، وورثه سليمان فيهما وبصورة أقوى: «وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء»:

يشاءه هو ويشاء الله كما يصلح ويكفي للقيادتين.

وهكذا يدفع ناس بعضهم ببعض بحكم التشريع والتكوين، أن يدفع النسناس بناس بفضل إله الناس على العالمين، دفعاً عن فساد قاحل في أرض الحياة الإنسانية، ولسوف يدفع الله بالمهدي عليه السلام وأصحابه كل فساد في الأرض فتصبح كما الجنة كما وعد الله.

ومن دفع يروى عن رسول الهدى صلى الله عليه و آله قوله، «ان الله ليدفع بالمسلم الصالح عن مأة اهل بيت من جيرانه البلاء» «١»

وقوله صلى الله عليه و آله: «لولا عباد ركّع وصبيان رَضّع وبهائم رتّع

---

(١)). في نور الثقلين ١: ٢٥٣ في أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله ليدفع بمن يصليمن شيعتنا عمن لا يصلي من شيعتنا ولو اجتمعوا على ترك الصلاة لهلكوا، وان الله ليدفع بمن يحج من شيعتنا عمن لا يحج ولو اجتمعوا على ترك الحج لهلكوا وهو قول الله عز وجل «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين» فوالله مانزلت إلا فيكم ولا عنى بها غيركم.

أقول «كم» هنا هم كل الصالحين على طول خط الرسالات. المتمثل في تأويل الامام عليه السلام بالشيعة الصالحة فإنهم أفضل مصاديقهم.

وفي الدر المنثور ١: ٣٢٠- أخرج ابن جرير وابن عدي عن ابن عمر قال قال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله: ... ثم قرأ ابن عمر الآية وفيه أخرج ابن جرير عن جابر بن عبد اللّٰه قال: قال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله: ان اللّٰه ليصلح بصلاح الرجل المسلم ولده وولد ولده وأهل دويرته ودويرات حوله ولا يزالون في حفظ اللّٰه ما دام فيهم، وفيه أخرج ابن جرير عن أبي مسلم سمعت علياً عليه السلام يقول: لولا بقية من المسلمين فيكم لهلكتم

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٢٧

لصب عليكم العذاب صباً» «١» ذلكم المسلم، فبأحرى الأبدال وهم فطاحل المؤمنين الأفضال، وعلى حد المروى عن إمام الأبدال. «٢»

---

(١)

). المصدر، أخرج الطبراني في الأوسط بسند حسن عن أنس قال قال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله لن تخلوالأرض من أربعين رجلًا مثل خليل الرحمن فبهم تسقون وبهم تنصرون، مامات منهم أحد إلا أبدل اللّٰه مكانه آخر.

وفيه أخرج الطبراني في الكبير عن عبادة بن الصامت قال قال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله: الأبدال في أمتي ثلاثون بهم تقوم الأرض وبهم تمطرون وبهم تنصرون، وفيه أخرج الخلال عن ابن عمر قال قال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله لا يزال أربعون رجلًا يحفظ اللّٰه بهم الأرض كلما مات رجل أبدل اللّٰه مكانه آخر فهم في الأرض كلها

(٢)). المصدر، أخرج الطبراني في الاوسط بسند حسن عن أنس قال قال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله لن تخلو الأرض من اربعين رجلًا مثل خليل الرحمن فبهم تسقون وبهم تنصرون مامات منهم أحد إلا أبدل اللّٰه مكانه آخر.

وفيه اخرج الطبراني في الكبير عن عبادة بن الصامت قال قال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله: الأبدال في أمتي ثلاثون بهم تقوم الأرض وبهم تُمطرون وبهم تنصرون، وفيه اخرج الخلال عن ابن عمر قال قال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله لا يزال اربعون رجلًا يحفظ اللّٰه بهم الأرض كلما مات رجل أبدل اللّٰه مكانه آخر فهم في الأرض كلها.

وفيه أخرج الطبراني عن ابن مسعود قال قال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله: لا يزال اربعون رجلًا من امتي قلوبهم على قلب إبراهيم عليه السلام يدفع اللّٰه بهم عن أهل الأرض يقال لهم الأبدال انهم لن يدركوها بصلاة ولا بصوم ولا بصدقة، قالوا يا رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله فبم ادركوها؟ قال: بالسخاء والنصيحة للمسلمين، وفيه أخرج ابو نعيم في الحلية وابن عساكر عن ابن مسعود قال قال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله: ان للّٰهعز وجل في الخلق ثلاثمأة قلوبهم على قلب آدم عليه السلام وللّٰه في الخلق اربعون قلوبهم على قلب موسى عليه السلام وللّٰه في الخلق سبعة قلوبهم على قلب ابراهيم، وللّٰه في الخلق خمسة قلوبهم على قلب جبرئيل عليه السلام وللّٰه في الخلق ثلاثة قلوبهم على قلب ميكائيل عليه السلام وللّٰه في الخلق واحد قلبه على قلب إسرافيل عليه السلام فإذا مات الواحد أبدل اللّٰه مكانه من الثلاثة واذا مات من الثلاثة ابدل اللّٰه مكانه من الخمسة وإذا مات من الخمسة ابدل اللّٰه مكانه من السبعة واذا مات من السبعة ابدل اللّٰه مكانه من الاربعين واذا مات من الاربعين ابدل اللّٰه مكانه من الثلاثمأة واذا مات من الثلاثمأة ابدل اللّٰه مكانه من

العامة، فبهم يحيي ويميت ويمطر وينبت ويدفع البلاء، قيل لعبد اللّه بن مسعود كيف بهم يحيي ويميت؟ قال: لأنهم يسألون اللّه إكثار الأمم فيكثرون ويدعون على الجبابرة فيقصمون ويستسقون ويسألون فينبت لهم الأرض ويدعون فيدفع بهم أنواع البلاء.

وفيه اخرج ابو داود والحاكم وصححه عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه و آله قال: ان اللّه يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها، وفيه عن النبي صلى الله عليه و آله ان اللّه يقيض في رأس كل مائة سنة من يعلم الناس السنن وينفي عن النبي صلى الله عليه و آله الكذب.

وفيه اخرج احمد والحكيم الترمذي وابن عساكر عن علي عليه السلام سمعت رسول اللّه صلى الله عليه و آله يقول: الأبدال بالشام وهم اربعون رجلًا كلما مات رجل ابدل اللّه مكانه رجلًا يسقي بهم الغيث وينتصر بهم على الأعداء ويصرف عن اهل الشام بهم العذاب- وفي لفظ ابن عساكر- ويصرف عن اهل الارض البلاء والغرق.

وفيه اخرج الخلال في كتاب كرامات الأولياء عن علي بن ابي طالب عليه السلام قال: ان اللّه ليدفع عن القرية بسبعة مؤمنين يكونون فيها

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٢٨

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ «١»

«تلك» العظيمة العزيمة «آيات اللّه» تكوينية وتشريعية «نتلوها عليك» يا حامل الرسالة الأخيرة، وحامل الرسالات كلها «بالحق» آيات بالحق، نتلوها عليك بالحق، بسبب الهدف الحق، ومصاحبة الحق، ولكي تهدي العالمين إلى صالح الحياة الإيمانية بمكافحة دائبة ضد الظلم والطغيان، جهاداً دائباً في فسيح الزمان ووسيع المكان، حفاظاً على صالح الحياة طرداً لفاسدها «وإنك لمن المرسلين» بهذه الرسالة السامية، التي تحقق كل الرسالات الإلهية.

«تلك آيات اللّه» عبرة لاولي الألباب عَبر الزمان والمكان ما عاش إنس او جان، لا سيما آية الدفع، ولكي تصغي اليها آذان صاغية من هذه الأمة المرحومة، فتعيش كل حياتها دفاعاً عن الحق، فلا تتأسن الحياة وتتعفن بالتكاسل والتخاذل من هؤلاء الذين حمِّلوا راية الصلاح والاصلاح، ولا يظنوا أن الإصلاح انما هو بيد صاحب الأمر، وأما الذين قبله فليس لهم أمر إلا السكوت والخنوع أمام السلطات الكافرة.

ومن دفع اللّه الناس بعضهم ببعض أن يدفع بعض الناس ببعض الى صالح الحياة الجماعية وكما تعنيه آية السخري: «ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون». «٢»

فإن في تسخير الفاقد لشيءٍ الواجد له اكتمالًا لنفسه فيما فقده، واكمالًا لغيره فيما يحتاجه، إن في ذلك تجاوباً في الحصول على حاجيات الحياة، إذ لا يتمكن اي أحد

---

(١)). سورة البقرة ٢: ٢٥٢

(٢)). سورة الزخرف ٤٣: ٣٢

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٢٩

مهما بلغ من القوة والعبقرية أن يكون مستغنياً في الحياة عن سواه، مستقلًا فيها، اللّهم الا مستِغلًا ومستَغلًا تكافئاً في مختلف الحاجيات الحيوية.

هذا- ولكن الدفع هنا معدّىً ب «الى» المقدرة، وفي الأولين ب «عن»: دفعاً عن المحاظير، او دفعاً إلى المصلح، الجامعان للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مهما شمل النهي إخفاق أثر المنكر بواقع المعروف من الصالحين كما في ثاني المحتملين الأولين.

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ «١»

الصلة البارزة بين هذه الآية وما قبلها قد تكون ب «وإنك لمن المرسلين» إذ قد تخيّل أن الرسل على سواء في فضائل الرسالة وأنت منهم، ولكنه لا، بل: «تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ..» في الفضائل الذاتية علمية وروحية معرفية، وفي الفضائل الدعائية وما حُمّلوه من شرعة اللَّه، فليسوا هم على سواء لأنهم- ككل- رسل اللَّه، بل فيهم تفاضل كما في سائر الناس، وكل ذلك بما فضل اللَّه، تفضيلًا فضيلًا بحكمة بارعة ربانية دونما فوضى جزاف، ف:

«تلك» البعيدون عن الآفاق البشرية في كل الأبعاد الروحية والعملية بسناد وحي العصمة عصمة الوحي.

«تلك الرسل» كل الرسل، تحليفاً على كافة رجالات الرسالات.

فرض القتال في سبيل اللَّه وأخذ الحذر فيه

هنا آيات متواصلة في فرض القتال في سبيل اللَّه، بعرض الحالة التي كان عليها

---

(١)). سورة البقرة ٢: ٢٥٣

المسلمون وقتَ نزولها، تحريضاً عريضاً على الصمود في خطوط النار ضد المحاربين في سبيل الطاغوت، وقضاءً على شطحات الأقوال المتسربة بين المؤمنين.

وإنها توحي بوجود جماعات منوّعة داخل الصفوف لم تنضج بعدُ أم لم تؤمن أو لما، وهي في حاجة ماسة إلى حالة متراصّة لتنهض بالمهمة الملقاة على عواتق الجماعة المؤمنة، خوضاً في معرك الشرف والكرامة عقائدية أو عسكرية أماهيه؟.

وهكذا يخوض القرآن كل المعارك مع الضعف البشري ومع رواسب الجاهلية والمعسكرات المعادية في وقت واحد، حيث يلتقط أناساً من سفح الجاهلية إلى القمم العالية الإيمانية.

ذلك، ولكي لا نيأس نحن من أنفسنا حين نطّلع على مواضع الضعف فنترك العلاج، وكيلا تبقى الجماعة المؤمنة الأولى- على كل فضائلها- مجردَ حُلم طائر في خيالنا، لا مطمع لنا في محاولة السير على خطاها، من الفسح الهابط في المرتقي الصاعد إلى القمة السامقة المرقومة علينا في الذكر الحكيم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعاً «١»

وصية من القيادة العليا الربانية للذين آمنوا في حياتهم الإيمانية السامية أن يأخذوا حذرهم من الذين كفروا، نفراً ثباتٍ أو جميعاً، وإنها إستراتيجية للمعركة عالية المبنى غالية المعنى لا حِوَل عنها في الحياة الإيمانية وِجاه كل العراقيل والدوائر المتربصة بهم.

«خذوا حذركم» ممن؟ من كل الأعداء، التنجاهرين منهم والمنافقين المندسّين في صفوفكم، وهم أخطر وأشجى على ساحة الإيمان، ولا يختص الحذر بالأسلحة وكما قوبل بها «وليأخذوا حذرهم واسلحتهم». «٢» أو أطلق في كل فتنة «احذرهم أن

(١)). سورة النساء ٤، ٧١

(٢)). سورة النساء ٤: ١٠٢

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٣١

يفتنوك عن بعض ما أنزل اللّه إليك». «١» «يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم». «٢» فتنة تفتن بكم عن طاعة اللّه وطاعة الرسول: «وأطيعوا اللّه وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين». «٣»

وليس أخذ الحذر- أياً كان ومن أيٍّ كان- تصوراً خاوياً عن الواقع، إنما هو عمل حادٌّ يجعل المؤمنين في أمنٍ مما يخاف منه، ومنه «فانفروا ثبات أو أنفروا جميعاً ٩.

ففي فردية النفر متصيَّد الأعداء المثوبين في كل مكان، ولا سيما إذا كانوا منبثين في قلب المعسكر الإسلامي، فليكن النفر إلى الجهاد إما ثُبَات وإما جميعاً.

والثبات جمع ثُبة: مجموعة، فانفروا مجموعات تلو بعض في مختلف الوجهات للمعركة، او انفروا جميعاً لهجمة واحدة على الأعداء، والأمر في كلا الأمرين إلى أولي في الأمر في القيادة العسكرية، إذاً فلا يستهان بالعدو أياً كان، وإنما يتحذر بكل وسائله، تهيئاً لدفع أسوء المحتملات، كما «وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة .. ترهبون به عدو اللّه وعدوكم».

وقد تعني «ثبات» السرايا و «جميعاً» العسكر «٤» ولكن «حذركم» لا تختص بالأسلحة «٥» إلا كمصداق من مصاديق الحذر الشاملة لكل التكتيكات الحربية، ومنها ما هو أهم من الأسلحة، كصامد الإيمان ومعرفة الإستراتيجية الحربية، والوحدة الكاملة الشاملة بين العسكر، والسمع والطاعة لقوّاد القوات المسلحة.

(١)

). سورة المآئدة ٥: ٤٩

(٢)). سورة المنافقون ٦٣: ٤

(٣)). سورة المآئدة ٥: ٩٢

(٤)). نور الثقلين ١: ٥١٦ عن المجمع روي عن أبي جعفر عليهما السلام أن المراد بالثبات السرايا وبالجميعالعسكر

(٥)). المصدر عنه المجمع في قوله تعالى حذو حذركم قيل فيه قولان- الى قوله: والثاني أنمعناه خذوا أسلحتكم، سمي الأسلحة حذراً لأنها الآلة التي بها يتقى الحذر وهو المروي عن أبي جعفر عليهما السلام

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٣٢

فالحِذر هو كل ما فبه الحَذَر، وأخذه هو واقه الحضور بكل وسائله في كل المحاذر والمحاظر، فلأن الإيمان على طول خطه هو متربَّص الدوائر من فِرَق اللّاايمان، فليأخذ المؤمنون حذرهم وكل أسلحتهم وِجاه كافة المحاولات الكافرة في كل حقول المعارضات والمعاركات، حربية أو عقيدية أو سياسية أو ثقافية أو اقتصادية أماهيه، وبكل سلاح ينايسبه.

ذلك وليس النفر ثبات أو جمعاً تخيراً طليقاً في كل الحروب، وإنما هما حسب مختلف الظروف والمتطلبات، فإذا كانت الأعداء كثرة كثيرة وقائدكل القوات يستنهض المؤمنين فهنا «انفروا جميعاً» لا سيما إذاكان القائد هو الرسول صلى الله عليه و آله.

وإذا كانت الأعداء قلة تكفي بأسهم «ثبات» فثبات، فالنفر- إذاً- مقدر- عِدة وعُدَّة وكيفية- بقدر العدوِّ والعداء، لا ناقصاً عنه ولا زائداً عليه، إلا قدر القادر على الذبِّ والدفع، خفافاً وجاه الخفاف وثقالًا وجاه الثقال ويجمعهما مكافحة غالبية على الأعداء: «انفروا خفافاً وثقالًا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم». «١»

وأخذ الحذر يعم الأخذ لحاضر الحذر غير المأخوذ بعد، وغائبه أو عادمه، فعلى المؤمنين المدائبة في إعداد القوات المكافحة قبيلَ الكفر المعادي على أية حال.

ثم و «حذركم» خطاباً للمؤمنين تعم كل حذر هو قضية الإيمان والحفاظ عليه، وذلك حكم عام موجه إلى المؤمنين أن عليهم تقديم كافة المحاولات للحفاظ على كونهم وعلى كيانهم فرادى وجماعات، دون اتكالية على الله بلا سعي وعمل جاد «وأن ليس للإنسان إلّا ما سعى» وليس «المقدر كائن» إلّا على قدر الأقدار الخَليقة، وإلا لبطلت كل المساعي المأمور بها، المدعوَّ إليها، وبطل التكليف بأسره.

وهل المؤمنون هناك أو هنا- ككل- آخذون حذرهم في نفْرهم ثباتٍ أو جميعاً كلّا!:

وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداًا ٧٢ وَلَئِنْ أَصابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يا لَيْتَنِي

---

(١)). سورة التوبة ٩: ٤١

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٣٣

كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً «١»

التبطيء هي كثرة الإبطاء المتواتر لأنفسهم وسواهم، فهناك تبطيءٌ عن أخذ الحِذر والنفْر ثباتٍ جميعاً حذَر الموت في المعركة، ورغم النفر العام إليها، وهنا التبطيء دون البُطىءِ لتشمل بطوء المتثاقلين- إلى الأرض عن أرض المعركة- أنفسهم، والذين يُبطِّئون مَن سواهم كما هم يَبطَئون.

«ليبطئن» صيغة مختارة سائغة لأداء معناها بكامله، جامعة جَرَس اللفظ إلى جرس المعنى، تصويراً لحركة نفسية معاكسة على القتال في سبيل الله، تعثُّراً وتثاقلًا من المخذلين المثبطِّين عن القتال، ولا فحسب أنفسهم، بل وأنفس الآخرين المتثبطين بهم، الماشين معهم.

وهنا التأكيدات الأربع: «إن- لَمن- ليبطئنَّ» هي القواعد الأربع لصرح تثبيطهم عن القتال، مما يقربها إلى كتلة النفاق العارم.

إنهم يبطئون متلكئين ولا يصارحون، ليمسكوا العصا من وسطها، جلباً للربح وبعداً عن الخسارة، وهم لا يختجلون من مقالتهم هذه القالة: «قد أنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيداً» حيث يحسبون هذه النجاة مع التخلف نعمة منسوبة إلى الله حيث تخلفوا عن أمره، ويْكأن الله ينعم على المتخلفين وينقم على المطيعين!.

وليس شمول خطاب الإيمان للمبطئين إلّا مسايرة معهم ومجاراة، أم إنهم أو منهم مَن هم ضعفاء الإيمان، مهما كان منهم منافقون.

وهؤلاء المبطئون ناظرون مصير النافرين «فإن أصابتكم مصيبة» القتل أو الجرح أو الإنهزام «قال قد أنعم الله عليَّ» في ذلك التبطيء وكأنه من الله رغم أنه تخلُّف عن حكم الله «إذ لم أكن معهم شهيداً» للمعركة، إذ كانت تصيبني كما أصابهم.

«ولئن أصابكم فضل من الله» إنتصاراً في المعركة وغنائم أماهيه «ليقولن- كأن لم تكن بينكم وبينه مودة- يا ليتني كنت معهم» في المعركة «فأفوز» كما فازوا «فوزاً

(١)). سورة النساء ٧٢- ٧٣

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٣٤

عظيماً» عناية إلى الغنيمة والإياب دون النصرة، معاكسة لبغية المؤمنين الذين يرون النصرة فوزهم العظيم، ومن ثم القتل دونه وهما الحسنيان المطلوبتان لهم.

وترى معترضة الجملة «كأن لم تكن» كيف وقعت في الأهون موقعاً وهو موقع الفوز، بتحسُّر عدم الحضور له، وموقع المصيبة أوقع وقعاً عليهم بقولهم؟.

علَّها لتشمل الموقع الأول وبأحرى، فلو وقعت فيه لم تكن لتشمل الثاني، فكلا القولتين القالتين غائلة مائلة عن حق الإيمان، فإنها يعاكسان قضية أخوة الإيمان مهما اختلفت دركاتهما.

فقضية الأخوة الإيمانية هنا أن الفائز من المؤمنين بفوز عظيم يعتبر فوزه فوزاً لسائر إخوته المؤمنين، كما أن مصيبتهم مصيبة، فهذه القالة المنافقة تدل على أن «لم تكن بينكم وبينه مودة»؟ وليست «كأن» إلا مجاراة معهم لتجذبهم إلى قضية الإيمان.

فكيف بالإمكان أن يسمح الإيمان بهذه الخاطرة الخطرة المقلوبة أن تعتبر المصيبة على الاخوة في الإيمان نعمة إذا لم تصبه، والفوز بالغنيمة فضلًا وفوزاً عظيماً؟.

وإن هذه مصيبة عليهم دونهم نعمة عند الذين لا يتعاملون مع اللّه ولا يدركون حق الحياة ولا يتطلعون إلى آفاق أعلى من مواطىء الأقدام في هذه الأدنى، ولا يحسبون أن البلاء في سبيل اللّه فضل كسائر النعماء.

فهم أولاء المبطئون عن معارك الشرف والكرامة ينظرون اليها نظرة عشواء عوراء، أنها بين مصيبة وفوز، وهي تحمل إحدى الحسنيين وكلتا هما فوز عظيم وفضل من اللّه، وذلك هو الأفق السامق الذي يريده اللّه للمؤمنين أن يرفعهم إليه، راسماً لهم هذه الصورة المنفرة من سيرة نَخرة نَكِرة للمندسَّن في صفوفهم من المبطئين، ليأخذوا منهم حذرهم كما يأخذونه من أعدائهم الجاهرين.

ولأم المودة الإيمانية توحِّد بين المؤمنين لحد كأنهم شخص واحد، فالقول «يا ليتني كنت معهم» يجعلهم «كأن لم تكن بينكم وبينه مودة» فلهم التحسر والترح في إصابة الفضل، والفرح في إصابة مصيبة، وكلا هما فضل وهذه مجانبة وتفارُق دون آية

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٣٥

مودة، وقضية الإيمان الفرح الف مؤمنين والترح لترحهم لأنهم كأطراف شخص واحد، يحكمهم روح واحدة في أبدان عدة.

وهذه من شيمة النفاق مهما حصلت لضعفاء الإيمان، المخاطَبين بخطاب الإيمان.

وحقاً

المنافقون مُركسون بما كسبوا

فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا «١»

هذه وآيات بعدها تختص «المنافقين» بفرقة منهم خاصة تجب قتالهم كما الكافرين أو هي أشد، حيث كانوا يؤلِّبون على رسول اللّه صلى الله عليه و آله ويؤذيني حتى قام خطيباً فقال: «من لي بمن يؤذيني ويجمع في بيته من يؤذيني». «٢»

(١)). سورة النساء ٤: ٨٨

(٢)). الدر المنثور ٢: ١٩٠ عن زيد بن ثابت أن رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله خرج الى أحد فرجع ناس خرجوا معه فكان أصحاب رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله فيهم فرقتين فرقة تقول نقتلهم وفرقة تقول: لا فأنزل «فما لكم ..» فقال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله: إنها طيبة تنفي الخبث كما تعني النار خبث الفضة.

وفيه عن ابن معاذ الأنصاري أن هذه الآية نزلت فينا، خطب رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله الناس فقال: من لي بمن يؤذيني ويجمع في بيته من يؤذيني فقام سعد بن معاذ فقال: إن كان منا يا رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله قتلناه وإن كان أخواننا من الخروج أمرتنا فأطعناك فقام سعد بن عبادة فقال: ما بك يا ابن معاذ طاعة رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله ولكن عرفت ما هو منك فقام أسيد بن حضير فقال: إنك يا ابن عباد منافق تحب المنافقين فقام محمد بن مسلم فقال: اسكتوا أيها الناس فإن فينا رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله وهو يأمرنا فننفذ لأمره فأنزل اللّٰه «فما لكم ..».

وفيه عن ابن عباس قال: إن قوماً كانوا بمكة قد تكلموا بالإسلام وكانوا يظاهرون المشركين فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم فقالوا: إن لقينا أصحاب محمد فليس علينا فيهم بأس وإن المؤمنين لما أخبروا أنهم قد خرجوا من مكة قالت فئة من المؤمنين اركبوا الى الخبثاء فأقتلوهم فإنهم يظاهرون عليكم عدوكم وقالت فئة أخرى من المؤمنين: سبحان اللّٰه أتقتلون قوماً قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به من أجل أنهم لم يهاجروا ويتركوا ديارهم تستحل دماءهم وأموالهم فكانوا كذلك فئتين والرسول عندهم لا ينهى واحداً من الفريقين عن شيءٍ فنزلت «فما لكم- الى قوله- حتى يهاجروا في سبيل اللّٰه» يقول: حتى يصنعوا كما صنعتم فإن تولوا قال: عن الهجرة وفيه أخرج أحمد بسند فيه إنقطاع عن عبد الرحمن بن عوف ان قوماً من العرب أتوا رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله بالمدينة فأسلموا وأصابهم وباء بالمدينة حماها فأركسوا خرجوا من المدينة فاستقبلهم نفر من الصحابة فقالوا لهم ما لكم رجعتم قالوا أصابنا وباء المدينة فقالوا: ما لكم في رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله أسوة حسنة فقال بعضهم نافقوا وقال بعضهم لم ينافقوا انهم مسلمون فأنزل اللّٰه الآية

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٣٦

ذلك! سواء منهم من تخلف عن رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله ولم يهاجر معه ولا بعده وتعامل مع المشركين ضده «١» أمن كتب من مكة أنهم أسلموا وكان ذلك كذباً «٢» أمن أتوه في مدينة فأسلموا ومكثوا معه ما شاء اللّٰه ثم ارتكسوا «٣» أمّن سواهم من المنافقين المؤلبين على الرسول والمؤمنين معه، متربصين بالإسلام دوائر السوء.

ومهما دلت «حتى يهاجروا في سبيل اللّٰه» في الآية التالية على أنهم هم المتخلفون

---

(١)). المصدر عن مجاهد في الآية قال: قوم خرجوا من مكة حتى جاءوا المدينة يزعمون أنهممهاجرون ثم ارتدوا بعد ذلك فاستأذنوا النبي صلى الله عليه و آله الى مكة ليأتوا ببضائع لهم يتجرون فيها فاختلف فيهم المؤمنون فقائل يقول: هم منافقون وقائل يقول: هم مؤمنون فبين اللّٰه نفاقهم فأمر بقتلهم فجاءوا ببضايعهم يريدون هلال بن عويمر الأسلمي وبينه بين محمد حلف وهو الذي حصر صدره أن يقاتل المومنين أو يقاتل قومه فدفع عنهم بأنهم يؤمون هلالًا وبينه وبين النبي صلى الله عليه و آله عهد

(٢)). المصدر عن معمر بن راشد قال: بلغني أن ناساً من أهل المدينة كتبوا الى النبي صلى الله عليه و آله أنهم قد أسلموا وكان ذلك منهم كذباً فلقوهم فاختلف فيهم المسلمون فقالت طائفة دماءهم حلال وطائفة قالت دماءهم حرام فأنزل اللّٰه «فما لكم ..».

ومن طريق أصحابنا كما في المجمع عن الباقر عليه السلام نزلت في قوم قدموا الى المدينة من مكة فأظهروا للمسلمين الإسلام ثم رجعوا الى مكة لأنهم استوخموا المدينة فأظهروا الشرك ثم سافروا ببضايع المشركين الى اليمامة فأراد المسلمون أن يغزوهم فاختلفوا فقال بعضهم لا نفعل فإنهم مؤمنون وقال آخرون انهم مشركون فأنزل الله فيهم هذه الآية.

أقول: أظهروا الشرك لا يلائم كونهم منافقين، و «حتى يهاجروا» دليل أنهم بعد لم يهاجروا فتصدق الرواية القائلة أنهم الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه و آله

(٣)). المصدر عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أن نفراً من طوائف العرب هاجروا الى رسول الله صلى الله عليه و آله فمكثوا معه ما شاء الله أن يمكثوا ثم ارتكسوا فرجعوا الى قومهم فلقوا سرية من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله فعرفوهم فسألوهم ما ردكم فاعتلوا لهم فقال بعض القوم لهم نافقتم فلم يزل بعض ذلك حتى فشى فيهم القول فنزلت هذه الآية، وفي الصحيحين عن زيد بن ثابت أن رسول الله صلى الله عليه و آله خرج الى أحد فرجع ناس خرجوا معه فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله فيهم فرقتين فرقة تقول نقتلهم وفرقة تقول: لا- هم المؤمنون فأنزل الله «فما لكم ..» فقال رسول الله صلى الله عليه و آله إنها طيبة وإنها تنفي الخبث كما ينفي الكير خبث الحديد

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٣٧

عن الهجرة مع الرسول صلى الله عليه و آله ولكنها تشمل في «مالكم في المنافقين» لفظاً وفي التالية جرياً، كلَّ هؤلاء المنافقين الخطرين بأشده على الإسلام والمسلمين.

هنا «فئتين» حال عن المجرور في «لكم»: ما لكم حالكونهم في المنافقين فئتين، فئة مسايرة معهم مصابرة، وجاه فئة ماضية على أمر الله ورسوله مقاتلة و ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون الخيرة من أمرهم». «١»

«ما لكم فئتين» «والله أركسهم بما كسبوا» والركس هو الإنقلاب على الوجه إلى الدبر، فالإركاس هو الإقلاب كذلك، فقد أركسهم الله إلى جاهر كفرهم بما كسبوا في نفاقهم العارم، وأركسهم إلى أحكام الكفار بعد إذ كانوا بظاهر إسلامهم بأحكام المسلمين.

وقد تعني «أركسهم» ثالوثه المنحوس، قلباً لقلوبهم عن الهدى كيلا يهتدوا أبداً، وقلباً لهم إلى أحكام الكفار، وقلباً إلى جحيم النار، وكل ذلك «بما كسبوا».

ولا يعني «يضلل الله» هنا أياً كان إلّا عدم التوفيق لهم أن يهتدوا بعد، وأن يكلهم الله إلى أنفسهم، ويختم على قلوبهم بما ختموا وزاغوا: «فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم».

«اتريدون أن تهتدوا من أضل الله» وهو الذي ظل مع الرسول ردحاً منافقاً ولكنه ضل وأضل كثيراً فأضله الله «ومن يضلل الله» بما ضل وأضل «فلن تجد له سبيلًا» إلى الهدى ومَخلصاً عن الردى.

ذلك! فالفئوية والتميُّع في الصف الإسلامي خطر على الإسلام والمسلمين، لا سيما في الدولة الجديدة الإسلامية ولما تقم على سوقها، المحتاجة الى اجتياح المتسربين الدُخلاء عن صفِّه الرصين المتين، فلا دور- إذاً- للتسامح والإغضاء عن هؤلاء الحماقى اللعناء.

وليس قولهم مقالة يقولها المسلمون بما يُقيلهم بينما هم يظاهرون أعداء الإسلام، فقد كفروا جهاراً بعد ما أسلموا نفاقاً إذ لا عبرة بكلمات تقال فتكذبها الأفعال.

---

(١)). سورة الأحزاب ٣٣: ٣٦

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٣٨

«وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً» «١»

مواصفة لهؤلآء المنافقين ثالثة، بعد ما أركسهم اللّه وأضلهم بما كسبوا: «ودوا لو تكفرون كما كفروا» فهم أولاء أعداء اللّه وأعداء رسوله والمؤمنين: «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء .. إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداءً ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون». «٢»

ذلك «فلا تتخذوا منهم أولياء»: إخوة في الإيمان، فإنهم لا إيمان لهم «حتى يهاجروا في سبيل اللّه» دون قولة الإسلام فقط والسلام، فإنما الظاهرة الباهرة لإيمانهم المدَّعى- إن إدَّعوا- أن «يهاجروا في سبيل اللّه» لا أن يظلوا في مساكنهم مع أعداءكم متواطئين، ولا أن يهاجروا في سبيل اللّه المطالع والمصلحيات الدنيوية كما هاجرت جماعة منهم ومكثوا مع الرسول صلى الله عليه و آله ثم ارتكسوا، ولا أن يهاجروا في سبيل وسطى، لا إلى اللّه ولا إلى الطاغوت، إنما «حتى يهاجروا في سبيل اللّه».

«فإن تولوا» عن تلكم المهاجرة الهاجرة عن الكفر، وظلوا على ارتكاسهم «فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم» فإنّ في حياتهم خطراً حاضراً على الإسلام «ولا تتخذوا منهم ولياً» توالونه كإخوة في الإيمان «ولا نصيراً» مهما يتخذ بعض الكافرين نصيراً وهم غير المحاربين ولا المعاندين.

ذلک! وبصورة طليقة «إن لشيطين الإنس حيلة ومكراً وخدايع ووسوسة بعضهم إلى بعض يريدون إن استطاعوا أن يروا أهل الحق عما أكرمهم اللّه به من النظر في دين اللّه الذي لم يجعل اللّه شياطين الإنس من أهله إرادة أن يستوي أعداء اللّه وأهل الحق في الشك والإنكار والتكذيب فيكونون سواء كما وصف اللّه «ودوا لو تكفرون كما

---

(١)). سورة النساء ٤: ٨٩

(٢)). سورة الممتحنة ٦٠: ١- ٢

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٣٩

كفروا فتكونون سواءً». «١»

وإن أخطر المخاطر من المنافق والكافر أن يود الكفر للمؤمن كما هو كافر، فهو بطبيعة الحال يحاول في ارتداد المؤمنين عن إيمانهم، فلا علاج لهم إلّا مهاجرتهم في سبيل اللّه أو قتلهم في سبيل اللّه.

وترى غير المهاجر في سبيل اللّه منهم، أو والمهاجر غير المقاتل منهم، هما كما المقاتل يقاتَل؟: لا-

إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا «٢»

فهاتان الطائفتان من هؤلآء المنافقين «إن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم فما جعل اللّه لكم عليهم سبيلًا» اللّهم إلا إذا فتنوا المؤمنين والفتنة أشد وأكبر من القتل، فالمحايد منهم تاركاً لكلتا الحربين حارةً وباردةً لا يقاتَل أو يُقتل، سواء أكان من «الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق» الهدنة، فلم يجيئوكم أنتم للمقاتلة، «أو جاءوكم» حال أنهم «حصرت صدورهم» عن القتالين «أن

يقاتلوكم» أنتم المؤمنين «أو يقاتلوا قومهم» الكافرين، فلا هم لكم ولا عليكم، وإن كانوا «لو شاء اللّٰه لسلطهم عليكم فلقاتلوكم» ولكنهم الآن محايدون، إذاً «فما جعل اللّٰه لكم عليهم سبيلًا» وإن كانت مهاجرة ليست في سبيل اللّٰه.

هنا يقتسم الحكم التنائي السالف، فالأوّل مسلوب وهو «فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم» والثاني ثابت وهو «ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً» وليست في هذه السبيل سبيل عليهم فإنما هي في إيجابية قتلهم وقتالهم.

سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ

---

(١)). نور الثقلين ١: ٥٢٧ في روضة الكافي بإسناده الى أبي عبد اللّٰه عليه السلام حديث طويل يقول فيه: ..

(٢)). سورة النساء ۴: ٩٠

أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُبِيناً «١»

هؤلاء «آخرين» يتلون بعض الشيء تلو الأوّلين، فهم «يريدون» محايدة الطرفين «أن يأمنوكم» أنتم المؤمنين «ويأمنوا قومهم» الكافرين، ولكنهم غير مستمرين في هذه الإرادة العوان، إذ «كل ما ردُّوا إلى الفتنة» حرباً حارة أو باردة عليكم «أركسوا فيها» إنقلاباً عما أرادوا إلى ما يريده الأعداء الأصلاء، إذاً «فإن لم يعتزلوكم» عن فتنتهم حرباً أو فتنة أخرى «ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم» عنكم- إذاً- «فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم».

والثقْف هو الملاحقة حذقاً في إدراك الشيء، فاعملوا كل حذق في إدراكهم أينما كانوا «وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً» سلطةً عليهم بإبادتهم التي تبين قوة الحق على الباطل، ذلك، فالقرآن لا يأمر بمحاربة غير المحارب أياً كانت عقيدته وعمله ما لم يعمل دعاية على المسلمين أو طعناً في الدين.

فالقرآن لا يدع الكفار يفتنون المؤمنين عن الدين وقضاياه، ولا يحملهم على الإيمان، فيتسامح معهم ما تسامحوا المؤمنين دون إكراه على الدين، فيسمح لهم أن يعيشوا في ظل نظام الإسلام لا له ولا عليه، والنظام الإسلامي- إذاً- مسؤول عن الحفاظ على حياتهم وحيوياتهم كما للمسلمين ما التزموا بشرائط الذمة.

فهنا تسامح صالح وليس تميُّعاً بإعطاء كامل الحرية لغير المسلمين أن يعتدوا عليهم وهم تحت ظلهم!.

فالمواد الأساسية للتسامح الإسلامي مع غير المسلمين هي أن «يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم عنكم» فلا لكم ولا عليكم، إذاً فهم أحرار أينما كانوا وأياًكان دور المسلمين وبلادهم.

وإلقاء السلم في هذا الوسط وسط يكفل طرفيه، فإلغاءه إلغاء للأمان وإلقاءه

---

(١)). سورة النساء ۴: ٩١

تضمن للأمان، وليكن إلقاءه بيِّناً كإلغاءه، ففي محتمل الأمرين يقف المسلمون على الحياد المحتاط، فإن برز الإلغاء «فاقتلوهم حيث ثقفتموهم» وإن برز الإلقاء فأمنّوهم كما أمّنوكم.

وليس يقبل الإسلام إلقاء السلم طليقاً أيّاً كان، وإنما هو السلم التي لا تتحيف حقاً من حقوق الداعية والدعوة والمدعوين في أرجاء البسيطة، أن تزال كل العقبات والعقوبات من طريق البلاغ للدعوة الإسلامية العالمية في ربوع المعمورة كلها.

وهكذا نرى صفحات من صفح الإسلام عن غير المسلمين بسماحته وتغاضيه في مجالاته الصالحة، بجنب ما نرى حسمه الجادِّ لكل جذور الفتنة والفساد فسحاً لمجال الإهتداء للذين يريدون الهدى.

ذلك هو الإسلام العوان بين طليق التشدد وطليق التميع والترقق.

فأما حين يأتي المتميِّعون المعتذرون عن القتال في سبيل اللّه فيجعلون الأمر كله سماحاً وسلماً وإغضاءً وعفواً حتى عن المهاجمين المفتتنين، كذلك ليس هو الإسلام، إنما هو أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة وأشد المعاقبين في موضع النكال والنقمة.

مهاجرة للرسول (ص) اخرجك ربك من بيتك بالحق

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ «١»

ترى وإلى مَ يرجع التشبيه في «كما أخرجك» ثم الذين كفروا هم الذين أحرجوه بالباطل، فكيف- إذاً- «أخرجك ربك من بيتك بالحق»؟: ف «إلا تنصروه فقد نصره اللّه إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار»!. «٢»

لأن الرسول صلى الله عليه و آله كان في أعلى قمم التقوى، وجلّا قلبه بذكر اللّه، زائداً إيمانه إذا

---

(١)). سورة الأنفال ٨: ٥

(٢)). سورة التوبة ٩: ٤٠

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٤٢

تليت عليه آيات اللّه أو تلي آيات اللّه، متوكلًا- على أية حال- على اللّه، مقيماً للصلاة ومنفقاً مما رزقه اللّه في اللّه، لذلك فعلى اللّه ألا يكلَه إلى نفسه وان يرعاه بخاصة رعايته، وإخراجه من بيته مهما كان بإخراج المشركين تصميماً لقتله، ولكن- من ناحية أخرى- إخراج من اللّه إلى الغار حيث أعماهم كيلا يروه، خلاصاً عن قتلهم إياه، وإلى المدينة حتى بعد عدَّته، ويُمضي مدته خلال عشرة كاملة فيرجع إلى بيته عزيزاً منتصراً، ثم إخراجاً منه للبدر الكبرى كانتصار أول له بعد الهجرة، فمهما كان ذلك الإخراج من المشركين بالباطل قضيةَ تصميمهم على قتله، فقد كان من اللّه بالحق، بل إنهم ما أخرجوه في مكرهم اللعين، بل صمموا على قتله فأخرجه اللّه تخليصاً له عن كيدهم أولًا، وتأسيساً لدولة الإسلام في مهجره أخيراً، ثم رجوعاً إلى العاصمة منتصراً.

فنسبة الإخراج إلى الذين كفروا نسبية فإنه- فقط- إحراج بتصميم قتله فأخرجه اللّه، ثم نسبته إلى اللّه واقعية حقيقة حيث نجاه به من بأسهم.

فهو- إذاً- إخراج من ربك بالحق، قضيةَ التربية القمة الخاصة بك، حيث يريد اللّه تكميل رسالتك وبلاغ دعوتك، ولأنها لم تكن لتتم في ذلك الجو الُمحرج المكي، فقد أخرجه اللّه إلى المدينة استتماماً لدعوته وإستكمالًا لبقيته، وكما أخرجك ربك من بيتك بالحق يوم بدر.

ذلك، رغم «أن فريقاً من المؤمنين لكارهون» ذلك الإخراج، بقصر النظر إلى ظاهر الإحراج وحاضرة الوبىء، دون نظرة إلى صالح الحاضر فراراً عن بأسهم، وصالح المستقبل استرجاعاً للعاصمة بكل قوة.

فحين يرى الداعية أن جو الدعوة الحاضر صعب صَلِب صَلِت، وقد يُقضى على دعوته فيه أو يُصد عنها، فصالح الدعوة أن يتنقل بحياته وحياة الدعوة إلى جو آخر يستكمل فيه عِدته وعُدته لردح صالح من الزمن، ثم إذا رأى كفاحاً صارماً في بنيته بأنصاره يرجع إلى عاصمة الدعوة قوياً صارماً منتصراً وكما فعله الرسول صلى الله عليه و آله بما

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٤٣

أخرجه اللَّه من بيته بالحق.

ذلك إخراج بالحق هجرة، ثم إخراجات أخرى كما أخرجك ربُّك من المدينة لحرب بدر «وان كثيراً من المؤمنين لكارهون» كراهة لمعركة دموية خطيرة، حيث يرون عدم المكافحة في عِدة ولا عُدة، فإنهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا والمشركون ألف أو يزيدون، وكما كارهين اختصاص الأنفال باللَّه والرسول، فبين الكراهتين تشابه موردهما في الحق لصالحهم أنفسهم.

ف «كما أخرجك ..» في التأويل الأول، هي كما أخرجناه، وفي الثاني قد يعني: أن اللَّه خصك بعد نفسه تعالى بالأنفال، كما خصّك أن «أخرجك ربك من بيتك بالحق ..».

فلولا أن اللَّه أخرجه يوم بدر لم يحصل ذلك الفتح المبين، جبراً لكسر إخراجه من العاصمة بعد ثمانية عشر شهراً من مهجرة.

يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ «١»

هؤلاء الكثيرة الكارهة لخروجك عن العاصمة عند الهجرة، وخروجك عن المدينة إلى بدر «يجادلونك في» ذلك «الحق بعد ما تبين» لهم بما أخرجك ربك وحياً فارضاً «كأنما يساقُون إلى الموت» حيث يرونهم قلة وأعداءهم كثرة كثيرة «وهم ينظرون» إلى مضاجعهم في هذه الحرب الحرجة الخطيرة المرِجَة. «٢»

---

(١)). سورة الأنفال ٨: ٦

(٢)). روي الحافظ أبوبكر بن مردويه في تفسيره باسناده عن ابن أيوب الأنصاري قال: قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ونحن بالمدينة: إني أخبرت عن عير أبي سفيان بأنها مقبلة فهل لكم أن نخرج قِبَل هذه العير لعل اللَّه أن يغنمناها؟ فقلنا: نعم، فخرج وخرجنا فلما سرنا يوماً أو يومين قال لنا: ما ترون في قتال القوم؟ إنهم قد أخبروا بخروجكم؟ فقلنا: لا واللَّه ما لنا طاقة بقتال العدو، ولكنا أردنا العير، ثم قال ما ترون في قتال القوم؟ فقلنا مثل ذلك، فقال المقداد بن عمرو: إذن لا نقول لك يا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله كما قال قوم موسى لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ..» فتمنينا معشر الأنصار أن لو قلنا كما قال المقداد بن عمر أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم، قال: فأنزل اللَّه على رسوله صلى الله عليه و آله «كما أخرجك ..».

وفي البحار ١٩: ٢١٥ قال أصحاب السير وذكر أبو حمزة وعلي بن إبراهيم في تفسير هما دخل حديث بعضهم في بعض: أقبل أبو سسفيان بعير قريش من الشام وفيها أموالهم وهي اللطيمة فيها أربعون راكباً من قريش فندب النبي صلى الله عليه و آله أصحابه للخروج إليها ليأخذوها وقال: لعل اللَّه أن يتملكموها فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم ولم يظنوا أن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يلقى كيداً ولا حرباً، فخرجوا لا يريدون إلا أبا سفيان والركب لا يرونها إلا غنيمة لهم فلما سمع أبو سفيان بمسير النبي صلى الله عليه و آله استأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى مكة وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم ويخبرهم أن محمداً قد تعرض لعيرهم في أصحابه فخرج ضمضم سريعاً إلى مكة وكانت عاتكة بنت عبد المطلب رأت فيما يرى النائم قبل مقدم ضمضم بن عمرو بثلاث ليال أن رجلًا أقبل على بعير له ينادي يا آل غالب اغدوا إلى مصارعكم ثم وافى بجملة على أبي قبيس فأخذ حجراً فدهدهه من الجبل فما

ترك داراً من دور قريش إلا أصابته منه فلذة فانتبهت فزعة من ذلك فأخبرت العباس بذلك فأخبر العباس عتبة بن ربيعة فقال عتبة هذه مصيبة في قريش وفشت الرؤيا فيهم وبلغ ذلك أبا جهل فقال: هذه بنية ثانية في بني عبد المطلب واللات والعزى لننظرن ثلاثة أيام فإن كان ما رأت حقاً وإلا لنكتبن كتاباً بيننا انه ما من أهل بيت من العرب أكذب رجالًا ولا نساءً من بني هاشم، فلما كان اليوم الثالث أتاهم ضمضم يناديهم بأعلى الصوت يا آل غالب يا آل غالب اللطيمة اللطيمة العير العير ادركوا وما أراكم تدركون، ان محمداً والصباة من أهل يثرب قد خرجوا يتعرضون لعيركم فتهيأوا للخروج وما بقي أحد من عظماء قريش إلا أخرج مالًا لتجهيز الجيش وقالوا: من لم يخرج نهدم داره، وخرج معهم العباس بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب واخرجوا معهم القيان يضربون الدفوف وخرج رسول الله صلى الله عليه و آله في ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا فلما كان بقرب بدر أخذ عيناً للقوم فأخبره بهم-

وفي حديث أبي حمزة الثمالي بعث رسول الله صلى الله عليه و آله عيناً له على العير اسمه عدي فلما قدم على رسول الله صلى الله عليه و آله فأخبره أين فارق العير نزل جبرئيل على رسول الله صلى الله عليه و آله فأخبره بنفير المشركين من مكة فاستشار أصحابه في طلب العير وحرب النفير فقام أبو بكر فقال: يا رسول الله إنها قريش وخيلاءها ما آمنت منذ كفرت ولا ذلت منذ عزت ولم تخرج على أهبة الحرب ..

وأنا عالم بهذا الطريق فارق عديٌّ العير بكذا وكذا وساروا وسرنا فنحن والقوم على بدر يوم كذا وكذا كأنَّا فرسا رهان، فقال: صلى الله عليه و آله: أجلس فجلس ثم قام المقداد فقال: يا رسول الله إنها قريش وخيلاءها وقد آمنا بك وصدقتنا وشهدنا أن ما جئت به حق والله لو أمرتنا أن نخوض جمر الغضا وشوك الهراس لخضناه، والله لا نقول لك ما قالت بنو إسرائيل لموسى «إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون» ولكنا نقول: إمض لأمر ربك فإنا معك مقاتلون فجزاءه رسول الله صلى الله عليه و آله على قوله ثم قال: أشيروا عليّ أيها الناس- وإنما يريد الأنصار- لأن أكثر الناس منهم ولأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: إنا براء من ذمتك حتى نصل إلى دارنا، ثم أنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع آباءنا ونساءنا فكان يتخوف أن لا يكون الأنصارترى عليها نصرته إلا على من دهمه بامدينة من عدو وأن ليس عليهم أن ينصروه بخارج المدينة، فقام سعد بن معاذ فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله كأنك أردتنا؟ فقال: نعم، فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله إنا قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به حق من عند الله فمرنا بما شئت وخذ من أموالنا ما شئت وأترك منها ما شئت والله لو أمرتنا أن نخوض هذا البحر لخضناه معك ولعل الله أن يريك ما تقربه عينك، فسر بنا على بركة الله ففرح بذلك رسول الله صلى الله عليه و آله وقال: سيروا على بركة الله فإن الله وعدني إحدى الطائفتين ولن يخلف الله وعده والله لكأني أنظر إلى مصرع أبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وفلان وفلان وأمر رسول الله صلى الله عليه و آله بالرحيل وخرج إلى بدر وهو بئر-

وأقبلت قريش وبعثوا عبيدها ليستقوا من الماء فأخذهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله وقالوا لهم: من أنتم؟ قالوا: نحن عبيد قريش، قالوا: فأين العير؟ قالوا: لا علم لنا بالعير، فأقبلوا يضربونهم وكان رسول الله صلى الله عليه و آله يصلي فانفتل من صلاته وقال: إن صدقوكم ضربتموهم وان كذبوكم تركتموهم فأتوه بهم فقال لهم: من أنتم؟ قالوا يا محمد نحن عبيد قريش، قال: كم القوم؟ قالوا: لا علم لنا بعددكم قال: كم ينحرون كل يوم من جزور؟ قالوا: تسعة إلى عشرة، فقال رسول الله صلى الله عليه و آله: القوم تسعمائة إلى ألف رجل فأمر صلى الله عليه و آله بهم فحسبوا وبلغ ذلك قريشاً ففزعوا وندموا على مسيرهم ولقى عتبة بن ربيعة أبا البختري بن هشام فقال: أماترى هذا البغي والله ما أبصر موضع قدمي خرجنا لنمنع عيرنا وقد أفلتت فجئنا بغياً وعدواناً والله ما أفلح قوم بغوا قط

ولوددت ما في العير من أموال بني مناف ذهبت ولم نسر هذا المسير فقال له أبو البختري: إنك سيد من سادات قريش فسر في الناس وتحمل العير التي أصابها محمد صلى الله عليه و آله وأصحابه بنخلة ودم ابن الحضرمي فإنه حليفك، فقال له: علي ذلك وما على أحد منا خلاف إلا ابن الحنظلة يعني أبا جهل، فصر إليه وأعلمه حمَّلت العير ودم ابن الحضرمي وهو حليفي وعلي عقله، قال: فقصدت خباه وأبلغته فقال: ان عتبة يتعصب لمحمد فإنه من بني عبد مناف وابنه معه ويريد أن يخذل بين الناس، لا واللّات والعزى حتى نقحم عليهم يثرب، أو نأخذهم أسارى فندخلهم مكة وتتسامع العرب بذلك وكان أبو حذيفة بن عتبة مع رسول الله صلى الله عليه و آله وكان أبو سفيان لما جاز بالعير بعث إلى قريش قد نجى اللّه عيركم فارجعوا ودعوا محمداً والعرب وادفعوه بالراح ما اندفع وان لم ترجعوا فردّوا القيان، فلحقهم الرسول صلى الله عليه و آله في الجحفة فأراد عتبة أن يرجع فأبى أبو جهل وبنو مخزوم وردوا القيان من الجحفة، قال: وفزع أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه و آله لما بلغهم كثرة قريش واستغاثوا وتضرعوا فأنزل اللّه: «إذ تستغيثون ربكم ..»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٤٥

وهنا نعرف أن التكيكات الحربية إلى سائر التصرفات الرسالية، كانت كلها بوحي من اللّه وكما قال اللّه «إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك اللّه». «١» فحاكميته الرسالية في كل حقولها ليست إلّا بما أراه اللّه دون رأيه أم آراء المسلمين.

ومهما إستشار الرسول صلى الله عليه و آله في ظاهر الحال أصحابه في مواجهة النفير أو العير وأكثرهم كانوا مع العير خائفين عن النفير كأبي بكر واضرابه، ولكن قلة قليلة كمقداد

---

(١)). سورة النساء ٤: ١٠٥

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٤٦

واضرابه تقول «إمض لأمر ربك فإنا معك مقاتلون» ولكنه كان ماضياً بأمر اللّه على أية حال حيث «يريد اللّه أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين. ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون». ذلك والمجادلة بين محظورة ومحبورة «١» والمحظورة هي المجادلة في الحق نكراناً له، والمحبورة هي المجادلة تصديقاً إياه.

والمجادلة في الحق بعد التبين أشد حظراً منها بغير علم كما «يجادلونك في الحق بعد ما تبين» ومن ثم بغير علم: «ها أنتم حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم». «٢» وأنحس منهما المجادلة لد حض الحق: «ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق». «٣»

وكما للمجادلة المحظورة دركات، كذلك للمحبورة درجات أحسنها أحسنها:

«وجادلهم بالتي هي أحسن». «٤» وطالما الجدال نوعان، لكنما المراء محرم على أية حال.

«كأنما يساقون إلى الموت»! «فإن الموت هادم لذاتكم، ومكدِّر شهواتكم، ومُباعد طيَّاتكم، زائر غير محبوب، وقِرنٌ غير مغلوب، وواترٌ غير مطلوب، قد أعلقتكم حبائله، وتكفتكم غوائله، وأقصدتكم مَعابِله، وعظُمت فيكم سطوته، وتتابعت عليكم عدْوَته، وقلت عنكم نبْوَته، فيوشك أن تغشاكم دواجي ظُلله، واحتدام علله، وحنادس غمراته، وغواشي سَكَراته، وأليم إزهاقه، ودُجُوُّ إطباقه، وجشوبَة مذاقه، فكان قد أتاكم بغتةً فأسكت نجيَّكُم، وفرق نديَّكم، وعفى آثاركم، وعطل دياركم،

---

(١) يروى عن النبي صلى الله عليه و آله أنه قال: «نحن المجادلون في دين اللّٰه» وقد نهي عن الجدل والإختلاف، وهو الجدل في الحق لإبطاله أو التشكيك فيه دون عناية لإيضاحة وتحقيقة كما في مفتاح كنوز السنة تحت عنوان «النهي عن الجدل والإختلاف» عن بخ- ك ٩٦ ب ٢ و ٣ و ٢٦، مس- ك ٤٣ ح ١٣٢ و ١٣٤، ك ٤٨ ح ٥، بد- ك ٣٩ ب ٤، قا ١٨، مج- المقدمة ب ٧ و ١٠، مي- المقدمة ب ٢٨ و ٣٤، حم- أول ص ٤٥٧، ثان ص ٣١٧.

وتحت عنوان «ما يهدم الإسلام من الجدل» عن مى- المقدمة ب ٢٢، وتحت عنوان «ما ضل قوم بعد هدي إلا أوتوا الجَدَل» عن مس- ك ٤٣ ح ١٣٠ و ١٣١ حم- خامس ص ٢٥٢ و ٢٥٦

(٢) سورة آل عمران ٣: ٦٦

(٣). سورة الكهف ١٨: ٥٦

(٤). سورة النّحل ١٦: ١٢٥

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٤٧

وبعث وراثكم يقتسمون تراثكم، بين حميم خاص لم ينفع، وقريب محزون لم يمنع، وآخَرَ شامت لم يجزع ..». «١»

وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ «٢»

«الطائفتين» هنا هما العير والنفير «٣»

عير كبير من الشام إلى مكة مثقلة بأموال ضخمة، ونفير من مكة مثقلة بعتاد للحرب ضخمة يريدون حرب الرسول صلى الله عليه و آله وقد وعد اللّٰه المؤمنين إحدى الطائفتين «أنها تكون لكم» تغلُّباً على العير أم على نفير، والنفير هي بطبيعة الحال ذات الشوكة الحربية القوية عِدة وعُدة، والمسلمون ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا في قلة من عِدة وعُدة، فأنتم «تودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم» خوفاً عن الشائِكة، واغتناماً للغنيمة دونما حرب، ولكن «يريد اللّٰه أن يُحِق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين» بهزيمتهم العظيمة رغم كثرتهم الكثيرة في عِدة وعُدة.

لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ «٤»

وحيث لا يضمن التغلب على العير إحقاق الحق وإبطال الباطل إلا تغلباً إقتصادياً، ولكن التغلب على النفير يضمن كل تغلب للحق على الباطل، لذلك أراد اللّٰه أن تكون لهم الطائفة ذات الشوكة، تحقيقاً للحق وقطعاً لدابر الكفر، تضعيفاً لساعده

---

(١)). (الخطبة ٢٢١)

(٢)). سورة الأنفال ٨: ٧

(٣)). وعن أبي الدرداء وأبي أمامة وواثلة وأنس قالوا: خرج علينا رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله ونحن نتمارى في شيءٍ من أمر الدين فغضب غضباً شديداً لم يغضب مثله ثم قال: إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ذروا المراء فإن المؤمن لا يمارى، ذروا المراء فإن المماري قد تمت خسارته، ذروا المراء فإن المماري لا أشفع له يوم القيامة، ذروا المراء فأنا زعيم بثلاثة أبيات في الجنة: في رياضها وأوسطها وأعلاها لمن ترك المراء وهو صادق، ذروا المراء فإن أول ما نهاني عنه ربي بعد عبادة الأوثان المراء» (العوالم ٢- ٣: ٤٣٢)

(٤)). سورة الأنفال ٨: ٨

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٤٨

ومساعده لردح بعيد من الزمن.

وهكذا حاكَ في نفوس كثير من المومنين كراهة القتال حتى ليقول اللّه عنهم:

«يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون» رغم تبين الحق وأن اللّه وعدهم إحدى الطائفتين، مقدراً لهم إحداهما كما يريد لا كما يريدون.

فقد قدر اللّه لهم إحدى الطائفتين أولًا على سبيل الإجمال كائنة ما كانت عيراً أو نفيراً، القوية ذات الشوكة والشائكة، أو الأخرى غير ذات الشوكة، وهم يريدون حاضر العير دون تعب، واللّه يريد حاذر النفير بتعب وليحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين، بضمان رباني «انهاتكون لكم» مهما كان في أمر مواجهتهم من إمر ف «إن مع العسر يسرا» فأين ما أراده اللّه لهم مما أرادوه، فلقد كانت تمضي- لو كانت لهم غير ذات الشوكة- قصة غنيمة فحسب، فأما قصة بدر فقد مضت في التاريخ كله قصة عقيدة صامدة للمؤمنين، وعقدة كافرة عاندة للكافرين، قصة انتصار القلوب حين تتصل باللّه إنفصالًا عما سوى اللّه وتخلصاً من ضعفها الذاتي، فقد خاضت المعركة بنصر اللّه وكفة الكفر راجحة في الظاهر، فقلبت كفة الإيمان بيقينها ميزان الظاهر فغلبت عليها ذلك الغَلَب الباهر.

ولقد حقق اللّه وعده في أنها تكون لكم: «ولقد نصركم اللّه ببدر وأنتم أذلة فاتقوا اللّه لعلكم تشكرون .. ليقطع طرفاً من الذين كفروا ويكبتهم فينقلبوا خائبين». «١»

ذلك، نسمع الرسول صلى الله عليه و آله في غائلة بدر يقول: «اللَّهم أنجز لي ما وعدتني، اللَّهم إن تهلك هذه العصابة لا تُعبد في الأرض» فما زال يهتف ربه ماداً يديه حتى سقط رداءه من منكبه فأنزل اللّه «إذ تستغيثون ..» «٢» ويقول: «اللَّهم إنهم حفاة فاحملهم، اللَّهم انهم

---

(١)). سورة آل عمران ٣: ١٢٧

(٢)). البحار ١٩: ٢٢١ قال ابن عباس: لما كان يوم بدر واصطف القوم للقتال قال أبو جهل: اللَّهمأولانا بالنصر فانصره، واستغاث المسلمون فنزلت الملائكة ونزل قوله: «إذ تستغيثون ..» وقيل: إن النبي صلى الله عليه و آله لما نظر إلى كثرة عدد المشركين وقلة عدد المسلمين استقبل القبلة وقال: اللَّهم.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٤٩

عراة فاكسهم، اللَّهم إنهم جياع فاشبعهم». «١»

ذلك، وقد دعاهم رسول اللّه- مبتدراً بينهم- إلى بدر لمواجهة النفير دون العير فقال: «هلموا إلى بدر فإن هناك الملتقى والمحشر، وهناك البلاء الأكبر، لأضع قدمي على مواضع مصارعهم، ثم ستجدونها لا تزيد ولا تنقص ولا تتغير ولا تتقدم ولا تتأخر لحظة ولا قليلًا ولا كثيراً فلم يخف ذلك على أحد منهم ولم يجبه إلا علي بن أبي طالب عليه السلام وحده وقال: نعم- بسم اللّه فقال الباقون: نحن نحتاج إلى مركوب وآلات ونفقات ولا يمكننا الخروج إلى هناك وهو مسيرة أيام ... فخطا القوم خطوة ثم الثانية فإذا هم عند بئر بدر فعجبوا فجاء رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقال: اجعلوا البئر العلامة واذرعوا من عندها كذا ذراعاً فذرعوا فلما انتهوا إلى آخرها قال: هذا مصرع أبي جهل يجرحه فلان الأنصاري ويجهز عليه عبد اللّه بن مسعود ضعف أصحابي، ثم قال:

اذرعوا من البئر من جانب آخر ثم جانب آخر كذا وكذا ذراعاً وذراعاً- وذكر أعداد الأذرع مختلفة- فلما انتهى كل عدد إلى آخره قال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله هذا مصرع عَتَبة، وذلك مصرع الوليد، وهذا مصرع شيبة، وسيُقتل فلان وفلان، إلى أن سمى تمام سبعين منهم بأسمائهم، وسيُؤسر فلان وفلان، إلى أن ذكر سبعين منهم بأسمائهم وأسماء آباءهم وصفاتهم، ونسب المنسوبين إلى الآباء منهم، ونسب الموالى منهم إلى مواليهم، ثم قال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله أَوَقفتم على ما أخبرتكم به، قالوا: بلى، قال: «إن ذلك لحق كائن بعد ثمانية وعشرين يوماً من اليوم التاسع والعشرين وعداً من اللّٰه مفعولًا وقضاءً حتماً لازماً». «٢»

---

(١)). المغازي للواقدي ١: ٢٦ والسنن الكبرى للبيهقي عن عبد اللّٰه بن عمران أن رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله دعا بهذا الدعاء رافعاً يديه إلى السماء حين خرج بعدة البدر من المؤنثة

(٢)). بحار الأنوار ١٩: ٢٦٥ م ج بالإسناد إلى أبي محمد العسكري عليه السلام قال: أرسل أبو جهل بعد الهجرة رسالة إلى النبي صلى الله عليه و آله وهي أن قال: «يا محمد إن الخيوط التي ضيقت عليك مكة ورمت بك إلى يثرب وانها لا تزال بك حتى تنفرك، وتحثك على ما يفسدك ويتلفك إلى أن تفسدها على أهلها وتصليهم حر نار وتعدَّيت طورك، وما أرى ذلك إلا وسيؤل إلى أن تثور عليك قريش ثورة رجل واحد لقصد اثارك ودفع ضررك وبلائك فتلقاهم بسفهائك المغترين بك ويساعدك على ذلك من هو كافر بك مبغض لك فيلجئه إلى مساعدتك ومظافرتك خوفه لأن يهلك بهلاكك ويعطب عياله بعطبك ويفتقر هو ومن يليه بفقرك وبفقر شيعتك إذ يعتقدون أن أعداءَك إذا قهروك ودخلوا ديارهم عنوة لم يفرقوا بين من والاك وعاداك واصطلموهم باصطلامهم لك وأتوا على عيالاتهم وأموالهم بالسبي والنهب كما يأتون على أموالك وعيالك وقد أعذر من أنذر وبالغ من أوضح- فأديت هذه الرسالة إلى رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله وهو بظاهر المدينة بحضرة كافة أصحابه وعامة الكفار من يهود بني إسرائيل وهكذا أمر رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله ليجبن المؤمنين ويغزي بالوثوب عليه سائر من هناك من الكافرين- فقال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله للرسول: قد أطريت مقالتك واستكملت رسالتك؟ قال: بلى. قال: فاسمع الجواب: إن أبا جهل بالمكاره والعطب يتهددني ورب العالمين بالنصر والظفر يعدني وخبر اللّٰه أصدق والقبول من اللّٰه أحق، لن يضر محمداً من خذله أو يغتصب عليه بعد أن ينصره اللّٰه ويتفضل بجوده وكرمه عليه، قل له: يا أبا جهل إنك راسلتني بما ألقاه في خلدك الشيطان، وأنا أجيبك بما ألقاه في خاطري الرحمن، إن الحرب بيننا وبينك كائنة إلى تسعة وعشرين وان اللّٰه سيقتلك فيها بأضعف أصحابي وستلقى أنت وعتبة وشيبة والوليد وفلان وفلان وذكر عدداً من قريش- في قليب بدر مقتلين، أقتل منكم سبعين وآسر منكم سبعين، أحملهم على الفداء الثقيل، ثم نادى جماعة من بحضرته من المؤمنين واليهود وسائر الأخلاط ألا تحبون أن أريكم مصرع كل واحد من هؤلاء؟ قالوا بلى، قال: هلموا إلى بدر فان هناك الملتقى والمحشر ... فقال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله لسائر اليهود: فأنتم ماذا تقولون؟ قالوا: نحن نريد أن نستقر في بيوتنا ولا حاجة لنا في مشاهدة ما أنت في إدعائه محيل، فقال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله: لا نصب عليكم بالمصير إلى هناك، أخطوا خطوة واحدة فان اللّٰه يطوي الأرض لكم ويوصلكم في الخطوة الثانية إلى هناك، قال المؤمنون: صدق رسول اللّٰه فنتشرف بهذه الآية وقال الكافرون والمنافقون: سوف نمتحن هذا الكذاب ليقطع عذر محمد ويصير دعواه حجة واضحة عليه وفاضحة له في كذبه، قال: فخطى القوم خطوة ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٥٠

فهؤلاء القتلى السبعون والأسرى السبعون من المشركين الذين كانوا ألفاً أو يزيدون، وأما الشهداء من المؤمنين فأربعة عشر بين ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا!. «١»

وهذه هي الحرب الأولى بعد الهجرة بين الرسول صلى الله عليه و آله والمشركين، وقد كسرت

---

(١)). في مجمع البيان وكانت المسلمون ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، سبعة وسبعون رجلًا من المهاجرين ومأتان وستة وثلاثون رجلًا من الأنصار وكان صاحب لواء رسول اللّه صلى الله عليه و آله والمهاجرين علي بن أبي طالب عليه السلام وصاحب راية الأنصار سعد بن عبادة وكانت الإبل في جيش رسول اللّه صلى الله عليه و آله سبعين بعيراً والخيل فرسين فرس للمقداد بن الأسود وفرس لمرثد بن أبي مرثد وكان معهم من السلاح ستة أدرع وثمانية سيوف وجمع من استشهد يومئذ أربعة عشر ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار وكان المشركون ألفاً وخيلهم مائة فرس وكان حرب بدر أوّل مشهد شهده رسول اللّه صلى الله عليه و آله

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٥١

سواعدهم وبترت عوائدهم، وذلك بعد مكاتبة بين أبي جهل والرسول صلى الله عليه و آله مما يدل على مدى تخوف آباء الجهالات بعد هجرة النبي صلى الله عليه و آله والمؤمنين، ومما أجابه الرسول صلى الله عليه و آله: «إن أبا جهل بالمكاره والعطب يتهددني ورب العالمين بالنصر والظفر يعدني ..».

ذلك، وإلى هامة المسارح لبدر حسب ما يقصه القرآن:

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ ا ٩ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَعَزِيزٌ الحَكِيمٌ «١»

إنها المعركة التي دارت بأمر اللّه، شاخصة بحركتها وخطراتها من خلال هذه الآيات المصورة المتحركة المحيية للمشهد الذي كان كأنه هو الآن، ولندرسها في كل زمان كأنها ماثلة بين أعيننا آناً بعد آن.

وعلّ الإستغاثة هنا من كلا الغوث والغيث، فأغاثهم بألف من الملائكة، وأغاثهم من السماء ماءً، فقد استغاثوا ربهم في حالة الخطر الناجم الهاجم، بهالة الإيمان القائم بما وعد اللّه، وكان الإمداد بألف من الملائكة مردفين، حيث يخيل إلى المشركين أن قد واجههم أكثر منهم عديداً ومديداً فخافوا على شوكتهم وشائكتهم ضد المؤمنين.

وهنا «مردفين» قد تعني- فيما عنت- إرداف الألف غيرهم من بقية الثلاثة آلاف أو الخمسة آلاف المردَفين في آل عمران: «ولقد نصركم اللّه ببدر وأنتم أذلة فاتقوا اللّه لعلكم تشكرون. إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يُمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزَلين. بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين. وما جعله اللّه إلّا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند اللّه العزيز الحكيم». «٢»

---

(١)). سورة الأنفال ٨: ٩- ١٠

(٢)). سورة آل عمران ٣: ١٢٣- ١٢٤- ١٢٥- ١٢٦

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٥٢

ذلك، وقد يلمح «يرونهم مثليهم رأى العين» «١» إرداف ألف آخر فقط، فالجميع ألفان مع ثلاثمأة وثلاثة عشر رجلًا، والمجموع يُرى مثلي ألف المشركين، «٢» ولم تدل «ألن يكفيكم» أنه أنزل ثلاثة ألآف، ولا «يمددكم» أنه أنزل خمسة الآف، لمكان الشرط الفاقد في ثانيهما إذ لم يأتوهم من فورهم هذا، وعدم البتِّ في الأول، وهنا البتِّ في «ألف من الملائكة مردفين» حيث «يرونهم مثليهم رأى العين».

ذلك، إضافة إلى أن قضية طليق الإرداف مماثل في العديد، وإذ لم يكن عديد المؤمنين ألفاً فليكن المردَفون هم ألفاً من الملائكة آخرون.

ولو أراد اللّه نصرهم دون هؤلاء الألف المردفين لفعل، ولكن «بشرى» لهم بحق النصر بظاهرٍ من أسبابه «ولتطمئن به قلوبكم وما النصر» على أية حال- بظاهر من معداته ودونه «إلا من عند اللّه إن اللّه عزيز حكيم». «٣»

وتراهم حاربوا المشركين مع المؤمنين؟ «وما جعله اللّه إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم» تنفيها، ثم «إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين امنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب» يثبت ذلك النفي، وكما الوارد في الآثار أن علياً عليه السلام قتل النصف أو الثلث من السبعين، وقتل الباقين سائر المؤمنين، ولم يذكر ولا مرة يتيمة أن أحداً من القتلى هو قتيل الملائكة المردَفين.

«وما النصر إلّا من عند اللّه إن اللّه عزيز حكيم» وليس- فقط- بعِدَّة وعُدة الحرب والتكتيكات الحربية، فقد أراد اللّه يوم بدر أن تقيس الكتلة المؤمنة قوتها الحقيقه المستمدة من قوة اللّه إلى قوة أعدائها، فتعلم أنما النصر إنما هو قدر إتصال القلوب

---

(١)). سورة آل عمران ٣: ١٣

(٢)). في البحار ١٩: ٢٢٣ في حديث القمي وأبي حمزة في مردفين أي متبعين ألفاً آخر بعضهمفي أثر بعض

(٣)). راجع آيات البدر في آل عمران تجد الملائمة بين «ألف من الملائكة مردفين» و «ثلاثة ألاف من الملائكة منزلين» و «يرونهم مثليهم رأى العين» فلا نعيد هنا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٥٣

بقوة اللّه التي لا تقف لها قوّات العباد، تجربة واقعية تكون لهم نبراساً ومتراساً في كافة الحروب الإيمانية، تزوداً بهذه التجربة في الحرب الأولى الإسلامية لمستقبلاتها كلِّها، ف «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن اللّه واللّه مع الصابرين». «١»

وأول المستغيثين وأولادهم كان هو الرسول صلى الله عليه و آله حيث رفع يديه وسأل ما سأل واستجيب فيما سأل وكان يقول: «واللّه لكأني أنظر إلى مصارع القوم». «٢»

ذلك «فاستجاب لكم أني ممدكم ..» واستجاب لكم ونصركم بما يلي:

إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ «٣»

هنا «يغشيكم- النعاس- أمنة منه» تلقي ظلّاً لطيفاً حفيفاً شفيعاً على المشهد، مما يُطَمْئنُهم عن كل بأس وبؤس.

فلقد نعسوا في المِصاف، ثم غشاهم اللّه النعاسَ، وهي كامل النوم حيث يتم ويطم، فقد تنام العين ولا ينام الأذن والقلب، وإذا نام الأذن مع العين فقد نام القلب وهنا تغيشة النعاس، إذاً فنوم العين نعاس ونوم الأذن إمارة لتغيشة النعاس الباطنَ إلى الظاهر، وهي من الحديث الأصغر، فما لم يغشي النعاس كل الحواس لم يكن حدثاً.

وفي المروي عن الإمام علي عليه السلام قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلّا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يصلي تحت الشجرة حتى أصبح». «۴»

وتلك التغيشة كانت ربانية «أمنة منه» تأمنكم من تعب النضال وخوف القتال، عُدةً لكم لإصباح الحرب، وهذه أمنة من اللَّه حيث غشاكم الناسَ، فضمير الغائب إذاً ذو مرجعين اثنين، وتغيشة النعاس في جبهات الحرب، ولا سيما هذه الخطرة الضاربة، إنها من نصر اللَّه، حيث المضطرب لا يأتيه النوم بطبيعة الحال، فهذه التغيشة

---

(١) سورة البقرة ٢: ۴٩

(٢) الدر المنثور ٣: ١۶٨- أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في حديث له طويل عن قصة بدر. وفيه «ثم قال صلى الله عليه و آله سيروا وأبشروا فان اللَّه تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين.

(٣) سورة الأنفال ٨: ١١

(۴) الدر المنثور ٣: ١٧١- أخرج أبو يعلي والبيهقي في الدلائل عن علي رضى الله عنه

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ۴۵۴

لم تكن إلا من اللَّه «أمنةً منه»: من اللَّه، من العدو حتى غشاهم النعاس.

ذلك والخطر ناجم والعطش هاجم، وتغلُّب المشركين على الحوض قائم، وتسويل الشيطان- إذاً- هائم، فالتوير مداوم، فكيف- إذاً- النعاس فضلًا عن تغيشته، اللَّهم إلّا بفضله ورحمته!.

«وينزل عليكم من السماء ماءً ليطهركم به» ولولا حدثية تغشية الناس لم يكن في «ليطهركم» هنا دور، إذ لم يسبق ذلك التطهيرَ نجاسةٌ خبثية، أم حدثية أخرى لكي «يطهركم به» ثم «يذهب عنكم رجز الشيطان» منه حدث ثان، وطبعاً لبعض النائمين، وليس إلا الجنابة، حيث النوم لا يحمل إلا نفسه حدثاً أصغر ككل، أم ما قد تحصل فيه من جنابة وهي حدث أكبر.

والقول إن حدثية النوم ليست إلا لخروج الريح ضمنه حيث لا يملك النائم نفسه، مردود بعدم قاطعية ذلك الخروج، فهذا الإخراج لا يناسب حدثية تغشية النعاس، وأما حدثية الجنابة- وهي أحيانية في النوم- فهي مذكورة بنفسها «رجز الشيطان» دون الريح غير المذكورة إلا تغشية الناس التي تضمنها أحياناً، ثم وإرسال «ليطهركم به» بعد «يغشيكم الناس»- رَسَل المسلمات، دليل باهر أن حدثية النوم في السنة كانت حينذاك من المسلمات، فاختلاف الفقهاء في حدثية النوم بشرط الإضطجاع وما أشبه أم دون شرط، معروض على طليق «يغشيكم» الشاملة لحالتي النوم.

ذلك، ومن رجز الشيطان ما وسوس في صدورهم في تلك الحالة الحَرِجة المرِجة من عطش بإعواز ماء الشرب، وأنهم كانوا مرمَّلين تغوص فيه الأرجل ويرتفع منه الغبار، فأذهب اللَّه رجز الجناية الجسمية ورجز الخوفة النفسية بذلك الماء.

ذلك، ثم «وليربط على قلوبكم» طَمأنَةً بتلك الطهارة، وبرودة الهواء، وثلوجة الأكباد الحرَّى بشرب الماء، وإزالة الغبار، وتمكين الأرض ل «يثبت به الأقدام» في الرمال المبتلة وفي النضال. «١»

---

(١) في نور الثقلين ٢: ١٢٧ في تفسير علي بن إبراهيم حيث يستمر في قصة بدر قوله: وبلغ أصحاب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله كثرة القريش ففزعوا فزعاً شديداً وبكوا واستغاثوا فأنزل اللَّه عزَّ وجلّ على رسوله «إذ تستغيثون ..» فلما أمسى قابل رسول اللَّه

صلى الله عليه و آله وجنه الليل ألقى الله على أصحابه النعاس حتى ناموا وأنزل الله تبارك وتعالى عليهم السماء وكان نزول رسول الله صلى الله عليه و آله في موضع لا يثبت فيه القدم فأُنزل عليهم السماء ولبد الأرض حتى تثبت أقدامهم وهو قول الله تعالى: «إذ يغشيكم الناس ..» وذلك أن بعض أصحاب النبي احتلم، وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام» وكان المطر على قريش مثل العزالى وكان على أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله رذاذاً بقدر ما لبد الأرض وخافت قريش خوفاً شديداً فأقبلوا يتحارسون يخافون البيات .. وفي الدر المنثور ٣: ١٧١- أخرج ابن المنذر وأبو الشيخ من طريق ابن جريح عن ابن عباس أن المشركين غلبوا المسلمين في أوّل أمرهم على الماء فظمىء المسلمون وصلوا مجنبين محدثين فكانت بينهم رمال فألقى الشيطان في قلوبهم الحزن وقال: أتزعمون أن فيكم نبياً وإنكم أولياء الله وتصلون مجنبين محدثين فأنزل الله من السماء ماء فسال عليهم الوادي ماءً فشرب المسلمون وتطهروا وثبتت أقدامهم وذهبت وسوسته. وفيه أخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن علي عليه السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه و آله يصلي تلك الليلة ليلة بدر ويقول: اللّهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد وأصابهم تلك الليلة مطر شديد فذلك قوله: وليثبت به الأقدام

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٥٥

فلقد كانوا في الرمل بعطشهم غير ثابتي الأقدام في الإقدام على الحرب نفسياً، وإقدام الأقدام رملياً، فثبتت أقدامهم، وبت إقدامهم.

ورجز آخر هو وسوسة الشيطان أن كيف- وأنتم على حق- يعطشكم ربكم ويروى أعداءكم، وثبتت أقدامهم مترَّباً، ويوهيها لكم مرمَّلًا، فقد عكس المطر كل المحاسبات الشيطانية الدخلية في صدور البعض من المؤمنين.

وهذه التغشية المطَمْئِنة بإنزال الماء من السماء كانت بعد ما سبقهم المشركون إلى الماء فنزلوا على كثيب رمل فأحدثوا نائمين بنوم ككلّ، وبجنابة بعضاً، فوسوس إليهم الشيطان أن عدوكم سبقكم الماء وأنتم محرومون عنه، فأمطر الله عليهم فتطهروا وتلبَّدت به أرضهم إيحالًا لأرض العدو وإيغالًا له في أو حال إذ لم يكونوا مُرمَلين.

ذلك، وأن غزوة بدر الكبرى بملابساتها الخطرة الوعرة مضت في تاريخ الإنسان مشرقة باهرة، ظاهرة قاهرة من مظاهر الإيمان على الكفر دون مكافحة ظاهرة، تقريراً قريراً لدستور النصر والهزيمة، وكشفاً عن أسباب النصر وأسباب الهزيمة،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٥٦

كتاباً مفتوحاً تقرءه الأجيال طولَ الزمان وعرضَ المكان، دون تبديل لدلالتها، ولا تغير بطبيعتها، فإنها من آيات الله الكبرى على مدار الزمن.

ولقد تمتد بدر بمداد الإيمان الصالح، تمتد متجاوزة الجزيرة العربية إلى سائر الأرض، وزمنَ الرسول إلى سائر الزمن، ما دامت شروطات النصر الإيماني مستمرة، وشريطات الملابسات بين المتحاربين مسموعة متسامعة.

ولأن حرب بدر الكبرى هي الأولى بعد الهجرة بردح قليل من الزمن، فقد كمنت تحدياً قوياً قويماً لجانب الكفر أن يحاسب حسابه بغير وجه العِدَّة والعُدَّة الظاهرة، وليكفر كيف أن فئة قليلة مهاجرة من العاصمة خوفةَ القضاء عليها برسولها، عائشةً في غربة عن الوطن المألوف، فاقدةً لكل عِدة وعُدة لتلك الحرب غير المتكافئة، كيف تتغلب هذه الفئة القليلة على تلك الفئة الكثيرة، فتقتل منهم كثيراً وتأسر نفس العدد، ولا يُقتل منها إلّا أربعة عشر وهم خُمس قتلاهم، ولم يكونوا إلّا ثلثهم عدداً ومعشاراتهم في مظاهرة العُدَد!.

وهنا مثلث في تاريخ الإنسان من هذا العدد الكريم، فقبل الإسلام عديد جند طالوت حيث هم أمام جالوت القدَّار الغدَّار «هزموهم بإذن الله».

ثم في بدر الكبرى بصورة أجلى وملابسات أعجب وأعلى، ومن قدسيتها: «أن رسول الله صلى الله عليه و آله سافر إلى بدر في رمضان وافتتح مكة في رمضان». «١»

ومن ثم في دولة القائم المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، حيث يتغلب بأصحاب ألويته- وهم نفس العدد- على كافة الكفار والمشاغين!.

إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ «٢»

«ويريد الله أن يحق الحق .. إذ تستغيثون ربكم .. إذ يغشيكم النعاس .. ويثبت به

---

(١) بحار الأنوار ١٩: ٢٧٣ عن الرضا عن آبائه عليهما السلام

(٢) سورة الأنفال ٨: ١٢

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٥٧

الأقدام .. إذ يوحي ربك ..» تحقيقاً لوعده سبحانه «أني ممدكم بألف من الملائكة مردِفين».

«إذ يوحى ربك إلى الملائكة» الألف المردِفين «أني معكم» معية خاصة في مسرح بدر لتكونوا مع هؤلاء المؤمنين حضوراً كأنكم بَشَر أمثالهم محاربين «فثبتوا الذين آمنوا» أقدامَهم على النضال، وإقدامهم على القتال أن تحدثوهم بذلك التثبيت حتى يثبتوا، فقد ثبَّتهم الله بما أنزل من السماء ماءً ووعدهم النصر، وزاد في تثبيتهم بما أوحي للملائكة المردِفين أن «ثبتوا الذين آمنوا».

وترى كيف ثبتهم الملائكة وهم لا يروهم ولا يسمعونهم؟ «إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون. نحن أولياءكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ..». «١»

ذلك، وبأحرى في مَسْرح بدر الذي هو مَصْرح الإيمان المنقطع النظير، فقد يكون تنزلِهم عليهم يوم بدر متميزاً عن سائر تنزلهم على سائر المستقيمين من المؤمنين، أن تحولوا إلى صور الآدميين وتحدثوا معهم كما يحدث بعضهم بعضاً وهم عارفون أنهم من ملائكة الله المردَفين.

وحين يلقي الشيطان بأولياءه في قلوب أولياءه الشياطين ما يضلهم، فبأحرى أن يلقي الرحمن بنفسه وبملائكته في قلوب أولياءه المؤمنين ما يهديهم.

ثم إن «سألقّي في قلوب الذين كفروا الرعب» فطَمْأنةٌ قلوب المؤمنين، على قتلهم، وتمكُّن الرعب في قلوب الذين كفروا على كثرتهم، هما من الملابسات المعبّدة لتغلُّب الأولين على الآخرين، وإذاً: «فاضربوا» أنتم المؤمنين «فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان».

ولماذا هنا «فوق الأعناق» دون الرؤوس؟ علَّه لأنهم ما كانت لهم رؤوس إنسانية بما كفروا، فاستبدل بالرؤوس «فوق الأعناق»، وعلّه يعني بما عناه من ب «فوق

---

(١)). سورة فصّلت ٤١: ٣١

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٥٨

الأعناق» فوق أعناق المشركين إذ لم يكونوا عنقاً واحداً، ففوق الأعناق هم الأعناق الفوقية بينهم، فهم رؤوس الكفر والضلال، وكما قتل منهم كبار الأعناق بيد الرسول صلى الله عليه و آله وعلي عليه السلام والمؤمنين.

ثم «واضربوا منهم كل بنان» قد تعني إلى بنان الأيدي والأرجل وما أشبه بنانَ مختلف الأيادي، أن اضربوا- بما تضربون فوق الأعناق- كل الأيادي والطاقات المجرمة والوسائل المعادية فيما بينهم وكما وعد اللّه: «ويقطع دابر الكافرين» حتى لا يقوم منهم- بعدُ- قائم ولا يحوم حوم الحرب منهم حائِم إلّا آثم.

لم يكن في بدر دور للألف المردفين من الملائكة إلّا حضورا بأشخاصهم وتثبيتاً لقلوب المؤمنين، وأما ضرب فوق الأعناق وكل بنان فقد كان من المؤمنين. «١»

وهنا في الضفَّة المؤمنة نصر من اللّه وتثبيت من الملائكة لهم بإذن اللّه، ثم في الضفة

---

(١) في الدر المنثور ٣: ١٧٢ عن ابن عباس في حديث بدر الكبرى .. ونفر النبي صلى الله عليه و آله بجميع المسلمين وهم يومئذ ثلاثمائة وثلاث عشر رجلًا .. وسيد المشركين يومئذٍ عتبة بن ربيعة لكبر سنه فقال عتبة يا معشر قريش إني لكم ناصح وعليكم مشفق لا أدخر النصيحة لكم بعد اليوم وقد بلغتم الذي تريدون وقد نجا أبو سفيان فارجعوا وأنتم سالمون فان يكن محمد صادقاً فأنتم أسعد الناس بصدقه وان بك كاذباً فأنتم أحق من حقن دمه، فالتفت إليه أبو جهل فشتمه وفج وجهه وقال له: قد امتلأت أحشاءك رعباً، فقال له عتبة: سيعلم اليوم مَن الجبان المفسد لقومه، فنزل عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة حتى إذا كانوا أقرب أسنة المسلمين قالوا: ابعثوا إلينا عدتنا منكم نقاتلهم، فقام غلمة من بني الخزرج فأجلسهم النبي صلى الله عليه و آله ثم قال: يا بني هاشم أتبعثون إلى أخويكم والنبي منكم غلمة بني الخزرج فقام حمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث فمشوا إليهم في الحديدة فقال عتبة تكلموا نعرفكم فان تكونوا أكفاءنا نقاتلكم فقال حمزة أنا أسد اللّه وأسد رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقال عتبة كفؤ كريم فوثب إليه شيبة فاختلفا ضربتين فضربه حمزة فقتله ثم قام علي بن أبي طالب إلى الوليد بن عتبة، فاختلفا ضربتين فضربه علي عليه السلام فقتله ثم قام عبيدة فخرج إليه عتبة فاختلفا ضربتين فجرح كل واحد منهما صاحبه وكر حمزة على عتبة فقتله فقام النبي صلى الله عليه و آله فقال: اللهم ربنا نزلت عليَّ الكتاب وأمرتني بالقتال ووعدتني النصر ولا تخلف الميعاد فأتاه جبرئيل عليه السلام فأنزل عليه: ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين فأوحى اللّه إلى الملائكة «اني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان» فقتل أبو جهل في تسعة وستين رجلًا واسر عقبة بن معيط فقتل صبراً فوفى ذلك سبعين وأسر سبعين»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‌٧، ص: ٤٥٩

الكافرة: «وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني برىء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف اللّه رب العالمين». «١»

فقد واللّه إنه الأمر الهائِل، معية اللّه للمؤمنين بنفسه وبملائكته في المعركة، فهنا قلوب مطمئنة مؤمنة مرجفة، وهناك جوار الشيطان للكافرين فقلوب واجفة راجفة، وأهم الأسلحة في النضال هو سلاح طَمْأنة القلوب، وقد يروى عن الرسول صلى الله عليه و آله انه صلى الله عليه و آله رمى كفاً من حصباء الوادي في وجوه القوم وقال: شاهت الوجوه، فلم يبق مشرك إلا دخل في عينه وفمه ومنخريه منها شيءٌ، ثم ردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم وكانت تلك الرمية سبب هزيمتهم. «٢»

وكما لمح اللّٰه تعالى «فاضربوا فوق الأعناق» نرى أنهم ضربوا فوق الأعناق وهم كبار المشركين فقتل عليٌ عليه السلام منهم شطر شطيراً والباقون الشطر الأخير، وقتلى

---

(١) سورة الأنفال ٨: ٤٨

(٢) في المجمع ذكر جماعة من المفسرين كابن عباس وغيره أن جبرائيل قال للنبي صلى الله عليه و آله يوم بدر خذ قبضة من تراب فارمهم بها فقال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله لما التقى الجمعان لعلي عليه السلام أعطني قبضة من حصا الوادي فناوله كفاً من حصا عليه تراب ... وفي المغازي للواقدي: أمر رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله يوم بدر بالقليب، أن تغور ثم أمر بالقتلى فطر حوا فيها كلهم إلا أمية بن خلف فإنه كان مسمناً انتفخ من يومه فلما أرادوا أن يلقوه تزايل لحمه فقال النبي صلى الله عليه و آله: اتركوه فأقروه وألقوا عليه من التراب والحجارة ما غيبه، ثم وقف على أهل القليب فناداهم رجلًا رجلًا: هم وجدتم ما وعد ربكم حقاً فاني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً بئس القوم كنتم لنبيكم كذبتموني وصدقني الناس وأخرجتموني وآواني الناس وقاتلتموني ونصرني الناس. فقالوا: يا رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله أتنادي قوماً قد ماتوا؟ فقال: لقد علموا أن رما وعدهم ربهم حق، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني. وفي الأمالي باسناده عن ابن عباس قال: وقف رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله على قتلى بدر فقال: جزاكم اللّٰه من عصابة شراً لقد كذبتموني صادقاً وخونتم أميناً، ثم التفت إلى أبي جهل بن هشام فقال: ان هذا أعتى على اللّٰه من فرعون إن فرعون لما أيقن بالهلاك وحّد اللّٰه وان هذا لما أيقن بالهلاك دعا باللّات والعزّى

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٦٠

المحاربين معدودون باسمائهم. «١»

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ «٢»

ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ «٣»

«ذلك» الخزي لهم أولآء الكافرين و «ذلك» النصر لهؤلاء المؤمنين «بأنهم» أولآء المشاغبين «شاقوا اللّٰه ورسوله» جعلوا أنفسهم في شق فذٍّ، وجعلوا اللّٰه ورسوله في شق آخر، فأخذوا يشاقون اللّٰه ورسوله، إذاً «فإن اللّٰه شديد العقاب».

«ذلك» العقاب يوم الدنيا «فذوقوه» وكضابطة شاملة «ان للكافرين» بدركاتهم «عذاب النار» يوم القيامة، ولات حين فرار.

ذلك، وقتلى بدر السبعين «٤» قُتل شطر منهم كبير بيد أمير المؤمنين.

---

(١) في الإرشاد انه قد اثبتت رواة العامة والخاصة معاً أسماء الذين تولى أمير المؤمنين عليه السلام قتلهم ببدر من المشركين على اتفاق فيما نقلوه من ذلك واصطلاح فكان ممن سموه: الوليد بن عتبة وكان شجاعاً جريّاً وقّاحاً فتاكاً تهابه به الرجال، والعاص بن سعيد وكان هولًا عظيماً تهابه الأبطال، وطعيمة بن عدي بن نوفل وكان من رؤوس أهل الضلال، ونوفل بن خويلد وكان من أشد المشركين عداوة لرسول اللّٰه صلى الله عليه و آله وكانت قريش تقدمه وتعظمه وتطبعه .. ولما عرف رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله حضوره بدراً سأل اللّٰه أن يكفيه أمره فقال: اللهم أكفني نوفل بن خويلد فقتله أمير المؤمنين عليه السلام-

وزمعة بن الأسود والحارث بن زمعة والنضر بن الحارث وعمير بن عثمان بن عثمان وعثمان ومالك ابنا عبيد اللّٰه أخوا طلحة بن عبيد اللّٰه ومسعود بن أبي أمية بن المغيرة وقيس بن الفاكهة بن المغيرة وحذيفة بن أبي حذيفة بن المغيرة وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة وحنظلة بن أبي

سفيان وعمرو بن مخزوم وأبو منذر بن أبي رفاعة ومنبّه بن الحجاج السهمي والعاص بن منبّه وعلقمة بن كلدة وأبو العاص بن قيس بن عدي ومعاوية بن المغيرة ولوذان بن ربيعة وعبد اللّه بن المنذر ومسعود بن أمية وحاجب بن السائب بن عويمر وسعيد بن وهب ومعاوية بن عبد القيس وعبد اللّه بن جميل والسائب بن مالك وأبو الحكم بن الأخنس وهشام بن أبي أمية بن المغيرة- فذلك خمسة وثلاثون رجلًا سوى من اختلف فيه أو شرك أمير المؤمنين عليه السلام فيه غيره وهم أكثر من شطر المقتولين

(٢) سورة الأنفال ٨: ١٣

(٣) سورة الأنفال ٨: ١٤

(۴) في البحار عن الواقدي قال: حدثني عبد اللّه بن جعفر قال سألت الزهري كم استشهد من المسلمين ببدر قال: أربعة عشر: ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار قال: فمن بني عبد المطلب عبيدة بن الحارث قتله عتبة أو شيبة فدفنه النبي صلى الله عليه و آله بالصفراء، ومن بني زهرة عمير بن أبي وقاص قتله عمرو بن فارس الأحزاب وعمير بن عبدود ذو الشمالين حليف لبني زهرة قتله أبو أسامة الجشمي، ومن بني عدي عاقل بن أبي البكير حليف لهم من بني سعد قتله مالك بن زهير، ومهجع مولى عمر بن الخطاب قتله عامر بن الخضرمي ومن بني الحارث بن فهر صفوان بن بيضاء قتله طعيمة بن عدي-

ومن الأنصار ثم من بني عمرو بن عوف، مبشر بن عبد المنذر قتله أبو ثور وسعد بن خيثمة قتله عمرو بن عبدود ويقال طعيمة بن عدي بن النجار حارثة بن سراقة رماه حنان بن العرقة بسهم فأصاب حنجرته فقتله، ومن بني مالك بن النجار عوف ومعوذ ابنا عفراء قتلهما أبو جهل، ومن بني سلمة عمير بن الحمام بن الجموح قتله خالد بن الأعلم ومن بني زريق رافع بن المعلى قتله عكرمة بن أبي جهل، ومن بني الحارث بن الخزرج يزيد بن الحارث قتله نوفل بن معاوية فهؤلاء الثمانية من الأنصار

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ۴۶۱

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ «١»

تكتيكات حربية إسلامية يذكر منها هنا شطرات هامة لمسارح الزحف، إذا طُبِّقت كانت من قضاياها الإنتصار إلى جنب ما على المحاربين المسلمين من سائر الشروطات المسرودة في الكتاب والسنة.

و «الذين آمنوا» خطاب لعامة المؤمنين أياً كانوا وأيان، كما «الذين كفروا» يعمهم كلهم دون اختصاص ببدر وسواها زمن الرسول صلى الله عليه و آله أم سواه.

وهنا اللقاء زحفاً هو موضوع لشديد النهي عن تولية الأدبار، وصحيح أن الضابطة الثابتة في لقاء العدو هي حرمة الفرار إلّا .. ولكن اللقاء زحفاً هو أهم مواضيع الحكم.

والزحف هو الدنو رويداً على مَهَل، من الذين كفروا إلى الذين آمنوا أم منهم إليهم، أو الزّاحف منهما، ولأن اللقاء زحفاً ليس إلا بحساب من الزاحف وتحسُّب من المزحف إليه، تحاسُبٌ حسب الملابسات المحيطة بالطرفين، فالأصل فيه حرمة تولي الأدبار، وهو من السبع الموبقات. «٢»

---

(١)). سورة الأنفال ٨: ١٥

(٢)). نور الثقلين ٢: ١٢٨ في عيون الأخبار في باب ما كتب به الرضا عليه السلام إلى محمد بن سنان في جواب مسائله في العلل: وحرم اللّه تعالى الفرار من الزحف لما فيه ...

وفيه في الخصال في مناقب أمير المؤمنين عليه السلام وتعدادها قال: وأما الثالثة والستون فإني لم أفر من الزحف قط ولم يبارزني أحد إلا سقيت الأرض من دمه، وفيه عن العياشي عن زرارة عن أحدهما عليهما السلام قال قلت: الزبير شهد بدراً؟ قال: نعم ولكنه فر يوم الجمل، فإن كان قاتل المؤمنين فقد هلك بقتاله إياهم وان كان قاتل كفاراً فقد باء بغضب من اللّه حين ولا هم دبره

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٦٢

ذلك، ولأنه دون مبرر منصوص مرصوص، فتٌّ لعضد الإسلام وثلّم لكرامته، و «لما فيه من الوهن في الدين والإستخفاف بالرسل والأئمة العادلة عليهما السلام وترك نصرتهم على الأعداء والعقوبة لهم على انكار ما دعوا إليه من الإقرار بالربوبية وإظهار العدل وترك الجور وإماتة الفساد، لما في ذلك من جرءة العدو على المسلمين وما يكون من السبي والقتل وإبطال دين اللّه عزَّ وجلّ وغيره من الفساد». «١»

ذلك و «أن الرعب والخوف من جهاد المستحق للجهاد والمتوازرين على الضلال، إنه ضلال في الدين وسَلَب في الدنيا مع الذل والصغار، وفيه استيجاب النار بالفرار من الزحف بحضرة القتال ..». «٢»

وهنا «إذا لقيتم» تضيق دائرة حرمة الفرار هذه، فحين يهاجم العدو، ولا مكافئة في البين، فقد يجب الفرار حفاظاً على نفوس محترمة محرَّمة أن تهدر دون سبب مبرَّر.

وهل تحدِّد آية التخفيف حرمةَ الفرار من الزحف بالمكافئة المضاعفة لجيش العدو؟: «الآن خفف اللّه عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا

---

(١)). نفسير البرهان ٢: ٦٩ عن الكليني بسند متصل عن عقيل الخزاعي أن أمير المؤمنين عليه السلام قال: ... قال اللّه:.

(٢)). لقد تواردت الروايات حول اختصاص حرمة الفرار من الزحف ببدر وعدمه ومن الثاني وفقاً لطليق الآية في الدر المنثور ٣: ١٧٤، أخرج ابن مردويه عن أمامة مولاة النبي صلى الله عليه و آله قالت كنت أوضىء النبي صلى الله عليه و آله أفرغ على يديه إذ دخل عليه رجل فقال يا رسول اللّه أريد اللحوق بأهلي فأوصني بوصية أحفظها عنك قال: لا تفر يوم الزحف فإنه من فر يوم الزحف فقد باء بغضب من اللّه ومأواه جهنم وبئس المصير، وفيه عن ابن عمر قال: لما نزلت هذه الآية قال لنا رسول اللّه صلى الله عليه و آله قاتلوا كما قال اللّه: وفيه انه صلى الله عليه و آله كان يدعو بهؤلاء الكلمات السبع يقول: اللّهم إني أعوذ بك .. وأعوذ بك أن أموات في سبيلك مدبراً، وروى البخاري ومسلم في الصحيحين عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: اجتنبوا السبع الموبقات، قيل يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله وما هن؟ قال: الشرك باللّه والسحر وقتل النفس التي حرم اللّه إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٦٣

مأتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا الفين بإذن اللّه واللّه مع الصابرين». «١»

علَّها نعم، فإنها تحمل ضابطة للمكافئة؟ وعلّها لا، حيث إن حقل حرمة الفرار هو مسرح لقاء العدو زحفاً، فأما وجوب لقاءه بما دون المكافئة، أم حرمة الفرار عند الهجمة المباغتة ولا مكافئة، فلا! وقد أتى تفصيل البحث عند آية التخفيف.

وأما في اللقاء زحفاً منهما أو من إحداهما فالحكم كلمة واحدة حرمة الفرار إلّا ...

ومن غريب الوفق عديداً في القرآن أن كلّا من «الجهاد» و «المسلمين» بمختلف صيغتها هو (٤١) مرة، مما يلمح أن الإسلام لزامه الجهاد في سبيله.

ومن وصايا إمام المجاهدين علي أمير المؤمنين بشأن الحروب: «تزول الجبال ولا تزول، عضَّ على ناجذك، أعر اللّه جمجمتك، تِدْ في الأرض قدمك، إرم ببصرك أقصى القوم وغضَّ بصرك، واعلم أن النصر من عند اللّه سبحانه». «٢»

«معاشر المسلمين! استشعروا الخشية، وتجلببوا السكينة، وعضوا على النواجذ، فإنه أنبي للسيوف عن الهام، وأكملوا اللامة- الدرع- وقلقلوا السيوف في أغمادها قبل سلّها، والحظَوا الخزْر، وإطعنوا الشزر، ونافحوا بالظُّبَا، وصِلوا السيوف بالخُطى، واعلموا أنكم بعين اللّه .. فعاودوا الكرَّ، واستحيوا من الفرِّ، فإنه عار في الأعقاب ونار يوم الحساب. وطِيّبوا عن أنفسكم نفساً، وامشوا إلى الموت مشياً سُجُحاً- سهلًا- ..

فصمداً حتى ينجلي لكم عمود الدين وأنتم الأعلون واللّه معكم ولن يتركم أعمالكم». «٣»

«فقدموا الدراع وأخروا الحاسر، وعضوا على الأضراس فانه أنبى للسيوف عن الهام، وإلتووا في أطراف الرماح فإنه أمور للأسنَّة، وغُضوا الأبصار فإنه أربط للجأش وأسكن للقلوب، وأميتوا الأصوات فإنه أطرد للفشل، ورايتَكم فلا تُميلوها ولا

---

(١)). سورة الأنفال ٨: ٦۶

(٢)). (الخطبة ١١)

(٣)). (خطبة ۶۴)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ۴۶۴

تخلوها، ولا تجعلوها إلا بأيدي شجعانكم، والمعانِدين الذِّمار منكم ... وأيم اللّه لئن فررتم من سيف العاجلة لا تسلموا من سيف الآخرة .. إن في الفرار موجدةَ اللّه، والذلَّ اللّازم والعار الباقي، وإن الفار لغير مزيد في عمره، ولا محجوز بينه وبين يومه». «١»

«وأي امرء منكم أحس من نفسه رباطةَ جأش عند اللقاء ورأى من أحد من إخوانه فشَلا فليذُبَّ عن أخيه بفضل نجدته الَّتي فضِّل بها عليه كما يذب عن نفسه، فلو شاء اللّه لجعله مثله، إن الموت طالب حثيث لا يفوته المقيم، ولا يُعجزه الهارب، إن أكرم الموت القتل، والذي نفس ابن أبي طالب بيده لألف ضربة بالسيف أهون علي من ميتة على الفراش» ... ذلك:

وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْواهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ «٢»

فالتحرف لقتال والتحيز إلى فئة هما فرار للقرار فلا عار فيهما ولا بوار، ف «لا تشتدن عليكم فرّة بعدها كرة ولا جولة بعدها حملة، ووطئوا للجيوب مصارعها، وإذ مروا أنفسكم على الطعن الدَّ عسي- الشديد- والضرب الطلحفي- القوى-». «٣»

فتولي الدبر في المصاف الزاحف محظور كضابطة، وهو محبور كتبصرة في مجالين اثنين: ١- «متحرفاً لقتال»: متطرداً يريد الكرة عليهم تحولًا إلى قتال أمكن وأقوى. ٢- «أو متحيزاً إلى فئة» من المؤمنين، متأخرا إلى اصحابه من غير هزيمة، ضما لهم إليهم إلى المواجهة، أم وكل قوة يُحصل عليها في ذلك التولي، فأما التولي فراراً، أم والتولي دون عائدة في الرجوع، فغير مسموح للمناضل بتّاً.

ف «من أنهزم حتى يجوز صف أصحابه فقد باء بغضب من اللّه». «۴»

---

(١)). (الخطبة ١٢١)

(٢)). سورة الأنفال ٨: ١٦

(٣)). سورة الأنفال ٨: ٢٥٥

(٤)). في تفسير العياشي عن موسى بن جعفر عليهما السلام في الآية وذكر هذه الجمل الثلاث المذكورة في المتن

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٦٥

وهنا لمحة من الضمائر المفردة أن استثناء المنع عن تولي الدبر ليس يشمل توليه جميعاً، بل هو تولي الأفراد تحرفاً لقتال أو تحيزاً إلى فئة.

وترى هنا «باء بغضب من اللّه ومأواه جهنم وبئس المصير» ليست لتستثني؟ ولقد عفى اللّه عنهم يوم أحد: «إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفى اللّه عنهم إن اللّه غفور حليم». «١»

ويوم حنين: «لقد نصركم اللّه في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين. ثم أنزل اللّه سكينه على رسوله وعلى المؤمنين». «٢»

إذاً فالفرار من الزحف هو كسائر الكبائر من موارد المغفرة بالتوبة الصالحة. «٣»

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ «٤»

بعد هذه الخوارق لعادات الحرب وتكتيكاتها، في هذه الهزيمة العظيمة للمشركين الكثرة بالمؤمنين القلة، لم يكن عاملها هزيمتهم لا الرسول ولا المؤمنون «فلم تقتلوهم» في الحق بطاقاتكم البشرية العاديّة «ولكن اللّه قتلهم» بما نصركم في حلقات ظاهرة وباطنة.

«وما رميت» رمية الحرب وما أشبه «إذ رميت ولكن اللّه رمى» حيث هداك ونصرك وعبّد لك طريق النصر، هذه الشائكة الخطرة الملتوية، «ليحق الحق بكلماته ويبطل الباطل ولو كره المجرمون»- «ويقطع دابر الكافرين»- «وليبلي المومنين»

---

(١)). سورة آل عمران ٣: ١٥٥

(٢)). سورة التوبة ٩: ٢٦

(٣)). وقد روى أحمد وأصحاب السنن إلا النسائي من حديث ابن عمر قال: كنت في سرية من سرايا رسول اللّه صلى الله عليه و آله فحاص الناس حيصة وكنت فيمن حاص فقلنا: كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب

(٤)). سورة الأنفال ٨: ١٧

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٦٦

بذلك القتل الرباني وليبلى «بلاءً حسناً» حتى يلمسوا نصر اللّه، تحقيقاً لوعد اللّه واستغاثتكم «إن اللّه سميع عليم».

ذلك، ومع أنا لا نجد قتلات ورميات للرسول صلى الله عليه و آله في هذه المعركة، نجد الرمية- وكأنها هي الوحيدة- خاصة بالرسول صلى الله عليه و آله في هذه التصريحة اليتيمة، فما هي هذه الرمية البارزة بين كل رمية.

إنه ليس الواجب الهام على قائد القوات المسلحة أن يتولى القتلة والرمية بنفسه، فإنما مهمته قيادته الحكيمة وخطته العاقلة في كل رمية وقتلة، وإذاً تصح نسبة كل المحاصيل الحربية إلى القائد نفسه، رغم عدم خوضه لأصل المعركة بنفسه، أم وعدم حضوره فيها، فضلًا عن الرسول صلى الله عليه و آله الخائض بنفسه هذه الحرب، مخططاً لها بنفسه منذ خروجه من المدينة حتى الإنتصار الكامل.

وهنا اختصاص الرمية النقية بالرسول صلى الله عليه و آله وتعميم القتلة المؤمنين معه، دليل اختصاص الرمية القيادية به، رمياً للقوات الإيمانية إلى صفوف المشركين بما رمى.

ففي نقطة الإنطلاق نجد الرسول صلى الله عليه و آله هو البادىء والمحرض «إذ أخرجك ربك من بيتك بالحق ..» ثم قبل المواجهة «إذ يريكهم اللَّه في منامك قليلًا ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ..». «١» وعند الإستغاثة غوثاً وغيثاً هو المستغيث أولًا: «اللّهم أنجز لي ما وعدتني، اللّهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض، فما زال يهتف به ماداً يديه حتى سقط رداءه من منكبه فنزل» إذ تستغيثون.

ومن قبل هو الذي أراهم قبل الخروج والمواجهة مصارع القوم بما أراه اللَّه حتى رأواها بأم أعينهم، ثم هو الذي كان يثبتهم ويرشدهم ويخطط لهم خطوة خطوة حتى النهاية: «ولما أصبح رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يوم بدر عبأ أصحابه فكان في عسكره فرسان فرس للزبير بن العوام وفرس للمقداد بن الأسود وكان في عسكره سبعون جملًا يتعاقبون عليها، وكان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وعلي بن أبي طالب ومرثد بن أبي مرثد يتعاقبون

---

(١)). سورة الأنفال ٨: ٤٣

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‌٧، ص: ٤٦٧

على جمل لمرثد ... فنظر رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إلى عبيدة بن الحارث- وكان له يومئذٍ سبعون سنة- فقال: قم يا عبيدة، ونظر إلى حمزة فقال: قم يا حمزة ثم نظر إلى علي عليه السلام فقال:

قم يا علي وكان أصغر القوم- فأطلبوا بحقكم الذي جعله اللَّه لكم فقد جاءت قريش بخيلائها وفخرها تريد أن تطفىء نور اللَّه، وقال لحمزة عليك بشيبة وقال لعلي عليه السلام عليك بالوليد ...

وهكذا نجده من خلال هذه الحرب يقودهم روحياً وحربياً خطوة خطوة دون أن تغيب عنه حركته، إذ كانت كافة الحركات والتكتيكات بقيادته الشخصية، ومن ناحية أخرى لما يرى العدو فاعلية القوات والمسلحة- القوية الصارمة- بتلك القيادة الحكيمة، فهم يحسبون ألف حساب لقائد القوات ليسوا ليحسبوها لو أنه هو الداخل بنفسه في القتال.

لذلك فأصل الرمي في هذه الحرب كان من أصل القيادة الرسولية، ثم اللَّه ينفيه عنه- أيضاً- ناسباً له إلى نفسه- كما القتل العام- إذ هو الذي أيدهم بنصره ما لولاه لكانوا خطف ساعة!.

إذاً فسلب القتل عنهم: «فلم تقتلوهم ولكن اللَّه قتلهم» سلبٌ واقع لا مرد له إذ لم يكونوا يَقتلون- بل يُقتلون- لولا الشروطات الإيجابية والسلبية الربانية لتلك القتلة الخارقة للعادة، فهم في أنفسهم صفر الأيدي عن تلك القتلة الغالبة المنقطعة النظير، فقد قتلهم بما طمأن اللَّه قلوب المؤمنين، وأنزل عليهم من السماء ماءً فوطّد رملتهم أولاء وأوحل طينتهم هؤلاء ففشلوا في مواطئهم، وأنزل ألفاً من الملائكة مردفين «يرونهم مثليهم رأى العين» ففشلوا ووهنوا في ذوات أنفسهم، ثم وألقى الرعب في قلوبهم، إذاً فمن هو الذي قتلهم إلّا اللَّه، مهما ظهرت مظاهر المقاتل؟.

ثم إثبات الرمي له صلى الله عليه و آله بعد سلبه لامحٌ إلى ميّزة خاصة ودور متميَّز للرسول صلى الله عليه و آله قائداً للقوات المسلحة، حيث رمى ما رماه في قيادته الحربية بكل بسالة وشطارة، إضافة إلى الأهداف الواصلة هي إليها التي كانت هي الأخرى من النصرة الربانية في

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‌٧، ص: ٤٦٨

ذلك المِسْرح، مَصْرحاً لمدى الفاعلية والقابلية لقائد القوات المسلحة الرسولي.

فلأن القائد هنا له دوران إثنان فقد يصدق أنه «رمى» حال انه ما رمى «ولكن اللّٰه رمى» ولم يكن للمؤمنين إلّا دور واحد أنهم كانوا مقودين صالحين بتلك القيادة، فقد يصدق أنهم ما قتلوهم ولكن اللّٰه قتلهم.

وترى أن رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله- فقط- رمى «إذ رميت» ولم يقتل؟ المهم لدوره كقائد القوات هو الرمي، لأنه يعني- بما عنت- رمي الحصباء إلى وجوه الكفار قائلًا: شاهت الوجوه، فارتموا وارتبكوا حتى لم يكونوا ليروا واقع عديد المؤمنين القلة، ولم يروا إلّا قتلهم أنفسهم فهزيمَتهم، فلذلك فقدوا عزيمتهم وتناسوا عظيمتهم، وكل ذلك من اللّٰه، فان مجرد رمي التراب لا يخلف تلك الهزيمة العظيمة، ومهما كانت صورة الرمية منك فسيرتها ومصيرتها هما من اللّٰه.

فكما في المسيح عليه السلام: «إذ تحيي الموتى بإذني» إذ يسلب عنه واقع الإحياء إلى ظاهرة من فعله المأذون، حيث أذن اللّٰه في حياة الموتى قرنا لفعله عليه السلام غير الفاعل تلك الفعلة الربانية، كذلك أنت يا قائد القوات «ما رميت» رمية الغلبة هذه الخارقة للعادة «ولكن اللّٰه رمى» إياها، أيصالًا لكف من التراب إلى ألفي عين، وإيغالًا لأصحابها فيما أوغل، وكأن ذلك التراب غازات كيماوية تعمي العيون ثم وترعب القلوب.

ذلك، إلى سائر رميات الرسول صلى الله عليه و آله التكتيكية في بدر الكبرى، فقد انحصرت رمياته في مظاهر ثلاثة: رمية القتل، ورمية الحصى، وسائر الرمية الحربية بتكتيكاتها، ولكن الفاعلية الواقعية في هذه الرميات لم تكن إلّا من اللّٰه ما لولاه لم يحصل ما حصل لصالح المؤمنين.

ذلك، والرمية الأصلية هي رمية التراب حيث قال صلى الله عليه و آله: أمام معسكر العدو: «اللّهم إنك أمرتني بالقتال، ووعدتني النصر ولا خلف لوعدك، وأخذ قبضة من حصى فرمى

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٦٩

بها في وجوههم فانهزموا بإذن اللّٰه فذلك قوله: «وما رميت إذ رميت ولكن اللّٰه رمى» «١»- «.. فما بقي أحد من القوم إلا امتلأت عيناه من الحصباء ..» «٢»، وأما «وما قتلتموهم» فلأنهم استغلوا عميان العيون بهذه الرمية فاغتالوهم. «٣»

ذلك، فحقاً «لم تقتلوهم ولكن اللّٰه قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن اللّٰه رمى» حيث العَدَد والعُدد للمشركين كانا أضعاف ما للمسلمين، فالعدد ثلاثة أضعاف، والخيل مأتا ضعف، والسيوف خمسمائة ضعف، والحالة السابقة للمشركين غَلَبُهُم عليهم حيث أخرجوهم قبل أشهر من العاصمة، ولم يكن من المسلمين إلّا رمية الحصباء من النبي صلى الله عليه و آله بدعاء النصر، فشملهم المؤمنون قتلًا وحصراً وأسراً فبطلت مكيدتهم، وسكنت أجراسهم، وخمدت أنفاسهم، فهم بين قتيل وجريح وأسير وحصير وفرير!:

«فلم تقتلوهم ..» في بدر، فلماذا- إذاً- تولي الأدبار!. «٤»

ذلك، جبراً لكسرهم في هجرتهم الهاجرة، وإعلاءً لكلمة الحق إحقاقاً لها وإخفافاً

---

(١)). الدر المنثور ٣: ١٧٤- أخرج ابن عساكر عن مكحول قال: لما كرّ عليّ وحمزة على شيبة بنربيعة غضب المشركون وقالوا إثنان بواحد فاشتعل القتال فقال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله: وفيه عن حكيم بن حزام قال: لما كان يوم بدر سمعنا صوتاً وقع من السماء إلى الأرض كأنه صوت حصاة وقعت في طست ورمى رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله بتلك الحصباء وقال: شاهت الوجوه فانهزموا فذلك قوله تعالى وما رميت إذ رميت ..»

(٢)). المصدر أخرج الطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال قال رسول‌الله صلى الله عليه و آله لعلي عليه السلام ناولني قبضة من حصباء فناوله فرمى بها في وجوه القوم .. فنزلت هذه الآية، وأخرجه مثله الحمويني بسنده المتصل عن ابن عباس عنه صلى الله عليه و آله (ملحقات إحقاق الحق ٣: ٥٤٥)

(٣)). المصدر أخرج ابن جرير عن محمد بن قيس ومحمد بن كعب القرظي قالا: لما دنى القوم بعضهم من بعض أخذ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قبضة من تراب فرمى بها في وجوه القوم وقال: شاهت الوجوه فدخلت في أعينهم كلهم وأقبل أصحاب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يقتلونهم وكانت هزيمتهم في رمية رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فأنزل اللَّه «وما رميت ..»

(٤)). في تفسير الفخر الرازي ١٥: ١٣٦ قال مجاهد: اختلفوا في بدر فقال هذا أنا قتلت وقال الآخر أنا قتلت فأنزل اللَّه هذه الآية، وروى أنه لما طلعت قريش قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله هذه قريش قد جاء بخيلاءها وفخرها يكذبون رسولك: اللَّهم إني اسألك ما وعدتني، فنزل جبرئيل وقال: خذ قبضة من تراب فارمهم بها فلما التقى الجمعان قال لعلي عليه السلام أعطني قبضة من التراب من حصباء الوادي فرمى بها في وجوههم وقال: شاهت الوجوه فلم يبق مشرك إلا شغل بعينه فانهزموا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‌٧، ص: ٤٧٠

للباطل «وليبلي المؤمنين منه بلاءً حسناً» تأكيداً لهم أن سيروا وعين اللَّه يرعاكم «إن اللَّه سميع» مقالهم ومقال أعدائِهم «عليم» بحالهم وحال أعداءهم وما هو الصالح في ذلك المسرح الوطيد.

ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ «١»

«ذلكم» اللَّه ربكم إن تنصروه ينصركم، و «ذلكم» الغَلب الخارق لمألوف الحروب هو من بلاءِه الحسن «ذلكم» فاعتبروا يا أولي الأبصار «وان اللَّه موهن كيد الكافرين» كما أوهنه ب «ذلكم» الرمية والقتلة.

إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ «٢»

وهل المخاطَبون هنا هم المشركون حيث استفتح أبو جهلهم بقوله: «اللَّهم ربنا ديننا القديم ودين محمد الحديث فأي الدينين كان أحب إليك وأرضى عندك فانصر أهله اليوم» فقد جاءكم الفتح، حيث فتح عليكم للمؤمنين لأنهم أحب إليه وأرضى عنده.

جاءكم الفتح المرضي عند اللَّه لصالح الأحب إلى اللَّه والأرضى، فجعل الدائرة عليكم تحقيقاً لاستفتاحكم، فعليكم- إذاً- أن تنتهوا عن غيكم وجهلكم إلى رشدكم إيماناً بهذه الرسالة السامية، «فهو خير لكم» وما أنتم عليه شرٌ لكم.

«وان تعودوا» إلى غيكم ومحاربة المؤمنين «نعد» إلى نصرهم وهزيمتكم «ولن تغني عنكم فئتكم» عِدَّة وعُدَّة «شيئاً ولو كثرت» كما لم تغن عنكم يوم بدر «وأن اللَّه» على أية حال «مع المؤمنين» ما داموا معه، فالمعركة- إذاً- بين الفريقين غير مكافئة حيث المؤمنون- ومعهم اللَّه- هم منتصرون دائماً، والكافرون منهزمون كذلك، معركة مقررة المصير، إلا عند تخلف المؤمنين عن المسير، إذاً فمصيرهم مصير من سواهم

---

(١)). سورة الأنفال ٨: ١٨

(٢)). سورة الأنفال ٨: ١٩

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‌٧، ص: ٤٧١

بسجال الحرب.

ذلك، وإلى واجهة أخرى علّها معنية مع الأولى: «إن تستفتحوا» أنتم المؤمنين فتح الفتوح، رجوعاً إلى العاصمة الرسالية، وكما كانوا يستفتحون منذ الهجرة: «وأخرى تحبونها نصر من اللّه وفتح قريب وبشر المؤمنين». «١»

«إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح» هنا في بدر، كباردة للفتح المبين وأنتم أذلة وقلة ف «لقد نصركم اللّه ببدر وأنتم أذلة» وسوف يأتيكم- بأحرى- بعد ردح إذا كنتم كما أنتم وبأحرى وأقوى، فقد تشمل «جاءكم الفتح» الفتح المستقبل إلى الماضي قضية تحقق وقوعه بما وعد اللّه.

ثم تحول الخطاب إلى الفرق الآخر «وإن تنتهوا ...» أم وقد يشمل المؤمنين «إن تنتهوا» عما لا يليق بالمؤمنين «فهو خير لكم» أو «تنتهوا» عن استعجال الفتح المبين حيث يأتي اللّه لكم حتى حين «فهو خير لكم» «وإن تعودوا» لهذه الحالة والهالة الإيمانية التي اقتضت غلبكم عليهم «نَعُد» إلى نصركم، ولكن إعملوا أنه: «لن تغني فئتكم شيئاً ولو كثرت» لولا واقع الإيمان، كما لم تغن يوم أحد حيث تركتم المواقع المقررة لكم طمعاً في الغنيمة، وعلى أية حال «وان اللّه مع المؤمنين» قدر إيمانهم.

وما أجمله جمعاً بين الخطابين بمثنى الإستفتاحين المتعاكسين، ثم «وإن تنتهوا» أنتم المشركين عما أنتم عليه «فهو خير لكم» توبة إلى اللّه أم تركاً لمحاربة المؤمنين باللّه، «وان تعودوا» إلى تلك المحاربة «نعد» إلى ذلك الإستفتاح، واعلم أن «لن تغني عنكم فئتكم» عِدَّة وعُدَّة عن اللّه «شيئاً» ما دام اللّه مع المؤمنين «لو كثرت» كما كثرت «وان اللّه مع المؤمنين».

أم «إن تنتهوا» أنتم المؤمنين عن القتال إستفزازاً للكفار، أم عن الإستفتاح العاجل، أم عما لا يليق بالمؤمنين «فهو خير لكم» «وان تعودوا» إلى صالح الإيمان «نعد» إلى الفتح لصالح الأمان، واعلموا أنه «لن تغني عنكم فئتكم شيئاً» إن كانت لكم

---

(١)). سورة الصف ٦١: ١٣

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٧٢

فئة «ولو كثرت» لو لم يكن اللّه ناصركم «وأن اللّه مع المؤمنين».

فقد حملت الآية نذارة للكافرين وبشارة للمؤمنين دونما اختصاص في خطابها فريقاً دون آخرين، قضيةَ أدب اللفظ وحَدَب المعنى.

نصرة ربانية في القتال

إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ «١»

هنا وبالتأتي سرد لإعدادات روحية نوماً ويقظة كسبب من أسباب هزيمة العدو العظيمة «إذ يريكهم اللّه في منامك قليلًا» على كثرتهم فانجر إلى رؤيتهم في يقظتك قليلًا «ولو أراكم كثيراً» كما هم كثير «لفشلتم» في الأمر «ولتنازعتم» في الأمر: أمر الحرب، لتثاقل الأقدام في الإقدام عليها قضيةَ التكتيكة الحربية الظاهرة «ولكن اللّه سلَّم» لكم العدو، بما ف «إنه عليم بذات الصدور».

فحين أراهم اللّه في منامه قليلًا فهو صلى الله عليه و آله يخبر المؤمنين بما رآه تشجيعاً لهم على الخروج، فلو أراه إياهم كما هم فأخبرهم بما هم لفشلتم في التصميم ولتازعتم في الصميم ولكن ..

وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذْ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ «٢»

وهنا قلتان، قلة واقعية لكم في أعينهم لكي يستيهنوكم فلا يبالغوا في الإستعداد للمواجهة روحياً، وفي سائر القوات فيقدموا على نضالكم برخوة واستهانة دون أية جدية ثم وقلة في الرؤية لهم في أعينكم لكي تستهينوهم فتقدُموا على نضالهم دونما تخوف، وقد تعني «يقللكم» تقليل العدد عما هو فهل أقل من واقعه، أم وتقليل العُدد

---

(١)). سورة الأنفال ٨: ٤٣

(٢)). سورة الأنفال ٨: ٤٤

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٧٣

عما هو، فكذلك الأمر «ليقضي الله أمراً كان مفعولًا».

وهلّا تناحر بين «يقللكم في أعينهم» هنا وبين «يرونهم مثليهم رأى العين». «١» إن كانت تعني بدراً كما عنته الأولى؟ كلّا حيث التقليل هنا «إذا التقيتم» وهو بداية الإلتقاء، ثم «يرونهم مثليهم رأى العين» بعدها «ليقضي الله أمراً كان مفعولًا».

فلقد كان في هذا التدبير الرباني ما حرَّض الفريقين بخوض المعركة، تشجيعاً للمؤمنين بكل قواتهم، وإغراءً للكافرين ألا يستعدوا لجدية قاطعة في المواجهة، فلقوةالروحية والتصميم عليها أثرها العظيم أمام ضعف الروحية والتصميم، ولقد رأى المسلمون الكافرين قليلين في استمرارية المعركة ورآهم الكفار كثيرين «ليقضي الله أمراً كان مفعولًا» كما قضاه «وإلى الله ترجع الأمور» ولا سيما هذا الذي قدر وسلم.

ذلك، فليست الغلبة فقط بكثرة العَدد والعُدد، بل وأهم منهما نصر الله، والروحية القوية والتصميم في الصميم على لقاء العدو، وهكذا كان المؤمنون ينتصرون ما كانوا متوكلين على الله، مصممين على تحقيق أمر الله، غير مستكبرين طاقاتهم وإمكانياتهم الحربية، فأما إذا عكسو الأمر كما في حُنين: «إذأ عجبتكم كثرتكم» فانهزامة عظيمة، ومن ثم لما رجع الأمر إلى موقعه الصالح فغلبة عظيمة، وهكذا يثبتنا الله تعالى في معارك الشرف والكرامة:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ «٢»

آيات عدة تأمر المؤمنين برعاية سلبيات وإيجابيات في الحروب «لعلكم تفلحون» وتفلجون أعداءكم:

فهنا «إذا لقيتم فئة» قضيَةَ الإيمان والمسؤولية الإيمانية حيث ترون لقاء العدو أمراً من الله «فاثبتوا» قراراً دون فرار، ثباتاً على إمضاء أمر الله، فهو الذي ينصركم كما يشاء «واذكروا الله كثيراً» في هذا اللقاء وسواه «لعلكم تفلحون» فتُفلجون عدوكم إن

---

(١)). سورة آل عمران ٣: ١٣

(٢)). سورة الأنفال ٨: ٤٥

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٧٤

شاء الله.

وهل الأصل للمؤمنين لقاء العدو، أو العافية التي فيها الأمن والدعة؟ إنه ليس لقاءَ العدو إلا دفاعياً واضطرارياً وكما نسمع الرسول صلى الله عليه و آله يقول: «لا تتمنوا لقاء العدو وايألوا الله العافية فإن لقيتموهم فاثبتوا واذكروا الله كثيراً فإذا جلبوا وصيحوا فعليكم بالصمت». «١»

ولأن ذكر اللّه يُطمئِن القلوب، والمؤمن في مهاوي الأخطار بحاجة ماسة إلى اطمئنان حتى لا يتزعزع، لذلك افترض اللّه ذكره عند أشغل ما تكون عند الضراب بالسيوف.

وهل إن «فاثبتوا» ثابتة على أية حال؟ وآية التحرف لقتال أو التحيز إلى فئة تختصها بغيرها! ولكن الثبات لا ينافيه تولي الدبر لأشخاص من الجيش لإثبات أكثر مما كان، إشخاصاً لقوات إسلامية إلى أرض المعركة بأشخاص كأنهم يولون الدبر وهم في الحق مقبلون إلى حرب هي أقوى لهم وهي على العدو أنكى وأشجى.

وعلى أية حال فالثبات في اللقاء والإكثار من ذكر اللّه هما من مجالات الإفلاح «لعلكم تفلحون».

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ «٢»

هنا بعد الأمر بالثبات عند اللقاء وذكر اللّه نؤمر بطاعة اللّه ورسوله، فليكن لقاء العدو بشكليته كأصله بطاعة اللّه ورسوله، دونما تخلف عن القيادة الحربية رسولية أو

---

(١)). الدر المنثور ٣: ١٨٩- أخرج عبد الرزاق في المصنف وابن أبي شيبة وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن عبد اللّه بن عمر قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: ...

وفيه أخرج عبد الرزاق عن يحيى بن كثير أن النبي صلى الله عليه و آله قال: لا تتمنوا لقاء العدو فإنكم لا تدرون لعلكم ستبلون بهم وسألوا اللّه العافية فإذا جاءوكم يبرقون ويرجفون ويصيحون بالأرض الأرض جلوساً ثم قولوا اللّهم ربنا وربهم نواصينا ونواصيهم بيدك وإنما تقتلهم أنت فإذا دنوا منكم فثوروا إليهم واعلموا أن الجنة تحت البارقة

(٢)). سورة الأنفال ٨: ٤٦

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٧٥

رسالية، حيث الطاعة الصالحة في الحرب هي من أسباب الفلاح «ولا تنازعوا» في حرب وسواها، فالتنازع في الحرب تشتت في القوات المسلحة والتصميمات الحربية الصالحة وفشل فيها وذهاب ريح «واصبروا» على كل حال حفاظاً على أمر اللّه ولا سيما في الحرب، هضماً لأنفسكم عن أي تشتت، وتبعثر، حيث الوحدة في القتال وهو بأمر اللّه وقيادة الرسول صلى الله عليه و آله إنها رمز الغلبة والعزة.

ذلك، ولقد خلف التخلف عن أمر قائد القوات المسلحة الرسولية يوم أحد، خلَّف انهزامة عظيمة في وسط المعركة، إذ لم يثبت الرماة على قواعدهم التي قررهم الرسول صلى الله عليه و آله فعصوا اللّه وعصوا الرسول وتنازعوا في ذلك التخلف فذهبت ريحهم وما صبروا على المسؤولية المقررة لهم.

وهنا «ريحكم» هي ريح الإيمان وروُحة ورَوحة، وهي عز الإيمان وسيادته، الريح التي تركم سحاب الرحمة وتمطر على المؤمنين، وتجمع سحاب العذاب والزحمة فتمطر على الكافرين.

وصحيح أن المحور الأصيل هنا لهذه الأوامر والنواهي هو حالة الحرب، ولكنها طليقة على أية حال، فالثبات في إمضاء أمر اللّه، وذكر اللّه كثيراً على كل حال، وطاعة اللّه والرسول في كل حال وترحال، وترك المنازعة بين المؤمنين، والصبر على النوائب في سبيل اللّه، وترك البطر ورئاء الناس والصد عن سبيل اللّه، هذه الثمانية أمراً ونهياً- عدد أبواب الجنة الثمان- هي كلها من مفاتيح الرحمة والرضوان «فبأي آلاء ربكما تكذبان».

وهنا «لا تنازعوا» تحتل القمة الرئيسية بين زملاءها، حيث التنازع والإختلاف بين المؤمنين يفصم طاقاتهم، وتُضعف قواتهم، تجعلهم شذ مذر، مواطىء لأقدام الكفار، ومجالات لإقدامهم على محقهم وسحقهم في كل أقدامهم.

والتنازع هو التفاعل في النزع وهو بين محظور ومحبور، فمحاولة كلّ أن ينزع ما عند صاحبه من خير تحويلًا له إلى نفسه أم إلى الفناء استئصالًا فيهما أم استقلالًا هو

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٧٦

تنازع محظور.

ثم محاولة كلٍّ أن ينزع ما عند صاحبه من خير استغلالًا دونما استئصال محبور، فهما بين طرفي التضاد منهياً عنه أو مأموراً به، ومن التنازع المحبور التشاور في معضلات الأمور إفادةً وإستفادةً، ومن المحظور التشاطر فيها أن يتبنَّى كلٌّ شخصه وشخصيته دون ابتغاء للحصول على الحق المرام، فالحق ما يقوله هو مهما كان باطلًا، والباطل ما يقوله سواه مهما كان حقاً، وإن جرى الحق على لسانه هو فهو الحق، وان سبقه غيره فيه فمحاولة لإبطاله، ومن مصاديق المحظور منازعة الرسول في الأمر:

«فلا ينازعنك في الأمر وأدع إلى ربك ..» «١» ومن المحبور «يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم» «٢» استرواحاً بمزاح، ثم عوان بينهما هو التنازع الذي ليس عن عداء، بل هو طبيعة الحال لقصور في المعرفة، فليُردَّ- إذاً- إلى اللّه والرسول: «فإن تنازعتم في شيءٍ فردوه إلى اللّه والرسول ..». «٣»

وهنا بين الفشل والتنازع تفاعل التجاوب، فالتنازع هو من عوامل الفشل كما هنا، كما الفشل هو من عوامل التنازع: «حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون» «٤»

فالفاشلون في العلم والمعرفة وصالح العقيدة هم المتنازعون، كما المتنازعون هم الفاشلون.

ولأن المنازعة بين المؤمنين محرمة فيما يؤول إلى البغضاء والعداء دون حصول على حق، فالمفروض- إذاً- التجنب عن أسبابها والإتجاه إلى أسباب التآلف والوحدة.

وهنا كتاب اللّه وسنة رسول اللّه صلى الله عليه و آله هما قمة الأسباب الرئيسية للوحدة والألفة،

---

(١)). سورة الحج ٢٢: ٦٧

(٢)). سورة الطور ٥٢: ٢٣

(٣)). سورة النساء ٤: ٥٩

(٤)). سورة آل عمران ٣: ١٥٢

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٧٧

طالما الأصول الأخرى التي لا أصل لها في كتاب أو سنة، كالإجماع والشهرة والقياس والإستحسان والإستصلاح، ودليل العقل مستقلًا وجاه الكتاب والسنة، إنها كلها من أصول التنازعات.

فالإرتكان على أدلة العقول في الفروع الأحكامية وما أشبهها غير الكتاب والسنة، إنه إرتكان إلى ركن سحيق محيق غير وثيق، يخلف مختلف التنازعات بين المعتمدين عليها، وهنا كلمة حاسمة لهذه التنازعات: «فإن تنازعتم في شيءٍ فردوه إلى اللّه والرسول».

فالأصل الإيماني بين قبيل الإيمان ألا يتنازعوا على أية حال، فإذا تنازعوا لقصور في البال أم قضية الحال فإلى الله في كتابه، وإلى الرسول في سنته، فإذا بقيت بعدُ بقية من الخلافات حسب مختلف الإجتهادات والإستنتاجات فلا تنازع بعد بل هو الإقرار لكلّ والإستقرار على ما أدى إليه رأيه دونما تنازع وعداء، بعد تشاور وتحاور سليمين.

فالمحور الأول الذي يقضي على محور التنازع المحظور هو أن يطلب كلٌ الحق المرام مهما كان عند منازعه، وأن يرفض كلٌ الباطل مهما كان عنده.

ثم الثاني أن يُمحور فطرته عقليته السليمة على ضوء كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه و آله.

ومن ثم إذا بقيت خلافات فإلى شورى بينهم على ضوء هذين الأصلين الأصيلين، فقد لا تبقى إذاً خلافات إلا قليلة ضئيلة هي معفوة مغفورة لأنها من قضايا عدم العصمة العلمية والمعرفية.

ذلك، فليس فووجهات النظر المختلفة هي السبب الرئيسي للخلافات، إنما هى حين تكون القيادة للأهواء والشهوات والإنيات والأنانيات، وإنما هو وضع الذات في كفة محادة لكفة الحق أم غير محايدة لها أم قابلة للحق إذا اتبع هواه.

فإذا استسلم الإنسان لسليم الفطرة والعقلية بقيادة الله في كتابه، ثم قيادة الرسول في سنته فقد انتفت الأسباب الرئيسية للتنازعات، وبقيت بقية قليلة هي بالنهاية

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٧٨

حصيلة عدم العصمة فاختلاف وجهات النظر رغم وحدة الأصل الصالح ورفض الأصل الطالح.

فإن كنت عادلًا تتحرى عن الحق فلتكن عادلًا في الإقبال إلى الحق وقبوله، فحين ترى الحق عند منازعك فتقبله ولا تفتكر أنك- إذاً- مغلوب، بل أنت غالب على هواك في تقبُّل الحق عند من سواك، إنما المغلوب هو مغلوب الهوى، والغالب هو الغالب على الهوى.

فحين يكون الحق هو المحور المبتغى فأنت الغالب على أية حال، وحين تكون الهوى هي المحور المبتغي فأنت المغلوب على أية حال، فلابد للسالك في سبيل الحق من التصبُّر والصمود أمام نزعات الهوى ونزعات الشيطان الذي يأمرها، فهو الزاد العظيم مع الإيمان بالله في هذه الرحلة الطويلة المليئة بالأشلاء والدماء وحرمانات الهوى.

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ «١»

هنا المعنيون بهؤلاء هم المنافقون الذين خرجوا مع المؤمنين بظاهرة الجهاد في سبيل الله، ولكنهم خرجوا بثالوث منحوس من «بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله»!.

وهكذا المشركون الذين خرجوا في حرب المومنين «وذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه و آله قال يومئذٍ: اللَّهم إن قريشاً قد أقبلت بفخرها وخيلاءها لتجادل رسولك، اللَّهم إن قريشاً جاءت من مكة بأفلاذها». «٢»

---

(١)). سورة الأنفال ٨: ٤٧

(٢)). الدر المنثور ٣: ١٩٠- أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في الآية كان مشركوا قريش الذين نبي الله صلى الله عليه و آله يوم بدر خرجوا ولهم بغي وفخر وقد قيل لهم يومئذٍ ارجعوا فقد انطلقت عيركم وقد ظفرتم فقالوا: لا والله حتى يتحدث أهل الحجاز بمسيرنا وعددنا وذكر لنا ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٧٩

وهنا «رئاء الناس» مما يؤيد أن المنافقين والذين في قلوبهم مرض هم من المعنيين مع المشركين الرسميين، حيث المشرك يخرج قضيةَ مبدءِه فلا رئاء لخروجه، وقد يعني مع المنافقين جماعة من الذين ظلوا بعد الهجرة في مكة رئاء الناس المشركين وكأنهم منهم، أم خرجوا معهم في قتال المؤمنين كأنهم معهم.

ف «بطراً» هو الطغيان في النعمة، فهو هنا بطر الخروج بكل رعونة وتفرُّح وتفرُّج تبديلًا لنعمة اللّه نَعمة ونقمةً: «ونَعمة كانوا فيها فاكهين» و «رئاء الناس» لكي يراهم الناس وهو شرك خفي مع جليه للمشركين والمنافقين، وخفي كما الجلي للذين في قلوبهم مرض من المؤمنين.

ثم «ويصدون عن سبيل اللّه» صداً ظاهراً جاهراً كالمشركين، أم صداً منافقاً خفياً كغيرهم من هؤلاء الخارجين «واللّه بما يعملون محيط».

وهنا «بطراً و ..» لهؤلاء الأنكاد الأغباش تُقابل «واذكروا اللّه كثيراً» و «أطيعوا اللّه ورسوله ولا تنازعوا واصبروا» هناك، ولا يخلو الخروج للقتال من كونه في سبيل اللّه أم في سبيل اللهو، فثالوث «بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل اللّه» هو سبيل اللهو، ومثمَّن «فاثبتوا و .. لا تكذبوا» هو سبيل اللّه، وأين سبيل من سبيل؟.

وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَاغَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتْ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِیءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَاتَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ «١»

هنا مسرح للشيطان صارح وهو صارخ، قائلًا لجنده المشركين: «لا غالب لكم اليوم من الناس» وإنما قال «وإني جار لكم» حيث ظهر بصورة سراقة ولكي يصدقوه فيما يقول «٢» وذلك قبل أن تراءى الفئتان «فلماتراءَت الفئتان نكص على عقبيه وقال

---

(١)). سورة الأنفال ٨: ٤٨

(٢)). الدر المنثور ٣: ١٩٠- أخرج الواقدي وابن مردويه عن ابن عباس قال: لما تواقف الناسأغمى على رسول اللّه صلى الله عليه و آله ساعة ثم سرى عنه فبشر الناس بجبرئيل عليه السلام في جند من الملائكة ميمنة الناس وميكائيل في جند آخر ميسرة وإسرافيل في جند آخر ألف وإبليس قد تصور في صورة سراقة بن جعشم المدلجي يجير المشركين ويخبرهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس فلما أبصر عدو اللّه الملائكة نكص على عقبيه وقال إني بريءٌ منكم إني أرى ما لا ترون فتشبث به الحارث وانطلق إبليس لا يرى حتى سقط في البحر ورفع يديه وقال: يا رب موعدك الذي وعدتني.

وفيه أخرج الطبراني وأبو نعيم في الدلائل عن رفاعة بن رافع الأنصاري قال: لما رأى إبليس ما يفعل الملائكة بالمشركين يوم بدر اشفق أن يخلص القتل إليه فتشبث به الحارث بن هشام وهو يظن أنه سراقة بن مالك فوكز في صدر الحارث فألقاه ثم خرج هارباً حتى ألقى نفسه في البحر فرفع يديه فقال: اللّهم إني أسألك نظرتك إياي.

وفي نور الثقلين ٢: ١٦١ عن المجمع بعد ذكر القصة: فلما قدموا مكة قالوا: هزم الناس سراقة فبلغ ذلك سراقة فقال: واللّه ما شعرت بمسيركم حتى بلغني هزيمتكم فقالوا: إنك أتيتنا يوم كذا فحلف لهم اسلموا علموا أن ذلك كان الشيطان- عن الكلبي وروى ذلك عن أبي جعفر وأبي عبد اللّه عليه السلام.

وعن تفسير العياشي عن عمرو بن أبي مقدام عن أبيه عن علي بن الحسين عليهما السلام قال: لما عطش القوم يوم انطلق علي عليه السلام بالقربة يستقي وهو على القليب إذ جاءت ريح شديدة ثم مضت فلبث ما بدا له ثم جاءت ريح أخرى ثم مضت ثم جائته أخرى كان أن يشغله وهو على القليب ثم جلس حتى مضى فلما رجع إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله أخبره بذلك فقال رسول اللّه

صلى الله عليه و آله أما ريح الأول فيها جبرئيل مع ألف من الملائكة والثانية فيها ميكائيل مع ألف من الملائكة والثالثة فيها إسرافيل مع ألف من الملائكة وقد سلموا عليك وهو مدد لنا وهو الذين رآهم إبليس فنكص على عقبيه يمشي القهقري حين يقول: «إني أرى ما لا ترون ...»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٨٠

إني بريءٌ منكم إني أرى ما لا ترون» وهم جنود الملائكة «إني أخاف اللَّه» أن يعاقبني ويعجل في أجلي الموعود «واللَّه شديد العقاب».

فلقد «زين لهم الشيطان أعمالهم» ومن إعمالهم كافة قدراتهم لمواجهة المؤمنين، زين بما ألقى في صدورهم ثم زوّده بقوله: «لا غالب لكم اليوم من الناس» خلافاً لما أري رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وقد يروى عنه صلى الله عليه و آله قوله: ما رئي إبليس يوماً هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغيظ من يوم عرفة وذلك مما يرى من تنزيل الرحمة والعفو عن الذنوب إلا ما رأى يوم بدر، قالوا يا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وما رأى يوم بدر؟ قال: أما إنه رأى حبريل يزع الملائكة». «١»

وقد تأبى نصوص من الآية أن يكون موقف الشيطان من المشركين في بدر

---

(١)). رواه مالك في الموطأ بسند متصل عن طلحة ابن عبيد اللَّه كريز

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٨١

كموافقة الأخرى معهم بأن وسوس إليهم، لمكان: «وقال لا غالب لكم اليوم- وإني جار لكم- إني بريءٌ منكم- إني أخاف اللَّه» حيث الوساوس الشيطانية عامة ليست فيها كهذه القالات الخاصة، ثم كيف ينكص الشيطان على عقبيه وهو غير ظاهر، فمم يخاف إذاً حتى ينكص إلّا إذا كان ظاهراً في المسرح، وبكل مصرح من قالِه وفعاله.

وهل ترى للشيطان هذه القوة القاهرة أن يتصور بصورة الإنسان فيضلَّه ويُدلَّه؟ إذاً فله أن يجند جنوده كما اللَّه يجند الملائكة فيهزَمَ المؤمنين!.

كلّا، فإن اللَّه لم يخوِّله من ذلك شيئاً ولن، وهنا تصوُّرة بصورة الإنسان كان لطالح المشركين أن انغرُّوا به، ولصالح المسلمين أن تغلَّبوا عليهم، ثم هو حجة زائدة على المشركين حيث ظنوه سراقة ثم تبين أنه غيره «ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حيَّ عن بينة».

ولقد كانت هنا مقارنة في ثالوث: الشيطان- المشركين- والمنافقين:

إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ «١»

هنا المقابلة بين المنافقين والذين في قلوبهم مرض تعني ذكر العام بعد الخاص، فالآخرون- إذاً- هم المشركون، والمنافقون غير الرسميين من ضعفاء الإيمان، أم هؤلاء الذين أسلموا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم قائلين «غرَّ هؤلاء» المؤمنين «دينهم» إذ يقابلون على قلتهم عَدداً وعُدداً هؤلاء الكثرة القوية من المشركين، والجواب كلمة واحدة «ومن يتوكل على اللَّه فإن اللَّه عزيز حكيم» فقد يَنصر هؤلاء القلة المؤمنة على هؤلاء الكثرة الكافرة كما فعل. أجل والفئة الكثيرة غير المتوكلة على اللَّه ليست لتتغلى على الفئة القليلة المتوكلة على اللَّه، «فإن اللَّه عزيز» يعز المتوكلين عليه «حكيم» يضع النصرة مواضعها الصالحة، فالمنافقون والذين في قلوبهم مرض هم مع المشركين ليسوا ليدركوا أسباب الإنتصار والهزيمة المستورة

---

(١)). سورة الأنفال ٨: ٤٩

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٨٢

وراء الأستار، وإنما يرون مظاهر دون أن تهديهم بصيرة إلى مساير ومصايرها «يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون» فلا جرم- إذاً- يظنون المؤمنين في مسرح بدر وما أشبه مغرورين مخدوعين بالدين، واردين موارد الهلكة بتعرضهم لقتال المشركين.

ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ... قتال مستمر حتى النصر في قيام المهدي عليه السلام

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ «١»

ضابطة فقهية كلامية هي بصيغة السنة: «الإسلام يجب- يهدم- ما- كان- قبله» «٢» ومهما كانت هذه الرواية ضعيفة السند ومحدودة الدلالة، فهذه الآية تجبر كسرها فيهما. «٣»

هنا «الذين كفروا» طليقة تحلّق على كل ألوان الكفر إلحاداً وإشراكاً وكتابياً، ف «إن ينتهوا» تعني الإنتهاء عن الكفر أيا كان بكل مخلفاته، فهو الإنتهاء المطلق دون

---

(١)). سورة الأنفال ٨: ٣٨

(٢)). الدر المنثور ٣: ١٨٤- أخرج ابن أحمد ومسلم عن عمرو بن العاصي قال: لما جعل اللّٰهالإسلام في قلبي أتيت النبي صلى الله عليه و آله فقلت: أبسط يديك لأبايعك فبسط يمينه فقبضت يدي قال: مالك؟ قلت أردت أن تشترط، قال: تشترط ماذا؟ قلت: أن يغفر لي قال: أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله وان الهجرة تهدم ما كان قبلها وإن الحج يهدم ما كان قبله»

(٣)). أذكر حينما كنت بالنجف الأشرف في هجرتي إلى اللّٰه من شر الطاغوت: الشاه عليه لعنته اللّٰه، وكنت أتردد إلى مجلس الاستفتاء للمرجع الديني الكبير السيد الخوئي، مشاورة في مختلف الفتيا، وأنا متكفل الجانب الفقهي القرآني إضافة إلى سواه، ذكر فيما كان يحققه في أسناد الروايات أنني وجدت حديث الجب غير مسنود فلا يصح أن يفتي به، فتلوت عليه هذه الآية قائلًا: إذا كان حديث الجب ضعيفاً فآية الجب قوية، فاستطار حيرة وقال: حقاً نحن بعيدون عن كتاب اللّٰه، نفتش بعد ردح بعيد من الزمن عن سند حديث الجب، غافلين أن هناك آية الجب هي أقوى دلالة وأظهر، ولقد كانت أمثال هذه النبرات القرآنية مما يغيظ جمعاً من الجاهلين بالقرآن، التاركين إياه إلى سواه

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٨٣

مطلق الإنتهاء، حيث المتعلَّق للإنتهاء هنا هو الكفر، فان انتهى عن بعضه لم ينته عن كفره حيث الباقي أيضاً كفر، إذاً فقد يعني الإنتهاء عن الكفر بأسره وتمامه، انتهاءً نهائياً عن أسره، ثم «يغفر لهم ما قد سلف» تحلق الغفر على كل «ما قد سلف» كتشجيع على إيمان، وإمحاءً لصدود قد تمنع عن الإيمان، وهل إذا يغفر للكافر ما قد سلف فبأحرى المؤمن الفاسق إذا لا يُجرم المؤمن عما يمنح الكافر ترغيباً إلى إيمان؛ ولكن كفارات المؤمنين مقررة مفصلة، ولا يقأس المؤمن بالكافر، فالواجبات التي تركها حال إيمانه عليه أن يأتي بها، ثم المحرمات أن يستغفر عنها، والتعديات المالية والعِرضية والنفسية أن يجبرها، حيث التوبة لها حدود محددة في الكتاب والسنة.

وترى «ما قد سلف» تشمل إلى حقوق اللّٰه حقوق الناس؟ والغفر عن حقوق الناس ظلم بحق الناس «وأن اللّٰه ليس بظلام للعبيد»!.

هذا الغفر ليس إلّا قضية الرحمة الواسعة الربانية، فقضيته ألا يشكّل زحمة للناس، فقد يختص بما هو حق اللّٰه تعالى فحسب، أم ويشمل حقوقاً للناس لا سبيل للمنتهي عن كفره إلى إحقاقه، إذاً فاللّٰه هو الذي يغفر إرضاءً لصاحب الحق يوم الحساب. «١»

فالأصل القرآني في حقل الإنتهاء عن الكفر هو الغفر دون شرط، اللَّهم إلا ما فيه ظلم بالناس و «ان اللَّه ليس بظلام للعبيد».

إذاً ف «يغفر لهم ما قد سلف» مخصَّصة بما يكون غفره ظلماً بحقوق الناس، وليست غاية ترغيب الكفار إلى الإيمان مما يبرر الوسيلة الظالمة، اللَّهم إلا أن يحمِّل المؤمنون الغفر عما لحقهم من الكفار حالة كفرهم من ظلم، فلصالح الإيمان ترغيباً إليه يتحمل المؤمنون غفرهم؟ وهو محدَّد بما يدل عليه بصورة قاطعة وبينة، فإلى

---

(١)). نور الثقلين ٢: ١٥٤ في تفسير العياشي عن علي بن دراج الأسدي قال: دخلت على أبي جعفر عليه السلام فقلت له: إني كنت عاملًا لبني أمية فأصبت مالًا كثيراً فظننت أن ذلك لا يحل لي، قال عليه السلام: فسألت عن ذلك غيري؟ قال: قلت قد سئلت فقيل لي: إن هلك ومالك وكل شيء لك حرام، قال: ليس كما قالوا لك، قلت: جعلت فداك فلي توبة؟ قال: نعم توبتك في كتاب اللَّه «قل للذين كفروا ...»

مظان هذه الأدلة ومقاطعها: «والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم». «١» وعلَّ من إصلاح بالهم ما يتكلفه اللَّه من جبر نقصهم فيما قصروا في حقوق الناس إلى حقوق اللَّه.

«ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم» «٢» ولعل التكفير يختص بحقوق اللَّه المتروكة، فقد كانوا مكلفين بالفروع كما الأصول، ولكن الإيمان يكفر كل تقصير في الفروع ما لم يكن ظلماً بحقوق الناس.

ومن ذلك التكفير ما وعد جمع من المؤمنين: «فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقُتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند اللَّه واللَّه عنده حسن الثواب». «٣»

كما و «ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلًا كريماً». «٤» فالذي يؤمن بعد كفره «يغفر له ما قد سلف» بصورة طليقة اللَّهم إلّا ما يكون غفره ظلماً بآخرين، وهكذا الذي يقتل في سبيل اللَّه، ولكن الذي يجتنب كبائر المنهيات تكفر عنه- فقط- سيئاته، ثم هنا ما يكفر من السيئات دون كلها: «إن تبدوا الصدقات فنعمَّا هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم واللَّه بما تعملون خبير». «٥»

فمن الصالحات ما يكفر أسوء الأعمال: «والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون. لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين. ليكفر اللَّه عنهم أسوء الذي

---

(١)). سورة محمد ٤٧: ٢

(٢)). سورة المآئدة ٥: ٦٥

(٣)). سورة آل عمران ٣: ١٩٥

(٤)). سورة النساء ٤: ٣١

(٥)). سورة البقرة ٢: ٢٧١

عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون». «١»

ومنها ما يكفر كل السيئات كالإيمان وعمل الصالحات والتقوى والشهادة في سبيل الله: «ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم». «٢» «ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته». «٣»

ذلك، ولكن تكفير السيئات عن المؤمن علَّ نطاقه أضيق من «يغفر لهم ما قد سلف» للكافر، فالإيمان بعد الكفر يكفِّر كل ما قد سلف، اللهم إلا ما لا يغفر من حقوق الناس حتى يغفره صاحبه، أو يحمله الله على ذلك الغفر، والتقوى وترك كبائر المنهيات وفعل كبائر الحسنات والشهادة في نطاق الإيمان يُغفر بها كل السيئات وهي الصغائر دون الكبائر، وأما «الذي جاء بالصدق وصدق به» ف «ليكفر الله عنهم أسوء الذي عملوا ..» ثم ومن الحسنات ما تبدل السيئات حسنات وذلك فوق تكفيرها: «إلا من تاب وآمن وعمل عملًا صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً. ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً». «٤»

ذلك، وبصورة عامة لا يعني غفر ما سلف، وتكفير السيئات كلًا أو بعضاً إلا غفر ما يجوز غفره بميزان العدل والرحمة دون ما لا يجوز كحقوق الناس اللَّهم إلّا ما يجبره تعالى كما يراه هنا أم في الأخرى وهذا بحاجة إلى قاطع الدليل فلا تكفيه عمومات أو إطلاقات الغفر عما سلف أم تكفير السيئات.

فالآيات بالنسبة للذين ينتهون عن كفرهم إلى إيمان، هي كلمة واحدة: «نكفر عنهم سيئاتهم» وما أشبه، وأوسع من الكل «يغفر لهم ما قد سلف» حيث تشمل كافة

---

(١)). سورة الزمر ٣٩: ٣٥

(٢)). سورة الأنفال ٨: ٢٩

(٣)). سورة التغابن ٦٤: ٩

(٤)). سورة الفرقان ٢٥: ٧١

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٨٦

التقصيرات في ترك واجبات واقتراف محرمات، ما يرتبط بحقوق الله، لا وحقوق الناس حيث الغفر عنها دون رضاهم ظلم.

ثم بالنسبة للمؤمنين المتقين- الشهداء في سبيل الله- التاركين كبائر المنهيات- العاملين كبائر الواجبات، لهم تكفير السيئات.

ثم لكامل التوبة حيث يتلوها العمل الصالح الذي أصلح ما أفسده تبديل لسيئاتهم حسنات.

وفي إعطاء الصدقات تكفير لبعض السيئات دون كلها، وعلها السيئات المالية.

ذلك «إن ينتهوا» دون عود «وإن يعودوا فقد مضت» في العائدين إلى كفرهم «سنة الأولين» فإنه إرتداد جاهر عن الدين، وله حكمه كما تقتضيه الحكمة العادلة الربانية.

ذلك، فعلى سواء أن يكون لحديث «الإسلام يجب ما قبله» سند صالح أم لا، حيث يؤخذ منه ما يوافق الآية ولأن أصل الجَبِّ هو احتزال السنام من أصله فكأنه صلى الله عليه و آله جعل الإسلام مستا صلًا لكل ذنب تقدم الإنسان قبله حتى لا يدع له جناية يُحذر عاقبتها، ولا معرَّة يسوء الحديث عنها، بل تعفى على ما تقدم من السؤآت، وتحثوا على ما ظهر من العورات، اللَّهم إلّا ما يحتاج العفو عنه إلى مكفر زائد.

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَاتَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلهِ فَإِنْ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ «١»

«وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين للّهفإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين». «٢»

إن القتال الإسلامي لا ينحو منحى تفتُّح البلاد توسعياً قضيةَ القدرة الغالبة، والزهوة المتآلبة، بل هو- فقط- دفاع سلباً لأيَّة «فتنة» فإيجاباً ل «الدين كله للّه» فلا يهدف- إذاً- إلا تحقيق كلمة «لا إله إلا اللّه».

ولأن «الفتنة» هي «أكبر من القتل» «٣» و «» أشد من القتل» «٤» فهي بأحرى منه

---

(١)). سورة الأنفال ٨: ٣٩

(٢)). سورة البقرة ٢: ١٩٣

(٣)). سورة البقرة ٢: ٢١٧

(٤)). سورة البقرة ٢: ١٩١

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٨٧

سماحاً وفرضاً للقتال دفاعاً عن الفتنة إذا كانت فتنة عن الدين بمختلف حلقاته وحقوله.

ولا تعني «قاتلوهم» مقاتلين خصوصاً في زمان أو مكان خاص، إذ لا يمكن إزالة الفتنة ككل وإيجاب الدين كله للّهلجماعة خاصة من المسلمين، اللّهم إلّا ما سوف يحصل بقوات صاحب الأمر عجل اللّه تعالى فرجه الشريف، وأمر القتال هنا أمر الحال وان شمل المستقبل، دون اختصاص بالإستقبال.

إذاً فذلك أمر باستمرارية القتال على مدار الزمن الإسلامي كسياسة فالعَلَم الأحمر للقتال في سبيل اللّه لا يتبدل بالأخضر المصالحة التامة حتى يتحقق «لا تكون فتنة ويكون الدين كله للّه».

فأما إذا لم ينتج القتال إلّا مزيد الفتنة، أم لا فتنة ولا سلب فتنة، أم «جنحوا للسلم فاجنح لها» أما في هذه الموارد فمواصلة القتال لا تبرَّر بأيّ مبرر، وكما في كتاب الإمام علي لمالك الأشترّ: «ولا تدفعن صلحاً دعاك اللّه عدوك وللّه فيه رضىً، فإن في الصلح دعة لجنودك وراحة من همومك، وأمناً لبلادك، ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه، فإن العدو ربما قارب ليتعقل، فخذ بالحزم، واتهم في ذلك حسن الظن ..».

ذلك ليرى اعداء الإسلام أنه ليس شرعة تفتُّح وتغلب، إنما هي شرعة رحمة وتطلبٍ للحق، لينة الأريكة لمن استلان، وشديد المعركة على من يهاجم شرعة اللّه.

ثم القتال في سبيل اللّه إسلامياً غير مسموح إلا دفاعاً عن النفس أو العقيدة، فالفتنة النفسية، ثم العقيدية التي هي أشد وأكبر من القتل، هاتان الفتنتان هما اللتان يُسمح فيهما بالقتال لزاماً، فلأن قتل من لا يقاتل ولا يفتتن عقيدياً هو اعتداء دون مقابل، أم بمقابل أقل منه، فضابطة «من اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم» تحصر سماح القتال في حقله بما فيه اعتداءٌ بالمثل أم بأدنى، كما في المقاتَلين المفتتنين حيث «الفتنة أكبر- أشد من القتل».

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٨٨

الحرب الخطوة الخطوة على مد الزمن حتى تنتهي إلى زمن صاحب الزمن حيث يخطوا الخطوة الأخيرة من «قاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله للّه» إزالةَ الفتنة أو إخماد نائرتها قدر المستطاع، قتالًا بارداً صداً عن الدعايات الكافرة، وآخر حاراً حينما لا تنفع الباردة أم لا تكفي ولا تكافىء فتنتهم.

فذلك تقرير حاسم دائم للحركة الإسلامية السامية على مدار الزمن في مواجهة الفتنة أينما كانت وكيفما حصلت لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

فليس يكفي- فحسب- أن تكون أنت مسلماً والجو الفاسد بالدعايات المضللة يفتتن البسطاء عن الحق المرام.

لأن الله لا يكلف نفساً إلّا وسعها، فلا تعني «قاتلوهم» إلا قدر المستطاع الصالح للكتلة المؤمنة.

فأما إذا فنوا أو ضعفوا بقتالهم، أم يزول الأهم لهم بذلك وما أشبه من محاظير القتال- إذاً- فلا قتال، وكما لم يكن في العهد المكي.

ذلك، فالمأمور بذلك القتال الحاسم الجاسم كل الكتلة المؤمنة على مدار الزمن الإسلامي حتى يأتي دور صاحب الأمر دائرة على دولة الإسلام شاملة كل المعمورات.

ذلك، ولأن ضمير الغائب في «قاتلوهم» راجع إلى «الذين كفروا» فالقتال المفروض قدر الصالح والمستطاع يعم الكفار كلهم، وهم غير المسلمين ككلّ.

ذلك، ولأن الذين انتهوا عن كفرهم ما كان تكليفهم بالفروع كما على المؤمنين، ولكيلا يصدهم عن الإيمان عبءُ الإتيان بما سلف والجبران لما تخلف، فالصالح في الرحمة الربانية وسياسة الجذب إلى الإيمان أن «يغفر لهم ما قد سلف» ولكنه محدد بما ليس من حقوق الناس، وان كان منها فبما يجبره الله حتى يرضي المهضومين في حقوقهم.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٨٩

ثم وعلى كتلة الإيمان التنازل عن حقوقهم المهضومة فيما يؤمن الهاضمون إياها إكراماً للإيمان، وتنازلًا عن مصالحهم الشخصية للمصلحة الجماعية لكتلة الإيمان.

ذلك، وكضابطة في غفر الله أياً كان ولأيٍ كان، لا مجال له ككل إلا حقوق الله وأما حقوق الناس فلا إلا أن يدل دليل خاص عليه كأن الله يرضي المستحقين، أو أنه يريد منهم أن يرضوا، ولا نجد هذا أو ذاك بالنسبة لإنتهاء الكفار عن كفرهم، فإنما يغفر لهم ما قد سلف من واجبات متروكة أو محرمات مفعولة في حقل حقوق الله فقط.

هذا، ومع كل ذلك فقد يحكم إطلاق «ما قد سلف» شمولًا لحقوق الناس، استسماحاً من الناس المؤمنين هنا وسماحاً من الله في الأخرى كما يصح ويرضى، فإن غَفْر حقوق الناس محظور إذا لم يكن إليه سبيل وإن محتملًا، وقد نجد مثله في مواضع كالتجهيز وولاية اليتامى، والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما أشبه حيث المصلحة العامة العليا اقتضت هضم الحقوق المالية فيها رعاية للأهم الأعم، فقد يكون هكذا الأمر وبأحرى بالنسبة للذين ينتهون عن الكفر، فلا مقيد قاطعاً لحقوق الناس في غفر ما سلف للذين آمنوا.

وحين يعمل مثلث «تاب وآمن وعمل صالحاً» تبديل سيئات المؤمنين حسناتٍ، فبأحرى أن يغفر عن كل السيئات لمن انتهى عن كفره ترغيباً وتشويقاً، لا سيما وأن تكليف الكفار بالفروع أخف من تكليف المؤمنين بها، فلتغفر لهؤلاء ما سلف بأحرى منهم.

اصلاحات حربية بين المسلمين المتحاربين

وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ «١»

حبب الايمان بالله، فصرتم تحبون الله، اذاً فاتبعوا رسول الله: «قل ان كنتم تحبون

---

(١)). سورة الحجرات ٤٩: ٧

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٩٠

اللّٰه فاتبعوني يحببكم اللّٰه ويغفر لكم ذنوبكم». «١» ف «هل الدين الا الحب»؟

كلا!، انما «الدين هو الحب والحب هو الدين»!. «٢»

وتحبيب الايمان الى الانسان كتقدمة لتزيينه في قلبه، تحبيب «الى» وتزيين «في» فالدعاة الى اللّٰه من جانب، بما يحملون رايات الدعوة الحنونة الحبيبة، وحب الانسان فطرياً وعقلياً للايمان- بما فطر اللّٰه- من آخر، يجعلان- متعاملين- ركيزة لحب الايمان في روح الانسان، عقلًا وصدراً والى قلبه، ومن ثم يأتي دور تركيزة في القلب «وزينه في قلوبكم» تعاملًا بين عقيدة الايمان وعمل الايمان فيزدادوا ايماناً على ايمان: «والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم». «٣»

«أولئك كتب في قلوبهم الايمان وايديهم بروح منه». «٤»

فلا تزيين للايمان في قلب ما لم يدخل فيه، ولا يدخل فيه، إلا من يتحبب له بعد ما حببه اللّٰه اليه، وقبل هذا وذاك لا تحبُّب ولا تزيُّن بالايمان حتى يكره الكفر والفسوق والعصيان فيكرهها وقد فعل:

وكرَّه اليكم الكفر والفسوق والعصيان» فالكفر مقابل الايمان، والفسوق خروج عما يقتضيه الايمان من طاعة الى تخلف، فهو اذاً سبب موصل الى العصيان، وقد كره اللّٰه لنا هذا الثالوث المنحوس مع ما حبب الينا الايمان، «فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر» (اذ لا جبر ولا تفويض بل امر بين امرين) فمن يختار الايمان زاده اللّٰه ايماناً على ايمان، ومن يختار الكفر والفسوق والعصيان ختم اللّٰه على قلبه بطابع اللاايمان،

---

(١)). سورة آل عمران ٣: ٣١

(٢)). (١ و ٢) محاسن البرقي باسناده عن ابي جعفر الباقر عليه السلام في حديث له قال يا زياد ويحك وهل الدين الا الحب ألاترى الى قول اللّٰه «ان كنتم تحبون اللّٰه فاتبعوني يحببكم اللّٰه ويغفر لكم ذنوبكم» الا ترون قول اللّٰه لمحمد صلى الله عليه و آله: «حبب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم» وقال: «يحبون من هاجر اليهم» وقال عليه السلام: الدين هو الحب والحب هو الدين

(٣)). سورة محمد ٤٧: ١٧

(٤)). سورة المجادلة ٥٨: ٢٢

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٩١

فآية تحبيب الايمان لا تجعل كل المخاطبين من المؤمنين غير العاصين، او قد جمعت بينهم كلهم في ذلك ترغيباً وتشويقاً وتوحيداً لصفوف الايمان، لا أنهم كلهم بالغون تلك الدرجة من الايمان، وانما اللّٰه ينبههم بما فعل فناظر ماذا يفعلون، وهم درجات في ايمانهم كما أن سواهم دركات في كفرهم وفسوقهم وعصيانهم، و «اولئك» الأكارم المؤمنون «هم الراشدون» الذين رشدوا في صراط الحق، لا بحول وقوة منهم فقط- وانما:

«فضلًا من اللّٰه ونعمة واللّٰه عليم حكيم»: عليم بعجزكم، حكيم في فضله لكم:

«فلولا فضل اللّٰه عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين» «١» «ولولا فضل اللّٰه عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان الا قليلا». «٢» «ولولا فضل اللّٰه عليكم ورحمته ما زكى منكم احد ابداً». «٣»

هذا طرف من أدب الاصلاح فيما يفسد بينكم من فرية سوء ام ماذا، استصلاحاً لما بينكم، ومن ثم تنتقل المسؤولية إلى الإصلاح في معارك اخرى كما بين اخويكم:

وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ «۴»

رغم ان الاخوة الصادقة والصلح البالغ هما لزام الايمان كما خوطبوا به، الا أن هناك، وبين غير الكاملين في الايمان، او الجاهلين والمتجاهلين شرائط الايمان، هنا وهناك نزوات ونزعات واندفاعات فخصامات وحميات وحماسات فتفككات ومنازعات شاسعة عن ساحة الايمان، قد تتخطى التلاسنَ والتضارب الى مقاتلات، رغم أن الايمان قيد الفتك ولكن «وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون». «۵» غير

---

(١)). سورة البقرة ٢: ۶۴

(٢)). سورة النساء ۴: ٨٣

(٣)). سورة النور ٢۴: ٢١

(۴)). سورة الحجرات ۴٩: ٩

(۵)). سورة يوسف ١٢: ١٠۶

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ۴٩٢

خالصين في الايمان الموحد، ومهما يكن من شيءٍ فالمؤمن لا يحارب أخاه إلا على تكلف، وعلَّ الاقتتال الملمَّح اليه، دون التقاتل- يعنيه «اقتتلا» لا «تقاتلا» حيث الاقتتال افتعال للقتال متكلَّف وليس فعلًا مقصودا وبين المؤمنين الاخوة!

وإلا «وما كان لمؤمن ان يقتل مؤمناً إلا خطأ ... ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاءه جهنم خالداً فيها وغضب اللَّه عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً» «١» فهل هو بعدُ مؤمن؟!.

فلابد إذاً من صيانة إلهية تُصوِّن على هذه الفوارق الدامية، وتعتلج ما تختلج في خَلد الايمان من فكرة الاقتتال، ومن ثم واقعه اذا حصل، ألا وهي استنفار سائر المؤمنين لمواجهة المشكلة الداخلية إصلاحاً، مهما كان الثمن غالياً ولو كان القتال قضاء على قتال.

وترى من هم المأمورون بالإصلاح، او القتال اذا لزم الأمر؟ فهل إنه أمر فوضى بين دويلات صغيرة اسلامية- ان صح التعبير- وبين شعوب متشعبة حسب الدويلات، فيزيد ويلات على ويلات، لانهم مختلفون في اجتهادات أو سياسات؟!.

كلا! إنه أمر موجه إلى سائر المؤمنين العائشين تحت قيادة واحدة إسلامية، دولة إسلامية واحدة بشعبها الموحد، لا تفصل بينهم قوانين أو حدود أم ماذا، فالآية هذه واضرابها تلميح أو تصريح بضرورة تأسيس دولة واحدة إسلامية، لا دويلات هي ويلات على المسلمين، وظروف إستعمارات للكافرين.

ثم ترى: وإذا لم تكن كما الآن، فهل المؤمنون يعيشون مكتوفي الأيدي عن كل شارد ووارد فتكثر الفوضى، كلا! فإن إزالة الظلم والضيم واجبة على طول الخط، مهما اختلف درجاتها، فعلى المؤمنين العائشين في أرض المعركة أن يصلحوا بين أخويهم ان استطاعوا، على قيادة محلية عاملة عادلة، وإلا فليستنصروا مَن قِبلهم حتى تحصل الكفاية، فإنه فرض كفائي وليس عينياً على المؤمنين كافة، اللهم إلا إذا لزم استنفار المؤمنين كافة، فإن الإصلاح الداخلي ركن يرتكن إليه المؤمن، على ضوء

(١)). سورة النساء ٤: ٩٢- ٩٣

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٩٣

تقوى للّهالتي هي ركن الأركان، ومن ثم الإصلاح الخارجي.

وترى أفي اختلافِ ضميري: «اقتتلوا وبينهما» تلميح معنوي؟ ام- فقط- سماح أدبي أن يعبر عن التثنية بالجمع كما في نظائرها؟ عله تلميح الى واقع في هكذا اقتتال بطبيعة الحال، ان الأثنينية هي البداية في القتال، ثم تنمو وتزهوا من طائفتين إلى طوائف، بتحزبات جزئية داخل كل منهما، ثم يرجع المقتتلون في محاولة الإصلاح كما كانوا طائفتين، حيث المصلحون لا يستطيعون إصلاحاً إلا بتضييق دائرة الخلاف إرجاعاً إلى الأثنينية البادئة ثم الوحدة المرادة-: فهم بداية ونهاية اثنتان «طائفتان ..

بينهما .. احداهما» بينهما جمع «اقتتلوا» فهم في دور الإصلاح اثنتان- بغيا: «فان بغت إحداهما على الأخرى» وفيئاً إلى أمر اللّه: «حتى تفيءَ إلى أمر اللّه».

وهذا الوجه المعنوي يوافق الأدب اللفظي أيضاً، فإن أقل الجمع إثنان، فلا تفنُّن هنا في التحول من جمع الاثنين إلى أكثر، إلا تلميحاً إلى معنى كهذا وإضرابه.

ثم الطائفتان المتقاتلتان لهما حالات من حيث البغي المقصود وسواه:

١- أنهما باغيان من كل جهة مقصودة «فأصلحوا بينهما» إزالة للبغي بينهما «فإن بغت إحداهما على الأخرى» إن استمرت في البغي، او تحولت إلى بغي آخر او بغي الأخرى «فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر اللّه».

٢- أو انهما باغيان جهلًا وسوءَ تفاهم دون تقصُّد؟ فكذلك الأمر، كما وإذا استمرا في بغي مقصود وسواه فقاتلوهما حتى يفيئا إلى أمر اللّه قتال هو نضال للإصلاح وإن شملهما إذا بغتا.

٣- أو ان إحداهما باغية قصداً أو سواه، ثم عند الإصلاح استمرت أو غيرت بغيها إلى وجه آخر، أم تابت ولكن الأخرى بغت «فقاتلوا التي تبتغي» سواء أكانت البادئة هي المستمرة، أو الأخرى هي البادئة بعد الأولى، فلا يكون القتال الإصلاح إلا مع التي تبغي بعد محاولة الإصلاح.

فالمصلحون يبتدئون بالإصلاح الموعظة والإيضاح «فأصلحوا بينهما» بأية

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٩٤

وسيلة ممكنة عظة وبرهاناً، فمن يتجاهل هذه اللغة الواعظة، فلغة القتال «فقاتلوا التي تبغي» ولكن إلى حدٍّ وليس فوضى الإنتقام: «حتى تفيء إلى أمر اللّه» الذي تحققونه في الإصلاح، والذي أمر من تحقيق الأخوة الايمانية «فإن فاءت» الباغية: كرهاً هنا «فأصلحوا بينهما» حيث الفيء إلى أمر اللّه طوعاً هناك هو الصلح بعينه فلا حاجة في الإصلاح، ولكنما الفيء كرهاً هنا بحاجة إلى إصلاح بعده، يحدده عند حده لكي لا يتكرر، وذلك بتحكيم بنود الاتفاق، ولكنه «بالعدل» دون أن تتحكم فيه روح الانتقام «واقسطوا» هنا وهناك «ان اللّه يحب المقسطين».

فهنا إصلاح اول طوعاً، وإصلاح ثان كرهاً، وقتال قبل الثاني إذا لزم الأمر، وليكن هذا المثلث المصلح عدلًا وقسطاً، وهكذا ينتهي دور الإصلاح بين المؤمنين إلى حفاوة وحنان وعدل وإحسان بفضل الملك المنان واللّه هو المستعان.

هكذا تؤمر الجماعة المؤمنة أن تتوسط مُصلحة عادلة مقسطة بين المؤمنين، فضلًا عما بينهم وبين الكافرين، فليكونوا مع هؤلاء ضد أولاء عدلًا وايماناً، فماذاترى في دويلة تدعي الايمان النضال، تم تدخل معركة الاقتتال بين مسلمين ومسيحيين صهاينة، ثم لا تحارب إلا المسلمين لصالح الصليبيين الإسرائيليين، وتسمي هذه الوحشية العارمة إصلاحاً؟ أنا لا أدري، اللهم ارجعنا إلى الإسلام واجمع شمل المسلمين، واجعلنا كما أمرتنا اخوة مؤمنين:

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ «١»

إنه ليس الايمان- فقط- علاقة شخصية بين المؤمن وربه، بل وعلاقة أخوية جماعية أيضا بينه وبين سائر المؤمنين، بل وليست بينهم أية علاقة ورباط إلّا أخوة ايمانية، كل ذلك بدافع الايمان وسناده، يلمح له الحصر: «إنما» التي تحصر كافة المناسبات بين المؤمنين بالأخوَّة «إنما المؤمنون إخوة» لا «إنما الأخوة المؤمنون» فإن هناك أخوَّات أخرى بين سائر الناس ليست بالتي تحصر مناسباتهم بالأخوة

---

(١)). سورة الحجرات ٤٩: ١٠

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٩٥

الألفة الخلة، بل وتتبدل- وعلى أقصى الحدود بعد الموت- بالعداوة: «الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين» «١» وإذ كانت هذه حالة الخلة غير الايمانية، فما هي حالة سائر الأخوّات التي لا تستلزم الخلة؟.

إن اخوَّة الايمان تشريعية، وواقعية بدافع الايمان، يؤمر المؤمن أن يؤصلها في حياته الجماعية لحد لا تبقى بين المؤمنين إلا الأخوة، وليست هي الأخوة الخلقية كما بين الناس أجمعين، ولا أخوة القرابة الشرعية التي تحرم فقط النكاح، ولا الإقليمية او العنصرية او الحزبية ام ماذا من اخوَّات غير ايمانية، فانها ليست لزاماً بين هكذا إخوة الايمان ف: «المؤمن اخو المؤمن كادجسد الواحد إن اشتكى شيئاً منه وجد ألم ذلك في ساير جسده، وارواحهما من روح واحدة وان روح المؤمن لأشد اتصالًا بروح اللَّه من اتصال شعاع الشمس بها» «٢» ف «هو عينه ومرآته ودليله، لا يخونه ولا يخدعه ولا يظلمه ولا يكذبه ولا يغتابه» «٣»

ف «ان المؤمن ينظر بنور اللَّه ان اللَّه خلق المومنين من نوره وصبغهم في رحمته واخذ ميثاقهم بالولاية على معرفته يوم عرّفهم نفسه، فالمؤمن اخوه لابيه وامه، ابوه النور وامه الرحمة، وانما ينظر بذلك النور». «٤»

هكذا أخوَّة تقتضي بينهم عموم التآزر في عامة الحياة، دون اي تنافر وتناحر ومن ثم اذا شذَّت طائفتان منهم فاقتتلوا، فاخوَّة الباقين معهم تقتضي محاولة الإصلاح الصارم اياً كان الثمن ولو بالقتال مع الباغية حتى تفيء امر اللَّه، دون اغتنام فرصة لأخذ الغنيمة، ولا أن يجهز على جريح منهم او يقتل اسيراً، او يتعقَّب مدبر ترك

---

(١)). سورة الزخرف ٤٣: ٦٧

(٢)). اصول الكافي باسناده الى ابي بصير قال سمعت ابا عبد اللَّه جعفر بن محمد عليه السلام يقول:.

(٣)). المصدر باسناده الى الحارث بن المغيرة عنه عليه السلام:.

(٤)). بصائر الدرجات باسناده عن معاوية بن عمار قال: قلت لأبي عبد اللَّه عليه السلام جعلت فداك هذا الحديث الذي سمعته منك ما تفسيره؟ قال عليه السلام: وما هو؟ قال: ان المؤمن ينظر بنور اللَّه، فقال: يا معاوية؟ ان اللَّه ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٩٦

المعركة، حيث الهدف من قتالهم اصلاحهم، وانما تدور المعركة بين سائر المؤمنين وبين المقتتلين حول فلك الإصلاح الأخوي بدافع الايمان دون المعارك الأخرى كما بينهم وبين الكفار، فان لها شروطها واحكامها الأخرى.

«واتقوا اللّه لعلكم ترحمون» فتقوى اللّه زاد المؤمنين الإخوة في أخوتهم، وزادهم في اصلاحهم بين أخويهم، فهي زادهم في مبدءهم وفي معادهم، يعيشونها على طول الخط.

فكل مفاصلة بين المؤمنين هي خلاف الايمان، وخلافٌ على كتلة الايمان، كمن يهرفون بما لا يعرفون ان جماعة الشيعة الامامية مشركون، ام تاركون الكتاب ام ماذا؟ من افتراءات اختلقها الاستعمار الكافر، واستغل في ذلك جهل جماعة بعيدين عن سائر إخوتهم المؤمنين، ثم أخذ ينفج وينفخ في ابواق الخلافات حتى جعل من فريقي المسلمين مسلمين وغير مسلمين، يفتري كلٌ اخاه بالخروج عن الدين، فلتقطع ألسنة حدادٌ توسِّع هذه الخلافات، ولتكسر أقلام تزيدهم عداءً فعِناءً، وتوحيد كلمة المسلمين على دعائم الاسلام، دون ان يحملهم مختلف الاجتهادات على مباغضات، فللمخطىء اجر واحد وللمصيب اجران، ثم للمفرق اوزارها تحمله الى النار، وكما هو يشعل النار بين المؤمنين الإخوة، فإذ نؤمر ان ندعوا اهل الكتاب الى كلمة سوىء: «يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا اللّه ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً ارباباً من دون اللّه فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون». «١»

فأحرى بنا ونحن مسلمون أن يدعو بعضنا بعضاً الى هذه السواء على سواء، وان نصلح بين اخوينا ونتقي اللّه لعله يرحمنا. «٢»

---

(١)

). سورة آل عمران ٣: ۶۴

(٢)). فقولة من تسمى شيعياً لأخيه المتسمى سنياً: أنت من أهل النار اذ لست من أهل الولاية قولة فارغة هراء، كما ان قولة الآخرين للاولين: انتم مشركون تعبدون الأوثان هراء فارغة، فلماذا هم مشركون؟ ألأنهم يقبلون ضريح الرسول حباً له؟ فهلا تقبلون انتم أولادكم وأحباءكم حباً لهم- ثم ليس التقبيل عبادة مهما كان- وحتى اذا قبل رجل أحد من الاولياء احتراماً له فانه محرم وليس شركاً، فمن قال لكم ان الشيعة الامامية يقبلون ضريح النبي عبودية له، اللهم الا الاستعمار الذي هو من النفاثات في العقد، وهل يقبل عاقل ان جماعة من المؤمنين جاءوا من آلاف الكيلومترات لعبادة الحديد؟ ان هذا الا افك مفترى!.

ثم نقول للاولين لماذا تجانبون اخوتكم في الايمان فجتبون عن الصلات معهم او مصافحتهم او تحادثهم، فقد يقولون ان جهالًا منهم يمسون من كرامتنا لماذا نفتنت في صلاتنا، ولماذا لا تتكفف ام ماذا؟ فنقول للاخرين: هذه عقيدة المذهب هم تابعوها، كما ان لكم غيرها وأنتم متبعوها، فليس لمقلد في مذهب ان يتعرض على مقلد في مذهب آخر لماذا لست على مذهبي، وانما للمجتهدين ان يجادلوا مع بعض وبالتي هي احسن.

ومن طريف المناظرة ان شرطياً قبض على شيعي في الحرم المكي المبارك وأخذه الى مركز الشرطة وهو كان يقرأ القرآن، قائلًا له، لماذا تقرأ هذا الكتاب؟ قال: انه القرآن وهل ان قراءته محظورة في المسجد الحرام؟ قال: لا- ولكن قرآنكم يختلف عن قرآننا! قال: كلا! فخذ هذا القرآن المطبوع في ايران وقاسه على سائر القرآن فلا تجد نقطة اختلاف! قال: ليست لي هذه الفرصة ولكن قل لي لماذا أنت شيعي ولست مسلماً؟ قال: انا شيعي لأنني مسلم سني! قال: كيف يا غبي! قال: يا اخي لأن سنة رسول اللّه تأمرنا ان نشايع باب مدينة العلم علياً! فسكت ومن معه ثم قالوا: هؤلاء لهم قوة الجدال وانما دينهم التقية». فانظر الى هذه المهازل التي اختلقها الاستعمار

فأصبح من جراءته بيت الله الآمن وبلده الأمين محوراً للمعاركات والمضاربات والإفتراءات والله تعالى يقول «وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً». فلنفرض ان الشيعة الامامية– ولا سمح الله– مشركون! فلماذا يسمح لهم دخول الحرمين الشريفين والله تعالى يقول: «انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ...» ولو انهم مسلمون منحرفون، فلتقم جماعة علماء عارفون بدعوتهم إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة، لا بالهتك والفتك والضرب والاهانة، فإن ذلك لا يزداد إلا بعداً ولا يخلف الا مرضاة المستعمرين، الذين جعلوا من مركز الوحدة الاسلامية ميدان المعركة الضاربة، والله المستعان وعليه التكلان. (الفرقان– م ١٦)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٩٧

ثم وإن الإصلاح بين المؤمنين لا يخص حالة التقاتل الحرب، وانما التخالف– ايٌّ تخالف– من شأنه اختلاق الانقسامات والتفرقات، التي تنفصم بها عرى الوحدة، فتنقسم بها الكتلة الواحدة المؤمنة، فتنحسم هيبتهم من قلوب الكتل الكافرة، وخلاف ما يقول الله:

«واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم». «١»

ان الاصلاح هنا– ايَّ إصلاح– يقوم على دعائم العدل والقسط والايمان والتقوى،

---

(١)). سورة الأنفال ٨: ٦٠

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٩٨

على غرار ما يقرره كتاب الله، دون الأهواء والمصلحيات السياسية المجانبة لشريعة الله، ودون الاستبدادات في أية اجتهادات، وانما «امرهم شورى بينهم».

وانه اصلاح ما فسد بين المؤمنين، من عقائدي واقتصادي وسياسي، ومن فردي وجماعي ام ماذا، فليعيش المؤمنون حياة الصلح مع بعض، وليكونوا يداً واحدة على من سواهم.

فعلينا ان نذرف دمعة الدماء، مما نرى بيننا من عداء، تنفث في توسيعها الاعداء، فالله اذاً منا– كما منهم– براء، الا ان نهتدي بهدى الله، ونعتصم بحبل الله.

طاعات وانفاقات في سبيل الله

«يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم».

انه ليس الكفر بالله ومشاقة رسول الله بالذي يحبط فقط أعمال الكافرين، بل وكذلك المؤمنين التاركين لطاعة الله ورسوله، رغم إيمانهم بالله ورسوله، انهم تبطل أعمالهم، فما من شجرة يغرسها الإيمان بالله ورسوله، إلا ويحرقها ظلمات مهما كانت أخف، فالرسول يتلوا عليهم آيات الله البينات، ليخرجهم الله بها من الظلمات إلى النور، قضية الرأفة والرحمة.

وما أسماه تعريفاً بالرسول: «عبده» إذ تخلى عن عبودية وعبادة ما سوى الله، واختص نفسه بالله، فاختص لذلك الكرم كرامات الله: أن يحمل أشرف وأسمى رسالات الله.

ان هناك ظلمات تُظلِم على الفطرة الانسانية فتَظلمها، فإذا أخرج الانسان عنها بمذاكرات الآيات البينات فهو إذاً في النور الذاتي، وليس وراء ذاته إلا ما يزيد فطرته جلاءً واعتلاءً، فالفطرة غير المحجوبة هي النور، وهي المرقى إلى ساير النور «نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء».

لذلك «ليخرجكم من الظلمات الى النور» لا (فيدخلهم في النور) فإنه من دواخل

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٩٩

ذاته فهو داخل فيه محجوباً أو غير محجوب، فإذا ارتفعت الحجب الظلمات فهو إذاً في النور، دونما حاجة إلى طي مسافة بينه وبين النور، فإنما يبتدىء بفطرة اللّه التي فطر الناس عليها ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون، وينتهي الى اللّه النور، منتهى لا نهاية له، فلابدّ للسالك الى هذا النور أن يستمر في السير، ناسياً نفسه وذاكراً ربه.

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَايَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنْ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ «١»

هنا الخطاب الأول العتاب خاص بضعفاء الايمان، الذين يتثاقلون عن الانفاق في سبيل اللّه، قاتل أم لم يقاتل، أنفق في سبيل اللّه أو لم ينفق وإن كانوا درجات.

«وما لكم ألا تنفقوا» ولستم إلا مستخلفين فيما رزقتم، ثم ولا يبقى لكم باقية:

«وللّه ميراث السماوات والأرض» فلا ان الاموال لكم، ولا انهاباقية أو أنتم باقون، فإذا الخلائق فنوا وانقرضوا، خلّوا ما كانوا يسكنونه أو من يساكنونه، وزالت أيديهم عما كانوا يملكونه، وهناك اللّه وارث ما تركوه، وإن كان مالكاً من قبلُ مالكيتهم، فهو الباقي بعد فنائهم، والدائم بعد انقضاءهم.

فلابدّ للمال أن ينفصل عن صاحبه، بالموت فالوبال، أو بالانفاق وسائر الواجب أو الحلال، فهل من عاقل يترك ماله دون تسميد لمستقبل الحال بانفاقه أو قرضه في سبيل اللّه؟!

ويا لها من حجج بالغة دامغة، ناصعة ناصحة، فما الذي يبقى عندها من دوافع الشح لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد!

ثم ينتقل الخطاب إلى المنفقين المقاتلين في سبيل اللّه في ساعتي العسر واليسر، ترى انهما سواء- كلا:

---

(١)). سورة الحديد ٥٧: ١٠

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٠٠

«لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ..» من «المهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة ..» «١» وفترة الشدة قبل الفتح، وأهمه فتح مكة، وبعده فتح الحديبية، الذين أنفقوا وقاتلوا في حالة الأسر والعُسر، أيام كان الاسلام غريباً والخطر قريباً، والمسلمون محاصَرون مطارَدون، قليلون في العدة، قليلون في العُدة، فالانفاق والقتال كانا في عضال، فلا تشوبهما شائبة، مهما كان الانفاق قليلًا لقلة الأموال .. ف «اولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا» إذ أنفقوا وقاتلوا في رخاء ورجاء، ولم يكن لمن قبل الفتح رجاء ولا رخاء، أنفقوا والعقيدة آمنة، والغلبة كائنة أو كامنة، فليكن مَن قبلهم أعظم درجة منهم، مهما كانت النية صافية وعلى سواء، فإن الموانع والدوافع تختلف هنا وهناك، وأفضل الأعمال أحمزها، فالظروف الصعبة الملتوية قبل الفتح تحكم ان المنفقين المقاتلين في سبيل اللّه فيه أفضل ممن انفق وقاتل بعد الفتح مهما كان الانفاق من قبل قليلًا، فليس الكم هو الذي يرجح الميزان، وإنما هو الظرف والباعث وما يمثله من حقيقة الايمان. «٢»

«و» إن كان (كلًا وعد اللّه الحسنى) ولكنما الجزاء الحسنى درجات كما الاعمال والنيات الحسنى في اليسر والعسر درجات (واللّه بما تعملون خبير).

---

(١)

). سورة التوبة ٩: ١١٧

(٢)). (١ و ٢) الدر المنثور ٦: ١٧٢- أخرج سعيد بن منصور عن زيد بن اسلم قال: قال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله يأتيكم قوم من ههنا- وأشار بيده إلى اليمن- تحقرون أعمالكم عند أعمالهم، قالوا: فنحن خير أم هم؟ قال: بل أنتم، فلو ان أحدهم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدكم ولا نصيفه، فصلت هذه الآية بيننا وبين الناس: «لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل اولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا» وأخرج مثله ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري عنه صلى الله عليه و آله وأخرج احمد عن انس في حديث عنه صلى الله عليه و آله دعوا لي أصحابي فو الذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل احد أو مثل الجبال ذهباً ما بلغتم أعمالهم، وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله: لا تسبوا أصحابي فو الذي نفسي بيده لو ان أحدكم أنفق مثل احد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه.

أقول: وكل هذه مقارنة بين من كانوا زمن النبي قبل الفتح وبعده، وأما الذين أتوا ويأتون بعده فلا، فلا فضل إذاً إلا للأفضل أعمالًا، حسب الظروف والنيات ومدى الصعوبات

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏٧، ص: ٥٠١

ومن ثم كما ان المناصرين في ساعة العسر مع النبي صلى الله عليه و آله أفضل درجة ممن ناصره ساعة اليسر، فالذين ينصرون الاسلام بعد دوري الرسالة والامامة، وظروفهم كمن قبل الفتح أو أعسر، فهم أفضل درجة ممن أنفق من قبل الفتح وقاتل، إذهم كانوا في ظلال الرسول صلى الله عليه و آله حاضراً بآياته البينات، والآخرون غُيَّب عن زمن الرسول صلى الله عليه و آله وإنما صمدوا في الايمان لما رأوه وسمعوه من قرآنه المبين وتبيانه المتين، فأحاديث التفضيل بين مَن قبل الفتح ومَن بعده لا تشملهم «١» بل وتفضلهم كآياته على مَن قبل الفتح، فحسناهم أفضل من حسناهم صورة طبق الأصل (وكل إنسان يعمل على شاكلته) فليجزَ كذلك حسب شاكلته (ولا يظلمون نقيراً).

فلينفق المؤمن مما هو مستخلَف فيه، وسوف يتركه لمستخلِفه، ولو غفل عن هذا وذاك، وحسب انه هو المالك أو الباقي ملكه- وهو من أضعف الايمان، أو هو الكفر- فلو غفل هكذا أو تغافل- إذاً فليقرض اللّٰه من ماله! قرضاً يُربيه اللّٰه فيه، هنا وبعد ما يحييه:

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ «٢»

ومن ذا الذي يبقى بعد هذا الخطاب الحنون العتاب متصلباً على منع الانفاق والإقراض؟!

.. هنا! إذ يجعل اللّٰه مالكاً لما استخلفه فيه، ويجعل نفسه مستقرضاً بمضاعَف الأداء وأجر كريم، هنا ينفتك القلب، وحقيق لمن له أدنى شعور أن يموت خجلًا، أو يصعق ويتصدع وَجِلًا، كيف أن اللّٰه الغني الحميد يستقرض عباده الفقراء المهازيل (يستقرضهم وله خزائن السماوات والأرض وهو الغني الحميد وإنما أراد أن يبلوكم أيكم أحسن عملًا)، «٣» ومجرد الشعور ان المستقرض غني أمين، مضاعِف في الرد،

---

(١)).

(٢)). سورة الحديد ٥٧: ١١

(٣)). نهج البلاغة عن علي عليه السلام «اتقوا أموالكم وخذوا من أجسادكم تجودو بها على أنفسكم ولاتبخلوا بها عنها» فقد قال الله سبحانه: «من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً ..» واستقرضكم وله

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٠٢

كريم، إنه يطيّر أصحاب الأموال إليه طيراناً.

فيا له رباً حنوناً في هدايته كيف يداري عباده المجاهيل في هداه، فلا يبقي سبيلًا إلا ويرشدهم، ولا يذر دليلًا إلا ويدلهم، وهنا يعطف بهم الى مثلث التدليل من زواياه الثلاث، يجعل نفسه في الثالثة كأنه المستقرض: (يقرض الله) وليس إلا لعباده، مما يدفع جماعة من اليهود الى القولة الهراء الاستهزاء: «إن الله فقير ونحن أغنياء» «١» وهذه نهاية العناية الإلهية في الهداية، وكما ترمز بأن أوامره ونواهيه كلها لصالح العباد، فسبيل الله هي سبيل صالح الحياة قتلى الأموات، بانقطاع الحياة: ان الله سوف يكتب لهم حسنات، وعلّه إلى يوم القيامة، فإن «لن» للاستحالة المقتضية استغراق الزمان منذ القتل إلى انقضاء الزمان في الأولى، ثم الله ينمي تلكم الصالحات في الأخرى.

ثم المقاتلون الذين لم يُقتَلوا، هم كذلك «لن يتركم أعمالكم»: الأعمال الصالحة التي تركت مغبَّة الجهاد، ومن ثم- علّها أيضاً- الصالحات المتروكة بعد الممات، فإنها لم تنقطع عنهم، بعد الجهاد الإستماتة، فالجهاد في سبيل الله مما يخلد المجاهد في حياة الصالحات، وبعد أن قتل أو مات، ولأنه باذل حياته لله، فينصبغ بصبغة لله، ويخلد صالحاً وان قتل أو مات، ولكنما القتلى حظوتهم، إذ يبعدون بالقتل عن شرور الحياة وتضمن لهم خيراتها!.

فعلى المسلم العاقل أن يجنح للقتال في سبيل الله وهو في مثلث النجاح والفلاح:

«أنتم الأعلون- والله معكم- ولن يتركم أعمالكم» ولتكن مقالته للكافرين: «هل تربصون بنا إلا احدى الحسنيين ونحن نتربص بكم ان يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا»!. «٢»

إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ

---

(١)). سورة آل عمران ٣: ١٨١

(٢)). سورة التوبة ٩: ٥٢

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٠٣

أَمْوَالَكُمْ «١»

هناك حياة جهاد في سبيل الدنيا اللعب اللهو، وهنا حياة جهاد في سبيل الله، تبديل الحياة بالحياة العليا، تجارة مربحة لن تبور، فاتركوا الدنيا إلى العليا: إيماناً وتقوى بأجورهما، «ولا يسألكم أموالكم» فيما يؤتي أجوركم، إنما إيمانكم وتقواكم، سؤالًا لصالحكم في الدارين.

وهذه الاجور الغالية في الاخرى تقتضي سؤال كل الأموال أن تصرف في سبيل الله، ولكنه «لا يسألكم أموالكم» كل أموالكم- ولأنه:

إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ «٢»

«إن يسألكموهما» كلها «فيحكم»: يجهدكم ويحملكم مشقة البذل ككلٍّ، مغبة ذلك الأجر، «تبخلوا» عن ذلك الانفاق الإجهاد «و» من ثم «يخرج» الله «أضغانكم» أحقادكم خلاف أمر الله، بما يخرجها بخلكم عن إنفاقها كلها في سبيل الله «٣» ولكن الله لا

يريد إحفاءكم فتضفحوا، حكمة منه فضلًا ورحمة، فإن أحكامه تتماشى مع الفطرة، دون أن تتمادى على الفطرة، وهي تتناسق مع أنظمة الحياة ومناهجها وقواعدها، فإنها إنسانية الطاقة ورحمانية الإناقة العملاقة، ولكي تربي الإنسان بتكاليف دون الطاقة.

هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَايَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ «۴»

---

(١)). سورة محمد ۴٧: ٣۶

(٢)). سورة محمد ۴٧: ٣٧

(٣)). ففاعل «يخرج» هو اللّه، وهو البخل- فاللّه لا يخرج أحقادهم إلا ببخلهم الظاهر عند سؤال كل الاموال

(۴)). سورة الحديد ۵٧: ٣٨

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ۵٠۴

«ها أنتم» المؤمنين المتقين! انتهوا- تركنا سؤال جميع أموالكم إلى بعضها:

(تدعون لتنفقوا) من فضلها الزائد عن ضرورات الحياة (فمنكم من يبخل) ومنكم من لا يبخل (ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه) لا عن اللّه، ولا عن عباد اللّه- فإنه يقطع عن نفسه رصيد الإنفاق، الذي ينفعه يوم لا ينفع مال ولا بنون، ومن قبل ينفعه في إزالة الأشواك عن صراط الايمان، تعبيداً للسبيل إلى اللّه بإبادة أو تسكيت أعداء اللّه، وتبديداً لأشواك البخل عن البذل، فإنما يبخل أرصدة كهذه الغالية الكريمة عن نفسه، دون اللّه- ف (واللّه الغني) لا سواه (وأنتم الفقراء) دون اللّه، فهو إذ يسألكم انفاقاً في سبيل اللّه، ليس لفقره إليكم، فإنما سبيل اللّه هي سبيل صالح الحياة، التي ليست إلا من اللّه، فلماذا البخل إذاً وفيمَ؟ أبخلًا من مال اللّه وفي سبيل اللّه: «وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه». «١» فها أنتم أنتم الفقراء ليست أموالُكم أموالَكم، وإنما أنتم مستخلفون فيها امتحاناً، فلا تبخلوا عنها امتهاناً.

(وإن تتولوا) عن الإيمان، أو التقوى في الإيمان، أو الانفاق في سبيل التقوى الإيمان «٢» (يستبدل) اللّه بكم (قوماً غيركم) علهم مسلمون من غير العرب، وكما يروى عن نبي العجم والعرب من قوله صلى الله عليه و آله: (والذى نفسي بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من فارس). «٣»

(ثم لا يكونوا) هؤلاء الأغيار الأبرار (أمثالكم) في التولي الإدبار عن الانفاق وأمثاله في سبيل اللّه، وكما هو اليوم ملموس في المسلمين الفرس، رغم الضغوط المتواردة عليهم من السلطات، فانفاقاتهم- وحدهم- في سبيل اعلاء كلمة اللّه، تربوا

---

(١)). سورة الحديد ۵٧: ٧

(٢)). التولي هنا راجع الى ما ذكر في الآيتين من الايمان والتقوى والانفاق

(٣)). الدر المنثور ۶:- اخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد والترمذي وابن جرير وابن ابي حاتم والطبراني في الاوسط والبيهقي في الدلائل عن ابي هريرة قال: تلا رسول اللّه صلى الله عليه و آله هذه الآية «وان تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم» فقالوا: يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله! من هؤلاء الذين ان تولينا استبدلوا بنا؟ فضرب رسول اللّه صلى الله عليه و آله على منكب سلمان ثم

قال: هذا وقومه- والذي نفسي بيده لو كان الايمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال فارس. أقول: ويشير اليه بعض ما ورد عن ائمة اهل البيت عليهم السلام

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٠٥

انفاقات سائر المسلمين، وسوف يكون الأكثر نصرة لتأسيس الدولة الاسلامية زمن القائم المهدي عليه السلام هم رجال من فارس كما يدل عليه الأثر، واقعاً وحديثاً.

وإنها لنذارة رهيبة ختام سورة القتال، تنذر من يتولى من المسلمين العرب عن حكم اللّه، باستبدالهم بغيرهم، وكما فعل، أو لعلّ، كما وانذر اللّه بني إسرائيل بسحق ملكهم، وانتقاله إلى سواهم وكما فعل بنقل الشريعة عنهم إلى بني إسماعيل، ولكنما هذه الشريعة هي خاتمة الشرائع فلا تبدَّل، وإنما يستبدل من يحملها ويتحمل أعباءَها ويتولاها، بمن لا يحملها ويتولى عنها، وان ليس للانسان إلا ما سعى.

الأشهر الحرم في قتال وسواه

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ «١»

«إن عدة الشهور» لكل سنة «عند اللّه» قراراً تكوينياً وآخر تشريعياً «اثنا عشر شهراً في كتاب اللّه» في تكوينه وتشريعه، منذ «يوم خلق السماوات والأرض» وأدار الأرض والشمس والقمر، عوامل حركية ثلاثة لمظاهر الزمن أياماً وشهوراً وسنين «منها أربعة حرم» .. ذلك، وأساس هذه الشهور هي الأهلة دون الشهور الشمسية، فقد «يسألونك عن الأهلة قل مواقيت للناس والحج» «٢» كما والشهر بمختلف صيغة الواردة في القرآن عشرين مرة أخرى لا يعنى به إلّا القمري لا سواه، ومن نصوصها «شهر رمضان». «٣»

وهنا «كتاب اللّه» هو أولًا كتاب التكوين لمكان «يوم خلق ..» ثم التشريع على

((١)). سورة التوبة ٩: ٣٦

((٢)). سورة البقرة ٢: ١٨٩

((٣)). سورة البقرة ٢: ١٨٥

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٠٦

هامشة في كل شرائع اللّه، لا فقط الشرعة القرآنية.

وهكذا «هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب» «١» حيث قرر تقدير منازل القمر وسيلة ظاهرة محسوسة لمعرفة السنين والحساب.

وهنا المناسبة لهذه المحاسبة الثقلية أن المؤمنين أمر وبجهاد الروم وحلفاءهم من نصارى العرب في شمال الجزيرة- غزوة تبوك- وكان ذلك في رجب المنسيء وهو جمادى الآخرة ولكن ملابسة ماكرة كانت تمنع عن هذه الغزوة وهي أن رجب في هذا العام لم يكن بسبب النسيء في موعده الحقيقي بحساب الأشهر القمرية، فكأن رجب كان في جمادي الآخرة، أو كأن محرماً كان في صفر، على اختلاف بين رجب ومحرم من حيث كونه من الأشهر الحرم.

فلذلك بزغت الآية بتثبيت الأشهر القمرية كأوقات شرعية ثم التالية حملت على النسيء.

وهنا «يوم خلق السماوات والأرض» كيوم واحد، ثم في آيات أخرى «خلق السماوات والأرض في ستة أيام» مما يبرهن على أن «يوم» هنا وهناك هو مطلق الزمان المقدر بأقداره حسب مختلف المقدرات فيه، ف «يوم خلق السماوات والأرض» يعني مجموعة الأيام الستة اعتباراً بجمع الخلق، ثم الستة اعتباراً بأجزاء الخلق، المفسرة المفصَّلة في فصِّلت فراجع.

«منها أربعة حرم» فما هي؟ هي طبعاً أربعة محترمة لساحة الحج فهي إذاً «رجب- ثم- شوال- ذوالقعدة- ذو الحجة» كما يروى «٢» فالأول لحرمة خاصة العمرة مهما

---

(١)). سورة يونس ١٠: ٥

(٢)). كما في نور الثقلين ٢: ٢١٤ في الكافي عن تفسير القمي بسند مسنداً عن زرارة قال كنتقاعداً إلى جنب أبي جعفر عليه السلام وهو مجتبٍ مستقبل الكعبة فقال: أما إن النظر إليها عبادة فجاءه رجل من بجيلة يقال له عاصم بن عمر فقال لأبي جعفر عليه السلام إن كعب الأحبار كان يقول: إن الكعبة تسجد لبيت المقدس في كل غداة فقال أبو جعفر عليه السلام: فما تقول فيما قال كعب؟ فقال: صدق القول ما قال كعب فقال أبو جعفر عليه السلام كذبت وكذب كعب الأحبار معك وغضب، قال زرارة ما رأيته استقبل أحداً يقول: كذبت- غيره ثم قال: ما خلق اللَّه بقعة في الأرض أحب إليه منها- ثم أومى بيده نحو الكعبة- ولا أكرم على اللَّه تعالى منها، لها حرم اللَّه الأشهر الحرم في كتابه يوم خلق السماوات والأرض ثلاثة متوالية للحج: شوال- ذوالقعدة- ذوالحجة وشهر مفرد للعمرة: رجب

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‌٧، ص: ٥٠٧

عمت في سائر الشهور، والثلاثة المتواصلة لمجموع الحج والعمرة ولا سيما حج التمتع.

أم والمحرم بديل شوال، كما يروى في أخرى، «١» واستثناء شوال لا يضر بزمن من الحج والعمرة، ولأن «الحج أشهر معلومات» هي الثلاثة الأولى، ثم و «رجب» غرة العمرة فقد ترجَّح الأربعة الأولى على الأخيرة، وما لفظة، «المحرم» بالتي تدمجها فيها، ودعوى الإطباق بين الفريقين على الثانية لا نعرف لها وجهاً إلا نفس الإطباق المدعى، إلّا أن المتواتر معنوياً في الآثار عدُّ المحرم من هذه الأربعة، إضافة إلى تظافر النقل عن الرسول صلى الله عليه و آله والأئمة من عترته عليه السلام على ذلك، فالأشبه إذاً عد المحرم منها بديلًا عن شوال، ومما يرجحه أن الحجيج بعد ختام شعائرهم يظلون أياماً أم أكثر بعد ذي الحجة في الحرم، فقد يناسب كون المحرم من الأربعة الحرم، وأما شوال فالوافقدون فيه للمناسك قلة، أم هم لأقل تقدير أقل بكثير من الباقين بعد ذي الحجة.

وقد يفضل المحرم مرة أخرى لمكان «فإذا انسلخ الأشهر الحرم» بعد «فسيحوا في

---

(١)). في الدر المنثور ٣: ٢٣٤ عن أبي بكرة أن النبي صلى الله عليه و آله خطب في حجته فقال: إن الزمان قداستدار كهيئته يوم خلق السماوات والأرض السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاث متواليات: ذوالقعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادي وشعبان، وفيه عن ابن عمر عنه صلى الله عليه و آله مثله.

وفي نور الثقلين ٢: ٢١٥ في تفسير العياشي عن أبي خالد الواسطي عن أبي جعفر عليه السلام حدثني أبى علي الحسين عن أمير المؤمنين عليهما السلام أن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لما ثقل في مرضه قال: أيها الناس أن السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، ثم قال بيده، رجب مفرد وذوالقعدة وذوالحجة والمحرم ثلاث متواليات ...

أقول: فهاتان روايتان حول «أربعة حرم» وهنا ثالثة في الخصال عن أبي عبد الله عليه السلام تقول: منها أربعة حرم: عشرون من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشر من ربيع الآخر» وتأويلها أنها حرم خاص ب «سيحوا في الأرض أربعة أشهر .. فإذا انسلخ الأشهر الحرم»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٠٨

الأرض أربعة أشهر» حيث الظاهر منها هو التلاحق فيها.

وعلى أية حال فقلب الأشهر الحرم هو ذو الحجة الحرام، وقد خطب رسول اللّه صلى الله عليه و آله فيه خطبته الغراء قائلًا «أيها الناس هل تدرون في أي شهر أنتم وفي أي يوم أنتم وفي بلد أنتم؟ قالوا: في يوم حرام وشهر حرام وبلد حرام، قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقونه ثم قال: اسمعوا مني تعيشوا: ألا لا تظالموا، ألا لا تتظالموا، إنه لا يحل مال امرىءٍ إلا بطيب نفس منه، ألا إن كل دم ومال ومأثرة كانت في الجاهلية تحت قدمي هذه إلى يوم القيامة. «١»

«ذلك الدين القيم» وقد تعني إلى «أربعة حرم» «عدة الشهور ..» فالدين القيم الثابت الذي لا حِوَل عنه في شرعة اللّه هو إعتبار الشهور هكذا إثنا عشر شهراً، ثم و «منها أربعة حرم» «فلا تظلموا فيهن أنفسكم» والقدر المعلوم من مرجع ضمير الجمع هو «أربعة حرم» حيث حرم فيها القتال هجومياً أو إنتقامياً إعتداءً بالمثل، وإنما «قاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة» فيهن دفاعاً مضيقاً وفي غيرهن موسعاً

---

(١)). الدر المنثور ٣: ٢٣٤- أخرج أحمد والباوردي وابن مردويه عن أبي حمزة الرقاشي عن عمه وكانت له صحبة قال: كنت آخذاً بزمام ناقة رسول اللّه صلى الله عليه و آله في أوسط أيام التشريق أذود الناس عنه فقال: أيها الناس ... وأن أوّل دم يوضع دم ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب كان مسترضعاً في بني ليث فقتلته هذيل- ألا وإن كل ربا كان في الجاهلية موضوع، وإن اللّه قضى أن أوّل ربا يوضع ربا العباس بن عبد المطلب لكم رؤوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون، ألا إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق السماوات والأرض، ألا وإن عدة الشهور عند اللّه اثنا عشر شهراً في كتاب اللّه يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم» ألا لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا أن الشيطان قد أيس أن يُعبده المصلمون في جزيرة العرب ولكنه في التحريش بينكم واتقوا اللّه في النساء فانهن عوان عندكم لا يملكن لأنفسهن شيئاً وان عليكم حقاً ولكم عليهم حقاً لا يوطئن فراشكم أحداً غيركم ولا يأذنَّ في بيوتكم لأحد تكرهونه فإن خفتم نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن ضرباً غير مبرح ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف وإنما أخذتموهن بأمانة اللّه واستحللتم فروجهن بكلمة اللّه، ألا ومن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من أئتمنه عليها وبسط يديه وقال: اللّهم قد بلغت ألا هل بلغت، ثم قال: ليبلغ الشاهد الغائب فانه رب مبلغ أسعد من سامع»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٠٩

«واعلموا أن اللّه مع المتقين» إياه في سلبية القتال وإيجابيته بحدوده، وهكذا في كافة السلبيات والإيجابيات.

ذلك، ولتحليق «فيهن» على كل «إثنا عشر شهراً» وجه على هامش «أربعة حرم» فالظلم فيها مضاعف وفي سائر الأشهر موحّد غير مضاعف، إلّا يضاعف بملابسات أخرى.

وقد يدل «ذلك الدين القيم» على وجوب الحفاظ على عديد «إثنا عشر شهراً» دون تبديل للسنة إلى غيرها، وكذلك قمريتها، وحرمة «أربعة حرم منها» دين قيم في حقل الزمن بمثلث الزوايا، فالمختلف عنها كلها أم بعضها متخلف عن «ذلك الدين القيم» المكتوب في كتابي التكوين والتشريع، ومن التخلف في «أربعة حرم» النسيء بحساب الأشهر غير القمرية على حساب الشمس.

ذلك، ومن «ذلك الدين القيم» الأئِمة الاثنى عشر الذين هم تأويل الشهور الإثنى عشر حسب المروي عن النبي صلى الله عليه و آله: «الأئمة بعدي اثنا عشر» «١» «حجج اللَّه على الخلق بعدي إثنا عشر» «٢» «أوصيائي بعدي إثنا عشر أولهم علي وآخرهم المهدي» «٣» «يملك من ولدي إثنا عشر خليفة» «٤» «إثنى عشر كعدد نقباء بني إسرائيل» «٥» فقد «نص بإمامتهم وهم إثنا عشر» «٦» «فنظرت فرأيت إثنا عشر نوراً وفي كل نور سطر أخضر عليه إسم وصي من أوصيائي». «٧»

ذلك، وقد نجد مواصفاته التي لا تُحدُّ ولا تُحصى في ألفين من مؤلفات إخواننا أو تزيد، كما فصلت في ملحقات إحقاق الحق.

---

(١)

). ملحقات إحقاق الحق ١٣: ١- ٧٤ و ١٩: ٦٢٨- ٦٣٢

(٢)). المصدر ٤: ٩٤

(٣)). المصدر ٤: ١٠٣، ٣٦٥ و ١٣: ٦٩ و ٢٠: ٥٣٨

(٤)). المصدر ١٣: ٧٤ و ٧: ٤٧٧ و ١٣: ١- ٨، ١٦- ١٧، ٢٠- ٢١، ٣١- ٣٢، ٣٥، ٤٧، ٧٤

(٥)). المصدر ١٣: ٤٤- ٤٥ و ١٩: ٦٢٩- ٦٣٠

(٦)). المصدر ١٣: ٥٦، ٧١ و ١٣: ٤٩- ٧٤

(٧)). المصدر ٥: ٩٣

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥١٠

«وقاتلوا المشركين كافة» قتلًا يكف عنكم بأسهم، وعلّ تاءها للمبالغة عناية إلى مبالغة الكف في ذلك القتال «كما يقاتلونكم كافة» قتلًا يكف عنهم بأسكم، فلا تعني «كافة» الجميع، وإنما هي القتال الكافة حيث تكف عنكم بأسهم، فهي- إذاً- حرب دفاعية.

«واعلموا أن اللَّه مع المتقين» على أية حال وهنا في مسرح القتال، في أصله وفي زمنه وفي كمه وكيفه، تجنباً عن قتال الذراري والعجزة والصبيان ومن ألقى إليكم السلام «١» وقتال من لا يقاتلكم ولا هو فتنة عليكم.

وهنا «المشركين» كما المشركين «واقتلوهم حيث وجدتموهم» سواء دون شمول لأهل الكتاب حيث الصيغة الصالحة للشمول «الكافرين» و «المشركين» تعني في مصطلح القران العُبَّاد الرسميين للأوثان دون كل المنحرفين عن التوحيد ككفرة أهل الكتاب، وقد قوبل بينهما في البينة: «لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين».

إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَايَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ «٢»

النسيء هنا هو الشهر المؤخر حيث تعودت الجاهلية لتنسىء من الأشهر الحرم مصلحيةَ تحليل القتال فيها أو سماح الحج، حيث كانت تعرض حاجات لبعض قبائل العرب تتعارض مع تحريم هذه الأشهر، وهنا تتلاعب الأهواء ويقوم من يفتي باستحلال أحد الأشهر

الحرم عن طريق تأخيره في عام وتقديمه في آخر، فطالما عديد الأشهر الحرم يبقى أربعة ولكن أعيانها كانت تتبدل بتبديل الأسماء في ذلك

---

(١)). خلاف ما قتل خالد في حنين امرأة فأرسل إليه النبي صلى الله عليه و آله ينهاه مشدداً، وقتل رجالًا قد اسلموا من بني جذيمة فتبرء النبي إلى اللَّه من فعلته ثلاثاً، وقتل أسامة يهودياً أظهر له الإسلام فنزلت: «ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً ..» (٤: ٩٤)

(٢)). سورة التوبة ٩: ٣٧

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥١١

النسيءِ التأخير. «١»

ولقد كان في العام التاسع من الهجرة رجبُ الحقيقي غيرَ رجب، وذو الحجة غير ذي الحجة، فرجب واطىء جمادي الآخر وذو الحجة واطىء ذو القعدة، وكان نفر الجهاد فعلًا في جمادي الآخرة واقعاً وفي رجب مختَلقاً، فرشقت سهام هذه النصوص على تلك الجاهلية الحائرة المائرة إبطالًا للنسيء عن بكرته حيث كان خلاف سنة التكوين والتشريع «ليواطئوا عدة ما حرم اللَّه فيحلوا ما حرم اللَّه». «٢»

ولقد زاد هذا الكفر ركاماً على جاهلية الإشراك فأصبح «زيادة في الكفر» حيث

---

(١)). في مجمع البيان قال مجاهد: كان المشركون يحجون في كل شهر عامين فحجوا في ذي الحجة عامين ثم حجوا في المحرم عامين ثم حجوا في صفر عامين وكذلك في الشهور حتى وافقت الحجة التي قبل حجة الوداع في ذي القعدة ثم حج النبي صلى الله عليه و آله في العام القابل حجة الوداع فوافقت ذا الحجة فذلك حين قال النبي صلى الله عليه و آله في خطبته: ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السماوات والأرض السنة أثنا عشر شهراً منها أربعة حرم .. حيث أراد بذلك أن الأشهر الحرم رجعت إلى مواضعها وعاد الحج إلى ذي الحجة وبطل النسيء، وفي كتاب الخصال عن عبد اللَّه بن عمر عن النبي صلى الله عليه و آله كلام من خطبة له صلى الله عليه و آله «فلا تظلموا فيهن أنفسكم» فإن النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا ... وكانوا يحرمون المحرم عاماً ويستحلون صفر عاماً ويحرمون صفر عاماً ويستحلون المحرم، أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يُعبد في بلادكم، أقول: وهذا النسيء داخل في طليقة خارج عن مورده في الآية «ليواضئوا عدة ما حرم اللَّه»

(٢)). الدر المنثور ٣: ٢٣٧- أخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في الآية قال: فرض اللَّه الحج في ذي الحجة وكان المشركون يسمون الأشهر ذوا الحجة والمحرم إلى ذوا الحجة ثم يحجون فيه ثم يسكتون عن المحرم فلا يذكرونه ثم يعودون فيسمون صفر صفر ثم يسمون رجب جمادي الآخرة ثم يسمون شعبان رمضان ورمضان شوال ويسمون ذا القعدة شوال ثم يسمون الحجة ذا القعدة ثم يسمون المحرم ذا الحجة ثم يحجون فيه واسمه عندهم ذوا الحجة ثم عادوا مثل هذه القصة فكانوا يحجون في كل شهر عاماً .. ثم حج النبي صلى الله عليه و آله حجته التي حج فيها فوافق ذو الحجة فذلك حين يقول النبي صلى الله عليه و آله في خطبته: إن الزمان قد استدار ...

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن السدي في الآية قال: كان رجل من بني كنانة يقال له جنادة بن عوف يكنى أبا أمامة ينسىء الشهور وكانت العرب يشتد عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر لا يغير بعضهم على بعض فإذا أراد أن يغير على أحد قام يوماً بمنى فخطب فقال:

إني. حللت المحرم وحرمت صفر مكانه فيقاتل الناس في المحرم فإذا كان صفر عمدوا ووضعوا الأسنة ثم يقوم في قابل فيقول: إني قد أحللت صفر وحرمت فيواطئوا أربعة أشهر فيحلوا المحرم

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥١٢

كانوا «يحُلُّونه عاماً ويحرمونه عاماً» كأنهم هم المشرعون أمام اللّه، والقصد من تراوح التحليل والتحريم «ليواطئوا عدة ما حرم اللّه» فيه القتال «فيحلوا ما حرم اللّه» بذلك النسيء.

فقد جمعوا إلى تحويل موضوع التحريم بذلك النسيء أصل التحليل والتحريم به، إحتيالًا حائلًا عن تحليل اللّه وتحريمه، ولذلك إستحقوا ذلك التنديد الشديد المديد.

وليسوا هم فحسب، هكذا كل المتحالين في الأحكام والموضوعات الشرعية تسميته لها بالحِيَل الشرعية، ولا حيلة للشرع في تحليل ما حرم أم تحريم ما حلَّل، وإنما الحيلة لهذه الأغباش الأنكاد الذين ينسبون حِيَلهم المحرمة إلى الشرع نفسه إسترواحاً في جريمتهم البشعة المتصورة بصورة الفتوى، أو العملية الشرعية مثل الحيل المختلَقة في حقل الربا وما أشبه، هزءً سافراً بأحكام اللّه!.

والنسيء الكافر على نوعين، أحدهما احتساب الأشهر حسب سير الشمس، وثانيهما تناسي بعض الأشهر في العدِّ وتسمية البعض باسم الآخر إنساءً قاصداً ليواطئوا عدة ما حرم اللّه.

وتعوداً على ذلك النسيء خيّل إلى ضعفاء من المؤمنين أن الحرب محرمة إعتباراً بأن جمادي الآخرة المحولة إلى رجب هو في الحق رجب فاستحرموا فيه القتال، ولذلك تشدَّد النكير عليهم وعلى مختلقي النسيء هكذا، وهكذا «زين لهم سوء أعمالهم» حيث زين لهم الشيطان أعمالهم وكانوا مستبصرين» كما وزين اللّه جزاءً وفاقاً أن لم يصد الشيطان عن ذلك التزيين.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ «١»

رغم أن قضية الإيمان باللّه الترقب لأمر اللّه تحقيقاً له حقيقاً بالإيمان، نرى جماعة من الذين آمنوا يتثاقلون عن أمر النفر في سبيل اللّه إلى أرض الحياة الدنيا المتاع «فما

---

(١)). سورة التوبة ٩: ٣٨

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥١٣

متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلّا قليل».

ذلك، ومع العلم أن متاع الحياة الدنيا في الآخرة لا كثير ولا قليل إذ لا ينفع أصحابه ما لم يقدموه لها، وما قدموه فهو كثير غير قليل، فكيف يعتبر هنا في الآخرة قليلًا.

علّ «في» هنا لظرف القياس دون واقع لمتاع الحياة الدنيا في الآخرة، فهو قياساً إلى متاع الآخرة قليل ضئيل وكما «فرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع». «١»

أم و «قليل» في واقعه، فإن قليلًا من المؤمنين يقدمون متاع الحياة الدنيا بكاملها أو أكثرها إلى الآخرة كمتاع فالمتاع الأول متعة بعيدة «٢» ككل عن الآخرة، والثاني متاع التجارة أن تشترى به الآخرة، والفارق أنه للكافرين» «متاع قليل ولهم عذاب أليم»: «٣» متعة قليلة، وللمؤمنين متاع في الآخرة حسب مساعيهم إن كثيراً وإن قليلًا فقليل، ومما يقلّل متاع الحياة الدنيا للمؤمنين أن يتثاقلوا عن

الجهاد في سبيل اللّه بأرض المعركة، إلى أرض الحياة تطويلًا لها بزعمهم، أم تطاولًا فيها بمال ومنال! إم أنه قليل بجنب متاع الآخرة وإن كان للمؤمنين الصالحين الذين يشترون به الآخرة،

---

(١)). سورة الرعد ١٣: ٢٦

(٢)). ويؤيده ما في الدر المنثور ٣: ٢٣٦- أخرج الحاكم وصححه عن المستورد قال: كنا عندالنبي صلى الله عليه و آله فتذكروا الدنيا والآخرة فقال بعضهم: إنما الدنيا بلاغ للآخرة فيها العمل وفيها الصلاة وفيها الزكاة وقالت طائفة منهم: الآخرة فيها الجنة وقالوا ما شاء اللّه فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: ما الدنيا في الآخرة إلا كما يمشي أحدكم إلى اليم فادخل أصبعه فيه فما خرج منه فهي الدنيا، وفيه أخرج الحاكم وصححه عن ابن مسعود قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: إن اللّه جعل الدنيا قليلًا وما بقي منها إلا القليل كالثقب في الغدير شرب صفوه وبقي كدره.

وفيه في وصف الدنيا كأصل عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه و آله نام على حصير فقام وقد أثر في جنبه فقلنا يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله: لو اتخذنا لك فقال: ما لي وللدنيا ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت ظل شجرة ثم راح وتركها، وفيه عن أبي موسى الأشعري أن رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب أخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى، وعن أبي مالك سمعت رسول اللّه صلى الله عليه و آله يقول: حلوة الدنيا مرة الآخرة ومرة الدنيا حلوة الآخرة

(٣)). سورة النحل ١٦: ١١٧

متاع قليل يشترى به متاع كثير وقد يروى عن النبي صلى الله عليه و آله قوله: «نعمت الدار الدنيا لمن تزود منها لآخرته حتى يرضي ربه، وبئست الدار لمن صدَّته عن آخرته وقصرت به عن رضى ربه وإذا قال العبد قبح اللّه الدنيا قالت الدنيا قبح اللّه أعصانا لربه. «١»

ذلك، فما الذي أثقلهم حينذاك عن النفر لقتال الروم؟ إنه شدة الحر، وطيبة ثمار المدينة وقتذاك، وبعد المسافة وشقة الطريق واستعظام الروم، فاثَّاقلوا- إذاً- إلى الأرض كأنهم رضوا بالحياة الدنيا من الآخرة، وإنها ثقلة أرض الحياة ومطامعها ومطامحها، ثقلة الخوف على حياة وزخرفاتها ولذائذها ومصالحها ومُتَعها، ثقلة الدعة والأريحية المستقرة المستغرَّة، والعبارة تحمل لكل ثقلة كهذه وما أشبه بجَرَس اللفظ وقَرَص المعنى «إثاقلتم»: إفتعال الثقل إلى السفل الثفل، رغم الإيمان بالعلو، غَلَباً لجاذبية الأرض على السماء، وسَلَباً لرفرفة الأرواح وانطلاقة الأشواق.

فالسعى للجهاد هي انطلاقة من ثقل الأرض وقيدها، تطلعاً إلى علو السماء عن كيدها وميدها، فما من مؤمن إثاقل إلى الأرض عن نفر الجهاد إلَّا وفي إيمانه دَخَل وخلل، حيث الحياة الإيمانية كلها جهاد، ولقد «قالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حراً» «٢»

فما دائكم وما دواءكم؟!

إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ «٣»

وهنا تهديد مديد بعد تهديد، متواصلًا في آيات عِدة ليعدوا للجهاد عِدَّةً وعُدَّة، ف

((١)). الدر المنثور ٣: ٢٣٨ عن سعد بن طارق عن أبيه قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: .. وفيه عن سهل بن سعد أن النبي صلى الله عليه و آله وعظ رجلًا فقال: إزهد في الدنيا يحبك اللَّه وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس، وعن عبد اللَّه بن عمر قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: الدنيا سجن المؤمن وسنته فإذا خرج من الدنيا فارق السجن والسنة

((٢)). سورة التوبة ٩: ٨١

((٣)). سورة التوبة ٩: ٣٩

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥١٥

«إلا تنفروا» للجهاد «يعذبكم عذاباً أليماً» هنا وفي الأخرى، فهنا تُقلبون فتُغَلبون أما أشبه «١» وهنالك تعذبون، ومما هنا «يستبدل» بكم «قوماً غيركم» ممن لا يتهاون في الجهاد، ثم «ولا تضروه شيئاً» فإن اللَّه ليس ليُغلب في المعارك فإنما أنتم تُغلبون «واللَّه على كل شيء قدير».

ف «إنفروا رحمكم اللَّه إلى قتال عدوكم ولا تثّاقلوا إلى الأرض فتقروا بالخسف وتبوءوا بالذل ويكون نصيبكم الأخسَّ، إن أخا الحرب الأرق- لا ينام- ومن نام لم يُنَم عنه». «٢»

وهنا علّ «قوماً غيركم» هم المعنيون ب «يا أيها الذين امنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأت اللَّه بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل اللَّه ولا يخافون لومة لائِم ذلك فضل اللَّه يؤتيه من يشاء واللَّه واسع عليم». «٣»

بشارة لغلب الكتابين على المشركين

سورة «الروم» هي المنقطعة النظير بين سائر السور القرآنية تسمّياً باسم قطر من أقطار الأرض، في حين لم تُسمَّ بقطري الوحي القرآني مكة والمدينة، وعلّ ذلك الإختصاص لملابسة خاصة وقت نزولها تقتضي تلك التسمية، هي ان غَلَبَ الروم الموحدين في أدنى الأرض من المشركين الإيرانيين كان قد قوى ساعد المشركين في الجزيرة أن غَلَبوا اخوانهم، وكسر ساعد المسلمين ان غُلِبَ إخوانُهم من أهل الكتاب، فليسمَّ الروم غالباً ومغلوباً جبراً لذلك الكسر في نفوس المسلمين، وزيادة تحمل ملحمَة غَلَبِ الروم على الفرس في بضع سنين.

((١)). الدر المنثور ٣: ٢٣٩ عن ابن عباس في الآية قال: إن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله استنفر حياً من أحياءالعرب فتثاقلوا عنه فأنزل اللَّه هذه الآية فأمسك عنهم المطر فكان ذلك عذابهم

((٢)). نور الثقلين ٢: ٢١٧ عن نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام

((٣)). سورة المآئدة ٥: ٥٤

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥١٦

وليست لتقف السورة- بعد- على تلك الغلبة الموعودة في حدود ذلك الحادث الجلل، فانما هو مناسبة وقتية لينطلق بهم فيها إلى آماد أوسع من غَلَب المسلمين مشركي الجزيرة، ويا له ولغَلب الروم من قِران عجيب إذْ غَلبوا في بدرٍ وهم أذلة، وغَلَب معهم الروم بعد تسع من ذلك الوعد على الفرس، وهم أذلة و «للَّه الأمر من قبل ومن بعد ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر اللَّه».

ويا له من غزير النصر الموعود والمسلمون في مكة مهدَّدون مستضعفون، تتواتر عليهم النوازل السوء في كل الحقول، وليسوا يعتمدون إلّا على نصرٍ من اللَّه ورَوح ورضوان!

الم «١»

هي الثانية في المكيات الأربع حسب ترتيب التأليف، والثالثة بعد الأولى منها وهي البقرة المدينة الوحيدة في «الم» والمجموع خمس رمزاً إلى ما يعرفه من خوطب بها فانها من مفاتيح كنوز القرآن.

غُلِبَتْ الرُّومُ ١ ٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ «٢»

«الأرض» هنا هي أرض الحجاز بقرينة الروم، وهم قوم كانوا يسكنون ساحل البحر الأبيض المتوسط بالمغرب، لهم امبراطورية شاسعة إلى اعماق الشامات وهي سوريا والأردن والقدس ولبنان والعراق الحالية.

ف «أدنى الأرض» هي الأدنى من الروم الى الحجاز، فقد غُلب الروم في عُقر بلادهم بأبعد الأعماق، أن حلّقت حربُ الفرس على الروم كله فغلب عليهم في أدناها إلى الحجاز وهي أبعدها من الفرس، مما يدل على آماد الإنكسار الشامل كل بلادهم:

و «غلبهم» هنا مصدر بمعنى المفعول إذ احتفت ب «غُلبت الروم ... سيغلبون»، وغلبُهم عليهم بعد ما غُلبوا، في أصلها وفي الوقت المحدد «بضع سنين» تحمل ملحمتين

---

(١)). سورة الروم ٣٠: ١

(٢)). سورة الروم ٣٠: ١- ٢

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥١٧

اثنتين، أن يقوم هؤلاء المكسورون المحطَّمون عن بكرتهم على سوقهم لحدٍّ سيغلبون كما غُلبوا، وذلك في أقل من عشر سسنين وهي التسع الموافي لغَلَبِ المسلمين في بدر، قِراناً منقطع النظير في غَلَبِ الضعفاء المؤمنين على الأقوياء الأغوياء المشركين، وهذان لا يلائمان التقويمات العسكرية في نفس الوقت الذي غلُبت الروم انهم «سيغلبون. في بضع سنين».

فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ١ ٤ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ «١»

«بضع» هي مادون العشرة، من ثلاثة إلى تسعة، كما في السنة «٢» وفي اللغة، وهذه نبوءة صادقة بائقة تبشر بتلك الغلبة الفائقة، يعرف الرسول صلى الله عليه و آله مداها، مهما لم يحد في «بضع سنين» إلا تقريباً قريباً، وعلّه كيلا يفاجأ الوحي بتكذيب في عُجالة عارمة، فلقد كانت فارس ظاهرة على الروم مما كان يحبه المشركون، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم على الفارس لأنهم اهل كتاب يشاركونهم في التوحيد والايمان الكتابي، فلما انزلت «غلبت الروم ..» قالوا- فيما قالوا-: يا ابا بكر إن صاحبك يقول: ان الروم تظهر على فارس في بضع سنين؟ قال: صدق، قالوا: هل لك ان نقامرك؟ فبايعوه على أربع قلائِص إلى سبع سنين فمضت السبع ولم يكن شيء ففرح المشركون بذلك فشق على المسلمين فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه و آله فقال: ما بضع سنين عندكم؟ قالوا: دون العشر- قال: اذهب وازدد سنتين في الأجل، قال فما مضت السنتان حتى جاءَت الركبان بظهور الروم على فارس «٣» وقد غَلَبَ المسلمون حينه ببدر ففرح بذلك المؤمنون فرحتين». «٤»

---

(١)). سورة الروم ٣٠: ٤- ٥

(٢)). في الدر المنثور ٥: ١٥١- اخرج في احاديث عدة عن النبي صلى الله عليه و آله ان البضع ما بين الثلاث إلى العشر، رواه عنه نيار بن مكرم وقتادة

(٣)). المصدر اورد بهذا المضمون أو ما يقرب منه احاديث عدة عن الرسول صلى الله عليه و آله

(٤)). المصدر ومما اخرجه فيه بهذا الصدد ما عن ابن عباس في الآية قال: قد مضى كان ذلك في اهل فارس والروم وكانت فارس قد غلبتهم ثم غلب الروم بعد ذلك والتقى رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله مع مشركي العرب والتقى الروم مع فارس فنصر اللّٰه النبي صلى الله عليه و آله ومن معه من المسلمين على مشركي العرب ونصر اهل الكتاب على العجم، قال عطية وسألت ابا سعيد الخدري عن ذلك فقال: التقينا مع رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله ومشركي العرب والتقت الروم وفارس فنصرنا على مشركي العرى ونصر أهل الكتاب على المجوس فذلك قوله: ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر اللّٰه. وفيه (١٥٢) اخرج ابن جرير عن عكرمة ان الروم وفارس اقتتلوا في ادنى الأرض– قال: وادنى الأرض يومئذ اذرعات بها التقوا فهُزمت الروم فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه و آله واصحابه وهم بمكة فشق ذلك عليهم وكان النبي صلى الله عليه و آله يكره ان يظهر الأميون من المجوس على أهل الكتاب من الروم وفرح الكفار بمكة وشتموا فلقوا اصحاب النبي صلى الله عليه و آله فقالوا انكم اهل كتاب والنصارى اهل كتاب وقد ظهر اخْواننا من اهل فارس على اخوانكم ان قاتلتمونا لنظهرن عليكم فانزل اللّٰه «الم. غلبت الروم» فخرج ابو بكر الى الكفار فقال: فرحتم بظهور اخوانكم على اخواننا فلا تفرحوا– إلى آخر القصة–»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥١٨

وذلك مما يوحي بترابط وثيق عميق بين الكفر والشر أياً كان وايان، وكذلك الترابط بين كتلة التوحيد والايمان.

وهكذا انتبه المؤمنون على عهد الرسول صلى الله عليه و آله على ضوء دعوته الشاملة أن ليس الايمان محصوراً بحصار زمان أو مكان كما الشرك، فالكفر ملة واحدة كما الايمان، فهما خارجان عن كافة الحدود التاريخية والجغرافية والجنسية والقومية أماهيه؟

فالمعركة في صميمها هي معركة الايمان والكفر بين حزب اللّٰه وحزب الشيطان اياً كانوا وايان، والمسلمون يد واحدة على مَن سواهم تسعى بذمتهم أدناهم، دون ان تفصل بينهم حدود الزمان والمكان وسائر الابعاد والأولون، حيث تجمعهم كلمة التوحيد، فلهم إذاً توحيد الكلمة في كافة الأعصار الأمصار.

وما أحوج المسلمين اليوم أن يدركوا طبيعة المعركة المتواصلة بين الكتلتين، فلا تُلهيهم أعلام مز خرفة زائفة من الضفة الكافرة، المخيِّلة إليهم أنهم أحزاب متفرقة، فانهم ككلٍّ يحاربون الموحدين على العقيدة مهما تنوعت ألوان العلل وقضايا الأسباب.

هنا «يومئذٍ يفرح المؤمنون. بنصراللّٰه» اياهم في الحربين المقارنتين، كما «بنصر اللّٰه ينصر» اللّٰه «من يشاء» فقد حصل بعد الرسول صلى الله عليه و آله في حرب المسلمين الفرس فتغلبوا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥١٩

عليهم وهذا من تأويل آية النصر «١» ثم نصر متواصل للمسلمين ما قاموا بشرائط الاسلام: «لن يضروكم إلّا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا يُنصرون». «٢»

«ينصر من يشاءُ» اللّٰه فيشاءه اللّٰه، من يشاء منهم النصر بتقديم اسبابه فيشاء اللّٰه له النصر بأسباب غيبية، «وهو العزيز» الغالب «الرحيم» بكتلة الايمان القائمة بشرائطه، فهناك– إذاً– على طول الخط انتصارات متصلة الجهات، متشابهة في شروطات حسب القابليات والفاعليات ثم «العاقبة للمتقين».

وعلى أية حال ف «الأمر» في النصر «من قبل ومن بعد» لا سواه، كما «له الأمر من قبل أن يأمر به وله الأمر من بعد ان يأمر به بما يشاء» «٣» تكوينياً أو تشريعياً.

---

(١)

). نور الثقلين ٤: ١٦٨ في روضة لكافي ابن محبوب عن جميل بن صالح عن ابي عبيدة قال: سألت ابا جعفر عليه السلام عن هذه الآية فقال: يا أبا عبيدة ان هذا تأويلًا لا يعلمه إلا اللّه والراسخون في العلم من آل محمد صلى الله عليه و آله ان رسول اللّه صلى الله عليه و آله لما هاجر إلى المدينة واظهر الاسلام كتب الى ملك الروم كتاباً وبعث به مع رسوله يدعوه إلى الاسلام وكتب إلى ملك فارس كتاباً يدعوه إلى الاسلام وبعثه اليه مع رسوله فاما ملك الروم فعظم كتاب رسول اللّه صلى الله عليه و آله واكرم رسوله واما ملك فارس فانه استخف بكتاب رسول اللّه صلى الله عليه و آله ومزقه واستخف برسوله وكان ملك فارس يومئذٍ يقاتل ملك الروم وكان المسلمون يهوون ان يغلب ملك الروم فارس وكانوا لناحيته ارجى منهم لملك الروم فارس فلما غلب ملك فارس ملك الروم كره ذلك المسلمون واغتنموا به فانزل اللّه بذلك كتاباً قرآناً: «الم. غلبت الروم ..» يعني غلبتها فارس في ادنى الأرض وهي الشامات وما حولها و «هم» يعني فارس يغلبهم المسلمون «في بضع سنين ..» فلما غزى المسلمون فارس وافتتحوها فرح المسلمون بنصر اللّه عز وجل.

قال: قلت: إليس اللّه عز وجل يقول: في بضع سنين «وقد مضى للمؤمنين سنون كثيرة مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله وفي امارة ابي بكر وانما غلب المؤمنون فارساً في امارة عمر؟ فقال: الم اقل لك ان لهذا تأويلًا وتفسيراً، والقرآن يابا عبيدة ناسخ ومنسوخ اما تسمع لقول اللّه عز وجل «للّه الأمر من قبل ومن بعد» يعني اليه المشية في القول ان يؤخر ما قدم ويقدم ما أخر في القول الى يوم يحتم القضاء بنزول النصر على المؤمنين وذلك قوله «ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر اللّه» اي يوم يحتم القضاء بالنصر»

(٢)). سورة آل عمران ٣: ١١١

(٣)). نور الثقلين ٤: ١٧٠ في الخرائج والجرائح في اعلام الحسن العسكري عليه السلام ومنها ما قال ابوها سأل محمد بن صالح ابا محمد عليه السلام عن قوله تعالى «للّه الأمر من قبل ومن بعد» فقال: ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٢٠

وَعْدَ اللَّهِ لَايُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ «١»

«وعدَ اللّه» قد يكون مفعولًا مطلقاً ل «وعَد اللّه» ام مفعولًا لمثل «صدقوا» وهو على اية حال تأكيدٌ أن: «سيغلبون» وعدٌ من اللّه محتوم و «لا يخلف اللّه وعده» حيث الخلف ليس إلّا عن جهل أو عجز أو بخل أو ظلم أو نسيان امّا ذا من نقص فيمن وَعَد، واللّه بريءٌ عن كل ذلك فلا خُلفَ لوعده، فانه صادر عن علمه وإرادته الطليقة وحكمته العميقة، قادراً على تحقيقة، ولا رادَّ لإرادته، ولا معقِّب لحكمه، «ولكن اكثر الناس لا يعلمون» وعدَ اللّه، ولا أنه لا يخلف الميعاد، وهم غير المؤمنين باللّه، انهم لا يعلمون كناس منقطعين عن الأيمان ووحيه وعدَ اللّه وإنجازه، فحقاً إنهم لا يعلمون، وإنما:

يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنْ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ «٢»

هنا «يعلمون» بديلًا عن «لا يعلمون» إعلان صارخ أن علمهم هذا جهل أمام العلم الحق الحقيق بالإنسان، ثم هي استثناءٌ عن «لا يعلمون» تستثني ضئيلًا من العلم يختص ظاهراً من الحياة الدنيا، فأصل العلم هو العلم الإيمان الإيقان بالمبدء والمعاد ومابين المبدء والمعاد، من الواجب معرفته أخذاً من المبدء وحياً وسواه، وانتهاءً إلى المعاد لقاءً للرب.

ثم العلم بالحياة الدنيا إذا كان ذريعة إلى الشعور الكامل بزوالها، ومنظاراً للنظر إلى عواقبها، ومعياراً للعمل الصالح فيها لأخراها، فهو علم بباطنها إبصاراً بها تُبصِر أصحابها، دون الإبصار اليها كمنتهى وغاية فانها- إذاً- تُعميهم.

هؤلاء الأغنياء إنما «يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا» فقد يُعلم باطنها بملكوتها ويُركن- رغم ذلك العلم- اليها، أو يعلم كل ظواهرها ومظاهرها دون باطنها فأجهل بالحق وأنكى، ذرهم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، ألم يعلموا أن لها مبدءً ومعاداً؟:

---

(١)). سورة الروم ٣٠: ٦

(٢)). سورة الروم ٣٠: ٧

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٢١

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمّىً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ «١»

فقضية تكوينهم ان يفكروا كيف كُوِّنوا ومن كوَّنهم ولماذا؟ وان يتفكروا في انفسهم- دون اقتصار على ظاهر من الحياة الدنيا- يتفكروا أنه «ما خلق اللّه السماوات والأرض وما بينهما إلّا بالحق»: بسبب الحق وغايته ومصلحته ومصاحبته، وإلّا ب «اجل مسمًّى» حيث الكون بنفسه دليل على ضرورة نهايته كما يدل على بدايته للفقر الذاتي فيه، «و» لكن «إن كثيراً من الناس» وهم النسناس منهم «بلقاء ربهم» في ربوبية الجزاء يوم الآخرة «لكافرون» كفراً مَصلحياً عامداً، أم تجاهلًا وتغافلًا.

وَيْكأنهم منفصلون عن نفوسهم الإنسانية إذ انقطعت عن انفسها وانجذبت إلى ظاهر من الحياة الدنيا، فلا تسمح لهم أن يبصروا بها حتى يتبصّروا وإنما يبصرون إليها فيعمهون! كل عاقل ذي نفس إنسانية لما يسبر أغوار نفسه وهو يرى خلق الكون، لابد وأن يرى له غاية مقصودة ترجع إلى الكون نفسه وأنفس نفيسه وهو الإنسان، فلو لم تكن حياة أخرى بعد الدنيا لكان الخلق لغواً، ام لغاية جاهلة قاحلة هي الحياة الدنيا! فكيف إذاً هم «يعلمون ظاهراً» دون كل ظواهرها، ظاهراً من حيونة الحياة ضئيلًا زهيداً قليلًا هزيلًا، متبهّجين بها، مخلِدين اليها، متمتعين بها، ميتزيدين متزايدين بشهواتها وزهواتها، ملتهين بلهواتها، كانها هي الحياة لا سواها «وهم عن الآخرة هم غافلون».

«هم» الثانية هنا تأكيد أنهم لا سواهم غافلون عن الآخرة، حيث العالِم بكل ظواهرها، والعالِم بباطن لها ام كل باطن لها، لابد وان يذكر الآخرة المتلمعة منها.

ولأن الغفلة ليست إلّا عن أمر حاصل، فلابد أن العلم بالدنيا كما يحق يضم العلم بحق الأخرى، فالحياة الآخرة علماً بها وتحقيقاً لها هي من محاصيل الحياة الدنيا، حيث النظر الصائب اليها يذكِّر الناظر الحياةَ الأخرى، والعملُ الصالح فيها يحضِّر

---

(١)). سورة الروم ٣٠: ٨

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٢٢

الحَيَوان في الأخرى.

كل ظواهر الحياة الدنيا محدودة معدودة، فضلًا عن «ظاهراً من الحياة الدنيا» مهما بدا لأهلها شايعاً ناصعاً، والآخرة هي الحلقة الأخيرة الدائبة في سلسلة النشآت الحيوية، فكلما بعدت آماد العلوم والأنظار في هذه الحياة، طليقةً عنها إلى حقيقتها الحاضرة المستقبلة، واتسعت الآفاق في تلك المطلّعات والنظرات، كانت حصيلة العلم بالآخرة أزهى وأضحى، واصحابها أبصر بالحق الطليق وأبعد عن العمى، وعلى حدّ قول الامام علي عليه السلام في وصفها: «من أبصر بها بصرته ومن أبصر اليها أعمته».

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ «١»

وإذ لم يعلموا هم في أنفسهم إلّا ظاهرأمن الحياة الدنيا إذ لم يتفكروا فيها فغفلوا عن الأخرى «أو لم يسيروا في الأرض» سيراً آفاقياً بعد التغافل عن السير الأنفسي «فينظروا» نظر التعقل والتفكير والإعتبار «كيف كان عاقبة الذين من قبلهم» من المشركين أضرابهم، أن اخذهم عذاب الهون بما كانوا يكسبون وقد «كانوا أشد منهم قوةً» عِدَّة وعُدَّة «وأثاروا الأرض» إثارة الزرع والعمار «وعمروها» بمختلف العمار «اكثر مما عمروها» وهم كما انتم «جاءتهم رسلهم بالبينات» فجحدوا بها «فما كان الله ليظلمهم» أن يعذبهم دون حجة «ولكن كانوا انفسهم يظلمون» بما كذبوا وما عذِّبوا.

ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُون «٢»

«عاقبة» خبر مقدم ل «كان» فقد يكون اسمها «السوأى» ام «ان كذبوا» و «السوأى» مفعول أساءوا، وهي كالحسنى وضدها في المعنى، مؤنث الأسود: «ولنجزينهم أسوء

---

(١)). سورة الروم ٣٠: ٩

(٢)). سورة الروم ٣٠: ١٠

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٢٣

الذي كانوا يعلمون». «١» «ليكفر الله عنهم اسوء الذي عملوا». «٢»

فالمعنى على كونها الإسم المؤخر أن عاقبتهم أسوء من حاضرتهم، فحياتهم سيئة بكفرهم وعذاب الاستئصال، والحياة العاقبة لهم من الرجعة والبرزخ والقيامة هي السوأى، أن كذبوا بآيات الله، فقد كان السوأى عاقبتهم بما كذبوا، وليست السوأى هي الأسوء من سوءهم لأنه خلاف «جزاء سيئة سيئة مثلها» بل هي الأسوء من دنياهم، رغم أنهادار الحَيَوان.

وعلى الثاني، ثم كان التكذيب بآيات الله عاقبة الذين اساءوا السوأى، ان خلّفت سوآئهم في سيآتهم أن كذبوا بآيات الله.

ولكن «السوأى» لا تصلح مفعولًا ل «اساءوا» فانها لا تُساء إلّا تحصيلًا للحاصل بل الأحصل، ثم التأنيث لا يناسب المقام، بل هو- إن صح- أساء الأسوء، اي: عملوا الأسوء، كما «لنجزينهم أسوء الذي كانوا يعلمون».

فالتعبير الصحيح الفصيح عن مفعولية «السوأى» هو «عملوا الأسوء» تبديلًا لكل من الفعل والمفعول، ثم يبقى- إذاً- «وكانوا بها يستهزءون» عطفاً لا يناسب السبب «ان كذبوا» لأنه مع «السوأى» ردفاً مفعولياً، لا مع «كذبوا» ردفاً سببياً.

إذاً فالإسمية لها هي المتعينة، ان الحياة السوأى هي عاقبتهم في رجعة ثم برزخ ثم القيامة الكبرى، رغم ان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون، وقد بدلوها بسوأى الحياة بما كانوا يعملون.

ان التكذيب بآيات الله والإستهزاء بها هما الحياة الجهنمية في الأولى، حيث يخلِّفان أسوءَ الأعمال بأسوء الأحوال، فعاقبتهم هنا عذاب الإستئصال، وهي الجهنمية الأولى، «ثم كان عاقبة الذين اساءوا» هكذا وابتلوا باستئصال هي

---

(١)). سورة فصلت ٤١: ٢٧

(٢)). سورة الزمر ٣٩: ٣٥

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٢٤

«السوأى» التي تعقبهم بعد الموت، برزخاً ورجعة وقيامة كبرى، خلاف ما «للذين احسنوا الحسنى وزيادة».

و «ان كذبوا ..» قد تكون بياناً ل «اساءُوا» دون حاجة إلى تقدير ام سبباً ل «السوأى» ام هما معنيَّان جمعاً بينهما، ان اساءَتهم هي تكذيبهم واستهزاءهم، وهي هي السبب ان كان عاقبتهم السوأى، وهي أسوء العواقب على الإطلاق دون مفضل عليه هو السوء في الدنيا، ام بمفضل عليه هو عذاب الاستئصال بتكذيبهم، وعلّهما معاً معنيّان، ولمعرفة العاقبة السوءَى للذين اساءوا وكذبوا بآيات اللَّه، يؤمرون ان يسيروا في الأرض، دون انعزالية عن ذلك السير المبصر المذكور، ساكنين في امكنتهم كالقوقعة، ام سائرين في الأرض حيوانياً وشهوانياً، وانما هو السير الإنساني العاقل الكافل بالإبصار لهؤلاء الغافلين عن المساير والمصاير.

اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ «١»

منه البداية ومنه الإعادة والرجوع اليه في النهاية، إعادة إلى حياة في الأخرى، ثم رجوعاً إلى اللَّه جزاءً حساباً، ثواباً وعقاباً، والبداية هنا هي أعم من الإعادة حين يُعنى منها الإعادة للحساب كما تؤيده «ثم إليه ترجعون» أم هما سيان، حيث يبدء كل خلق ثم تقوم قيامة الإماتة والتدمير، الشاملة لكل خلق، ثم يعيد اللَّه كل الخلق قسماً للرجوع إليه حساباً، وقسماً بلا حساب، بل هو أمكنة السكنى لهم كما في الحياة الدنيا، مهما كانت أوسع كما الآخرة هي احيى منها.

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمجْرِمُونَ ١ ١٢ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ «٢»

الإبلاس هو الإياس مع حيرة، وتراه كيف يختص ب «يوم تقوم الساعة» وهم آيسون في البرزخ كما عند الساعة؟ علَّ الساعة هنا هي ساعة الموت مستمرة إلى ساعة الساعة فهم ككل مبلسون! ام ان إبلاسهم في البرزخ برزخ من الإبلاس وهو

---

(١)). سورة الروم ٣٠: ١١

(٢)). سورة الروم ٣٠: ١٢- ١٣

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٢٥

اياس مع رجاء، إذ لم يجزوا بعدُ جزاءهم الأوفى، فقد يبقى لهم رجاء إلى رحمة اللَّه حيث يرون خفيف العذاب، ويوم تقوم الساعة يتم إبلاسهم بما يرون من شديد العذاب ومديده، فاليوم إذاً هو يوم الإبلاس الإفلاس وقد فات رجاء الخلاص ولات حين مناص، ولم يكن في البرزخ كامل الإبلاس، ولم يكن إياسه- إذاً- إبلاساً، إذ كان معه رجاء! واضافة إلى ذلك الإبلاس الإياس «ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء» وقد كانوا يرجون شفاعتهم فانقطع الرجاء، إياساً بعد إياس.

وقد تعني «يبلى» كلا الإبلاسين، من اللَّه ومن شفعائهم «وكانوا بشفعائهم كافرين» اتراهم كانوا بهم كافرين يوم الدين؟ وصحيح التعبير وفصحيه «كفروا بشركائهم» أو «يكفر بعضهم ببعض»! ام «كانوا» قبل الساعة» يوم الدنيا؟ وقد كانوا بهم مؤمنين يرونهم شفعاءهم عند اللَّه! قد تعني «كانوا» بين النشأتين وهم في البرزخ حيث يكفرون هناك بشركائهم، ولكن كفرٌ معه رجاءٌ حيث الشفاعة سلبيةً وايجابيةً لا تظهر إلّا يوم القيامة، ففيه «ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء» والحال أنهم «كانوا» قبله بشركائهم كافرين.

ام ان «كانوا» تعبير ماض عن مستقبل متحقق الوقوع، عناية إلى كفرهم بهم يوم الدين، ام هي تشمل كفرهم بهم في البرزخ والأخرى.

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ «١»

هؤلاء المجرمون يتفرقون عن المؤمنين: «وامتازوا اليوم ايها المجرمون» «٢» خلاف ما كانوا يحسبون: «ام حسب الذين اجترحوا السيآت ان نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون» «٣»

كما هم يتفرقون فيما بينهم وبين شركائهم، وبينهم وبين انفسهم، تفرقاً عن الحب

---

(١)). سورة الروم ٣٠: ١٤

(٢)). سورة يس ٣٦: ٥٩

(٣)). سورة الجاثية ٤٥: ٢١

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٢٦

يوم الدنيا، حيث «الأخلاء يومئذٍ بعضهم لبعض عدو إلّا المتقون» «١» فتفرق الفرار بعضهم عن بعض «يوم يفر المرء من اخيه وامه وابيه. وصاحبته وبنيه». «٢»

بشارة النصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً ٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً «٣»

آيات ثلاث تحمل بشارة النصر والفتح، وقد سبقتها بشارات عدة، وهنا مزيد فيه مدى الفتح: «ورأيت الناس يدخلون في دين اللّٰه أفواجاً» وفيه ما يتطلبه الفتح:

«فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توّاباً».

بشارات تتناضافر وتتواصل، في حين أن الرسول صلى الله عليه و آله هاجر مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، وملاحقات المشركين دائبة، وأذاهم دائمة، ورجا الرجوع إلى مكة بعيد، وحتى لأداء فريضة الحج .. وأن فتح مكة وتقاطر الوفود للدخول في دين اللّٰه من أهم الأهداف للرسالة المحمدية، ولأنها ام القرى، المركز الرئيسي للدعوة الإسلامية.

قال ابن كثير في تفسيره: «المراد هنا فتح مكة قولًا واحداً، فإن أحياء العرب كانت تتلوم (تنتظر) بإسلامها فتح مكة، يقولون: إن ظهر على قومه فهو نبيٌّ، فلما فتح اللّٰه مكة دخلوا في دين اللّٰه أفواجاً، فلم تمض سنتان حتى استوثقت جزيرة العرب إيماناً، ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مُظهر الإسلام وللّٰه الحمد والمنة».

هذه الرواية تتلاءم مع ظاهر النص في السورة «إذا جاء ..» فلم يقل «قد جاء» .. إنها بشارة بمستقبل الفتح والنصر لا واقعه، فلقد كانت في هذه البشارات المتلاحقة حجة

---

(١)). سورة الزخرف ٤٣: ٦٧

(٢)). سورة عبس ٨٠: ٣٦

(٣)). سورة النصر ١١٠: ١- ٢- ٣

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٢٧

للرسالة المحمدية، إذ تحمل ملاحم الغيب، وتقوية لقلوب المؤمنين بهذه الرسالة السامية، إذ تبشرهم بمستقبل العز والإنتصار، وفيها تبكيت وتسكيت الكافرين إذ يسمعون الوحي يقرع أسماعهم بقوارع الفتح، وكما تضافرت به الروايات عن الرسول الأقدس صلى الله عليه و آله. «١»

هذه- ومن قبل كانت الآيات تتواصل في بشرى الفتح إعلاناً وإسراراً، يقظة ورؤيا، وإلى حيث كأن الفتح واقع ولما يقع: «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ..» ماض يعني مستقبلًا قاطعاً وكأنه أمر مضى، .. تنزل في السنة السادسة من الهجرة، قبل الفتح

---

(١)). أخرج الطبراني عن ابن عباس قال: لما أقبل رسول اللّه صلى الله عليه و آله من غزوة حنين أنزل عليه «إذا جاء نصر اللّه والفتح» الخ .. قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: يا علي بن أبي طالب ويا فاطمة بنت محمد! جاء نصر اللّه والفتح .. سبحان ربي وبحمده واستغفره إنه كان توابا، ويا علي انه يكون بعدي في المؤمنين الجهاد، قال: علام نجاهد المؤمنين الذين يقولون آمنا؟ قال: على الإحداث في الدين إذا عملوا بالرأى ولا رأى في الدين، إنما الدين من الرب أمره ونهيه، قال علي: يا رسول اللّه أرأيت إن عرض علينا أمر لم ينزل فيه قرآن ولم يقض فيه سنة منك؟ قال: تجعلونه شورى بين العابدين المؤمنين ولا تفضونه برأي خاصة، فلو كنت مستخلفاً أحداً لم يكن أحد أحمق منك لقربك في الإسلام وقرابتك من رسول اللّه صلى الله عليه و آله وصهوك، وعندك سيدة نساء المؤمنين، وقبل ذلك ماكان من بلاء أبي طالب إياي، ونزل القرآن وأنا حريص على أن أرعى له في ولده (الدر المنثور ٦: ٤٠٧).

أقول: لا تخفى دلالة هذا الحديث على أحقية الإمام علي عليه السلام بالإمرة على القولين: انه صلى الله عليه و آله استخلف أو لم يستخلف، إذ أبدى رأيه فيمن هو أولى، فهل ياترى ان لو كان السقيفة حق الاستارة في الإمرة، فمن هو أولى بالاتباع؟ الرسول صلى الله عليه و آله أم أصحاب الشورى، وبعد أن أبدى الرسول رأيه!

وأخرج ابن أبي شيبة ومسلم وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عائشة قال: كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله يكثر من قول: سبحان اللّه وبحمده وأستغفر اللّه وأتوب إليه، فقد رأيتها: إذا جاء نصر اللّه والفتتح- فتح مكة- ورأيت الناس، الخ ..

وفي تفسير علي إبراهيم القمي قال: نزلت بمنى في حجة الوداع وإذا جاء نصر اللّه والفتح، فلما نزلت قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: نميت إلي نفسي، فجاء إلى مسجد الخيف فجمع الناس ثم قال: نصر اللّه امرءاً سمع مقالتي وبلغها من لم يسمعها، فرب حامل فقه ليس بفقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لا يغل عليهن قلب امرىء مسلم: إخلاص العمل للّهوالنصيحة لأئمة المسلمين، واللزوم لجماعتهم، فإن دعوتهم محيطة من ورائهم، أيها الناس إني تارك فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا ولن تزلوا، كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي، فإنه قد نبأني اللطيف الخبير انهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض كإصبعي هاتين- وجمع بين سبابتيه- ولا أقول كهاتين- وجمع بين سبابته والوسطى- فتفضل هذه على هذه (نور الثقلين ٥: ٦٩٠ ح ١٠)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‌٧، ص: ٥٢٨

بسنتين، وفي نفس السورة ذكرى رؤيا الرسول صلى الله عليه و آله وأن اللّه صدقها: «لقد صدق اللّه رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء اللّه آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً»، «١»

ولقد كانت هامة الفتح من غير المحتمل وحتى في الرؤيا، ولكن اللّه حققها وفاءً بعهود تترى ... يرى رؤيا هذه في حين كان المشركون قد منعوهم منذ الهجرة من دخول مكة، حتى في الأشهر الحرم التي كانت العرب تعظّمها في الجاهلية، وتضع السلاح فيها، وتتعظم القتال في أيامها، والصدَّ عن المسجد الحرام، حتى أصحاب الثارات كانوا يتجمعون في ظلال هذه الحرمة، ويلقى الرجل قاتل أبيه أو

أخيه فلا يرفع في وجهه سيفاً، ولا يصده عن البيت المحرم، ولكنهم خافلوا هذه السنة وصدوا الرسول صلى الله عليه و آله والمسلمين طوال سنوات.

«هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي مكعوفاً أن يبلغ محلّه ..». «٢»

بشارات الفتح قبل وقوعها تتلاحق وتتلاصق هنا وهناك، تثبيتاً للمؤمنين، ودفعاً لشكوك المرتابين الذين في قلوبهم مرض: «فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى اللَّه أن يأتي بالفتح أو أمرٍ من عنده فيصبحوا على ما أسرّوا في أنفسهم نادمين». «٣»

ولقد كان المؤمنون يرجون هكذا فتح وانتصار، يرددون رجاءه وبشراه ليل نهار: «وأخرى تحبونها نصرٌ من اللَّه وفتح قريب وبشّر المؤمنين». «۴» .. ولقد خُص الرسول صلى الله عليه و آله برده إلى معاده: مولده وموطنه، لأنه فرض عليه القرآن: أم الكتاب الذي

---

(١)). سورة الفتح ۴٨: ٢٨

(٢)). سورة الفتح ۴٨: ٢۵

(٣)). سورة المآئدة ۵: ۵٢

(۴)). سورة الصف ۶١: ١٣

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ۵٢٩

يجب أن ينشر من أم القرى: «إن الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد». «١»

بشارات في طيات الهجرة، إلى أن قرب الوعد ونزلت سورة النصر بعد سورة الفتح وآيات الفتح، ثم تحقق الفتح ونزلت آياته وآيات بعدها تندِّد بمن كانوا يعدون أنفسهم الحسنى لو جاء الفتح، وأن يخرجوا من الشكوك ومن طالح الأعمال ولم يفعلوا: «فلم تقتلوهم ولكن اللَّه قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن اللَّه رَمى وليُبليَ المؤمنين منه بلاءً حسناً إن اللَّه سميع عليم. ذلكم وأن اللَّه موهن كيد الكافرين. إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم وإن تعودوا نَعُد ولن تغنيَ عنكم فِئَتكم شيئاً ولو كَثُرت وأن اللَّه مع المؤمنين». «٢»

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ:

لقد كانت للنبي الأقدس فتوح بعد الهجرة، ليست معنيّة هنا إلا أعظمها وأهمها، كأنه الفتح ليس إلا، وإنه فتح مكة المكرمة، إذ لم يكن دخول الناس في دين اللَّه أفواجاً إلا عنده لا سواه، ولذلك سمّي فتح الفتوح، وقال النبي صلى الله عليه و آله حينه: لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية. «٣»

وهذا وعد دائب للذين ينصرون دين اللَّه أن اللَّه هو ناصرهم في دينه من قريب أو من بعيد: «إن تنصروا اللَّه ينصركم ويثبت أقدامكم». نصرة في الطاقات الحربية والإنتصارات المعنوية معاً، وكما نراه في حرب بدر

---

(١)). سورة القصص ٢٨: ٨۵

(٢)). سورة الأنفال ٨: ١٧- ١٨- ١٩

(٣)). الدر المنثور ٦: ٤٠٦، أخرج الطيالسي وابن أبي شيبة وأحمد والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن أبي سعيد الخدري قال: ...

والأحاديث مستفيضة أن سورة النصر كانت سورة النعي، وكما أخرج الخطيب وابن عساكر عن علي عليه السلام قال: نعى اللَّه لنبيه صلى الله عليه و آله حين أنزل عليه: إذا جاء نصر اللَّه والفتح، سنة ثمان بعد مهاجر رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فلما طعن في سنة تسع من مهاجرة تتابع عليه القبائل تسعى فلم يدر متى الأجل ليلًا أو نهاراً، فعمل على قدر ذلك، فوسع السنن وشدد الفرائض، وأظهر الرخص ونسخ كثيراً من الأحاديث وغزا تبوك وفعل فعل مودع (صفحه ٤٠٧)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٣٠

كيف غلبت جنود المسلمين وهم ٣١٣ شخصاً على قلة من العِدة والعُدة، على ١٠٠٠٠ شخصاً من المشركين على كثرتهما لهم.

نصر وفتح:

نصرٌ يعقبه الفتح، ليس لأن اللَّه يريدهما دونما شرط، ولا لأن النبي والمؤمنين يريدونه دونما تأييد إلهي، إنما هما بينهما: استعداد بشري، فإعداد إلهي.

نصرُ اللَّه: لبروز حجته وظهور برهانه، وفتح اللَّه للقلوب المقلوبة، فتَحها اللَّه بالرسول الأقدس إذ أضاء عليها بأضواء الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، ولولا هذا الفتح الأول لم يكن للثاني:- دخول الناس في دين اللَّه أفواجاً- من معنىَ.

ثم نصرتان وفتح ثان: أن انتصر المسلمون تحت الراية المحمدية على الوثنيين المحتلين بلد التوحيد، اضطرهم للإسلام أو الاستسلام، إسلام عن حجة مسبَّقة واستسلام عن حجة دامغة بالغة، دون أن يكون هناك إكراه في الدين: «لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي» وإنما الإكراه في الاستسلام: قبول الإسلام ظاهرياً لمن يقبله، رغم براهينه الساطعة: «وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً»

.. فهذه تهمة ووقاحة من أعداء الإسلام: أنه دين السيف والقوة، وليس دين الحجة، لا لشيء إلا أن رسول الإسلام دافع عن نفسه وأنفس المؤمنين بالقوة، ابتداءً من الهجرة، بعد أن ذاق وذاق المسلمون المهاجرون ألوان الأذى والبلاد طوال ثلاث عشرة سنة في مكة المكرمة.

إنه دافع كما يجب إنسانياً وفي الشرائع الإلهية، وكما النبيون أجمع أمروا بالجهاد، فمنهم من وجد أنصاراً كموسى وداود وسليمان وشعيب ويوشع عليه السلام وأضرابهم، إذ حاربوا حروباً دامية، «١» ومنهم من لم يجد أنصاراً رغم استعداده للحرب كالسيد

---

(١)). كما في سفر الاعداد ٣١: ٧- ١٧ والتثنية ٢: ٢٤- ٣٤ و ٢٠: ١، ٢، ٥، ٨، ١٠- ١٤ و ٢١: ٢٤ وسفر الخروج ١٧: ٨- ١٦ .. وأغلب الفصول من كتاب يوشع وأول تواريخ الأيام الفصل ٢٧ والتكوين ١٥: ١٨

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٣١

المسيح عليه السلام. «١»

وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً:

فهل إنهم كل الناس؟ هذا خلاف الواقع الملموس، وإن كان يوافق عموم اللفظ! أم إنهم الذين عرفوا الدعوة فحقَّ لهم أن يصدقوها؟ فكذلك الأمر، أم إنهم المؤمنون فحسب؟ وهذا لا يلائم عموم اللفظ «الناس»!

أقول: رباط الدخول في الإسلام بالفتح يوحي أنهم الذين عرفوا الإسلام ثم كملت معرفتهم بالفتح، بما أنه كان من ملاحم الغيب، وقد صدق به وعد الله، ثم الذين آمنوا منهم هم الناس، والذين لم يؤمنوا وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم فهم النسناس، فقد «سئل الحسن بن علي عليه السلام مَن الناس؟ فقال: نحن الناس، وأشياعنا أشباه الناس، وأعداؤنا النسناس، فقبَّله علي عليه السلام بين عينيه وقال: الله أعلم حيث يجعل رسالته»:

«في دين الله» هل إن سائر الأديان الإلهية ليست دين الله؟ فكيف يُعتبر دخول غير المسلم في الإسلام دخولًا في دين الله، الموحي أنه خروج عن غير دين الله، أو دين غير الله؟.

الجواب: أن الداخلين في الإسلام حينذاك كانوا بين مشرك لم يكن في دين الله،

---

(١)). السيد المسيح والحرب:

ففي إنجيل متى الفصل ١٠، الآية: ٣٤: «لا تظنوا أني جئت لألقي سلاماً على الأرض. ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً».

وفي لوقا (١٢: ٤٩- ٥٠): «جئت لألقي ناراً على الأرض. فماذا أريد لو اضطرمت. ولي صبغة أصطبغها وكيف أنحصر حتى تكمل. أتظنون أني جئت لأعطي سلاماً على الأرض؟ كلا! أقول لكم: بل انقساماً».

وفي لوقا (٢٢: ٣٦): «فقال لهم: لكن الآن من له كيس فليأخذه ومزود كذلك، ومن ليس له فليبع ثوبه ويشتري سيفاً».

هنا وهناك يأمر المسيح بالحرب والدفاع، ثم في الآية ٤٩ يأمر بالضرب: «فلما رأى الذين حوله ما يكون قالوا: يارب! أنضرب بالسيف؟ وضرب واحد منهم عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه اليمنى ..».

وهكذا ترى السيد المسيح كيف استعد للحرب الدفاعية، وقد فشل إذ فشل أنصاره، فناموا بدل أن يقوموا بالسيف!

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٣٢

وبين كتابي لم يكن يلتزم بدين الله، إذ إن الإسلام للهوالتسليم له يقتضي رفض السابق وإن كانت من شريعة الله، والاعتناق بالاحق بما أمر الله، ف «إن الدين عند الله الإسلام» ولا معنى للإسلام ولا معنى للإسلام بعد نزول شريعة القرآن إلا اعتناقه و «رفض ما سواه، مهما كانت من الشرائع السابقة.

وإضافة إلى كل ذلك فإن الشريعة الأخيرة الخالدة كانت هي الهدف الرئيسي من الرسالات قبلها، فلم تكن السابقة عليها إلا كتهيئة لها، فحق لها أن تعتبر كأنها هي الدين لا سواه، وأن رسوله هو الرسول لا سواه. «١»

«أفواجاً»: جماعات كثيرة تترى متسابقين، فقد كانت القبيلة تدخل بأسرها، بعد ما كانوا يدخلون واحداً واحداً واثنين اثنين .. وعن جابر بن عبد الله «أنه بكى ذات يوم فقيل له: ما يبكيك؟ فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه و آله يقول: دخل الناس في دين الله أفواجاً وسيخرجون منه أفواجاً».

هكذا دخولٍ في الإسلام دليلٌ قاطع لا مردّ له، على مدى وضوح البراهين الإسلامية لحدٍّ تتسابق أفواج الناس لتصديقه، ثم ليس خروج من يخرج إلا للمغريات التي تغرّهم، والمضِلات التي تضلهم، أو خروجاً عامداً للتضليل وكما كان دخوله للادغال والتدجيل.

فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً:

هنا يتحدد شأن الرسول الأقدس صلى الله عليه و آله ومن معه، بإزاء تكريم الله لهم، وإكرامهم بتحقيق نصره على أيديهم: أن شأنه ومن معه هو الإتجاه إلى الله، أن سيبحوا الله بحمده ويستغفروه في لحظة الإنتصار.

التسبيح بالحمد على ما أولاهم من منّه: أن جعلهم أمناء على دعوته، حراساً لدينه، وعلى ما أولى البشرية كلها من رحمة بنصره لدينه، وفتحه على رسوله، ودخول الناس أفواجاً في هذا الخير الفائض العميم، بعد العمى والضلال والخسران

---

(١)). راجح كراسنا «وحدة الدين واختلاف الشرائع» في كتابنا «المقارنات»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٣٣

القديم.

التسبيح بالحمد، لا التسبيح والحمد، كلٌّ على حِدَة، ولا كلٌّ دون سواه، لأن التسبيح يعني الناحية السلبية من صفات اللّه تعالى، والحمد: الناحية الإيجابية:

(الصفات السلبية والثبوتية).

فلو حمدناه دون تسبيح وتنزيه عما هو منزه عنه، لكنا خاطئين في حمده من جهات عدة، منها: أن الحمد يحمل الإثبات، والثابتات من الذوات ومن الصفان حسب ادراكنا ليست إلا حسب مقدرتنا من الإدراك، وهي محدودة من ناحية، وهي مشبهة له تعالى بخلقه من أخرى «فسبحان اللّه عما يصفون. إلا عباد اللّه المخلصين». «١» فإنهم لا يصفونه إلا كما وصف به نفسه.

ولو سبّحناه دون تحميد لخُيِّل إلينا أنه المنفي الذات والصفات لأنفسنا الدائب بالذوات والصفات التي نعيشها، فإذ نسلبها عن ذاته تعالى فكأننا سلبنا عنه كل كيان موجود.

فبما أنه «خارج عن الحدين: حد الابطال وحدّ التشبيه» علينا أن نسبحه بحمده:

١- نسبّحه وننزِّه عنه تعالى ذوات الكائنات وصفاتهم، بحمدنا له في ذاته وفي صفاته، وهنا تصبح كافة الكائنات من صفاته السلبية.

٢- ونسبحه عن تفسير أسمائه الحسنى وصفاته العليا بالمعاني التي نعرفها ونأنسها ونتصف نحن بها، فلا نعني من أنه تعالى: «عليم قدير حي» ما نعينه من مفاهيم ومعاني فينا، بل تسبيحاً بحمده: أنه لا يجهل ولا يعجز ولا يموت، عليم لا كعلمنا، وقدير لا كقدرتنا، وحيٌّ لا كحياتنا.

فنحن ومعنا كافة الخلائق، حينما نحمد ربنا ونصفه، لا ندرك جهة ثبوبية له تعالى، وإنما سلبيات نأنسها، ولكن السلب قد يكون بلغة السلب ويعني واقع السلب، كما في الصفات السلبية: «لا مركب ولا جسم ولا مرئي ولا له زمان ولا له مكان ولا له حد

---

(١)). سورة الصافات ٣٧: ١٦٠

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٣٤

ولا له أول ولا له آخر ولا ..».

وقد يكون السلب بلغة الإثبات: «عليم قدير حي ..» ويعني واقع الإثبات (تسبيح بالحمد) دون أن ندرك منه إلا سلب ما يحق سلبه عنه: «اللاعلم واللاقدة واللاحياة» في حين أننا نسلب عنه صفاتنا هذه أيضاً: ليس له علمنا ولا قدرتنا ولا حياتنا» إذ إنها صفات لا تتناسب وذاته القدسية.

«فسبح بحمد ربك واستغفره» .. التسبيح بالحمد والاستغفار هما تقديسه والاعتراف بربوبيته كما يحق، ثم التماس الغفر ان منه.

و «استغفره»: فهل هو من العصيان والنبي صلى الله عليه و آله معصوم من العصيان، مطهَّر من الأرجاس كلها كما طهَّره ربه! «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً» ... كلا لا عصيان في ساحة النبوة القدسية حتى يكون الإستغفار عنه، ولا يختص الإستغفار بحالة العصيان لكي نضطر إلى التأويل، فإنما الإستغفار من الغَفر وهو الستر، فهو التماس الغفر والستر، إما عن عارٍ وعورةِ العصيان، والنبي معصوم عن العصيان! واما عما سواه من ملابسات لا يخلو عنها أي إنسان:

١- من التقصير أو القصور في حمد الله وشكره، فجهد الإنسان- كان- ضعيف محدود، وآلاء الله دائمة الفيض والهملان: «وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها» .. فمن هذا التقصير يكون الاستغفار، وإن كان من القصور الذاتي، دون عصيان الرسول الأقدس صلى الله عليه و آله كما يقول: «ما عرفناك حق معرفتك وما عبدناك حق عبادتك».

٢- والاستغفار من الخلط بالناس الذي يلزمه الغبار على القلب، وإن كان واجباً رسالياً من حيث التوجيه، ولكنه يلازمه غفلة مّا عن ساحة الربوبية، ولذلك نراه ليلة المعراج حينما عرج عن الكائنات واستغفل عنها، أصبح من قرب ربه معنوياً «قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى».

٣- والاستغفار طلب الغفر والستر من بأس الأعداء: شياطين الجن والإنس، وقد غفر الله لنبيه كذلك بما فتح له مدينة التوحيد مكة المكرمة، كما وعده وجعله من

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٣٥

أهداف الفتح «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً. ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ..»:

ليستر لك الله من ذنبك عند المشركين، إذ كانوا يتربصون بك الدوائر ليقضوا عليك، فستر الله وغفر بأسهم بما فتح له أم القرى.

٤- والإستغفار لملابسات نفسية كثيرة دقيقة لطيفة المدخل: من الزهو الذي قد يساور القلب، أو يتدسس اليه من سكرة النصر بعد طول الكفاح، وفرحة الظفر بعد طول العناء، وهو مدخل يصعب توقّيّة في القلب البشري ... وقد غفر الله له حين القتح هذا الزهو وستره عليه .. فتراه إذ يدخل مكة فاتحاً منتصراً، مكة التي آذته وأخرجته وحاربته ووقفت في طريق الدعوة تلك الوقفة العنيدة .. تراه يدخلها منحنياً للّهشاكراً على ظهر دابته، ناسياً فرحة النصر وزهوته، عفوّاً رحيماً لا ينتقم .. فالمغفرة هنا تضمن عدم الظغيان على المقهورين المغلوبين، ليرقب المنتصر فيهم ربهم، فهو الذي سلطه عليهم، تحقيقاً لأمر يريده، على عجزه صلى الله عليه و آله، فالنصر نصره تعالى، والفتح فتحه، والدين دينه، وإلى الله تصير الأمور.

«واستغفره إنه كان تواباً»: يتوب ويرجع على عباده بالرحمة والمغفرة، لا يكل عباده المتوكلين عليه إلى أنفسهم، وكما في دعاء الرسول صلى الله عليه و آله «ربنا لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين أبداً».

أجل، وإن الإنسان- أياً كان- لا يستغني عن توبة ربه عليه وتأييده له .. فعبثاً يحاول الانطلاق والتحرر وهو مشدود إلى ذاته، مقيَّد برغباته، مثقَل بشهواته .. عبثاً يحاول ما لم يتحرر عن نفسه ويتجرد في لحظة النصر والغُنم من حظّ نفسه ليذكر الله وحده.

وهذا هو الأدب الذي اتسمت به النبوة دائماً، يريد الله أن ترتفع البشرية إلى آفاقه، أو تتطلع إلى هذه الآفاق دائماً.

«انه كان تواباً»: راجعاً إلى عبده بالرحمة بعد ما يرجع إليه العبد بالمعذرة، فتوبة العبد محفوفة بتوبتين من الله: توبة أولى هي أن يوفقه الله للتوبة لكي يتوب «ثم تاب

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٣٦

عليهم ليتوبوا» وتوبة ثانية من الله هي قبول توبة العبد: «إنما التوبة على الله الذين يعملون السوءَ بجهالة ثم يتوبون من قريب». «١»

٥- والإستغفار بمعنى الدفع عن حملة العصيان، لا رفعه بعد وقوعه، كما المغفر في الحرب لأجل الدفع عما ربما يوجه إلى الجندي من الأخطار، كذلك الرسول الفاتح علّه يحمله ما فقموا منه على الإنتقام، وهو مسموح له اعتداءً بالمثل، إلا أن موقف الرسالة يجب أن يكون موقف الرحمة للعالمين، فليستغفر الرسول ربه حالة الفتح لكي يسدده عن حملة الإنتقام ويغفر له ما يحمله على ذلك.

٦- والإستغفار عله هنا للمؤمنين الفاتحين، إذ النص «واستغفره» لا «استغفره لذنبك».

٧- واستغفاره عن ذنبه وغفران الله له عن ذنبه كما في آية الفتح، لا يعني إلا الحفاظ عليه من بأس المشركين، فإن الذنب لغوياً هو الذي يستفظع عقباه، فإن كانت عقبى الدنيا فالذنب من أفضل الطاعات، وإن كانت عقبى الآخرة فالذنب من أشر المعاصي، ولقد غفر الله تعالى ذنب الرسول: عقبى الدنيا الهاجمة عليه من قبل المشركين، غفره له بفتح مكة، إذ

- لم يجرءِ المشركون بعد ذلك أن يؤذوه أو يقاتلوه.

القتال المكتوب على المؤمنين

كُتِبَ عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَاتَعْلَمُونَ «٢»

إنها أولى الآيات في فرض القتال بعد الإذن فيه في آية الحج: «أُذِنَ للذين يقاتَلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير. الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن

---

(١)). سورة النساء ٤: ١٧

(٢)). سورة البقرة ٢: ٢١٦

يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز». «١»

«كتب» هنا وكلما كُتب هي فرض قاطع لا مردَّله، و «كم» في «عليكم» هم كل المؤمنين، فهل هم الحضور- فقط- وقت الخطاب لضرورة وقتية قضيةَ هجمات المشركين واليهود، والمسلمون قلة قليلة، فلتكن القتال- إذاً- فرضاً على الأعيان دون إبقاء اللهم إلّا القاصرين؟.

والخطابات القرآنية الإيمانية هي من القضايا الحقيقة تحلّق على كافة المؤمنين في كل زمان ومكان، وكما الإيمان لا مكان له خاصاً ولا زمان، فالفرائض- وهي كلها من قضايا الإيمان- ليست لتختص بمؤمنين خصوص دون آخرين إلّا حسب النصوص.

فالقتال كما الصلاة وما أشبه هي فرض على كتلة الإيمان مهما اختلف فرض عن فرض في كونه كفائياً ام على الأعيان، وطبيعة القتال هي أنها أمر ثانوي وليس اولياً كالصلاة، فلا قتال إلّا ضد المهاجمين على المؤمنين دفعاً لكيدهم ام صداً لميدهم، وليكن المنضلون منهم قدر الحاجة في دفعهم وصدهم، فالعِدة والعُدة الكافية هي المفروضة عليهم في معارك الشرف والكرامة، «وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا ٥٣٥ نفر من كل فرقة منهم طائفة ... يا ايها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجد وافيكم غلظة ..». «٢»

نرى الجمع بين إيجاب الفرض على المجموعة وسلبه عن الكل كالأعيان، مما يدل على تكليف هذه المجموعة بتطبيق الفرض قدرَ الكفاية من عِدَّتهم كما في عُدَّتهم.

والكُره هو ما يناله الإنسان من ذاته وهو يَعافه فطرياً او عقلياً او شرعياً، كما الكَرة

---

(١)). سورة البقرة ٢: ٤٠

(٢)). سورة التوبة ٩: ١٢٢- ١٢٣

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٣٨

مشقة تناله من خارج فيما يحمل عليه بإكراه، وهو ايضاً راجع الى الكُرة، إذ ما لم يكره امراً ليس ليُحمل عليه بإكراه، ولأنه لا إكراه في الدين فلا كَره فيه اللهم إلا امراً تشريعاً، بل قد يَكره المفروض عليه كُرهاً لمشقة اماهيه تجعله يكرهه في نفس ذاتهمهما طبَّقه لأمر ربه.

وترى كيف يكره المؤمنون امر ربهم وحبَّه، ام ولأقل تقدير عدم كُرهِه هو قضية الإيمان؟ «وهو كره لكم» هنا هي حال الأمر وظرفه كما هو قضية الحال في مشاق التكاليف كلها، ولذلك سميت تكاليف حيث يؤتى بها بأمر اللّه رغم الكفلة فيها لعبئها في نفس الذات، والقتال هي بالطبع الأوَّلي لو خلي وطبعه هي أمر إمر لا يلائم الفطرة والعقلية الإنسانية، لأن فيها هدر الأنفس والأموال، اللهم إلا لأمر أهم من الحياة وهو أمر اللّه الذي يحمل كل خير.

والإسلام يحسب حساب الفطرة الإنسانية، فلا ينكر كُره هذه الفريضة وأمثالها، ولا يماري في الفطرة أو يصادمها، ولكنه يعالج الأمر الإمر من ناحية أخرى تلائم الفطرة، أن يسلط عليها نوراً خفية عنها، وهي الخير المخبوء عنها، المجهول لديها، فعندئذٍ يفتح للفطرة نافذة جديدة حادة تطل منها على ذلك الأمر، نافذة تهب منها ريح رخيَّة وروح نديَّة، تهون عندها كل كُره ومسقة، وينقلب أمرها إلى حبيبة مرضية تتهافت إليها جموع المؤمنين.

ومن ذلك القتال حيث يغلِّب خيرها الخفي على كرهها الجلي فيصبح أمرها بامر اللّه ووعده فطرة ثانية تنسي الأولى، فتراه يتفانى متسابقاً في جبهات القتال ضد الأعداء الألداء.

فلما تُعرَّف القتال بإحدى الحسنيين، حسنى قَتْلِ العدو أو الشهادة، وأنهما أحسن من القعود عن النضال، فالفطرة المؤمنة تعشقها بطبيعة الحال، مهما كان المؤمنون درجات في ذلك المجال، ولكي تنضبط الفطرة الإنسانية بضباط الإيمان ورباطه تأتي هذه الضابطة نبراساً ينير عليها دروب الفضائل، ومتراساً يكرس به طاقاته

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٣٩

للنضال في خضمِّ المعارك بكل ألوآنهاوقضاياها ورزاياها:

«وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم واللّه يعلم وانتم لا تعلمون» وليست هذه الضابطة تجهيلًا للفطرة في اصل الإنجذاب الى كل خير والابتعاد عن كل شرٍّ، بل هي تجهيل بالنسبة لمصاديق عِدَّة للخير والشر، حيث الإنسان أيا كان لا يحيط علماً بكل خير وكل شر، لا بفطرته ولا عقليته ولا طاقات أخرى فردية وجماعية، فلابد إذاً من نبراس من وحي السماء يبين خطإ الأرض في مصاديقَ من الخير والشر.

فهذه اللمسة الحنوتة الربانية للفطرة والعقلية والحسية الإنسانية تفتح امامها عالماً آخر وراء المحسوس الملموس، فترتِّب الحاضر والغائب على غيرها تظنه وتتمناه، تبييناً لها أنها لا تحيط علماً بكل خير وكل شر، في حين يراد منها الدخول في السلم كافة من بابه الواسعة، دون الضيقة الخاطئة في تستيقن أن الخيرة إنما هي فيما يختارها اللّه لأنه اللّه العليم الحكيم الرحيم، فيستسلم لأمره واثقاً بوعوده دون خوف عما يستقبله من مخاوف ولا حزن على مضى، إلا رجاءً واثقاً أن يحقق له ربه ما أمضى.

و «عسى» هنا كما في غيرها، هي من اللّه ترديد في جوّه لمن عساه يجهل كما هنا، ف «إرضَ عن اللّه بما قدر وإن كان خلاف هواك»، «١» وكل إنسان يجد في تجاربه الخاصة مكروهات هي في الحق خيرات، وخيرات هي في الحق مكروهات، ما يُطَمْئِنة أن ليس كل ما يراه خيراً خيراً، ولا كل ما يراه شراً شراً، فلابد- إذاً- من التسليم المطلق لأمر اللّه فإنه خير على أية حال.

ولقد وردت في القتال آيات وعلى ضوءها روايات تجعلها أحيا من كل حياة،

---

(١)). الدر المنثور ١: ٢٤٤- اخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: كنت رديف رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقال: يابن عباس ارض ... فانه ثبت في كتاب اللّه، قلت يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله فأين وقد قرأت القرآن؟ قال: «عسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئاً وهو شر لكم واللّه يعلم وانتم لا تعلمون»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٤٠

يجب على من يستحب الحياة أن يدق دروبها حفاظاً على بيضة الإسلام، وحياداً وحائطه على صالح المسلمين في كافة الحقول الحيوية التي هي قضية الإيمان والتسليم للّه.

فحين يُسأل الرسول صلى الله عليه و آله: علمني عملاً يعدل الجهاد، يقول: لا أجده حتى تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجداً فتقوم ولا تفتر وتصوم ولا تفطر، قال: لا استطيع ذاك. «١»

---

(١)). المصدر- اخرج البخاري والبيهقي في الشعب عن ابي هريرة قال جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه و آله قال: علمني ... قال صلى الله عليه و آله: لا استطيع ...

وفيه اخرج الترمذي وحسّنه والنسائي وابن حبان عن ابن عباس ان رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: ألا أخبركم بخير الناس منزلًا قالوا بلى يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: رجل اخذ برأس فرسه في سبيل اللّه حتى يموت او يقتل، ألا اخبركم بالذي يليه؟ قال بلى، قال: امرءٌ معتزل في شعب يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعتزل شرور الناس، ألا اخبركم بشر الناس؟ قالوا: بلى قال: الذي يسأل باللّه ولا يعطي.

وفيه اخرج الطبراني عن فضالة بن عبيد سمعت رسول اللّه صلى الله عليه و آله يقول: الاسلام ثلاثة سفلى وعليا وغرفة، فأما السفلى فالإسلام دخل فيه عامة المسلمين فلا تسأل أحداً منهم إلا قال: أنا مسلم واما العليا فتفاضل اعمالهم بعض المسلمين افضل من بعض واما الغرفة العليا فالجهاد في سبيل اللّه لا ينالها الا افضلهم.

وفيه اخرج مسلم وابو داود والنسائي والحاكم والبيهقي عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه و آله قال: من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو ومات على شعبة من النفاق.

وفيه اخرج احمد والطبراني والحاكم وصححه عن معاذ بن أنس ان رسول اللّه صلى الله عليه و آله بعث سرية فأتته امرؤة فقالت يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله إنك بعثت هذه السرية وان زوجي خرج فيها وقد كنت اصوم بصيامه واتعبد بعبادته فدلني على عمل ابلغ به عمله؟ قال صلى الله عليه و آله: تصلين فلا تقعدين وتصومين فلا تفطرين وتذكرين فلا تفترين، قالت: واطليق ذلك يا رسول اللّه؟ قال: ولو طوّقت ذلك والذي بيده ما بلغت العشير من عمله.

وفيه اخرج الطبراني عن ابي هريرة قال سمعت رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله يقول: اذا خرج الغازي في سبيل اللّٰه جعلت ذنوبه جسراً على باب بيته فاذا خلف خلف ذنوبه كلها فلم يبق عليه منها جناح بعوضة وتكفل اللّٰه له باربع بان يخلفه فيما يخلف من اهل ومال وأي ميتة مات بها ادخله الجنة فان ردّ ردّه سالماً بما لَه من اجر او غنيمة ولا تغرب شمس إلا غربت بذنوبه

وفيه اخرج احمد عن ابي امامة قال: خرجنا مع رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله في سرية من سراياه فمر رجل بغار فيه شيءٌ من ماءٍ فحدث نفسه بان يقيم في ذلك الماء فيتقوت مما كان فيه من ماء ويصيب مما حوله من البقل ويتخلى من الدنيا فذكر للنبي صلى الله عليه و آله فقال: إني لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية ولكني بعثت بالحنيفية السمحة والذي نفس محمد بيده لغدوة او روحة في سبيل اللّٰه خير من الدنيا وما فيها ولمقام أحدكم في الصف خير من صلاته ستين سنة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٤١

وقال صلى الله عليه و آله: «لا يجمع اللّٰه في جوف رجل غباراً في سبيل اللّٰه ودخان جهنم ..»، «١»

والقتال تعم الدفاعية، والهجومية التي تعني الدفاع عن المستضعفين، فللدفاع مرحلتان، اولى هي دفع المهاجمين على المسلمين فعليهم أن يدافعوا عن أنفسهم، وثانية هي دفعهم عن غيرنا من المستضعفين.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ٢١٧ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ «٢»

«الشهر الحرام» هو جنسه الشامل ل «أربعة حُرُم»: «إن عدة الشهور عند اللّٰه اثنى عشر شهراً في كتاب اللّٰه يوم خلق السماوات والأرض منها اربعة حرم فلا تظلموا فيهن انفسكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن اللّٰه مع المتقين». «٣» والحُرُم الأربعة هي: رجب- شوال- ذو القعدة وذو الحجة، «قتالٍ فيه» هو المسؤل

---

(١)). المصدر اخرج احمد عن ابي الدرداء قال قال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله ... ومن اغبرت قدماه في سبيل‌اللّٰه حرم اللّٰه سائر جسده على النار ...

وفيه اخرج ابو داود وابن ماجة عن ابي امامة ان النبي صلى الله عليه و آله قال: من لم يغز ولم يجهز غازياً في اهله بخير اصابه اللّٰه بقارعة قبل يوم القيامة، وفي اخرى: قبل الموت.

وفيه اخرج البزار عن ابي عباس قال قال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله حجة خير من أربعين غزوة وغزوة خير من اربعين حجة، يقول: اذا حج الرجل حجة الاسلام فغزوة خير له من اربعين حجة وحجة الاسلام خير من اربعين غزوة اقول: حجة الاسلام المفروضة عينا خير من اربعين غزوة كفائية، اللهم الا غزوة لا كفاية فيها بين الغازين فتتقدم- اذاً- على حجة الاسلام فضلًا عن سواها

(٢)). سورة البقرة ٢: ٢١٧- ٢١٨

(٣)). سورة التوبة ٩: ٣٦

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٤٢

عنه الشهر الحرام، وتنكيره يعني الشمول لكل قتالٍ من كل مقاتلٍ فيه، بادئاً وسواه، مدافعاً وسواه، ولكن الدفاع فيه كما في الحرم وعند المسجد الحرام مسموح فيه، ضرورةَ الحفاظ على الحرمات الإسلامية ولا سيما في الحرم والشهر الحرام: «ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم كذلك جزاء الكافرين. فان انتهوا فان اللّٰه غفور رحيم ..». «الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ..». «١»

فلا يحل إحلال شعائر اللّٰه ومنها الحَرَم، ولا الشهر الحرام «يا أيها الذين آمنوا لا تُحلوا شعائر اللّٰه ولا الشهر الحرام ..». «٢» وكل من الحرم والشهر الحرام له حرمته فضلًا عن اجتماعهما، وهذه الحرمة كانت هي السنة المستمرة المحلِّقة على المشركين كما الموحدين، فقد يُلزم هؤلآء بما التزموه مهما لم يكونوا مسلمين او موحدين.

فالقتال محرم في الحرم وفي الشهر الحرام على القبيلين، والسؤال «عن الشهر الحرام»، يعمهم، فسواءٌ أكان القتال هجومياً، أم دفاعياً إعتداءً بالمثل والعدو في الحال غير مقاتل، لا يحل للمسلم «قتال فيه» اللّهم الا اعتداءً بالمثل حال قتالهم فيه «فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم» و «لم يكن رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله يغزو في الشهر الحرام إلّا ان يغزى»، «٣» وهنا «قل قتال فيه» تُمحور قتالَ المشركين فيه بادئين، كما وِن «كبير وصدٌّ- وكفر. ولا يزالون يقاتلونكم» هي شهود أربعة عليه، مهما تضمنت القتال الهجومية منا أمَّا شابه من دون الدفاع، ولكنهما لا تعد عن الفسق مهما كان كبيراً، دون كفر وصدٍّ أما شابه.

وقد يعني «يسألونك» المشركين مع المسلمين ف «ان المشركين صدوا رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله وردوه عن المسجد الحرام في الشهر الحرام ففتح اللّٰه على نبيه في شهر حرام

---

(١)). سورة البقرة ٢: ١٩٢ و ١٩٤

(٢)). سورة المآئدة ٥: ٢

(٣)). تفسير الفخر الرازي ٦: ٣١ روى جابر قال: لم يكن ..

من العام المقبل فعاب المشركون على رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله القتال في شهر حرام فقال اللّٰه: قل قتال فيه كبير وصدٌّ عن سبيل اللّٰه وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند اللّٰه» «من القتال فيه» «١» تعريضاً بهم حيث قاتلوه وصدوه وأخرجوا عنه، ولكنما

---

(١)). الدر المنثور ١: ٢٥٠- اخرج ابن جرير وابن حاتم عن ابن عباس قال: ان المشركين ... وانمحمداً صلى الله عليه و آله بعث سرية فلقوا عمرو بن الحضرمي وهو مقبل من الطائف آخر ليلة من جمادى وأوّل ليلة من رجب وان اصحاب محمد صلى الله عليه و آله كانوا يظنون ان تلك الليلة من جمادى وكانت اوّل رجب ولم يشعروا فقتله رجل منهم واخذوا ما كان معه وان المشركين ارسلوا يعيرونه بذلك فقال اللّٰه: يسألونك عن الشهر الحرام ... واخراج اهل المسجد الحرام منه اكبر من الذي اصاب اصحاب محمد صلى الله عليه و آله والشرك اشد منه.

وفيه اخرج ابن جرير من طريق السدى ان رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله بعث سرية وكانوا سبعة نفر عليهم عبد اللّٰه بن جحش الأسدي وفيهم عمار بن ياسر وابو ياسر وابو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وسعد بن ابي وقاص وعتبة بن غزوان السلمي حليف لبني نوفل

وسهيل بن بيضاء وعامر بن فهيرة وواقد بن عبد الله اليربوعي حليف لعمر بن الخطاب وكتب مع ابن جحش كتاباً وامره ان لا يقرأه حتى ينزل ملل فلما نزل ببطن ملل فتح الكتاب فإذا فيه أن يسْر حتى تنزل بطن نخلة فقال لأصحابه من كان يريد الموت فليمض وليوص فإني موص وماض لامر رسول الله صلى الله عليه و آله فسار وتخلف عنه سعد بن ابي وقاص وعتبة بن غزوان أضلا راحلة لهما وسار ابن جحش إلى بطن نخلة فإذا هم بالحكم بن كيسان وعبد الله بن المغيرة وعمرو الحضرمي فاقتتلوا فأسروا الحكم بن كيسان وعبد الله المغيرة وانقلب المغيرة وقتل عمرو الحضرمي قتله واقد بن عبد الله فكانت اوّل غنيمة غنمها أصحاب محمد صلى الله عليه و آله فلما رجعوا الى المدينة بالأسيرين وما غنموا من الأموال قال المشركون: محمد يزعم انه يتبع طاعة الله وهو اوّل من استحل الشهر الحرام فانزل الله: يسألونك ... وما صنعتم انتم يا معشر المشركين اكبر من القتل في الشهر الحرام حين كفرتم بالله وصددتم عنه محمداً والفتنة وهي الشرك اعظم عند الله من القتل في الشهر الحرام فذلك قوله: وصد عن سبيل الله وكفر به.

اقول: وفي القصة بصورة أخرى اخرج البيهقي في الدلائل من طريق الزهري عن عروة ان رسول الله صلى الله عليه و آله بعث سرية من المسلمين- الى ان قال-: فركب وفد من كفار قريش حتى قدموا على النبي صلى الله عليه و آله فقالوا: أتحل القتال في الشهر الحرام فأنزل الله عز وجل: يسألونك ... فبلغنا ان النبي صلى الله عليه و آله عقل ابن الحضرمي وحرم الشهر الحرام كما كان يحرمه حتى انزل الله عز وجل: براءَة من الله ورسوله.

وفيه عن عروة في القصة ... فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله واستأسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان وهرب المغيرة فأعجزهم واستاقوا العير فقدموا بها على رسول الله صلى الله عليه و آله فقال لهم: والله ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام فأوقف رسول الله صلى الله عليه و آله الأسيرين والعير فلم يأخذ منها شيئاً فلما قال لهم رسول الله صلى الله عليه و آله ما قال سقط في ايديهم وظنوا ان قد هلكوا وعنفهم اخوانهم من المسلمين وقالت قريش حين بلغهم أمره: قد سفك محمد الدم الحرام واخذ المال وأسر الرجال واستحل الشهر الحرام فأنزل الله في ذلك الآية فلما نزل ذلك اخذ رسول الله صلى الله عليه و آله العير وفدى الأسيرين فقال المسلمون يا رسول الله صلى الله عليه و آله أتطمع ان يكون لنا غزوة فأنزل الله: ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله اولئك يرجون رحمة الله، وكانوا ثمانية وأميرهم التاسع عبد الله جحش

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٤٤

الاعتداء بالمثل ولا سيما حالة القتال لا يحمل حِمل هذه العتابات فانه حق مشروع.

وأياً كان السائل عن الشهر الحرام قتال فيه، ف «قل قتال فيه كبير ..» جوابُه، فللمسلم تحذيراً عن القتال المعتمد فيه هجومياً دون دفاع، والذي حصل ما كان عن امر الرسول صلى الله عليه و آله ولا عن عمد للمقاتلين حيث اخطأوا في الشهر الحرام وهم ماضون في امر رسول الله صلى الله عليه و آله ف «أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم».

وللمشركين تعريض وتنديد بما فعلوا وافتعلوا في الشهر الحرام صداً عن سبيل الله وكفراً بالله والمسجد الحرام «وإخراج أهله أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل» وقد فعلوا كل ذلك فكيف يعترضون على قتلة خاطئة من مسلمٍ ويعربدون في ابواق دعاياتهم ضد رسول الإسلام والمسلمين.

وقد تلمح «قل قتال فيه» بديلًا عن «القتال فيه» أن الثاني يختلف عن الأول، وإلّا كان معرفاً بما ذكر قبل، إذاً ف «قل قتالٌ فيه» يعني قتال المشركين ضد المسلمين الذي تصدق فيه المواصفات، واما «قتالٍ فيه» سؤالًا من المشركين عمن قتله المسلمون خطأً، فالآية

التالية تكفل الجواب عنه: «ان الذين آمنوا .. أولئك يرجون رحمة اللّه» فان قتالهم كان في سبيل اللّه بامرٍ من رسول اللّه صلى الله عليه و آله مهما اخطأوا في وقته المصادف لأول يوم من رجب وهم ظانون أنه أخر يوم من الربيع الثاني.

فأين قتال من قتال مهما كانا في الشهر الحرام، والمشركون يستعظمون قتلةً من المسلمين خطأً ويخلفون جواً ضد الرسالة الإسلامية أنها تخالف حرمة الشهر الحرام، وهم انفسهم يستحلونه كأبشع تحليل بكل إدغال وتدجيل وتضليل.

وهذه هي الشيمة الشنيعة للكافرين، تفتيشاً عن أية مزرءة صغيرة خاطئة أمَّاهيه

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٤٥

من المسلمين، ثم يتجاهلون عما هم فاعلون من الجرائم البشعة المتواصلة المتعمَّدة ضدهم دون رعاية لهم إلَّا ولا ذمة.

وهكذا انطلقت أبواق الدعاية المشركة ضد هذه الرسالة السامية بشتى الأساليب الماكرة التي راجت في البيئة العربية، مظهرةً رسول الرحمة وأصحابه بمظهر المعتدي الذي يدوس القدسية المشتركة وهي حرمة الشهر الحرام، فنزلت الآية قاطعة كل قالة غائلة، فقبض الرسول صلى الله عليه و آله الأسيرين والغنيمة قائلًا: واللّه ما أمرتكم بالقتال في الشهر الحرام ...» لقد كانت قالة المشركين كلمة حق يراد بها الباطل، وكم لها من نظير يواجهها الإسلام بكل حجة صارمة، ومنها هنا «قل قتال فيه كبير ..» تعريضاً عريضاً على المتسائلين من المشركين، عرضاً لدركات سبع من معارضاتهم وعرقلاتهم ضد الإسلام والمسلمين:

١- «قل قتال فيه كبير» بدءً فيه بهجمة هَمِجة على أهل الحرم.

٢- «وصد عن سبيل اللّه» سبيل الحج والعمرة وكل تعبد في الحرم الآمن.

٣- «وكفر به» باللّه وبسبيل اللّه، لأنه قتال في سبيل الشرك نقمة على المؤمنين باللّه.

٤- «والمسجد الحرام» وكفرٌ بالمسجد الذي يحترمه المشرك والموحد.

٥- «وإخراج أهله منه أكبر عند اللّه» من قتل الخطإِ الذي حصل من المسلمين، ومن قتالهم في الشهر الحرام، حيث القصد من قتالهم ضد اهله اخراجهم عنه بكل إحراج، تخلية له عن الموحدين، إخلاءً- فقط- لأنفسهم المشركين.

٦- «والفتنة اكبر من القتل» فتنة الإحراج الإخراج عن الحرم، وعن الدين.

٧- «ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا ..».

وهم بهذه الدركات السبع الجهنمية ضد الإسلام والمسلمين في الحرم والشهر الحرام ينتقدون المسلمين أن قتلوا واحداً منهم في سريَّة حيث اخطأوا الشهر الحرام، واين قتال من قتال، لقد فتنوا المسلمين طوال العهد المكي فتكاً بهم وهتكاً للحرم والشهر الحرام وصداً عن سبيل اللّه، وافتعلوا كل افتعالة وفعلة ضدهم، فسقطت بذلك

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٤٦

حجتهم في التحرز بحرمة البيت الحرام والشهر الحرام، واتضح موقف المسلمين- المشرِّف- في دفع هؤلآء المتهتكين المعتدين على الحرمات، الذين يتخذون منها ستاراً لفضائحهم حين يريدون، وينتهكون قداستها حين يريدون، وكان على المسلمين أن يقاتلوهم مهما ثقفوا لأنهم باغون معتدون، لا يرقبون في مؤمن إلَّا ولا ذمة، ولا يتحرجون أمام قداية، ولكنهم امة مرحومة رحيمة.

اجل- لقد كانت منهم قالة غيلة قالة- كلمة حق يراد بها الباطل فكسحتها الآية المجيبة، ومسحت عن جبين المسلمين غبار التهمة الوقحة، وأزالت ستارهم- أولاء الأنكاد- الذي كانوا به متسترين، حيث كانوا يحتمون خلفه اتشويه موقف الجماعة المسلمة واظهار

بمظهر المعتدي وهم المعتدى عليهم! رغم أنهم هم المعتدون على طول الخط الإسلامي السامي «ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا ..»!

وفي رجعة اخرى حول دركاتهم السبع مسائل عدة:

١- هل ان حرمة القتال في الشهر الحرام منسوخة ب «فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» كما قيل؟ وليس هذا إلّا قيل الكليل، حيث الآية نفسها تطارده: «فاذا انسلخ الأشهر الحرام فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم»!، «١» ثم القتال فيه دفاعاً واعتداءً بالمثل هي قضيةُ الدفاع عن حرمات إسلامية متوقة على حرمة الحرم والمسجد الحرام، وقضية آيات الدفاع والإعتداء بالمثل.

٢- ما هو الرجحان هنا في بدل الإشتمال، حيث الشهر الحرام يشمل زمناً على قتال فيه، دون «يسألونك عن القتال- او- قتال في الشهر الحرام»؟

علّه تقديم الكل لتنجيز الجزء، فالشهر الحرام محرم في أمور عدة ومنها «قتال

---

(١)). سورة التوبة ٩: ٥

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٤٧

فيه» فشاكلة السؤال هذه مما يضخِّم أمر «قتال فيه» ويكبِّره أكثر من إفراده بالذكر.

٣- «قل قتال فيه كبير ..» وقد قدمنا وجه التنكير فيه كما الأول، وأن «كبير وصدٌ وكفر وفتنة» إنما هو في قتال المشركين فيه ضد المسلمين، دون قتال خاطىءٍ من بعض المسلمين واحداً من المشركين.

٤- وذلك «كبير» كعصيان لمسلم، وكبير ككفر لكافر، فانه تهتُّك للشهر الحرام، المحرم بين الفريقين.

٥- «وصدٌ عن سبيل اللّه» حيث الشهر الحرام هو زمن الحج والعمرة، فرجب لعمرة فُضلى، وشوال وذو القعدة وذو الحجة بعمرة التمتع، وهما من سبل اللّه الهامة كما بينت في آيات الحج.

٦- «وكفرٌبه» كفر باللّه صداً عن سبيل اللّه عناداً لأهل اللّه، وذلك خاص بالمشركين باللّه، دون قتال المسلمين ذوداً عن حرمات اللّه مهما اخطأوا احياناً حيث يخطئون الشهر الحرام، ثم كفر بسبيل اللّه وهو الرسول، وهو الحج، وهو كل ما يصدُّ في الشهر الحرام.

٧- «والمسجد الحرام» وكفر بالمسجد الحرام، نكراناً لحرمته كمت الشهر الحرام، وحذف الجار هنا في العطف دليل السماح فيه فلا يصغى الى قالة اهل الأدب حيث يناجر ادب القرآن والأدب مع مُنزِل القرآن ومَنزِله.

٨- «وإخراج اهله منه اكبر عند اللّه» وتراه مم هو اكبر؟ علّه يعني اكبر من قتال المسلم فيه خطأً في الشهر الحرام، أم ومن قتال المشركين ضدهم حيث يعني إخراجهم أهله منه، لأنه إخراج للموحدين الآهلين للمقام عنده إحياءً لشعائر اللّه فيه، ففي إحراجهم بالقتال فاخراجهم إخراجٌ لشعائر التوحيد في مثابة الموحدين، وذلك اكبر من قتالهم فيه لأنه فتنة.

٩- «والفتنة اكبر من القتل» لأنها قتل للأرواح المؤمنة ارتداداً عن الإيمان، وهو أكبر وأشد من قتل الأجساد، فكل فتنة- عقائدية ام سياسية او اقتصادية او حربية-

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٤٨

تعني إحراج المسلمين فاخراجهم عن الدين، إنها- ككل- اكبر من القتل.

١٠- «ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ..» مقاتلة متواصلة تهدف ارتدادكم عن دينكم، وهذه هي الفتنة الكبرى التي تفوق كل كبيرة، وهذه العاشرة من خلقيات قتال فيه هي اكبر من أصل القتال وفصله.

ذلك هو الكفر الماقت بهدفه الشرير البائت، يتربص دوماً بالمؤمنين كل دوائر السوء بُغية ارتدادهم عن دينهم حسب النستطاع.

وذلك هو الخطر الهاجم على الكتلة المؤمنة على طول الخط، بكل أحابيلة وأباطيلة: فتنة المؤمنين عن دينهم بوصفها الهدف الثابت البائت لهؤلآء الأنكاد، هدف لا يتغير كأصل لأعداء الجماعة المسلمة مهما اختلف الوانه ووسائله، في حرب شعواء عشواء، علمية- عقائدية- اخلاقية- سياسية- اقتصادية أماهيه.

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ «١»

«لقد» في تأكيدين اثنين «نصركم الله في مواطن كثيرة»: من جبهات القتال وسواها: حيث عشتم نصر الله، «ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم» فلما كثرتم فأعجبتكم كثرتكم إنكسرتم، حيث انفلت عنكم صالح التوكل على الله ورجاء نصر الله «فلم تغن عنكم كثرتكم شيئاً» حين تركتم ما يغنيكم من نصر الله «وضاقت عليكم الأرض»: أرض المعركة أم وسواها «بما رحبت» رحبة كأرض الصراع والوقاع لمكان كثرتكم أم ككل الأرض، وضيقة بما ضيقكم إعجابكم وثقتكم بأنفسكم «ثم وليتم مدبرين» فراراً عن عدوكم، وفي الأثر أن «مواطن كثيرة» هذه هي ثمانون موطناً.

وترى «كثيرة» هنا دليل عناية ثمانين فيما تطلق على أية حال؟ والمطِلق إذا عنى أكثر منها أو أقل لا يعني من كثرته إلّا ما عنى، وإذا لم يعنِ حداً معيناً فعرفية الكثرات

---

(١)). سورة التوبة ٩: ٢٥

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٤٩

تختلف حسب الحالات والملابسات والإمكانيات، فمن مُقِلّ كثيرة أقل من ثمانين بكثير، ومن مكثر ثريّ كثيرة أكثر منه بكثير، طالما اتفق، صدق «كثيرة» لمن يملك مالًا يعد الثمانون له كثيراً، إذا فكيف يستبدل ب «كثيرة» هنا أنها معنية لأقل تقدير فيما تطلق بحقل الإنفاق أم سواه؟. «١»

ثم «كثيرة» في مواطن القتال هي أكثر كثيرة، ومن ثمَّ هي في مواطن أخرى بين كثيرة وقليلة، والثالثة هي الأخرى قلة قليلة، فمن ينذر أن يتزوج كثيراً لا تعدو كثرته أربعاً وما زاد، والذي يملك مليارات حين ينذر أن يدفع كثيراً لا يعد ثمانون منه إلّا أقل قليل!.

إذاً فالكثرة في حقل وحالة وملابسة لها حدّها كما تعرفها أعرافها، دون أن يحد لها حد خاص هو قليل أو أقل قليل في بعض، أم كثير أو أكثر كثير في آخر وبينهما عوان.

«ويوم حنين» وهو واد بين مكة والطائف وقعت فيه غزوة حنين حيث تناصر فيها هوزان وثقيف على رسول اللّه صلى الله عليه و آله والذين معه، فانهزموا في البداية ثم هزموا بنصر اللّه في النهاية، واختصاص «يوم حنين» بالذكر بين كل المواطن دليل أنه أهم مما سواه، وحتى من فتح مكة، فإن تغلُّب زهاء ثمانين من المؤمنين على أربعة آلاف هو منقطع النظير في كل تاريخ الحروب!: فلما فتح رسول اللّه صلى الله عليه و آله مكة وقد بقيت من رمضان أيام خرج متجهاً إلى حنين لقتال هوازن وثقيف بعد ما بلغه انهم جمعوا له ليقاتلوه، فسبقهم إلى أرض المعركة، وكانوا أربعة آلاف وجيش الإسلام بين عشرة آلاف

(١)). نور الثقلين ٢: ١٩٦ في معاني الأخبار عن أبي عبد اللّه عليه السلام انه قال في رجل نذر أن يتصدق بمال كثير فقال: الكثير ثمانون فما زاد لقول اللّه تبارك وتعالى «ولقد نصركم اللّه في مواطن كثيرة» وكانت ثمانين موطناً. وفي تفسير العياشي يوسف بن السخت وتفسير القمي محمد بن عمير وفي الكافي مرسلًا» كان المتوكل اعتل علة شديدة فنذر إن عافاه اللّه يتصدق بدنانير كثيرة أو قال: بدارهم كثيرة فعوفي فجمع العلماء فسألهم عن ذلك فاختلفوا عليه، قال أحدهم: عشرة آلاف وقال بعضهم: مائة ألف، فلما اختلفوا قال له عبّاد: إبعث إلى ابن عمك محمد بن علي الرضا عليه السلام فاسأله فبعث إليه فسأله فقال: الكثير ثمانون، فقالوا رد إليه الرسول فقل من أين قلت ذلك؟ فقال: من قول اللّه تبارك وتعالى «لقد نصركم اللّه في مواطن كثيرة، وكانت المواطن ثمانين موطناً

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٥٠

واثنى عشر أو ستة عشر ألفاً، ألفان منهم من الطلقاء المكيين، فقد كانوا لأقل تقدير ثلاثة أضعاف العدو معاكسة لأصحاب بدر وهم ثلث العدو، ولكنهم هزموا العدو في بدر وانهزموا في حنين في البداية، لمكان الروحية العالية الغالية في بدر، وبخلافها الإعجاب بكثرتهم والإعتماد بأنفسهم في حنين، ولا سيما أن هذه الهزيمة العظيمة كانت بعد فتح مكة الذي هو فتح الفتوح، حيث أخذتهم غِرة الفتح وعزّته ونزوته وحظوته من ناحية، وكثرتهم من أخرى- بمن معهم من طلقاء مكة- فتخلّوا به يوم بدر ومكة، فانهزموا في البداية ليعلموا أنما النصر من عند اللّه العزيز الحكيم، وهكذا يبتلي اللّه المؤمنين بكلّ من الهزيمة، والغلبة العزيمة العظيمة، ولكي يحافظوا على حالة الإيمان وهالته على أية حال، دون إعجاب وإدغال.

فهنا من إنفعال الإعجاب بالكثرة- التي لم يكن لها مثيل طول حروب الرسول صلى الله عليه و آله- إلى زلزلة الهزيمة العظيمة الروحية، إلى إنفعال الضيق والحرج حتى لكأن الأرض الرحبة ضاقت عليهم، وإلى حركة الهزيمة الحسية وتولية الأدبار والنكوص على الأعقاب.

ذلك، ولكي يعرفوا أن الكثرة العديدة- بسابق فتح الفتوح قريباً- هي بمجردها ليست بشيءٍ للجماعة المؤمنة، وكما درسوا من بدر الكبرى وأحد، إنما هي العارفة المطمئنة باللّه المتجرة للّهوفي سبيل اللّه مهما كانت قلة، بما في الكثرة أحياناً دخلاء غير مؤمنين، تائهين في غمارها، غير مدركين حقيقة العقيدة التي ينساقون في تيارها، فتتزلزل أقدامهم وترتجف في ساعة الشدة، ف «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن اللّه» وقد قامت كل ثورة صالحة عقيدية بالصفوة المختارة، لا بالكثرة المختارة والزبد الرغو الذي يذهب جفاء، ولا النسيم الذي تذروه الرياح.

فالحرب السجال بهزيمة الكثرة وغَلَب القلة أم سواها، هي للمؤمنين درس يوقظهم، أن عليهم بجنب ما يُعِدُّون من قوة جسدانية لجسد الحرب، أن يعدوا لأنفسهم قوة روحية هي أريح وأرواح للقلب لهم وللغَلَب على عدوهم.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٥١

ولقد كره رسول اللّه صلى الله عليه و آله إعجابهم بكثرتهم، وفرارهم على كثرتهم «١» ثم القلة الباقية مع الرسول صلى الله عليه و آله الواقية له استحقوا نصراً من اللّه بعد ذلك الكسر الذي كان لغيرهم، ومنهم الإمام علي عليه السلام حيث «قتل بيده يوم حنين اربعين».

فتح الفتوح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً ٢ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً «٢»

إنها سورة الفتح أوّلًا بفتح مكة وأخيراً بفتح دائب لا قبل له لو ظلوُّا مسلمين،

---

(١)). الدر المنثور ٣: ٢٢٤- أخرج ابن أبي حاتم عن عروة أن النبي صلى الله عليه و آله أقام عام الفتح نصف شهرولم يزد على ذلك حتى جاءته هوازن وثقيف فنزلوا بحنين وهو واد إلى جنب ذي المجاز» وأخرج ابن المنذر عن الحسن قال: لما اجتمع أهل مكة وأهل المدينة قالوا: الآن واللَّه نقاتل حين اجتمعنا فكره رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ما قالوا وما أعجبهم من كثرتهم فالتقوا فهزمهم اللَّه حتى ما يقوم منهم أحد على أحد حتى جعل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ينادي أحياء العرب إلي فواللَّه ما يعرج إليه أحد حتى أعرى موضعه فالتفت إلى الأنصار وهم ناحية فناداهم يا أنصار اللَّه رسوله إلي عباد اللَّه أنا رسول اللَّه، فعطفوا وقالوا يا رسول اللَّه ورب الكعبة إليك واللَّه فنكسوا رؤوسهم يبكون وقدموا أسيافهم يضربون بين يدي رسول اللَّه صلى الله عليه و آله حتى فتح اللَّه عليهم.

وفيه عن أبي عبد الرحمن الفهري بسياق القصمة على طولها: فاقتحم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عن فرسه وحدثني من كان أقرب إليه مني أنه أخذ حفنة من تراب فحثاها في وجوه القوم وقال: شاهت الوجوه، قال يعلي بن عطاء فأخبرنا أبناءهم عن آبائِهم قالوا: ما بقي منا أحد إلا امتلأت عيناه وفمه من التراب وسمعنا صلصلة الحديد على الطست الحديد فهزمهم اللَّه.

وفيه عن عبد اللَّه بن مسعود قال: كنت مع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يوم حنين فولىً الناس عنه وبقيت معه في ثمانين رجلًا من المهاجرين والأنصار فكنا على أقدمنا نحواً من ثمانين قدماً ولم نولهم الدبر وهم الذين أنزل اللَّه عليهم السكينة ورسول اللَّه صلى الله عليه و آله على بغلته فمضى قدماً فقال: ناولني كفاً من تراب فناولته فضرب وجوههم فامتلأت أعينهم تراباً وولى المشركون أدبارهم، وفيه عن يزيد بن عامر السوائي قال: أخذ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ارجعوا شاهت الوجوه فما أحد يلقاء أخوه إلَّا وهو يشكو قذى في عينيه ويسمح عينيه

(٢)). سورة الفتح ٤٨: ١- ٢- ٣

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٥٢

تحمل بشارة الفتح المبين، تنزل سادسة الهجرة- عقيب صلح الحديبية وبيعة الرضوان- في كراع الغميم بين مكة والمدينة، «١» بعد ما يرجع الرسول والمؤمنون عن الحديبية.

وقبل فتح مكة بعامين، في حين كانت هجمات المشركين تترى عليهم في كل عام مرة او مرتين. فالمؤمنون صامدون في حربهم، والذين في قلوبهم مرض حائدون: «يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن اللَّه مع المتقين. وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون. وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون. أولا يرون أنهم يفتنون في كا عام مرة او مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذَّكرون». «٢»

وبطيّات هذه المناوشات بشارات الفتح تترى هنا وهناك تلو بعض، فالمؤمنون يستبشرون والمنافقون يسارعون بغية ما يبغون: «فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى اللَّه أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا نادمين». «٣»

وفي حين أن فرض القرآن نشراً وتطبيقاً لزامه فتحٌ مبين، أن يرجع الداعية إلى معاد الدعوة: «إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد قل ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين». «۴» وكما يرى رؤياه المبشرة بما وعد آمنين محلّقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً

---

(١)). الدر المنثور ۶: ٧۴ أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: انصرف رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله من الحديبيةالى المدينة حتى اذا كان بين المدينة ومكة نزلت عليه سورة الفتح «ومثله ما اخرجه ابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن مروان والمسور بن مخرمة»

(٢)). سورة التوبة ٩: ١٢۶

(٣)). سورة المآئدة ۵: ۵٢

(۴)). سورة القصص ٢٨: ٨۵

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ۵۵٣

قريباً».

وإن هذا الفتح المبين هو المحبَّب للمؤمنين: «واخرى تحبونها نصر من اللّٰه وفتح قريب وبشر المؤمنين» «١» كما وانهامنتظرَة لبعض الكافرين، فلقد كانت أحياء العرب تنتظر بإسلامها فتح مكة قائلين: (إن ظهر محمد على قومه فهو نبي) فلما فتح اللّٰه مكة دخلوا في دين اللّٰه أفواجاً، فلم تمض من فتح مكة سنتان حتى استوثقت الجزيرة إيماناً ولم يبق في سائر العرب إلا مظهر للإسلام والحمد للّٰه.

ولقد نزلت سورة قبل سورة النصر، وبعد بشارات الفتح والنصر، بشارات وإشارات تتلاحق منذ الهجرة في طياتها، وإلى صلح الحديبية وإلى أن فتحت مكة فكان ما كان.

ترى أن سورة الفتح- إذاً- تحمل بشارة فتح خيبر؟ وما هو بجنب فتح الفتوح إلّا قطرة في يم، أو حلقة في فلاة قيّ!؟ وإن كان له موقعه في الجزيرة، فإن اليهود هناك كانت البقية الباقية من كفار الجزيرة، سوى مشركي مكة.

أم إنه صلح الحديبية، رغم أنه صلح وليس حرباً، خلاف ما زعمه الخليفة عمر، إذ يواجه رسول الهدى في حمية بعد الصلح، بقوله: «فلِمَ تعطي الدنية في ديننا؟!» فيجيبه الرسول صلى الله عليه و آله قائلًا: «أنا عبد اللّٰه ورسوله لن أُخالف أمره ولن يضيعني» ويجابه مرة اخرى بقولته: «واللّٰه ما هذا بفتح لقد صددنا عن البيت وصُدَّ هدينا»- ومن معه من أضرابه- فقال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله: «بئس الكلام هذا اعظم الفتح، لقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادكم ويسألونكم القضية ويرغبون إليكم في الإياب وقد كرهوا منكم ما كرهوا وقد اظفركم اللّٰه عليهم وردكم سالمين غانمين مأجورين، فهذا اعظم الفتح، أنسيتم يوم أُحد إذ تُصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم في أُخراكم؟

أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار

---

(١)). سورة الصف ۶١: ١٣

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ۵۵۴

وبلغت القلوب الحناجر وتظنون باللّٰه الظونا؟ قال المسلمون: صدق اللّٰه ورسوله هو أعظم الفتوح، واللّٰه يا نبي اللّٰه فكرنا فيما فكرت فيه ولأنت أعلم باللّٰه وبالامور منا، فأنزل اللّٰه سورة الفتح. «١»

وفي الحق إذ ننظر إلى جوِّ الحديبية نرى الانتصار ظاهراً في صلحها، حيث المشركين

وهم أكثر بكثير- هم المقدمون على ذلك الصلح، الواعدون الرسول- ضمن ما وعده في وثيقة الصلح- أن يزوروا البيت في العام القابل ثلاثة أيام، ولم يخطر بخلدهم أنهم على قلَّة عَددهم وعُددهم يرجعون عن هذه السفرة سالمين: «بل ظننتم

---

(١)). الدر المنثور ٦: ٦٨- اخرجه البيهقي عن عروة رضى الله عنه ..

وفيه أخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي عن مجمع بن جارية الأنصاري (وذكر قصة نزول السورة ثم قال) فقال رجل يا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أو فتح هو؟ قال: والذي نفس محمد بيده انه لفتح.

وقد يلمح لنا تكرار هذا السؤال بعنف واهانة من عمر قبل نزول السورة أيضاً لحد يعرض الرسول صلى الله عليه و آله عن جوابه في بعض ما سأل وهو يحسبه غضباً منه صلى الله عليه و آله.

كما أخرج احمد والبخاري والترمذي والنسائي وابن حبان وابن مردويه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال كنا مع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله في سفر فسألته عن شيء ثلاث مرات فلم يرد علي فقلت في نفسي ثكلتك امكيا بن الخطاب نزرت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ثلاث مرات فلم يرد عليك فحركت بعيري ثم تقدمت أمام الناس وخشيت ان ينزل في قرآن فما لبثت أن سمعت صارخاً يصرخ بي فرجعت وانا أظن انه نزل شيء فقال النبي صلى الله عليه و آله لقد أنزلت علي الليلة سورة أحب الي من الدنيا وما فيها «انا فتحنا لك فتحاً مبيناً ...».

أقول ولأن السورة نزلت بعد صلح الحديبية وهي احب الى رسول اللَّه من الدنيا وما فيها، نعرف انهاتحمل بشارة لمستقبل سار، أما آنهاتخبر بما حصل فليس فيه أمر جديد حتى يستسر بها الرسول صلى الله عليه و آله من حديد.

وحيث ان الرسول صلى الله عليه و آله اجاب عمر بعد تركه ثلاث مرات- اجابة بنفس السورة- نتأكد هذا الأمر، وان عمر كان قبل هذه الأسئلة يخاطب الرسول صلى الله عليه و آله في حمية وتعنت.

وقد أخرج ابن أبي شيبة والبخاري في تاريخه وابو داود والنسائي وابن جرير والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: اقبلنا من الحديبية مع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فبينا نحن نسير اذ اتاه الوحي وكان اذا اشتد عليه فسرى عنه ربه من السرور ما شاء اللَّه فأخبرنا انه أنزل عليه «انا فتحنا لك فتحاً مبينا»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٥٥

أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم ابداً» وقد رجعوا منتصرين.

وإنها لموقف القوة والشوكة الإسلامية، الشائكة كالنيازك النارية في عيون المشركين، التي تبشر بفتح مكة لهم «آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين لا يخافون» إذا اعترفت حينه قريش بالنبي والإسلام، والقوة الهائلة لنبي الإسلام، والتماسك المتين بينه وبين المؤمنين، فاعتبرت المسلمين أنداداً لهم، فدفعتهم بالتي هي أحسن، في حين أنها غزت المدينة قبلها في سنتين مرتين .. فهذا فتح مبين للمؤمنين، مهما خفي على سواهم.

وفتح آخر هو أقوى: تفتُّح قلوب كثير من المشركين بقبول الإسلام، فتحاً للدعوة والداعية، حيث أمن المتحاربون بعضهم بعضاً، فالتقوا وتفاوضوا، فأسلم في هذه الفترة القصيرة طوعاً، أضعاف ما كان مع الرسول صلى الله عليه و آله في الحديبية، إذ كانوا الفاً وأربعمائة،

ثم خرجوا عام الفتح وهم عشرة آلاف، إسلام خلال عامين يربو إسلامهم خلال تسعة عشر سنة، في عدد المحاربين، فقد واللّه- وعلى حد+ تعبير رسول اللّه صلى الله عليه و آله- كان أعظم فتح او أعظم الفتوح! «١»

ولكنه مع كل هذه المواصفات لا يبلغ مدى فتح الفتوح: فتح مكة المكرمة، وإنما له نصيبه من معنى الفتح قدر ما فتح السبيل الى فتح مكة، وكما يروى عن الرسول صلى الله عليه و آله «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً» قال فتح مكة. «٢»

---

(١)). كما مضى في المتن- عن الدر المنثور ٦: ٦٨ ما اخرجه البيهقي عن عروة.

(٢)). الدر المنثور ٦: ٦٩- اخرج ابن مردويه عن عائشة رضى الله عنه قالت قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله انا فتحنا لك فتحاً مبيناً: قال: فتح مكة.

وفي نور الثقلين ٥: ٤٨ في حديث عن الامام الرضا عليه السلام فلما فتح اللّه على نبيه مكة قال له يا محمد: «انا فتحنا لك فتحاً مبيناً».

أقول لعله يعني بما فتح اللّه فتحها في الإمضاء كما مضى، ثم وكافة الأحاديث الواردة في نزول السورة متفقة آنهانزلت بعد الحديبية وان الرسول صلى الله عليه و آله سرَّ بها سروراً بالغاً، وليس ذلك الا لأنها بشارة لمستقبل هو- طبعاً- فتح مكة وان كانت- ايضاً- اشارة الى صلح الحديبية الذي هو فتح قبل الفتح- تأمل

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٥٦

فصلح الحديبية فتحٌ إذ فتح مجالًا واسعاً موقفاً مجبوراً لفتح مكة، حيث أمنوا به بأس قريش فاتجهوا إلى تخليص وتطهير سائر الجزيرة عن سائر الكفار بفتح خيبر، فقسم الرسول صلى الله عليه و آله غنمائه بين من حضر الحديبية.

فلا تصدق رؤيا الرسول صلى الله عليه و آله «لتدخلن المسجد الحرام» ولا وعده برده إلى معاد، ولا دخول الناس في دين اللّه أفواجاً، ولا ظهور الإسلام على الكفر ظاهراً باهراً، ولا فتح مبين، إلّا في فتح مكة المكرمة: عاصمة الرسالة الإسلامية ومنطلق الدعوة ومولدها.

وفي الحق إنه فتح الفتوح، كأنه الفتح لا سواه، ولأنه غاية الفتوح وبُغية المسلمين لا سواه، إلّا كذرائع إليه، ولحدٍّ تراه أحب إلى قلب الرسول صلى الله عليه و آله من الدنيا وما فيها.

وهل هنا وجه للجمع بين الفتحين ان تحملها سورة الفتح كما يروى، مع آنهاتحمل بشارة بفَتحٍ واحد «فتحاً مبيناً»؟

أقول: نعم، انه صلح الحديبية كذريعة، وهو فتح مكة كأصل، فيها واحد كياناً رغم أنهما اثنان كوناً، فصيغة الماضي هنا نبأ بمضيّها لفتح مضى، وبشارة بتحقيقها بفتح يستقبل، فتحقق الوقوع في بشارة يجعلها كأمر مضى أو آكد وأقوى، كما أن وقوعه أيضاً أمر مضى، وهنا أمران ماضيان: فتح مضى زمناً وكذريعة، وفتح مضى كياناً وإمضاءً في وعده تعالى، فماض واحد هنا «فتحنا» يشير إلى اثنين، ثانيهما رغم استقباله أعلى وأولى من أولاهما زغم مضيه فإنه كذريعة له أدنى.

وآيات من السورة نفسها تبين هذا التلاحم الوطيد بين الفتحين فتجعل فتح مكة- المستقبلة- إثابة للمبايعة تحت الشجرة: «لقد رضي اللّه عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً» كذلك وصدقاً لرؤياه وجعلًا لفتح قريب: «لقد صدق اللّه رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً».

فالفتح القريب المستقبل مجعول عند اللّه في الماضي وممضىً اثابةً لمبايعة مرضية

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٥٧

مضت، مجعول ممضى لحد يعبر عنه ب «إنا فتحنا» كأنه أمر مضى، لأنه ماض في الجعل والتقدير، مهما كان مستقبلًا، ولأنه ماض- كذلك- في التحضير، حيث الصلح فتح لهذا الفتح مجالًا واسعاً ما له من نظير.

لهذا يحق أن يكون صلح الحديبية فتحاً إذ فتح سبيلًا إلى فتح مكة، ومبيناً، حيث أبان كونه فتحاً عند ما فتح مكة، ومن ثم الفتح المبين والمبان هو فتح مكة فتح الفتوح!.

وقد تصرح أو تلمح آيات من السورة أنها نزلت بعد فتح مكة: (وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان اللّه بما تعملون بصيراً) كما الأخرى تشير إلى جو الحديبية: (هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً أن يبلغ محله ..) مما يدل ان السورة امتدت منذ الحديبية حتى فتح مكة، ولكي تشمل بشارة الفتحين كوناً وكياناً، دلالة وزماناً!.

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً:

(إنا)- هنا- تلمح إلى جمعية الصفات رحمانية ورحيمية، دون الذات المقدسة الإلهية، وإنما هي الصفات الفائضة بها الخيرات، الممكن افاضتها (لك) في فتوحات، وقد برزت هنا (فتحا مبينا): أبانت وبينت شوكة الإسلام، شائكة في عيون المناوئين المحتلين عاصمة الرسالة ومركز الدعوة الأصلية، وأبانت وشيكة ومهانة للمشركين، (فتحاً) هو فتح الفتوح، فإنه بوحدته كل الفتوح، حيث ترجع به العاصمة إلى زعيم الدولة فهذا الفتح (لك) كمتن في الرسالة، وإن كان لكافة المسلمين كهوامش فيها.

(مبيناً) يبين ما خفي من حق أو باطل، يبين وعد اللّه المتين لرسوله الأمين: (لتدخلن المسجد الحرام انشاء اللّه آمنين) و (مبيناً): يفصل ويبين بين الدوائر المتربصة بالرسول وبالمؤمنين، حيث انخمدت به نيران الهجمات والهجمات عليه، وانجمدت كافة الحركات الثورات والعرقلات ضدَّه، (فتحاً) فيه كل خير فائض لحدٍّ يعتبروه الرسول خيراً من الدنيا وما فيها ومما طلعت عليه الشمس وغربت، وليس تنوين

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٥٨

التنكير هنا توهيناً وتنكيراً لمحتد الفتح، وإنما تعظيماً له بحيث لا يُعرف موقفه إلّا أن يعرِّفه فاتحة كما عرف في مواصفات أربع:

(فتحاً) يدعم لصاحب هذه الرسالة الساميةقوائم أربع لعرش الدعوة والدعاية:

لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً ١ ٢ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً «١»

وهنا يبرز ذنب الرسالة كأول دعامة من هذه الدعائم، نتيجة الفتح المبين، أتراه عصياناً منه لربه يستحق به فتح الفتوح، فما هي الصلة القريبة أو البعيدة بين عصيانه هو وان يفتح اللّه له مكة؟ إن هي إلّا مثل ما يزعمه الصليبيون بحق المسيح أنه صُلب وبصَلبه لُعن وبلعنه تحمّل جميع لعنات الناموس، فإن أباه الإله لم يجد بداً في سبيل غفران ذنوب أمته إلّا تفدية الصلب!.

فهلّا يقدر الإله القدير أن يغفر ما تقدم من ذنب رسوله وما تأخر إلا بفتح مكة؟ لا نجد أية صلة بين غفر الذنب العصيان وفتح الفتوح!

ترى وما هو هذا العصيان الذي لا يُغفر له إلّا بفتح مكة؟ وكيف يغفر اللّه ذنباً هكذا عظيماً من عبده بما يفعل اللّه ودون استغفار؟ ودون أن يقف لحد الغفر عما تقدم، بل وما تأخر؟ وهو ذنب واحد «٢» شامل حياة الرسول صلى الله عليه و آله ما تقدم وما تأخر، ذنب عاش حياته وعاشته حياتُه فما أعظمه!

أسئلة لا جواب عنها ما دام الذنب عصياناً، اللّهم إلّا أن يتحول إلى أعظم الطاعة والإيمان، وأنعم النعم في تقدم الإسلام نتيجة الفتح المبين!.

في الحق إن الذين فسروا الذنب هنا بالعصيان أخطئوا في تفسيرهم لغوياً وتفسيرياً معاً فابتلوا بفرية العصيان على رسول الهدى وهو أوّل العابدين ثم تفرقوا

---

(١)). سورة الفتح ٤٨: ٢- ٣

(٢)). تستفاد وحدة الذنب من «من ذنبك» فلم يقل «من ذنوبك»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٥٩

في الذود عنه أيادي سبا «١» أو صمد الأجهلون منهم على فريتهم قائلين إنه صلى الله عليه و آله لم يخل عن أخطاء! أم ماذا؟.

وليتهم فكروا في محمّد الرسول صلى الله عليه و آله على ضوء القرآن نفسه، وآية الذنب نفسها، ولغة الذنب وبيئته، لكي يعرفوا ظأنه ذروة الطاعة هنا لحدٍّ يحققها كمُرامها الفتحُ المبين.

فإنه أمر أن يكون أوّل من أسلم، أوّلية الأولوية في الاسلام: «قل إني أُمرت أن أكون أوّل من أسلم .. قل إني أخاف عصيت ربي عذاب يوم عظيم». «٢» فهل خالف ولم يخف؟ كلّا فإنه أوّل العابدين: «قل ان كان للرحمان ولد فأنا أوّل العابدين». «٣» وهل ينسب هكذا عصيان إلى أول العابدين؟ وكل عصيان غواية: «وعصى آدم ربه فغوى». «٤»

وقد نفيت عنه الغواية: «ماضل صاحبكم وما غوى». «٥» وكل عصيان من سلطان الشيطان: «إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلّا من اتبعك من الغاوين». «٦» .. ثم وهو

---

(١)). من قائل انه يعني ذنب أمته او شيعته، وهل من فصاحة اللفظ او بلاغة المعنى ان ينسب اللّٰهذنب أمته اليه صلى الله عليه و آله ثم يغفره بفتح مكة الذي لا صلة بينه وبين غفر الذنب.

ومن قائل ان ما تقدم ذنب أبويه آدم وحواء ببركته وما تأخر مغفرة ذنوب أمته بدعائه، وآيات عدة تنص ان اللّٰه غفر لهما قبل الفتح بألوف من السنين!

وقائل بالتقدير، ان لو كان لك ذنب قبله أو بعده لغفر اللّٰه لك.

وقائل انه دعاء له بالغفر، وهل ان اللّٰه يدعوه لعبده ان يغفر ذنبه ومن يغفر الذنوب الا اللّٰه؟!

وقائل انه ترك الاولى، والحق ان تركه وما سبقه من تأويل اولى، فانها تأويلات ردية تشوه وجه القرآن!

(٢)). سورة الأنعام ٦: ١٥

(٣)). سورة الزخرف ٤٣: ٨١

(٤)). سورة طه ٢٠: ٥٣

(٥)). سورة آل عمران ٣: ٥٣

(٦)). سورة الحجر ١٥: ٤٢

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٦٠

شهيد الشهداء يوم الدنيا ويوم الدين: «ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء» «١» وترى الخلق العظيم عند اللّه وهو إله العظمة في الخلق، هل يناسبه العصيان العظيم؟! ووحدة الذنب: (ذنبك) تلميحة أو تصريحة بوحدة العصيان- لو كان- عصيان بوحدته يشمل زمن الحياة الرسالية أو حياة الرسول صلى الله عليه و آله (ما تقدم من ذنبك وما تأخر) كائن معه عائش إياه قبل الفتح وبعده، وحتى بعد غفره له، فما هذا العصيان العظيم الذي عاشه الرسول دون استغفار، ما أعظمه وأطوله أعضله، لحد لا يغفر إلا بفتح مكة دونما أية صلة بينه وبينه؟!

ثم ولا تجد أيَّ عاص في العالمين يعيش عصياناً ولا أي خطأ ولا تركاً للأولى، فهو لغوياً في الأصل الأخذ بذَنَب الشيء، ويستعمل في كل ما يستوخم عقباه، فإن كانت هي عقبى الآخرة فشر عصيان وأعضله، أو كانت هي عقبى الدنيا فخير طاعة وأفضله، إذا كانت عقبى يستوخمها أهل الدنيا، ممن يحاربون دعاة الحق، فالرسالة الإلهية هي أخطر ذنب، إذ تستوخم عقبى الدنيا، وتجند الطاقات الشيطانية ضد صاحب الرسالة، يرصدون لخفق صوتها ومحق صيتها.

فكلما كانت الرسالة أشمل، وصاحبه أصمد وأنبل، كان ذنبها: تبعتها وعقابها في الدنيا، أشكل وأعضل، كما والحفاظ عليها، وصدّ العراقيل عنها، وغفْر ذنبها- طبعاً- أصعب وأفضل.

والرسالة الإسلامية هي أشمل الرسالات في الطول التاريخي والعرض الججغرافي، وحاملها أسمى وأنبل حملة الرسالات، وآنهاتشكل خطراً حاسماً لجذور الكفر والظغيان، مما يبعث العصاة والطغاة ان يجندوا كافة الطاقات لإماتتها في نطقها، وإماطتها وحطّها عن درجتها وفاعليتها، وقد فعلوا فعلوا، وافتعلوا ما افتعلوا، فرموه بالسحر والشعر والكهانة والجنون، وسخروا منه وممن به، وآذوه ما لم

---

(١)). سورة النحل ١٦: ٩٢

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٦١

يؤذَ أحدٌ من البنين: ضربوه وأدموه وكسروا رباعيته وحاصروه وأهليه والمؤمنين، ثم اضطروه للهجرة من عاصمة الرسالة الى ما هاجره، وإن كان أسس فيها دولة الإسلام فأصبحت مبدأ التاريخ ومنطلق الدولة.

فهل من غفرٍ لهذا الذنب، وصدٍ لهذا الطغيان، وحدٍّ لذلك البأس الدائب إلا فتح العاصمة، إذ فتحت به حصون الضلالة، فلم تبق بعد في الجزيرة أية قائمة من قوائم الشرك والإلحاد، ومن ثم انتشرت وتوسعت دولة الإسلام من عاصمتها أم القرى، الى كل القرى.

فقد كان للرسول صلى الله عليه و آله كرسول ذنب واحد، ومن ثم غفر واحد، فذنبه الوحيد رسالته العالمية الخالدة، الأكيد الوطيدة، وهي التي عاشها وعاشته «ما تقدم» على فتح مكة «وما تأخر» عن فتح مكة، لكنها كانت محظورة مخطورة قبله، فأصبحت مغفورة مستورة بعده، غفر الإزالة للتبعات ممن آمن، وغفر الستر لها لمن أسلم منافقاً ألا تظهر رغم كامنه، وغفر الجبران عما سلف من كل ما أصابه قبل الفتح ان يتناساه الرسول ويستهينه وجاه الفتح المبين.

فأصبحت هذه الرسالة محفوظة عن كيد الكائدين بذلك الفتح المبين، ذنب واحد فتحه فتح واحد، ذنب بوحدته يشمل كل ذنب: فرسالته ودعوته ودعايته وهو بجملته، كان ذنباً كله بحساب الكافرين، فأصبح الفتح المبين غفراً له كله «ما تقدم وما تأخر»: فتحاً لقوائم الإسلام الأربع: «ليغفر .. ويتم .. ويهديك .. وينصرك ..».

ومن قبل كانت تنزل عليه آيات تترى بهذا الشأن، آمرة له بالصبر: «فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم» «١» «فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت» «٢» «واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلًا» «٣» وواعدة له الحكم:

«واصبر لحكم ربك إنك بأعيننا» «۴» أو آمرة له بالاستغفار لذنبه وللمؤمنين: لرسالته الخطيرة وإيمانهم الخطير: «فاعلم أنه لا إله إلا اللّه واستغفر لذنبك وللمؤمنين

---

(١)). سورة الأحقال ۴۶: ٣۵

(٢)). سورة القلم ۶٨: ۴٨

(٣)). سورة المزمل ٧٣: ١٠

(۴)). سورة الطور ۵٢: ۴٨

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ۵۶٢

والمؤمنات واللّه يعلم متقلَّبكم ومثواكم» «١» «فاصبر إن وعد اللّه حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والابكار.» «٢»

حيث النبي والمؤمنون معه كانوا في خطر المشركين طيلة العهد بمكة، وبعد الهجرة الى فتح مكة، وقد أمر الرسول صلى الله عليه و آله ان يطلب هنا وهناك الفرج العظيم والغفر العميم، ان يذاد عنهم كوامن الشر، غفراً لهم وستراً عما كان يتهددهم بالانهيار، وقد استجاب له ربه فأنجز له وعده ونصر عبده وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده في فتح مكة، ليشيد له أركان الدعوة: (ليغفر لك اللّه ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً.

وينصرك اللّه نصراً عزيزاً» ومن ثم: (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار .. ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ...)!

وما ذنب الرسول محمد صلى الله عليه و آله هنا إلّا كذبت الرسول موسى: ذنب الرسالة وتطبيقها:

«ولهم علي ذنب فأخاف ان يقتلون» «٣» فإن قتل القبطي المشرك، المقاتل للبسطي الموحد، لم يكن ذنب العصيان في دين اللّه، وإنما في دين الطاغية فرعون، ومن عقباه في الدنيا ان عقَّب الرسالة الموسوية الى امد بعيد، إلا ان ذنب الرسالة الاسلامية عجل في تقدمها وشمولها بالفتح المبين.

فالذنب إذاً له مصداقان: أعلى الطاعة وأطغى العصيان، وإنما فاعله وقرائنه ومواصفاته، هي التي تقرر موقف الطاعة او العصيان، وموقف الرسول الرسالي، ومواصفات الآيات لهذا الرسول الألمعي، ووحدة الذنب هنا طيلة الرسالة او الحياة، ولزوم رباط وطيد بين فتح مكة وغفر ذنبه ما تقدم منه وما تأخر، آنهاعساكر اقوياء أمناء تذود عن ساحة الرسول وصمة العصيان، وتختصه بأفضل مراحل الرسالة

---

(١)). سورة محمد ۴٧: ٢٢

(٢)). سورة المؤمن ۴٠: ۵۵

(٣)). سورة الشعراء ٢۶: ١۴

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ۵۶٣

والايمان!

إن الرسول محمد صلى الله عليه و آله- كان بهذا المعنى- من أذنب الخلق، ذنب العصيان عن ميول الطغاة بما جاء في دعوته الباهظة لأهوائهم، الجاهزة لاجتثات جذورهم، الدافعة عن حوزة الإسلام، التي ارغمتهم وحطلتهم عن جبروتهم وطاغوتهم.

وما استعمال الذنب كثيراً في موارد العصيان «١» بالذي يحوله دوماً إلى العصيان، كما الانسان لو استعمل كثيراً في الأشرار، لا يحُول ذلك دون استعمالة في الأخيار، وانما يتبيع القرائن في مواردها، فيُعطى الحق في معاني هذه الألفاظ كما تعنى.

«.. ما تقدم من ذنبك وما تأخر» فما كانوا يكمنون له من قبل ومن بعد صار مبتوراً بالفتح، وما أصابوه من قبل أو أرادوه من بعد صار مجبوراً بالفتح، فأصبح الفتح له مفتاحاً محبوراً لكل فتح.

ورغم ما فسر به الجاهلون ذنبَ الرسول صلى الله عليه و آله أخذ بعد الفتح في تعبده لربه أكثر مما مضى، فلو كان هو ذنب العصيان لعكس أمر الطاعة وتساهل عنها إذ غفر له ما تأخر كما تقدم، لكنه كان يجيب السائلين: «أفلا أكون عبداً شكوراً»؟ تفسيراً لذنبه خلاف ما فسروه واستغلوه، وتبكيتاً لمن يستغل سوء التفسير ذريعة للإباحية واللامبالات، كلا فإنه صلى الله عليه و آله استفاض بعد ذلك من معين الرحمة أمعن مما مضى وأمتن، إذ «صام وصلى حتى انتفخت قدماه وتعبد حتى صار كالشن البالي فقيل له أتفعل هذا بنفسك وقد غفر اللّه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً» «٢» وليست

---

(١)). الحق أن تفسر لغات القرآن كما كانت تُعنى منها وقت النزول، حيث اللغات قد تجر معهامعاني اخرى على طول الزمن وتختلف الاستعمالات، وقد ذكر الذنب في القرآن بمختلف الصيغ ٣٧ مرة والذنب مرتين وهذا هو اصل الذنب كما عن الراغب في غريب القرآن، والاول قد يعنى منه الطاعة او المعصية وقد تعمهما، وكل حسب القرائن الدالة، وما المستعمل في العصيان هنا اكثر من غيره مهما كانت الاكثرية الساحقة تعنى العصيان في غير القرآن

(٢)). الدر المنثور ٦: ٧١- اخرج ابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات وابن عساكر عن أبي‌هريرة ان النبي صلى الله عليه و آله لما نزلت «انا فتحنا ..» صام و ..

ومن طريق اهل البيت عن الإمام الرضا عليه السلام في جوابه للمأمون إذ سأله: يابن رسول اللّه صلى الله عليه و آله! أليس من قولك ان الأنبياء معصومون؟ قال: بلى- فقال: فما معنى قول اللّه- الى ان قال- فأخبرني عن قول اللّه تعالى: «ليغفر لك اللّه ما تقدم من ذنبك وما تأخر»؟ قال الرضا: عليه السلام لم يكن احد عند مشركي مكة أعظم ذنباً من رسول اللّه صلى الله عليه و آله لأنهم كانوا يعبدون من دون اللّه ثلاثمائة وستين صنماً فلما جاءهم بالدعوة الى كلمة الاخلاص كبر ذلك عليهم وعظم وقالوا اجعل الإلهة إلهاً واحداً ... فلما فتح اللّه على نبيه مكة قال له محمد! «انا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك اللّه ما تقدم من ذنبك وما تأخر» عند مشركي أهل مكة بدعاءك توحيد اللّه فيما تقدم وما تأخر، لأن مشركي مكة أسلم بعضهم وخرج بعضهم عن مكة ومن بقي منهم لم يقدر على انكار التوحيد اذا دعى الناس اله، فصار ذنبه عندهم في ذلك مغفوراً بظهوره عليهم فقال المؤمون: للّهدرك يا أبا الحسن عليه السلام!

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‌٧، ص: ٥٦٤

شاكرية العبد في عبادته بالتي تجعله كالشن البالي ومتورم القدمين، لو كان غفر ما تأخر من ذنبه، عفواً عن مطلق عصيانه، كضمان له فينا يأتي كما ضمن ما مضى، إلا عند من غرب عقله وعزب لبّه! .. وإنما زاد في شكره لربه لنعمة الفتح المبين.

وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وهذه هي الدعامة الثانية لعرش الدولة الإسلامية: «إتمام النعمة» فإن النعمة ابتدأأت بالإسلام منذ بزوغه، ولكنها كانت سجالًا: خليطة بالغُمة للأمة والنقمة لرسول الأمة، إذ كانت الغوائل من هنا وهناك تترى عليه وعليهم تباعاً تلو بعض، وإن كانت في المدينة أقل.

إنه كان نعمة التأليف والواحدة فأكملت بفتح مكة الذي وحد الجزيرة عن آخرهم ثم إلى غيرها: «واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً». «١»

وكان نعمة الغلبة أحياناً وسجالًا فأصبحت الآن تامة لا تفسح لأحد كجاًلا في حربهم: «اذكر نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم» «٢» وأما الآن فلا ايدي معادية تبسط او تهم، إذ قطعت بفتح مكة، ومن قبل كانت تهم وتبسط، وان كانت تكف بجنود آلهية غير مرئية أم ماذا: «اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً. إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر

---

(١)). سورة آل عمران ٣: ١٠٣

(٢)). سورة المائدة ٥: ١١

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٦٥

وتظنون بالله الظنونا» «١» كما كان يوم الأحزاب.

وأخيراً اكمال أحكامياً، وتخليداً للدولة الإسلامية بتأييد زعامة سليمة تقطع طموح من كانوا يتحينون فرصة الانقلاب بموت الرسول، تخليدها بذلك الإنتصاب الكبير يوم الغدير، راجعاً عن حجة الوداع: «.. اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون. اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ...» «٢» اكمالا في جانبي الشريعة وزعامتها الخالدة، فيأساً للذين كفروا من إفنائها أو اغتصاب واحتلال زعامتها، اللهم إلا تدخلا جانبياً لا يجتثها من جذورها، إلا أن يخرجوا عن الدين، ولكنه مدعهم بهاتين الدعامتين مهما تركته حملته، فبناية الدعوة مدعمة بما يضمن بقاءها كما فعل الله، ولكنها لا تضمن إلا لمن تضمنها كما أراد الله، ثم تتهدم في نفوس صغار لا يتضمنونها، وهي باقية في كتاب الدعوة، في ضمير الكون وعمقه! مجالًا واسعاً لمن يتحملون ويتضمنون: تطبيقاً لها بزعامتها السلمية كما بدأت بالبشير النذير، وكما تخلدت يوم الغدير.

وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً كدعامة ثالثة لعرش الرسالة، وترى أن صاحب الرسالة لم يكن على صراط مستقيم منذ الدعوة إلى ثامنة الهجرة التي فيها فتحت مكة، ومن ثم اهتدى إلى صراط مستقيم؟!، وهو أول معتصم بالله «ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم» «٣» وهو أفضل مهدي إلى صراط مستقيم طول الرسالة: «قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيما ملة إبراهيم ..» «٤» بل وهو على صراط مستقيم محيطاً عليه لزاماً به: «والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم» «٥»

---

(١)). سورة الأحزاب ٣٣: ١٠

(٢)). سورة المائدة ٥: ٣

(٣)). سورة آل عمران ٣: ١٠١

(٤)). سورة الأنعام ٦: ١٦١

(٥)). سورة يس ٣٦: ٤

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٦٦

كيف لا «إنك لتهدي إلى صراط مستقيم». «١»

في الحق إن الصراط المستقيم له درجات وجنبات، فأولى الدجات هداية الدلالة له وقد هدي صاحب هذه الرسالة منذ البدء، وقبل الرسالة كان مهدياً إليه خاصاً لنفسه حتى تهيأ للعالمين، ثم الهداية الثانية هي الإستمرار عليه مستزيداً فيه بعصمة إلهية، بعد محاولات بشرية ورسولية، وهو دوماً دون انقطاع بحاجة ماسة إلى هذه العصمة،:

«ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلًا» «٢» وهذه الدرجة هي التي يطلبها هو والمؤمنون- على درجته ودرجاتهم- في صلواتهم ليل نهار: «اهدنا الصراط المستقيم» ثبتنا وأدم لنا توفيقك، فلو شاء اللّه لذهب بالذي أوحى إليه فإنه ليس لزاماً للرب إلا بما كتب على نفسه الرحمة: «ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلًا. إلا رحمة من ربك إن فضله كان عليك كبيراً». «٣»

هذا- ولكنما الدرجة هذه لا تختص بما بعد الفتح، فإنه مهدي بها على طول الخط، فإنما الإختلاف قبل الفتح في الجنبات لا الدرجات: صراطاً مستقيماً للداعية في الدعوة، حيث أزيلت الشبكات والأشواك والعقبات عن ريقها بفتح مكة، وصراطاً مستقيماً لتقبل الدعوة الإسلامية، حيث الفتح سبيلًا واسعاً لمن كانوا في شك من صاحب الدعوة، وصراطاً مستقيماً في تكميل الدين وإتمام النعمة وكما حصل بفتح مكة، وصراطاً مستقيماً في العبادة وتطبيق الشريعة إذ زالت عنهم التقية، وانقلبت على المشركين، إذ أسلم كثير منهم، مهما نافق آخرون عائشين تحت الرقابة الإسلامية ورايتها ورعايتها.

وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً كدعامة رابعة لهذه الدولة السامية، نصراً في كافة الميادين، وإلا فإنه والنبيون معه منصورون: «ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين

---

(١)). سورة الشورى ٤٢: ٥٢

(٢)). سورة الأسراء ١٧: ٧٤

(٣)). سورة الأسرى ١٧: ٨٧

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٥٦٧

إنهم لهم المنصورون. وان جندنا لهم الغالبون» «١» لا هم فحسب، بل والمؤمنون أيضاً، ولا في الآخرة فحسب بل في الأولى أيضاً:

«إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد» «٢»

هذا- ولكنما النصر الموعود عزيز، مهما كان سواه له ولسواه سجالًا قبل الفتح: قد يَغلبون وقد يُغلبون هنا في الأولى، مهما كانوا غالبين معنى وفي الآخرة، فكل نصر لكل منصور قبل الفتح المبين كان عضالًا وسجالًا فيه مجال قل أو كثر لأطراف النضال، وأما بعد الفتح فنصر عزيز يتغلب كافة الحركاتِ المضادة في الجزيرة وحولها زمن الرسول، والزمن التي كانت الدولة الإسلامية- أو تكون- ناحية منحى الرسول، اللهم إلا في فيما شذت عنه فتشذ عن النصر العزيز ولحد قد يتغلب العدو الكافر المستعمر فلا نصر فضلًا عن العزيز ف (إن تنصروا اللّه ينصركم ويثبت أقدامكم).

---

(١) سورة الصافات ٣٧: ١٧٢
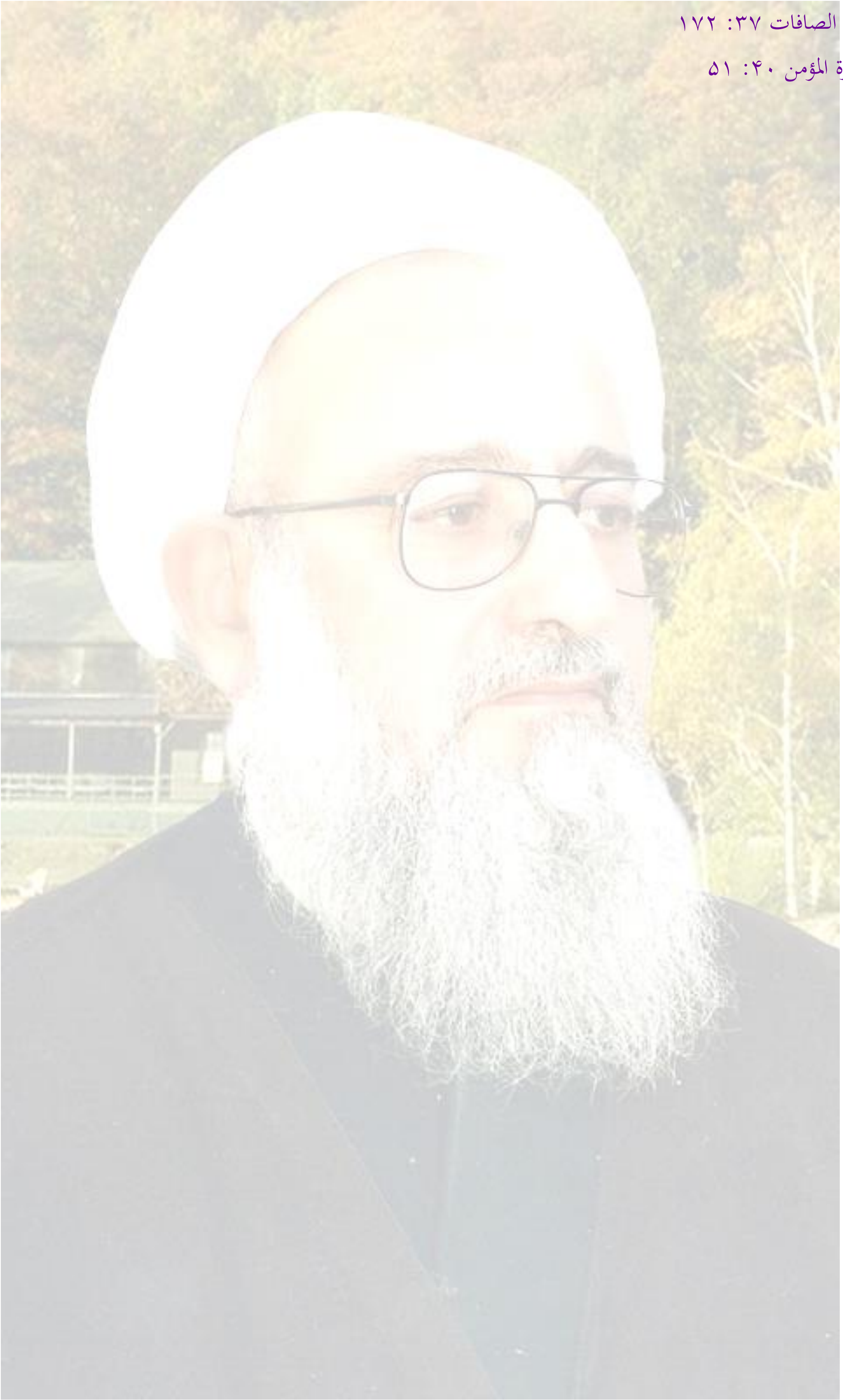
(٢). سورة المؤمن ٤٠: ٥١